

مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار
لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة
كامل سلمان الجبوري

حققه هذا السفر
مهدي النجم

الجزء الثاني عشر

كتاب الإنشاء المشارقة



http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : **MASĀLIK AL-ʾABṢĀR FĪ MAMĀLIK AL-ʾAMṢĀR**	**الكتاب** : **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**
Classification: Lexicons	**التصنيف** : موسوعات
Author : Šahābuddīn Ibn faḍlullah al-ʿUmari	**المؤلف** : شهاب الدين ابن فضل الله العمري
Editor : Kāmil Salmān al-Jubūri and: Mahdi al-Najm	**المحقق** : كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	**الناشر** : دار الكتب العلميـــة - بيروت
Pages : 10240 (15 Volumes)	**عدد الصفحات** : 10240 (27 جزءاً في 15 مجلداً)
Size : 17*24	**قياس الصفحات**: 24*17
Year : 2010	**سنة الطباعة** : 2010
Printed in : Lebanon	**بلد الطباعة** : لبنـــان
Edition : 1st	**الطبعة** : الأولى





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فهذا السفر الثاني عشر من موسوعة ابن فضل الله العمري.

(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)

التي أرخّ فيها الحضارة الإسلامية عبر سبعة قرون، وقد قصر هذا الجزء على كتّاب الدواوين في شرق الدولة الإسلامية. وقد بدأه بتعريف كتابة الإنشاء من بدايته أيام الدولة العباسية حين كانت منوطة بالوزراء (ثم أفردت واستقل بها كتّاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة) وقسمهم إلى قسمين.

القسم الأول، ومنهم عبد الحميد وابن العميد، والصاحب بن عباد، قال: وهم وإن كانوا من مشاهير الكتّاب فإنهم بعداء من الغوص وحسن التوكيد والاختراع، وأشار إلى أنه قدم تراجمهم مع الوزراء.

وترجم لمن جعلهم في القسم الثاني (من أصحاب الغوص، وأكثر ما تجد ذلك للمتأخرين).

وطريقته أن يورد تعريفاً بالكاتب بأسلوب أدبي جميل مسجّع، وربما متكلّف في بعض الأحيان، ثم يورد له مختارات من نثره تكثر أو تقل حسب أهميته. كما يختار شيئاً من شعره. وقد تفرد هذا الجزء بتسجيل مختارات نثرية وشعرية جديدة لم نجدها في مصادر تراثنا الأدبي الأخرى، مما يجعل لهذا الجزء أهمية خاصة.

اعتمدت في تحقيق هذا الجزء على النسخة التي نشرها الدكتور فؤاد سزكين عن الأصل المخطوط في المكتبة السليمانية باستانبول ـ أياصوفيا المرقمة ٣٤٢٥، وهي نسخة تامة ليس فيها حذف أو بياضات، كتبت بقلم واحد وبخط واضح مقروء إلا أنها قليلة الاعجام، ويبدو أن الناسخ كان غير ضليع بقواعد اللغة ومتعجلاً، فكان يرسم بعض الكلمات دون إدراك معانيها، ولربما أعجمت بعض الكلمات على غير

هدى، وقد حاولت أن أضبط النص على النسخة الأخرى التي نقل عنها المؤلف أو نقلت عنه، إلا أني وجدت أكثر نصوصه جديدة لم أقع عليها في مصدر آخر، مما يدفع المحقق إلى تقليب الكلمة ليقع على المعنى المناسب مع السجعة أو السياق.

ولعجلة الناسخ فقد سقطت كلمات كثيرة مما تسبب في غموض المعنى في كثير من الجمل، وعلى المحقق أن يقترح لفظاً بديلاً أو كلمة مناسبة يقتضيها السياق أو يستقيم بها الوزن إذا كان النص شعراً.

وفي دار الكتب المصرية نسخة أخرى برقم ٢٥٦٨ لم أطلع عليها أثناء التحقيق.

ولكني أرجو أن أكون قد وفيت هذا الجزء حقه من متطلبات التحقيق العلمي، فقد حاولت أن اضبط النص وأترجم للأعلام والمواضع والمصطلحات ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأشير إلى مصادر التعريف والترجمة ما استطعت.

والحمد لله رب العالمين.

٢٠ محرم ١٤٢٥هـ **مهدي ع . الحسين النجم**

١١/٣/٢٠٠٤م **المسيب ـ العراق**


الجزء الثاني عشر

صفحة العنوان ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ المكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم * على الله توكلت *

الصفحة الأولى ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ المكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤٢٥

وهذا آخر من ختمنا به اهل قطرنا احياءً واموانا ولا حيله
من تخطينا به اذ كان هؤلاء اعيان القوم من اول هذه المله والى
اليوم ممن اشتهر لعلو قدره او لعلو دينه وتمتعنا بما طوائح احد هذين
ولا كانوا في قسيمها اللذين وهذه جمله كافيه في الكتاب
المشارقه وانما اطلعنا من نجومهم شارقة وهى داله على ما بعدها من
نهار مطنب في الخافقين ويطنب ملأ الى النيرين الشارقين
آخر السفر الثاني عشر من مسالك الابصار
في ممالك الامصار ويتلوه ان شاء الله تعالى في السفر
الثالث عشر فاما الكتاب المغاربه ومالهم من نجوم تنير غيرها
الحمد لله رب العالمين والصلاه والسلام على سيدنا محمد
خاتم النبيين وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين
حسبنا الله ونعم الوكيل
تم

الصفحة الأخيرة - مخطوطة أيا صوفيا - المكتبة السليمانية - استانبول رقم ٣٤٢٥



/٢/ بسم الله الرحمن الرحيم

على الله توكلت

ثم كانت وزراء وكتّاب مع مَنْ سمّينا، وبعدهم في خدمة الخلفاء والملوك ممّن لم يرض البرق شرارةً من زنادِهِ، ولا العنبر الهندي مدةً لمداده، طالما غدا الهلال لَقَلَمِهِ قُلامة، وكان الأُفقُ لزهره كمامة، ومدّ الصباح له صحيفة، والقى بالرماح لقضيته في كفه نحيفة، وحصل لهم من النعم ما فاضَ فضلُه، ومِنَ النقم ما أعْيَتْ عضله، وسنأتي منهم على الغرض، فمنهم مَنْ نذكره لاشتهار اسمه، ومنهم مَنْ نذكره باستحقاقه، ثم هؤلاء على قسمين:

قسم اشتهر للاكثار، ولا يتعدّى طبقة المقبول.

وقسمٌ منهم أصحاب الغوص، وأكثر ما تجدُ ذلك للمتأخرين، فقد أبدعوا في استخراج المعاني وتوليدها.

وقبل ذكرهم نقول: إن كتابة الانشاء كانت في المشرق في خلافة بني العباس منوطة بالوزراء، وربما انفرد بها رجلٌ. وذكر ابن عبدوس[1] في مواضع من كتابِهِ ديوان السرّ وديوان الترسّل: ثم كانت آخر وقت قد أُفردت، واستقلّ بها كتّاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة، وكان في المشرق يسمّى كاتب الإنشاء، ثم لما كثر عددهم سمّي رئيسهم، رئيس ديوان الانشاء، ثم بقي يطلق عليه تارة صاحب ديوان الانشاء، وتارةً كاتب السرّ، وهي إليّ أحب، وعندي أنْبَهُ، وعند الناس أدلّ. وكان في دول السلاجقة وملوك الشرق يسمى ديوان الطغراوية، وبه سمي مؤيد الدين الطغرائي[2]، والطغراء

---

(١) محمد بن عبدوس بن عبد الله الجهشياري، صاحب كتاب الوزراء والكتاب، كان حاجباً بين يدي الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح، مات مستتراً سنة ٣٣١هـ. انظر: الوافي بالوفيات ٣/ ٢٠٥ والفهرست ص١٩٠.

(٢) أبو إسماعيل، مؤيد الدين، الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، الأصبهاني، المنشىء المعروف بالطغرائي، شاعر اشتهر من شعره لاميته المسماة لامية العجم، قتل سنة ٥١٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ٢/ ١٨٥. وللدكتور جواد علي الطاهر كتاب عنه (بغداد ١٩٦٣) وجمع مع الدكتور يحيى الجبوري شعره ونشراه في بغداد، وستأتي ترجمته.

هي الطرّة، وهي التي تكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، يتضمّن ألقاب الملك، وهي لفظة أعجمية، وكانت تقوم مقام خط السلطان بيدِهِ على المناشير والكتب، ويستغنى بذلك عن أن يكون للسلطان علامةً بخطّه لكثرة الوثوق بصاحب هذه الرتبة.

وأهل المغرب يسمّون[١] رئيس ديوان الانشاء صاحب القلم الأعلى، وأهلُ هذِهِ الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والقرب أكثر من كلّ عام وخاص. يحتاج الأمراء إلى /٣/ مداراتهم، وتقصر الوزراء مع علو رتبة الوزارة عن مراتبهم، يجتمعون بالملك إذا أرادوا على عدد الانفاس، وهم معنى الدولة، وعليهم عولة كل الناس، وآخر ماكانت الملوك لا تكاتب الخلفاء ببغداد إلا إلى هذا الديوان، أعني ديوان الانشاء؛ وكانت تسمّيه الديوان العزيز، ولهذا كانت كتبهم تستفتح: ادام الله أيام الديوان العزيز إشارةً إلى ديوان الإنشاء؛ لأن الكتب كانت إليه، والمخاطبة له، وهو المراد بقولهم فيما يوجد في التواريخ وكتب الإنشاء والترسّل: الديوان العزيز، وعليه كان يطلق هذا الاسم، وله بهذا من الشرف ما لَهُ، ومن الفخر مايجرُّ على السماء أذْيالَهُ.

وقد آن أن نذكر من القسمين مَنْ يُذكر:

* * *

(١) الأصل: يسمّي.

فأما القسم الأوّل:

فمنهم: عبد الحميد[1]، وابن العميد[2]، والصاحب بن عباد[3]، وهم إن كانوا من مشاهير الكتاب، فإنهم بُعَداء من الغوص وحسن التوكيد والاختراع، وقد قدّمنا في تراجمهم مع الوزراء عنوان قولهم، ومبلغ طولهم.

[١]

[أبو إسحاق الصابي]

وأما أبو إسحاق[4]، فهو الصابي وإن كان منهم، وفي طبقته غير بعيد عنهم،

(١) عبد الحميد الكاتب بن يحيى بن سعد، مولى بني عامر بن لؤي بن غالب، الكاتب البليغ المشهور، وبه يضرب المثل في البلاغة حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل، أصله من الشام وكان أولاً معلم صبية، ثم صار كاتبًا لمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، وقتل معه سنة ١٣٢هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٨ وثمار القلوب ١٩٦ وصبح الأعشى ١/٠ ١٩٥ والفهرست ص١٧٦.

(٢) أبو الفضل محمد بن الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، والعميد أبوه، من الكتاب المترسلين الشعراء العلماء، ووزر لركن الدولة البويهي سنة ٣٢٨هـ، ومدحه شعراء كبار مثل المتنبي والصاحب بن عباد، توفي ببغداد وقيل بالري سنة ٣٦٠هـ. انظر: وفيات الأعيان ٥/ ١٠٣ ويتيمة الدهر ٣/ ١٥٨ ومعاهد التنصيص ٢/ ١١٥ والشذرات ٣/ ٣١.

(٣) الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني، وزير، من الكتاب الشعراء المصنفين، أخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوي، صحب ابن العميد، فسمي بالصاحب، ووزر لمؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهي ثم لأخيه فخر الدولة أبي الحسن علي، واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره من الوزراء، وصنف كتباً كثيرة، توفي بالري سنة ٣٨٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ١/ ٢٢٨ ويتيمة الدهر ٣/ ١٩٢ ومعجم الأدباء ٦/ ١٨٦ وبغية الوعاة ١٩٦ وألّف فيه الشيخ محمد حسن آل ياسين كتاباً ونشر بعضاً من كتبه.

(٤) أبو إسحاق الصابي، إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبّون الحراني، الصابيء، من الكتاب المترسلين، الشعراء. كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدين بختيار البويهي، وتقلد ديوان الرسائل، ولما ملك عضد الدولة بغداد اعتقله، ثم أطلقه وأمره أن يضع كتاباً في أخبار البويهيين، فألّف كتابه (التاجي) وكانت له مع الشريف الرضي مراسلات، نشرها الدكتور محمد يوسف نجم (الكويت ١٩٦١)، توفى سنة ٣٨٤هـ ببغداد. انظر: وفيات الأعيان ١/ ٥٢ ومعجم الأدباء =

ولكنّه جوّال الذكر في الكتاب، مشهور شهرة [الشمس][(١)] في يوم الصحو، تكلّم وما تكلّف، وتقدّم ومن قبله تخلّف، جرى على سجيته في الطباع، ودعا عاصي البيان فأطاع، ولم يقف مع السجع يرسف في قيوده، ويكلّف فكره فوق قدرته. فجاء بالعاطل [و] بالحالي، وتقدّم على أهل العَصرِ الخالي. وكان حلو الجنى، عذب المشارع، لايرنّق مورده، ولا يُطْفأ موقده، وهو في الكتاب بمنزله امرىء القيس في الشعراء، أمام القوم وحامل لوائهم، وكان يحفظ القرآن الكريم، وينتزع منه الآيات، ويستشهد بها، وكانت بينه وبين الشريف الرضي[(٢)] صداقة مؤكّدة، ورثاه لما مات برثاءٍ اسمع الخافقين، وطلع في المغربين والمشرقين، وأوله:

أرايت مَنْ حملوا على الأعواد
أرأيت كيف خبا ضياء النادي[(٣)]

/ ٤/ فاسمع بهذا الرثاء ماأعظمه وأفخمه، ولا سيما من مثل هذا الشريف القائل، واسْتَدِلَّ به على ما لهذا الرجل من الفضائل، عودٌ عبق أرَجُهُ وهو حَطَب، (ودي)[(٤)] رقى المنبر فضلُه وخطب، عَقَدَ ندُّهُ سماءً من دخان، وأدار مُداماً مِن دِنان، وكتب (دنه)[(٥)] عن الملوك البويهية، قرارٌ بأولئك القساوِر، وزار النجوم وسَلَب الأهلّة الأساور. فضرب النحر بالاسداد، وكايل البحور بالأمداد، وأبدع عجبا، وأبْعَدَ فساكن عجما وجاوَرَ عربا، وتوفي سنة اربع وثمانين وثلاث مئة.

ومما له قوله:

«له يَدٌ برعت في الجود بنانُها، ونَظَم الدرَّ بيانُها، فحاتم[(٦)] كامِنٌ في بطْنِ راحتها، وسحبان[(٧)] مستترٌ بنمارق فصاحتها، فلها يد في كل يد، ومنّة في كل عنق،

= ٢/ ٢٠ ويتيمة الدهر ٢/ ٢٤٣ والفهرست ص١٩٩ والوافي ٦/ ١٥٨.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي، الشاعر المشهور المتوفى سنة ٤٠٦هـ، وأخباره كثيرة جداً وكتب عنه كثيرون.

(٣) ديوانه ١/ ٢٩٤ وفيه: أعلمت من حملوا....

(٤) كذا وردت في الأصل، ولعلها: وذمي.

(٥) كذا رسمت في الأصل.

(٦) حاتم بن عبد الله بن الحشرج الطائي، الذي يضرب بجودهِ المثل.

(٧) سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، جاهلي، أدرك الإسلام فأسلم ولم يجتمع بالنبي ﷺ وأقام في دمشق أيام معاوية، كان يضرب به المثل في البيان. انظر: خزانة الأدب للبغدادي ١/ ١٦٧ والإصابة (ترجمة ٣٦٥٨) شك في إدراكه الإسلام، والأعلام ٣/ ٧٩.

وقرطٌ في كل اذن، وسمطٌ في كل (مهرق)[١] لها في كل يوم مزيد، وعبد الحميد عبد الحميد.

وقوله:

من عهد لقاض[٢]. وأمره إن ورد عليه أمر يعييه فصله، ويَشْتَبِهُ عليه وحكم الحكم فيه أن يردّهُ إلى كتاب الله عز وجل ويطلب فيه سبيل المخلص منه، فإن وَجَدَهُ وإلاّ في الأثر عن رسول الله ﷺ، فإن أدركه، وإلاّ استفتى فيه من قبله من ذوي الفقه والفهم، وأهلِ الدرايةِ والعلم، فما زال الأئمة والحكام والسلفُ الصالح وطريق التسنّن الواضح يستفتي واحدٌ منهم واحداً، ويسترشدُ بعضُهم بعضاً، لزُوماً للاجتهاد، وطَلَباً للصواب، وتحرّزاً من الغلط، وتوقّياً من الشَّطَط، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٣]. وأن لاينقض حُكماً حَكَمَ به من كان قبله، ولا يَفْسَخُ عَقْدَ مَنْ تَقَدَّمَه، وأن يَعْمَل عليه ولا يعدل عنه ماكان داخلاً في إجماع المسلمن وسائغاً في أوضاع الدين. فإن خَرَج عن الإجماع، أوْضَحَ الحال فيه لمن بحضرته من الفقهاء والعلماء حتى يصيروا مِثْلَهُ في إنْكارِهِ، ويجمعوا مَعَهُ على ردِّهِ، وحينئذٍ /٥/ ينقضَهُ نقضاً يشيعُ ويذيعُ ويصير به الأمر [إلى] واجبه ويعود معه الحقُ إلى نصابه. قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[٤].

[وقوله في رحلة صيد][٥]:

واعتمدت في الصيد على من يحضرني من أوليائه، على قوّةِ أبدانهم ونشاطها، ورياضة خيلهم وانبساطها، والزمان ساقطةٌ جماره، مفعمةٌ أنهارُهُ، ونَحْنُ غبّ سحاب أقلَعَ بَعْدَ الارتواء، وأقشَعَ عند الاستغناء، والرياضُ زاهيةٌ بحمرائها وصفرائها، تائهةٌ بعوانها وعذرائها، وما نردُ منها حديقة إلاّ استوقفتنا نضارتُها واستنزلتنا غضارتها، وخيلنا تشتاق الصيد[٦] وهي لا تطعمه، وتحنُّ إليه كأنها تقضمُهُ[٧]، وعلى أيدينا

---

(١) المهرق: الصحيفة.

(٢) المختار من رسائل الصابي ص١٦٨ وفيه: إنها من عهد الطائع لله العباسي إلى أبي الحسين محمد بن عبيد الله بن محمد بن معروف.

(٣) سورة النساء: ٥٩. (٤) سورة المائدة: ٤٧.

(٥) موضع العبارة بياض في الأصل وبعضها في معاهد التنصيص ٢/ ٦٥ ويتيمة الدهر ٢/ ٢٥٤.

(٦) في اليتيمة: وخيلنا كالأمواج المترفقة، والأطواد الموثقة، متشوقة عاطية، مسبقة جارية، تشتاق الصيد....

(٧) في معاهد التنصيص واليتيمة: كأنه قضيمٌ تقضمه.

جوارح مؤلّلة المخالب والمناسر، مذربة النصال [و] الخناجر(١)، سابغة الأذناب، كريمة الانتساب(٢)، إذْ وردنا ماءً زرقاً جمامه، طامية ارجاؤه، يَبُوحُ بأسرارِهِ صفاؤه، ويَلُوح في قرارِهِ حصباؤه، وأفانين الطير به محدقة، وغرائبهُ عليه محلِّقة(٣)، متغايرةُ الألوان والصفات، مختلفة اللغات والأصوات(٤)، فلمّا أقبلنا(٥) عليها، ارسلنا الجوارح كأنّها رُسُل المنايا، أو سهام القضايا فلم يُسمع إلا مسمّياً. ولم نَرَ إلا مذكياً، وانطلقنا بعد ذلك نعتام في الطير ونتخيَّر، ونقترح ونتحكّم فاخْتَطَفْنا ببزاتنا ما طار منه وانتشر، وأخذنا بجوارحنا ما لاح منها واستتر، واهتدت إليها، تستدلُّ عليها بالشميم، وتهتدي إليها بالنسيم، فلم يفتنا ما بَرَزَ، ولا سلم منّا ما احترز. ثم عَدَلنا من مطاير الحمام(٦) إلى مسارحِ الآرام، وأمامنا أدِلّةٌ فرهة يهتدون، وروّاد مَهَرَةٌ يرشدون، حتى أفضينا إلى اسرابِ كثيرة العدد، متصلة المدد لاهية بأطلائها، راتعة في أكلائها، ومعنا فهود أخطف من البروق، وألْقَف من الليوث، وأجدى من الغيوث، وأمكن من الثعالب، وأدبّ من العقارب، وأنزى من الجنادب، خُمصُ البطون، رقش المتون. خزر الأحداق، هُرْتُ الأشداق، غُلْبُ الرقاب، كاشرة عن أنياب كالحراب /٦/ تَلْحَظُ الظباء من أبعد غاياتها، وتعرف حسَّها من أقصى نهاياتها، فأقبلنا من تجاه الريح عليها، وأغذَذْنا(٧) نحوها وإليها، ثم وثبنا لها الضَّراء، وشنّنا عليها الغارة الشعواء، وأرْسَلْنا فُهودنا، وَجرَتْ خيلنا في آثارها، كاسعةً لأذنابها، فألقينا كلاً منها على ظبيٍ قد افترشَهُ وصَرَعه فعجعجه(٨)، وأوْغلنا من بعد في اللحاق وقصّ آثار ما ندّ وبَعُد، وقد انتهت النوبة إلى الكلاب والصقور، ومعنا منها كلّ عريق المناسب، نجيح المكاسب، حلو الشمائل، نجيب المخايل، أغضف(٩) الأذنين أسيل الخدّين، أبيّ النفس، ملتهب الشدّ لا يَمسّ الأرض إلا تحليلا وإيماء ولا يطاها إلاّ إشارة وإيحاء، وكل صقر ماضٍ كالحسام. قاضٍ

(١) بعده في معاهد التنصيص واليتيمة: طامحة الألفاظ والمناظر، بعيدة المرامي والمطارح، ذكية القلوب والنفوس، قليلة القطوب والعبوس.
(٢) بعده في المعاهد: صلبة الأعواد، قوية الأوصال، تزيد إذا طعمت شرهاً وقرماً، وتتضاعف إذا شبعت كلماً ونهماً، فبينا نحن سائرون. وفي الطلب ممعنون.
(٣) في المعاهد، واقعة.
(٤) بعده في المعاهد واليتيمة: فمن صريح خلص وتهذب نوعه، ومن مشرب تهجن أو أقرف عَرْقُهُ.
(٥) في المعاهد: أوفينا. (٦) في المعاهد: مطارح الخيام.
(٧) في الأصل: أعددنا. (٨) عجعج: رفع صوته.
(٩) الأغضف من الكلاب: المنكسر أعلى أذنيه (القاموس).

كالحمام، مُشتطٌّ في مطالِبه، خفيف النهضة في مآربهِ، سريع الوثبة فيما يريد، ثقيل الوطأة على ما يصيد. فما لبثنا أن أشرفنا على يعافير[١] متطرفة، ويحامير[٢] متعرفة فخرطنا القلائد والشناقات، فمرّت متوافقاتٍ مترافقات، قد تباينت في الصور والأجناس، وتألّفَتَ في الإرشاد والالتماس. فسبقت الصقور إليها ضاربة وجوهها عاكسةً رؤوسها، ولحقت الكلاب بها، مُنْشبة فيها، مدميةً لها، فبادرناها مجهزين، وغنمناها فائزين، ثم أخذنا في صيد مايقرب ويخف، وتحصيل ما يلوح ويستدفّ، فلاح لنا قنبر فأطلقنا عليه (بؤبؤا)[٣] فغاب عن الأبصار، واحتجبا عن الأنصار، وصار كالغيب المرجّم، والظنّ المتوهّم، ثم [خطفه][٤] ووقع به وهما كهيأة الطير الواحد، وعُدْنا وفي حبائلنا الصيد والصائد، ورجعنا والشمس مصبوبة للغروب، مؤذنة بالمغيب، والجوّ في أطمارٍ مبهجة في أصائلِهِ، وشفوف مورّسة مِنْ غلائلِهِ، فالله ينظر مولانا في دقيق الأغراض وجليلها، ويقضي له بالظفر في جسيم المطالب وضئيلها.

[فصل من رسالة في وصف الرمي عن قسي البندق][٥]

مآرب الناس /٧/ منزلة بحسبِ قربِها[٦]، وأولاها بأن يعتدَّهُ الخاصة ملعباً[٧] والعامّة مكسباً[٨]، الصيد الذي هو رائض الأبدان[٩]، وجامع الشمل والاخوان[١٠]، ولما كانت الجوارح المثمنة ليست لكل الناس ممكنة، بل لمن عَظُمَ شأنه وحالُهُ، وجمَّ نشبُهُ ومالُهُ، جعلتُ القول مقصوراً على قسيّ البندق التي لاتتعذر على مكثرٍ ولا

---

(١) اليعفور: الخِشْف، وولد البقرة الوحشية أيضاً.

(٢) اليحامير، وأحدها يحمور، دابة وحشية نافرة لها قرنان كأنهما منشاران (حياة الحيوان ٢/ ٤٣٤).

(٣) البؤبؤ: من جوارح الطير، يشبه الباشق (حياة الحيوان ٢/ ٤٣٣).

(٤) في الأصل: حفظه.

(٥) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات. والعنوان عن يتيمة الدهر ٢/ ٢٥٦.

(٦) بعده في اليتيمة: من هزل وجد، ومرتبة على قدر استحقاقها من ذم أو حمد، وإذا وقع التأمل لها والتدبر بها، وجد اولاها.

(٧) في اليتيمة: نزهة وملعباً.

(٨) في اليتيمة: حرفة ومكتسباً.

(٩) في اليتيمة: الصيد الذي فاتحته طلاب لذة ونظر، وخاتمته حصول مغنم وظفر، وقد اشتركت الملوك والسوقة في استجماله، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله، نطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه، وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه، وهو رائض للأبدان...

(١٠) بعدها في اليتيمة: وداع إلى اتصال العشرة منهم والصحبة، وموجب لاستحكام الألفة لبينهم والمحبة وبه ينتهي نقل اليتيمة من الرسالة.

مملق، وأنا اكتفي بترغيب من كان عنه منحرفاً، وتثبيت من كان إليه متشوِّفًا، بوصف موقف منه شهدتهُ في بعض ظواهر مدينة السلام، وهناك غيضةٌ ذات ماءٍ أزْرَق، وشجر مرجحنّ[١] مورق، فبينا أنا مائل فيها ومتنزهٌ في نواحيها، وقد تاوّدَتْ في حُلل الورود شجراؤها، وتفاوحت بروائح المسك أنواؤها، إذْ أقْبَلَتْ قبل الذرور والشروق وشمرت عن الاذرع والسوق مقلدين خرائط تحمل من البندق الموزون الملوم ماهو في الصحة والاستدارة كاللؤلؤ المنظوم، كأنما خرط بالجمر فجاء كبنان الفهر وقد اختير طينه، وملك عجينه، كافلٌ مطاعم حامليه، محقّق لآمالِ آمليهِ، ضامِنٌ لِحمامِ الحَمام، متناولٌ لها من أبعد مرام، يعرج إليها وهو سمٌّ ناقع، ويهبطُ إليهم وهو رزقٌ نافع، وبأيديهم قسيٌّ مكسوة[٢] بأغشية السندس، مشتملة منها بأفخر ملبس. مثل الكماة في جواشنها[٣] ودروعها، والجياد في جِلالها وقطوعها، حتى إذا جُرّدت مِنْ تلك المطارف، وانتضيت من تلك الملاحف، رأيتُ منها قدوداً مخطفة رشيقة، وألواناً معجبة أنيقة، صلبة المكاسر والمعاجم، نجيبة المنابت والمناجم، خطّية الانتماء والمناسب، سمهريّة الاعتزاء والمناصب، تركبت من شظايا الرماح الزاغبية، وقرون الأوعال الجبلية، قد تحنّت تحني النسّاك. وصالت صيال الفتّاك. ظواهرها صفر وارسة، ودواخلها سود دامسة. كأن شمس أصيل طلعت [في] متونها، أو جنح ليل اعتكر في /٨/ بطونها، أو زعفرانٌ جرى فوق مناكبها، أو غالية جمدت على ترائبها، أو ثني قضبان فضة اذهب بعضها واحترق شطر، أو حبّات رملٍ اعتنقت السود منها والصفر. فلمّا توسّطوا تلك الروضة، وانتشروا على اكناف تلك الغيضة، وثبتت للرمي أقدامهم، وشَخَصَتْ إلى الطير أبصارهم، وتروها بكلّ وتر فوّق سهمه. وافق انقضّ نجمه، مضاعف عليها من وترين، كأنه بروح ذو جسدين، في وسط تسريحة كيس مختوم أو سرة بطن مهضوم، كأنها متخازرٌ ينظر شزرا، أو مصغٍ يتسمّع نزرا، تصيب قلوب الطير بالأنباض، وتصيب منها مواقع الأعراض، فلم يزل القوم يرمون ويصيبون. وينجحون ولا يخيبون، حتى خَلَتْ من البندق خرائطهم. وامتلأت بالصيد حقائبهم. فكم عارضت الطير فكسرت اجنحتها وجآجيها، واستطارت في الجوّ قوادمها وخوافيها، تعاجَلُ قبل فناء ذمائها، ويصير ريشها كالمجاسِدِ من دمائها، محمولة على حكم الكفار. إذ يقتلون ومصيرهم إلى النار، تَحنَّطُ بتوابلها وأبازيرها،

(١) المرجحن: المائل المهتز.
(٢) في الأصل: مكسورة.
(٣) الجواشن: الدروع.

وتُوارى في قدورها وتنانيرها، ثم تُبعثُ إلى إخوان متوافقين، وخلان مُترافقين قد تمالحوا في الطعام، وتراضعوا في المدام، ولا يشوب صفوهم شائب، ولا يُعيب فضلهم عائب، والحمد الله الذي أباحنا لذيذ المطاعم ونَهَجَ لنا سبيل المغانم.

ومن كلام أبي إسحاق الصابي قوله في عهد كتبه لطفيلي[١]:

هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا[٢] إلى علي بن عرس الموصلي حين استخلفه على إحياء سنّتهِ، واستنابَهُ في حفظ رسومه من التطفيل على مدينة السلام، وما يتصل بها من أكنافها، ويجري معها من سوادها وأطرافها، لِما توسَّمَهُ فيه مِنْ قلّة الحياء وشدّة اللقاء، وكثرة اللّقم، وجودة الهضم، ورآهُ أهلاً له من سدِّة مكانَهِ[٣] في هذه الرفاهية المهملة التي فَطَنَ لها، والرفاغية[٤] المطرحة التي امتدَّ إليها والنعم العائدة على لابِسِها بملاذ الطعوم، ومناعم الجسوم، مُتَورّداً /٩/ على مَنْ اتسعت مواد مالِهِ، وتفرَّعَتْ شُعَبُ حالِهِ، وأقدره الله على غرائب المأكولات، وأظْفَرَهُ ببدائع الطيبات. آخِذاً من كلّ ذلك بنصيب الشريك المناصِف، وضارباً فيه بسهم الخليط المفاوض، ومستعملاً للمدخل اللطيف عليه، والمتولّج العجيب إليه، والأسباب التي ستُشْرَح في مواضعها من هذا الكتاب، وتستوفي الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب. وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أَمَرَهُ بتقوى الله، التي هي الجانب العزيز، والحرز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكالئة، والجُنّةُ الواقية، والزاد النافع يوم المعاد، يوم لا ينفَعُ إلا مثله من الأزواد، وأن يستشعر خيفته في سرّه وجَهْرِهِ، ومراقبته في قوله وفعلِهِ، ويجعل رضاه مطلبه، وثوابه ملبسه والقربة منه إربَهُ، والزّلْفى لديه غرضه، ولا يخالفه في مسعاة قدم، ولا يتعرّض عنده لعاقبةِ نَدَم، وأَمَرَهُ أن يتأمل اسم التطفيل

---

(١) كتاب التطفيل للخطيب البغدادي ص١٧٥ وصبح الأعشى ١٤/ ٣٦٠.

(٢) قال الخطيب البغدادي: «حدثني القاضي أبو القاسم علي بن الحسن بن علي التنوخي قال: كان في نقباء الأمير بختيار المعروف بعز الدولة رجل يسمى عليكا، وكان كثير التطفل على جميع أهل العسكر من الحجاب والقواد ووجوه الخاصة والغلمان، وشاع ذلك له عند بختيار، فرسم له أن يستخلف على التطفيل خليفة. وتقدم إلى أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب أن يكتب له على طريق الهزل عهداً لابن عرس الموصلي عن عليكا، وأن يجعله خليفة على التطفيل، فكتب له عن طريق الهزل عهداً، قرأه أبو إسحاق علينا.

(٣) كذا في الأصل: وفي التطفيل وصبح الأعشى: من سدّ مكانه.

(٤) الرفاغية: السعة والخصب، وفي التطفيل وصبح الأعشى: الرقاعة.

ومعناه. ويعرّف مغزاه ومنحاه، يتصحّفَهُ تصحّف[١] الباحث عن حظّه بمجهودِهِ، غير القائل فيه بتسليمِهِ وتقليدِهِ، فإنَّ كثيراً من الناس قد استَقْبَحَهُ ممّن فعله، وكرِهَهُ لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشَّرَه والنهم، فمنهم من غَلِطَ في استدلالِهِ، فأساء في مقالِهِ، ومنهم من شحَّ على ماله فدافع عنه باحتيالِهِ، وكلا الفريقين مذموم لا يتعريان من لباسٍ فاضح، ومنهم الطائفة التي لا ترى شركة العنان، فهي تبذله إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة في المطعم للهاجمِ الآكل وفي المشروب[٢] للوارد والواغل، وهي أحق بالحرية وأخلق بالخيرية، وأحرى بالمروءة، وأوْلى بالفتوّة، وقد عرفت بالتطفيل ولا عارَ فيه عند ذوي التحصيل؛ لأنه مشتقٌ من الطفَل، وهو وقتُ المساء وأذان العِشاء، فلما كَثُر استعمل في صدر النهار وعجزه وأقله، كما قيل للشمس والقمر: [القمران][٣] وأحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر: العمران وأحدهما عمر، وأمره / ١٠/ أن يتعهدّ موائد الكُبراء والعظماء بغزاياه[٤] وسمط الأمراء والوزراء بسراياه، فإنه يظفر منها بالغنيمة الوافرة، ويصل منها إلى الغريبة النادرة، وإذا استقرأها وَجَدَ فيها من طرائف الألوان الملذّة اللسان، وبدائع الطعوم السائغة في الحلقوم، ما لا يَجِدُ عند غيرهم، ولا يناله إلاّ لديهم، وأمَرَهُ ان يتبع ما يعرض لموسري التجار ومجهزي الأمصار من وكيرة (الدار والعرس)[٥] والأعذار، فإنهم يوسعون على أنفسهم في النوائب بحسب تضييعهم عليها في المراتب. وأمَرَه أن يصادق قهارمة الدور ومدبّريها، ويُرافق وكلاء المطابخ وحماليها، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمّة مطاعمهم ومشاربهم، ويضعونها بحيث يحبّون من أهْلِ موداتهم ومعارفهم، وإذا عدّت هذه الطائفة أحداً من الناس من خلاّنها، واتخذتْهُ أخا من إخوانها، سَعِدَ بمرافقتها، وحظي بمصادقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، وسار به إلى جنباتها[٦]، وأمَرَهُ أن يتعهد أسواق المتسوّقين، ومواسم المتبايعين، فإذا رأى وظيفة قد زيد[٧] فيها، وأطعمةً قد استحشد مشتريها، اتبعها إلى المقصد بها،

(١) كذا في الأصل، وفي التطفيل والصبح: يتصفحه تصفّح. ولعل الصواب: يتفحصه تفحص.
(٢) كذا ولعل الصواب: المشرب.
(٣) زيادة يقتضيها السياق.
(٤) وردت في الأصل مهملة، وقرأتها هكذا.
(٥) الزيادة عن التطفيل والصبح. والوكيرة: طعام يتخذ لفراغ البنيان.
(٦) في التطفيل وصبح الأعشى: ومآربه في جنباتها.
(٧) في الأصل: زاد.

وشيّعها إلى المنازل الحاوية لها، واستعلم ميقات الدعوة، ومَنْ يحضرها من أهل اليسار والمروة؛ فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يراعي وقت مصيره إليها ليتبعه، ويكمن له ليصحبه، ويدخل معه، وإن خلا من ذلك اختلط بزُمر الداخلين، فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب ويخرج من سلطان البوّابين والحجّاب، حتى يحصل محصلاً قلّ ما حصَلهُ أحد قبله، فما انصرف منه الا ضلعاً[١] من الطعام نزيفاً[٢] من المدام .

وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين، ومواطن الاناث والمخنثين، فإذا أتاهُ خبرٌ بمجمع يضمّهم أو مأدبةٍ تعمَّهم، ضرب إليها أعقاب إبلهِ، وأنضى حولها مطايا خيلِهِ، وحمل عليها حملة الحوت الملتقم، والثعبان الملتهم، والليث الهاصر[٣]، والعقاب الكاسر، وأمره أن يتجنّب مجامع العوام المقلّين، ومحافل الرعاع المقترين، وأن لا ينقل إليها قَدَماً / ١١/ ولا يَفغر لمآكلها فَمَاً، ولا يُلفى في عتب دورها كيسانا، ولا يعدّ الرّجُلَ منهم إنسانا. فإنها عصابة تجتمع لها ضيق النفوس والأحوال، وقلّة الأحلام والأموال، وفي التطفيل عليها إجْحاف بها يؤثم، وإزراء بمروءة المتطفّل (يوصم)، والتجنب لها أجدى[٤] والازورار عنها أرجى. وأمره أن يحزر الخِوان إذا وُضِع، والطعام إذا نُقِل، حتى يعرف بالحدس والتقريب، والبحث والتنقيب عدد الألوان في الكثرة والقلّة، وافتتانها في الطيب واللذّة، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي عند انتهائها، ولا يفوتُهُ النصيبُ من كثيرها وقليلها، ولا يُخْطِئُه الحظُّ من دقيقها وجليلها، ومتى أحَسَّ بقلّة الطعام، وعجزِهِ عن الأقوام، أمعَنَ في أوّلِهِ إمعان الكيّس في سعيه، الرشيد في أمْرِهِ، المالىء لبطنِهِ من كلّ حارٍّ وبارد، فإنّه إذا فَعَلَ ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون تظرفاً، ويقلون تأدّباً، ويظنون أن المادة تبلغهم إلى آخر أمرهم، وتنتهي إلى غاية شبعِهِم، فلا يلبثون أن يخجلوا خجلة الواثق، وينقلبوا بحسرة الخائب أعاذنا الله من مثلِ مقامهم، وعَصَمنا من شقاء جدودهم.

وآمرهُ أن يروّض نفسه، ويغالط حسّه، ويضرب عن كثير مما يلْحقه صفحاً، ويطوي دونه كشحاً، ويستحسن الصمم عن الفحشاء، ويغمض عن اللفظة الخشناء،

(١) في الأصل: فانصرف فيه إلا ضلغا، ولعل الصواب ما أثبتُّ، والضلع: الثقل، لعله أراد فما انصرف إلا ثقيلاً من الطعام.

(٢) كذا في الأصل: ترتعاً. (٣) في الأصل: الصاهر.

(٤) الأصل: أجلى.

وإن أتَتْهُ اللكزة في حلقِهِ صبر عليها في الوصول إلى حقّه، وإن وقَعَتْ به الصفْعَةُ في رأسه، أغضى عنها لمراتع أضراسِهِ، فإن لَقِيَهُ لاقٍ بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذْ كان إذا وَلَجَ الأبواب، وخالَطَ الأسباب، وجلس مع الحضور، وامتزج بالجمهور، ولا بُدَّ أن يلقاهُ المُنْكِرُ لأمرِهِ، ويمرُّ به المستغرب لوجهِهِ، فإن كان حرّاً حَيِيّاً، أمْسَكَ وتذمَّم، وإن كان فظّاً غليظاً همْهَمَ وتكلّم، وأن يَجْتَنب عند ذلك المخاشنة، ويستعمل مع المخاطب الملاينة، ليردّ غيظه، ويفلّ حدّه، ويكف غربه، ثم إذا طال المدى تكررت الالحاظ عليه فَعُرِف وأنسَتْ /١٢/ النفوس به فأُلِف، ونالَ من الحال المجتمع عليها منال من حشم وسئل العناء إليها.

ولقد بلَغنا أن رجلاً من هذه العصابة، كان ذا فَهْم ودراية، وعقلٍ وحصافة، طفل على وليمة رجلٍ ذي حالٍ عظيمة، فرمقته فيها من القوم العيون، وتصرّف بهم فيه الظنون، فقال له قائل منهم: مَنْ تكونُ أعَزَّكَ الله؟ فقال: أنا أوّل من دُعي إلى هذا الحق، قيل له: وكيف ذلك ونَحَنُ لانعرفك؟ فقال: إذا رأيتُ صاحب الدار عرفني وعرفته نفسي، فجيء به إليه، فلما رآه بدأه بأن قال له: هل قلْتَ لصاحبك أن يصنع طعامك زائداً على عدد الحاضرين ومقدار حاجة المدعوّين؟ فقال: نعم، فقال: إنما تلك الزيادة لي ولأمثالي، وبها تستظهر لمن جرى مجراي، وهو رزق أنزلَهُ الله على يدك، وسببه من جهتك فقال: مرحباً بك وأهلاً وقرباً، والله لا جَلَسْتَ إلاّ مع عِلْيَة الناس ووجوه الجلساء والأناس، إذْ قد طرفت في قولك وتفنّنْتَ في فعلك فليكن ذلك الرجل إماماً لنا نقتدي به، وحاديا نحذو على مثالِهِ إن شاء الله.

وآمره أن يكثر من تعاهد الجوارشنات[١] المنفدة للسدد، المقوية للمعد، المشهية للطعام، المسهّلة لسبيل الانهضام، فإنها عماد أمرِهِ وقوامه، وبها انتظامُه والتآمُهُ؛ لأنها تُعين عمل الدعوتين، وتنهض باليوم الواحد بالأكلتين، وهو في تناولها كالكاتب الذي نقّط أقلامه، والجندي الذي يُصقل حسامه، والصانع الذي يجدّد آلاته، والماهر الذي يصلح أدواته.

هذا عهد علي بن أحمد المعروف[٢] بعليكا إليك، وحجته عليك، لم يألك في ذلك ارشاداً وتوقيفاً، وتهذيبا وتَثْقِيفا، وتمعناً وتبصيراً وحثاً وتذكيراً، فكنْ بأوامره مؤتمراً، وبزواجرِهِ مزدجراً، ولرسومه متبعاً، ولحفظها مضطلعاً، إن شاء الله تعالى

(١) الجوارش: نوع من الأدوية يعين على هضم الطعام.
(٢) مكررة في الأصل.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قلتُ: وسئلتُ في تقليد لطفيلي فعملتُ:

الحمد لله الذي نَعَّم في طيبات رزقه، ورزق بعض خلقه من خَلْقِهِ /١٣/ وأجاز للمرء في بعض المذاهب التوصل بما قدر عليه إلى أخذ حقّه، نحمده على نِعَمِهِ التي وسِعَتْ الولائم، ومَتَّعَتْ بأكل كلِّ ملائم، ونشهد أن لا إله إلا الله وحْدَهُ لا شريك له، شهادة أوّل مايبدأ عنها باسم الله الآكل. ويهنا بها مايُهيّأ من المآكل، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، الذي ماعاب قط طعاماً، ولادُعي إلى طعام إلاّ أَكَلَ ما لم يكن نوى صياماً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتلقمها المسامعُ التقاما، وسلّم تسليماً كثيراً.

وبعد؛ فلما كان الغذاء هو قوام الأبدان ونظام عمارة البلدان، وموائد الطعام هي التي يجتمع عليها الإخوان، وتزهى بها صدور الإيوان، وتفتح وتختم بالحمْدِ، وتمنح من أطايب الطعام مايتجاوز الحدّ، ويكون فيها ما يسرّ العين من بدائع الألوان، ويسري نجوم زباديها في سماء الخِوان، وقد تحويه دور بعض البخلاء ومن لا يدعو الناس إلى طعامِهِ دعوة الجفلى[1]، ويكون في مالِهِ الممنوع حق للسائل والمحروم، ومَنْ لا يتوصل إلى الحقّ منه إلا بالتطفيل المعلوم، ممن تعيّن الأكل من مالِه بأنواع الحِيَل والهجوم على موائدِهِ المحجوبةِ وراء الحُلل، واستعمال الأقدام على هذا وأمثالِهِ لأكل طعامِهِ، وإخلاء المادة من قدّامِهِ، ولم يوجد لهذه العظيمة، ولا يُلام صاحبُ كل وليمة، إلا مَنْ كان إذا أكلَ اضطلع، وإذا مدّ يده إلى السماط اقتلع، أو صعد إلى السماء ذبح سعد الذابح وبلع سعد بلع ولم يزل يزلزل الموائد، ويملأ وعاء بطنه بزائد، ولا يعرف ما تكون البطنة، ولا ما تكفي منه اللقمة وتعني منه اللهنة ولا تقابله صدور الأطباق إلا وهي غير مطمئنة، وكان فلان هو الذي طالما كشف وَجْهَ السماط، وحلّ من سفر المخالي الرباط، وجال في جنبات الموائد حتى أخلاها، ورَكَضَ فيها ركض الجواد حتى ألْحق أُخراها بأولاها، وعرف في الولائم التي لم يزل فيها مشهور الحملة، آتيا على التفصيل والجملة، ومعروفاً بكبر اللقم التي /١٤/ يكاد يختنق، وترك التشهي وأكل ما يتفق، وقوة النهمة التي لو لقمت الصخر لسحنته، أو كلّفت حوض البحر إلى كل لقمةٍ واحدة لاستهونته، واشتهر بطبع طبع، عَنّى كلَّ من يجيء بعده وأتْعَب، وفرطِ طمعٍ أطفأ كل طفيلي وأمات أشعبَ وأم

---

(١) الجفلى: الدعوة العامة (القاموس).

أشعب، ولم يعصم منه بابٌ مغلق، وستر مطبق، ولا طعام جالسٍ على طريق ولا محبوس وراء مضيق، بل لو قيل له: إن اللقمة خلف جبل قاف لقام إليها يَسعى، أو في فم الأفعى لمدّ يَدَهُ إليها ولم يخف لسعا، قد تبلط وجهه الوقاح، وأفنى لحوم ذوات الأربع والجناح، ولم يدع في القدور شيئاً عليه يدور، ولا في المخافي ما هو عليه خافي ولانوعاً من الأنواع، ولامايصلح للأكل مما يشترى ويباع. أو واكل ابن أبي سفيان[1] لأشغلَهُ عن العيان، أو سليمان بن عبد الملك[2] لهلك، أو الملك العادل[3] لأفقره في العاجل، أو عاصر ميسرة التراس[4] لما اشتال له معه راس، أو عاشر القائد المغربي مولى فارح لأراه في الأكل كلّ قارح. لا يُعْجبه لأجل السّعي للأكل إلاّ كلُّ يومٍ أغرّ يبدو نورُهُ، وكل ملك إذا تغدّى رُفعت ستوره، ولا يعدّ فرداً إلاّ مَنْ قدَّم إليه قصعة مكلّلَةً لحماً مدفقة ثرداً، ولا يكون نازِلا إلاّ لمن قال: «وإني لعبدُ[5] الضيف مادام نازلا»، لا يتغدّى بجمل ويتعشى بوسقه[6] ما حمل، يصرف الأكل بغرارة، ويحمل معدته فوق السبع كارة، ولا يلفيه قدر الرغيف إلا كلّما أرهن عليه قوسه حاجب بن زرارة، ولا يقنعه طبخه القدر إلاّ بجميع ما في الكوارة، يتنقل بأردبّ[7]، ويأكل كلّما سعى ودبّ، ويتملّح بمدّ ملح وقوصرة بصل، ويتحلّى بعديلة تمر ووطب عَسَلْ، يشربُ من اللبن وطباً، وينتقل بحمل الحديقة رطباً، القنطار عنده أُوقية، والرطل توابل التغذية، لا يحب إلا اسم بلعام[8] وطعمه، ولا يأكل ملء الطبق إلاّ في لقمة، يأكل باليدين، ويشبع بالعين، لم يعرف في طول عمره التخم، ولا خاف الوخم، ولا وقع على جيف المآكل / ١٥/ إلا وقوع الرخم، ولم يأكل ما شاء في سبعة أمعاء، وإنما يدّخر معه في وعاء، ماقرأ من الفقه إلاّ كتاب الأطعمة،

---

(١) يريد به معاوية بن أبي سفيان، الخليفة الأموي، وقد اشتهر بكثرة الأكل.

(٢) سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، الخليفة الأموي، اشتهر بكثرة الأكل (عيون الأخبار ٣/ ٢٢٧ والعقد الفريد ٦/ ٣٠١).

(٣) الملك العادل محمد بن أيوب بن شاذي، أخو السلطان صلاح الدين، كان يوصف بكثرة الأكل (انظر: وفيات الأعيان ٥/ ٧٤).

(٤) ميسرة التراس، كان في عصر المهدي، قيل كان يأكل الكبش العظيم ومئة رغيف (نثر الدرر ٢/ ٢٤٩ وربيع الأبرار ٣/ ٣٥٢).

(٥) من قول المقنع الكندي:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً ... وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

(٦) الوسق: حمل بعير.

(٧) الأردب: مكيال لأهل مصر.

(٨) بلعام بن باعورا: من علماء بني إسرائيل.

ولا سئل كيف الطريق إلاّ قال: أنا ما أحبُّ الاشياء الحلوة الدسمة، ولا نعرف أعرف منه بتلفيق الاسباب، وتخريب عرائش النقانق وقباب الكباب، فما حطّ يده في طعام إلا محقه، ولا في مأكولٍ إلاّ وعاد في الحال كأنّ الله ما خلقه، فاقتضى له تقدّمه هذه الطائفة[١] أن يكتب له هذا التقليد. ويراد به طول يده وباعِهِ المديد، ويميز على أبناء جنسه من طائفة الشيخ ساسان[٢]، ومن يأخذ أموال الناس باليد ويأكلهم باللسان، ويفعل الفعائل التي ما يظن بها إلاّ أن زمان أبي الأكاسرة عاد، وينصب النصبات التي لو كان أبو زيد السروجي[٣] حاضرها لما زاد، فرسم أن نقلّده أمر طائفة الطفيلية، ويعاد إليهم أمورهم بالكلية، وأن يكونوا جميعهم تحت أمرِهِ المطاع، وأعوانه إذا أكل كل ما على السماط، وخلّى الناس وهم جياع، وهو مايحتاج إلى الوصايا التي تشغله عن الابتلاع، وتلهيه عن النهم الذي هو من خلق السباع. وإنما نقول له على سبيل التذكرة، ونكتفي بالقليل لما عنده من المخبرة.

فأوّل ما نوصيه أنه لا يقف عند منهل، ولا يتوقّف في أيّ شيء تسهّل، ولا يتخيرّ ليتحيرّ، ولا يفكر إذا تقدم إلى الطعام بحقد مَنْ حَقَد، ولا لوم من لام ولايحسب حساب بقية من حضر، بل يأكل الكل ولا يذر، ولا ينتظر من غاب. ولو كان أسد الغاب، ومهما جاء قدامه رماه بالمحاق، وعاجَلَهُ خوف اللحاق. وإذا قدّمت المائدة. بذكر اسم الله لتهرب الشياطين، وتغنّى لئلا تحضر الملائكة وتحيّل بكل طريق في عدم المشاركة، وتعجّل مهما أمكنه فإنه ما يؤمن المداركة، وليلفَّ الخبز والإدام، ولا يعفّ عن لحسّ الزبادي وقرقشة العظام، ولا يتلافى خاطر مَنْ حرد، ولا يترضى، ولايدع شيئاً مما يطلق عليه اسم الأكل /١٦/ حتى النار التي تأكل بعضها بعضاً، وليباكر الغداء فإنه مكرمة، ويلازم العشاء فقد قال ﷺ، تعشوا ولو بكف من حشف فإن ترك العشاء مهرمة، وليداوم على ماهو عليه من هذا الأمر، ولا يلتفت لقول زيد ولا عمرو، وليأكل ماحضر. ويحرص على الطيبات، فقد كان ﷺ[٤] يأكل القثاء بالرطب، ويحبّ الحلو والعسل ويحب الزبد والتمر، ولا أقل أن يكون

(١) الطائفة الأولى: الجماعة، والثانية: من الطواف.
(٢) بنو ساسان: طائفة من المكدين، ظهرت في العصر العباسي، منهم أبو دلف الخزرجي الينبوعي، له قصيدة في يتيمة الدهر ٣/ ٣٥٤ تسمى الساسانية.
(٣) أبو زيد السروجي، شخصية وهمية. يروي عنها الحريري مقاماته، وفي ترجمة الحريري بوفيات الأعيان، خبر يفيد أنه أعرابي عرف الحريري كنيته ولقبه فنسب المقامات إليه.
(٤) الحديث أخرجه الترمذي ٣/ ٤٣٢.

فيه هذا من السنّة، ومن تتبّع مآكل السلف، وإن كان لايريد إلاّ زهد، لا مصور على خاطره، ومُمثل في ناظره، ثم ليتعهد المهضمات وما يقوّي المعدة ويزيد لهب نيرانها المتقدة. ولا يدع استعمال المسهلات لهييء المعدة لمواقع الغذاء والعشاء، ومواضع الأكل في مطاوي الأحشاء، وليستعلم أخبار الآكلين وطوائف الطفيلية المحتالين. لما يحصل بذلك من التأسّي، وينهض الشهوة للأكل والتحسّي، وإياه والمضغ، فإنه يطيل المدى، ويقلّل معه مقدار مايؤخذ من الغدا، ومهما استطاع فليحسن المآكل ويحزن صاحب الضيافة الحزين الثاكل، وليصرف شهواته إلى ما لا يتصرف، وما يقف على المعدة ويتوقف. ويلازم مغلظات الغذاء، ولا يسمع ممن قال: إنه المذموم.

وليستكثر من لحوم الجمال والجواميس والبقر، وماأشْبَهَ هذه اللحوم. وكذلك ما رزن من الحبوب، ووزن، فجاء أضعاف مثله في القدر المحسوب، ودأبك أن تعرف موسم كل مجتمع، ومكان يرجى فيه ملء البطن للشبع، وصرّف أعوانك لتعرف أخبار الأعراس التي يولم فيها الولائم، وبقية المواضع التي ينصرف عنها بشبعه الطاعم، وأسْمِطة الأمراء ومآدب الوزراء، ومواضع مناصفات الفقراء والأوقاف التي تعمل لها جلاسات الفقهاء والقراء. ومظان الرهان التي تؤخذ فيها الدراهم وتصرف غالبها في أنواع المطاعم ودعوات الإخوان، /١٧/ وأهل القصف، ومن يكون على ميعاد استعدّ له، وما لا يبعد من هذا الوصف، ودور أهل اليسار وكبار العامة، والتجار. والجندي إذا جاء من الريف، وحطّ هديته عن الحمار، وأرباب الصنائع الذين منهم من أوتي رزقه. ومن لا يبلغ أجرة عمله في اليوم درهمين، وينفق ببعض الأيام أكثر من دينار، ومواضع النزه، فكثيراً ما يُستخرج بها مال البخيل، والبيوت التي تُطْلَبُ إليها المواشط والدايات فإن النفقة فيها غير قليل، وأقم لك ربيئة على كل رابية وكلّ مكان يدَقّ عليه بالطبول، وتتبع من يقوم منهم لتهنئة من تجددّت له نعمة أو دُفعت عنه نقمة، أو غير هذا مما يقتضيه الفضول، ثم أقصد هذه المواضع وابسط يدك كلّ البسط، وتذكر ماكتب ساسان على عصاه ولا تنْس الشرط، ولفّ الأوز والدجاج والبطّ. واشرب بالزبادي المرق ولو أنه ماء الشطّ. وأحرق كلّ ما قدّامك، ولو كان النار والكبريت والنفط، وصُلْ صولة الفحل وكل الشهد وإبر النحل، ولا تخل جنى النحل. ولا ما غرست فيه من الوحل، واهجم واسأل ولا تُسَلْ، ولا تفرق في سدّ الجوعة بين الصَّبِر والعسل، وإذا رايت جماعةً فاحدس أنهم اجتمعوا لطعام، أو أفراداً فاجزم انهم تفرقوا حيلةً للالتئام، فاعمل بالحزم واقصدهم وصمّم العزم، وانضمَّ إليهم، واهجم هجوم الأسد المفترس، وكُلْ كل ما بين أيديهم، وتنوّع في الشهوات واقترح

ولا تخف من غضبهم، فلا بُدَّ أنك وإياهم تصطلح، وكل أكلةٍ تكفي سنين، واستكثر بالآلاف المبين. وقل: [من الكامل]

يـا أكَـلـةً مَـنْ عـاشَ أخـبـرَ أهـلَـهُ   أو مـاتَ يـلـقـىٰ الله وهـوَ بَـطِـيـنُ

فإن ضاقت منك عين بخيل، وإن عجلك عن الطعام قبل امتلاء الخرطبيل، وبسط إليك /١٨/ أحدٌ يَدَهُ ليقتلك، أو صفعك بالخفاف ونطلك، فاحتسب مصابك، واصبر على ما أصابك، ولا تهتم بما نزل عليك، ولو نزل الماء الأسود في عينيك، وورم وجهك وخلف أُذنيك، ولا تنظر هذا الخطب الجليل إلا حقيراً، ولا هذا التعزير البليغ إلاّ على ما سمّى به في الأصل توقيرا، ولا يردّك هذا عن فعلك في المستقبل، واسمع من هذه الوصيّة، وأقبل ولا تستكثر حمل ألف بعيرٍ، ولا تستقلّ حبّة خردلٍ، واجمع جنودك على هذه الطاعة، وإن كانوا ما يجمعهم مندل، وبصّرهم بشرق البشرة، وعوّدهم أن لا يأكلوا بالخمسة والكف دون العشرة، وافتح فمك والتهم، وأوْسِع بطنك واضطرب في السماط واضطرم، وانتقد على البخيل وانتقم، وافعل في هذا فعل مَنْ لايحتشم ولا يخاف أنه ينبشم، وأبركْ في المائدة وارتطم، واضرب للعجلة وجهك بيديك والتطم، وحافظ على هذا واسْتَدِم، واستمك ظهور الموائد واستنم ولو رَفَسَكَ بخفّه البعير، نزّله منزلة القرص الكبير، واهجم على الرغيف ولو أنه الغريف[1]، واهجم على الفريسة كالأسد. وادخل الطعام على الطعام ولو فسد. وغالب البخلاء على أموالهم، ولا تفكر في أحد، وطالب من لا لك عنده شيء ولايضرّك من جَحَد، واضرب الجيش بالجيش، وكل السخلة والكبش، والجدي والتيس، وكبّ جموع ربيعة على مضر، ويمنٍ على قيس، ولا يلح على مسامعك عذل عاذل، ولا يرد يدك منع بخيل ولا بذل باذل، ولا يغب عنك الماء لتسويغ الغُصص، وارفاد الطعام به بالقفص، وعليك بالعزائم وإياك والرّخص واحذر كلّ الحذر من الكسل والتواني والقعود عن المواضع التي يُطلب إليها القراء والمغاني. فإن كل هذه المظانّ التي تسلّط فيها السكين على الضأن. فما كل وقتٍ تصح وليمة، ولا كل حينٍ /١٩/ يمضي عزيمة، والإنسان الشاطر، مَنْ أَكَلَ أكْلَ البهيمة، وما كلّ أوانٍ يتبوّأ الآكلُ مضيفٍ يحلّها، ولا ينعم في جناتِ جفانٍ أكُلُها دائمٌ وظلُّها. فلا يؤخر يوم سرور ينتظر له غدا، ولا يشيل لعشاءٍ مَنت غدا، ولا يفوّت دعوة كريم يضيف يديه في داره ويقول: «وكُلا منها رَغدا»، ومُرْ أعوانك فليحمدوا الله الذي أطعمهم مِن أموالِ

(١) الغريف: القصباء، والحلفاء (القاموس).

خَلقهِ، وجعل أيديهم تُعاجل يَدَ صاحب الطعام في سبقه، وأوْصِهِمْ بالشكر وقل لهم: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾[1]، والله تعالى يمتعه بما وهبهُ من بطنٍ لا يشبع. ونفسٍ أدْنى من نفس أشعب الطماع وأطمع، وسبيل كل واقفٍ عليه الانتهاء إلى ما يتقدّم به مِنْ الأمر. وسلوك مسلك أصحاب أبي نعامة معه حتى يأكلوا معه الجمر، ومَنْ خالفَهُ منهم يسقط من جريدة هذا الحساب، ويوقف وراء الحجاب، وأدّب بني الطفيلية أدباً يبقى به إعجوبة، ويُترك في مكانٍ يبصر الناس منه يأكلون ولا يَصلُ إليهم، وكفاه هذا عقوبة. والاعتماد على الحظّ الكريم أعلاه.

وعنوان قوله في النظم[2]: [من الكامل]

إن كنتُ خُنْتُكَ في المودَّةِ ساعةً ... فَذَمَمْتُ سيفَ الدولة المحمودا

وَزَعَمْتُ أنّ له شريكاً في العُلا ... وجَحَدْتُهُ في فَضْلِه التوحيدا

قَسَماً لو أنّي قد حَلَفْتُ غَمُوسها ... لَغريم دَيْنٍ ما أراد مَزِيدا

وقوله: [من الكامل]

قَلَمٌ يفلُّ الجيشَ وهو عَرَمْرَمٌ ... والبيضُ ما سُلَّتْ من الأغمادِ

وَهَبَتْ لَهُ الآجام، حين نَشابها ... كَرَمَ السيولِ وهيبَةَ الآساد

وقوله: [من الكامل]

حملوا قلوبَ الأُسدِ بين ضلوعِهم ... ولووا عمائمهم على الأقمارِ

وتَقَلَّدُوا يوم الوغى هنديةً ... أمضى إذا انتضيت من الأقدار

قومٌ إذا لبسوا الدروع حسبتَهُم ... كسحابِ غيثٍ مُمْطرٍ بنهار

إن خوَّفوك لقيتَ كلَّ كريمةٍ ... أو آمنوك لقيتَ دار قرار

/ ٢٠/ وقوله: [من مجزوء الكامل]

وقوله وقد شكا وَجَعَ المفاصل[3]: [من مجزوء الكامل]

وَجَعُ المفاصل وهو آ ... خر[4] ما لَقَيْتُ من الأذى

جَعَلَ الذي استحسنته ... والنَّاسُ[5] من حظّي كذا

---

(١) سورة الملك: ١٥.

(٢) يتيمة الدهر ١/ ٢٣ ومعجم الأدباء ١/ ١٣٤.

(٣) الأبيات: في معجم الأدباء ٢/ ٩٧ ويتيمة الدهر ٢/ ٣٠٠.

(٤) في المعجم واليتيمة: أيسر.

(٥) في اليتيمة: واليأس.

والـعُـمْـرُ مـثـل الـكـأسِ يَـرْ سُـبُ فـي أواخـرهِ الـقـذى

وقوله[١]: [من مخلع البسيط]

والـنُّـقْـلُ مِـنْ فُـسـتـق حـديـثٍ رطْـبٍ تـبـدّى بـهِ الـجـفـافُ[٢]
زُمُـرُّدٌ صـانَـهُ[٣] حـريـرٌ فـي حُـقّ عـاجٍ لـه غِـلافُ

وقولُهُ[٤]: [من الطويل]

ولـلـسرِّ فـيـمـا بـين جنبيَّ مَكْمَنٌ[٥] خَـفـيٌّ قَـصِـيٌّ عـن مـدارج أنـفـاسي
كـأنـي مـنْ فـرطِ احـتـفـاظي أضَعْتُهُ فـبـعـضي لَهُ راعٍ وبـعـضي لـهُ نـاسي

وقولُهُ: [من الوافر]

لـقـد فـاوضـتُـهُ وسَـدَدْتُ أنْـفـي فـمـا نـفـع احـتـراسي واحـتـيـاطي
عَـجِـبـتُ لأمِّـهِ إذْ قـمَّـطَـتْـهُ لـقـد وَضَـعَـتْ خَـرَاهـا فـي الـقـمـاطِ

وقوله[٦]: [من الطويل]

إذا لـم يـكـنْ بـدٌّ مـنَ الـمـوتِ لـلـفـتـى فـأَرْوَحُـهُ الأوْحـى الـذي هـوَ أسْـرَعُ
فـكـنْ غـرضـاً بـالـعـيـش لا تـغـتـبط بـهِ فـمـحـصُـولُـهُ خـوفٌ، وعُـقـبـاهُ مَـصْـرَعُ

وقولُهُ[٧]: [من الكامل]

حـتّـى إذا داعٍ دعـاه إلـى الـهَـوَى أصْـغـى إلـيـهِ سـامـعـاً ومُـطـيـعـا
كَـذُبـالـةٍ[٨] أخْـمَـدْتَـهَـا فـكـمـا دَنَـا مِـنْـهـا الـضِّـرام تَـعَـلَّـقَـتْـهُ سـريـعـا

وقولُهُ[٩]: [من الكامل]

قـد كُـنْـتَ طَـلَّـقْـتَ الـوزارةَ عـنـدمـا[١٠] زَلَّـتْ بـهـا قَـدَمٌ وسـاء صـنـيـعُـهـا

---

(١) البيتان من قصيدة له في يتيمة الدهر ٢/ ٢٦٢.
(٢) في اليتيمة:
والـنـقـل مـن فـسـتـقٍ جـنـيّ رَطْـبٍ حـديـثٌ بـه الـقـطـاف
(٣) في اليتيمة: : زانه.
(٤) البيتان من مقطوعة له في رسائل الصابي والشريف الرضي ص٨٤، وهما في المختار ص١٥٥ وفي غرر الخصائص منسوبين للشريف المرتضى.
(٥) في الأصل: ممكنْ.
(٦) البيتان من ثلاثة في يتيمة الدهر ٢/ ٢٩٣.
(٧) البيتان من أربعة في: معجم الأدباء ٣/ ٦٩ ويتيمة الدهر ٢/ ٢٥٧.
(٨) الذبالة: الفتيلة.
(٩) الابيات في يتيمة الدهر ٢/ ٢٨٥: كتبها إلى الوزير أبي نصر سابور بن أردشير وقد أُعيد إلى الوزارة.
(١٠) في اليتيمة: بعدما.

فَغَدَتْ بغيرِكَ تستحلُ[١] ضرورةً كيما يحلُّ إلى ذَرَاكَ رُجُوعُها
فالآن عادَتْ[٢] ثم آلتْ حِلْفَةً ألاّ يَبيتَ سواك وهو ضجيعُها

/ ٢١/ وقولُهُ في مبخرةٍ: [من الرجز]

وقبّةٍ ذاتِ حدودٍ أرْبَعَهْ مبنيّةٍ بناءَ رأسِ الصومعهْ
في درعها ضيق وفي الطيب سعة حاليةٌ كالغادةِ المصنّعه
مزفوفةٍ لفتيةٍ مجتمعه مَنْ شاءَ أنْ يخلو بها خَلَتْ معهْ
صُبّتْ عليها خلعٌ مرتجعة تلبثُ فيها ثم تعرى مُسرعه

وقولُهُ: [من الخفيف]

أقْبلَتْ ثم قبلَتْ ظهر كفّى قبلةً تنقعُ الغليلَ وتشفي
فَعَضَضْتُ اليدَ التي قبّلَتْها بفمٍ حاسدٍ يُريد التشفّي

وقوله: [من الطويل]

فلا تتخذْ لحمي غذاءً تسيغُهُ وتَحْسَبُ جهلاً ان سيمريكَ أكلُهُ
فقد يَلْسِبُ الفيلَ المعظمَ عقربٌ فتقتلها منْ بعدِ ذلكَ نَعْلُهُ

وقولُهُ: [من الكامل]

ما زِلْتُ آملُ فتحَ آمل[٣] مذ سُيّرتْ تلكَ الجَحَافلْ
لله ما نطق اللسا نُ بِهِ وأوْماتِ الأنامل
واستكتمتْ أسيافنا تلكَ العَواتِقُ والكَواهلْ
فطعانُنا يَفري الكُلى وضرابُنا يَبْري المفاصِلْ
يا بردَ حَرّ حُروبنا في كلّ صدْرٍ ذي بَلابلْ
أبَداً تُرينا في الأوا خر ما اقترحنا في الأوائلْ
فامدُدْ يديكَ لما دنا ولما نأى فالكلُّ حاصِلْ

وقوله[٤]: وكان شيخنا أبو الثناء[٥] يستحسنه: [من الطويل]

---

(١) في اليتيمة: تستحيل.
(٢) في اليتمية: آلت.
(٣) آمل: مدينة بطبرستان (معجم البلدان ـ آمل).
(٤) البيتان في: معجم الادباء ٢/ ٧١، ويتيمة الدهر ٢/ ٢٥٩ والوافي بالوفيات ٦/ ٢١.
(٥) أبو الثناء، محمود بن سلمان (أو سليمان) بن فهد، شهاب الدين، أبو الثناء الحلبي الدمشقي، =

أقولُ وقد جرّدتُها من ثيابها وعانقتُ منها البدرَ في ليلةِ التَّمِّ
لقدْ آلَمَتْ صَدْري بشدّةِ ضمِّها[١] لَقَدْ جَبَرت قلبي وإن أوْهَنَتْ عظمي

وقوله: [من مجزوء الكامل]

/٢٢/ قُلْ لابن نصرٍ قولَ مَنْ سمعَ الأذى منهُ وشمّهْ
يا ليتَ مَنْ حَفَرَ الكنيف بوسْطِ وجهِكَ منه ضمّه

وقوله يصف الجوزاء بين الشعريين: [من البسيط]

وقَدْ تجدَّلَتِ الجوزاء بينهما كأنّهُ جثةٌ مضروبةُ العُنقِ
ورامَ أخْذَ الثريا وهوَ يحسَبُها خريطةً سَقَطَتْ ملآى مِنَ الوَرَقِ

وقوله[٢] في الخمر: [من المنسرح]

صفراء كالتبر جامُها يَقَقُ شُعاعُها كالذّبال يأتَلِقُ
كأنّها في كفّ مَن أتاكَ بها ضُحَى نهارٍ في وسْطه شَفَقُ

وقوله: [من الخفيف]

بين فكَّيْكَ يا ابن نصرٍ مَضيقُ فيهِ بالشمّ للمنايا طريقُ
فاتَّقِ الله في الوَرى وتَلَثَّمْ أيُّ نفسٍ لبعضٍ هذا تُطِيقُ

وقولُهُ[٣]: [من الطويل]

إذا كنتَ قدْ أيْقَنْتَ أنكَ هالكُ فما لكَ مِمّا دُونَ ذلكَ تُشفِقُ
ومما يشينُ المرءَ ذا الحكم أنَّهُ يرى الأمر حَتْماً واقِعاً وهو يقلَقُ

وقولُهُ: [من البسيط]

بكى المظفرُ مِنْ أفراطِ قَرْوَتِهِ[٤] فكلُّ مَنْ أبْصَرَتْهُ عينُهُ ضَحِكا
كأنّها إذ بدتْ والأيرُ راكبها زق يصيد عليها سابحٌ سَمَكا

= صاحب ديوان الانشاء بدمشق. ولد سنة ٦٤٤هـ، وتلقى العلم بدمشق وولي بها ديوان الإنشاء ثم نقل إلى مصر وبها توفي سنة ٧٢٥هـ وكان أديباً شاعراً من الكتاب المترسلين له مصنفات نشر منها التوسل إلى صناعة الترسل. انظر: فوات الوفيات ٤/ ٨٢ والوافي ٢٥/ ٣٠١ والبداية والنهاية ١٤/ ١٢٠ والدرر الكامنة ٥/ ٩٢ والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٤.

(١) في اليتيمة: لئن آلمت.. لشدة.
(٢) اليتيمة ٢/ ٢٦١.
(٣) البيتان في: معجم الادباء ٢/ ٨٤ ويتيمة الدهر ٢/ ٢٨٥ والوافي بالوفيات ٦/ ١٦٠.
(٤) في الأصل: قرونه.

وقولهُ[١]: [من الخفيف]

أيّـهـا الـنـابـح الـذي يـتـصـدّى بـقـبـيـح[٢] يـقـولُـهُ لِـجـوابـي
لا تـؤمِّـل أنِّـي أقـولُ لَـكَ: اَخْـسَـأ لـسْـتُ أسْخُـو بـهـا لـكـلّ الـكِـلابِ

وقوله: [من الخفيف]

عـظـمـتْ قـروةُ الـمـظـفـر حـتـى أعـجـزتْ كـلَّ نـاظـرٍ يـشـتـهـيـهـا
/٢٣/ غـيّـبـتْ أيـره فـلـم يـبـق إلا فـيـشـةٌ مـنـه ربّـمـا تـدّريـهـا
كـالـسّـلَـحْـفـاةِ حـيـن تُـطِـلـعُ رأسـاً فـإذا أوْحَـشَـتْ تـراجَـعَ فـيـهـا

وقوله: [من الوافر]

أبـا الـخـطـاب لـو أنـي رهـيـنٌ بـبـطـنِ الـقـاع يـنـعـانـي نُـعـاتـي
لألْـزَمَـك الـوفـاءُ وِصـالَ رَمْـسِـي فـكـيـفَ تـجـيـزُ هـجـري فـي حـيـاتـي

وقوله[٣]: [من مجزوء الكامل]

قُـلْ لـلـشـريـفِ الـمُـنـتـمـي لـلـغُـرِّ مَـنْ سَـرَوَاتِـهِ
شـادَ الأولـى لـك مـنـصـبـاً قـوَّضْـتَ مـن شُـرُفـاتِـهِ
والـعُـودُ لـيـس بـأصـلـه لـكـنّـه بـنـبـاتِـهِ
والـمـاء يـفـسـدُ إن خَـلَـطْـتَ أجـاجَـهُ بـفـراتِـهِ
وأحَـقُّ مَـنْ نـكّـسـتَـهُ بـالـصـفـرِ مَـنْ دَرَجـاتِـهِ
مَـنْ مَـجْـدُهُ مِـنْ غـيـرِهِ وسـفـالُـهُ مِـنْ ذاتـه

وقوله في إمامٍ آخر: [من المنسرح]

يـا مَـنْ يُـصـلّـى صـلاة شـكٍّ يـطـولُ فـي إثْـرِهـا قُـنُـوتُـهُ
إنْ كـنـتَ تـبـغـي الـثـوابَ فـاسـكُـتْ رُبَّ فَـمٍ أجْـرُهُ سُـكُـوتُـهُ

وقولَهُ[٤]: [من مخلع البسيط]

وانـحـرْ أعـادي بـنـي بُـوَيْـهِ بـالـسـيـف فـي جُـمـلـةِ الأضـاحـي
فـالـكـلُّ مـنـهـمْ ذوو قـرونٍ تـصـلـحُ لـلـذّبـحِ والـنـكـاحِ

---

(١) يتيمة الدهر ٢/ ٢٨٤ ومعجم الأدباء ١/ ١٥٤ والوافي ٦/ ١٦٢ ومعاهد التنصيص ٢/ ٧٦.
(٢) في الوافي: لقبيح.
(٣) من مقطوعة في يتيمة الدهر: ٢/ ٢٨٧.
(٤) من قصيدة كتبها إلى صمصام الدولة البويهي يهنئه بالأضحى، في يتيمة الدهر ٢/ ٢٨٠.

وقوله في مدخنة[١]: [من الطويل]

ومحرورةِ الأحشاءِ تحسَبُ أنها مُتيَّمة تشكو مِنَ الحُبّ تبريحا
يحرقُ فيها العود عَوْداً وبدأةً فتأخذُهُ جسماً وتبعثُهُ رُوْحا

وقوله: [من الكامل]

قبَّلْتُ منه فَماً مجاجتُهُ تجمعُ معنى المُدام والشهْدِ
/٢٤/ كأنّ مجرى سواكه بَرَدٌ وريقهُ ذوبُ ذلك البرد

وقوله: [من الطويل]

وقالوا اتخذ أخْرى سواها لعلّها تُنَسِّيْكَ ذكراها التي تتردّدُ
فَقُلْتُ لهم بُعْداً وسُحْقاً لرأيكم أأقلعُ عيني حينَ تذرو وترمَدُ

وقوله في وردة: [من البسيط]

حمراءُ مصفرّةُ الأحشاءِ ناعتة طيباً تخالُ بهِ في الطِّيب عطّارا
كأنّ في وسْطِها تبْرا يُخلّطُهُ قَيْنٌ يضرِّمُ مِنْ أوْراقها نارا

وقوله: [من الطويل]

وَهَبْتُ لهُ عمرَ الشبيبة صُحْبةً وأكرِمْ بذي جُودٍ إذا وهَبَ العمرا
فلمّا ألَمَّتْ للزمان مُلِمّةٌ فَزعْتُ إليه والتمَسْتُ بهِ النصْرا
فَصُمَّ ولمْ يسمعْ نداءً ولم يُجِبْ دُعاءً كأني فيه مستنطق صَخْرا
ورقّتْ صُروفُ الدهر لي مِنْ صنَيعه فأصبَحْتُ أشكوه واستصرخ الدهرا

وقوله: [من الكامل]

مازِلْتُ في سُكْرِي أُلمِّع كفَّها وذِراعها بالقرص والآثارِ
حتى تركت أديمها [وكأنّما] غُرِسَ البنفسجُ منهُ في الجمّار

وقوله: [من السريع]

وَمَنْ طَوَى الخمسينَ مِنْ عُمْرِهِ لاقى أُموراً فيه مُستنكَرَهْ
وإنْ تخطّاها رأى بعدَها مِنْ حادثاتِ النقصِ ما لم يَرَه

وقوله[٢]: [من البسيط]

---

(١) معاهد التنصيص ٢/٦٨.
(٢) البيتان في: يتيمة الدهر ٢/٢٥٩ ومعجم الادباء ٢/٧٢ ومعاهد التنصيص ٢/٦٧.

إنْ نحنُ قِسْناك بالغصن الرطيب فَقَدْ خفْنا عليك بهِ ظُلْماً وعُدْوانا[١]
لأن أحْسَنَ ما نلقاهُ مكْتَسِياً وأنتَ أحسنُ ما نلقاك عرْيانا

وقوله: [من مجزوء الكامل]

يا من بَدَتْ عريانةً فرأيْتُ كلّ الحسن منها
/٢٥/ كانتْ ثيابُكِ عَوْرَةً فسُتِرْتِ بالتجريدِ عنها

وقوله: [من الطويل]

خِضابٌ تقاسمناهُ بيني وبينَها ولكنَّ شأني فيهِ خالفَ شانَها
فيا قبحهُ إذْ حلَّ مني مفرقي ويا حسنَهُ إذْ حَلَّ منها بنانَها

وقوله في إسطرلاب أهْداه[٢]: [من البسيط]

اهدى إليكَ بنو الآجالِ واختلفوا في مهرجان جديد أنْتَ مُبْليهِ[٣]
لكنَّ عبدَكَ إبراهيمَ حينَ رأى عُلُوَّ قدرِكَ لا شيءٌ[٤] يُدانيهِ
لم يَرْضَ بالأرضِ مُهداة إليك فقدْ أهدى لَكَ الفلَكَ الأعلى بما فيهِ

وقوله: [من الخفيف]

يشتهي النَّذلُ أنْ يكونَ كريماً فإذا سيمَ ما اشتهاهُ أبَاهُ
فهوَ مثلُ العِنّين يشتهي النيـ ـك ولا يَستطيعُهُ إنْ أتاهُ

وقوله[٥]: [من الكامل]

وَمِنَ العجائب انني هنّأتُهُ وأنا المهنّأُ فيهِ بالنَّعماءِ

وقوله[٦]: [من الكامل]

ياذا الذي جَعَلَ القطيعةَ دأبَهُ إنَّ القطيعةَ موضعُ الرّيْبِ
إنْ كان ودّكَ في الطَّويَّة كامناً فاطلبْ صديقاً عالِماً بالغيْبِ

وقوله: [من الخفيف]

صدّ عنّي مُستعذباً لعذابي وجفاني كعادةِ الأحباب

---

(١) كذا في الأصل، وفي اليتيمة: خفنا عليك إذاً ظلماً وعدوانا.
(٢) الأبيات في معجم الادباء ٢/ ٣٤.
(٣) في المعجم: بنو الحاجات.. مهرجانٍ عظيم.
(٤) في الاصل: عن شيء والتصويب عن المعجم.
(٥) يتيمة الدهر ٢/ ٢٨٣.
(٦) البيتان لجعفر بن ورقاء الشيباني في يتيمة الدهر ١/ ٩٧ قالهما لأبي إسحاق الصابي.

كلّ يوم يَرُوْعُ قلبي بفنٍّ   من تجنِّيهِ لم يكن في حسابي

وقوله: [من الطويل]

لِئَن صِرْتُ حِلْسَ البيتِ خَلْفَ جدارِهِ   فبالأمس مني تستعيذُ النَّجائبُ

كذاكَ أبو الأشبالِ يربضُ مرصداً   ولا بدّ من أن يغتدي وهو آيبُ

وقوله[1]: [من الطويل]

تورَّدَ دمعي فاستوى ومُدامتي   فَمِنْ مثلِ ما في الكأسِ عينيَ تَسْكُبُ

فوالله ما أدْري أبالخمر أسْبَلَتْ   جفونيَ أمْ مِنْ دمعتي كنتُ أشْرَبُ

وقوله: [من السريع]

سألْتُ عنْهُ مجلساً قامهُ   قدْ كانَ مأكولاً لهُ مُعْجِبا

فقال: ما قولكَ في مَدْخَلٍ   وَجَدْتُ منهُ مخرجي أطيبا

وأما:

[٢]

محمد بن أبي محمد بن الفياض[2]

كاتب[3] سيف الدولة، فكان يكتب في ماله، بل كان المموّل له، والمخَوَّل في كل ما ملك. وكان يعجن مداده بالمسك. ولا يليق دواته إلا بماء الورد، وكان شعلةً لا تُطْفا، وبارقة لا تخفى، بذهن مُتَّقد، وفكرٍ منتقد، إلاّ أن مادته مقصورة، وجادته محصورة، وبدائعه كثيرة، على قلّتها يسيرة، إذا قِيَسَتْ إليها النجوم بجملتها أرضى سيف الدولة بن حمدان، وامضى عزائم رأيه وقد نَعَسَ الفرقدان. فتقدّم أمام الكتاب، ولواؤه منصور، وعدوّه ببيانه كالليل بالكوكب الدرّي منحور.

ولَهُ نَثْرٌ منه قولُهُ:

وقد علم الدُّمستقُ مواقع سيوفنا منه وأيامنا الماضية معه، وأنّه ما تحامَلَ إلينا إلاّ على ضَلَع، ولا أقْبَل حتى رَجَع، وها نحن ننشده أما القطيعة وأما الوقيعة والسلام.

ومنه قولُهُ:

---

(١) يتيمة الدهر ٢/ ٢٥٦.

(٢) كذا ورد اسمه في الأصل، ولعله أبو محمد عبد الله بن عمر بن محمد الفياض.
وترجمته في: يتيمة الدهر ١/ ١٠١.

(٣) في الأصل: كان.

وأنتم أحوج إلى طَلَبِ الفداء لأسراكم منّا إليه، وأجْدَر إلى استهمت رماح الجبلين عليه؛ لأنكم تربعون به تكثرا من قلّة، وتعزّزاً من ذِلّة، ولسْنا كذلك، إنا لا نأسف على من نقص من عدد. ولا نبالي بمن أمْسَك من مدد. ثقةً بما عوّد الله من النصر، وأتى من الأجر بالصبر.

ومنه قوله:

وَرَدْنا والأرض كأذناب الطواويس، والطير زجلُهُ كأصوات النواقيس، وقد اهتزّ الشجر، وكلَّلَ النبات المطر. والطرف قد رتع كالطِّرف في تلك الميادين. والنسيم قد ضمّخ من شذا تلك البساتين، فلم تكن لنا أمنية إلا أن نراك. ونثري بلقياك سقي ثراك.

ومنه قولُهُ:

وقد أجلتنا يومين /٢٧/ وهذا ثالث، وأعْطَيتني عَهْدَين وكُنْتَ الناكث، فهل أبتدعت ما أتيْت؟ أو كان لك عليه باعث. فيا قسيم روحي ويا نسيم صبوحي. ها قد آن الغَبُوق إلاّ أنه بقرقف مرشفيك، وكأس عينيك، ووالله لا شربت إلاّ على آس عذارك وورد خدّيك، فابرر قسمي. وردّ الجواب من فمك إلى فمي.

وسيأتي ذكر أبيه في الشعراء، وبه كانت لابنه هذه المكانة من سيف الدولة وكلاهما أعني هذا وأباه ذو تيهٍ وَصَلَف، وكلاهما من صاحِبِهِ خَلَفْ.

وأما:

[٣]

الحريري، أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، صاحب المقامات(١)

فإنه فيما سواها ما قاربها ولا داناها، حتى عجز عند الامتحان عن كتابة كتاب أمر بهِ على ما وشّع من تلك المقامات ووسع من تلك المقالات. وبرع في ذلك المذهب، وعرف له من الحريري المذهب. هذا: والدهر من رواتِهِ، والناس سواءٌ في عدم مساواتِهِ، وهو مادّة أهل الأدب والذي ينسلون إليه من كل حَدَبِ. إلاّ أنه لم يقدر أن يكون مكلفاً، ولا استطاع أن يكون لغير أمالي خاطرِهِ متلقفاً. وهذا مذهب غير

---

(١) أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي صاحب المقامات، الأديب الشاعر، صاحب التصانيف منها: (درة الغواص في أوهام الخواص) و(ملحة الأعراب). ولد سنة ٤٤٦هـ، وتوفي سنة ٥١٦هـ بالبصرة. انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٦٣ وإنباه الرواة ٣/ ٢٣ ومعجم الأدباء ١٦/ ٢٦١ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٥ والشذرات ٤/ ٥٠٠ وخزانة الأدب ٣/ ١١٧ ومعاهد التنصيص ٣/ ٢٧٢ وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٦٠ والبداية والنهاية ١٢/ ١٩١ والوافي بالوفيات ٢٤/ ١٣١.

مذهب كتاب الانشاء المكلّفين اتباع غرض غيرهم، حتى يقسروا خواطرهم على ذلك. على أن الرجل فضله عظيم ومثاله الدهر به عقيم، وقدرُهُ جليل. ونظيرُهُ قليل، مَنْبَع الفضائل ونبعتها. وصيّت الفواضل وسمعتها، توقته الأعداء سماماً، وألقته الأوْلياء سهاما، وكان معدن نائل. وموطن كلّ طائل. باري غرب يريش ويبري. ويجيش قليب خاطره ويجري.

أبرزَ ما لم يستطعه الأوائل، وأحرز قصبات السبق على كل قائل، وكان سبب وضعه لمقاماته ماحكاه ولده أبو القاسم عبد الله، قال[١]:

كان أبي جالساً في مسجده ببني حرام[٢] فدخل عليه شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر، رث الحال، فصيح الكلام، حسن العبارة، فسألته الجماعة: من أين الشيخ؟ فقال: من سُرُوج، فاستخبروه عن كنيته، فقال: أبو زيد. فعمل أبي المقامة المعروفة بالحرامية، وهي الثامنة والأربعون. وعزاها إلى أبي زيد المذكور. واشتهرت فبلغ خبرها /٢٨/ الوزير شرف الدين [أبا][٣] نصر أنو شروان بن خالد القاشاني وزير المسترشد، فلما وقف عليها أعْجَبَتْهُ وأشار [على والدي][٤] أن يضمّ إليها غيرها. فأتمّها خمسين مقامة. وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في الخطبة: فأشار من إشارته حُكْمٌ، وطاعته غُنْم، اليّ أنْ أُنْشيء مقامات أتلو فيها تلو البديع.

قال ابن خلكان[٥]: ورأيت في سنة ست وسبعين وست مئة بالقاهرة نسخة مقامات بخط الحريري. وقد كتب أيضاً بخطّه على ظهرها أنه صنعها للوزير جلال الدين[٦] عميد الدولة ابن صدقة وزير المسترشد ايضاً. قال ابن خلكان: ولا شك أن هذا أصحّ من الرواية الأوُلى لكونه بخطّ المصنّف. والله أعلم.

وأما تسمية الراوي بالحارث بن همام، فإنما عنى نفسه، وهو مأخوذ من قوله ﷺ: «كلّكم حارث وكلّكم همام» فالحارث الكاسب، والهمام الكثير الاهتمام. وما

(١) الخبر نقلا عن وفيات الأعيان ٤/ ٦٣.

(٢) حرام التي نسب إليها الحريري، اسم سكة من سكك البصرة (وفيات الأعيان ٤/ ٦٧).

(٣) في الأصل: أبو. وهو أبو نصر شرف الدين أنوشروان، كان نبيلاً فاضلاً مصنفاً، توفي سنة ٥٣٢هـ. انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٦٧ والمنتظم ١٠/ ٧٧ والبداية والنهاية ١٢/ ١٩٢ والشذرات ٤/ ١٠١.

(٤) في الأصل: إليها، والتصويب عن الوفيات.

(٥) وفيات الأعيان ٤/ ٦٤.

(٦) أبو علي الحسن بن علي بن صدقة، استوزره المسترشد سنة ٥١٣هـ ثم عزله، ثم أعاده وخلع عليه توفي سنة ٥٢٢هـ انظر الفخري في الأحكام السلطانية ص٢٢٣.

من شخص إلاّ وهو حارثٌ وهُمام؛ لأن كل أحد كاسب ومهتم بأمورِهِ. وكان الحريري قد عمل من المقامات أربعين مقامة، وحملها إلى بغداد وادعاها، فقال جماعة من أدباء بغداد: ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي مات بالبصرة، ووقعت أوراقُهُ إليه فادعاها، فاستدعاهُ الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته فقال: أنا رجُلٌ منشيء. فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عيَّنها، فانفرد في ناحية من الديوان. وأخذ الدواة والورقة، وسكت زماناً فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك، فقام وهو خجلان، وكان من جملة من أنكر دعواه أبو القاسم علي بن أفلح[١] فأنشد[٢]: [من المنسرح]

شيخٌ لنا من ربيعة الفَرَس ... ينتف عثنونَهُ منَ الهَوَس

أنْطَقَهُ الله بالمشانِ كما ... رماهُ وسط الديوان بالخَرَسِ

وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة الفرس، وكان مولعاً بنتف لحيته عن الفكر. وكان يسكن في مشان البصرة. فلما رجع إلى البصرة عمل عشر مقامات أُخر وسيرهنّ واعتذر من عيّه وحصره بالديوان مما لحقه من المهابة[٣].

وللحريري عدّة تصانيف طريفة لطيفة «كدرة الغوّاص» و«ملحة الأعراب» ويقال: إنه عملها لجواري الخليفة / ٢٩/ لكي يحفظنها ويقمن السنتهنّ بها.

قلت: وهي [على] ما حوت من العلم سهلة المأخذ، كأنما شعرها غزل. ولو لم يكن منه إلا قولُهُ: [من الرجز]

ولنْ يطيبَ الوصلُ حتى تسعدي ... يا هندُ بالوصلِ الذي يروي الصَّدِي

وله نظم ونثر في غير المقامات، ومنها قوله نثراً:

ولما استخدم الخادم فيما أهّل له آنفاً، اعتمد في الخدمة مايتهيّب قلمه الافصاح عنه، ويعرف بأن سعادة الديوان العزيز هي التي سنّت ما تسنّى منه. وتقدم له الوعد بانه عند تصفح مساعيه يمنح من المساعفة بما يرتجيه، ولم يقدم قلمه على التذكير بالوعد الشريف إلاّ بعد ما أنطقه لسانُ التوفيق للخدمة، وكفل له بمزيد الحظوة من النعمة، فإن اقتضت الآراء العليّة إنجاز موعده، كان ذلك إنعاماً يقع عند معترف

---

(١) جمال الملك، أبو القاسم علي بن أفلح العبسي، شاعر ظريف من الهجائين. توفى سنة ٥٣٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٣٨٩.

(٢) نسب ابن خلكان البيتين إلى أبي محمد الحسن بن أحمد المعروف بابن جكينا الحريمي البغدادي.

(٣) إلى هنا انتهى النقل عن وفيات الأعيان.

بوقعه، مستنفدٍ في الطاعة غاية وسعِهِ.

ومه قولُهُ:

لولا خبرتي بفضله السائر، وانعامه المستجد الغابر، لاستربتُ فيما يُحكى وامتريتُ فيما يروى. ولكن ما خلا عصر من جواد، ولكل قوم هاد، فأنه أبقاهُ الله، وإن تصرفت الأحوال. وتشعَّبت الأقوال. كالغمام لا يقطع سُقياه، ولا يستطيع أحد يردّ حياه، وللرأي الشريف مزيد علوّه في الانعام. بتأول ما أوضحته. والتطوّل بما اقترحته.

ومنه قولُهُ[١]:

رزءٌ تساهم فيه الأنام، وأظلمت ليومه الأيام، واستغرب عنده الحمام وعزي فيه الدهر بكامل أبنائه، وندب فيه شقيق السحاب، فاستعبر بدموع أنوائِهِ.

ومنه قولُهُ:

وصل من المجلس أكمل الله سعوده، وأكْمَدَ حسودَه، كتابٌ اتسم بالمكرمة الغرّاء، وابتسم عن النعمة العذراء، ووجدت بما ألْحَفَ من الجميل وأتْحفَ من التجميل. ما كانت أطماعي تهفو إليه. وآمالي تحوم حواليه، إذْ ما زلت مذ استمليت وصف المناقب الشريفة، أبعث قلمي على أن يفاتح. وأن يكون الرائد لي والماتح. وهو ينكص نكوص /٣٠/ الهيوبة، وينكل نكول الكهام عن الضريبة، إلى أن بديت وهديت. ورأيتُ كيف يُحيى الله ويُميت، فلم يبق بعد أن انشط العقال، واستدعي المقال، إلاّ أن أنقل التمر إلى هَجَر، والهشيم إلى الشَّجر، فأصدرتها متّشِحةً بالخجل، مرتعشةً مِنَ الوجل، وأنا معترفٌ بالتقصير، معتذرٌ باللسان القصير، «ولكلّ امرىء ما نوى»[٢]، ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰٓ﴾[٣].

ومنه قوله:

ولعلّ الأيام تسمح بمتعة الملاقاة، فأجعَلَها غرّة الأوقات. وأعظّمها كتعظيم حُرْمَةِ الميقات، وهو إذا أتْحفنَي بسطرين في كل شهرين يكون قد أمطاني رتبةً تضاهي النسرين. وأوْلى نِعمةً تبقى على العصرين.

ومنه قولُهُ يهنىء بشهر رمضان: [من الخفيف]

---

(١) له من تعزية بموت المستظهر وتهنئة بخلافة المسترشد في الخريدة (قسم العراق) ج٤ ق٢ ص٦٣٠.

(٢) من حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى «البخاري ١/ ٢».

(٣) سورة البقرة: ٢٣٧.

أنْتَ في الناس مثل ذا الشهر في الأشـ ـهـر، بـل مـثـل لـيـلـة الـقـدر فـيـه

أسْعَدَ الله المجلس بمقدم هذا الشهر ومطلع هلاله المنيف، وهذا دعاءٌ لو سكتُّ كفيته. وسؤلٌ ولله الحمد أوتيتُه.

ومنه قولُهُ:

إذا كانت المودّات حَرَسَ الله عزّ سيدنا أنْفَسَ المرام المخطوب، وأنْفَع ما اقتنى لدفع الخطوب، فلا لوم على مَنْ استسعى قَدمه لخطبتها، واستعلق قلمه لطلبتها، لاسيما إذا كانت تعجب المتأمّل، وتسعف المؤمِّل، هذا وأنا مع المغالاة في الموالاة، وعلى هذه الصفات من المصُافاة، اعترف بوجوب معاتبتي لقصور مكاتبتي، واعتذر من عظيم هفوتي لتمادي جفوتي، ولولا أن لمفاتحة حضرته وقْفَةُ المتهيّب. وخَجْلَةِ القطْر من الصيب، لما استهدف قلمي لمرام الملام، ولا استنكف أن يكون سكيّتاً في حَلَبة الأقلام، وها هو الآن قد أقْدم إقدام الوَقاح. وتعرّض للافتضاح، فإن رزق بالقبول تحْسِينا، أو بمصافحة يديه تزييناً، فقد فاز فوزاً عظيماً، وحلّ محلاً كريماً، وأنى له ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾[1]، فما قيل إلا بما هو له أهل.

[من الكامل]

ولـربـمـا اسـتـيـأسْـتُ ثـم أقـول لا إن الـذي اسـتـشـفَـعْـتُ مـنـه كـريـمُ

/ ٣١/ ومنه قولُهُ:

ولم يزل الخادم يستملي من أنباء الكرام الطاهرة، والفضائل المتظاهرة، ما يودُّ لو سعد برؤيته، وقرب إسعاده في روايته، ويوقن معه أن الله أعلم حيث يجعل رسالاته، ويخصّ بكراماته، وقد أقْدَمَ الآن بعد أحجامِهِ في استخذام أقلامِهِ، فإن رزق من الايجاب الشريف مايحقق التأميل، فهو المظنون في كرمه البديع، وطوله الوسيع، والآن فللخادم حرمة من أحْرَم وقصّر وطَلَبَ النصرة فلم ينصر، والله تعالى لا يخلي المجلس من تفاديه واسترقاق الأحرار بأياديه.

ومنه قولُهُ:

سطرّها الخادم وهو متمسك بالولاء الذي يُتمسك بحبله، والدعاء الذي هو جهد مثله، والثناء على صنائعِهِ التي طالما أبكى بها، وأضحك الآمال، وقصده أن يتعمد بعواطفه التي تحقق الأمل، ومجاراته على حسب النيّة لا العمل.

(١) سورة يونس: ٩١.

ومنهُ قوله:

أصدرتُ هذه الخدمة، واليد تنكل عن مطاوعة القلّم لهذه النازلة التي أصمّ نعيُّها السامع وهوّن وَقْعُها الفجائع: [من الطويل]

فـلا قـلـب إلاّ قـد تـبـايـن صـدعُـهُ ولا عـيـن إلاّ وهـيَ تـذرفُ بـالـدمِ

ومنه قولُهُ:

وهنأ بالنجاح كلُّ مَنَ عَشَىٰ إلى ضوءِ نارِهِ، وانتجع صوب أمطارِهِ، وسمع أخبار كرمِهِ، فاهتدى إلى قصد الكريم بأخباره.

ومنه قولُهُ:

وحَبَسَ عليه المدائح التي حازها بالاستحقاق، واستخلصها بكلمة الاتفاق.

ومنه قولُهُ:

وما زال متصلاً من الكمال، بما لا يقبل معه مزيداً، ولا يستطيع خلق لملابسِهِ تجديدا، خلقاً دان الخلق لمعجزاته، وقصرت الأفعال عن تحقيق صفاتهِ، والله أعْلَم حيث يجعل رسالاته.

ومنه قوله:

واشتاق إلى تلك الالفاظ المعسولة، والمعاني المشمولة، التي تميل /٣٢/ بأعطافها نشوة الفصاحة، وتَفْتَرُّ عن محاسنِهِ شفاهُ الرجاحة، فلا جَرَمَ، أنها قد شَغلَتْني أنْ أنْطق بمنثور مُلَقح أو منظوم مُنْقح.

ومنه قولُهُ:

وكتب الخادم هذه الخدمة أواخر شعبان عظّم الله لدى مولانا ميامن تقضّيه، وبركات ما يليهِ، جَعَلَ الأيام كلّها مواسم مساره وصحائف مباره ومعالم مآثرِهِ الحِسان وآثاره.

ومنه قولُهُ[1]:

مِنْ شِيَم السادات حفظ العادات، فما بال سيّدنا أغْلَقَ باب الوصال بعد فتْحِهِ، وأصلد زند الإيناس بعد[2] قَدْحِه، وأوْرَدَني أوَّلاً شريعة بِرِّهِ، ثم أجلاني[3] عن

(١) خريدة القصر ج٤ ق٢ ص٦٥٢.
(٢) في الخريدة: عقبب.
(٣) في الخريدة: حلأني، وحلأه عن الشيء: حال بينه وبينه.

شاطىء بحرِه، إن كان [ذلك عن ملل][١] فأنا أنزهه منه، أوْ لزلَلٍ[٢] فاستغفر الله منه، ولعلّ سيدنا يعود إلى عطفِهِ الكريم، ويرَوّح قلبي بمؤانساتِهِ الأرِجَةِ النسيم. وإذا تكرّم عند عَرْضِ ما كتبته بما تَحْسُن به الجلْوة، وتُجلَبُ به الحظوة، شكرت العارفة الحلوة.

ومنه قولُهُ[٣]:

جَعَلَ الله الدولة القاهرة مُونَقَةَ النضارة، مشرقة الانارة، ممنوحة الاطالة، ممدوحة الإيالة، ولا أخلاها مِنْ مأثرةٍ تروى عنها وتؤثر، ومنقبة تُذْكَر على تعاقب الأزمنة وتُشكر، ولا زالت مُمْطِرةَ الأزمنة، حالية بالمناقب البيّنة، مَتْلُوّة الأوْصاف بجميع الألسنة، مبثوثة المدائح بكل الأمكنة، وأسبغ على أطراف البلاد من عواطفها ماأضحك مباسم الظنون، وَحَلَّ كالغيث الهتون، ولا برحت أيامها ممتدّة المدّة، مُحتفَّة بالتهاني المستجدّة. وأوْرفَ ظلّها على الخلق. وأعْلى كلمتها القائمة بنصر الحق. ما [دارت][٤] الشُّهُب، ودَرَّت السُّحُب وشُهِرت القُضُب، ونُشِرَت الكتب. واستهلّت الأهلّة، واستهلت الأنواء المنهلّة.

ومنه قولُهُ:

وَصَلَ إلى العبدِ ما أُهّل له من مدارع التشريف الذي أحيا رمَّته، وجلاغُمَّتَه، واتخذه فخراً لأعقابه، وذخراً لمآبِهِ، وهو يرجو أن يقابل مواقع النعمة بما يجب من الشكر بلسان الخدمة، وسيتّضحُ من مساعي الخادم ونصائحه تأثير شكر جوارحه.

ومنه قولُهُ: [من الطويل]

/ ٣٣/ ولو أن أنفاسي أصَبنَ بحرّها [حديداً][٥] إذاً كاد الحديدُ يذوبُ
ولو أن عيني أطْلَقَتْ من بكائها لما كانَ في عامِ الجدوبِ جدوب

بي[٦] من الاشتياق إلى الخدمة مايصدعُ الأطواد، فكيف الفؤاد؟ ويوهي[٧] بالجبال فكيف البال؟ ولولا التعلّل بترجي الالتقاء لقيل عنه لك يا مولانا البقاء. إلاّ أنّه يستدفع الحزن بسوف، ويزجر الأسى بعسى، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[٨].

(١) في الأصل كلمة غير مفهومة: والتصويب عن الخريدة.
(٢) في الخريدة: أو لعثورٍ على زلل.
(٣) بعضه في الخريدة (قسم العراق) ج٤ ق٢ ص٦٣٥.
(٤) زيادة يقضتيها السياق. (٥) زيادة يقتضيها السياق.
(٦) خريدة القصر (قسم العراق) جـ٤ ق٢ ص٦٤٠ وفيه: وعنده من تباريح الاشتياق.
(٧) في الأصل: تهوي، والتصويب عن الخريدة.
(٨) سورة الشورى: ٢٩.

ومنه قوله[١]:

المراتِبُ تتفاضل مراقيها بتفاضُل راقيها، وتتفاوت معاليها بتفاوت[٢] مَنْ يليها. ولولا ما يعلمه سيدي من وظائف الخادم في التوفير على الدعاء لما سبقه إلى الخدمة قدم ولا ترجم تهنئته قلم. فمتّعَهُ الله بما وهبَهُ من المعالي، وأحَلَّهُ من مقاماتها في المكان العالي. وبارك له في وصل عقيلتها التي تغتبطُ بوصلِهِ، وتقول[٣]: الحمد لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٤]، وهو أعَزَّه الله يجلُّ قدره إن يُهنَّأ برتبةٍ وإن عَلَتْ، وترخص عنده قيمة كل حظوةٍ وإن غَلَتْ، فليهن الأنام ما تجدَّد لَهُ من المرتبة المنيعة الذرى. والمهابة التي خَضَعَتْ [لها][٥] أعناقُ الورى. والله لا يُخْلِيهِ من زيادةٍ يستمدّها وتهنئةٍ يستجدّها.

ومنه قوله:

وشكري لما أوْلى مِنْ مكارِمِهِ، يوفي على شكر الروض الذابِل لصنيع الوابِل، بل شكر مَنْ أُطلِق من أسْرِهِ. وجُبِرَ بَعدَ كسْرِهِ، ولو نهض بالعبد القدمان، أوْ أسعَدَهُ الزمان، تقصد الباب العالي ولو على الأجفان، وقام في زمرةِ المداح يتلو صحف الشكر باللسان. ولما قصرت به الخُطْوةُ عن هذِهِ الحظوة. أقْدَمَ على أن يهدي الورق إلى الشجر، وبيّضَ من مدائحِهِ شِعْراً كبياضِ الشَّعَر، هذا على أن ذنب المعترف مغفور. وإن أخطأ معذور.

ومنه قولُهُ:

طالما شجَّع الخادم قَلَمَهُ على إيضاح ولائِهِ، فَنَكص إلى ورائِهِ، وأحْجَمَ للتهيّب عن إنْهائِهِ. وقَدْ أقْدَمَ الآن على أن أبان. فإن أسْعَدَ بجواب يُبْهج بتأمّلِهِ، فقد حصل على مؤمله، وإن رجع بصفقة الخائب، /٣٤/ وطرد طرد الغرائب: [من الكامل]

فلربما مَنْعَ الكريم وما به ... بُخل ولكن سوء حظ الطالب

ولعلَّهُ يرفع الطرف ويشرف في الجواب ولو بحرف. وعليه سلام الله ماخَطَتْ أقدام، وخَطَّتْ أقلام.

---

(١) خريدة القصر (قسم العراق) ج٤ ق٢ ص٦٥٨.

(٢) في الخريدة: لتفاوت.

(٣) في الخريدة: فهذه التي تغتبط بوصله وتقول:

(٤) في سورة فاطر: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

ومن شعرِهِ[1]: [من البسيط]

قالَ العواذِلُ ما هذا الغرامُ بهِ … أما ترى الشَّعْرَ في خدَّيه قد نَبَتا؟

فقلتُ: واللهِ لو أنّ المفنّدَ لي … تأمل السحر[2] في عينيهِ ما ثبتا

ومَنْ أقامَ على أرضٍ وهي مُجْدِبَةٌ … فكيفَ يرحَلُ عنها والربيعُ أتى

وقال وقد أتاه رَجُلٌ لسمعته. فلما رآه استزراه[3]: [من البسيط]

ما أنتَ أوّلَ سارٍ غرَّهُ قَمَرٌ … ورائدٍ أعْجَبَتْهُ خُضْرةُ الدِّمَنِ

فاخترْ لنفسكَ غيري إنني رَجُلٌ … مثل المعيدي فاسمع بي ولا تَرَني[4]

وأوْرَدَ له عماد الدين الكاتب في الخريدة[5]: [من مجزوء الخفيف]

كم ظباءٍ بحاجرِ … فَتَنَتْ بالمحاجرِ

ونفوسٍ نفائسٍ … جُذرتْ[6] للجآذر

ورنينٍ لخاطرٍ … هاجَ وجْداً بخاطري

وعِذارٍ لأجْلِهِ … عاذلي عاد[7] عاذري

وشجونٍ تظافَرَتْ … عند كشف الظفائر

فهذا مقدار كاف في القسم الأول من مشاهير الكتاب الذين عظم صيتهم، ولا غوص لهم فأما هذا الرجل أعني أبا محمد الحريري، فإنه على ما رأيت، انموذج كلامه هنا قليل الغوص خلاف مقاماته، فإنه فيها كمن طلب الروض فجنى زهرها، وصعد السماء فاقتطف زُهرها، وإنما تركتُ اختيار شيء له منها لشهرتها؛ ولأنها صارت كتاباً بذاتِهِ لا تعدّ في سلك ترسلاته، وبينهما في حسن الكون ما رأيت من

---

(١) الأبيات في وفيات الأعيان ٤/ ٦٦ ومعاهد التنصيص ٣/ ٢٧٥.

(٢) في الوفيات والمعاهد: الرشد.

(٣) الأبيات في وفيات الأعيان ٤/ ٦٦ ومعاهد التنصيص ٣/ ٢٧٥.

(٤) اشارة إلى المثل: (تسمع بالمعيدي لا أن تراه) أو (تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه) والمعيدي منسوب إلى معدّ بن عدنان. اول من تكلم به المنذر بن ماء السماء، قاله لشقة بن ضمرة التميمي، وكان قد سمع بذكره، فلما رآه اقتحمته عينه، فقال هذا المثل، وسار عنه، فقال شقة: أبيت اللعن، إن الرجال ليسوا بجُزُرٍ يراد منها الأجسام، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فاعجب المنذر ما رأى من عقله ولسانه، وهذا المثل يضرب لمن له ذكرٌ وصيت ولا منظر له. (انظر الوفيات ٤/ ٦٨).

(٥) خريدة القصر جـ٤ ق٢ ٦١٤. أوردها أيضاً ابن خلكان نقلا عن الخريدة، وواضح أن المؤلف هنا ينقل عن الوفيات.

(٦) في الأصل: حدث. والتصويب عن الخريدة.

(٧) في الخريدة: صار.

هذا البون، على ما أوْرَدْتُ له من هذه الرسائل هي الفرائد التي لا تقوّم. والفوائد التي تعني من يتعلم متماثلةً في توفية الأعراض مغازلةً كالجفون المِراض، سهلةً على فهم المتناول قريبة[١] لا تنالها يدُ المتطاول.

* * *

(١) في الأصل: قرمة، ولعل الصواب ما أثبت.

[القسم الثاني]

وأما القسم الثاني من أصحاب الغوص، فسنذكرهم على أن حكم أكثر الكتاب القدماء /٣٥/ حكم العرب. كلاهما له فضيلة السبق، وفتح الطريق، وحكم المتأخرين منهم حكم المولدين من الشعراء في توليد المعاني باللطائف، وقد وشّحوا صناعتهم بالاستعارات الصحيحة والتشبيه والاستخدام والتورية وأنواع البديع. وتناهوا في التدقيق والتنميق، وتباهوا في التخيّل والتخيير، وقيّدوها بالاسجاع. ولزموها كالقوافي، فلم يعوزها من الشعر إلا الوزن، فأخملوا الأوائل، وأخمدوا كلّ قائل، وأتموا الفن وكملوه، وزينوا الفضل وجمّلوه، وهذا مكان للمغرب فيه مع المشرق مجال، وميدان له في فرسانه رجال. وهو في هذا غير ممنوع ولا مدفوع، لكنّه فيما تقدّم المائة الرابعة لا يذكر لَهُ في هذه الفينة فئة ولا تظهر له هيأة، ثم ماعدم في هذا الشأن ما أَوْهَنَ زجاج حاسده، واشرق بغصص الدمع شأن معانِدِهِ. ولا نقول هذا على أن للغرب بهذا المزيّة على الشرق، ولا انه سلم إليه في هذا الحقّ، وإنما نحن بصدد إنصاف وما نبعد في ما بين الغرب والشرق في هذه الفضيلة، ولا نجحد ان له بمن نعدّه هنا وسيلة، وإلا فالمشرق من كتابه المتأخرين من اقتطف الزُّهر والزَّهر، وجرّ ردنه على المجرّة والنهر، وأتى بما هو أَضْوَع من العبير، وأَضْوَء من جبهة القمر المنير، وردوا غُدر البلاغة فشربوا زرق نطافها. وساموا رياض البراعة وشرعوا في قطافها، فولّدوا المعاني واخترعوها وابتدؤا حسن الطرق وابتدعوها، وفَتَنَ الألباب كلامهم الدر، ولفظُهُمُ الرقيق الحرّ، وأدعى قول نقولهُ للحق: إن من لدن المائة الرابعة وهلمّ جرّا، أهل المغرب في هذه الصناعة أكثر رجالاً، وأهل المشرق أبرع رَجُلاً، وإنما أردنا بتقديم مَنْ قدّمنا ذكره منَ الوزراء والكتاب، وإن لم يكن ما يؤثر عنهم مما يناسب دره كلّه نظم هذا السحاب، لاثبات الفضل للشرق على الغرب في تلك المدد الطوال والسنين الخوال. فإن الشرق كان معهداً بمثل هؤلاء والغرب قفْرٌ يباب.

/٣٦/ أكتب من فيه نقول له: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ ﴾[1]؛ على أن هؤلاء

---

(١) سورة الشورى: ٥٢.

القدماء وإن لم يدخلوا في الغوص من هذا الباب، ولا أتوا باللب اللباب، فما فاتهم سابقة فضلٍ في فضل، ولا قصرت بهم راية عن غاية وفي أثناء ما ذكرناه دليل لولا الاكتفاء به لبينّاه، مع سعة هذه المقدرة، والتقدم في دول الخلفاء، والتقرب في خواطرهم إلى محل الاصطفاء، وماأُجْرِيَ لهم من الأرزاق أو جرى لهم من الأموال، وأقلّها خزائن والإقطاعات، وأصغرها مدائن والنفقات، وأهولها قناطيرٌ مقنطرة، والعطايا وبعضُها جُمَل مستكثرة والدولة الزاهرة، وكانوا أطوادها، والصولة القاهرة، وكانوا إذا رؤوا آسادها، والخلافة وكانوا عمادها، والامامة وكانت أقلامهم سيوفها، والسيوف أغمادها، المفاخر وقد جمعوا شتيتها، والمآثر وقد استطابت على مطارف السحاب بيتها، واغتنام الايام، وصنائع ملكوا بها رقّ الأحرار، وأطافوا بها على الاكباد الحِرار. فيا أيّها المباهي للشرق بالمغرب، والمباهل في هذا الفضل المغرِب. ها قد قُلْنا لك بعض ماعندنا، فقل لنا كلَّ ما عندك، وأرِنا نارك إن كنت تحرق، واقدح زندك.

فأما ما نذكره لأصحاب الغوص قديماً، ونَصِلُ جناحَهُ بالآخرين فسنغصّ به حلوق المفاخرين. ونقذي عيونهم في الآخرين، ونخرّهم للأذقان على وجوههم داخرين، وها أنا ذاكر القسم الثاني.

فمنهم:

[٤]

أبو الفرج، عبد الواحد بن نصر بن محمد القرشي المخزومي، المعروف بالببغاء[1]

وهو رأس الجماعة ورئيس القوم في البضاعة. ماقصّر في معنى تشبيهه عن ابن المعتز. ولا في ديباجة لفظه عن البحتري، ولا في إحكام معانيه عن أبي تمام وفي

---

(١) أبو الفرج الببغاء: من أهل نصيبين، من الادباء والشعراء والكتاب المترسلين اتصل بسيف الدولة الحمداني، ورافقه في بعض وقائعِهِ، لقب بالببغاء للثغةٍ فيه، وقيل بل لفصاحته. توفي سنة ٣٩٨هـ وله «ديوان شعر» ذكره ابن النديم و«ديوان رسائل»، لم يعثر عليهما أحد، جمع الاستاذ هلال ناجي ديوان شعره ورسائله وقصصه، وقدم لها بدراسة عن حياته وأدبِهِ، ونشرها ببيروت /١٩٩٨. ونشر الدكتور سعود محمود عبد الجابر (شعر الببغاء) الدوحة: ١٩٨٤.

ترجمته في: تاريخ بغداد ١١/١١، والمنتظم ٧/ ٢٤١، وفيات الأعيان ٣/ ١٩٩، يتيمة الدهر ١/ ٢٣٦ـ٢٧٠ والوافي بالوفيات ١٩/ ٢٧٧ والعبر ٣/ ١٥٢ وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٩١ والبداية والنهاية ١١/ ٣٤٠ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢١٩ وشذرات الذهب ٣/ ١٥٢ وتاريخ بغداد ١١/ ١١.

كثرة تنويعه عن أبي نواس، علم لا يخفى، وقلم لا يحفى، غرس آداب خضل النبات، مخضرّ الجنّات، رأى المجد هضبة فأناف /٣٧/ رأسها، وحلبةً فأجرى أفراسها، فطرف بطارفه الناكد، وشرف بمطارفه الوالد، وأحيا شرف مخزوم، ومذ فرع عمُر عَمر وفات خالد.

توفي الببغاء سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة.

ومن كلامه يصف حماره[١]:

مُخططةٌ يستطيل بياضها، فيما يستطيل من أعضائها، ويستدير فيما يستدير، وهذه الأتان ماخرجَتْ عن العادات، وخالفت الموصوفات، ناطقة في كمال الصنعة بأفصح لسان، مشتملة على غرائب الإحسان، أنْفَسُ مُدَّخر، وأغرب موشىّ، وأفخْر مركوب، وأطرف محبوب، وأعجز موجود، وأبهر محدود، كأنما وسمها الكمال بنهايته، أو لحظها الفلك بعنايته، فصاغها من ليلِهِ ونهارِهِ، وحلاّها بنجومِهِ وأقماره، ونقشها ببدائع آثارِهِ، ووشّى روضها ببيانع أزهاره، وَرَمقها بنواظر سعودِهِ، وجعلها بالكمال أحَدَ حدوده، جامعة شتيتها بالقسمة والترتيب بين زمني الشبيبة والمشيب، قيد الأبصار وأقد الأفكار، ونهاية الاعتبار، بستان بسرج، وروضةٌ بمرج، منزّه عن الحلى عطَلُها، مزريةٌ بالزهر حُلَلُها، حدّ جنسها، وعالم نفسها، صنعة المنشىء الحكيم، ﴿ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[٢]﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٣].

ومن قوله[٤]: قرين اسطرلاب أهداه:

أجل الهدايا ـ ياسيدي أطال الله بقاءكَ ـ موضعاً وألْطفها من الملاطف بها موقعا. ما لاءم الاختيار، ووافق الايثار، وكان العقل أخصّ بفائدته، والفهم أحظى بيُمْنِ عائدته، ولما كنت أيدّك الله ممن لا يتوصل المتوصل إليه إلا بما يتفق العادة والحكمة عليه، آثرتك وفَّقَكَ الله ببرهان الحكمة، ونسبها، ومدار الفلسفة وقطبها، ومرشد الفكر ومناره، وميزان الحسن ومعياره، ونافي الشك ومزيله. وشاهد العالِمَ ودليلَهِ، ومصوّر الهندسة وممثلها /٣٨/ ومقسّم البروج ومعدلها، وموقف النجوم ومثيرها، وجامع الأقاليم ومدبرّها، مرآة الحبك وصورة الفلك. وأمين الكواكب، وحدّ المشارق والمغارب، مما اخترعت العقول تسطيحه. وأتقن الحساب تصحيحه،

---

(١) مما أخل به كتاب (الببغاء: حياته، ديوانه، رسائله، قصصه) جمع وتحقيق الأستاذ هلال ناجي.
(٢) سورة الأنعام: ٢٤. (٣) سورة المؤمنون: ١٤.
(٤) مما أخل به كتاب الببغاء.

وتمارت الفِطن في ترتيبه، واصطلحت الحكماء على تركِيبه. فأوضَحَتْ باليقين تقسميه، وأبانت بالكتابة قلمه ورسومه، إلى أن شافهنا بالارتفاع على بعد مسافتِهِ وحصر متفرق الأنوار في مجرى عضادتِهِ، واحتوى على قطبي الشمال والجنوب، واطلع باللطف على خفيات الغيوب، متعك الله باستخدامِهِ، واسعدك بمواقع أحكامه، وأغناك بالتوفيق عمّا يستمدّه منه، وبالخيرة عن الاختيارات الصادرة عنه، وقد أنست وحشته من فهمك بسكنه، ورددته من ذكائك إلى وطنه، فإن رايت أن تديله من الافهام الصدئة بصفاء بصيرتك، وتقرّه في أمتع قرار ومن كنف فطنتك. فعلت إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله[1] يستهدي دواةً من الآبنوس بآلاتها:

وَلَعَلّ المولى يُنْعم بدواة تكون للكتابة عتاداً، وللخواطر زناداً، جدولية العطفين، هلالية الطرفين، مسكيّة الجلدة، كافورية الحلية، فسيحة الأحشاء مهفهفة الأعضاء، فهي من لون جلدتها، ووشائع حليتها: [من الخفيف]

كشبابٍ مجاورٍ لمشيبٍ أو ظلامٍ موضَّحٍ بنهار
أضمرتْ آلة النهى فهي كالقلب وما تحتويه كالأفكار

يقارنها قضبانٌ من ذخائر السحاب، وودائع التراب، كل معدل الكعوب، قويم الانبوب. باسق الفروع، رويّ الينبوع، نقيّ الجسد، نازح العقد، مختلف الشيات، متفق الصفات، مما اعتنت الطبيعة بتربيته، وتبارّت الديم في تغذيته، كالجوهر المصون واللؤلؤ المكنون /٣٩/ ملتحف الاجساد، بمثل خوافي أجنحة الجراد، أولى باليد من البنان، وآنس بخفي السرّ من اللسان، مقترنٌ ذلك بمديةٍ لا تفتقر إلى جلب، ذات غرارٍ ماضٍ وذباب قاض ومنسر نادٍ، وحديد سمائي وجوهر هوائي ونصاب زنجي معه مقطّ يرتفع عليه تقديرها وينحطّ، ذو جسدٍ بجراحها مكلوم، وجلد بآثارها موسوم. [من البسيط]

في كل عضوٍ له من وقعها أَلَمُ وليس ينجع فيه ذلك الألَمُ
كأنه وامتهانُ القط يرغمُهُ انفُ الحسودِ إذا أرغمنه النعمُ

حتى إذا جئت غاربه وأطلقت مضاربَهُ، انصاع من أهون جفير، وكرع في أعذب غدير، لاترده غير الأفهام ولا يمتح بغير ارشيه الاقلام، تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره، وتنشأ سحب البلاغة من قرارِه، منير مظلم، مشمسٌ معتم. [من الخفيف]

---

(١) وهو مما أخلَّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

يجري واجزاؤه في الوصفِ جامدةٌ ويستهل ومايجري له مُقَلُ
إذا الخواطرُ حامَتْ حَوْلَ مَوْرِدِهِ لَمْ يظمها مِنْ قراهُ العَلُّ والنَّهَلُ
كأنَّ أقلامَنا فيما تحملهُ إلى القراطيس عن أسرارنا رُسُلُ

ومنهُ قولُهُ[١] لرجلٍ في تزويج أمّهِ:

واتصل بي ماكان من أمْر الواجبة الحق عليك، المنسوبة بعد نسبك إليها إليك، واختيارها من الصيانة التي تحفظ جلالتها، وتحسن إيالتها، وتنمي مالها، وتشدّ أحوالها، ويعين طباعها على كرمها، وتقيم مهابتها على خدمها، ما لولا ان النفس تناكره بغير طريق شرعي ولا دليل قطعي، لكنت في مثله بالرضا أوْلى، وبالاعتداد بما جدّده الله من صيانتها أحرى، وقد آثر الصلة بها من تقوى بصلته، قوة اليد بالساعد وتعتدّه عمّا بحكم المجاز والعم صنو الوالد. وتزوَّجت أم زيد بن علي[٢] فلم يمنعه عما جاء به الشرع حميّة النخوة، وسُئل: لم تزوجت أمّك بعد أبيك / ٤٠/ فقال: لتبشر بآخر مثلي من الإخوة، وفي هذا لها - أصانها الله - مزيد للعفة، وموئل للكلفة، والزواج يُسْتَحبُّ للرجال والنساء سواء، في طلب تجديده شهوات الأمهات والآباء، وقد جَدَع الإسلام أنْفَ الغيرة، وجعل فيما اختاره الخيرة، ولا يسخطك - أعزّك الله - ما رضيه موجب الشرع وحبّبَ ادب الديانة، وحكم به حاكم العقل في الصيانة، فمباح الله أحقّ ان يتّبع، وهوى النفوس في الحميّة أولى أن يمتنع، فإياك أن تكون مِمّن إذا عدم اختياره، تسخط اختيار القدرة.

ومنه قوله[٣]: في فتوح: أصدرت هذا الكتاب بمواقع نعم الله الشاملة، وآثار نِعَمِه المتواصلة، وهو أنا لما رأينا السيوف متوثبة في الأيدي للضرب، وحاذرنا هجوم الشتاء على مضيق الدرب، جعلنا آخر الأمر أوّلَهُ، وركبنا من الصعب أهوله، وأرسلناها تتبارى في الركض، وتتلاعب بالأرض، وتتواثب كالظلمان، وتتهافت كالعقبان. أسرع من النجوم السائرة، وأنْفَذ من السهام العائرة، إلى أنْ نزلنا بطن هنزيط[٤] فكنّا أسبق إلى عيون أهلها من النظر، وأدْخَل في نفوسهم من تسقط الحذر، ولم يمض صدر اليوم إلا وقد حصل جميع من فيه من المقاتلة والحامية، والسبي

---

(١) بعضها في صبح الاعشى ٩/ ٧٩ والبغاء ١١٧.

(٢) لعله أراد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) وامه أم ولد اهداها المختار لابيه، ولم يذكر أحد من المؤرخين انها تزوجت بعده (انظر في ترجمة زيد ونسبه: مقاتل الطالبين ١٢٧).

(٣) مما أخل به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

(٤) هنزيط من الثغور الرومية، ذكرها أبو فراس والمتنبي في شعرهما «انظر معجم البلدان ٥/ ٤١٨».

والماشية، والغلام والجارية، تحت رقّ الصفاح وفي ملك الخيل والرماح، ثم يجمعنا بلد قالي قلا[(١)] فوردناها، وقد سبقنا الانذار، وتقدمنا إليهم بالحذار، فرجعنا إليهم بالعزائم الثاقبة، والكتائب العالية، فما كان بأسرع من أن زلزلت بهم الأقدام وتحصنوا بالهرب من الحمام، ودخلوا البلد، فكاد السور يقذف بمقاتلتهم، والأرض تنخسف زلزالاً بكافتهم، ثم دخلنا البلد والسيف يأخذ مَنْ أدْرَكه، والطعن ينحر من استملكه، ثم زحفنا على من استعصى بالكنيسة، فخاطبونا بلسان الإذعان، وراسلونا في التماس الأمان، فأجبناهم إلى ذلك مشترطين /٤١/ مامَنَعَهم حظّ الإسلام من قبوله، فاقتطعهم الطمع عن تحصيله، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[(٢)]، وبرقت لهم مكائد النشاب، ودخلت عليهم رُسُلُ الموتِ على أجْنحة النسور من كل باب، فاستنزلناهم بحكم السيف وهم مهطعون، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[(٣)]، وأقمنا على أعلى جدرانه الأذان، ورتّبنا المصلين مواضع الصلبان. ثم انقلبنا بأسعد مُنْقَلَب، وأربح مكتسب، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٤)].

ومنه قوله[(٥)] يصف تشريفاً وفرساً وصلا إلى أبي تغلب[(٦)] بن حمدان من الخليفة:

وصل كتاب أمير المؤمنين[(٧)]، مطلقاً إلى الرشد بالتوقيف[(٨)] مقترناً بخصائص التكرمة والتشريف[(٩)]، فقبلتُ من المجلس الشريف مواقع افضاله، واعتلَقْتُ من السعد بأذيالِهِ، وبرزت في الخلع الموسومة بانعامه، والمناطق الناطقة باكرامه،

---

(١) قالي قلا، وتكتب قليقلا، والنسبة إليها قالي، وهي مدينة بأرمينية من نواحي خلاط، وهي مدينة حسنة عامرة، وتغلب عليها الروم وعلى ماجاورها مرّات واستنقذها المسلمون من أيديهم، انظر معجم البلدان ٤/ ٢٩٩ والروض المعطار ٤٤٧ وفيه (قالي قلا).

(٢) سورة الحشر: ٢.

(٣) سورة التوبة: ٤٨.

(٤) سورة الزمر: ٧٥.

(٥) صبح الاعشى ٦/ ٤٩٣ وعنه في مجموع رسائله ضمن (الببغاء، حياته، ديوانه، رسائله، قصصه) تحقيق هلال ناجي ص١٠٢.

(٦) أبو تغلب.

(٧) بعده في صبح الأعشى: أدام الله نصره.

(٨) في صبح الأعشى: مشتملاً على فوائد الإرشاد والتوقيف.

(٩) بعدها اختلاف كبير بين نص المؤلف وصاحب صبح الأعشى.

متدرعاً منها ثياب السكينة. والهدي، مختالاً من حللها فيما يروق الأولياء ويروع العدا، متقلّداً عضبه الذي هزّ النصر غراره وأحسن آثاره، عالياً على عنق الزمان بامتطاء ماحباني به من الجواد الذي تزل الأبصار عن صهواتِهِ[١]، وتتبلّج غرّة الفجر في ظلماته، وهو مع كونه تحلّى بحلية الكافر، يروع كل كافر مشرك. ويحقق بركضه انه الليل الذي هو مدرك. والحمد لله الذي جعل صنائع أمير المؤمنين عند مَنْ يرتبطها بعلائق شكره ويحرسها بالتوفر على جميل ذكرها في ذكْره.

ومنه قولُهُ[٢]:

فلان يطرق الدهر إذا نظر وينظر المجد إذا افتخر، سعى إلى العلياء فأدركها، وعاقد عليها الآراء فملكها، وهي ماتدرك بغير السماح، ولا تملك إلاّ بأطراف الرماح.

ومنه قوله[٣]:

والبلاغة ميدان لايُدرك إلا بسوابق الأذهان، ولايسلك إلاّ ببصائر البيان، وقلّ من يركب طريقها على التغرير أو أمل قطعها بالتقصير، إلا فضحته المطاولة، وكَشَفَتْ خَلَلَهُ /٤٢/ المساجلة، فسقط مِنْ حيث أمل الرفعة، وذل من حيث حاول المنعة.

ومنه قوله[٤]:

وأمّا هذا الفتح، فأوْصافُهُ لاتُدْرك بالعبارات، ولا تدخل تحت العُرف والعادات: [من البسيط]

فتحُ أنارَ الهُدىٰ بعدَ الظلام لهُ   واسترجعَ الدينَ مِنْ بعْدِ الرهانِ بهِ

تاهَتْ بأيّامِهِ الأيامُ واعتذرَ الـدَّهرُ الخؤونُ إليهِ مِنْ نوائبِهِ تباشرت بورود أخباره المنابر، وشهدت بفضله البواتر، ووفت فيه الحِيل بعقد الضمان، وناب الخوف له عن ملاقاة الأقران، وآذن بالعاجل على ماأدخره الله في الآجل.

ومنه قوله[٥]:

وقد شرّفني سيدنا بأعز الحملان، الحامل لي على عنق الزمان، فجاء موفياً على

---

(١) من قول امرىء القيس: (ديوانه ٢٠): [من الطويل]

يـزل الـغـلام الـخـف عـن صـهـواتـه   ويُـلـوى بـأثـوابِ الـعـنـيـفِ الـمـثـقـلِ

(٢) لم يرد في نشرة الاستاذ هلال ناجي.

(٣) لم يرد فيما نشره الاستاذ هلال ناجي بكتاب (الببغاء).

(٤) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

(٥) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي. والأبيات فيه ص٦٨.

التأميل فيه، مناسباً لصنائع مهديه، متفاوت العدو، متقارب الخطو، حديد النظر محمود الخبر، عريق النسب، مخبور الحسب، أخفّ من الوهم، وأمْرَق من السهم، وأسرع من البارق، وأشهر من لاحق[1]، شخص إقبال، وجملة كمال: [من الكامل]

إن لاحَ قـلـتُ أدُمْـيَـةٌ أم هـيـكـلُ؟ أوْ عَـنَّ قَـلْـتُ أسـابـحٌ أمْ أجْـدَلُ؟

تـتـخـاذل الألـحـاظُ فـي إدراكـه ويـحـارُ فـيـهِ الـنـاظـرُ الـمـتـأمِّـلُ

فـكـأنّـه فـي الـلـطـفِ سـهـمٌ ثـاقـبٌ وكـأنـهُ فـي الـحُـسْـنِ حَـظٌّ مُـقْـبِـلُ

ومنه قوله[2]:

وإذا كان الشكر ترجمان النيّة ولسان الطويّة، وسبباً إلى الزيادة، وطريقاً إلى السعادة، فألسنُ آثارها على الشاكر مع الصمت أفصح من لسانه، وبيانها عند الجحود أبْلَغُ من بيانِهِ.

ومنه قولُه[3]:

فلانٌ يَسَعُ العالَمَ إحسانُه، ويستغرق الشكر امتنانه، ويستخدم الدهر عزمه ويؤدب الأيام حزمُه، كعبةُ فضل، وغمامة وبل، الليالي بأفعالِهِ مشرقة، والأقدار من خوفِهِ مطرقة، تحمده أولياؤه، وتشهد له بالفضل /٤٣/ اعداؤه، ولايصل الشك إلى سريرته، ولا ترقد عن الحقّ عين بصيرتِهِ، كالقمر السعد والأسد الوردْ: [من البسيط]

إن[4] سارَ سارَ لـواءُ الـنـصـر[5] يـقـدمُـهُ أوْ حـلَّ حـلَّ بـهِ الإقـبـالُ والـكـرمُ

يـلـقىٰ الـعـدا بـجـيـوشٍ لا يـقـاومُـهـا كُـثْـرُ الـعـشـائـرِ[6] إلاّ انّـهـا هِـمَـمُ

ومنه قولُه[7]:

والحمد لله على ماوهب مولانا من عافية يقتضي بها شكره، وعارض مرضٍ يختبر بها صبره؛ ليوجب له الزيادة من نعماه بالشكر، ويدّخِر له أرفع درج الجزاء بجميل الصبر. [من الطويل]

فـبـالـمـجـدِ فـقـدانُ يـصـحُّ لـهُ امـرؤٌ بـقـاء الـعـلا والـمـكـرمـاتِ بـقـاؤهُ

---

(١) لاحق: فرس كان لغني بن اعصر (أنساب الخيل للكلبي ص٢٢)

(٢) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

(٣) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

(٤) البيتان من أبيات في معجم البلدان (ديار بكر) ٢/ ٤٩٤، وعنه في مجموع شعره، قال إنها ضمن رسالة يمدح بها سيف الدولة وقد انصرف من بعض غزواته.

(٥) في المعجم: الحمد. (٦) في المعجم: العساكر.

(٧) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي وكذلك القصيدة.

يداوي مِنَ الوغْلِ الاطباءُ جسمَهُ ويعدم مِنْ وقعِ الرماحِ اتّقاؤُهُ
فياذا الذي في رأيهِ وحُسامِهِ إذا اعتزما يبرا الزمان وداؤه
رويداً فبالآمالِ أعْظَمُ فاقةٍ إلى غيث جودٍ في يديكَ سماؤه
فرفقاً بجسمٍ إنْ أردتَ بقاءَهُ فصفحُكَ للترفيهِ عنهُ شِفاؤه
فما حُمَّ حتى حمتِ الخيلُ قبلَهُ [وحتى ترى][1] الصمصامَ يبدو اشتكاؤه
ولا تنكرَنْ مِنْ ذا الدؤوبِ اعتلالَهُ بحالٍ فَقدْ يصدي الحسامَ انتضاؤه

ومنه قوله[2]:

وقد ذهب رمضان عن سيدنا يشهد له عند الله بأفعالِهِ، ويثني عليه عند الله بأعمالِهِ، تحسد لياليه على صيامه أيامه. وينافس صباحه على تهجده ظلامه، موصولة الطاعات ساعاتُهُ، مقرونة بالخيرات أوْقاتُه: [من الكامل]

ولّى ولو ملكَ اختياراً انزلتْ شوالَ عن أيامِهِ أيامُهُ
وأسعدْ بعيدٍ لم يزلْ يهدي له من قبل مقدمِهِ البشارةَ عامُهُ

ومنه قولُهُ[3]:

كتبتُ إليك بيدٍ أطلق الثقة بيانها من اعتقال الياس، وعن رغبةٍ انصرفَتْ إلى تأميله عن جميع الناس، مستظهراً على الدهر بالصبر، إلى أن عَدَل بي الحزمُ عن طريق نوائبهِ، واجْتَنَبَتْ يدُ التوفيق ثمر السلامةِ من مصائبهِ، وأنا من المولى متوسط رغبتي وعلاه، وبين شكري / ٤٤/ ونداه. مع أنني كما قلت: [من الطويل]

يطولُ على الأيامِ أنْ تسترقَّني مع الدهرِ إلاّ للكرامِ المَواهبُ
وما كلّ حالٍ يكسبُ المالَ يُرتضى ولكنْ على قَدْرِ النفوسِ المكاسِبُ

ومنه قولُهُ[4] يشكر منعما سَلَكَ بِهِ مسلك والدِهِ، لو ارتفع برٌ عن شكْرٍ، أو جَلّ انصاف عن اعتراف، لارتفع قدرُ تفضّلِكَ الذي توالت عليَّ أنواؤه، وسابق رجائي ابتداؤه، ولم يجسر حمدي على مطاولة إحسانِكَ، ولا أقدم بناني على وصف امتنانك، ولكن حق لما انتحى إليك أن يفوت الأكفاء، ويبذَّ النظراء، لاسيما مَنْ قَصَدَك مقصد أبيك فغدا يرتجيك: [من المتقارب]

---

(١) زيادة يقتضيها السياق واستقامة الوزن.
(٢) مما أخل به مجموع الاسناد هلال ناجي.
(٣) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.
(٤) مما أخل به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

فقدْ كان شكريَ ملكاً لهُ وأنتَ أحقُّ بميراثِهِ

غمامٌ أنت ماؤه، وبدر أنت ضياؤه، وعَضْبٌ أنت غراره، وحَقٌّ أنت منارُهُ، سعى فجئت على أثرِهِ، وصَمَتَ فنطقت عن مفخرِهِ، فكرمك فرع كرمِهِ، وهممك نتائج هممه.

ومنه قوله(١) في التهاني بعام أسعدَ الأعوام:

ـ أطال الله بقاء الأمير ـ ما ألقى عليه سيدنا أيدّه الله بالمجاورة شعاع سعادته، التي هي حلى الدهور. وغرر الأيام والشهور. وقد أكلّ هذا الحول السعيد، مبشراً بأكمل مزيد، وأحسن تجديد. [من الوافر]

فلا برحَ الزمانُ بكلّ سَعْدٍ سفيراً بينَ ملككَ والدوامِ
إذا أفنيتَ عاماً منهُ أضحى ضَميناً للبقاءِ بألفِ عامِ
فما عَرَفَ التمامَ الخلْقُ حتى ظهرتَ فصِرْتَ حداً للتمامِ

ومنه قوله:

غرّة الدهر، وقبلة الشكر، إن رفع الجيش حماه، أو هزّ الحسام أمضاه، أوْ أوْرَدَ السنان أرضاه، تتعزّز بخدمته الأيام، وتضيء بمناجاته ظلم الأفهام. خَصَم النوب وشخص الحسب: [من المتقارب]

يجلّ عن الهزّ عندَ الجِلادِ ويضحكُ في حالةِ المغضبِ
شجاعتُهُ عدّة المرهفاتِ وهيبتُهُ موكبُ الموكبِ

لا تطمع الأفهام بلوغ حقّه في مطاولتِهِ، ولا تسمو هِمَمُ الخواطر إلى مساجلتِهِ، غاية المادح أن يرجع عن الإطالةِ إلى الاختصار، ويقتنع بالقليل من الإكثار: [من الكامل]

يامن سطوتُ على الزمانِ تهاوناً بالحادثاتِ مُذِ اعتمدتُ عليهِ
لا غَرْوَ أن أخَرْتُ عنكَ مدائحي مدحُ الحسامِ العضْبِ في حدّيْهِ
ومتى تشابهتِ الشياتُ فإنّما يجري الجوادُ إلى مدى أبويْهِ

ذلك المقام مخاطباً على البعد بالفاظك. مرموقاً بالمراعاة من ألْحاظك، غير نازحٍ عما ألِفَهُ من عواطف الولادة وانبساط الأنسة المعتادة، وإن شيئاً أوثَقَ حسْمَ دواعِي الخلاف، وأدّى إلى دوام الائتلاف، لحقيقٌ بالمبالغة في تأكيده بالحرمة،

---

(١) مما أخلّ به مجموع الاستاذ هلال ناجي.

وتخويله في النعمة.

ومنه قولُهُ[(١)] في هذا المعنى:

وأمّا أبو نجم[(٢)] فقد أدى الأمانة إلى مُتَحملها، وسلَّمَ الذّخيرة الجليلة إلى متقبّلها، فحلّت من محلّ العزّ في وطنها، وآوت من حمى التودّد إلى مسكنها. صادرةً من أنبل وِلادة ونَسَبٍ إلى أشرف اتصال، وكيف يوصى الناظر بنوره أم كيف يُحضُّ القلب على حفظ سروره. ولو لم يَمُدّ أبو النجم بغير الخدمة في هذا الأمر العظيم محلاً، السعيد عقداً وَحَلاً، لكان للحظوةِ أهلاً، ولرفع المنزلة أولى إن يملى، فكيف وآثار نُصحه في جمع الشمل لائحة، ودلائلُ وفائه بهذِهِ الألفة واضحة؟.

ومن نثره أيضاً:

وأما فلان فقد أمنت الأعداء فتَكات حسامه، وبَعُد عهدُ الخيل بإسراجه وإلجامِهِ.

ومنه قوله:

رئاسة تزهر المناقب في أُفق علائها، وتتنافس الأشراف في التعلق بولائها. أسْبق إلى الطعنِ من الأسنّة، وأحذق من زيد الخيل[(٣)] بتصريف الأعنّة، إن قالَ فَصَل، أوْ حَكَمَ عَدَل، أو نَطَقَ صَدَق، أو سُوبِق سبق. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عفو خطراته، مبرقع الطلعة بالخفر، مُسْفِرُ الوجه عن دارة القمر، ماينفكُ من الكمد حاسده، ولا يسلم من الدهر معانده. [من المتقارب]

/٤٦/ أقامَ حُقُوقَ النَّدَىٰ والقَنَا ... ليومِ السَّماحِ ويومِ الطِّعانِ

بجودٍ يُسَابِقُ نجمَ السؤالِ ... وبأسٍ يُطَاعَنُ قبلَ السِّنانِ

الحسام خدَينُهُ، والرمح قرينُهُ، والسرج وطنهُ، والتيقظ رسنُه، فسائره قلب، وجملته لبّ، من الدوحة التغلبية، والنبعة الحمدانية. [من الكامل]

نَسَبٌ لو أنَّ الليلَ ألبسهُ انثنى ... بضيائِهِ لسنى الصباحِ يُضاهي

وخلائقٌ لوصُوّرتْ لظننتَها ... زهراً أوِ انبجَسَتْ حَدَتْ بمياهِ

---

(١) يتيمة الدهر ١/ ٢٧٣ وعنه في مجموع رسائله.

(٢) أبو نجم: هو بدر الحرمي.

(٣) زيد الخيل بن مهلهل الطائي، أبو مكنف، من فرسان الجاهلية وشعرائها، سمي زيد الخيل لكثرة خيله، وفد على رسول الله ﷺ فسماه زيد الخير، وعاد إلى نجد فمات في الطريق سنة٩ هـ. وكان شاعراً خطيباً، جمع د. نوري حمودي القيسي شعره ونشره في المورد ٣/ ٢/ ٢٢٨، وانظر الأغاني والإصابة ترجمة ٢٩٣٥ وخزانة البغدادي ٢/ ٤٤٨ وأخباره كثيرة في كتب الأدب.

قـومٌ بـلـوتُ مـديـحَـهـم فـوجـدتُـهُ ... أحْـلـى مِـنَ الـرشـفـاتِ فـي الأفـواهِ
وطـلـبـتُ مـجـتـهـداً نـهـايـة وصْـفِـهِـم ... فـوجـدتُـهُ مـالـيـسَ بـالـمـتـنـاهـي

ومنه قولُهُ:

حقٌّ لمن انتمى إليك أن يفوت الاكفاء، ويبذّ النظراء، لاسيما من قصد بك مقصد أبيك، وغد يرتجيك، فقد توالت عليَّ انواؤهُ، وسابق رجائي ابتداؤه، [من المتقارب]

فـقـدْ كـان شـكـريَ مـلـكـاً لـهُ ... وأنـتَ أحـقُّ بـمـيـراثِـهِ

غمامٌ أنت ماؤه، وبدرٌ أنت ضياؤه، وعضْبٌ أنت غراره، وحقٌّ أنت منارُهُ، سعى فجئت على أثرِهِ، وصَمَتَ فنطقْتَ عن مفخرِهِ، فكرمك فرع كرمِهِ، وهممك نتائج هممه، ذهب وأبقاك، ونام مطمئناً وقد استرعاك، فلقد خلقت عندي أياديه خلقاً جديداً، واستصحبت لي من نعمه كرماً موجوداً.

ومن شعرهِ[1]: [من البسيط]

أحبابَنا[2] هـذِهِ نـفـسي[3] تُـوَدِّعـكـم ... إذْ كانَ لا الصبرُ يُسْليها ولا الجَزَعُ
قدْ كنتُ أطمعُ في روحِ الحياةِ لها ... فـالآن إذ بِـنْـتُـمُ لَـمْ يـبـقَ لـي طَـمَـعُ
لا عـذّبَ اللهُ رُوْحـي بـالـبـقـاء فـمـا ... أظـنُّـنـي بـعـدكـمْ بـالـعـيـشِ انـتـفـعُ

ومنه قولُهُ[4]: [من البسيط]

يـامُـسْـقـمي بـجـفـونٍ سُـقْـمُـهـا سَـبَـبٌ ... إلـى مُـواصـلـةِ الأسـقـامِ فـي جَـسَـدي
عَذَرْتُ مَنْ ظَلَّ في حُبِّيكَ يَحْسُدُني ... لأنّـه فـيـكَ مَـعْـذُورٌ عـلـى حَـسَـدي

ومنه قولُهُ[5]: [من البسيط]

يـسـعـى بـهِ الـبـرقُ إلا أنَّـهُ فَـرسٌ ... مِـنْ فـوقِـهِ[6] الـمَـوتُ إلاّ أنّـه رَجُـلُ
/٤٧/ يلقى الرماحَ بِصَدْرٍ منهُ ليسَ لهُ ... ظـهـرٌ، وهـادي جـوادٍ مـالُـه كَـفَـلُ

---

(١) الأبيات في يتيمة الدهر ١/ ٢٧٣ ووفيات الأعيان ٣/ ٢١١، وشذرات الذهب ٣/ ١٥٢ والوافي بالوفيات ١٩/ ٢٧٨، ومجموع شعره تحقيق الأستاذ هلال ناجي.

(٢) في اليتيمة: ياسادتي.

(٣) في اليتيمة: والشذرات: روحي.

(٤) يتيمة الدهر ١/ ٢٧٤ وعنها في مجموع شعره ص٤٢.

(٥) يتيمة الدهر ١/ ٢٨٣ ومجموع شعره ص ٧١.

(٦) في اليتيمة: في صورة الموت.

ومنه قولُهُ[١]: [من الكامل]

وكأنما نَقَشَتْ حوافِرُ خيلِهِ ... للناظرينَ أهلَّةً في الجَلْمَدِ

وكأنّ طَرْفَ الشمسِ مطروفٌ وقد ... جَعَلَ الغبارَ لهُ مكانَ الإثْمِدِ

ومنه قولُهُ[٢]: [من البسيط]

ياغازياً آبتِ الأحزانُ غازيةً ... إلى فؤاديَ والأشجانُ[٣] حينَ غَزَا

إن بارزتْكَ كماةُ الروم فارمِهِمُ ... بسهمِ عينيكَ تقتلْ كُلَّ مَنْ بَرَزا

ومنه قولُهُ[٤]: يصف كأساً، وأجاد في وصفه، وتقدّم السابقين، وخلاهم من خلفِهِ: [من المنسرح]

مِن كلِّ جِسْمٍ كأنّه غَرَضٌ ... يكادُ لُطْفاً باللحظِ يُنْتَهبُ

لا عَيْبَ فيهِ سِوى إذاعَتِهِ الْ ... سِرَّ الذي في حشاهُ يحْتَجِبُ

كأنّما صاغَهُ النفاقُ فما ... يَخْلُصُ صدقٌ منهُ ولا كذبُ

فَهْوَ إلى لونِ مايُجاوِرُهُ ... على اختلافِ الطباعِ يَنْتَسِبُ

إذا ادّعاهُ اللُّجينُ أكْذَبَهُ ... بالراحِ في صبغِ جِسْمِهِ الذهبُ

/ ٤٨/ ومنه قولُهُ[٥] في خلعةٍ وفرس: [من البسيط]

لمَّا تَحَصَّنْتُ من دهري بخِلْعَتِهِ ... سَمَتْ بحملانِهِ ألحاظُ إقبالي

وواصَلَتْني صِلاتٌ منه رُحْتُ بها ... أختالُ مابينَ عزّ الجاهِ والمالِ

ومنهم:

[٥]
بديع الزمان الهمداني[٦]

بديع الزمان الهمداني، وهو نادرة الدهر، وبادرة الزهر، قَلَّ أن ولد الزمان

---

(١) من قصيدة في يتيمة الدهر ١/ ٢٨٧، والوافي بالوفيات ١٩/ ٢٧٨، ومجموع شعره ص٤٥.
(٢) يتيمة الدهر ١/ ٢٧٦ ومجموع شعره ص٥٨.
(٣) في اليتيمة: الأحشاء.
(٤) الأبيات من قصيدة في يتيمة الدهر ١/ ٢٧٧ ومجموع شعره ص٧٢.
(٥) البيتان من قصيدة في: يتيمة الدهر ١/ ٢٦٣ وتاريخ بغداد ١١/ ١٢ ومجموع شعره ص٧٣.
(٦) أبو الفضل، أحمد بن الحسين بن يحيى ين سعيد الهمذاني، الحافظ المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل والمقامات وعلى منواله نسج الحريري مقاماته، تتلمذ على أحمد بن فارس في اللغة، وسكن هراة من بلاد خراسان وبها توفي سنة ٣٩٨ هـ مسموماً.
ترجمته في: يتيمة الدهر ٤/ ٢٥٦ ومعجم الأدباء ٢/ ١٦١ والوافي بالوفيات ٦/ ٣٥٥ ومعاهد التنصيص ٣/ ١١٣ والبداية والنهاية ١١/ ٣٤٠ ووفيات الأعيان ١/ ١٢٧ وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٧ =

مثله، أو ولّد شكله، إن الزمان بمثله لعقيم، ولا عصبية للعظم الرميم، بل هو والله البديع حقّاً المعتكر طرقا، كاد يلهب فكره ذَكاءً، وينتهب ذكره ذُكاءً، كأنما كلمه حبر، أو لفظه زبر، سَجْعُهُ قَصير، ونَفْعُهُ كبير، من سمع حسانه تبع إحسانَه، ومَنْ فَهِمَ بيانه علم أن فوق السحاب بنانه، وربما كاد يحكيه لو وهب، لو كان كما قال طلق المحيّا يمطر الذهب نافَحَ الرياضَ فأخَذَ أنفاسَها، وسافح السحاب فَنَثَر أكياسها. بزّ الكواكب ولبس لباسها، وبذّ المدام وسلب الحميّا كاسها، فجاء بسحرٍ عظيم إلا أنه حلال، وخمر لا لغو فيها ولا تأثيم، وفيها انحلال[١]. ووراءه جرى الحريريُّ لكنه نقح، على أنه مماترك البديع ولقح.

وذكر البديع، أبو منصور الثعالبي فقال[٢]: هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني، معجزة[٣] همدان، ونادرة الفلك، وبِكرُ عطارد، وَفَرْدُ الدهرِ، وَغُرَّة العصر، ومَنْ لم يلْفَ نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن، وقوّة النفس، [ومن][٤] لم يدرك قرينهُ في ظرف النثر ومُلَحِهِ، وغُرر النظم ونكته، ولم يروَ أن أحداً بَلَغَ مبْلَغَهُ من لُبِّ الأدب وسِرّه، وجاء بمثل إعجازه وسِحْرِهِ، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب.

فمنها انّه كان يُنْشَدُ القصيدة لم يَسْمَعها قط ـ وهي أكثر من خمسين بيتا ـ فيحفظها كلّها ويوردها إلى آخرها لايخْرم حرفا منها[٥].

وينظر في الأربع والخمس الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يَرهُ [إلا][٦] نظرة واحدة خفيفةً ثم يهذّها عن ظهر قلبٍ هذّاً، ويسردها[٧] سرداً[٨].

وكان يقترح عليه عمل قصيدة[٩] وإنشاء رسالة في معنى غريب وباب بديع، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عمّا فيها.

وكان ربمّا يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطر منه، ثم هلمَّ جرّا إلى الأول، ويُخرجه كأحسن شيء وأمْلَحِهِ، ويُوَشِّح القصيدة الفريدة من قبله[١٠] بالرسالة

= وشذرات الذهب ٤/ ٥١٣.

(١) كذا في الأصل، ولم أفهم لها معنى. (٢) في يتيمة الدهر ٤/ ٢٥٦.
(٣) في الأصل: مفخر. (٤) ومن: ليست في الاصل.
(٥) في اليتيمة: لايحزم حرفا، ولا يخلّ بمعنى.
(٦) إلاّ: ليست في الأصل. (٧) في الأصل: يسردهُ.
(٨) بعدهافي اليتيمة: وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها.
(٩) في اليتيمة: أو. (١٠) في اليتيمة: قولِهِ.

الشريفة مِنْ إنشائه، فيقرأ من النظم ومن النثر[١]، ويُعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويُقْتَرحُ عليه كلُّ عروض[٢] فيرتجله في أسرع من الطَّرْفِ، على ريقٍ لا يَبْلَعه، ونَفَسٍ لا يقطعه، وكلامه كلّه عفو الساعة، وقبض اليد[٣]، ومُسارقة القلم، ومجاراة الخاطر[٤].

وكان مع هذا مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف. عظيم الخلق، شريف النفس، كريم العهد، خالص الودّ، حُلو الصداقة، مرّ العداوة /٤٩/ فارق همدان[٥] وهو مُقْتَبِل الشبيبة، غضّ الحداثة[٦]، ووافى[٧] نيسابور بها فنشر بَزَّه، وأظْهر طرزه، وأملى مقاماته وغيرها[٨]، وضَمَّنها ماتشتهي الأنفس[٩]، من لفظٍ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجْعٍ رشيق المطْلَع[١٠] والمقْطع كسجع الحمام، ثم[١١] ألقى عصاه بهراة، فعاش بها عيشةً راضية، حين بلغ أشدّه، واربىٰ على أربعين سنة ناداهُ الله فَلَبّاهُ وفارق دنياه في سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة. فقامت نوادب الأدب، وانثلم حدّ القلم[١٢]، على أنه ماامات مَنْ لم يَمُت ذِكرهُ، ولقد خَلَدَ

(١) في اليتيمة: فيقرأ من النظم والنثر، ويرْوي من النثر والنظم.
(٢) في اليتيمة: عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله.
(٣) في اليتيمة: وفيضُ البديهة.
(٤) في اليتيمة: ومسابقة اليد، وجَمَرَات الحِدّة، وثمرات المدّة، ومجاراة الخاطر للناظر.
(٥) بعدها في اليتيمة: سنة ثمانين وثلاث مئة.
(٦) بعدها في اليتيمة: وقد درس على أبي الحسين بن فارس، وأخذ عنه جميع ماعنده، واستنفد علمه، واستنزف بحره، وورد حضرة الصاحب أبي القاسم، فتزوّد من ثمارها وحُسْن آثارها، ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية، والتعيش في أكنافهم والاقتباس من أنوارهم، واختصّ بأبي سعدٍ محمد بن منصور أيدّه الله تعالى. ونَفَقَتْ بضائعه لديه، وتوفَّر حظّه من عاداته المعروفة في إسداء المعروف والإفضال على الفضائل.
(٧) في الأصل: وولي. لم يرد في مصادر ترجمته أنه ولي نيسابور، وفي اليتيمة: ولما استقرّت عزيمته على قصْد نيسابور أعانه على حركته، وأزاح عِلَله في سفرته، فوافاه في سنة اثنتين وثمانين وثلاث مئة. ونشر بها بزّه ... الخ.
(٨) في اليتيمة: وأملى أربع مئة مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها.
(٩) بعدها في اليتيمة: وتلذّ العين.
(١٠) في الاصل: رشيق القطع والمقطع.
(١١) قبلها في اليتيمة: كلام كثير تحدث فيه على ماحدث بين الحريري وأبي بكر الخوارزمي. ثم قال: وألقى عصاه بهراة، واتخذها دار قراره، ومجمع اسباب، إلى أن وصل إلى قوله: فعاش عيشة راضية.
(١٢) بعده في اليتيمة: وفقدت عين الفضل قرّتها، وجبهة الدهر غرّتها، وبكاه الأفاضل مع الفضائل، ورثاه الاكارم مع المكارم.

من بقي على الأيام نظمُهُ ونثره[١].

وسُئل بعض علماء الأدب عن الحريري والبديع في مقاماتهما، فقال: لم يبلغ الحريري أن يُسمّى بديع يوم، فيكف يقارب بديع زمان.

ومِنْ نثرِهِ قولُهُ[٢]:

وقد نظرتُ في المرآة فوجدتُ الشّيبَ يتلَهَّبَ ويَنْهب، والشباب يتأهَّب ويذهب، وماأُسرج هذا الأشهب إلاّ لسيْرٍ، وأسأل الله خاتمة خَيْر.

ومنه قولُهُ[٣]:

أبْرَزَتْ باطِنَهُ، وحرّكَتْ ساكنه، وأخرجت دفائن صدره، ورفعت أذيال ستره، فملأ فكّيهِ وعيدا، ولحييه تهديداً، وكان جوابنا أن قلنا: بعض الوعيد يذهب في البيد.[من السريع]

جاءَ شقيقٌ عارضاً رُمْحَهُ ... إنَّ بني عمّك فيهم رِماحُ[٤]

إنا نقحَمُ الخطْبَ، ونتوسط الحرب[٥] [من المتقارب]

فأرضَك أرضَك إنْ تأتِنا ... تَنَمْ نومةً ليس فيها حُلُم

ومتى شئتَ لقيت خصماً ضخماً ينهشك قَضْماً، ويأكلك خضماً، فجعل الشيطان يثقل بذلك أجفان طرفه، ويقيم به شعرات انفِهِ [من الوافر]

وحتى ظنَّ أنَّ الغشَّ نُصحي ... ووخالفني كأني قلتُ هجْرا[٦]

ومنه قوله:

وبيننا عذراء زجاجها خدرها، وحَبابها ثغرها، بل شقيقة حوتها كمامة، أو شمس حَجَبَتْها غمامة، إذا طاف بها الساقي، فورده على غصنها، أو شربها مقهقهة فحمامه على فَنَنِها.

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن يتيمة الدهر.

(٢) من رسالة بعث بها إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الاسفرائيني، وهو أول من استوزر لأبي القاسم محمود بن سبكتكين. انظر: كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ص١٢.

(٣) الكلمة في رسائله ص٣٨.

(٤) بعده في الرسائل:
بل أحدث الدهر بنا نكبةً ... أم هل رَقَت أُمّ شقيقٍ سِلاح
وهما لحجل بن نضلة كما في المؤتلف والمختلف للآمدي ص١١٢.

(٥) بعدها في الرسائل: فنردها مقحمين أو نصدرها بلغاء. [من الطويل]
والسننا قبل النزال قصيرة ... ولكنها بعد النزال طوال

(٦) البيت من قصيدة لبشر بن عوانة العذري في مقامات البديع ص٢٥٢ ومنتهى الطلب ٨/٢٥٨.

ومنه قولُهُ[١]:

انظر إلى الكلام وقائله، فإن كان وليا فهو الولاء وإن خَشُن، وإن كان عدّواً فهو البلاء وإن حَسُن، / ٥٠/ ألا ترى العرب تقول قاتله الله ولا يريدون الذم، ولا أبا له في الأمر إذا تمّ[٢].

ومنه قوله:

وفائدة الاعتقاد أفضل في الانتقاد، والسماح يكسر الرماح، والصفح يفلّ الصفاح، والجود أنْصر من الجنود، فإن كشف الضرّ عن الحرّ أجْمل من كشف الصدف عن الدرّ، ومَنْ عُرِف بالمنح قُصِد بالمدح، وقد ظلم من يَلُومُ غيرَ مَلُوم، فالتغاضي يصحب المراضي، واللبيب يُعيد البعيدَ قريباً، والعدوّ حبيباً، وحضرة السلطان مفزع الراجين، ومنزع اللاّجين، إليها يعودون، وبها يعوذون، وهي المقرّ، وإليها المفرّ، وإذا عَدَلَ الملك أقْصر الحائف، وآمن الخائف، وخير الاخوان مَنْ ليس بخوّان، وُدُّهُ ميمون، وغيْبُهُ مأمون، فهو يُحالفك ولا يخالفك، ويرافقك ولا يفارقك، ويوافقك ولا ينافقك، ويعاشرك ولا يكاشرك، وإذا حَضَرْتَ حَنا عليك، وإذا غِبْتَ حنَّ إليك.

ومنه قولُهُ[٣] وقد كتب إليه بعض مَنْ عزل عن ولايةٍ حسنة، وذوى يانِعُ غُصنِهِ، يستمدُّ منه وداداً طالما تركه، ويستميل فؤاداً كان يظنّ أنه قد ملكه، وإذا بحوادث الأيام قد غيَّرت ماعهد، وحسّنَتْ له بذل ما كان يظن به فلم يفد:

أما بعد: فقد وَرَدَتْ رقعتك[٤] فلم تَنْدَ على كبدي، ولم تَحْظَ بناظري ويدي، وخَطَبْتَ من مودّتي مالم أجِدْكَ له أهْلاً[٥]، وقُلْتُ: هذا الذي[٦] تاه بحسن قدّهِ، وزهى بورد خدّه[٧]، فالآن إذ نسخ الدهر آية حُسْنِهِ، وأقام مائل غصنِهِ[٨]، وانتصر لنا منه بشَعَراتٍ كَسَفَتْ هلاله، وأكْسَفَتْ باله، ومَسَخَتْ جماله، وغيرّت حاله، فمهلاً

---

(١) الرسائل ٢٤٩، ويتيمة الدهر ٤/ ٢٦٣.

(٢) الكلمة في اليتيمة ٤/ ٢٦٣ باختلاف في الترتيب ومخالفة في بعض الالفاظ.

(٣) رسائله ص٨٤.

(٤) بعدها في الرسائل: أطال الله بقاءك، فاعرتها طرف التعزّر، ومددت إليها يد التقزّز، وجمعت عنها ذيل التحرز.

(٥) في الرسائل: كفوءاً، وبعدها: وطلبت من عشرتي ما لم أرك له رضا.

(٦) بعدها في الرسائل: رفع عنا أجفان طرفه أو شال بشعرات أنفه وتاه...

(٧) ولم يسقنا من نوئه، ولم نسر بضوئه.

(٨) بعدها في الرسائل: وفثأ غرب عجبه، وكف زهو زهره.

مهلاً[(١)]، وتناس[(٢)] أيّامك إذ تكلّمنا نزرا وتلحظنا شزرا[(٣)]. [من الطويل]

ومنْ لك بالعين التي كنتُ مرةً إليكَ بها في سالف الدهر انظر

أيام كنت تتلفت[(٤)] والأكباد تَتَفَتَّتْ (وتدبر)[(٥)] وتقبل فتنمى (وتخبل)[(٦)] فتصد (وتعرض)[(٧)] فتضني (وتعرض)[(٨)] [من الطويل]

وتبسمُ عن ألْمَى كأنّ منوّراً تخلَّلَ حر الرمل غضّ له ندي

فاقصر الآن / ٥١/ فإنه سوق كَسَد، ومتاع فَسَدْ، ودولة عرضت، وأيام انقضت[(٩)]، ويوم صار أمس، وحسرةٌ بقيتْ في النفس، فحتام تدِلُّ وإلامَ، وكم نحتمل وعلام؟ وقد بلغني ماأنت مُتَعاطِيهِ من تمويه ويجوز بعد العشاء في الغسق، وينفق[(١٠)] على السوق وإفناؤك لتلك الشعرات حزا وحصّا ونتفاً وقصا، فأناً برحلك وجانبك وحبلك مُلْقى على غاربك، ولو أحْبَبْتُ أن أوجعك لقلت: [من مخلّع البسيط]

مايفعلُ اللهُ باليهودِ ولا بعادٍ ولا ثمودِ

ولا بفرعونَ إذْ عصاه مايفعلُ الشَّعْرُ بالخُدُودِ

ومنه قوله[(١١)]:

كتابي إلى البحر وإن لم أرَهُ فقد سمعتُ خبرَه، والليث وإن لم ألْقه فقد تصوّرت خلقه، والملك العادل وإن لم أكن لقيته، فقد بلغني صيتة، ومَنْ رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره، وهذه الحضرة وإن احتاج إليها المأمون، ولم يستغنِ عنها قارون،

---

(١) في الرسائل: فمهلاً ياأبا الفضل مهلاً. وبعدها: [من مجزوء الكامل]

أرَغِبْتَ فيتا إذ علا ك الشعر في خدٌ قَجِل

وخرجتَ عن حدٌ الظبا ءِ وصرتَ في حدٌ الابل

الآن تطلبُ عشرتي عُذْ للعداوةِ يا خَجِل

(٢) في الرسائل: وتناسيت.

(٣) بعدها في الرسائل: وتجالس من حَضَر، ونسترق النظر، ونهتزُّ لكلامك، ونهشُّ لسلامك.

(٤) بعدها في الرسائل: تتمايل، والأعضاء تتزايل وتتغائج، والأجساد تتعالج وتتلفت.

(٥) الزيادة عن الرسائل. (٦) الزيادة عن الرسائل.

(٧) الزيادة عن الرسائل. (٨) الزيادة عن الرسائل.

(٩) بعدها في الرسائل: [من المتقارب]

وعهد نفاق مضى وخطبُ كساد نزلْ

وخدُّ كأنْ لم يكن وخطٌّ كأن لم يزلْ

(١٠) كذا في الأصل وفي الرسائل: وتشبيه يفتضح عند ذوي البصر.

(١١) الرسائل ٣٥٨ ويتيمة الدهر ٤/ ٢٧٥.

فإن الأحبّ إليّ أن أقصدها قصد موال، والرجوع عنها بجمال أَحَبُّ إليَّ من الرجوع عنها بمال، قدّمت التعريف وأنا أنتظر التشريف.

ومنه قولُهُ[١]:

عافاك اللهُ، مثَلُ الإنسان في الاحسان، كمثل[٢] الاشجار في الاثمار، سبيله إذا أتى بالحَسَنَة[٣]، أن يُرَقِّه من السنة إلى السنة[٤]، وأنا كما ذكرت، لا أملك عُضْويَّ من جسدي، وهما فؤادي ويدي، أما الفؤاد فيَعْلق بالفود، وأما اليد فتُولَعُ بالجود، ولكنّ هذا الخُلُقُ النفيس، ليس[٥] يساعده الكيس، وهذا الطبع الكريم ليس يحتمِلُهُ الغريم، ولا قرابة بين الذهب والأدب[٦]، ولا يمكن تَرْدُهُ[٧] في قصعة، ولا صرفُهُ في ثمنِ سلْعة، ولي مع الأدب نادرة، حمدت في هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ من (جيمية) الشماخ لوناً فلم يفعل، وبالقصاب أن يسمع من (ادب الكاتب) فلم يقبل واحتيج في البيت إلى شيء من الزيت، فانشدت من شعر الكميت ألفاً ومائتي بيت، فلم يُغْنِ فيما بهِ اعتنيت. ولو وقعت ارجوزة العجاج في توابل السكباج /٥٢/ ماعُدَّ منها عندي لون، ولا استقرّ صون، بل ليست تقع مما أصنع، فإن كنت تحسب اختلافك إليّ أفضل علي فراحتُكَ راحتي، وراحتي أن لاتطرق ساحتي.

ومنه قوله[٨]:

أنا لقرب دار مولاي[٩]: [من الطويل]

كما طرب النشوان مالَتْ به الخمرُ

ومن الارتياح للقائه: [من الطويل]

كما انتفض العصفور بلَّلَه القطر

ومن الامتزاج بولائه: [من الطويل]

كما التقت الصهباءُ والباردُ العَذْبُ

ومِنَ الابتهاج بمزاره[١٠]: [من الطويل]

---

(١) رسائله ص ٢٢١، ومعاهد التنصيص ٣/ ١٢٤ ويتيمة الدهر ٤/ ٢٥٨.

(٢) الرسائل: مَثَلُ.

(٣) في الأصل: سبيله من أتى بالحسنة.

(٤) الرسائل: أن يرفه إلى السنة.

(٥) الرسائل: لا.

(٦) بعده في الرسائل: فلما جَمَعَتْ بينهما.

(٧) الأصل: ردّه.

(٨) رسائله ص١٢٨ ويتيمة الدهر ٤/ ٢٥٩ ومعجم الأدباء ١/ ٢٣٦.

(٩) الرسائل والمعاهد: أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه.

(١٠) في الرسائل: المرآة.

كما اهتزّ تحتَ البارحِ الغصنُ الرطبُ

ومن شعرِهِ، قولُهُ[١]: [من البسيط]

علـيّ ألاّ أريحَ العِيس والقَتَبا ... وألْبَسَ السيلَ[٢] والظلماءَ والبلبا
وأتركَ الخودَ معسولاً مقبَّلُها ... وأهجُرَ الكأسَ تغذو شَرْبَها طَرَبا
وطَفْلَةٍ كقضيبِ البانِ مُنْعَطِفاً ... إذا مَشَتْ وهلال الشهر مُنْتَقِبا
قالتْ وقد عَلَقَتْ ذيلي تودّعني ... والوجْدُ يخنقُها بالدمعِ مُنْسَكِبَا
كنتَ الشبيبةَ أبهىٰ ما دَجَتْ دَرَجَتْ ... وكُنْتَ كالوردِ أذكى ماأتى ذَهَبا
أبى المُقامَ بدارِ الذُّلّ لي كرمٌ ... وهمّةٌ تَصِلُ التقريبَ والخَبَبَا
وعَزْمَةٌ لاتزالُ الدهرَ ضاربةً ... دونَ الأميرِ وفوقَ المُشتري طَنَبَا
ياسيِّدَ الامراءِ أفْخَرْ فما[٣] مَلِكٌ ... إلا تَمنّاك مولًى واشتهاك أَبَا[٤]
إذا دعتْكَ المعالي عُرْفَ هامتِها ... لم ترضَ كسرى ولا مَنْ فوقَهُ ذَنَبَا
أيْنَ الذينَ أعدُّوا المال مِن مَلِكٍ ... يرى الذخيرةَ ماأعطى وما وَهَبَا
ماالليثُ محتطماً والسيلُ مُرْتَطِماً ... والبحرُ ملتطماً والليلُ مقتربا
أمْضى شَباً منكَ، أدْهى منكَ صاعقةً ... أجْدى يميناً وأدنى منكَ مُطّلِبا
وكادَ يحكيكَ صوبُ الغيثِ مُنسكبا ... لو كانَ طلقَ المُحيّا يمطرُ الذَّهَبَا
والدهرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ والشمسُ لو نَطَقَتْ ... والليثُ لو لَمْ يَصدْ والبحرُ لو عَذُبا
يامَنْ يَراه ملوكُ الأرضِ فوقَهم ... كما يَرَوْنَ على أبراجِها الشُّهُبا

/٥٣/ ومنه قوله[٥]: [من الطويل]

أيا مَلِكاً أدنى مناقبِهِ العُلا ... وأيْسَرُ مافيهِ السماحةُ والبذلُ
هوَ البدرُ إلاّ أنهُ البحرُ زاخراً ... سوى أنهُ الضرغامُ لكنّه الوَبْلُ
محاسنُ يُبديها العِيانُ كما بدا[٦] ... وإنْ نحنُ حدّثنا بها صَدَقَ العَقلُ

---

(١) القصيدة في ديوانه ٣٢ ومعاهد التنصيص ٣/ ١٢٨ ويتيمة الدهر ٤/ ٢٩٢ وبيتان منها في الوفيات ١/ ١٢٨.

(٢) في المعاهد: البيض، وفي اليتيمة: البيد.

(٣) في اليتيمة: فلا.

(٤) في الأصل: إلا تمناك مولى والملوك أبا.

(٥) الأبيات في اليتيمة ٤/ ٣٠٠ وديوانه: ١٢٠.

(٦) في اليتيمة: كما ترى.

وجاراكَ أفرادُ الملوكِ إلى العُلا وحقّاً لقدْ أعْجزتهم ولكَ الخصلُ
سما بكَ من عمرٍو ويعقوبَ مَحتدٌ كذا الأصلُ مفخورٌ بهِ وكذا النسلُ

وحكى ابن ظافر[١]، قال: حكى بديع الزمان الهمداني قال: قال الصاحب يوماً لجلسائه وأنا فيهم، وقد جرى ذكر أبي فراس بن حمدان: لايقدر أحد أن يزوّر على أبي فراس شعراً، فقلت: ومَنْ يقدر أن يزوّر عليه شعره وهو الذي يقول، وقلت ارتجالاً[٢]: [من الوافر]

رويدكَ لاتصلْ يدها بباعِكْ ولا تغز السباع إلى رباعِكْ
ولا تُعِنِ العدوَّ عليَّ إني يمينُكَ إنْ قطعتَ فمنْ ذراعكْ

فقال الصاحب: صدقت، فقلت: أيّد الله مولانا، هاقد فعلت وزوّرت على أبي فراس، وهذا شعري، فعجب منه.

وحكي: أنه جرى ذكره في مجلس شيخه أبي الحسين بن فارس[٣]، فقال مامعناه: إن بديع الزمان قد نسيَ حقّ تعليمنا إياه، وعقنا وطمح بأنفه عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الانسان، فكتب[٤] إليه بديع الزمان:

نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام. إنه الحمأ المسنون، وإن ظُنَّت به الظنون والناس لآدم[٥]، وإن كان العهد قد تقادم، وارتكبت[٦] الأضداد، واختلاف[٧] الميلاد والشيخ يقول: قد فَسَدَ الزمان، أفلا يقول: متى كان صالحاً؟ أفي الدولة العباسيّة فقد رأينا آخرها وسمعنا بأوّلها، أم المدة المروانية وفي أخبارها: [من الرجز]

لا تكسع الشول بأغبارها[٨]

أم السنين الحربية[٩]: [من مجزوء الكامل]

---

(١) في بدائع البدائة ٣٥٣ وانظر يتيمة الدهر ١/ ٨٧ ومعجم الأدباء ١/ ٢٤٤.
(٢) البيتان ليسا في ديوان البديع، وهما في ديوان أبي فراس ١٨٩.
(٣) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي، اللغوي، صاحب (الجمل) في اللغة. وكان إماماً في علوم شتى، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني. توفي بالري سنة ٣٩٠ هـ. انظر: معجم الأدباء ٤/ ٨٠ ووفيات الأعيان ١/ ١١٨ وإنباه الرواة ١/ ٩٢ واليتيمة ٣/ ٤٠٢.
(٤) الرسالة في: يتيمة الدهر ٤/ ٢٧٠ ومعاهد التنصيص ٣/ ١٢٤ ورسائله ص٤١٤.
(٥) في الرسائل: والناس ينسبون لآدم.
(٦) في الرسائل: وارتبكت، وفي المعاهد: وتركبت.
(٧) في الرسائل: واختلط.
(٨) شطر بيت و عجزه: إنك لا تدري من الناتج. وهو للحارث بن حلزة (ديوانه ص٦٥).
(٩) يريد بها أيام معاوية بن أبي سفيان بن حرب وابنه يزيد.

والسيفُ يُعقدُ في الطُّلى والرمحُ يُركزُ في الكُلى
ومبيتُ حِجْرٍ[١] في الفَلا والحَرَّتانِ[٢] وكربلا[٣]

أم البيعة الهاشمية [وعليٌّ يقول: ليت العشرة منكم][٤] برأس من بني فراس / ٥٤/ أم الأيام الأمويّة[٥]، والنفير إلى الحجاز، والعيون تنظر إلى الأعجاز، أم الإمارة العدوية[٦] وصاحبها يقول: هل بعد البزول إلاّ النزول، أم الخلافة التيمية[٧] وهو يقول: طوبى لمن مات في نَأنَأةِ الإسلام؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل: اسكتي يافلانة، فقد ذهبت الأمانة؟ أمْ في الجاهلية ولبيد يقول[٨]: [من الكامل]

ذَهَبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهِم وبَقَيْتُ في خَلَفٍ كجلْدِ الأجربِ

أمْ قبل ذلك وأخو عادٍ يقول[٩]: [من الطويل]

إذ الناس ناسٌ والبلاد بلاد

أمْ قبل ذلك وآدم فيما قيل يقول[١٠]: [من الوافر]

تغيّرت البلاد ومَن عليها

أم قبل ذلك والملائكة تقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[١١]

ما فَسَدَ الناس، إنّما اطرد القياس، ولا أظلمت الأيام، إنّما امتدّ الظلام، وهل يفسد الشيء إلاّ عن صلاح، ويُمْسى المرءُ إلاّ عن صباح؟

---

(١) يريد به حجر بن عدي الكندي، الصحابي الجليل، الذي قتله معاونه صبراً.
(٢) يريد حرَّتي المدينة المنورة، حيث قتل أهلها أيام يزيد بن معاوية.
(٣) كربلاء: الموضع المعروف الذي استشهد به الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.
(٤) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، واثبته عن الرسائل والمعاهد واليتيمة.
(٥) يريد بها أيام عثمان بن عفان الأموي.
(٦) يريد بها أيام عمر بن الخطاب العدوي.
(٧) يريد بها أيام أبي بكر بن أبي قحافة التيمي.
(٨) ديوانه ص ١٥٣.
(٩) كذا ورد هذا العجز في الأصل، والبيت كما في الرسائل واليتيمة:
بلاد بها كنا وكنا نحبها إذ الناس ناس والزمانُ زمانُ
(١٠) من بيت نسب لآدم في تاريخ الطبري ١/ ١٤٥ ونسبه حمزة الأصفهاني في التنبيه على حدوث التصحيف إلى خلف الأحمر.
(١١) سورة البقرة: ٣٠.

وإنّي على توبيخ شيخنا لفقير إلى لقائِهِ، شفيق على بقائه، منتسبٌ إلى ولائِهِ، شاكرٌ لآلائِهِ، لا أحلّ حريداً عن أمره، ولا أفلُّ عن قلبه، وما نسيتهُ ولا أنساه إن له على كلّ نعمةٍ خَوَّلَنِيها اللهُ ناراً[١]، وعلى كلّ كلمةٍ عَلَمنيها منارا، ولو عرفتُ لكتابي موقعاً من قَلْبِهِ لاغتَنَمْتُ خِدْمَتَه بِهِ، ولرددت إليه سؤر[٢] كأسه، وفَضْلَ أنفاسِهِ، ولكنّي خشيتُ أن يقول: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾[٣]، ولَهُ أيّده الله العتبى، والمودّة في القُربى، والمرباع، وماناله الباع، وماضمَّهُ الجلد[٤]، وضَمِنَه السمط[٥]، ليست رضا ولكنّها جلّ ما أملك[٦].

واثنان ـ أيّد الله الشيخ الإمام[٧] ـ [قلّما يجتمعان][٨] الخراسانية والانسانية، [وانا][٩] وإن لم أكن خراساني الطينة، فإني خراساني المدينة، والمرء مِنْ حيثُ يُوجَدُ، لامن حيث يولد[١٠]، فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همدان[١١]، ارْتفع القَلَمُ وسَقَطَ التكليف فالجرحُ جُبار، والجاني حمار، ولا جَنّة ولا نار فليلمني[١٢] الشيخ على هناتي، أليس صاحبنا[١٣] يقول: [من الخفيف]

/ ٥٥/ لا تَلُمْني على رَكاكَةِ عَقْلي إن تيقنت أنني همداني

والسلام.

قوله: والعيون تنظر إلى الأعجاز: إشارة إلى قول أحد الذين قتلوا عثمان لما دخلوا عليه فنظروا إلى نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان وهي تصيح، فقالوا: أن عجزها لكبير.

واجتمع بديع الزمان الهمدانيّ والاستاذ أبو بكر الخوارزمي[١٤] في دار السيد

---

(١) في الأصل: إن له على نعمةٍ خوامتها.
(٢) السؤر: بقية ما في الكأس. (٣) سورة يوسف: ٦٥.
(٤) في اليتيمة: والمرباع وماضمه الجلد وناله الباع.
(٥) في اليتيمة: المشط.
(٦) في اليتيمة: بيت الشعر: [من المتقارب]
وواللهِ ماهي عندي رضاً ولكنها جُلُّ ما أملك
(٧) ليست في اليتيمة. (٨) ليست في الأصل.
(٩) ليست في الأصل.
(١٠) بعدها في اليتيمة: والانسان من حيث يثبت، لا من حيث ينبُتْ.
(١١) العبارة في الأصل: فإذا اضاف إلى خراسان ولا همدان.
(١٢) في اليتيمة والرسائل: فليحتملني.
(١٣) في الأصل: صاحبها.
(١٤) أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، شاعر من الكتاب المترسلين، وهو ابن أخت محمد بن جرير =

أبي القاسم المستوفي بمشهد من القضاة والفقهاء والأشراف وغيرهم من سائر الناس، فجرى بينهما من المناظرة مانذكرُهُ إن شاء الله تعالى[١].

قال الاستاذ أبو الفضل بديع الزمان: سأل السيد أَمْتَعَ الله ببقائه إخوانه أن أملي جميع ماجرى بيننا وبين [أبي] بكر الخوارزمي ـ أعزّه الله ـ من مناظرةٍ مرةٍ ومنافرةٍ أُخرى، ومُوادعةٍ أولاً، ومنازَعَةٍ ثانياً، أملاءً يجْعَلُ السماعَ لهُ عيانا، فما تلقيته إلا بالطاعة على حسب الاستطاعة، ولكنّ للقصة تشبيباً لا تطيبُ إلاّ بِهِ، ومقدِّمات لا تحسن إلاّ معها، وساسوق بعون الله صدر حديثنا إلى العَجُز، كما يساق الماء إلى الأرض الجُرُز، فنبدأ فيها باسم الله عز وجل والصلاة على النبي ﷺ [ذهاباً بالقصة عن أن تكون بتراء، وصيانة لها عن أن تدعى جذماء، قال رسول الله ﷺ][٢] كل خطبة لا يبدأ فيها باسم الله عز وجل فهي بتراء، وخطب زياد خطبته البتراء[٣]؛ لأنه لم يبدأ بحمد الله عز وجل، ولم يصلّ على رسوله ﷺ، وهذا مقام نعوذُ بالله منه، ونسأَلُهُ التوفيق للصواب نُورِدُهُ ونُصْدِرُهُ.

نَعمْ أطال الله بقاء السيد، وأَمْتَعَ ببقائه إخوانه، إن قعدْنا نعُدّ آثاركم ونؤدي مآثركم نَفِدَ الحصْرُ قبل نفودها، وفنيت الخواطر قبل أن تفنى المآثر. وكيف لا وإن ذكر الشرف فأنتم بنو بَجْدته، أو العلم فانتم عاقدو بُرْدَتِهِ، أو الدين فأنتم ساكنو بلدته، أو الجود فأنتم لابسو جِلْدَتِهِ، أو التواضع صَبَرْتُم لشدَّتهِ، أو الرأي صلتم بنجدته، وإنّ بيتاً تولّى الله بِناءهُ ولزمَ الرسولُ / ٥٦/ ﷺ فناءهُ، وأقام الوصيّ عليه السلام عماده، وخدم جبريل عليه السلام أَهْلَهُ لحقيقٌ أنْ يُصان عن مدح لسانٍ قصير، ونحنُ نعودُ للقصة نسوقها:

فأوّلها: انّا وطئنا خراسان فما اخترنا إلاّ نيسابور داراً، وإلا جِوار السادة جواراً، لا جَرَم، أنا حَطَطْنا بها الرحْل، مدَدْنا عليها الطُّنُب، وقديماً كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوّقُهُ، ونخبِّره عن الغيب فَنَتَعشَّقُهُ، ونُقدِّر أنّا إذا وطئنا أَرْضَهُ ووردْنا بَلَدَهُ. فخرج لنا في العِشرة عن القِشرة، فقد كانت لُحْمة الأدب جمعتنا، وكلمة

= الطبري صاحب التاريخ. كان إماماً في اللغة والأدب والأنساب. أقام بالشام وقصد الصاحب بن عباد بأرجان ثم فارقه وسكن في نيسابور ومات بها سنة ٣٨٣هـ أو ٣٩٣هـ.

انظر: و فيات الأعيان ٤/ ٤٠٠ والوافي ٣/ ١٩١. ونشرت مجموعة رسائله في بيروت عام ١٩٧٠.

(١) المناظرة في الرسائل ٢٨ ومعجم الأدباء ١/ ٢٣٩.

(٢) ما بين معقوفتين سقط من الأصل وأثبته عن مصادر النص.

(٣) خطبة زياد ابن أبيه البتراء في أمالي القالي ٣/ ٨٥ وعيون الأخبار.

الغربة نظّمتنا، وقد قال شاعر العرب غير مدافع[١]: [من الطويل]

أجارتنا إنّا غريبانِ هٰهنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نَسيبُ

فأخْلَفَ ذلك الظَّنُّ كُلَّ الإخلاف، واختلف ذلك التعذير كُلَّ الاختلاف. وكان قد اتفق لنا في الطريق اتّفاق. لم يُوجِبْهُ استحقاق، من بَزّةٍ بزوها، وفضّة فضُّوها، وذهب ذهبوا به. وردنا نيسابور براحةٍ ألقى من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزيٍّ أوْحش من طلعةِ المعلّم بل اطّلاعة الرقيب، فما حَلَلْنا إلاّ قَصَبَةَ جِوارِهِ، ولا وطئنا إلاّ عتبة دارِهِ، وهذا بعد رقعةٍ كتبناها، وأحوال أُنْسٍ نظمناها، فلما أخذتنا عَيْنُهُ[٢] سقانا الدُّرديِ[٣] من أوَّل دَنِّه، وأجنانا سوء العشرة من باكورةِ فنّه، من طرفٍ نَظَرَ بشطْرِهِ، وقيام دفع في صدرِهِ، وصديق استهان بقدره، وضيفٍ استخفّ بأمره، لكن أقْطَعْناه جانب أخلاقه، وولَّيناه خِطّة رأيِهِ، وقاربناه إذْ جانب، وواصَلْناهُ إذْ جاذَبْ، وشربناه كلّ كدرية[٤]. ولبسناه كلّ خشونتة[٥]، ورددنا الأمر في ذلك الى زي استغثَّهُ ولباس استرثَّه، وكاتبناهُ نستمدُّ ودادَه، ونستلين[٦] قياده، ونستميل فؤاده، ونقيم منآدهُ بما هذه نسختُهُ بعد البسملة[٧]:

الاستاذ أبو بكر والله يُطيلُ بقاءه. أزرى بضيفِهِ، أنْ وَجَدَهُ يضرب[٨] /٥٧/ آباط القلّة في أطمار الغربة، فأعْمَلَ في مرتبتِهِ أنواع المصارفة، وفي الاهتزاز له اصناف المضايقة، من إيْماءٍ بنصف الطّرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام عن التمام، ومضغ للكلام، وتكلّف لردِّ السلام، وقد قَبِلْتُ تربيته صَعراً[٩]، واحتملته وزراً، واحتضنتُهُ نكْراً، وتأبَّطْته شرّاً، ولم آلُه عُذْراً، فإن المرء بالمال وثياب الجمال، ولَسْتُ مع هذِهِ الحال، وفي هذه الأسمال أتَقَزَّزُ صفَّ النِّعال[١٠]، فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلتُ إن نوادينا ثاغِية صباح، وراغِيَة رواح، وناساً يجرّون المطارف، ولا يمنعون المعارف.

---

(١) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص٣٥٧.

(٢) في الرسائل: فلما أخَذَنا لحظ عينِهِ.

(٣) الدرديّ: رديْ الخمر.

(٤) في الرسائل: على كُدورتِهِ.

(٥) في الأصل: كل خشونته.

(٦) في الرسائل: نسلس.

(٧) في الرسائل: بسم الله الرحمن الرحيم.

(٨) بعدها في الرسائل: إليه.

(٩) الصَعر: ميل الوجه، والنظر عن الناس تهاوناً بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

(١٠) يتقزز: يتباعد.

وفيهم مقامات حسانٌ وجوهُهُمْ وأنديةٌ ينتابها القول والفعلُ[١] فلو طَوَّحْتْ[٢] بأبي بكْرٍ أيّده الله طوارحُ الغُربة لوجَدَ مثال البِشر قريباً. ومحط الرحل رحيباً، ووجه المضيف خصيباً، ورأى الاستاذ أبي بكر أيّده الله تعالى في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه وَدّ، والمرّ الذي يتلوه شهد، موفق إن شاء الله[٣] فأجاب بما هذه نسخته:[٤]

وصلت رقعةُ سيدي ورئيسي[٥]، أطال الله بقاءه (إلى آخر)[٦] السكباج، وعرفت بما تضمنته مِنْ خشن خِطابِه. ومؤلم عَتْبِهِ[٧] وعِتابه. وحَمَلْتُ ذلك منه على الضَّجر التي لا يخلق منها مَنْ مسَّهُ عُسْر، ونبا بهِ دهر، والحمد لله الذي جعلني موضع أُنْسِهِ، وَمظنَّة مشتكى مافي نفسِهِ، أمّا ماشكاه سيدي ورئيسي من مُضايقتي إيّاه زعم في القيام (عن التمام)[٨]، فقد وفّيته حقَّه أَيّدَهُ الله سلاماً وقياماً، على قدر مااستطعت[٩] عليه ووصلت إليه، ولم أرفع عليه إلاّ السيّد أبا البركات العلوي أدام الله عزّه، وماكنت لأرفع أحداً على من أبوه[١٠] الرسول وأُمّه البتول. وشاهداهُ التوراةُ والانجيل، وناصراهُ التأويل والتنزيل، والبشير به جبريل وميكائيل، فأما القوم وماوصف[١١] سيدي عنهم فكما وصف، حُسْنُ عشرة /٥٨/ وسَدادُ طريقةٍ، وكمال تفصيل وجملة، ولقد جاوَرْتهم فأحمدتُ المَرَاد ونلتُ المُراد. [من الطويل]

فإنْ أكُ قد فارقتُ نجداً وأهلَهُ فما عهدُ نجدٍ عندنا بذميمِ

والله يعلم نيتي للاحرار[١٢] كافّة ولسيدي (أدام الله عزّه)[١٣] من بينهم خاصّة، فإن أعانني[١٤] على مافي نفسي، بَلَّغْتُ له بعض مافي النية[١٥]، وجاوزت (به)[١٦]

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى (ديوانه ١١٣).
(٢) الاصل: طرحت: والتصويب عن الرسائل.
(٣) بعده في الرسائل: تعالي.
(٤) في الرسائل: بما نسختُهُ:.
(٥) في الرسائل: سيدي ومولاي ورئيسي.
(٦) (إلى آخر) لم ترد في الأصل وأثبتها عن رسائله، والسكباخ، طبيخ يعمل من اللحم والخل والمرق، معرّب.
(٧) عتبه، ليست في الرسائل.
(٨) لم ترد في الرسائل.
(٩) في الرسائل: قدرتُ.
(١٠) الرسائل: جدّه.
(١١) الرسائل: فأما القوم الذين صدر سيدي.
(١٢) الرسائل: للاخوان.
(١٣) ليست في الرسائل.
(١٤) الرسائل: أعانني الدهر.
(١٥) الرسائل: بلغت إليه مافي الفكرة.
(١٦) ليست في الرسائل.

مسافة القدرة، وإن قَطَعَ عليَّ طريق عزمي[١] بالمعارضة وسوء المؤاخذة، صرفت عناني عن طريق الاختيار[٢]. [من الطويل]

فما النفسُ إلا نطفة بقرارةٍ[٣] إذا لم تُكدّر كانَ صَفواً غديرُها[٤]

وبعد فحبّذا عتابُ سيدي إذا استوجبنا عتبا، واقترفنا ذنبا، فأما أن يسلفنا العربدة، فنحنُ نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتمالِهِ[٥]، ولستُ أسومُهُ أن يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[٦] ولكنّي أسأله أن يقول: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[٧] فحين وَرَدَ الجواب وغير العذر رائده تركناه بعزّة، وطويناه على غَرّة، وعَمدْنا لذكرِهِ فَسَحوناه[٨] عن صحيفتنا ومحوناه، وصرنا إلى اسمه فأخذناه ونبذناه، وَتَنَكبنا خطته، وتجنّبنا خُلْطَتَهُ فلا طرنا به ولا طِرْنا إليه[٩]، ومضى على ذلك الأسبوع[١٠]، وَدَرَجَت الليالي، وتطاولَت المدّة، وتصرّم الشهر، وصرنا لانُعير الأسماع ذكره، ولانودع الصدر حديثه، وجعل هذا الفاضل يستزيد ويستعيد، بألفاظٍ تَقْطفها الأسماع من لسانِهِ، وتردّها[١١] إليّ، وكلماتٍ تحفظها الألسنة من فمِهِ وتعيدها عليّ.

فكاتبناه بما هذه نسخته:

أنا[١٢] أردُ مِنَ الاستاذ سيدي ـ أطال الله بقاءه ـ شرعةَ وِدّهِ وإن لم تَصْفُ، وألْبَسُ خِلْعَةَ برّه وإن لم تَضْفُ، وقُصاراي أن أكيلَهُ صاعاً عن مدّ، فإنّي وإن كنت في الأدب دعيّ النسب، ضعيف السبب، ضيّق المضطرب[١٣]، سيىء المنقلب، أمتُّ إلى عشيرةِ أهلِهِ بنيقةٍ، وأنزه إلى خدمة أصحابه بطريقة، ولكن بقي أن يكون / ٥٩/ الخليط مُنْصفاً في الوداد، إذا زِرتُ زار، وإن عُدْتُ عاد، وسيدي أيّدَه الله ناقشني في القبول أولاً، وصافني في الإقبال ثانياً، فأما حديث الاستقبال. وأمر الإنزال والانزال فنطاق الطمع ضيق عنه، غير متّسع لتوقعه منه. وبعد: فكُلْفَةُ الفضل هيّنة، وفروض الودّ مُتَعيِّنَة، وأرض العشرةِ ليّنة، وطرقها بيّنة، فَلِمَ اختار قعود التعالي مركباً، وصعود

(١) الرسائل: عشرتي.
(٢) بعدها في الرسائل: بيد الاضطرار.
(٣) الأصل: في قرارة.
(٤) الرسائل: معينُها.
(٥) الاصل: احتماله عليه.
(٦) سورة يوسف: ٩٧.
(٧) سورة يوسف: ٩٢.
(٨) سحا التراب: جرفه.
(٩) الرسائل: ولا صرنا بِهِ.
(١٠) بعده في الرسائل: ودبت الأيام.
(١١) الرسائل: توردُها.
(١٢) قبلها في الرسائل: بسم الله الرحمن الرحيم.
(١٣) الاصل: المطرب.

التغالي مذهباً؟، وهَلا ذَادَ الطيرَ عن شَجَر العشرة، وذاق الحلو من ثمرها؟، فقد علم الله أن شوقي إليه قد كدَّ الفؤاد برحاً على بَرَح، ونكأهُ قرحاً على قرح، ولكنّها مِرَّةٌ مُرَّة ونفسٌ حُرّة، لم تُعَد إلاّ بالإعظام ولم تُلْقَ إلاّ باجلال، وإذا استعفاني من معاتبتي، وأعفى نفسَه من كُلَفِ الفضل يَتَجشَّمُها، فليس إلا غُصَصُ الشَوق أتجرَّعُها، وحُلَلِ الصبر أتَدرّعُها ولم أُغرِهِ من نفسي. وأنا لو أَعرت جناحي طائر لما طِرْتُ إلا إليه. ولا وَقَعْتُ إلاّ عليه. [من الطويل]

أحبُّكَ ياشمسَ الزمانِ وبدرَهُ وإنْ لامني فيكَ السُّها والفراقِدُ[1]
وذاك لأنَّ الفضلَ عندَكَ باهِرٌ وليسَ لأنَّ العيشَ عندكَ بارِدُ

فلما وَرَدَتْ عليه الرّقعةُ، حَشَر تلامذته وخدمه، وزمّ عن الجواب قَلَمه، وجشَّم للإيجاب قَدَمَه، وطلع مع الفجر علينا طلوعه، ونظمّنا حاشيتا دار الأمام ابي الطيّب أدام الله عزّه، فقلت: الآن حين تشرق الحشمة وتنوّر في العشرة وتغوّر، قصدناه شاكرين لما أتاه، وانتظرنا عادة برّه، وتوقعنا مادة فضله فكان خلّبا شمناهُ وآلاً وردناه، وصرفنا الأمر في تأخرنا عنه إلى ماقاله عبد الله بن المعتز[2]: [من الرجز]

إنّا على البِعادِ والتفرّقِ
لنلتقي بالذكر إنْ لمْ نلتقِ

وأنشدناه قول ابن عصرنا: [من الوافر]

/ ٦٠/ أحبُّكَ في البتولِ وفي أَبيها ولكنّي أحبُّكَ منْ بعيدِ

وبقينا نلتقي خيالاً، ونقنع بالذكر وصالاً، حتى جَعَلَتْ عواصفهُ تهبّ، وعقاربُهُ تَدبّ، وهو لايرضى بالتعرض حتى يصرّح، ولا يقنع بالنفاق حتى يعلن، وشكا إلى بعض إخواننا أني خاطبته مخاطبة مجحفة، ونزّلته منزلة متحيّفة، فقال: إني أوثر العربدة، وأُسلف الموجدة، ويرميني في ذلك بدائه وينسلّ، فكتبنا إليه[3]: [من المتقارب]

جُعِلْتُ فداءَكَ مِنْ فاضلٍ بلغتُ التراقي مِنْ جَورِهِ
وفي الغيبِ أكثرُ مما رأيت وأينَ البلوغُ إلى غَورِهِ
أَتَتْني الرواةُ بما قُلْتَهُ بهيأته وعلى كوره

(١) البيتان للمتنبي، ديوانه طبعة صادر ص٣٢١.
(٢) في الأصل: المعبد. والبيت في ديوانه ١/ ٥٠٢.
(٣) لم ترد القصيدة في ديوان البديع ولا في رسائله.

وقولكَ إنيَ طوعَ الشجارِ ... اضمّ ضلوعي على سوره
فقلتُ حياء لمنْ قد[1].. ... تجاوز منا مدى طوره
فيامَنْ بذلتُ ودادي لهُ ... فما لئت حورا على كوره
بود تبلج عنْ نوره ... وقصد تفرخ عن نوره
فهشَّ كما ليس يخفى عليك ... بشطرِ القيامِ إلى زوره
وبايعتُهُ بيمينِ الرضا ... وغضَّ الجفون على هوره
وقلْتُ لحنظلِ أخلاقِهِ ... ألا حبّذا الأرْيُ في شَوره
ولو كانَ ذلكَ منْ غيرِهِ ... طممْتُ بنجدي على غَوره
ولا عبتُهُ بكعابِ الرّجوعِ ... فقامرني بيدَيْ حَوْرِه
وكانَ حديثي لما رجعتُ ... حديثَ الفتى معَ سنَّورِه
فلم أدر فيما جفا ضيفَهُ ... ولِمْ اسكنَ البرّ مِنْ فَورِهِ
ألِلْزمنِ الني في حكمِهِ ... أم الفلكِ الغثِ في دورِهِ
وكاتبتُهُ استمدّ الودادَ ... كملتمسِ الدرّ من ثورِه
فقابلَ صِرْفي لممزوجِهِ ... وواجهَ دُرّي ببلُّوره
/٦١/ وجشّمَ اقدامَ إقدامِهِ ... يلوحُ التكلفُ في موره
وزارَ وزرناهُ عنْ قصدِهِ ... بما ليسَ يخجلُ في زَورِهِ
هلمّ إلى منبتِ المكرماتِ ... اواينا منتحى سوره[2]
وأما الخطابُ فأنْتَ ابتدأت ... ودونكَ زيدُ المُنى اوره

فلما وردت عليه الأبيات، أبرزت باطنه، وحركت ساكنه، وأخرجت دفائن صدره، ورفعتْ أذيال ستره، وملأ قلبه ولحيته تهديداً، فكتبنا إليه[3]: [من الهزج]

أعِنّى يا أبا بكرِ ... على نفثةِ مَصْدورِ
على ودّكِ مَطويّ ... وعنْ عتبك مَنْشُور
إلى سلمِك مُشتاقٌ ... على حربِك مَقْهُور
ولا تَعْدِل إلى الظّلـ ... ـمة عنْ ناحيةِ النُّسور
ولا تهْوَ إلى الوَهْـ ... ـدةِ مِنْ عاليةِ السُّور

---

(١) بعدها كلمة ساقطة. (٢) كذا في الأصل.

(٣) القصيدة لم ترد في ديوان البديع ولا في رسائله.

ولا تـنـهـجْ إلـى الأضـيـا فِ إلاّ سُـبُـلَ الـخـيـر
ولا تـحـفِـرْ لـهـمْ بـئـراً تـقـعْ فـي ذلـك الـبـيـر
ولا تـقـبِـلْ إلـى الـفـتـنـ ـةِ أسـبـابَ الـمـقـاديـر
فـمـا أكـثـرَ مـا عـنـد ك مِـنْ سـرٍّ الـعـقـاقـيـر
ولا نـعـرفُ فـي الاخـوا نِ مِـنْ هـدي إلا بـأزيـر
فـكـمْ أطـوي لـكَ الـسـمـعَ عـلـى سـود الـمـنـاكـيـرِ
وكـمْ الـقـى عـلـى طـرفـ ـيَ فـي حـلـمـي وتـذكـيـري
وإن تَـمـدد إلـى مـاءِ الـ ـتـصـافـي يـد تـكـديـر
تـعـد عـن وجـهـتـي والـلـ ـه مـحـذوف الـشـوابـيـر
ولا مـروان فـي الـكـوفـ ـةِ فـي غـدوةِ عـاشـور
ولا الـكـلـب فـي الـجـامـ ـع فـي فـروة مـمـطـور
وإن أحـبـبـت أن تـعـلـ ـم فـانـشـط غـيـر مـأمـور
ولا تـبـطـل فـدتـك الـنـفـ ـس فـي بـردكَ تـدبـيـري
ولا تـخـلـف بـأخـلافـ ـك فـي الـعـشـرة تـقـديـريَ

/ ٦٢/ فلما وردت عليه الأبيات، قال: لو أن بهذا البلد رجلاً تأخذه اريحيّة الكريم، وتملكه هزّة الهمم يجمع بيني وبين فلان ـ يعنيني ـ: ثم رأى إذا انجلى الغبار أفَرَسٌ تحتي أم حمار، وعلم أيّنا يبرز خلابه عفوا، أو أينا يغادر في الكر.

ولود فلان بوسطاه بل بيمناه، لو دخلنا وقلنا في المناخ له: نم إلى كلمات تحذو هذا الحذو، وتنحو هذا النحو، والفاظٍ أتتنا من علٍ وكان جوابنا أن قلنا: بعض الوعيد يذهب في البيد، والصدق يُنبىء عنك لا الوعيد[1]، وقلنا أن أجرأ الناس على الاسد أكثرهم رؤية له[2]. وقد قال بعضُ أصحابنا: قلتُ لفلان إلا تناظر فلاناً فإنه يغلبك. فقال: يُغْلب وعندي دفتر مجلّد، ووجدنا عندنا دفاتر مجلّدةً، وأجزاء مجرّدةً، وأنشدناه قول حجل بن نضلة: [من السريع]

جـاءَ شـقـيـقٌ عـارضـاً رمـحـهُ ان بـنـي عـمّـكَ فـيـهـم رمـاحْ
هـلْ أحـدثَ الـدهـرُ بـنـا نـكـبـةً ام هـلْ رقـت أمُّ شـقـيـقٍ سـلاحْ

فقلنا: إنا نقتحم الخطب، وتتوسط الحرب، فنردها مقحمين، ونصدر بلغاء:

(١) المثل في مجمع الأمثال ١/ ٣٩٨.
(٢) المثل في مجمع الأمثال ١/ ١٩١.

[من الطويل]

وألسُننا قبلَ النزالِ قصيرةٌ ولكنها بعدَ النزال طِوال

[من المتقارب]

فأرضك أرضك إن تأتنا تنم نومةً ليسَ فيها حلم

[من المتقارب]

فمن ظنّ ممن يلاقي الحروبَ بأنْ لايُصابَ فقدْ ظنّ عَجْزا

فإنك متى شئت لقيت منا خصماً ضخماً. ينهشك قضماً، ويأكلك خضماً، وحثثناه على الأخذ بكتاب الله تعالى من قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾[1] ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[2] وأنشدناه قول الأوّل: [من البسيط]

السلمُ نأخذُ منها ما رضيتَ بهِ والحربُ يكفيكَ منْ أنفاسِها جُرَعُ

/٦٣/ وقلنا له[3]: [من الوافر]

نصحتُكَ فالتمسْ ياويكَ غيري طعاماً إنْ لحمي كانَ مُرّا

ألَمْ يبلغْكَ مافعلتْ ظُباه بكاظمةٍ غداةَ لقيت عَمْرا

وجعل الشيطان ينقل بذلك أجفان طرفِهِ، ويقيم بها شعرات أنْفِهِ: [من الوافر]

وحتى ظنّ أن الغش نُصْحِي وخالفني كأنّي قلتُ هَجْرا

واتفق ان السيد أبا علي ـ أدام الله عزّه ـ نشط للجمع بيني وبينه فدعاني فأجَبْتُ ثم عرض عليَّ حضور ابي بكر فطلبت ذلك وقلت، هذه عدة لم أزل استنجزها وفرصة لا أزال انتهزها، فتجشّم السيد أبو الحسين فكاتبه يستدعيه، واعتذر أبو بكرٍ بعذر في التأخّر، فقلت لا ولا كرامة للدهر أن نقعد تحت ضيمهِ أو نقبل خسف ظلمِهِ، ولا عزازة للعوائق إن تضيعنا ولا نضيعها، أو تعنينا ولا ندفعها، وكاتبته وأنا أشحذ عزيمته على البدار، وألوي رايه عن الاعتذار، وأعرّفه مافيّ من ظنون تشتبه، وتهم تتجه، وتقادير تختلف، واعتقادات تخلف وقدنا إليه مركوباً لنكون قد الزمنا الحج وأعطينا الراحلة فجاءنا في طبقة وعدد: [من السريع]

كل بغيض قدّه اصبع وانفه خمسة أشبار

مع أرباب عانات، وأصحاب جربانات، لاتنال العين منهم إلا خسيساً، وسرحنا

---

(١) سورة النساء: ١٢٨. (٢) سورة الأنفال: ٦١.

(٣) من قصيدة بشر بن عوانة، (مقامات البديع ٢٥٠).

الطرف منه ومنهم، في أحمى من است النمر[١]، وأعطس من أنف النغر، فظننا أنه يريد أن يلقى كتيبةً، أو يهزم دوسراً، أو يغلّ الأنكدين، أو يردّ الوافدين ثم رأبنارجالاً جوفاً، قد خلقوا صوفا، فأمنّا المعرّة، ولم نخش المضرّة، وقمنا له وإليه، وجلس يحرق أُرَمَه، وتمثّل ببيت لا يقتضيه الحال، من أنا في الحبالة نستبق، فتركناه على غلوائه، حتى إذا نفض مافي راسه، وفرغ جعبة وسواسه، عطفنا عليه، فقلنا: عافاك الله، دعوناك وغَرَضُنا غير المهارشة، واستزرناك وقصدنا غير المناوشة فلتهدأ ضلوعك، وليفرخ روعك يا مار سرجس لا نريد قتالا، وما اجتمعنا إلاّ لخير، فلتسكن سورتك، ولِتَلِن فورتُك، ولا ترقص لغير طرب، ولا تحم لغير سبب، وإنما دعوناك لتملأ المجلس فرائد، وتذكر أبياتاً شوارد، وامثالا فوارد، ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسائلنا فتُسَرّ بما عندنا، ويقف كل منّا موقفه من صاحبِهِ، وقديماً كنت أسمع بحديثك، فيعجبني الالتقاء بك، والاجتماع معك، والآن إذْ سهّل الله ذلك، فَهَلُمّ إلى الأدب نُنْفِقُ يومنا عليه، وإلى الجدَل نتجاذب طرفيه، فاسمع خيراً واسمِعْنا مثلَه، ونبدأُ بالفنّ الذي ملكتَ به زمانك وفُتّ فيه أقرانك، وملكت منه عنانك، وأخَذْتَ منه مكانك، وطار به اسمُك بعد وقوعِهِ، وارتفع له ذكرك عقب خضوعِهِ، وأفحمت به الرجال، حتى أذعَنَ العالِم وقلّد الجاهل. وقالوا قول الصوفية: يادهشاً[٢] كلّه، فجارنا بفرسك، وطاولنا[٣] بنفسِك، فقال: وماهو؟ قلت: الحفظ إن شئت والنظم إن أردت والنثر ان اخترت، والبديهة إن نَشِطْت، فهذه أبوابك التي أنت فيها ابن دعواك تملأ منها فاك، فأحجم عن الحفظ رأساً، ولم يجل فيه قدحاً، وقال: أبادهك، فقلت: أنت وذاك، فمال إلى السيد أبي الحسين فسأله بيتاً ليُجيز، فقلت: ياهذا أنا أكفيك ثم تناولت جزءاً فيه أشعاره، وقلت لمن حضر: هذا شعر ابي بكر الذي كدّ به طبعُه، وأسهر له جفنُه، وأجال فيه فكره، وانفق فيه عمره، واستنزف فيه يومه، ودونه صحيفة مآثره، وجعله ترجمان محاسنه، وعبَّر به عن باطِنِهِ، وأخذ مكانه به وهو ثلاثون بيتاً، وسأقرن كل بيتٍ بوفقه، وأنظم كل معنى إلى لفقِهِ، بحيث أصيب أغراضه، ولا أعيد الفاظه، وشريطتي ألاّ أقطع النفس، فإن تهيّأ لواحد أو أمْكن لنا قدر ممّن قد حَضَر، يريد النَظَر ان يميز قوله من قولي، ويحكم على البيت أنّه لَهُ أوْ

---

(١) المثل في مجمع الأمثال ١/ ٥٣.

(٢) يا دهشا: أي حيرة، وإنما أضاف هذا القول للصوفية؛ لأن منهم من بقي بدرجة الحيرة ولم يتعدها (هامش ص٤١ من رسائله).

(٣) في الرسائل: وجُدْ لنا.

لي، أو يرجّح ما نُضّجه بنار الروّية، على ما أمليته على لسان النفس /٦٥/ فله يَدُ السبق. أو يكون غيرها، فأعفى عن هذه المعارضة، وتتنحّى لنا عن أرض المماثلة، ويخلّى لنا الطريق لمن يبني المنار به، فقال أبو بكر: ما الذي يؤمننا من أن تكون نظمت من قبلُ ماتريد إنشاده الآن؟ فقلت: اقترح لكل بيت قافيةً ولا أسوقُه إلاّ إليها، ولا أقف بهِ إلاّ عليها، ومثال ذلك، أن تقول: حشر فأقول بيتا آخره حشر، ثم عشر فانظم بيتاً قافيته عشر. ثم هلمّ جرا، إلى حيث يتضح الحق، وينتضِحُ الزرق، وتستقرّ الحجة وتطّرد، وتستقل الشبهةُ وتنطرد، فيعرف الحالي من العاطل، ويُفرّق بين الحقّ والباطل، فأبى أبو بكرٍ أن يشاركنا هذا العنان، ومال إلى السيد أبي الحسين يسأله بيتاً ليجيز، فتبعنا رأيه فيما رآه، ولم نرضَ إلا رِضاه، ولم نَعدِل عن هواهُ ومبتغاه، وأعْمَلَ كلٌّ منا لسانه وفَمَهُ. وأخَذَ دواتَهُ وقَلَمَه، وأجزنا البيت الذي قالهُ: وكلّ ما أجزْناه إجازةَ جارئ القَلَمُ فيها الطبعَ، وبارى اللسانُ بها السمعَ وسارَقَ الخاطِرُ بها الناظر، وسابق الجنان فيها البنان إلى أن قلنا[1]: [من الكامل]

هـذا الأديـبُ عـلـى تـعـسُّـف فـتـكِـهِ ... ويُـروكِـهِ عـنـد الـقـريـضِ بـبـرْكـهِ
مُـتَـسَـرِّعٌ فـي كـلّ مـايـعـتـادُهُ ... مـن نـظـمِـهِ مُـتَـبـاطـئٌ عـن تـركِـهِ
والـشـعـر أبـعـدُ مـذهـبـاً ومـصـاعـداً ... مِـنْ أن يـكـون مُـطـيـعُـهُ فـي فِـكـهِ[2]
والـنـظـم بـحـرٌ والـخـواطِـرُ مـعْـبَـرٌ ... فـانـظـرْ إلـى بـحـر الـقـريـضِ وفـلْـكـهِ
فـمـتَـى تـوانـى فـي الـقـريـضِ مُـقَـصِّـرٌ ... عـرَّضْـتُ أُذْنَ الامـتـحـان لـعَـرْكِـهِ
هـذا الـشـريـفُ عـلـى تـقـدّم بـيـتِـهِ ... فـي الـمـكـرمـاتِ ورِفْـعَـةٍ فـي سـمـكِـه
قـد رام مـنّـي أن أُقـارِنَ مـثـلَـهُ ... وأنـا الـقـريـن الـسـوءُ إن لـم أنْـكـه[3]
وإذا نـظـرتَ وجْـدتَ مـاقـدْ قـلـتُـهُ ... بـردَ الـيـقـيـنِ عـلـى حـرارةِ شـكـه[4]
عـارضـت بـيـتـاً قـلـتـه مُـتَـعَـسِّـفـاً ... وحَـطَـمْـتَ جـانـحـة الـقـريـن بـدكّـه[5]
وَدَبَـغْـتَ مـنـه أديـمـهُ فـتـركـتـه ... نـهـج الأديـم بِـدَبْـغـهِ وبَـدلْـكِـهِ

---

(١) الأبيات في رسائل البديع ٤٣، والثالث والرابع والخامس في الديوان ص١١٧، ومعجم الأدباء ١/ ٢٣٩.

(٢) الفكّ: الفتح وفصل الشيء.

(٣) بعده في الرسائل:
وإذا نـظـمـتُ قَـصَـمْـتُ ظـهـر مُـنـاظـري ... وحَـطَـمْـتُ جـارحـةَ الـقـريـن بـدِكّـهِ

(٤) لم يرد هذا البيت في الرسائل.

(٥) لم يرد في الرسائل وإنما ورد البيت الذي ذكرته أنفاً.

أصغوا إلى الشعر الذي نظّمتُهُ — كالدرّ رصّع في مجرَةِ سِلْكهِ
فمتى عجزتُ عن القرين بديهةً — فدمي الحرامُ له إراقةُ سفكهِ

فقال أبو بكر أبياتاً جهدنا به أن يخرجها عن اللحاف(١)، ويبرزها من الغلاف(٢) فلم يفعل دون أن طواها، وجَعَل يَفْرُكُها ويَعركُها، فقلت: ياهذا إن البيت لقائلِهِ كالولد لناجِلِهِ، فما لك تعقّ ابنَكَ وتُضيمه؟ ابرزها للعيون، وخلّصها من الظنون، فكره أبو بكرٍ أيّده الله أن تكون الهرّة أعْقَلَ منه؛ لأنّها تَحدث وتغطّي، فلم يستجز(٣) أن يظهر، ثم بسط(٤) جبينه، وبسط يمينه للبديهة نفساً دون أن كتب فقال: انت وذاك، واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيب المتنبي حيث يقول(٥): [من الكامل]

أَرَقٌ على أرقٍ ومثلي يأرقُ — وجوًى يزيدُ وعبرةٌ تترقرقُ

وابتدر أبو بكرٍ أيّده الله إلى الإجازة. ولم يزل إلى الغايات سبّاقاً فقال:

وإذا ابتدهتُ بديهةً ياسيدي — فأراكَ عندَ بديهتي تتقلّقُ
وإذا قرضتُ الشعر في ميدانِهِ — لا شكَّ أنّكَ ياأخي تتشقّقُ
إني إذا قلتُ البديهةَ قلتها — عجلاً وطبعُك عندَ طبعي يرفقُ
ما لي أراكَ ولستَ مثلي عندها — متموهاً بالترهات تُمخرق
إني أجيزُ على البديهةِ مثلما — تريانه وإذا نطقتُ أصدّق
لو كنتَ مِنْ صخرٍ أصمّ لها له — (مني)(٦) البديهةُ واغتدى يتفلق
أو كنتَ ليثاً في البديهةِ قادراً — لوثبت يامسكين دوني تبرق(٧)
وبديهة قدْ قلتُها متنفّساً — فقلِ الذي قدْ قُلْتُ ياذا الأخرق

ثم وقف يعتذر ويقول: إن هذا كما يجيء، لا كما يجب، فقلت: قَبِل الله عذرك لكنّى أراك بين قوافٍ مكروهة، وقافاتٍ خشنة، كل قاف كحبل قاف، منها، تتقلّق، وتتشقّق، وتفلق، وتمخرق، وتبرق، وتسرق، واحمق، وأخرق / ٦٧/ إلى أشياء لا أكثر بها العدد فخذ الآن جزاءً عن قرضك، واداءً لفرضك، وقلت(٨): [من الكامل]

---

(١) الرسائل: الغلاف.
(٢) الرسائل: اللحاف.
(٣) الرسائل: يستجرىء.
(٤) الرسائل: مسح.
(٥) ديوانه طبعة صادر ص٢٨.
(٦) الزيادة عن رسائله ص٤٥.
(٧) في الرسائل: تفرق.
(٨) الأبيات في الرسائل ص٤٦ والأول والأخير في ديوانه ومعجم الأدباء.

مـهـلاً أبـا بـكـرٍ فـزنـدك أضْـيَـقُ وأخـرسْ فـإن أخـاكَ حـيٌّ يُـرْزَق
دَعْـنـي أعِـرْك إذا سـكـتَّ سـلامـةً فـالـقـولُ يُـنـجِـدُ فـي ذويـك ويـعـرقُ
ولـفـاتـكٍ فـتـكـاتٍ سـوءٍ فـيـكُـمُ فـدعِ الـسـتـورَ وراءهـا لاتـخـرق
وانـظـر لأشـنـع مـاأقـولُ وأدّعـي ألـهُ إلـى أعـراضـكـم مـتـسـلّـق
يـا أحـمـقـاً وكـفـاكَ ذلـكَ خـزيـةً جـرّبـتَ نـار مـعـرّتـي هـلْ تـحـرق؟

فلما أصابه حرّ الكلام، ومسّه لفح هذا النظام، قطع علينا فقال: ياأحمقاً لا يجوز، فإنّ أحمق لا ينصرف، فقلنا ياهذا لانقطع، فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب، فليس بظرف ظرفٍ، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجَدَ الطاعن سبيلاً إليك، وأما أحمق، فلا يزال يصفعك وتصفعه، حتى ينصرف وتنصرف معه، وعرفناه أن للشاعر أن يردَّ ما لا ينصرف إلى الصرف. كما أن له رأيه في القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من اشعار العرب، فقال: يجوز للعرب مالا يجوز لك، فلم ندر كيف نجيب عن هذا الموقف وهذه المواقعة، وكيف يسلم من هذه المناصفة؟ لكنا قلنا له: أخبرنا عن بيتك الأول: أمَدَحْتَ أم قَدَحْتَ؟ وزكيت أم جرحْتَ؟ ففيها [شيئان] متفاوتان ومَعْنَيان متباينان، منها أنك بدأت فخاطبت بياسيدي، والثانية أنك عطفت فقلت تتفلق، وهما لايركضان في حَلَبة، ولا يحطان في خطّة، ثم قلت له: خُذْ وزناً من الشعر، حتى أسكت عليك، فتستوفي من القول حظّك، واسكت علينا حتى نستوفي حظّنا، ثم أني احفظ عليك أنفاسك، واوافقك عليها، واحفظ عليّ انفاسي ووافقني عليها، فإن عجزت عن اعتلاقها حفظتها لك، فسلني عنها بعد ذلك، وأخذنا بيت أبي الطيب المتنبي[1]: [من المنسرح]

أهـلاً بـدارٍ سـبـاكَ أغـيـدُهـا مِـنْ بـعـدِمـا بـانَ عـنـكَ خُـرّدهـا

/ ٦٨/ فقلت[2]: [من المنسرح]

يـا نـعـمـةً لا تـزالُ تـجـحـدُهـا ومـنّـةً لا تـزال تـكـنـدهـا

فأخذ بمخنّق البيت قبل تمامِهِ، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال: [ما] معنى تكندها؟، فقلت: ياهذا، كَنَدَ النعمة كفرها، فرفع يديه وراسه، وقال: معاذ الله أن يكون كند، بمعنى جَحد، وإنما الكنود القليل الخير، فأقبلتِ الجماعة عليه يوسعونه

---

(١) ديوان هص٨.

(٢) البيت لم يرد في ديوانه وهو في الرسائل ص٤٧.

برماً وفرياً، ويتلون عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾[١] فقلت: أليس الشرط أملك؟، والعهد بيننا ان تسكت ونسكت حتى نتمّ وتتمّ، ثم نبحث ونفحص؟ فنبذَ الأدب وراء ظهرِهِ وصار إلى السخف يكيلنا بصاعِهِ ومدِّهِ، وينفض فيه حمة جهدِهِ، وأفضى إلى السفَهِ يغرف علينا غرفاً، ويستقي من جرفِهِ جرفاً، فقلت له: ياهذا. إنّ الأدب غير سوء الأدب، وللمناظرة حظرنا لا للمنافرة، فإن نفَضْتَ عن هذا السخف يدك، وثنيت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركتُ مكالمتك، ولو كان في باب الاستخفاف شيء أبلغ من ترك الانكار لبلغته منك، فأخَذَ يمضي على غلوائه، ويمعن في هرائه وهذائه فاستندتُ إلى المسند، ووضعتُ اليد على اليد، وقلت: أستغفرُ الله من مكالمتك ونَفضْتُها قائمةً معه، وسكتّ حتى عرف الناس، وأيْقَنَ الجلاس اني أملك من نفسي ما لا يملكه، وأسلك من طريق الحكم ما لا يسلكه، ثم عطفتُ عليهِ فقلت: ياأبا بكر، إن الحاضرين قد أعجبوا من حلمي بأضعاف ماأعجبوا من علمي، وتعجبّوا من عقلي أكثر مما تَعَجّبوا من فضلي، وبقي الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عيّ، وإن تكلّفي للسّفه أشَدُّ استمراراً من طبعك، وغربي في السخف أمتن عوداً من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونفترع من ظهر السَّفَهِ مفترعك، فتكلّم الآن، فقال: أنا قد كسبت بهذا [العقل][٢] ديّة أهل همذان مع قلته فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته، فقلت: أما قولك دية أهل همذان فما أولاني بأن لا أجيب عنه، لكن هذا الذي به تتمَدح وتتبجحّ وتتشرف وتتصلَّف من انك شحذت فأخذت، وسألت فحصلت / ٦٩/ وكديت فاقتنيت، فهذا عندنا صفة ذم عافاك الله، ولأن يقال للرجل: يافاعل ياصانع، أحبّ من أن يقال: يا شحاذ، يامكدّي، وقد صدقت، أنت في هذه الحلبة أسبق، و[في][٣] هذه الحرفة أعْرَق، ولعمرك إنك اشحذ، وأنت في الكدية أنفذ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة، حديث الورد لهذه الشرعة، مرمل اليد في هذه الرقعة، فأما مالك فعندنا يهودي يماثلك في مذهبه، ويزنك بذهبِهِ، وهو مع ذلك لا يطرقني إلاّ بعين الرهبة، ولايمدّ إليّ إلاّ يَد الرغبة، ولو كان الغنى حَظاً كريماً لأخطأه مثل هذا العقل، ولو كان المال غُنْماً لما أدرك بهذا السعي. ولكن عرّفني هل كنت فيما سَلَفَ من زمانِك ونَبَتَ من أسنانك، إلا هاربا بذَمائِك، مضرّجاً بدمائك، مرتهناً بقولك، بين وَجْنَةٍ موشومة، وجوارح مهشومة، ودارٍ مهدومة، وخدودٍ ملطومة؟ ومتى صَفَتْ مشارِعُك، او أخْصَبَتْ مراتعك، إلاّ في هذه الأيام القذرة. وستعرف

---

(١) سورة العاديات: ٦.
(٢) الزيادة عن الرسائل.
(٣) الزيادة عن الرسائل.

غدك من بعد، وتنكر أمسك من [غد] وتعلم قدرك في غد، وتعرف نفسك، وما أضيّع وقتاً قطعته بذكرك، ولساناً دنّسته باسمك، ومِلْتُ إلى القوال. وهو أبو بكر أحمد بن عبد الله الشاذياخي، فقلت: اسمعنا خيراً فدفع القوال وغنّى أبياتاً فيها: [من الوافر]

وشبّهنا بنفسج عارضيهِ   بقايا اللطمِ في الخدِّ الرقيقِ

فقال أبو بكر: ياقوم، أحْسَنُ مافي هذا الأمر أني أحفظ هذه القصيدة، وهو لا يعرفها، فقلت: ياعافاك، أعرفها وإن انشدتكها سائك مسموعها، ولم يسرّك مصنوعها، فقال: أنْشِد، فقلت: أنْشِد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية. وأنشدتُ:

وشبّهنا بنفسجَ عارضيهِ   بقايا الوَشْمِ في الوجْهِ الصفيقِ

فأتته السكتة، وأضجرتهُ النكته، وانطفأت تلك الوقدة، وانحلّت تلك العقدة، وأطْرَقَ مليّاً، وقال: والله لأضربنّك وإن ضُربت، ولأشتمنّك وإن شتمت، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾[1]، ولتعلمنّ أيّنا الضارب، وأيّنا المضروب، / ٧٠/ وقلتُ: يا أبا بكر، مهلاً، فإنك بين ثلاثة فصول لم تتخطّها من عمرك، وثلاث أحوال لم تتعدّها[2] في أمرك، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك، ومتعدٌّ في تهديدك؛ لأنك كَهْلٌ وأنت شاعر، وكنت شاباً وأنت مقامر، وكنت صبياً وأنْتَ مؤاجر، فنطاق القدرة في الثلاثة الفصول ضيق عن هذا الوعيد، لكنّا نصفعك الآن، وتضربنا فيما بعد، فقد قيل اليوم قصف وغداً خسف، وقيل اليوم خمر وغداً أمر.

فقال أبو بكر: والله لو أنك دخَلْتَ الجنّة، واتّخَذْت السندس والإستبرق جُنّة لَصُفِعْت، فقلت: والله لو أن قفاك غدا في درج في خرج في برج، لاخذك من النعال، ماقدم وماحدث، وشملك من الصفع ماطاب وخَبُث، وانشدت قول ابن الرومي[3]: [من المجتث]

إن كان شيخنا سفيهاً   يفوق كلّ سفيه

فقد أصَابَ شبيهاً   له وفوق الشبيه

ثمَّ لما آبتْ نفس العقل، وزال سكر الغيث، تمثَّلَت بقول القائل[4]: [من الطويل]

وأنزلني طولُ النوى دارَ غُربةٍ   إذا شئتُ لاقيتُ أَمرأً لا أشاكلُهُ

---

(١) سورة ص: ٨٨.

(٢) في الأصل: تتعهدها، والتصويب عن الرسائل.

(٣) ديوانه: ٣/ ٢٦٣٤.

(٤) الأبيات بدون نسبة في البيان والتبيين ١/ ٢٤٥، وعيون الأخبار ٣/ ٣٤.

أُحامِقُهُ حتّى يُقالَ سجيّةٌ ولو كان ذا عقلٍ لَكُنْتُ أُعاقِلُهُ

ودفع القوال، فبدأ بأبيات، ولَحَنَ بأصوات، وجعل النعاس يثني الرؤوس، ويمنع الجلوس، فقمنا عن الليل، وهو يجرّ بعاع[1] الذقن إلى ما وطىء من مضجع، ومَهّد من مهجع، ولم يكن النوم مَلأَ الجفون، ولا شَغَلَ العيون حتى أَقْبَلَ وفدُ الصباح. وَحيْعَلَ المؤذن بالفلاح، وندب النهوض إلى المفروض، وأجبنا، فلما قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى إلى أم مثواه، وأويتُ إلى الحجرة، وظنّي ان هذا الفاضل يأكل يده نَدَماً، ويبكي على ماجرى دمعاً ودماً، فإنه إذا سمع بحديث همذان قال: الهاءُ همّ، والميم موت، والذال ذلّ، والالف أفّة، والنون ندامة، وأنه إذا قام هالهُ منا طيف، وإذا انتبه راعَهُ منّا سيف، وأخَذَ الناس يترامزون بما جرى، ويتغامزون، ورابَ /٧١/ هذا الفاضل غمزاتهم، مثلما راب المريض تغامز العوّاد، فجعل يحلف للناس بالعتق وتحرير الرقّ، والمكتوب في الرَّقّ، أنه أخَذَ قصب السبق، وأنه ينطق عن الحق، والناس أكياس، لا يقنعهم عن المدّعي يمين دون شاهدين، وسعوا بيننا بالصلح، يُحْكِمون قواعده ومعاقده، وعرفنا له فضل السنّ، فقصدناه معتذرين إليه، فأومأ إيماءةً مهيضةً، واهتزّ اهتزازةً مغيظة. وأشار إشارةً مريضةً، بكفٍّ سَحَبَها على الهواء، ويَدٍ بَسَطَها في الجوّ بَسْطاً، وعلمنا إن للمقمور ان يستخفّ ويَسْتَهين، وللقامر أن يحتمل ويلين، فقلنا: ان بعد الكدر صفوا، كما أن عقب المطر صَحْواً، فهل لك في خُلق في العشرة نستأنفها، وطرق في الخلْطة نَسْلكها، فإن ثمرة الخلاف ماقد بلوتها. فقال: ظهْرُ الوفاق أوْطأ كما ذكرت، والجميل أجْمَل كما علمت، وسنشترك في هذا العنان، وعَرَضَ علينا الإقامة عنده سحابةَ ذلك اليوم، فاعتللنا بالصوم فلم يقبل العذر، وألحّ، فقلت: أنت وذاك، فطعمنا عنده، وأخذنا ديدان مردّه[2]، وخرجنا والنيّة على الجميل موفورة، وتبعة الودّ معمورة، وصرنا لانتعلّل إلا بمدحه ولا نتنقل إلاّ بذكرِهِ، ولا نَعْتَدُّ إلاّ بودّه، لا بل ملأنا البلد شكراً والأسماع نشراً، وبتنا نحن من الحال في أعْذَبِها شرعة، ومن الثقة في أطيبها جرعةً، ومن الظنون في أفْلَجِها قرعه، ومن المودّةِ في أعمرها بقعة، وأوْسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقالتِهِ، مؤديان لرسالتِهِ، ذاكران بأن أبا بكر يقول: قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار في أنك قَهَرْتَ وأني قُهِرْت،

(١) كذا في الأصل، وفي الرسائل: وهو بحره مائل الذقن.

(٢) كذا في الأصل، وفي الرسائل: دندان مزده. قال الشارح: المزد: هو البرد، والدندان كالدندن بكسر الأول والثالث. هينمة الكلام.

ولا أشك أن ذاك التواتر عنك صدرت أوائِلُهُ، والخبر إذا تواتر بِهِ النقْلُ قَبِلَهُ العقلُ، ولا بدّ أن نجتمع في مجلس بعض الرؤساء فتتناظر بمشهد الخاصة والعامة، فإنك متى لم تَفْعَل ذلك لم آمن عليك تلامذتي، أو تقرّ بعجزك وقصورك عن بلوغ أمدي ومنال يدي، فَتَعجبْتُ كلَّ العجب / ٧٢/ مما سمعتُ، وأجبتُ فقلتُ: أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت، وأن ذلك عن جهتي صدر، ومن لساني سمع، فبالله ماأتَمدَّح بقهرك، ولا أتَبَجَّحُ بقسرك، وإن لنفسك عندك لشأناً إن ظننتني أقِفُ هذا الموقف، أنا إن شاء الله أبعد من ذلك مرتقى همةٍ ومصعد نفسٍ، أسأل الله ستراً يمتدّ ووجهاً لا يَسْوَدّ، فأما التواتر من الناس، والتظاهر على أني قهرتك، فلو قدرت على الناس لخِطْتُ أفواههم، ولقبضتُ شفاههم، فما الحيلة، وهل إلى ذلك سبيل فأتوسل أم ذريعة فأتوصّل؟ ثم هذا التواترُ ثمرةُ ذلك التناظر، مع ذلك التساتر، فإن كان ساءَكَ، فأحرى أن يسوءك عند مُجْتَمع الناس ومُحْتَفَلِ أُولي الفضل، ولأن يترك المر مختلفاً فيه خيرٌ لك من أن يُتفق عليه، فإن أَحْبَبْتَ أن تطير هذا الواقع، وتهيج هذا الساكن، فرأيُك موفقاً، فأما هذا الوعيد، فقد عرضته على جوانحي وجوارحي كلّها، فَلَم تنشد إلاّ قول القائل: [من الوافر]

وعيدٌ تخرج الآرامُ منه وتكرهُ نبّةَ الغنمِ الذئاب[1]

فكم يتكوكب تلامذتك ويتعسكرون، ويتفحّش أصحابك وتبا جعفرون[2]، ولست أراكَ إلاّ بين ميمين[3]، أحدهما يروح إلى انثى ويغدو إلى طفل، والآخر يجيب دعوة المضطر إذا دعاه بمسلّفات، فإن كان الله قد قضى أنْ أُقْتَل بأخسّ السلاح، فلا مَفَرَّ من القدر المتاح، رزقنا الله عقلاً به نعيش، ونعوذُ بالله من رأي بنا يطيش، وقلنا من بعد: إن رسالتك هذه وردت مورداً لم نحتسبهُ، ووصلت موقفاً لم نرتقبه، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما، وعن الخل لوما، فلما ورد الجواب عليه وسع من الغيظ فوق ملئهِ، وحمل من الحقد فوق عبئه، وقال: قد بلغ السيل الزبى، وَعَلَتِ الوهاد الرّبىٰ في أمرك، وسترى يومك، وتعرف قومك، ثم مضت على ذلك أيام، ونحن منتظرون لفاضِلٍ / ٧٣/ ينشط لهذا الفصل، وينظر بيننا بالعدل، فاتفقت الآراء على أن يُعْقد هذا المجلس في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير.

---

(١) في الرسائل ص٥٥: تخرج ... ونكره نبّة.

(٢) كذا في الأصل، وفي الرسائل: ويتجيّش أصحابك ويتجمعون.

(٣) في الرسائل: ثنتين، ويريد بميمين: المعلم والمتسول كما سيأتي.

واستدعيت، فسرحت الطرف من ذلك السيّد في عالم أفرغ في عالم، وملك في درع ملك، ورجل نظم إلى التنبّل تبذّلاً، وإلى الترفع تواضعاً، ونَطَقَ فودّت الأعضاء لو أنّها أسماع مصغية، واستمع فتمنّت الجوارح لو أنها السنة ناطقة، فقلت: الحمد لله الذي عقد هذا المجلس في دار من يفرق بين من يحق وبين من يزرِّق، وكنت أوّل من حضر وانتظر مليّاً حضور من ينظر، وقدوم مَنْ يناظر، وطلع الامام أبو الطيب، واخذ من المجلس موضعه، والامام أبو الطيب بنفسه أمّة، ووحده عالم، ثم حضر السيد أبو الحسين أدام الله عزّه، وهو ابن الرسالة والامامة، وعامر أرض الوحي والمحتبى بفناء النبوّة، والضارب في الأدب بعرقه، وفي النطق بحذقِهِ، وفي الانصاف بحسن خلقه، فجشّم إلى المجلس قدم سبقهِ، وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين، لأمر كان قد موّه عليه، وحديث كان شُبِّه لديه، وفَطَنْتُ لذلك، فقلت: أيها السيد أنا [إذا] سار غيري في التشيّع برجلين طِرتُ بجناحين، وإذا متّ سواء في موالاة أهل البيت بلمحةٍ دالّة، توسلت بغرّةٍ لائحة، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنّك على ترك الواجب، ثم ان لي في آل الرسول ﷺ وعليهم قصائد قد نظمت حاشيتي البرّ والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارتْ في البلاد، ولم تَسْرِ بزاد، وطارت في الآفاق، ولم تطر على ساق، ولكنّي لا أتسوّق بها لديكم، ولا أتنفّق بها عليكم، وللآخرةِ قلتها لا للحاضرة، وللدين ادخرتها لا للدنيا، وللمعاد نظمتها لا للمعاش، فقال: انشدني منها، فقلت: [من مجزوء الكامل]

يـــا لـــــمـــــة ضَــــرَبَ الــــزَّمـــــا	نُ عــلـــى مُـــعــرَّسِـــهــا خــيـــامَـــه
للهِ درُّكِ مـــــــــــن خُــــــــــزَا	مـــى روضـــةٍ عـــادتْ ثُـــغـــامـــه
/ ٧٤/ لـــرزيّـــةٍ قــــامـــت بـــهــــا	لـــلـــديـــنِ أَشـــراط الـــقـــيـــامـــه
لـــمـــضـــرّجٍ بـــدمِ الــــنــــبـــوّ	تـــضـــاربٍ بـــيـــد الإمـــامـــه
مـــتـــقـــسّـــم بـــظُـــبـــي الـــســـيـــو	فِ مـــجـــرّعٍ مـــنـــهـــا حِـــمـــامـــه[1]
مــــنـــــعَ الــــورودَ ومـــــاؤهُ	مـــنـــهُ عـــلـــى طـــرف الـــثـــمـــامـــه
نَـــصَـــبَ ابـــنُ هـــنـــدٍ رأسَـــهُ	فـــوقَ الـــورى نـــصـــبَ الـــعـــلامـــه
ومـــقـــبّـــلٍ كـــان الـــنـــبـــيّ	بـــلـــثـــمِـــهِ يَـــشـــفـــي غَـــرَامَـــه
قـــرعَ ابـــنُ هـــنـــدٍ بـــالـــقـــضـــيـــ	ـــبِ عـــذابَـــهُ فـــرطَ اســـتـــضـــامـــه

(١) في الأصل: مجرح، والتصويب عن الرسائل.

وشدا بنغمته عليـ ـه وصبَّ بالفضلاتِ جامه
والدينُ أبلجُ ساطعٌ والعدلُ ذو خالٍ وشامه
ياويحَ مَنْ ولّى الكتا بَ قفاهُ والدنيا أمامه
ليضرَّسنَّ يَدَ الندا مةِ حيثُ لا تُغني الندامه
وليدركنَّ على الغرا مةِ سوءَ عاقبةِ الغرامه
وجِمّى أباحَ بنو أميـ ـةَ عنْ طوائلهم حرامه
حتى اشتفوا مِنْ يومِ بد رٍ واستبدّوا بالزعامه
لعنوا أميرَ المؤمنيـ ـنَ بمثلِ إعلان الإقامه
لِمَ لمْ تخِرّي يا سما ءُ ولمْ تصبّي ياغَمامه
لِمَ لمْ تزولي ياجبا لُ ولم تشولي يانَعامه
يالعنةً صارتْ على أعناقِهم طوقَ الحمامه
إنَّ الإمامةَ لمْ تكنْ للئيم ماتحتَ العِمامه
مَنْ سُبْطُ هندٍ وابنُها دونَ البتولِ ولا كَرامه
ياعينُ جودي للبقيـ ـعِ فدرّعي بدمٍ رُغامه
جودي بمذخورِ الدمو عِ وأرسلي بَدَداً نظامه
جودي بمشهدِ كربلا ءَ فوفّري مني ذِمامه
جودي بمكنونِ الجما نِ أجُدْ بما جاد ابنُ مامَه / ٧٥/

فلما أنشدتُ ماأنْشدت، وسودتُ ما سودت، وكشفت له الحال، فيما اعتقدت، انحلّت تلك العقدة، وصار سلماً يوسعنا حلماً، وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامي، وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم، ثم حضر بعد ذلك القاضي أبو نصر، والادب أدْنى فضائله، وايْسر فواضله، والعلل شيمةٌ من شيمه، والصدق مقتضى هممه، وحضر بعده الشيخ أبو سعد محمد بن أرمك أيده الله، وهو الرجل الذي تحميه لألاؤه أو لوذعيته من أن يدال بمن؟ أو ممن الرجل؟ وهو الفاضل الذي يحطب في حبل الكتابة ماشاء، ويركض في حلبة العلم ماراد، وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب، وله في الأدب عينه وقراره، وفي العلم شعلته ونارهُ، وحضر بعده الفقيه أبو الهيثم، ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه، وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان، والفضل منه بدأ، وإليه يعود،

وحضر بعده [أصحاب][(١)] الشيخ [أبو] الطيب رحمه الله، وما منهم إلا أغرّ نجيب، وحضر بعدهم أصحاب الشيخ الفاضل ابي الحسن الماسرجسي، وكل إذا عُدَّ[(٢)] الرجال مقدم، وحضر بعدهم أصحاب الاستاذ أبي عمرو البسطامي، وهم في الفضل كاسنان المشط، ومنه باعلى مناط العقد، وحضر بعدهم الشيخ أبو سعد الهمداني، وله في الفضل قدحُهُ المعلّى، وفي الادب حظّه الأعلى، وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة [المرسلة][(٣)]، والأسوكه المرسلة، رجال يلعن بعضهم بعضاً، فصاروا إلى قلب المجلس وصدره، حتى ردّ كيدهم في نحرهم، وأُقيموا بالنعال إلى صفّ النعال، فقلت لمن حضر: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا: أصحاب الخوارزمي، فلما أخذ المجلس زخرفه ممن حَضَر، وانتظر أبو بكر فتأخر، اقترحوا علي قوافيَ أثْبَتوها، واقتراحات كانوا بيّتوها: [من الهزج]

فـمـا ظـنـك بـالـحـلـفـاء أدنـيـت لـهـا نـارا

من لفظٍ إلى المعنى نسقته، وبيتٍ إلى القافية سقته على ريقٍ لم أبلغه، ونَفَسٍ لم أقْطعه، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوْردت، وتعجبٍ مما أنشدت، وقال أحدهم بل واحدهم، وهو الامام أبو الطيب، لن نؤمن لك حتى نقترح القوافي ونعيّن المعاني، وننصّ على بحرٍ، فإن قلت حينئذٍ على الروي الذي أسُومه وذكرت المعنى الذي ارومه، وأنت حي القلب كما عهدناك، منشرح الصدر كما شاهدناك، شجاع الطبع كما وجدناك، شهدنا انك قد أحسنت، ولا فتى إلاّ أنت، فما خرجتُ من عهدة هذا التكليف حتى ارتفعت الأصوات بالهيللة من جانب، والحوقلة من آخر، وتعجبّوا إذ ارتهم الايام ما لم تُرِهُم الأحلام، وجَادَ لهم العيان بما بخل به السماع، وأنجزهم الفهم، ما أخْلَفَهُم الوهم، ثم التفتّ فَوَجَدْتُ الأعناق تلتفت، وماشعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملته، وهب بجملته، بأوداج مايسعها الزرّان[(٤)] وعينين في رأسه تزرّان، ومشى إلى فوق رقاب الناس، وجعل يدسُّ نفسه بين الصدور يريد الصدر، وقد أخَذَ المجلسُ أهْلَه، فقلت: ياأبا بكر، تزحزح عن الصدر قليلاً إلى مقابلة أخيك، فقال: لستَ بربّ الدار فتأمر على الزوّار، فقلت: يا عافاك الله، حضرتَ لتناظرني، والمناظرةُ اشتقّت أما من النظر وأما من النظير، فإن كان اشتقاقها

(١) الزيادة عن الرسائل.
(٢) في الأصل: وكل أعدّ.
(٣) الزيادة عن الرسائل.
(٤) الزران مثنى زر بالكسر، وهو ما يوضع في القميص.

من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحدا حتى يتبين الفاضل من المفضول، ثم يتطاول السابق، ويتقاصر المسبوق، وإن كان من النظير، فأنا نظيرك وأنت نظيري، فلم تتصدر أنت، وأنا أجلس بين يديك، فقضت الجماعة بما قضيت، وغضّ هذا الفاضل من تلك الحكمة، وانحطّ عن تلك العظمة، وقابلني بوجههِ، فقلت: اراك أيّها الفاضل حريصاً على اللقاء، سريعاً إلى الهيجاء، ولو زبنتك الحرب لم تترمرم[١]، ففي أيّ علم تريد أن تناظر؟ فأومأ إلى النحو، فقلت: ياهذا إن النهار قد مَتَع / ٧٧/ والوقت قد ارتفع، والظهر قد أزِف، وإن قَرَعْنا باب النحو أضعنا اليوم فيه، فإذا خرج القوم، وعلا هتاف الناس أيّهما ردّ الجواب هناك مايدري المجيب، فإن شئت أنا اناظرك في النحو، فسلّم الآن لي ماكنت تدّعيه من سرعةٍ في البديهة، وجودةٍ في الرويّة، وقدرةٍ على الحفظ، ونفاذٍ في الترسّل، ثم أنا أُجاريك في هذا، فقال: لا اسلّم ذلك، ولا أُناظِر في غير هذا، وارتفعت المضاجّة واستمرت الملاجّة، حتى أتلع الاستاذ الفاضل أبو عمر إليه، وقال: أيها الاستاذ أنت أديب خراسان، وشيخ هذه الديار، وبهذه الأبواب التي قد عدّها هذا الشاب كنا نعتقد لك السبق والحذق، وتثاقلك عن مجاراتِهِ فيها مما يتهم ويوهم، واضطره إلى منازلةٍ فيها، أوْ نزولٍ عنها، ومقارة فيها أو إقرار بها، فقال: قد سلمت الحفظ، فانشدت قول القائل: [من الطويل]

ومستلئمٍ كشّفتُ بالرمح ذَيْلَهِ أقِمْتُ بعضبٍ ذي سفاسق مَيْلَه
فَجَعْتُ بهِ في مُلتقى الحَيّ خيلَهُ تركتُ عِتاق الطيرِ يَحْجِلُ حولَهُ

وقلت: ياأبا بكر، خفّفَ الله عنك كما خفّفت عنا في الحفظ، فقد كفيتنا مؤنة الامتحان، ولم تضع وقتنا من الزمان، فلو تفضلّتَ وسمّت البديهة أيضاً، مع الترسّل حتى نفرغ للنحو الذي أنت فيه أكبر، واللغة التي أنت بها أعرف، والعروض الذي أنت عليه أجْرأ، والأمثال التي لك فيها السبق والقدم، والاشعار التي أنت فيها مُقَدّم، فقال: ماكنت لأسلم الترسّل ولا سلّمت الحفظ، فقلت: الراجع في شيئه كالراجع في قيئه، لكنا نقيلك عن ذلك سماحاً، فهات أنشدنا خمسين بيتاً من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلي خمسين مرة، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد، تهاب شوكته اليد، فسلمه ثانياً، كما سلّمه بادياً، وصرنا إلى البديهة، فقال أحد الحاضرين: هاتوا على شعر / ٧٨/ أبي الشيص في قولِهِ[٢]: [من الكامل]

---

(١) ترمرم الجماعة: إذا تحركوا للكلام، والزبن: الدفع، من زبن إذا دفعه.

(٢) ديوان أبي الشيص ص٧٥.

أبقى الزمانُ بهِ ندوبَ عِضاضِ ... وَرَمى سوادَ قُرونِهِ ببياضِ

فأخذ أبو بكر يخضد ويحصد، مقدّراً أنا نغفل عن أنفاسِهِ، أو نوليه جانب وسواسِهِ، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم، ثم نوافقه عليها فقال[1]: [من الكامل]

ياقاضياً مامثلُهُ مِنْ قَاضي ... أنَا بالذّي تقضي علينا راضي

فلقد لبستَ صفيّةً ملمومةً ... مِنْ نسجِ ذاكَ البارقِ الفَضْفاضِ

لا تغضبنّ إذا نظمتُ تنفّساً ... إن الغضى في مثل ذاك تغاضي

فلقدْ بُلِيتَ بشاعرٍ متقادرٍ ... لا بَلْ بُلِيتَ بنابِ ذئبٍ غاضِي

ولقدْ قرضتُ الشعرَ فاسمعْ واستمعْ ... لنشيدِ شعري طائعاً وقراضي

فلأغلبنّ بديهةً ببديهتي ... ولأرْمِيَنّ سوادَهُ بِبَياضي

فقلت: ياأبا بكر مامعنى قولك: ضفية ملمومة، ومالذي أردت بالبارق الفضفاض، فأنكر أن يكون قاله قافيةً، فوافقه على ذلك أهْل المجلس، فقالوا: قد قلت. ثم قلت: مامعنى قولك ذئب غاضي، فقال: هو الذي يأكل الغَضَا، فقلت: استنوق الجمل[2] يا أبا بكر، فانقلبت القوسُ ركوةً، وصار الذئبُ جَمْلاً يأكل الغضا، فما معنى قولك، إن الغضى في مثل ذلك تغاضى، فإن الغضى لا أعرفه بمعنى الاغضاء، فقال: لم أقُلْ الغضى، فقلت: ماقلْتَ؟ فأنكر البيت جملةً، فقلت؛ ياويحك ماأغناك عن بيتٍ تهرب منه وهو يتبعك، وتتبرّأ منه وهو يلحق بك، فقل لي: مامعنى قراض؟ فلم اسمعه مصدراً من قرضْتَ الشعر، ولكن هلا قلتَ كما قلت وسُقْتَ الحشو إلى القافية كما سقته؟ فقال: هذه طريقة لم يسلكها العرب فلا أسْلكها، ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضي أبو بكر الحربي والشيخ أبو زكريا الحيريُّ، وطبقةٌ من الإفاضل مع عِدّةٍ من الأراذل فيهم أبو رشيد، فقلت: ماأحْوَج هذه الجماعة إلى /٧٩/ واحدٍ يصرف عنهم عين الكمال، وأخَذَ الرئيس مكانه من الصّدر والدست، وله في الفضل قَدَمٌ وقِدَم، وفي الأدب همٌّ وهمِمَ، وفي العلم قديمٌ وحديث، فتمَّ المجلس وظهر الحقُّ بنظرهِ وقال: قد أُدّعِيت عليه أبياتٌ أنكرها، فدعوني من البديهة على النفس، واكتبوا مايقولون، وقولوا على هذا الرويّ: [من الكامل]

بَرَزَ الربيعُ [لنا][3]برونقِ مائهِ ... فانظرْ لروعةِ أرْضهِ وسمائهِ

---

(١) الأبيات في ديوان أبي بكر الخوارزمي ص٣٦٠، ورسائل البديع ص٦٨.
(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٩٣. (٣) الزيادة عن الرسائل.

فـالـتّـربُ بـيـنَ مُـمَـسَّـكٍ ومُـعَـنْـبَـرٍ مِـنْ نـورِهِ بـل مـائِـهِ ورَوَائِـهِ

فقلت[1]: [من االكامل]

فـالـمـاء بـيـن مُـصَـنْـدَلٍ ومـكـفّـرٍ في حُسْنِ كـدرتِـهِ ولـيـنِ صـفـائـهِ

والـطـيرُ مـثلُ الـمـحـصـناتِ صـوادحٌ مـثـل الـمـغـنّـي شـاديـاً بـغـنـائـهِ

والـورْدُ لـيـسَ بـمـمـسـكٍ ريّـاه بـلْ يُـهـدي لـنـا نـفـحـاتِـهِ من مـائـهِ

زَمَـن الـربـيـع جَـلَـبْـتَ أزْكـى مَـتْـجَـرٍ وجَـلَـوْتَ لـلـرائـيـنَ خـيـرَ جـلائـهِ

فـكـأنّـهُ هـذا الـرئـيـسُ إذا بـدا في خَـلْـقِـهِ وصـفـائـهِ وعـطـائـهِ

بـحـمـى أغـرَّ مُـحَـجَّـبٍ[2] ونـدى أغَـ ـرَّ مُـحـجَّـلٍ في خَـلْـقِـهِ ووفـائـهِ

يعشو إليـه الـمُـجتلي والـمُـجتدي والـمُـجـتـوي هـو هَـاربٌ بـدمـائـه

ماالبحر في تزخارِهِ والغيثُ في أمـطـارِهِ والـجـوّ في أنْـوائِـهِ

بـأجـلَّ مـنـهُ مَـوَاهـبـاً ورَغـائـبـاً لازال هـذا الـمـجـدُ حِـلْـفَ فِـنـائـهِ

والـسـادةُ الـبـاقـون سـادة عـصـرهـم مـتـمـددونَ بـمـدحـهِ وثَـنـائـهِ

فقال أبو بكر: تسعة أبيات قد غابتْ عن حفظنا لكنّه جمع فيها بين إقواء واكفاء وأخطاء وإبطاء، ورددنا عليه بعد ذلك عشرين ردّاً، ونقدنا عليه فيها كذا نقداً، ثم قلْتُ لمن حَضَرَ من وزيرٍ ورئيس وفقيهٍ وأديب: أرأيتم لو أنَّ رجلاً حَلَفَ بالطلاق الثلاث، لاأنشد شعراً قط، ثم أنشد هذه الأبيات فقط، هل كنتم تطلقون امرأته عليه؟، فقالت الجماعةُ: لا يقع الطلاق، ثم قلت: انقد عليّ فيما نظمت، / ٨٠/ واحكم عليه كما حكمتُ، فأخذ الأبيات وقال: لا يقال نظرتُ لكذا. وإنما يقال: نظرتُ إليه، فكفتني الجماعة إجابته، ثم قال: لِمَ شبَّهتَ الطير بالمحصنات ؟ وأيُّ شبه بينهما ؟ فقلت: يا رقيعُ، إذا جاء الربيع كانت شوادي الأطيار تحت ورق الأشجار، فيكنّ كالمخدرات تحت الأستار، ثم قال: لم قُلْتَ: المحصنات مثل المغني ؟ فقلت: هنّ في الخدر كالمحصنات، وكالمغني في ترجيع الأصوات، ثم قال: لم قُلْتَ: زَمَن الربيع جلبت أزكى مَتْجَرٍ ؟ وهلا قلت: أرْبح مَتْجَرٍ ؟ فقلت: ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة، ثم قال: قال ما معنى قولك: الغيثُ في أمطارِهِ ؟ والغيثُ هو المطر نَفْسُه. فكيف يكون له مطر ؟ فقلت: لا سقى الغيث أديباً

---

(١) القصيدة مع البيتين في ديوان البديع ص٣، والرسائل ص٧٠، وقد فصل بين البيتين والقصيدة في معجم الأدباء ١/ ٢٤٣.

(٢) في الرسائل: محجرِ.

لا يعرف الغيث. وقلت: إن الغيث هو المطر وهو السحاب. كما ان السماء هو المطر وهو السحاب. وقال الجماعة: قد عَلِمنا أيَّ الرجلين أَشْعَر، وأيَّ الخصمين أقدْر. وأيّ البديهتين أسرع، وأيّ الرويتين أصنع. فقال أبو بكر: فاسقوني على الظفر، فقالوا: كفاك، كفاكَ ما سقاكَ، ثم ملْنا إلى الترسُّل، وقُلْتُ: اقترح على غاية ما في طوقِك. ونهاية ما في وُسعك، وآخر ماتبلغه بذرعك، حتى أقترحَ عليك أربعمائة صنف مِنَ الترسّل، فإن سِرْتَ فيها برجلين ولم أطِرْ بجناحين بل إن أحْسَنْتَ القيام بواحد من هذه ولم تخلف كلَّ الإخلاف. فَلَكَ يَدُ السبق وقَصَبه، ومثال ذلك: أن أقولَ لك: اكتب كتاباً يُقرأ منه جوابُهُ. هل يمكنك أن تكتب ؟ أو أقولُ لك اكتب كتاباً على المعنى الذي اقترح لك. وانظم شعراً في المعنى الذي أَقْتُرِع، وافْرَغْ منهما فراغاً واحداً، هل كنت تمدُّ لهذا ساعداً ؟ أوْ أقولُ لك: اكتب كتاباً في المعنى الذي أقوله وانصّ عليه. وانشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل، حتى إذا كتبت ذلك قرىء من آخرِهِ إلى أَوَّلِهِ. وانتظمت معانيه إذا قرىء من أسْفَلِهِ.

/ ٨١/ هل كُنْتَ تُفوِّق لهذا الغرض سهماً، أوْ تُجِيلُ قِدْحاً، أو تصيبُ نجماً. أو قلت لك: اكتب كتاباً في المعنى الذي اقترح لا يوجد فيه حرفٌ مُنْفَصِل مِن واو يتقدم الكلمةُ أوْ دال منفصل عن الكلمة بديهةٌ. ولا تُجمَّ فيه قلمك. هل كنت تفعل ؟ أو قلْتُ لك اكتب كتابا خالياً من الألف واللام لا تُصَبُّ معانيه على قلب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغْراضِهِ، هل كنْتَ تقف من ذلك موقفاً ممدوحاً، أو يبعثك ربُّك مقاماً محموداً ؟ أوْ قُلْتُ لك: اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل. هل كنت تحظى منه بطائل ؟ أو كنت تَبُلُّ لهاتك بباطل ؟ أو قلتُ لك: اكتب كتاباً أوائل صدوره كلّها ميم وآخره جيم على المعنى الذي يُقترح. هل كنت تغلو في قوسِهِ غَلْوةً، أوْ تخطو في أرْضِهِ خطوةً ؟ أو قلتُ لك: اكتب كتاباً، إذا قُرىء معرّجاً، وسُرِدَ معوّجاً كان شعراً. هل كنت تقطع في ذلك شعراً ؟ بلى والله تُصيبِ ولكن من بدنِكَ، وتقطع. ولكن مِنْ ذقنك. وأقولُ لك: اكتب كتاباً، إذا فُسِّر على وَجْهٍ كان مدْحاً. وإذا فُسِّرَ على وجْهٍ آخر كان قدحاً. هل كنت تخرج عن هذه العهدة ؟ أوْ قلتُ لك: اكتب كتاباً إذا كتبته تكون قد حفظته من دون أن لحظتَهُ. هل كنت تثق من نفسك به إلى ما لا أُطاولك بعده؟ بل است البائن أعلم فقال أبو بكر: هذه الأبواب شعبذةٌ. فقلت: وهذا القول طرمذةٌ[1] فما الذي تُحسن أنتَ من الكتابة وفنونها حتى أباحثك عن مكنونها،

(١) طرمذ عليه فهو طرماذ صلف مفاخر متكبر.

وأكاثرك بمخزونها. وأشبرَ فيها قلمك، وأسْبِرَ فيها لسانك وفمك ؟ فقال: الكتابة التي يتعاطاها أهل زماننا هذا المتعارفة بين الناس. فقلت: أليس لا تحسن من الكتابة إلاّ هذه الطريقة الساذجة، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم، والمُتناوَل بكلّ يدٍ وفم. ولا تحسن هذه الشعبذة ؟ فقال: نعم، فَقُلْتُ: هات الآن حتى أُطاولك بهذا الحبل. وأناظِلُكَ بهذا النَّبْل. ثم تقاس ألْفاظي بألفاظك. ويُعارض إنشائي بإنشائك. واقترح كتاب يكتب في / ٨٢/ النقود وفسادِها. والتجارات ووقوفها، والبضاعات وانقطاعها، والأسعار وغلائها. فكتب أبو بكر[١]: الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة. بهما يتوصل إلى جنات النعيم، ويُخَلَّدُ في نار الجحيم. قال الله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٢] الآية، وقد بلَغَنا من فساد النقود ما أكبرناه أشدّ الاكبار. وأنكرَناه أعظَم الانكار، لما نواهُ من الصلاح للعباد، ونَنْويه من الخير للبلاد. وتعرفنا في ذلك بما يربح الناس في الزرعِ والضرْعِ. تقدم من إليهِ[٣] أمْر النفع والضرّ إلى كلمات لم تَعْلَق بحفظنا. فقلت: إنّ الإكبار والإنكار، والعباد والبلاد، وجنّات النعيم ونار الجحيم، الزرْع والضرع أسجاع قد نبتت في المعد ولم تَزَلْ في اليد. وقد كتبت وكتبت ولا أطالبك بمثل ما أنْشَأت. فاقرأ ولك اليد، وناولته الرقعة. فبقي وبقيت الجماعة.وبُهِتَ وبُهِتَتِ الكافة، وقالوا لي: اقرأ، فَجَعَلْتُ أقْرأه منكوساً. واسْرِدُهُ معكوساً. والعيون تبرق وتحار. وكانَ نسخة ما أنشأناه: الله شاء إن المحاضر صدورٌ بها، وتملأ المنابر ظُهور لها، وتُفرع الدفاتر، وجوه بها وتُمشق المحابر، بطون لها ترشق، آثاراً كانت فيه آمالنا. مقتضى على أياديه ـ في تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل هذا ويرفع الدين أهل عن الكل هذا يُحط أن فيه إليه نتضرع ونحن واقفة. والتجارات زائفة والنقود صيارفة اجمع الناس صار فقد. كريماً نظراً لينظر شيمه مصاب فانتجعنا، كرمه بارقة وشمنا هممه. على آمالنا أرقاب وعلقنا. أحوالنا وجوه له وكشفنا، آمالنا وفودٌ إليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا، نعماه تأييده وأدام. بقاه الله أطال. الجليل الأمير رأى أن وصلى الله على محمد وآله الأخيار.

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهراً أحد الخصمين. وقال الناس قد فرغنا الترسل أيضاً، فملنا إلى اللغة، فقلتُ: يا أبا بكر. هذه اللغة التي هدّدتنا بها / ٨٣/ وحَدَّثتنا عنها، وهذي كتبها وتلك مؤلفاتُها، وهي مؤلفة، فخذ «غريب المصنف» إن شئت،

---

(١) بعده في الرسائل: بما نسخته. بسم الله الرحمن الرحيم.

(٢) سورة التوبة: ١٠٣.

(٣) كذا في الأصل، وفي الرسائل: ويعود إليه أمر...

و«إصلاح المنطق» إن أردت و«ألفاظ ابن السكيت» إن نشطت و«مجمل اللغة» إن اشتهيت، وهو ألف ورقة، و«أدب الكتاب» إن اخترت. واقترح عليَّ أي باب شئت من هذه الكتب، حتى أجْعَلَه لك نقدا، وأسْرِدُهُ عليك سَرْداً، فقال: اقرأ من «غريب المصنف» رجل ماسٍ خفيف على مثال مالٍ، وما أمساه، فدفعتُ في الباب حتى قرأتُهُ، فلم أتردّد فيه. وأَتَيْتُ على الباب الذي يليه. ثم قلتُ: اقْترِح غيره. فقال: كفى ذلك. فقلت له: اقرأ الآن باب المصادر من «اختيار فصيح الكلام» لا أُطالبك بسواه، وأسألك عما عداه، فوقف حماره، وخمدت ناره، وقال الناس: اللغة مسلمة إليك أيضاً، فهاتوا غيره.

فقلت: يا أبا بكر، هات العروض. فهو أحدُ أبواب الأدب. وسردْت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها، فقلت: هات الآن فاسودهُ كما سودته، فلما بَرَدَ ضَجِرَ الناس، وقاموا عن المجلس يفدُّونني بالآباء والأمهات، ويشبّعونه باللعن والسب. وقام أبو بكر. فغشي عليه. وقمت إليه، فقلت[1]: [من الوافر]:

يـعـزُّ عـلـيّ بـالـنـاسِ أنّـي قَـتَـلْـتُ مُـنـاسِـبـي جَـلْـداً وقَـهـرَا
ولـكـنْ رُمْـتَ شـيـئـاً لـم يَـرُمْـهُ سِـواكَ فـلـمْ أُطِـقْ يـا لـيـثُ صَـبْـرا

وقبلتُ عينه وقَسمْتُ وجْهَهُ وقلتُ: اشهدوا إن الغَلَبَةَ له، فهلا يا أبا بكر جئتنا عن باب الخلطة، وفي باب العشرة، وتفرّق الناس، وحبسنا للطعام مع أفَاضل ذلك المقام. فلما عكفنا على الخوان كرعْتُ في الجِفان. وأسْرَعْتُ إلىٰ الرّغفان. وأمْعَنْتُ في الألوان، وجَعَلَ هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار، فلا يأكل إلاّ قضماً. ولا ينال إلا شمّا. وهو مع ذلك ينطق عن كَبِدٍ حرّى. ويغيضُ عن نفسٍ ملآى، فقلت: يا أبا بكر، بقيت لك مُنَّةٌ وفيك مُسْكَةٌ: [من البسيط]

/ ٨٤/ يا قومُ إني أرَى الأمواتَ قدْ نُشروا والأرضَ تـلـفـظُ مـوتـاكـمْ إذا قُـبِـروا

فأخبرني يا أبا بكر. لم غَشي عليك ؟ فقال: لحمى الطبع وحمى الفرو[2]. فقلت: أيْنَ أنْتَ عن السجع ؟ هلاّ قلت: حمّى الطبع وحمى الصّقْع. وقال السيد أبو القاسم: أيها الأستاذ مع الحديث فاعزل يعنيه[3]. فقلت: لا تظلموه، ولا تُطْعِموه طعاماً يَصيرُ في بطنه مَغْصاً وفي عينه رمصاً، وفي جلده برصاً، وفي حَلْقِهِ غُصَصاً،

---

(١) من قصيدة بشر بن عوانة، كما في المقامات وقد مرّ ذكر أبيات منها.
(٢) أي حصلت له الحرارة من الفرو مع حماوة طبعه.
(٣) في الرسائل: مع الجد والهزل تغلبه.

فقال أبو بكر: هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله: يصير في عينك قذى. وفي خلقك أذى، وفي صدرك شجا، فقلت: يا أبا بكر. على الألف تريد. خذ الآن. بفيك البرى وعلى هامتك الثرىٰ. ولا أطعمك الخرا إلاّ من ورا كما ترى. فقالو: أيها الأستاذ: السكوت أوْلىٰ، ومالوا إليّ، وقالوا: ملكتَ فاسجحْ فابى أبو بكر أن يُبقي لنفسه حمة لم ينفضها. أو يدخر عنّا كلمة لم يعرضها فقال: والله. لأتركنّك بين الميمات. فقلت: ما معنى الميمات، فقال: ما بين مهزوم، ومهدوم، ومَهْشُوم، ومَغْمُوم، ومحموم، ومرجوم، فقلت: وأتركُكَ بين الميمّات أيضاً بين الهُيام، والصدام، والجذام، والحمام، والزكام، والسام، والبرسام، والهام، والسقام، وبين السينات، فقد علمتنا طريقةً، بين مَنْحوسٍ، مَنْخُوس، منكوس، معكوس، منعوس، محسوس، مغروس، وبين الخاءات. فقد فتحت علينا باباً، بين مطبوخ، مشدوخ، منسوخ، ممسوخ، مفسوخ، وبين الباءات فقد علمتني الطعن وكنت ناسياً، بين مغلوب، مسلوب، مرعوب، مصلوب، مكروب، منكوب، منهوب، مغصوب، وإن شئت كِلْناك بهذا الصاع، وطاولناك بهذا الذراع، ثم خرجت واحتجر[1]. وقد كان اجتمع الناس وغُلْتُ الكروش فلما خرجْتُ لم يلقوني إلاّ بالشفاه تقبيلاً، وبالأفواه تبجيلاً، وانتظروا خروجه إلى أن غابت الشمس. ولم يخرج أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده، وخَلَعَ الظلام عليه فروته، فهذا ما علقناه عن المجلس. وأدّيناه. والسيد أطال الله /٨٥/ بقاءه يقف عليه إن شاء الله. وله المِنّةُ.

وكتب إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الأسفراييني:

ما أظنّ - أطالَ اللهُ بقاء الشيخ السيّد - آل سامان إلاّ مُدَّعين على الله مقاطعة أرضه، ومُساقاة ثمارها، يا هؤلاء، لا تُكابروا الله في بلادِهِ. ولا ترادُّوا الله عن مُرادِهِ ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2]

وما أرى آل سيمجور إلا معتقدين أنهم يأخذون خراسان قهراً؛ لأنها كانت لأمهم مهراً، فلهم من حَوْلِها نحيط[3]، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾[4]. وبلغني أنَّ صاحِبَهُم أُسِر، فإن كان ما بلغني صحيحاً، فمرحباً بالآسر ولا لَعاً للعاثر، حتام كُفر الكافر، وغدرُ الغادر، وأبو الحسين بن كثير خذله الله لا يكاد يرى الخير من أيْن واحد، أفترَجوه من أين كثير ؟ وهو الترياق المجّرب، لو شمَّهُ الملك المقرّب، لقذف

(١) احتجر: أي اتخذ حجرة.
(٢) سورة الأعراف: ١٢٨.
(٣) النحيط: الزفير.
(٤) سورة البروج: ٢٠.

من كل جانب دُحوراً، هذا المؤيّد من السماء بيمن تدبيره، نُكس في بيره، وهذا سنانُ الدولة ببركةِ ضميره. وَقَعَ في تحسيره[١]، ولا يزال هذا البائس حتى يسلَّ الله العافية من بَدنِهِ، وحديثٌ ما حديث حديث هذا الحمال، كان إبليس يقسم كل صبيحة اللّحى ألفاً، فصار يقسم أُلوفا، سلطانٌ أتاه الله واسطة البر، وحاشية البحر. وأمْكَنَهُ من طاغية الهند وسخر ملوك الأرض يريد حمالٌ مراغمته، ياللرجال لنازل الحدثان، إنّي لأعْجبَ من رأس يودعُ تلك الفضول فلا ينشقُّ، ومن عنق يحمل ذلك الرأس فلا يندقّ، وما أجِدُ لابن محمودٍ مثالاً إلا ابن الريوندي[٢]، إذ ذهب إلى ابن الأعرابي[٣] يسأله عن قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾[٤]. أتقول العرب: ذقت اللباس ؟ فقال: لا بأس، ولا بأس، إذ حبا الله الناس، فلا حيا ذلك الرأس، هبك تتهم محمداً بأن لم يكن نبيّاً، اتتهمه بأن لم يكن فصيحاً عربياً. وجئت تسأل ابن الأعرابي. أليس الأعرابي نفسه جاء بهذا الكلام ؟ كذلك ابن محمود ينفض استهُ ويضرب مذرويه لينال الملك، لا لوافرِ عُدَّةٍ. ولا لكثرة عِدّةٍ، إنما يطمع في الملك؛ لأنه ابن محمود، أفليس محمود نفسه بالملك أحق ؟ فالحمد لله الذي نصركم وأخزاهم، وثبتكم ونفاهم، وارْكَبَ آخرهم أولاهم[٥]، ولا رَحِمَ الله قتلاهم. ولا جَبَر جرحاهم، ولا فكَّ أسْراهم، ولا أراكم إلاّ قفاهم. وإن أقبلوا فَفَضّ الله فاهم، ويرحم الله عبداً قال آمينا.

وله إليه أيْضاً في هزيمة السامانية بباب مرو[٦]:

وَرَدَتْ رقعة الشيخ الجليل أدام الله بسطته منّي على صدرٍ انتظرها. وقلْبٍ استشعرها، وإنّي لا أغلطُ في قومٍ أميرهم صبيّ، ولا في دولةٍ عميدها خصيٌّ، وسنانها حَلَقِي، ونصيرها شقيّ، وعدوّها قوي، إني إذاً لغويّ. يا قوم بماذا ينصرون ؟ أبمالٍ عليه اعتمادهم، أم بجمعٍ هو مدادُهُم ؟ أم لعدل به اعتضادهم ؟ أم لرأي هو عمادُهُم ؟ هل هم إلاّ شطورٌ في فطور ؟ إنّ الله تعالى علم أنَّهم إن ملكوا لم

---

(١) في الرسائل: تحييره.

(٢) ابن الريوندي، أبو الحسن. أحمد بن يمين بن اسحاق، من أهل مرو الروذ، سكن بغداد كان معتزلياً، ثم اتهم بالالحاد والزندقة. مات سنة ٢٩٨ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦١.

(٣) ابن الأعرابي، أحمد بن محمد بن زياد، الإمام المحدث، البصري، نزل مكة، توفي سنة ٣٤٠ سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٠٧.

(٤) سورة النحل: ١١٢. (٥) في الأصل: وأولاهم.

(٦) رسائل البديع ص١٩ وبعضها في يتيمة الدهر ٤/ ٢٨٢.

يصلحوا، وأمرتُهم أما أن لا يفلحوا، فسمعوا وأطاعوا طائفةٌ من المدابير وقوعهم بين النار والنير، إن أقاموا فالسيوف الهندوانية. وإن أيمنوا فالأتراك والخانية، وإن أيسروا فجرجان والجرجانية، وإن استأخدوا فالعطش والبريّة. هو الموت إن شاء الله أخْذاً بالحلاقيم، مُحيطاً بالظاعِنِ منهم والمقيم. جُرجان يا مدابير جرجان[١]، إن بها شمّةً[٢] من التين. وموتاً في الحِينْ، ونظرةً إلى الثمار والأخرى إلى التابوت والحفّار. ونجاراً إذا رأى الخُراساني نجر التابوت على قَدِّه، وأسْلَف الحفّار على لَحْدِهِ، وعطاراً يُعدّ الحنوط[٣]، وبها للغريب ثلاث فتحات للكبس: أَوَّلُها لكراء البيوت، والثانية لابتياع القوت، والثالثة لِثَّمن التابوت. أغلىٰ [الله][٤] بهم أسواق النّجارين والحفّارين والمكّارين. آمين رب العالمين.

وله أيضاً إليه في فتح بهاطية[٥]:

إن الله وهو العليُّ العظيم، المعطي من شاء. مَنَّ على الإنسان بهذا اللسان، خَلَقَ ابن آدم وأَوْدَعَ بين فكّيه مضغة لحم يُصَرِّفُها في القرون الماضية، ويخبر بها عن الأمم الآتية. يُخْبرُ بها عما كان بعدماً خُلَق. وعما /٨٧/ يكون قبل أن يُخلق، ينطق بالتواريخ عما وقع من خطبٍ، وجرى من حرب، وكان من يابسٍ وَرَطِب، وينطق بالوحي عما سيكون بَعْد. وصدق عن الله به الوعد، ثم لم ينطق التاريخ بما كان، ولا الوحي بما يكون، أنَّ الله تعالى خصْ أَحَداً من عبادِهِ ـ ليس النبيين ـ بما خصّ به الأمير السيّد يمين الدولة، وأمين الله، ودون الجاحد إن جَحَد أخبار الدولة العباسية، والمدة المْروانية، والسنين الحربية، والبيعة الهاشمية والأيام الأموية. والأمارة العدوية والخلافة التيمية. وعهد الرسالة. وزمان الفترة ولولا الإطالة. لعدنا إلى عاد وثمود بطناً بطناً، وإلى نوح وآدم قرناً قرناً. ثم لم نجد قائل مقالٍ إلاّ أنَّ ملكاً وإن علا أمْرُهُ، وعَظُمَ قَدْرُهُ، وَكَبُرَ سلطانُهُ. وهَبَّتْ رِيْحُهُ، طَرَقَ الهند فأسَرَ طاغيتها. بسطة ملك. ثم خلاّه. وَعَرَض الأرض قوة قلب. وصبح سجستان، وهي المدينة العذراء، والخطة

---

(١) في اليتيمة: جرجان، وما أدراك ما جرجان.

(٢) في الرسائل واليتيمة: أكْلَةً.

(٣) بعدها في الرسائل واليتيمة: بوسمه.

(٤) الزيادة عن مصادر النص.

(٥) رسائل البديع: ٢١.
وبهاطية، من أعمال الهند، وهي وراء المولتان. مدينة حصينة حولها سور عال، يحيط بها خندق، غزاها يمين الدولة محمود بن سبكتكين سنة ٣٩٥هـ فافتتحها ونشر فيها الإسلام (كامل ابن الأثير ٩/ ١٨٤).

العوراء، والطيَّةُ العسراء، فأخَذَ ملكها أخْذَ عز وعُنف، ثم خلاّه تَخْلِية فضلٍ ولطفٍ. ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاطية. والسيل والليل جُنودُها. والشوك والشجر سلاحُها، والضحُّ[1] والريح طريقها، والبرّ والبحرُ حصارها، والجنّ والإنس أنصارها، فقتل رجالها، وغَنَمَ أمْوالها، وساق أقيالها. وكَسَرَ أصنامها، وهدم أعلامها، كل ذلك في فُسحةِ شتوةٍ، قبل أن يتطرَّقَها الصيف توسطها السيف. وهو الله ملك الملوك. يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء.

ثم حكمته علماء الأمة واتفق قول الأئمة أنَّ سيوف الحق أربعة. وسائرها للنار: سيف رسول الله في المشركين، وسيفُ أبي بكر في المرتدين، وسيف علي في الباغين، وسيف القصاص بين المسلمين، وسيوف الأمير ـ أيّده الله في مواقِفِهِ ـ لا تخرج عن هذه الأقسام، فسيفُهُ بظاهر هراة فيمن عطّل الحدّ، واتهم بأنه أرتدّ، وسيفُه بظاهر غزنه سدّ في وجه العقوق، نوعاً من الكفر [والفسوق][2] وسيفُهُ بظاهر مرو فيمن نَقَضَ بعد تغليظه. ونَبَذَ /٨٨/ اليمين بعد تأكيده، وسيفه بظاهر سجستان فيمن نبَّه الحرب بعد رقودها، وخَلَعَ الطاعة بعد قبولها، وسيفُه الآن في ديار الهند سيف قُرِنَتْ به الفتوح وأثنت عليه الملائكة والروح، وذَلَّتْ به الأصنام. وعزّ به الإسلام، والنبيُّ عليه السلام. واختصّ بفضله الإمام. واشترك في خيرِهِ الأنام، وارّخت بذكره الأيام، وأُخْفِيت لشرحِهِ الأقلام.

وسنذكر من حديث الهند وبلادها وغلظ أكبادها وشدّة أحقادها، وقوّة اعتقادها، وصدق جلادها، وكثرة أجنادها، نُبَذاً، ليعلم السامع أيّ غزوةٍ غزاها الأمير السيّد أدام الله عُلُوَّهُ، إنها بلاد لو لم تُحْيِها السحاب بِدَرِّها، لأهلكتْها الشمسُ بحرّها، فهي دولة بين الماء والنار، ونوبةٌ بين الشمس والأمطار، يقدمها صعاب الجبال، ويحجبُها رحاب القفار، ويَعْصِمُها ملتفُّ الغياض، ويحضنها طواغي الأنهار، حتى إذا خرقت هذه الحُجُب، خُلص إلى عدد الرمل والحصى رجالاً، وشبه الجبال أفيْالاً، وإيزاغ المخاض جِلاداً، وتشهاق الحمار طعاناً، وأركان الجبال ثباتاً، ثم لا يعرفون غدراً ولا بياتاً، ولا يخافون موتاً ولا حياةً، ولا يبالون على أيّ جنبة وقع الأمر، وينامون وتحتهم الجمر، وربما عَمَدَ أَحَدهُم لغير ضرورة داعيةٍ، ولا حميّة باعثةٍ، فاتخذ لرأسه [من الطين][3] إكليلاً، ثم قوّر قحفه فحشاهُ فتيلاً، ثم أضْرَمَ في الفتيل ناراً، ولم

---

(١) الضحّ: الشمس وضوؤها. (٢) الزيادة عن الرسائل.

(٣) الزيادة عن الرسائل.

يتأوّه، والنار تحطمه عضواً عضواً. وتأكلُهُ جزءاً جزءاً، فأما مُحرق نفسه ومُغرقها. وآكل لحمه ومُفصّل عظمه، والرامي بها من شاهق، فأكثر مِنْ أنْ يُعَدّ، وأقلُّهمُ من يموت حتف أنْفِه، فإذا مات هذه الميتة أحدهم شبَّ بها أعقابُهُ، وعَظُمَ عندهم عقابُهُ، بلادٌ هذه حالُها، وفيلةٌ تلك أَهْوالها، وجبالٌ في السماء قلالها. وَفَلاةٌ يلمع آلُها وغِياض ضيّق مجالها، وأنهارٌ كثيرةٌ أوْحالُها، وطريق طويل [مطالها][١]، ثم الهند ورجالُها والهندوانية واستعمالها، رَحَمَ الأمير ـ أدام الله سلطانه ـ بمنكبِهِ هذه الأهوال محتسباً نفسه معتمداً نصر الله وعونه، فركض إليهم بعون من الله لا يُخذلُ، ومددٍ من التوفيق لا يفتُرُ، وقلبٍ عن الأهوال لا يجبُنُ، وجدّ على المطلوب لا يقصُرُ، وسيف عن الضريبة لا ينكُلُ، فسهّل الله له الصعبَ، وكشفَ به الخطب، ورجع ثانياً من عنانِهِ بالأسارى تنظمهم الأغلال، والسبايا تنقلهم الجمال، والفيلةِ كأنها الجبال، والأموال ولا الرمال، فتحْ الله ذَخَرَهُ عن الملوك السالفة الخالية، الكفرة الطاغيية، الجبابرة العاتية. حتى وَسَمَهُ الله بنارِهِ، وجعله بعض آثارِهِ. فالحمد لله معزّ الدين وأهله، ومذلّ الشرك وحزبِهِ.

وله إليه أيضاً[٢]:

رقعتي هذه أطال الله بقاء الشيخ الجليل من بعض الفلوات. ولو جهلتُ أن الحذق لا يزيد في الرزق، وأن الدَّعة لا تَحْجِب السعة، لعذرت نفسي في الرحل أشُدُّه، والحبلِ أمدُّه، ولكني أعلم هذا وأعمْل ضِدّه، وأصِلُ سُرايَ بسيري، ليُعْلَم أنَّ الأمْر لغيري، وإلا فمن أخذي بالمطار في هذه الأقطار. والمصار في هذه الأقطار، لولا الشفاء، ألمْ يأتني العمر بهيجاً، والرزق نهيجاً نضيجاً، حتى آتيه قصداً، وأتكلّف له زرعاً وحصداً، وأُعارِضَهُ شيّاً وطبخاً. وأعرض له الشعاب، والجبال الصعاب، وأنزل بمُناخ السوء. لكن المرء يُساق إلى ما يُراد به لا إلى ما يُريد. أما آن لهذه الأشقاص[٣] أن يتيسّر منها الخلاص ؟ بعدما سافَرَتْ وسَفَرَتْ. وناظَرَتْ [ونَظَرَت][٤]وحَفَرَتْ، وحَرَثَتُ وبَذَرَتْ. وبَذَرَتْ وزرعت. وعمّرت. حمدت الله كثيراً. ورأيتُهُ مغنماً كبيراً. وإن لم يكن من إتمام القصة بُدّ فلا غنًى عن نَظَرٍ كريم ومهلة، فيها مجال وتسويغ يصلح به فاسد، وقرضٍ يتألف به شارد: [الطويل]

---

(١) الزيادة عن الرسائل. (٢) الرسائل ص٢٧.

(٣) الأشقاص: جمع شقص، بكسر الشين، وهو السهم والنصيب والقليل من الكثير.

(٤) الزيادة من الرسائل.

وما كـلّ يـوم لـي بـأرْضِـكَ حـاجـةٌ ولا كـلُّ يـومٍ لـي إلـيـك رسـولُ[١].

ومنهم:

[٦]

أبو نصر العتبي[٢]

وهو من أصحاب الغوص البعيد. والمعاني البديعة، واللفظ السهل، والخاطر الوقّاد والفكر الجوّال. والصوغ اللائق. والوِرْد السائغ، لا يُماثَل بإنسان، ولا يُشاكل في خراسان. دون كَلِمِهِ سحر بابل /٩٠/ ونشر كابل، لو شاء أوْهم الغواني في عقودها، والأغصان في برودِها، وكان حفظَهُ مع سعة مُخيلتِهِ، وصفاء مصورته وممثّلتِه، وحفظُهُ أحوى من بقاع الرمل. وأحْلى من اجتماع الشمْل.

وفهمه أدَقّ من مدارج النمل تمثيلاً. وأرَقّ من طبع صافي الماء تخييلاً، كلمات محكمَةٌ بقوّة الأسباب. محكمة كنشوةِ الراح للألْباب. فآهاً له من خبر طواهُ أمْسُهُ. ومن بحرٍ حوله رمْسُهُ، ومن حرّ أضاء ليوم، فاطَلَعَ حتى غابتْ شمسُهُ، وله كتاب «اليميني» في تاريخ السلطان محمود بن سبكتكين، كأنه روضةٌ غناء. وعقد منظوم. وأُفق مكوكب، بديع الجملة حسن المسموع.

ومن نثره قوله: [في] قرين نصل أهداه[٣]:

خيرُ ما تقرب به الأصاغر إلى الأكابر ما وافق شكل الحال، وقام مقام المقال. وقد بعثتُ بنصْلٍ هنديّ، إنْ لم يكن له في قِيَم الأشياء خَطَر، فله في قمم الأعداء أثر. والنصل والنصر أخوان. والاقبال والقبول قرينان. والشيخ أجلّ من أن يرى إبطال حلية الأبطال، ويردّ إقبال مستجلب الاقبال.

ومنه قولُهُ من كتاب كتبه عن السلطان محمود:

---

(١) البيت ليزيد بن الطثرية: ديوانه ص ٩٨.

(٢) محمد بن عبد الجبار، أبو نصر العتبي، نسبة إلى عتبة بن غزوان المازني، الصحابي، الجليل. ولد بالري، وغادرها شاباً إلى خراسان، فنشأ بها وولي نيابتها، ثم استوطن نيسابور. وانتهت إليه رئاسة الإنشاء في خراسان والعراق، وناب عن شمس المعالي قابوس بن وشمكير في خراسان إلى أن توفي سنة ٤١٣هـ/١٠٣٦م.

وكان أديباً شاعراً، كاتباً مترسلاً، مؤرخاً. صنف كتباً منها «لطائف الكتاب» في الأدب. و«اليميني» نسبة إلى السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين. شرحه المنيني في مجلدين، وطبع باسم تاريخ العتبي.

ترجمته في: يتيمة الدهر /٣٩٧، الوافي بالوفيات /٢١٥، والإعلام ٦/ ١٨٥.

(٣) يتيمة الدهر ٤/ ٣٩٧.

ووصلنا إلى السومنات(١) فوجدناها تخفي الرياح في مسارِبها. وتزلّ الأبصار بين ذوائبها، بين غياض تشكو الأراقم فيها ضيق المضطرب، وصعوبة المنسرب. متكاثفة كأعراف الجياد، متداخلةٌ كأشعار الحداد. لا تستجيب فيها الأفاعي للرُّقاة. ولا يستنير البدر عندها للسُّراة، في أذيال جبال تُناغي كواكب الجوزاء. وخلال آجام تواري وجه الأرض عن عين السماء، فوافينا وقد أَثْقَلَ العيون كراها، وأتعب النجوم سُراها، في مدّةٍ اتصلت كعوب أيامها، وتناسقت فرائد نظامها، فأحطنا بها إحاطة القلائد بالجيد، والشذْرة بالفريد، ثم اشتدَّ الوغى، فخيلت المعركة غمامها مثار القساطل. وبروقها بريق المناصل /٩١/ ورعودها صرير السلاح، ورشاشُها صبيب الجراح، واستقبل المعمعة من الجنود رجال، يَرَوْنَ الملاحم ولائم، والوقائع نقائع، حطّت الرماة أيديها في جعابٍ كخراطيم الفيول مملؤة بنبالٍ كأنياب الغول. وظلّت السهام تتهاوى كما تتهاوى لوامع الشهب، وتترامى ترامي نوازع السُّحب. والطعن يهتك ودائع الصدور، ويرد مشارع الغموم والسُّرور، ولم تزل الملحمة حتى استقلت الشمس إكليلاً على الجبل، ونَفَضَتْ وِرْساً على الأصل، فافترق الجمعان، وضرب الليل بينهما بِجِران، إلى ان صافح الليل صباحه، ونثر النجم على الغرب وشاحه، فعادوا إلى أمسِهم، وتداعوا من إثارةِ القتام إلى رَمْسِهِمْ، وصارت الأرواح تستقي بأرشية الأرماح. إلى [أن] تولّى عسكر البلد هزيماً يقفوه الصباح. وهشيماً تذروه الرياح. يتقاسمون الهرب جماماً، ولا يردون الماء إلا لمالماً، وعسكر السلطان في آثارهم، يرميهم بالصواعق من ظُبَى السيوف البوارق. ويقذفهم بالشّهب اللوامع من شَبَا الرماح الشوارع، حتى صار من سلم منهم إلى الأطراف ضرورة، إذ كانت جيوب الآفاق عليه مزرورة. وما بَرِح السلطان يتطلّب ملكهم حتى حصل في مُعتقله، وحصَّلَهُ في مكمن أَجَلِهِ، فهدأ من الخوف سرّه وختم بطابع الشقاء عُمرهُ، ثم صعد السلطان المدينة، ودخل بيت البدّ وظفر منه ومنها بأموالٍ طالما حفظتها صدور الخزائن مكتومة. وخنقتها خيوط الأكياس مختومة، مما أَوْهَتْ في تعدادها أنامل الحسّاب. وأحْفَتْ بل أفْنَتْ أقْلام الكتاب. فمن ذهبٍ وفضّة. ما منها إلا ما يُكاثر بالأحجار. ويستقلُّ الأمصار. ومن لآلٍ كأنما صوّرت من الشمس ضياءً، وخُلقت لمضاهاة حبَ الغمام عذّاً وصفاءً. ومن يواقيت كالجمر قبل الخمود، والخمر بعد الجُمود. ومن

(١) السومنات: مدينة ساحلية واسعة. بها علماء الهنود وعبادهم والصنم المعروف بها ويسمى (البدّ) كسره محمود بن سبكتكين، وحاز جميع ما فيه من جواهر وأحجار كريمة (وفيات الأعيان ٥/ ١٧١).

زبرجدٍ كأطراف الآس نضارةً، /٩٢/ أوْ وَرَق الأقحوان غضارةً، ومن ماسٍ كأنما أعارت بعضه السنانير أحداقها، أو وهبت باقيه حق الشقائق أوراقها، ومِنْ ولدانٍ كاللؤلؤ المنثور. ونساءٍ خُلِقنَ أُنموذجاً للحُور. وأفْيالٍ كالأسودِ محطومة بالأساور السودِ. حكت أطْواراً فارِغة، وأمواجاً متدافعة، تئنُّ الأرض من وطء أطرافها. وتخفّ من ثقل أخفافها تقف كأشخاص القصور، وتتدفقُ كأمواج البحور، وكأنها بيوت والخراطيم رواشنها المعلّقة، وكأنها ليالٍ افترست النهار، فلم يبق إلاّ ما على أنيابها من جلودِهِ الممزّقة، يراها الراؤون هضاباً ثابتة، وجبالاً نابتة، في ثقل أجسام، وخفّة أقْدام كأنها صدع الجبال عند طارقة الزلزال، تناجي بصور التهويل والتفخيم، وتفتك بالأيدي والخراطيم، إن استدرى بها في الوغى ضَرَبَتْ بين النفوس والآجال بسورٍ، وإن خَفّت إلى الحروب، رأيت قلوب الليوث تحت أجنحة النسور، فلندع هذه النعمة التي عقدت بالنجوم ظفائرها، وأفاضَتْ على الشوق بعضها وعلى الغرب سائرها، وإنا لنرجو أمثالها ما دامت العيون حافظة سوادها، والعوائق حاملة نجادها.

ومنه قوله:

المرءُ من البشر، لا من ورق الشجر، إذا مات فقد فات، وليس مما يَعُود. كما يورق ما عري العود.

ومنهُ قوله:

وهم مرابيع الكرم، وينابيع الحكم، ومصابيح الظلّم، ومجاديح الأمم، وليوث البهم. وغيوث القحم. سادة الناس، وقادة الملوك يوم الندىٰ ويوم الباس.

ومنه قولَهُ:

وبلغ إلى حيث لم تبلغه في الإسلام رايةٌ، ولم ينل به قط سورةٌ ولا آية، في فيافٍ تضلّ في أرجائها أسراب اليعافير، وتحار في دهنائها أفواج العصافير، فثار عدوُّ الله يستنهض كل من يحمل حجراً، فضلاً عَمّن يُلْقِمُ القوس وتراً. أوْ يُحْسِنُ /٩٣/ بالسيف أثراً، فلمّا قارَبَهُ بالمكان، وَدَخَل بالرُّعب على قَلْبِهِ العيان. كرّ راجعاً على آثاره، لفت المشير موهناً بناره. لا زال السلطان منصوراً ما طَلَعَ يومٌ من حجاب أمْس، وظهرت نفسٌ من قرارة نفس.

ومنه قوله:

وأما بنو فُلان فكوتْهُم الأيام بمياسمها، وداستهم الليالي بمناسمها. فإنّ في قرع باب الغيّ تعرّضاً للبلاء، واستئذاناً على سوء القضاء. لولا أن تداركهم فلانٌ بلطف كالأري مُشتاراً. ودهاءٍ يسلخ من الليل البهيم نهاراً.

ومنه قوله معزياً:

هذه مصيبة سَفَحَتْ الدموع غروباً. ونثرت قنا الأصلاب إنبوباً فإنبوباً. ونعى بها فتى الجود ومص بعده الثرى بقية الماء من العود.

ومنهُ قولُهُ:

ولم تكن إلاّ صدمةً واحدة حتى زلَّتْ الأقدام عن مقارّها، وتهاوت الرقاب عن مزارها، وجعلت تتساقط أشخاص الألوية والمطار، وترد النفوس عن ضرب السيوف البوارد، وكرت عنها للسلطان فيول كَرُعْن الجبال، أو كرُكن السحب الثقال، مغشّاةٌ بتجافيف لم يُغوّر فيها غير حدق النواظر، وحدائد الأنياب الفواقر. يهُوِّل سائسها عليها بمرهفات كالبروق الخواطف، وصفّارات كالرعود القواصف. وقد نُشرت عليها التماثيل في العيان المشهود. كأنها الأساودُ السود، تخيل اضطراب الرياح فيها أنها تزحف للألهام، أو تنقضّ لاختطاف الهام، وتعالت عليها أطراف العوامل، في مبانٍ كالمعاقل. كأنها آجام السواحل، تؤويها شياطين الإنس فرساناً، وعفاريت الترك والند مرداً وشبّاناً، تبصُّ عليهم سابغات داود كصفائح الماء، تجلوها الشمس في وسط السماء، فحثَّ العدوّ الخيل، تحت الليل حثاً كاد لا تتنفس الأرض معه بمواطىء أقدامها، ولا تشعر النجوم بأشخاص ألويتها / ٩٤/ وأعلامها، ودنا الفريقان بعضهم من بعض، وظلّت رحى الحرب تعركهم بثفالها وتدور عليهم بأثقالها، وحمل سيف الدولة بنفسه، فتداعت الزحوف، وتخالطت السيوف وخطبت على منابر الرقاب السيوف، وثارَتْ عجاجة أَخَذَتْ العيونَ عن الأشباح، وأذْهلت النفوس عن الأرواح، ونثرت الأعناق ثم نظمتها في سلوك الرماح، وطفقت الخيل تردى بجثث النفوس. وتلعت بأكر الرؤوس، وأما البقية فانهم ولّوا ما ألْووا. وقد دَبّ الفشل في تضاعيف أحشائهم، وسرى الوَهَلُ في تفاريق أعضائهم، واستطار الخوف في مزاج دِمائهم، فجيوبُ الأقطار عليهم مزرورةٌ، وذيول الخذلان عليهم مجرورة.

ومنهم:

[٧]

الحسين[١] بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو اسماعيل مؤيد الدين، فخر الكتاب الأصبهاني، المنشىء المعروف بالطغرائي

الكاتب، الشاعر، الناظم، الناثر، البديع الصنعة، الباهر الأدب، الزاهر

---

(١) المتوفى سنة ٥١٤ هـ.

ترجمته في: خريدة القصر (قسم العراق) ٢/ ١٥١ ومعجم الأدباء ٣/ ١٠٦ ووفيات الأعيان ٢/ ١٨٥، =

الفضل، الظاهر المحاسن، الدقيق المعاني، الرشيق المباني، المشهور شهرة الشمس، الواضح وضوح البدر، كاثَرَ ببدائعِهِ النجوم الثواقب، وبنتائج قرائحه سُجُوم السحائب، فجاءت عرباً أبكاراً وشهباً لا تلجُ أفكاراً، وولع بصنعة الكيماء. فشبّ لهباً. وصبَّ أدباً لا ذهباً. وأذهب زماناً بها في العناء، وطلب الغنى من غير الغناء، فلم يجد بغيته، ولم يزد على أن صفّر وجهه وبيّض لحيته، فرُدَّ خائباً، واشتعل رأسه شائباً، وطالما شمَّر طلب الصنعة دروعَهُ، وصعّد أنْفاسَه وقطّر دموعَهُ، وكان من فيض السلطان في غير البشير، وفي حبرٍ من الأكسير، إلاّ أنه تعلق بعلم أحابر، وعلق حكم الصنعة عن أكابر. وشدّ الأوْصَال، وامتدَّ لأن تسمح له بالوصال. فكان لو شعر به ابن أُميل[1] لمال إليه كلّ الميل. أو شبه به ابن يزيد[2] لما كان عليه مزيد.

/ ٩٥/ ومع طول معاناته، وبعده تارةً ومداناته. لم يحصل على غير ارتقابها، ولا ظفر من ليلى بحطّ نقابها، فَكَمْ ضَبّع حاصلاً، وكدّ ولم يكنْ واصلاً. وشعرهُ أسْيَرُ من نثرِهِ، وأيْسَر في حجم قدره؛ لأنه إنما عانى النَّثر في آخر عمرِهِ. وقد قارب أجله الانتهاء وقارب الرحيل. وَدَنَتْ شمسُهُ من الأفول، وهو صاحب لامية العجم التي فصَّلت عرى لامية العرب، وحلت لامها، ونكّبت من شفار الشنفرى سهامها. فلقد قوَّت الشُّعوبية، واحتمت لعصابتهم حمية العصبية. وأخَذَتْ قَسْراً شجر البيان، وحكمة ألسنة العرب وأدمغة اليونان، وكادت تبتزُّ من دولة العرب مدينة السلام. ولا تبقى لهم إلاّ عائدة السلام. وعنوان قوله منها[3]: [من البسيط]

أُريد بسطة كفّ استعينُ بها	على قضاءِ حقوقٍ للعُلا قِبَلي
والدهرُ يعكِسُ آمالي ويقنعني	من الغنيمةِ بعدَ الكَدّ بالقَفَلِ
إنّ العُلا حدثتني وهي صادِقةٌ	في ما تحدث أنّ العزَّ في النُّقلِ
لو أنَّ في شرفِ المأوى بلوغَ مُنًىٰ	لمْ تبلغ[4] الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ
تَقَدَّمَتْني رجالٌ كانَ شَوطُهُمُ	وراءَ وطْئيَ إذْ أمشي على مَهَلِ[5]

وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٥٤ والعبر ٤/ ٣٢ والوافي بالوفيات ١٢/ ٤٣١ والنجوم الزاهرة ٥/ ١٢٠ وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٥/ ٥ وشذرات الذهب ٦/ ٦٨. ونشر شعره ببغداد الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري.

(١) محمد بن أميل بن عبد الله بن أُميل التميمي، نبغ في النصف الثاني من القرن الرابع، وترك مصنفات في الكيمياء، يوجد بعضها مخطوطاً. انظر: تاريخ الأدب العربي بروكلمان ٤/ ٣١٧.

(٢) هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. أبو هاشم القرشي الأموي، وكان له كلام في صناعة الكيمياء والطب. وكان إلى ذلك أديباً شاعراً عاقلاً ذا لسان وعارضة توفي في حدود سنة ٩٠ هـ. انظر: الوافي بالوفيات ١٣/ ٢٧٠ والبداية والنهاية ٨/ ٢٣٦ والعبر ١/ ١٠٥ وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤١١.

(٣) ديوانه ص ٣٠٢.

(٤) في الديوان: لم تبرح.

(٥) رواية البيت في الديوان: تقدمني أناس.. وراء خطوي.

أعـدى عـدوّكَ أدْنـى مـن وَثِـقْـتَ بـهِ فحاذرِ الناسَ وأصحبهم على وَجَلِ[١]
وإنْ عَـلانـيَ مَـنْ دُونـي فـلا عَـجَـبٌ لي إسْوةٌ في انحطاطِ[٢] الشمسِ عن زُحَلِ

وقد قال لما ولي ديوان الطغراء، وكان قد كبر وأَفِن: من فتح دكانه العصر، أيّ شيءٍ يتعيش؟

ومن نثره قوله:

وما كان إلا أنَّ تداعوا بالرحيل، وقدمت لهم النياق للتحويل، وإذا بقلبي قد ودّعني وسار. وهزّ جناحه الخافق وطار، فعدتّ علم الله لا أستطيع منعه، ولا أعْقِل. فاجري لي دمعةً، إلى أن بكَّرتُ /٩٦/ عليّ العاذلات، وهبّت إليّ باللوم قائلات: أما لك أسوةٌ بالمحبين الأُلى؟ فقلت: لا، فما زِلْنَ يُرَقّعن جلدي، ويُمسكن تجلّدي، وأنا لا أسكن إلى حولٍ، ولا أطْمئن إلى قول، حتى غَلَبَتْني صَرْعَةُ الكرى، فتخيلت [أني] أرى خيالاً عاد مُخبِّرا من الحبيب زار مزوّرا، فإذا بتمثال الأحباب بين يديَّ مصوّرا، فقال لي ذلك الطيف الطارق تحت ستور الليل الغاسق، ما لك ولهذه الحالة الشنيعة. أما كنت ترضى بأن يكون قبلك عندنا وديعة؟ فها خُذْها إليك، والسلام عليك. فقلت ناشدتك الله أيّها الخيال الزائر، والمثال السائر إلاّ ما ترَيثتَ ووقفت فَتَلَبَّثْتَ، فما زاد على أن زال، ولا حام حتى حال، ثم ولّى وما ودّع وأشبه شبهته في الجفاء وما أبْدَع.

ومنه قولُهُ:

وقد زار الغيث وزأر الليث. وأضاء البدر الزاهر، ودنا الصباح السافر، وقدم العميد، يهمي مُتدفّقا هو والغمامُ، ويجري مُسْتَبِقاً هو والسهام، فأيّ صدرٍ ما تزحزح لحلولِهِ؟ وأي قَدْرٍ تضاءل لوصولِهِ، وأيّ بدرٍ ما غاب، وأيُّ شمسٍ ما توارى ضياؤها بحجاب. ولولا وقار العميد، كادت الأرض تميد وبالله العجب، قدم وما نَزَفَت البحار ولا ضاقَتْ البيد!

ومنه قولُهُ:

وكتابي إليك، وعندي عليك لوثُ عتاب، لأمْرٍ لا يحملُه كتاب. فإن آبَ بك المآب وقوّم أَوَدَ ودّك الإعتابُ، استرسلتُ معك في ذكرِهِ، وأرسلْتُ إليك رائد سرّهِ، وإلاّ طويت الدهر على مضض ألمِهِ.وأَخْلَيتُ للصدر لممه وتحاملت على مابي، وصرفت عنك ودّي وعتابي.

ومنه قوله:

سحابةٌ ترسل الأمطار أمْواجاً، والأمواج أفواجاً، سَحَبَتْ على الأرض أذْيالها، وعلمت افتقارها إلى نفسها فجادت بها لها: /٩٧/ والجود بالنفس أقصى غاية

---

(١) في الديوان: على دَخَلٍ.
(٢) في الديوان: بانحطاط.

الجود، لاسيما عوارف كرم ملأت الوجود.

ومن شعره قولُه[(١)]: [من الطويل]

وأبيضَ طاغي المتْنِ[(٢)] يُوعدُ حدُّه[(٣)] مخافة عَزْمٍ مِنْك أمْضى من النصْلِ

عليمٌ بأسوارِ المنونِ كأنَّما على مِضْرَبيْهِ أُنْزِلت آية القتل

ومنه قولُه[(٤)]: [من الطويل]

أجيراننا بالغور[(٥)] كيف خَلَصْتُمُ نجيّاً وأخفيتُمُ حديثكُمُ[(٦)] عنّي

لقد سَمِعتْ أذناي نجوى فِراقِكمْ فلا نَظَرتْ عيني[(٧)] ولا سمعتْ أُذني

أُحذّركم طُوْفانَ دمعي فَبَدِّلوا إذا أزِفَ السَّيْرُ[(٨)] الركائبَ بالسُّفْنِ

ففي الحيّ مرهومُ الإزارين بالبُكا وآخرُ مرقومُ العِذارينِ بالحسْنِ

ومنه قولُه[(٩)]: [من الطويل]

إذا ما دَجا ليلُ العَجاجةِ لم يَزَلْ بأيديهم جمرٌ إلى الهند منسوبُ[(١٠)]

عليها سطورُ الضَّرْبِ يَعْجِمُها القَنا صحائفُ يغشاها مِنَ النَّقْع تتريبُ

وقوله في الروض والنهر[(١١)]: [من السريع]

يشقُّها في وسطها جَدْولٌ مياهُهُ العذبةُ مثلوجَهْ[(١٢)]

له سَواقٍ طفَحتْ والتوَتْ تلوِّيَ الحَيَّاتِ[(١٣)] مَشجُوجَهْ

فهيَ رماحُ أُشرِعَتْ نحوَها تطعُنُها سلكَىٰ ومخلوجَهْ[(١٤)]

ومنه قوله[(١٥)]: [من الكامل]

إني لأذكرُكُمْ وقدْ بَلَغَ الظَّما مِنّي فأَشْرَقُ بالزُّلالِ البارِدِ

وأريْ العدا أنَّ الأساءَةَ منكُمْ خَطأٌ وتلْك سجيَّةٌ مِنْ عامِدِ

---

(١) البيتان من قصيدة في ديوانه ص ٢٧٤.
(٢) في الديوان: الحدّ بدل المتن.
(٣) في الديوان: (مَتْنُهُ)، بدل (حَدُّهُ).
(٤) الأبيات: من قصيدة في الديوان ص ٣٩٠.
(٥) في الديوان: أجيرتنا بالجزع.
(٦) في الديوان: (حديثكم) بدل (سيركم).
(٧) في الديوان: فلا أبْصَرَت عيني.
(٨) في الديوان: أزف البين.
(٩) البيتان من قصيدة في الديوان ص ٩٣.
(١٠) في الأصل مشبوب. والتصويب من الديوان.
(١١) ديوانه ص ١٠٣.
(١٢) في الأصل: منكوحة، والتصويب من الديوان.
(١٣) في الديوان: تلوي الحيّة.
(١٤) في الأصل: فهي نتاج أسرعت نحوها/ قطعتها. والتصويب عن الديوان.
(١٥) الأبيات في الديوان ص ١٤١.

ويصحُّ ليْ قولُ الوُشاةِ عليكُمُ ... فأَرُدُّهُ عنكمْ بظنٍّ فاسِدِ
وإذا طويتُ هواكِ عنّي نَمَّ بْي ... وَجْدٌ يدلُّ على لسانٍ جاحِدِ
وأقولُ ليتَ أَحِبّتي لاقيتُهمْ ... قبلَ المماتِ ولو بيومٍ واحدٍ[1]
وإذا سُئلتُ عَنْ السُّلُوِّ أَجَبتُهُمْ ... بلسانِ معترفٍ ونيّةِ جاحِدِ
/٩٨/ إنْ لمْ يكنْ سِحراً هَواكِ فإنَّهُ ... والسَّحَر قُدًّا مِنْ أديمٍ واحِدِ[2]
ما زِلْتُ أَجْهَدُ في مودّةِ راغبٍ ... حتى أبتليتُ برغبةٍ في زاهِدِ
ولربَّما نالَ المرادَ مُرَفَّهٌ ... لَمْ يسْعَ فيهِ وخابَ سعيُ الجاهِدِ
هذا هو الداءُ الذي ضاقَتْ بهِ ... حِيَلُ الطبيبِ وطالَ يأسُ العائِدِ

ولعمري ما أعرف ما أصِفُ به هذا الشعر وهو الذي قَلَّ إن يُماثَل، وجَلَّ أن يُقاسَ بِهِ، وهو السحر الطاهر، والرحيق المشعشع، والروضُ الباسم، والصباح المتألّق، وهكذا فليكن، ومَنْ يَقْدر على هذا أو يدانيه؟!

وكذلك قولُهُ[3]: [من البسيط]

باللهِ يا ريحُ إن مُكِّنْتِ ثانيةً ... من صُدْغِهِ فأقيمي فيه واستتري
وباكري وِرْدَ عذْبٍ مِنْ مُقَبَّلِهِ ... مُقابل الطعم بينَ الطِّيبِ والخَصَرِ
وإنْ قَدَرْتِ على تشويشِ طُرّتِهِ ... فشوشيها ولا تُبقي ولا تَذَري
ثمَّ اسلكي بينَ بُرْدَيهِ على عَجَلٍ ... واستبضعي الطِّيبَ وأتيني على قَدَرِ
ونبِّهيني دُوينَ القَومِ وانتفضي ... عليَّ والليّلُ في شكٍّ مِنَ السَّحرِ
لعلّ نفحةَ طِيبٍ منكِ ثانيةً ... تقضي لُبانَةَ قَلْبِ عاقِرِ الوَطَرِ

وقوله[4]: [من الطويل]

وحانٍ على الشحناءِ عُوْجَ ضُلُوعِهِ ... يُسدِّدُ نحوي صائبات[5] المشاقِصِ
يكاثرُ فَضْلي بالثَّراءِ توقُّحاً[6] ... وفي المالِ للجهالِ جَبْرُ النقائصِ
أقولُ لَهُ لما اشرأبَّ لغايتي ... ومَدَّ إليها نظرةَ المتخاوِصِ
وأيقظَ مني ساهراً غيرَ نائمٍ[7] ... وحَرّضَ مني هاجماً غيرَ حائصِ
لقدْ فاتَ قَرْنُ الشمسِ راحةَ لامسٍ ... وأعيا مَناطُ النَّسْرِ كفّةَ قانصِ

---

(١) البيت لم يرد ضمن القصيدة في الديوان.
(٢) في الأصل: «وقدا من أديم زائدة» ولا معنى لها، والتصويب عن الديوان.
(٣) ديوانه: ص ١٦٨.
(٤) ديوانه ص٢٠٦.
(٥) في الديوان: صادرات.
(٦) في الديوان: نواقحاً.
(٧) في الديوان: راقدِ.

فـإنْ حـدَّثـتْـكَ الـنـفـسُ أنَّـك مُـدْرِكٌ ... لشأويْ فطالبها بمثلِ خصائصي
وعلمي بما لمْ يَحْوِ خاطِرُ عالِمٍ ... وغوصي[1] على ما لمْ يَنَلْ فَهْمُ غائصِ
فما عهدُ أحبابي على البعدِ ضائعٌ ... لديَّ ولا ظِلُّ الوفاءِ بقالِصِ
/٩٩/ ولا أنا عمّا استودعوني بذاهلٍ ... ولا أنا عمّا كاتموني بفاحِصِ
وإن الألى راموا اللّحاق بغايتي ... سعوا بينَ مبهورٍ وآخر[2] شاخِصِ
وراموا بأطرافِ الأناملِ غايةً ... وطئتُ وقدْ أعْيَتْهُمْ بالأخامِص

وقوله[3]: [من الطويل]

صحا عن فؤادي ظِلُّ كُلِّ عَلاقَةٍ ... وظِلُّ الهوى النجديٌّ لا يتقلَّصُ
هوًى ليسَ يُسْلي القربُ عنه ولا النَّوى ... ولا هو في الحالين يصفو ويخْلُصُ
ففي البُعْدِ قلبٌ بالفراقِ مُعَذَّبٌ ... وفي القربِ عَيْشٌ بالوشاةِ مُنَغَّصُ
وإنَّ خلاصاً كنتُ أرجوهُ بُرْهَةً ... وكان يزيدُ الأمرُ فيهِ وينقصُ
قَطَعْتُ رجائيْ منهُ[4] مُذْ قال صاحبي: ... رَمِيُّ العُيونِ النُّجْلِ لا يتخلَّصُ

وقوله[5]: [من البسيط]

يا صاحبيَّ أعيناني على سَكَنٍ ... إذا شكوتُ إليهِ زادني مَرَضا
ظبيٌ غَريرٌ إذا حاوَلْتُ غِرَّتَه ... أرْسَلْتُ طرفيَ سَهْما وانثنى غَرَضا
ما لي وللبرقِ مُجْتازاً على إضَمٍ ... يسري ويَمْريْ جُفُوني كُلَّما وَمَضا
بَرْقٌ يلوحُ بنجد والحِمى وطني ... هَفَا بقلبيْ ولبّي كلَّهُ وَمَضَىٰ[6]
مَنْ مُبْلِغُ الحيّ شطّتْ دارُهُمْ وَرَضُوا ... بالجارِ جاراً وما أرْضى بِهِم عِوَضا
ما طابَ عنكمْ فؤادٌ طابَ قبلكُم ... عَنِ الرّضاع تقضّي والشبابِ مَضَىٰ
إنَّ الزمانَ الذي كانتْ بشاشتُهُ ... للقلبِ والعينِ ملهًى بانَ وانقرضا
فإن يئسْتُ[7] فيأساً لمْ يَدَعْ طَمَعاً ... وإنْ ذكرتُ فعِرْقٌ ساكنٌ نَبَضا
حكَّمْتُ في مُهْجَتي مَنْ ليسَ يُنصفُني ... ولستُ أبلُغُ مِنْ تحكيمهِ غَرَضا

---

(١) في الأصل: خوضي.
(٢) في الديوان: حثيثٍ.
(٣) الديوان ص٢٠٩.
(٤) في الديوان: عنه.
(٥) ديوانه ص٢١٣.
(٦) في الديوان: يهفو بلبّسي وقلبي كلّما عرضا.
(٧) في الأصل: نسيبت. والتصويب عن الديوان.

سيّانَ عندي وأمري صارَ في يَدِهِ قضىٰ عليَّ[١] بجورٍ أَمْ عليَّ قَضَى

حتَّامَ أُنْهِضُ جَدِّي وهو يعثر بي أخاف أن لا يراني الجَدُّ إنْ نهضا

وقوله[٢]: [من الكامل]

ومليحةِ الحركات إنْ رَفَلَتْ في الحَيِّ شاعف[٣] عِقْدَها القُرْطُ

/١٠٠/ نَمَّ المروطُ بجسمِها فبدا والشمسُ ليس يكنُّها مِرْطُ

فَتَحَ الصِّبا في صَحْنِ وجْنَتِها وَرْداً يضاعفُ حُسْنَهُ اللَّغطُ

قالَتْ وقَدْ ولَّتْ حمولُهُمُ والعِيشُ فوق جفوننا تخْطُو[٤]:

كانَ الشبابُ الغضُّ يجمعُنا فمضى وشتَّتَ شملَنا الوَخْطُ

غَدَرَ الأحبّةُ والشبابُ معاً فكأننا لمْ نصطحِبْ قَطُّ

وقوله[٥]: [من الكامل]

في القلبِ مِنْ حَرِّ الفِراق شُوَاظُ والدمعُ قدْ شَرِقَتْ بهِ الألحاظُ

وَلَقَدْ حفظْتُ عهودَكمْ وغَدَرتُمُ شتَّان غدرٌ في الهَوَى وحِفاظُ

للهِ أيُّ مَواقِفٍ رقَّتْ لنا فيها الرسائلُ والقلوبُ غِلاظُ

ومَرىٰ العِتابُ جفونَنا فَتَناسَبَتْ تلكَ المدامعُ فيهِ والألفاظُ

يا دارُ ما للركبِ حينَ وقوفِنا[٦] ما إنْ سَقَاكِ مِنَ الدموعِ لماظُ

تَرَكَ الغرامُ عقولَهُم مَشْدُوهةً[٧] فظننتُمْ رَقَدُوا وهُمْ أيْقاظُ

عهدي بظلِّكِ والشبابُ يزينُهُ أيامُ ربعُك للحِسان «عُكاظ»

فبالله ما أسرى هذه البدائع؟ وما أسرع تدفّق هذه البدائه؟ وبالله هذا الشاعر لقد ركِبَ هذه القافية الصعبة، فذلّلها، وسلك هذه الطريقة الوعرة فسهَّلَها. ولقد حير الأفهام إلى أيِّ هذه المعاني تسارع. ولأيها تفصل، ومِنْ أيها تعجب؟! هذا مع هذا التركيب الشديد الأسْر، واللفظ الذي اقتاد آبي هذه القافية وسلسل نطف هذه الأبيات الصافية، وجاء بأبياتها المشيّدة كأنّها العافية. وهذا الذي يتفاوت فيه أقدار القرائح، ويظهر فيه مبلغ العلم، ويعلن به باسم قائِله، وينفق سوق منشده. وأين مَنْ يقدر على مثل هذا الكلام.

---

(١) في الأصل: قضى لغيري، ولا معنى لها.والتصويب عن الديوان.
(٢) ديوانه ص ٢١٧.
(٣) في الديوان: ـشاغَبَ.
(٤) في الديوان: والعيش فوق جفونها تخطو.
(٥) الديوان ص٢١٧.
(٦) في الديوان: وقفتم.
(٧) في الديوان: مدهوشةً.

أويتعاطى مثل هذا المدام. أو يصح معه هذا السحر، وما أظنُه إلاّ الحرام.

ومن لطائف شعره قولُهُ أيضاً[١]: [من الكامل]

/ ١٠١/ ياقلبُ ما لكَ والنوى مِنْ بعدِما ... طابَ السلوُّ وأقْصَرَ العُشّاقُ
أو مابدا لَكَ في الإفاقةِ والأُلى ... نازَعْتَهُم كأسَ الغرامِ أفاقوا
مرِضَ النسيم وصحَّ والداءُ الذي ... أشْكوهُ لايُرْجى له إفراقُ[٢]
وهدا خفوقُ البرق والقلبُ الذي ... تطوى عليهِ أضالعي خَفّاقُ

وقوله[٣]: [من الطويل]

أجِمّا البُكا يامقلتيَّ فإنّنا ... على مَوْعِدٍ للبينِ لا شَكَّ واقِعُ
إذا جمعَ العشاقَ موعِدُهُمْ[٤] غداً ... فوا خجْلَتا إنْ لمْ تُعنّي المدامِعُ

وجاءَهُ مولود وقد بلغ سبعاً وخمسين سنةً فقال[٥]: [من البسيط]

هذا الصغيرُ الذي وافىٰ على كِبريْ ... أقَرَّ عينيْ ولكنْ زادَ في فِكَري
سَبْعُ وخمسون لَوْ مَرَّتْ على حَجَرٍ ... لبانَ تأثيرُها في صَفْحَةِ الحَجَرِ

وقوله[٦]: [من الطويل]

أزيدُ إذا أيسرتُ فَضْلَ تواضُعٍ ... ويزهو[٧] إذا أعسرتُ بعضي على بعضي
أرى الغصْنَ يَعْرى وهو يسمو بنفسِهِ ... ويُوقَر حَمْلاً حين يدنو إلى[٨] الارض

وقوله[٩]: [من الطويل]

وكنت أرَاني مُفْلِتاً شَرَكَ الهوى ... فقدْ صادني سِحْرُ العُيونِ النوافِثِ
فلا تعذلوني في غرامي بعدَما ... تولّى الصِّبا فالعذلُ أوْلُ باعثِ
ولا تبحثوا على سرّ قلبي فإنَّهُ ... صفاً ليس يمضي فيه معولُ باحثِ
أرى صَبواتِ الحبِّ قد جَدَّ جَدُّها ... وقد كان بدء الحبْ مَزحَةُ عابثِ

وقوله[١٠]: [من الطويل]

هي العيس قُوداً في الأزمّة تنفخُ ... تمطّى بها من حقوهِ[١١] الرملِ برزخُ

---

(١) ديوانه ص٢٦٠.
(٢) في الأصل: وصح الداء الذي يشكو.
(٣) الديوان: ص ٢٥٠.
(٤) في الديوان: موقفهم.
(٥) الديوان: ص ١٦٣.
(٦) الديوان: ص٢١٦.
(٧) في الديوان: ويُزهى.
(٨) في الديوان: من.
(٩) الديوان: ص١٠٥.
(١٠) ديوانه: ص١٠٥.
(١١) الديوان: عجمة.

فَلَيْنَ الدجى عن غُرّةِ الصُّبحِ فاغتدت بحيث[١] التقى منها وقوفٌ ونُوَّخُ
عليها قطافُ المَشي أطْولَ خطوها قَدَى الفِتْرِ إذ أدنى خُطاهنَّ فَرْسَخ
بُدُورٌ أكَنّتُها خُدُورٌ يجنّها جَنَاحٌ خُداريّ من الليل أفْتَخُ
/ ١٠٢/ فَوَشْيُ خُدودٍ بالجمالِ مُنَمْنَمٌ ومِسْكُ شُعُورٍ بالشباب مُضمَّخ
فيا صادحاتِ الوُرق في الأيك اقصري فمالي إذ أشكو ولالكِ مُصرِخُ

وقوله[٢]: [من البسيط]

تالله ما استحسنتُ من بعدِ فُرْقتِكُم عيني سواكمْ ولا استمتعتُ بالنظرِ
إنْ كان في الأرض شيءٌ غيرُكُم حسنٌ[٣] فإنَّ حبكُمُ غَطّى على بَصَري

وقوله[٤]: [من الخفيف]

خَبَّروها أنّي مَرِضْتُ فقالتْ: أضنًى طارفاً شكا أم تليدا
واشاروا بأن تعودَ وِسادي فأبتْ وهيَ تشتهي أنْ تَعُودا
وأتَتْني في خِفيةٍ وهي تشكُو ألمَ الوجدِ والمزارَ البعيدا[٥]
ورأتني كذا فلم تتمالَكْ أن أمالَتْ عليَّ عِطْفاً وجِيدا[٦]

وقولهُ يصف النجم[٧]: [من المتقارب]

وليلٍ ترى الشّهْبَ مُنْقَضَّةً بها نحوَ مُسْتَرِقٍ سَمْعَهُ
كما مُدَّ مِنْ ذهَبٍ مُدَّةً على لازورديَّةِ الرُّقْعَه

ومنهم:

[٨]

أبو علي الحسن[٨] بن عبد الصمد بن أبي الشخباء العسقلاني

صاحب الخطب المشهورة، والرسائل المحبّرة، لسانٌ لايكف له غرْب، ولايكلُّ

---

(١) في الديوان: بجنب النقا.
(٢) الديوان ص١٧٢.
(٣) في الأصل: حسناً.
(٤) الديوان: ص ١٤١.
(٥) في الديوان: رقبة الحي والمزار البعيد.
(٦) في الأصل: أن مالت عطفا وجيدا، ولا يستقم الوزن.
(٧) الديوان ص٢٥١.
(٨) الحسن بن عبد الصمد (وقيل بن محمد بن عبد الصمد) الشيخ المجيد ابن أبي الشخباء، أبو علي العسقلاني، كاتب مترسل من البلغاء الشعراء، توفى مقتولاً في خزانة البنور، وسجن القاهرة سنة ٤٨٢هـ أو ٤٨٦هـ، انظر: وفيات الأعيان ٢/ ٨٦ الوافي بالوفيات ١٢/ ٦٨، معجم الأدباء ٩/ ١٥٢، واتعاظ الحنفا ٢/ ٣٢٨ وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٨٧ والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٤/ ٢/ ٦٢٧ وله مجموعة من الرسائل.

له ضَرْب، بحسٍّ ذكيّ كأنه زجاجة فيها نار، وحَدَسٌ زكيّ لاتطمس له نار، وبينه وبين ابن الحميد مكاتبات ينشر منها الحلل، وينظر منها ماتحوي الكلل وقفت عليها، وصرفتُ النظر فلم أجِدْه ينصرف إلاّ إليها، وكانت عندي بالخط الفاضلي، وإنما أَذْهَبَتْهُ من يدي النُّقل، وأطلقته من حاصلي العُقَل، وكانت بينهما من لطائف الشتام ماكان لسالف النقائض كالختام، بألفاظٍ عِذاب كأنها نُطَفُ الغوادي، وطعم السلامة من يَدِ الأعادي، وكان لايحسن منها إلاّ عقير مُدامة يحسوها، وعاقد راحةٍ على شعاع راحِهِ يكسوها، وكانا عجبا، ونيِّرين ظهرا، والشمسُ /١٠٣/ والقمر قد حُجبا.

ومن نثره قولُهُ:

أما ما افتتحت به من ذكر استحكام الثقة، فقد عجبت من تعاطيه وصف ذلك، مع العلم بوضوح دليله، والمعرفة بكثيرِهِ وقليلِهِ، وأنّى يتجاوَز تلك الصفة وهو ينبوع الوفاء ومَنْبِتُهُ، ومُمَكّن أُسِّهِ ومُثَبِّتُهُ: [من الرجز]

تسكنُ أحشائي إلى حِفَاظِكُمْ سكونَ أجفاني إلى رُقادِها

وإما تخلّفه عن الزيارة للعذر الذي نصَّهُ، فقد رأيت ليلتي بغيبته، فكأنّها قُرنت بيوم الحساب الأطول، أو علّقت نجومُها السيّارة بأمراس كتانٍ إلى صمّ جندل[1].

ومنه قولُهُ:

فارقني مولاي، وخلّفني حِلف السهاد، مفترشاً شوك القتاد، أتذكّر اخلاقه تذكّر الفقير غناه، وابن ذريح لُبناه، وامتدَّ عليَّ رواق الليلة المذكورة، حتى كأن نجومها شُدَّت بمناكب أبان، وقَبرها يسير في فلكه كيوان: [من البسيط]

يئستُ من صُبْحِها حتى التفتُّ إلى وجْه الظلام، أعزّيه بفقدانِ

ولم تزل هذه حالي في الوحشة، إلى حين وصول الرقعة الأثيرية، فانها رقعت هلهلاً من الجدل مخلقاً، وتركت ذاوياً من المسرّةِ قصراً مونقاً، ووقفتُ عليها فقلت أجرى الطرس سطورا أم زهراً منثورا؟ أو نُظمت البراعة الفاظاً أدبيّة؟ أم سلوكاً ذهبيّة؟ وأنا أجيب عنها ولكن كما يجيبُ قسّاً باقِل، وتفاخر السُّحبَ المثقَلةَ جداوِل، لما علمت أنه قد عتب عليَّ من وجه صحيح، لقيتُهُ مخفوض الجناح، وقابلتهُ بالاستغفار والاستصفاح، إذْ أنا بحمد الله تعالى ليّن الكنف تحت ظلال المودّة، شديْدٌ في هواجر الشدّة: [من الطويل]

جليدٌ على عَتْتِ الخُطُوبِ إذا التوَتْ وليسَ على عَتْبِ الأخلاَّءِ بالجَلْدِ

وأما الفصل المختص بالحضرة السامية، ووقوع الأمر بحسب ماكان مولاي ذكره،

---

(١) من قول امرىء القيس: (ديوانه ص١٩)

كأن الثريا علّقت في مصامها بأمراس كتانٍ إلى صُمّ جندل

فلم تزل المعيَّنة تمدّه بالرأي الثاقب، وتكشف له مستور العواقب، والله المحمود على ما منح مولاي من صحة النظر الذي يتساوى فيه حاضرٌ / ١٠٤/ من الأمر وغائب، ومستقبل من الخطب وذاهب، وحسن الألمعية التي عناها الأول بقوله: [من الكامل]

ويُصيبُ مُرتجلاً بأوّلِ فكرةٍ أعراضَ كلِّ مخمّرٍ ومبيّتِ

وأما الفلانيان، وما تجدّد بينهما في هذا الوقت من الصحبة، وانتسج من المودّة، فللمشابهة قضية دائمة الوجوب، وللمشاكلة حوادث تملك حبات القلوب، وكلُّ نَفْسٍ بعادتها صبَّة، وإلى ما يلائم طباعها منصبَّة، النملة تفرح بالبرّة، أكثر من فرحها بالدرّة، والضَّيُّون يرى القذارية خيراً من اللطيمة الدارية، ومولاي يخالفهما بصحة ميثاقِه، وكرم أخلاقِهِ، ودماثة طبعهِ، وصلابة نبعهِ، وطيب أصلهِ وفرعِهِ، فلا غرو أن يجهدا في نقض دعوته ويرغبا عن الاختلاط بحضرته: [من السريع]

لا تنظري صَدِّي ولا مِقَتي ما أنتِ مِنْ حَرْبي ولا سلمي

وأما سؤاله عن قائل البيتين المنظومين وهما: [من مجزوء الكامل]

ويقودُني لوصالِهِ خرسُ الهُدى قَلِقُ الوشاح
ينآد كالغصنِ النضير بمِثْلِهِ عَبَثُ الرياح

فقد فتح لي هذا السؤال باباً عرفتُ أن مولاي قد أعطى فلاناً مقودَهُ. ومَدَّ إلى مغازلتِهِ يَدَهُ، ولزم مضجعَهُ، وتوفّر على الخلوات معه، فقلت: خبرٌ يحتمل الصدق والمين، وقف حائراً بين هذين، حتى عرفت اشتهار ذلك، وأن الأخ غَضِبَ منذ أيام قليلة، وبات في القرافة[1] بأسوأ ليلةٍ، فلم أدرِ كيف أعتب مولاي وألوم، ولا كيف أقْعدُ في التأنيب له وأقوم، وهو الحياء الذي إذا انثلم فقد انهدم، وإذا تصدّع فقد ذهب أجمع، والمعيشة التي في المروءةِ حفظ موادها، وصلاح فسادها، ومع ذلك فالبيتان المذكوران لعبد الصمد [بن] المعذّل في كلمة يقول فيها: [من مجزوء الكامل]

هَتَفَتْ بهِ نُذُرُ المشيب فغَضَّ من غرب الجماحِ
/ ١٠٥/ هيهات مِلْتُ إلى النهى أجِبْتُ داعية الفلاح
وجعلتُ مِنْ وِرْدِ التقى كأسَ اغتباقي واصطباحي

وقد كان مولاي باستحسان هذه الأبيات ألْيق، وهي بصفته أعبق، وكأني به إذا بلغ هذا الفصل من الرقعة أنشد قول الخطيم بن محمد[2]: [من الطويل]

---

(١) القرافة: موضع بالفسطاط من مصر (معجم البلدان ـ القرافة).
(٢) كذا في الأصل، وهو الخطيم المحرزي العكي ،والبيتان له في أشعار اللصوص ١/ ١٥٩.

وما لامني في حبِّ عَزَّة لائمٌ مِنَ الناسِ إلاّ كانَ عندي مِنَ العدا
ولا قالَ لي: أحسنْتَ إلاّ حَمِدته بما قالَ لي ثمَّ اتخذتُ لهُ يَدَا

ولا أتعدّى هذا الحدّ حرفاً، أن اجني ذنباً عظيماً، وأؤلم قلبا بشهادة الله علي كريماً.

ومنه قوله:

وأما الفصل الأخير، فاعلم والله، أنه صدر عمّن احتسى معي كأس المساهمة، وَجُلِيَتْ لي بودّه وجوه الدهر الساهمة، وأنا أؤمل بفضل الله تعالى أن يقع من غير إرهاب، ويتواصل لديّ بغير حساب، حفظاً للعادة التي حكم بها كرمُه. وتمَّت معها عندي آلاؤهُ ونِعَمهُ.

ومن شعرهِ قولُهُ: [من الكامل]

ألْقى بكفي جذوةً في درّهِ والليلُ يخطرُ في هَلاهِلِ أُزْرِهِ
أخت النجومِ تشعْشُعاً وولادةً سرقتْ محاسنَ وصفِهِ في سُكْرِهِ
فَضَرامها مِنْ خدّهِ وحياتُها مِنْ ثغرِهِ ونسيمُها مِنْ نَشْرِهِ

ومما أورد له ابن بسّام[1] قوله: [من الكامل]

ما زالَ يختارُ الزمانُ ملوكهُ حتى أصابَ المُصْطَفى المتخيَّرا
قل للأُلى ساسوا الورى وتقدّموا قِدْماً هَلُمّوا شاهدوا المتأخِّرا
إن كانَ رأيٌ شاوروهُ أحْنفاً أو كان بأسٌ نازلوه عنترا
ولَقَدْ تخوّفكَ العدوّ بجهدِهِ لو كان يقدر أن يردّ مقدَّرا
إنْ أنْتَ لمْ تبعثْ إليهِ ضُمَّراً جُرْداً بعثْتَ إليهِ كَيْداً مُضْمَرا
تسْري وماحَمَلَتْ رجالٌ أبيضاً فيه ولا ادّرَعَتْ كماةٌ أسمرا
خطروا إليكَ فخاطروا بنفوسِهِمْ وأمرتَ سيفَكَ فيهم أنْ يخطرا
عَجَبوا لحلمِكَ أنْ تحوّل سطوةً وزلالِ خُلْقِكَ كيفَ عادَ مُكدّرا
لا تعجبوا مِنْ رِقّةٍ وقساوةٍ فالنارُ تقدحُ في قضيبٍ أخضرا

ومنه قولُهُ:

ولما كان الثناء أحسن ما تدار عليه الكؤوس، وتنقش له الأقلام في الطروس وجب أن يطلق في هذهِ الحلبة الأرسان، ويستخدم في اداء فضلها اللسان.

ومنهم:

---

(١) الذخيرة ٤/٢/٩٤٦ ،ووفيات الأعيان ٢/ ٩٠ والوافي ١٣/ ٦٩.

[٩]

القاضي الفاضل[١]

[من السريع]

وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد[٢]

هو منهم لا بَلْ هم منه، وكلّما قيل في محاسن من تقدم، فإنما هو عنه: [من الطويل]

وإن جَرَتِ الألفاظُ يوماً بمدحةٍ لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني[٣]

وهو الفاضل محيي الدين، أبو علي، عبد الرحيم، بن الأشرف بن الحسن علي بن الحسن بن أحمد[٤] بن أبي الفرج اللخمي العسقلاني المولد، عرف بالبيساني، كان سَلَفُه من بيسان، وولى أبوه قضاء القضاة والخطابة بعسقلان، واستخدم شاور[٥] القاضي الفاضل في ديوان المكاتبات مع الموفق[٦] بن الخلال، ومولده يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمس مئة وهو والله البحرُ الزاخر، والبرّ الذي ماسلك طريقه أوّلٌ ولا آخر، وما مثله هو ومن تقدّمه إلاّ مثل النجوم طلع عليها الصباح، والكروم، أولها زرجون وآخرها راح، بل الحدائد قبل تطبيق الصفاح، والموارد قبل تصفيق الرياح، تقدَّموا قدّامه، وغرقوا في سيله، وخُلِقوا قبله وجاءوا في ذيله، وكل وصف قلت في غيره، فإنه تجربة الخاطر، هو اكثر من كل قول، وأكبر من مقدار كل طول، لقد صادف هذا الاسم منه الاستحاق، لفضائله التي تَبَلَّجَتْ تبلّج الصباح في الآفاق، لقد وطّت تلك الدولة بآرائِهِ، جمع السيوف والأقلام تحت لوائه، كان يناضل بجلادِةِ عن حماها، ويرتشفُ

(١) القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ.
ترجمته في: الخريدة (قسم مصر) ١/ ٣٥ والتكملة للمنذري ١/ ٣٥ ومعجم الأدباء ٤/ ١٦٢ وكتاب الروضتين ٤/ ٤٧٢ ووفيات الأعيان ٣/ ١٥٨ وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٣٨ والوافي بالوفيات ١٨/ ٣٣٥ والنجوم الزاهرة ٦/ ١٥٦ وشذرات الذهب ٦/ ٥٣٠.

(٢) لأبي نواس: ديوانه ١/ ١٨٥.

(٣) لأبي نواس: ديوانه ١/ ١٢٩.

(٤) في نهاية الارب: ابن الحسن بن الحسين بن أحمد.

(٥) شاور بن مجير بن نزار الهوازني. وزر للعاضد الفاطمي. قتله صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٤هـ (الوافي ١٦/ ٩٥).

(٦) يوسف بن محمد أبو الحجاج الموفق صاحب ديوان الإنشاء أيام الحافظ الفاطمي توفي سنة ٥٦٦هـ (وفيات الأعيان ٧/ ٢١٩).

الزلال من رتق قلمه، وتُلْتَحَفُ /١٠٧/ الظلال بِسُحُبِ نِعَمِهِ، وله في الانشاء تفنن منه مايروع الخيل صهيلا، ومنه مايروق عَذْباً سلسبيلا، يفتُّ العنبر على سطوره، ويفوت الجوهر طلّ منثورِهِ، تعقد رسائله راحاً براح، وجَنى جناته بجنى التفاح، وتلتقط في مهارقِهِ بنفسج من أقاح، أَطْرَب من مناجاة الندام، وأطيب من معاطاة المدام، طالما كتب جماناً، وكبت أغصاناً ولانَ فاجتنى عسلاً، وقسىٰ فانبرى عسلاً، يَسْجَع كالحمَام، ويصرع كالحِمام، وقد سُطّرت بحسناتِهِ الصحف، وصدرت من حسّانِهِ درات القلائد والشنف، وطَرَق النَجْدَ والوادي، ونطق به المداح والحادي، وحاضَرَ بِهِ الحاضِر والبادي، وسامَرَ بِهِ السامر، وترنّم الشادي، وغادر له الأرض مذهباً مذهباً، وغادى الغوادي مصوِّبا ومصوَّبا، وسار مُقربا مقرَّبا، وصار للمشرق مَشرقا، وللمغرب مغربا، فأما مايؤثر عن أقلامِهِ، فهو النافث للسحر في عقدها، والمنوّر للأبصار بكحل إثمدها، فَضَحَ الزهر بكلمِهِ، وفتح الأقاليم بقلمِهِ. وكتب فيما لايعقبه ندم، وبارى قلمُه السيوفَ ففعل أكثر منها ولم يتلطّخ بدم، كم نكّس رماح الكفر فقصم أصلابها، وفَصَمَ أسبابها وعراها بأسطرِهِ فَفَلَّ جيوشها وثلَّ عروشها، وحطّ صلبانها وحَطَمَ فرسانها، وأعاد بِيَعَها مَساجِد، وصوامِعَها معابِد، وبدّل الكفر بالإيمان، وأسكت الناقوس للآذان، وعزل مكان الانجيل للقرآن، وقسى على القساوسة وأرهب الرهبان، وكاتب الخلافة فكانت سطوره حِلية شعارها، وسواد مدادِهِ سؤدد فخارها، وتأخّر السهم وتقدّم، وحرس مُجاوِبُهُ فلما كلّمَهُ تكلّم، وحضر مواقف الحرب، فكان فارسها البطل، ورأيهُ سيفُهُ الضارب، ومواضع الحصار، وكان منجنيقه الرامي، ويراعه سهمُهُ الصائب، وكان هو المحرّك للعزائم النوريّة[١] على تطهير مصر من دنس أولئك الضلاّل[٢]، ودرن تلك الأيام والليال، بل كانت أشَدّ من الليالي، لتراكم ظلام تلك البدع، وتفاقم ضلال ذلك الدين المبتدع.

ولقد كان وهو في ديوان تلك الدولة /١٠٨/ يتحرق على كشف بدعها، وكفّ شُنَعِها، وكرّ جنود الله على شِيَعِها، ووقفت على قصيدة كتبها إلى الشهيد نور الدين بن زنكي يقول فيها[٣]: [من الطويل]

ومابعد مصر للغنى متطلّب ... ومابَعْدَ هذا المال مالٌ فيكتَسَبْ

---

(١) إشارة إلى الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر الذي ملك دمشق والبلاد الشامية ثم سير أسد الدين بن شيركوه إلى مصر فملكها نيابة عنه وأخباره كثيرة. انظر: وفيات الأعيان ٥/ ١٨٤.

(٢) يريد بهم الفاطميين.

(٣) ديوان القاضي الفاضل ٤١٧.

ولو أنّه في البأسِ يمضي أو الندى لهان ولكن في المغاني وفي الطرب

وكانت الأجوبة النورية تردّ عليها فيرى بها في تلك الظلمات نورا ويرتب على مقتضاها أُمورا، ثم كانت دخول العساكر الأسدية[1] إلى مصر باستدعاء شاور في المرتين، وفي الثانية استقرّتْ قدمها، واستمرت والأيام خدمها، وهنالك علا النجم الفاضلي، وسَعد جَدُّه، وصال والسيوف جندُه، وعلى ذكره ذكرتُ شعراً كنت قُلْتُهُ جاء فيه ذكره استطراداً وهو: [من السريع]

أتى بها الساقي فيا مرحبا إذْ جاءَ بالمحمولِ والحاملِ
ببابليِّ اللحظِ قدْ زارَنا بقهوةٍ صفراءَ مِنْ بَابلِ
مُدامةٍ ما عُتِّقَتْ حِقْبَةً إلا مِنَ العامِ إلى قابلِ
صَاغَ مِنَ الدَّيرِ لإبراقِها قلائداً مِنْ ذَهبٍ سائلِ
وطُوقتْ في المَزْجِ تِيجَانَها بِلُؤلُؤ في كأسِها جائلِ
كأنَّها ممزوجةً لونُهُ مغيَّراً مِنْ خِيفةِ العاذلِ
تأخذُ منَّا كلَّنا ثأرَها ومَا لَها إلا على القَاتِلِ
رقَّت فَقُلنَا: إنَّهَا ريقةٌ فِي الكأسِ أَوْ مِنْ خَصْرِهِ النَّاحلِ
دقيقة المعنى على الخاطرِ أو صنعة للفَاضلِ[2]

ولما آثر العادل إقامة اسد الدين شيركوه عنده، وهو إذْ ذاك مقدم الجيوش النورية المجهزة إليه، كتب الفاضل عنه إلى نور الدين كتاباً وقفت عليه بخطِّهِ، ومنه نَقَلْتُ ومضمونه:

من عبد الله ووليّه عبد الله الامام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى الملك العادل المعظم الزاهد المجاهد المؤيّد المنصور المظفر نور الدين، ركن الاسلام والمسلمين، عهدة الموحدين قسيم الدولة، مجير الأمة، عضد الملّة، حافظ الثغور، غياث الجمهور، قامع الملحدين، قاهر المشركين، خالصة أمير المؤمنين، رفع الله به منار الدين، وأعلى بعزائمهِ رايات الموحدين، واحْسَنَ توفيقه في خدمة أمير المؤمنين. سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي /١٠٩/ على جدّه محمد ﷺ وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين وسلم تسليماً.

---

(١) يريد عساكر الشام التي قادها أسد الدين شيركوه.

(٢) كذا في الأصل، ولعل كلمة سقطت فأخلت بالوزن والمعنى.

أما بعدُ، فإنّه عرضت بحضرة أمير المؤمنين مكاتيبك التي أدّيت بها واجب حقِّهِ وقمت بمفترضه، وصدرت عن قلب شفاه الدين بهديهِ من داء الضلال ومرضه، وتؤملت بمقر جلالهِ، ومحل أمانته التي منح الله بها الدين مزيّة كمالِهِ، فصرف إليها أميرُ المؤمنين سمع الإصغاء وطرفه، وعرفَ منها أرَجَ الولاء الصادِقِ وعرفَه، ووقف عليك من لطيف ملاحظاته ما يديم النعم، وأهدى إليك من شريف دعواتِهِ ما إذا حَصَلَ لك جمع المسلمين عم، فأمّا تلقيك أوامره بالامتثال، وأضربت عنه الأمثال وتجريدك العساكر التي شدّت متن الموحدين، وشادت مباني الدين، ونكص العدو بخبرها قبل نَظرها، وانصرف عن بلاد الاسلام بأخزى خجلة وأظهرها، وتقديمك عليها مَنْ ارتضاه أميرُ المؤمنين لارتضائك. وانتضاه في يد الحق تيمناً بانتضائك، وأمضى عزمه في تقليد ملكه إذْ علم أن عزمه مَشْتقٌ من مضائك فقد شكر الله وأميرُ المؤمنين لك أيها الملك العادل هذا الأثر، وذَخَر لك منه حَسَنَةً لم تبسم عن مثلها ثغور الصحائف والسّير، وميّزك على ملوك الشرق والغرب بفضل هذا النظر، ونَصَرْتَ الدين الحنيف والبيت الشريف، وعند مآثرك الحسنى نشهد بها فتغني عن الإفصاح والتعريف، وهَدَمْتَ الباطل حين أُرْيَتْ خيامُه. وثبّتَّ الحقَّ حين هَفَتْ أعلامُه، واخترت لخدمة أمير المؤمنين من هو مكان الاختيار وفوقه، وحملت العبء الثقيل من يستقل به ويحمل أوْقه، وقَلّدت الأمر الجليل مَنْ لايعجز قدرته وطوقه، ووردوا إلى الفناء النبويّ بيض الوجوه بنصرٍ واضح، شمّ الأنوف بتفريج غمرة الخطب الكالح، جَذْلىٰ القلوب بصفقةِ العمل الرابح، ظاهرة عليهم آثار آدابك الحسنى، باديةً فيهم أنوار /١١٠/ صوابك الذي ليس فيه مستثنى، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1]. وقد كانت جنايات من تقدم نظره، عظمت عن الاحتمال، وتجاوزت إلى الدين بعد أن تجاوزت المال، وظَهَرت امارات استنصاره بمن استنصر به بالأمس، وتعويله على مانزّه الله أميرَ المؤمنين أن يكون به راضي اللسان والنفس؛ لأن الله استخلفه لاستقامة كلمة جدّه، واكتفى بهديه وهدي آلِهِ عن ان يقفّى برسولٍ من بعده، وحينئذٍ بدَت للمشار إليه سوءاته، وأحاطت به خطيئاته، وقصرت في مجال الحياة خطواته، ولقى عن كثبٍ حتفه، وأصبح نكالاً لما بين يديه وماخلفه، فهنالك أجمع أمير المؤمنين والمؤمنون على تقليد السيد الأجل الملك المنصور، ولي الأئمة، محيي الأمة، سلطان الجيوش، أسد الدين، كافل قضاة

(١) سورة آل عمران: ١٧٤.

المسلمين، وحادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، أمر وزارته، وناط به أمانة سفارته، وأطلق يده بسيف الجهاد وقلم الاجتهاد، وتدبير ما تحويه المملكة الفاطمية من البلاد، وكفله أمر خدمته التي استحقّها بارتياد الرشاد، ورأى أن يكبت عدوّ الدين باصطفائه، ويكفّ عادية الشرك باستكفائِهِ. واختار لتقدمة عساكره من اخترته أيها الملك العادل لتقدمه عساكرك، واستهدى منك هذه الجوهرة المعدومة من جواهرك، واستنزلك عن هذه الذخيرة المصونة من ذخائرك، وآثر أن يؤثر بها دولته التي تعدّ نصرتها من مآثرك، ولثقة أمير المؤمنين انك تسمح له بكرائم لا يجود بها إلا مَنْ كان كريماً، وتقسم بينك وبينه النجدة التي دعى بها والدك الشهيد رحمة الله عليه للدولة قسيماً، امضى هذا الرأي لما وضحَ صوابُهُ، وانتهز فرصةَ هذا التوفيق لما فتح بابه، ورآهُ القويّ الأمين فاستأجره للاسلام وأهله، ومَدَّ عليهم ما /١١١/ كانت أعينُهم ممدودة إليه من ظل عدله. ولما تمسك به المسلمون، لم يغلّ منهم أيديهم المشدودة عليه، ولما اغتبط به أهل الدين لم يصرفهم عما هداهم الحظّ إليه، وأمره أن يعدّ لحرب الفرنج عدّته، ويأخذ لغزوهم أهبته، ويطلبهم براً وبحراً، ويوسع لقتالهم ذرعاً وصدراً، ويديل الاسلام من هدنةٍ يطلبهم منها إلى الله سرّاً وجهرا، وحرت[1] وأمير المؤمنين يراها مصابا، يحتسب فيه عند الله جزاءا، وعهد إليه أن يعمِّر الأساطيل التي تقطع عن العدوّ الإمداد، ويعمر سجون الدولة بالكافرين مقرّنين في الأصفاد، وأن يسكن المدن التي جنى عليها التدبير العاجز، ويثقل المعاقل التي كانت خالية المراكز، لتكون أيها الملك العادل مِنْ وراء هذا العدوّ الكافر مستأصلا، ويكون وزير أمير المؤمنين للغارات عليه والغزوات إليه مواصلاً، فيقطع في الشرك سيف الله بحدّيه، ويميس الإسلام في نضرةِ برديه، ويبطش الحقُّ في أعدائه بكلتا يديه، وغير بعيد من معونة الله أن تَخْفِق على البيت المقدس رايات الدولة الفاطمية وراياتك التي تُعَدّ من راياتها، وتوجف عليها خيولُها وخيولك التي النصر أحد غررها وشياتها، وتأخذ الملّة الحنيفية بطوائلها من طغاة الكفر وبغاتها، ويجري الله الدولة العلوية في النصرة العلوية على ميراثها وعاداتها، فمن الآن قيل للونية اذهبي، ونادى الاسلام يا خيل الله اركبي. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2]

---

(١) كذا في الأصل، لعلها زائدة.
(٢) سورة الحج: ٤٠.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[١]، وأمير المؤمنين يؤثر أن تؤثر دولته بهذا السيد الأجلّ لتكون أيها الملك قد نصرته نصراً دائماً، وقضيت من طاعتِه فرضاً لازماً، وسررته غائباً بحاضِر، ووكلت بخدمته من ينوب عنك في النصر المتظاهر، وأن تكاتبه بالزامه مقامه، وتهديه إلى دولته التي اغتبطت باستخدامه، وتهون عليه روعة فراقك، فإنها ملفتةٌ /١١٢/ وجْهَهُ إلى شامه، وتسليه بثواب طاعة أمير المؤمنين التي فرضها الله بصريح كلامه، وتبعثه على ارتباط عدة من عسكرك المسير معه، يعاضد عساكر الدولة العاضدية، وتزداد بها القوة، وتتضاعف الحمية، ولولا ما مُنيت به البلاد من تعاقب جوائح الجدب، وتناوب قوادح الحرب، وارتفاع الأسعار وعلوّها، وعزّة الأقوات وغلوّها، لاستزدنا قوَّةً إلى هذه القوّة من عساكرك المؤيدة، ولما رأينا إعادة أحدٍ منهم، بل بذلنا لهم الاقامة المؤبدة، ولكن إقامة من تحمله البلاد، وتتسع له المواد، ويؤدي به ما فرضه الله سبحانه من الجهاد، مما تنتظم به بمشيئة الله الميامن والمناجح، وتقرّ أعين المسلمين بما يقضيه ويقتضيه من المنافع والمصالح، ويؤدي به مايجب لله ولرسوله في خلقه من الحقوق والنصائح، ويستكمل به ما ابتذلته من العمل الصالح، والله سبحانه يمدّك أيها الملك العادل المعظم الزاهد المجاهد المؤيد، المنصور المظفر نور الدين، ركن الاسلام والمسلمين بمزيد نَصْرِهِ، ويحوطك بمعقبات من أمره، ويجعلك ممن أَخْلَصَ له في سرِّهِ وجهرِه، ويُحْسِن عن أمير المؤمنين مجازاتك، ويديم لدولتِهِ ذبّك عن حوزتها ومُحاماتك، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمته وبركاته.

وكتب لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مئة.

والعلامة بين سطريه الأولين بالخط العاضدي (الله ربي) فعاد الجواب النوري على العاضد بامتثال ما أمر، وتكفل أسد الدين بحماية غيلهِ واستمرّ، وكان ابن أخيه صلاح الدين قد قتل شاور، وقال الفاضل: قتل شاور وما شاور، وقلت: وشاور وما شاور؟ وكتب بالخط الفاضلي عهد أسد الدين شيركوه بالوزارة، ولقّب الملك المنصور، وكتب عليه العاضد بخطّه[٢].

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد طوق أمانةٍ رآك الله وأمير /١١٣/ المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله تعالى بما أوضحه لك من مراشد سُبُلِهِ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعْتَزَتْ إلى بنوّةِ النبوّة،

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) الروضتين ٢/ ٦٤ وصبح الأعشى ٩/ ٤٠٦.

واتخذْ أميرَ المؤمنين للفوز سبيلا ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[(١)] ثم وأثْبَتَ أَسَدَ الدين منيته وعاجله أجَلُه، وولي ابن أخيه صلاح الدين، وكتب عهده بالخط الفاضلي، ولقب الملك الناصر.

وكتب عليه العاضد بخطِّهِ[(٢)]:

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، ومحّبته عند الله عليك، فأوْفِ بعهدك ويمينك، وخُذْ كتاب أمير المؤمنين ناهضاً بيمينك، ولمن قضى بجدنا رسول الله ﷺ أحسن أُسوة، ولمن بقي بتقبّلنا أعظم سلوة، ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾[(٣)]».

ثم كان الفاضل رحمه الله هو الدولة الصلاحية، كان كاتبها، ووزيرها، وصاحبها ومشيرها، والحامل لِكَلِّها والحاكم في كُلِّها، والمجهّز لبعوثها، والمبرّز عند إقعاء ليوثها، والدائرة به مناطق بنيها، والسائرة به شموس أيامها، وبدور لياليها، فلهذا أذْعنَتْ لقلمِهِ الرماح، وطلبت صلح كَلِمِهِ الصفاح، وانقضتْ تلك الأيام وما فيها، إلاّ بكر عشايا أو غُرر صباح، ومع هذا كلّه كان لايزال مُنَكّداً مُبتلى بضنى[(٤)] قلْبُه وجسمُهُ، ومرض همُّه وسقمه، يذكر هذا في كتبه وترسلاته، ويشكوه إلى إخوانه وأخواتِهِ. ومما كتب في ذلك:

«ولا يسأل سيدنا عن خاطرٍ تَزْدحم فيه الأخطار، وعن ضلوع تسرح على النار، وقلت: قد عُدم الصفاء في دار الأكدار، وجسم قد قارب أن يَخْلَع المُعار من الأعمار، ولقد دبّ الفناء فيّ عضواً عضواً، وأخذني الزمان، فكلّ يوم يذهب مني شيء بعد شيء، ويكثر شبهي بالميت فيبعد عن الحي، ونعوذ بالله من نار غضبهِ، فإن آخر المخالط / ١١٤/ الكي».

قلت: ولهذا كان لايتكلف مع السلطان سفراً في كلّ مرّة، وإنما كان العماد[(٥)] ينوب عنه، فإذا سافر كان هو السائر للسلطان إذا ركب، والمسامِر إذا جلس، وكان إذا تأخّر عن السلطان في بلد ناب عنه فيه، أوْ كان ردءاً لمن ينوب من إخْوة السلطان وبنيه، ويكون هو القائم بالملك، القائل بالحياة والهُلْك. ومما بلغ من سلطانه،

---

(١) سورة النحل: ٩١.

(٢) الروضتين ٢/ ٧٤ وصبح الأعشى ٩/ ٤٠٧.

(٣) سورة القصص: ٨٣.

(٤) في الأصل: وضنى.

(٥) هو عماد الدين، أبو حامد محمد بن محمد القرشي الأصفهاني، وستأتي ترجمته.

ماحدّثني به أبو المحاسن بن عبد الله الكاتب المصري، قال: سمعت محيي الدين بن عبد الظاهر، يحكي عن ابن قريش[١]: أن الفاضل صحب السلطان مرّةً في سَفَر، فنزلوا منزلاً، رِخْو الأرض، كثير الطين، وتوالى به المطر، وتعذّر السلوك بين خيمة السلطان وخيمة الفاضل إلاّ على مَنْ يسلكه بمشقّة، فأمر السلطان بنقل خيمته وأن تضرب إلى جنب خيمة الفاضل، ويفتح بينهما باب حتى لا يقطع بينهما الوحل، ولا ينزعج الفاضل عن مستقرّهِ، وكان إذا غاب عن السلطان تكاتبا، وبينهما مترجم بقلم توافقا على المصطلح عليه، فكانا يتكاتبان بهِ ويتخاطبان على بعد الدار بلسانِهِ، وكان القاضي الفاضل يكتب إلى سلطانه، ويشفع فيما يريد كما يَشفَع الصاحبُ إلى صاحبهِ، والصديقُ إلى صديقهِ، وكان يسلّم في كتبه التي يكتبها إلى السلطان على مَنْ أراد من أولاد السلطان أو إخوته وقفت له من ذلك على كتب كثيرة، منها ما هو بخطّ يدهِ، ورأيت في بعضها أجوبة السلطان، وفي بعضها حروف المترجم بخط الفاضل وخط السلطان بإزائه. ورأيتُ كتاباً كتبه إلى السلطان، وسلّم فيه على ولده الملك العزيز عثمان، وقال فيه: والملك العزيز أعزّ الله الدين بجهادِهِ بين يدي المولى مخصوص بتحيةٍ يفضّ لديه ختامها ويخص وفود الشوق غرامها: [من الكامل]

بتحيّةٍ حيّيتُ فيها أولاً   ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
يهدي بذي النورين لا تخطى الضحى   تسري ركائبها إلى عثمان

/ ١١٥/ ورسولي إلى السلطان في إبلاغها.

والناس رسلهم إلى السلطان.

وأما ما يدلّ على شيء من حال أوّله، فوقفتُ بخطّه على ما صورته: كانت بين والدي رحمه الله وبين المرتضى الطرابلسي، متولي الديوان بعسقلان هناتٌ ارتضعا أفاويقها ولزما مواثيقها، فصحبا بها الأعمار، وحكّما فيها الأغمار، فكانت حربُها سجالاً، وايامها أحوالاً إلى أن قضى الله سبحانه ان سبقه والدي إلى الحِمام، وَفَرَغَتْ منه قبله الأيّام، فقال لي رحمه الله وقد انقطع الحبل مِنْ يدِهِ، وعلم أن يومَهُ لا يدفعه إلى غدِهِ: ماأرى فلاناً إلا سيوفيك ماأسلفته، ويقضيك الوعد الذي أَخْلَفَتَه،

---

(١) محيي الدين أبو الفضل عبد الله رشيد الدين أبي محمد عبد الظاهر بن نشوان، الجذامي المصري. من الكتاب الشعراء صاحب ديوان الانشاء للملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون والملك الأشرف خليل. توفي بالقاهرة سنة ٦٩٢هـ وله: «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور»، نشر بمصر.

فقلت: أرى أن يكاتب بكتاب يثبت فيه بخطك أسْطُراً، وتحلب فيه من الوعظ أشطراً، وتجعله كالوصية، فإن الذي بينكما من العداوة قد أشبه المودّة لطول المدّة، فقال: هيهات، عناءٌ ما وراءه غَناء، ورقّةٌ ماتُحَلّ به رِبقَة، ولو أفردت الله بقصدك لكفاك، وأنت وذاك، فمثّل لي هذه المعاني والأقفال وكان الحال في عدم النفع على ماقال: والرسالة: [من الطويل]

ونـم بـعـد أخـذ الـثـار عـنـي فـطـالـمـا قَـطَـعْـتَ لـي الـدنـيـا وأنـت مـسـهّـد

كتب العبدُ هذه الجملة، جعل الله لحضرة سيدنا البقاء الذي لا تَحِلُّ الغِيَرُ ساحته، والأمَد الذي لا يحصر العدد مساحته، وقد تقدّمها إلى محل المحاكمة، وجثا قبلها في موقف المخاصمة، ورفع الظلامة إلى من لايجوز عليه ولا منه الأحكام الظالمة، وأسمع داعي الرحيل شفاها، ونأت به الدار وشطت نواها، ووضعت الآمال من يده عصا سراها، واستردّت الأيام مافرقته في جملة، وأشرفت به على مورد يطول بوارده النهلة، وحسن الظن بالله تعالى، قد وطأ تحت جنبه مهادا، وآنَسَه عند النزول بلحدِهِ فرادى، وماسوى ذلك، فمتى أخذ ضيف /١١٦/ الكريم زادا، والحمد لله الذي نقل عبده من دار فناءٍ إلى دار بقاء، ومن محلٍ حجية إلى محلّ لقاء، ومن الاقامة مع مسيء يخاف جوانبه، إلى القدوم على محسن تُرجى مواهبُهُ، وقد كان حكم القضاء سبق، وسهم القدر مَرَق، بتلك الهنات التي نال فيها ونيلَ منهُ، والأغراض التي حامتْ عنها وحُمِيَتْ عنه، والدهر فيها يومان، والحرب بها طعمان، فيوم يكون له متحمّل يكون ظَفَرهُ مشبهاً بالهزيمة، ويوم يكون عليه متحمل فتكون هزيمته مشبهةً بالغنيمة، هذا وقد كانت هذه الحضرة وطاعتها تعصيها، تكثر الجراح، وتناول يدها عنان الجُماح، ويبقى لإيلامها فيه آثار الصفاح، فما مات حتى ماتت حقوقها، واعتلَّ من طول الضراب حديدها، وقد بقى بعد أنْ رأت بعده، وتجاوزت في الحياة حدّه، أمران هما آخر رتبة اللوم، وأقصى غاية الملوم، وهي الشماتة، وتلك خديعة الطبع العاجز، وطليعة الخرق الخانز[1]، وبديعة لا يركبها مَنْ مركبُهُ الجنائز، وما لجرحٍ بميت إيلام[2]، وتلك سبيل لست فيها بأوحد[3]، والأخرى تتبع

---

(١) الخانز: المنتن.

(٢) تضمين لقول المتنبي (ديوانه ص١٦٤): [من الخفيف]

مـن يـهـن يـسـهـل الـهـوان عـلـيـه مـا لـجـرح بـمـيـت إيـلام

(٣) تضمين لقول الوليد بن عبد الملك (التذكرة الحمدونية ٥/ ٣٧): [من الطويل]

تـمـنـى رجـال أن أمـوت وإن أمـت فـتـلـك سـبـيـلٌ لـسـت فـيـهـا بـواحـد

الخَلَف بجناية السلف، وأخذ الوارث بجريرة الموروث، وهذه محافظة في العداوة، ومطاوعة على القساوة، فيها لحكم الله رد ظاهر، وجرأة عليه تعجل عقبى الجائر، وسوء مقدرة لا تبعد أن يغضب لها القادر، واستئناف حرب خاسرها الرابح ومخذولها الظافر، وقد أكثر الناس المدح لحفظ موات الأموات، أو مصافاة أهل العظام والرفات، فأما المكافأة وهم كفاة اللحود، وأما المظاهرة بالعداوة لهم وهم في ضمائر القبور ركود، فما عهد مهده البدعة قائم، ولا على هذه الشرعة هائم، وحوشيت من أن تحشر من بين هذه الأمة أمة وحدها، وتطيع العصبية فتتجاوز سمت المرودة وتتعدى حدها. هذا وقد استفتحت الخطاب ببيت إن لم أَلَمَّ بما أَلَمّ به في معناه، فإنه لا يريد أن يتبعه بما /١١٧/ يشيد مبناه، وهو أنها رأت في صحائف التجارب وتوايخ الأعاجيب: انه قلّ ما تقاوَلَ فحلان، وتَصَاول بَطَلان، إلاّ استويا في الدنيا النصيبين، وكان إلى منهلٍ مِنْ وردهما قريبين، وكان سابقهما طليعة التالي، وأوّلهما مقدمة الثاني. وإذا كان الله قد أفْردها بمدّ طلقْ البقاء، وخلّفها لنظر كيف تعمل فيما أمْتَعَها بهِ مِنَ النعماء، فالاولى ان تحفظ عبدها في أيتامِهِ، وتخْلف عليهم ما غَرِمَهُ في أيامِهِ، وتصون مخلفيه من هتك الاستار، وحطّ الأقدار، وتشفي من لاخلاق له من الأشرار، وتعطيهم بما أطال الله من ذيول أنوائها، وتحتسب بالحسنةِ فيهم مع ماكثر الله من ذخائر ثوابها، ولا يُزعج مخلفوهم بالشكوى إليه في الدار التي ثوى بها، فإنها بحيث تُرفع الظلامة إلى قريب، من مكان قريب، وإن سَمِعَ الميت لم يُجب، فإن الله يسمع ويجيب: [من الطويل]

تقضّى الذي قد كان بالأمس بيننا   واسكتني دهري فهل يسكت الدهرُ

وهو يحلّها من كل ما ارتكبت فيه واطاعته من موارد الأوهام إن حفظت وصية الله تعالى السابقة لوصيته في هؤلاء الأيتام، فأما ان اينَعَتْ القادحة بالقادحة، واشبهت الليلة بالبارحة، فالحساب يبقى عليها مدّة بقائها بعده، ويفضل عندها مالا يجد فضلُه عنده، لا نقطاع عمله، واتصال عَمَلِها، واغضاء طوله وامتداد طولها، وعند الله تجتمع الخصوم، ويضرب على يَدِ الظلوم، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1].

وأما نثره، فمنه قوله:

وقد كان يقال الذهب الإبريز لا تدخل عليه آفة، وإن يد الدهر البخيلة عنه كافّة،

---

(١) سورة ص: ٦٧ -٦٨.

وأنتم يا بني أيّوب أيديكم آفة لاتقايس الأموال، كما أن سيوفكم آفة تقوس الابطال، فلو ملكتم الدهر لأمطيتم لياليه أداهم، وقلدتم أيامه صوارم، ووهبتم شموسه /١١٨/ وبدوره دنانير ودراهم، وأوقاتكم أعراس، وكان بما تم فيها على الأموال مآتم، والجود خاتم في أيديكم، ونقش حاتم في نقش ذلك الخاتم.

ومنه قوله:

أَدام الله أيام الديوان العزيز ممهّدة لمن رضيت عنه درجات الجنة، منتشرةً على مَنْ سَخِطَتْ عليه كواكب الأسنّة، مغرقة لمن يغرق في طاعتها بحار الأعنّة، منشرة النفس المتطامنة لولائها بانها النفس المطمئنة، وأسبغَ نعمه فإن النعم في ضمنها، وملأ الآمال بمنّها، وأفاض أنوارها التي قد علم قرن الشمس أنه غير قرنها، وأمضى سيوفها التي تعرب فيغرق ضمير النصر في لحنها. وأعلى آراءها التي تلقى العداة بدرع يقينها، وتلقى الغيوب بسهم ظنّها، ولا بَرِحَتْ رايتُها سويداوات قلوب العساكر، واضحة الدعاء المحلّق في أُفُقِ المنابر.

ومنه قوله:

سِرْنا وروضة السماء فيها من الزهر زَهَر، ومِنَ المجرّة نهر، والليل كالبنفسج تخلَّلَهُ من النجوم أقاح، أو كالريح شمَلَهُ من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب، لا معرّس لها دون الصباح، وسهيل كالظمآن، تدلّى إلى الأرض ليشرب، أو الكريم أَنِفَ من المقام بدار الهوان فتغرّب، فكأنه قَبَسٌ تتلاعب به الرياح، أو زينة قدّمها بين يدي الصباح، أوْ ناظر يغمضُهُ الغيط ويفتحه، أو مغنى يغمصه الحسن ثم يشرحه، أو صديق لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيب على المواكب مواظب، أو فارس يحمل على الأعقاب، أو داعٍ به إليه وقد شردت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب، والشجرة المنوّرة، أو الحِبَر المصوّرة، والثريا قد همّ عنقودها ان يتدلّى، وجيش الليل قد همّ أن يتولّى.

ومنه قوله:

وأما النيل فقد ملأ البقاع، وانتقل من الاصبع إلى الذراع، فكأنما غار على الأرض فغطاها، وأغار عليها فاستقعدها وماتخطاها، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه /١١٩/ ولا مرغوب مرهوب إلاّ إياه.

ومنه قولُهُ في جواب كتاب بعثه العماد الكاتب في ورقِ أحمر، فقطعت العرب الطريق على حامِلِهِ، وأخذوه ثم أعادُوه:

ووصل منها كتاب تأخّر جوابُه؛ لأن العرب قطعوا طريقه، وعقوا عقيقه ثم

أعادوه وما استطاعت أيديهم أن تقبض جمرهِ، ولا ألبابهم أن تسيغ خمره، ولا سيوفهم أن تكنس يتيمته، ولا عراضهم أن تأخذ لطيمته، فقطف وردَهُ من شوك أيديهم، وحيا حياه الذي جلّ عن واديهم، وحضر منه حاضر الفضل الذي ماكان الله ليعذّبه بالغرية في بواديهم، وتشرف منه بعقيلة الأنس التي ماكان الله ليمنحها بقتل واديهم، وسألته: بأي ذنب قتلت؟، وأي شفاعة فيك قُبلت؟، فقال: عرفت الأعراب بضاعتها من الفصاحة، وتناجدت أهل نجدٍ فكلٌّ صاح ياصباحه وقالوا: هذه حقائقنا السحريّة. وهذه حقائبنا الشحرية، وهذه عقائدنا السرية محمولة، وهذه مواريث قيسنا وقسّنا المأمولة، فقيل لهم: إن الفصاحة تنتقل عن الأنساب، وإن العلم يناله فرسان فارس ولو كان في السحاب[1]، فدعوا عنكم ثمراً عُلّق في شجراتِهِ، واتركوا نهباً صحيح في حجراتِهِ[2]، وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ثم لَمَمتهُ على الشعث، وأحللت به بعد الأحرام، فاستباح الطّيب وحاشاه من الرفث،

ومنهُ قولُهُ:

والأسْرُ ذلّ مابَعْدَهُ عزّة، وأثر السلسلة يمنع معاطف الهزّة، والملسوع يفزع من الحبل، والجريح يعلم أن الجرح باب القتل.

ومنه قوله:

وقد طيّب لمالكه الحياة في إنعامه، وهوّن عليهم الممات لثقة كل منهم باهتمامه بأيتامه فالوارث يرث من أبيه النسب، ومن كرم ملأنا النشب.

ومنه قولُهُ:

وبورت رماح نصلها الطعن، فكأنها غصون قطعت ازهارها، ويغادر غدران الدماء، فكأنها رياض عطفت أنهارها.

وقولهُ من رسالة يصف آمد[3]:

وآمد ذكرها من العالم متعالم وطالما /١٢٠/ صادم جانبها من تقادم، فرجع عنها مقروعاً أنْفهُ، وإن كان فحلأه وفرّ عنها فريداً بهمه وإن استصحب خيلاً ورجلاً، ورأى حجرها فقدّر أنه لايفك له حجر، وسوادَها فظنّ أنه لا يَفسَخُهُ فجر، وحميّة

---

(١) إشارة لحديث رسول الله ﷺ: لو كان الدين معلقاً بالثريا، لناله رجال من فارس.

(٢) إشارة لقول الشاعر:

ودع عنك نهباً صيح في حجراته ... ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

(٣) آمد قصبة ديار بكر وأعظم مدنها (معجم البلدان ـ آمد) والنص في الروضتين ٣/ ١٥١.

انف أنفتها فاعتقد أنه لا يستجيب لزجْر، من ملوك كلّهم قد طوى صدره على الغليل إلى موردها، ووقف وقفة المحبّ السائل، فلم يفز بما أمّل من سؤال معهدها.

وله من أخرى يَصفها:

وهي العقيلة التي صَدَرَ الصدْرُ الأول محلاً عن وردِها، والخريدة التي حصل منها على راحة يأسه وتعب طردها، والمحجّبة التي كشفت ستورها، ودارت لعصمتها كسوار معصمها سورها، وغَلَتْ على أنها السوداء على خطابها؛ لأن المهج مهورُها، ولربّما نأى بجانبها الإعراض، ونبا عن جوهرها الأعراض، وطاشت دون أوصافها سهام الأغراض، ودرجَتْ الملوك على حسرتها فلم تحس لها لثاما، ولا استطاعت لثغرها ثلماً ولا له التثاما.

وله من أخرى يصف قلعة نجم[1] وهي من عيون الرسائل منها:

هي نجم في سحاب، وعُقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة، عاقدة حبوةً صالحها الدهر ان لا يحلّها بفزعةٍ، نادبة عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعة، بها عقارب منجنيقات لم تطبع بطبع حمص في العقارب، وضربتها بحجارةٍ أظهرت فيها العداوة المعلومة في الأقارب، فلم يكن غير ثلاثة إلاّ وقد أثرت فيها الحجارة جدرياً بضربها، ولم تصل إلى السابعة إلا والنَّجران مؤذن بنقبها، فاتسع الخرق على الراقع، وسقط سعده عن الطالع، إلى مولد مَنْ هو إليها طالع، وفتحت الأبراج ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾[2].

ومنه قوله:

ومن اعتقل خصماً فقد ملك قياده، وأمِنَ شراره، وصار تحت ختمه، وحبس جسمه في حصنهِ، وقلبه في جسمه، وإذا كان الله قد أعطانا البلاد، وهي آلة / ١٢١/ المقيم، وأعطاهم المراكب وهي آلة الظاعن الهارب، فقد علمنا لمن عقبى الدار، وقد نَقَلَهَم الله نقل قوم نوح من الماء إلى النار، وقد وُرِيت بمولانا للاسلام زناد، وذاك الزناد هو السيف القاضب [و] المستطير من شرره هو دفع الدم الساكب.

ومنه قوله:

---

(١) قلعة نجم: قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل، وتحتها ربض عامر، وعندها جسر يعرف بجسر منبج (معجم البلدان ـ قلعة نجم).

(٢) سورة النبأ: ١٩ـ٢٠.

وعرف المملوك مايكابده مولانا، وكلٌّ بعين الله، وماتغلو الجنة بثمن ومَنْ عرف مايطلب هان عليه مايبذل، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ (١) «الغمرات ثم ينجلينا(٢)، فإنك نصل والشدائد للنصل، وكلما اشتد الخناق قوي اليقين، إن الله ربك يعظم موضع الفرح [من الكامل]

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أدراك كيف نعيمُها(٣)

لا زعزعتك الخطوب ياجبلُ، كل ما يمر بمولانا من المغايظ، ومن تثاقل الأولياء يتحمله ويحمله الله، ويعلم أن الطباع البشرية يستولي عليها الضجر، ويعلم أن الذي يطلبه من الناس أعظم من الذي يدفعه إليهم، فإنّه يعطيهم الأموال ويطلب منهم الأرواح، ولا بد من تلطّف الترفيه فيمن يستنزل عن نفسه، وأين من يجود بها إلا قليل ماهم: [من الوافر]

وقد كانوا إذا عُدّوا قليلا فقد صاروا أقلَّ من القليلِ

ومنه قولُهُ:

فسبحان من جعل آراءه في الظلمات مصابيح، وفي المشكلات مفاتيح، ويده إذا امتطت الأقلام بارت الغمام، وإذا اتشحت بالأعنّة بارت الريح، وباب مولانا ميدان العلا، ومجلسه معرض الحلى، وترابه غرر وجوه السادة الألى.

ومن أخرى في فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى، منها(٤):

وأتينا المدينة من جانب، فإذا هو أوْديةٌ عميقة، ولججٌ وعرةٌ غميقة، وسور قد انعطف عطفة السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عُقر الدار، وقدّم المنجنيقات التي تتولّى عقاب الحصون، عصيتها وحبالها، وأوْتر لهم قسيّها التي تضرب ولا تفارقها سهامها ولا نصالها، فصافحت السور، فإذا سهامها في ثنايا شرفاتها سواك، وقد /١٢٢/ قدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد أخلاده إلى الأرض، ويعلو علوّه إلى السماك، فشجَّ مرابع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها، ورفع منار عجاجها، وأسفر النقاب عن الخراب النقّاب، وأعاد الحجر إلى حلقته

---

(١) سورة آل عمران: ١٣١.

(٢) رجز للأغلب العجلي (مجمع الأمثال ٢/ ٥٨) وتمثل به مالك بن الحارث الإشتر (رض) يوم صفين. انظر: مجموع شعره.

(٣) البيت لأبي تمام (ديوانه ٣/ ٢٧٣).

(٤) وفيات الأعيان ٧/ ١٨٤ والروضتين ٣/ ٣٥٩ وصبح الأعشى ٦/ ٥٠١ و ٨/ ٢٨٦ وشفاء القلوب ص١٤٦.

الأولى من التراب، ومضغ سرد حجارتِهِ بأنياب مِعْوَلِهِ، واظهر في صناعته الكثيفة ما يدلّ على لطافةِ أنملِهِ، وأَسْمَعَ الصخرة الشريفة أنينه، إلى أن كادت ترقُّ لمقتلِهِ.

وله أيضاً من أخرى:

فنصبنا عليها المنجنيقات تمطر سماها نبال الوبال، وتملأ أرضها بالنكاية والنكال، وتهدّ بساريات حجارتها راسيات الجبال، وتنزل نوازل الأسواء بالأسوار، وتوسع مجال الدوائر في الديار، وتخطف بخطافاتها أعمار الأغمار، وتطير حَمامها بكتب الحِمام، وتديم إغراء سهامها في أهلها بتوفير سهام، وكشف النقّابون السُّور المحجوب، فتهدّم بنيانهُ، وتداعت أركانهُ، بتظاهر المنجنيقات عليها والنقوب.

ومنه قولُهُ:

في ليلٍ كموج البحر، له أنجم كحبب النهر، قد حشر الهموم وحشدها، وهدى ضوالّها للقلوب وأنشدها، فأقول له لما تمطّى بِصلبِهِ[1] قطع الله صُلْبَك. ومتى أرى عمود الصباح قد عجّل الله عليه صَلْبَك.

ومنه قولُهُ:

ولنا من الجيران من يجور، ونظن أنه إلى الله لن يحور، ويصدق وعد الشيطان وما يعده الشيطان إلا الغرور، ويصد عنه كلّ عظيمة المورد، ويجهل أن الله عليم بذات الصدور، ويظن أنه يرث الأرض، وينسى ما كتب الله في الزبور، وينشد ضالّة الولاية بجيشه وبيته، وما يقبل بيت مكسور، ولا يضمن النصر جيش مكسور.

ومنه قوله:

والمسئول أخذ دستورا لمملوكه في هذه السنة، فقد جفا بيت الله جفوة طويلة، واشتاق إلى زورةٍ وتمامُها أن يكون المولى فيها الوسيلة، وقد تحقق أن المولى يُلَبّيه ولا يحرمه، فكاد يُلبّى ويحرم، ولولا أن ذكره /١٢٣/ وذكر والدِهِ كمس المسك، لكان على هذا العزم يتمم ويحزم، وما ينقطع مرافق خدمِهِ، ولا منافع لسانه وقَلَمِهِ عن الدولة الناصرية، فقد كان حجّ فحشد جيوش الليل، وفوّقوا سهام الأسحار، وأعانوا في تلك السنة سلطان الدنيا وجنود النهار، وما يدّعي المملوك في الدعاء رتبة المجاب، ولكن في الحشد رتبة السمسار.

ومنه قولُهُ:

---

(١) تضمين لقول امرىء القيس: [من الطويل]

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازاً وناء بكلكلِ

فوضعتُ يداً فيه وقدماً على النجم، ورشفته على حرّ الوجد بارد الظّلْم، وصَرَفْتُ به عن الخاطر كلَّ همّ، فما باشره بعده ولا هَمّ

ومنه قوله:

وأما خلعةِ الكرى على العشاق[١]، فهي عوائد سماحِهِ، ومَنْ أشرق كإشراقهِ فما يكون أبداً في ليلهِ، إنما يكون في صباحِهِ، فما ضرّه أن يهبَ مالا تدعو إليه حاجة، وأنْ يَخْلَع ديباجة كراه كما يخلع ديباجه.

ومنه قوله:

وهمّ بأن يأخذ من كلام سيدنا في كتابهِ، فيعيد إليه حلاله، فإنه ماوجَدَ لفضله أوْصَف من وصفهِ، ولا أكشف لبراعيةِ من كشفهِ، ثم استحيا من ريبةٍ يسوّد لها وجوه الأقلام، وأشْفَقَ أن يأكل أموال الناس بالباطل ويُدْلي بها إلى الحكام[٢].

ووصف أيضاً المنجنيق من رسالة فقال:

فسلَّمت كأنها بنان، ونَضْنَضَتْ كأنها لسان، واضاءت كأنها مارج من نار، واهتزّت كأنها جان، وتقوّمت كأنها سنان، وانعطفت كأنها عنان، وأقْدَمَتْ كأنها شجاع، وأحْجَمَتْ كأنها جبان، وَرَمَتْ روؤسهم الموفّرة من أحجارها بأمثال الروؤس المحلّقة، فأعادتهم إلى الخلقة الأولى مخلّقةً وغير مخلّقة.

ومنه قوله:

وكأن الثريا لجام مفضّض في أدْهم الليل، أو غثاء حمله داهِمُ السيل، أو جيْب جود زرة اللباس، أو كف تفصل الأُفق على الليل بقياس.

ومنه قولُهُ:

أطال الله بقاء المجلس إلى أن يقضي للكفر أعمارا، ويملك منهم رقابا وديارا، ولا يذر على الأرض منهم ديارا، ولا يصلوا أن يضلّوا العباد، ولا يبلغوا أن يلدوا فاجراً كفّارا، وإلى أن يغرقهم من دمائهم /١٢٤/ في طوفان، وإلى أن يعرضهم على الجدوع فيكونوا عنده صلبان كالصلبان.

ومنه قولُهُ:

خدمة المملوك واصلة من يد الشريف فلان، وهذا الشريف قد زكى نسبه بأعمال

---

(١) تضمين لقول الشريف الرضي: [من الخفيف]

وخـذِ الـنـومَ مـن جـفـونـي فـإنـي ... قـد خـلـعـتُ الـكـرى عـلـى الـعـشـاقِ

(٢) تضمين لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

صالحة، وعمله بسيرة ناصحة، وله عائلة هي وإن كانت غلاً، فقد فَسَحَتْ خُطاه في الانتجاع، وبهِ فاقة هو وإن كان في ضائقتها فقد بعثه في الأرض على الاتساع، ولما قلب طرفَهُ في سماء القصد، هدى إلى قبلة مولانا التي يرضاها كل متوجه، وإلى هدف المدائح الذي تسدُر إليه سهام كلّ ألْكنٍ ومفوّه، فإن رأى مولانا أن يشفع فيه جدّه شافع البشر، ويلين حظّه فإن حظّه كالحجارة أو أشدَّ قسوةً من الحجر.

ومنه قوله[1]:

وَرَدَ كتاب المجلس، ومرحباً بمقدمِهِ وأهلاً بمنجمه، والسوق تختلف نقود صروفه، وتتنوّع صنوف ضيوفه، فلا بُدَّ أن تنبعض اذا انبضعت المسافات، ولو أنه إلا بمقدار مايدنو اللقاء على الرسول السائر بالكتاب الصادر والخيال الزائر بالحبيب الغادر، والنسيم الخاطر من رسائل الخواطر، ويقرّ به طرف الناظر من الصديق الحاضر، وقفت على هذا الكتاب المشار إليه، وما وقفتُ عنه لساناً شاكراً، ولا صرفت عنه طرفاً ناظراً، وبلغت من ذلك جهدي، وإن كان قاصرا، واستفرغتُ له خاطري وما أعدّه حاضراً، ومما أسرّ به أن يكون في الخدمة السلطانية، أعلاها الله ورفعها ووصلها ولا قطعها، وألّف عليها القلوب وجمعها، واستجاب فيها الادعية وسمعها من يكثر[2] قليلي، ويشفي في تقبيل الأرض غليلي، فإنّ تقبيل سيدنا كتقبيلي فلو شرب صديق وأنا عطشان لأرواني، ولو استضاء بلمعةٍ في الشرق وأنا في الغرب لأراني، كما أن الصديق إذا مسّته نعمة وجَبَ عنها شكري، وإذا وصلت إليه يدُ مُنْعِمٍ وصلتني، وتَغَلْغَلَتْ إليّ ولو كنت في قبري.

ومنها[3]:

وأعود إلى جواب الكتاب: الأخبار /١٢٥/ لا تزال غامضة إلى أن نشرحها، ومقفلةً إلى أنْ نفتحها، بخلاف حال خادمها مع الناس، فإن القلوب لا تزال سالمة إلى أن تجرحها، والهموم خفيفة إلى أن ترجحها، وفي الخواطر في هذا الوقت أُمورٌ موجودة نجعلها في العدم، ونخرجها من الألم إلى اللمم، ويعادي بين الأسماع والألسنة، وبين العيون والقلم، والقلوب بيد الله سبحانه، وعليه بالاستجارة والاستخارة، فتلك تجارة رابحة، وكل تجارة لاتخلو من خسارة، والله تعالى يجمع كلمة المسلمين على يد سلطاننا ولا يخلينا منه ومن بنيه حلي زماننا، وسيوف أيماننا

(١) نهاية الأرب ٨/ ٢ وفي أنه كتبها إلى أمير حلب.
(٢) في الأصل: تكثير. (٣) نهاية الأرب ٨/ ٣.

ويُسعدنا من أكابرهم بتيجان رؤوسنا، ومن أصاغرهم بخواتم أيماننا، ولقد تفرّغت العزمة الفلانية لهذا الكتاب[1]، ولو ذكرتُ السلطان بالعدو فيرجم كلْبَه، ويكفّ غربَه، ويذيقه وبالَ أمْرِهِ. ويطفي شرار شرّه، ويعجّل له عاقبةَ خُسْرِهِ، فقد غاظ المسلمين وغضّهم، وقتل جموعهم وفضّهم، ولو جعل السلطان عزّ نصرُه غزوَ هذا الطاغية مغزاه، وبلاده مستقرّ عسكره ومثواه، لأخذ الله الكافر بطغواه، كما أَخَذَ ثمود بطغواه، ولأبقى ذكرا.

وقولُهُ[2]:

وللمودّة عينٌ لا يكحلها إذا رَمَدَتْ إلا إثمد مداد الصديق، ومافي الصبر سعة لصحبة أيام العقوق بعد صحبة أيام العقيق، وقد بلغني أن ولد المذكور خدم في المجلس السلطاني، وسررت بأن يجتمع في خدمته الأعقاب والذراري، وتطلع في أُفقه الأقمار والدراري، والله تعالى يحفظ علينا تلك الخدمة جميعاً، ولا يَعْدِمُنا من يدِهِ سحاباً، ومن جنانِهِ ربيعاً، وللمودات مقرٌّ ما هو إلا الالسنة، والقلوب قضاة لاتحتاج إلى بيّنة.

ومنه قوله يذكر كتابا جاءه في ورق أخضر:

ولما تناولْتُه في الحِلّة، مخضرا بسريرة السراء، قلت الله أكبر، من كان خاطِرهُ غيثاً روّض ،وفاض فأعشب فذهب ففضض، وماشككت أني دخلتُ الجنّة لما فاض من أنهارها، وأفيض من سندسها، أو طلعت إلى سماء الدنيا /١٢٦/ لما ملأ سمعي وعيني من شهبها وحرسها، ولا أنني قد جاءتني رسالة الروض الأرج. لما فغمني من نفيس نفسها، فقلت لصحيفة: ماهذه اللبسة الغريبة، والحلية الحبيبة، والورقة التي هزّت عطفي في ورق الشبيبة بعد رداء المشيب، والريحانة التي لايدعيها عذار حبيب؟ فقالت: [من المتقارب]

شــقــقْــنــا مَــرائــرَ قــومٍ[بــه] فــنــحــنُ نــسـمّــيــه شــقَّ الــمــرارهْ[3]

ومنه قولُهُ:

وكيفما حلَّ أهلُ هذا البيت، فهم في كل بيت صدوره، وفي كل مطلعٍ نجومه وبدوره، لاتذلل أنوارهم بإشارة الأصابع، ولا تُبتَذل أقدارهم في مصونات المَجامع، كأن الأرض بهم سماء فأنهم طوالعها، وكأن الدنيا بهم رياض ، فإن أوجههم دهرها وأيديهم مشارعها.

---

(١) في نهاية الأرب: لهذا الكلب.

(٢) نهاية الأرب ٨/ ٤.

(٣) البيت للصنوبري في ديوانه ٧٨.

ومنه قولُهُ:

وقد أثمر هذا القلم أكرم الثمر وهو يابس، وأبرَّ جوداً على أخضر المغارس، وأتى أُكُله كلّ حين وكلّ وقت، وطال وإن كان القصير، فقصر عنه كل نَعْتٍ. وَوَصَلَ كتابُهُ فأكرِم به مِنْ ساقٍ وحبيب، وَخَلَوْتُ به وليس علينا ولا بيننا من الأنام رقيب، وقَبَّلْتُ منه خدّاً بل يداً، وأجلُّه عن أن يكون نسيباً للنسيب، وهزَزْتُ منه قضيب بان من بياض طِرسِهِ في كثيب، بل هزت منه قضيب بان للعلا يجتنيها بفتكةِ القضيب.

ومنه قولُهُ:

والفترة مسطرة أن ينفخ الروح في صريعها، ويرشّ نور الشمس على وجهِ صديعها، وإلا فانّه مغشيّ عليه، مغشى بليل تحته فقد قرّبَتْ بناتُ نعشٍ إليه.

ومنه قولُهُ:

ومن مستهلّ ذي الحجة ما استهلّ من يده كتاب، ولا استقلّ من تلقاء جهته سحاب، ولعلّ قلمه في الميقات قد أُحرم، فلم يمسّ الطيب من أنفاسه، ومسح المداد عنه لتمام الإحرام بكشف رأسِهِ، والآن فقد انقضت الأيام المعلومة، فهلاّ قضى عنا الأيام التي تمادت فيها شقوة العيون المحرومة.

ومنه:

وعليه السلام الطيّب الذي لو مرّ بالبهيم لأشْرق، أو بالهشيم لأورق، وكتبها الكريمة إن تأخرت /١٢٧/ فمأمولة، وإنَ وصَلَتْ فمقبولة، وإن أنبأت بسارٍ فمشهورة، وإن انبأت بسير فمشورة.

ومنه قوله:

وأما ماذكره من القرض فلم يزل القرض للذرية الأيوبية ـ أعاذها الله من الإنقراض ـ ميسم كرمِها، وعنوان علوّ هِممها، فبيوت أموالهم في بيوت رجالهم، وعقد أيامهم في قلوب خدّامهم، والكنوز التي جعلها الماضون سبائك في التراب جعلها ملوكنا قلائد في الرقاب، فهم يتحملون بالقرض ويفتخرون، وإذا ادخرت الملوك في أيدي أنْفسهم مالاً، فهؤلاء في أيدينا يدّخرون.

ومنه قولُهُ:

وصل كتاب الحضرة، وَصَلَ اللهُ أيّامها بحميد العواقب وبلوغ المآرب، وصحبتُ الدهر على خير ماصحبه صاحب، وأنْهضنا بواجب طاعته فإنه بالحقيقة الواجب، وكل واجب غيره ليس بواجب من يد فلان، ورجوتُ أن يكون طليعة إلى الاقتراب،

ومبشِّراً بالإياب، ومخبراً بعودها الذي هو كعود الشباب لو كان يعود الشباب، وعرفت الأحوال جملةً من كتابها، وكلّها تشهد بتوفيق سلطانها وبأيامها التي تعود بمشيئته باصلاح شأنه وشانها، والذي مدّه ظلاً يمدّه فضلاً، فالفضل الذي في يديه في يد خَلْقِ الله، الذي أحالهم بالرزق عليه، فكيفما دعونا له [دعونا][1] لانفسنا، وكيفما كانت اسنّة رماحه فهي نجوم حرسنا، فلا عُدِمَتْ أيامه التي هي أيام أعْيادنا، ولا لياليهِ التي هي ليالي عرسنا.

ومنه قوله:

وهذا أُفقٌ لا مطار فيه إلاّ للعقاب وابنهِ، وبحر لا مسبْحَ فيه إلاّ لمن يخرج الدرّ من فيه ويدخل البحر في ردنه، وما عنيت بالبحر ههنا إلاّ يده الكريمة، وأما البحر فلم أعْنِهِ، وأغرقتني في البحار وأنجبتني منها، وعرّفتني وزن خواطر البلغاء، ولولا عروض خاطِرِهِ لم أزِنْها، زاد الله في هذه الأنفاس ، وفديت هذه العقائل التي أيامي بها أعياد ولياليّ أعْراس.

ومنه قوله:

وما يأتيني في المجلس من ذكر /١٢٨/ محدث يسرّ به المحدّث، وخبر يتأثّل به الأنس ويتأثث، إلا استمعته. ولسمعي على قلْبي المنّة، وفتحتُهُ كأنما فُتِحَتْ لي أبواب الجنّة، وتناولته كأنما تناولتُ كتابي بيميني، ورفعتُهُ فكأنما رفع التاج فوق جبيني، وقابلْته بالحمد، فكأنه عرض كاتبه، وقرنته باللثم فكأني ظفرتُ بيد صاحبِهِ.

ومنه قولُهُ:

وأصدرت هذا الكتاب مقصوراً على أجوبة كتبه التي كتبت لي عهدة الشكر، وأباحَتْ في شهر الصيام كؤوسها السُّكر.

ومنه قوله:

وكتبته وشعبان قد وصل إلى أعقابهِ، وقمرُهُ الممحوق قد بعثه رمضان بكتابه، فجمع الله لسيدنا منهما كلّ خيرٍ يستحق جمعه، وأعلى يده التي [ان] سألها الكرم، لم تَرَ منعه.

ومن أجْوبتِهِ[2]:

وَرَدَ على الخادم زاد الله أيام المجلس وأصفاها من الأكدار، وأبقى بها من

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) نهاية الأرب ٧/٨.

تأثيراته أحسن الآثار، وأسمع منه وعنه أطيب الأخبار، وجَعَل التوفيق مقيماً حيث أقام، وسائراً أيْنما سار، كتابُه الكريم الصادر عن القلب السليم، والطبع الكريم، والباطن الذي هو كالظاهر كلاهما المستقيم، ولا تزال الأخبار عندنا محجمة والأحاديث مستعجمة، والظنون مترجحة، والأقوال مسقمة ومصححة، إلى أنْ يرد كتابه فيُحقّ الحقّ ويُبطل الباطل، ويتضّح الحالي، ويفتضح العاطل، ويعرف الفرق مابين تحرير قائل وتحوير فائل، فتدعو له الألسنةُ والقلوب، ويستغفر بحسناته الايام من الذنوب، والشجاعة شجاعتان شجاعةٌ في القلب، وشجاعة في اللسان، وكلاهما لديه مجموع، ومنهُ وعنه مرويٌّ ومسموع، وذخائر الملوك هم الرجال، وآراء الحزماء هي النصال، ومودّات قلوبهم هي الأموال، ومجالس آرائهم هي المعركة الأولى التي ربما أغْنتْ عن معارك القتال، والله تعالى يجدّد للمسلمين به حالاً يَجْمَعهم على جهاد الكفار، ويلهمهم أن يَبْذلوا في سبيله النفس والسيف والدرهم والدينار، ويزيل مافي طريق المصالح من الموانع، ويفطم السيوف عن الدماء الاسلامية /١٢٩/ ويحرّم عليها المراضع، ويجعل للمجلس في ذلك اليد العليا والطريقة المثلى، ويجمع له بين خير الأخرى والأولى، والأحوال ههنا بمصر مع بعد سلطانها، وتمادي غيْبَتِهِ عن سائر شانها، على مالم يشهد مثله في أوْقات السكون، فكيف في أوْقات القلق، وعلى ما يحفظ الله به مَنْ في البلاد من الجموع، ومن في الطرقات من الرفق.

ومنه قوله:

ومن اللطف في كون الحضرة كتبتها عجلة وروجتها مرتجلة، واصدرتها في حالة المتبذّل، ولم تعرها ناظر المتأمّل، وإلا فلو[تأنيت] لأرسلت البوارق والصواعق، وما أصنع؟ وما كل من جاشَتْ بحاره، وقَذَف درّه بحاره أغرق الاخوان في لججه، وأخرس اللهجان بحججه.

ومنه قولُهُ:

وصل كتاب الحضرة، لا زالَتْ رياض ثنائها متفاوِحه، وخطرات الردى دونها متسارحه، والليالي بأنوار سعودها متلألئة، والأيام الجافية عن بقية الفضل منها متجافية، باركَهُ للمجد منها فيه، يتخير إليها المكرمات إذا لم يكن لها فيه، فأنشده ضالة هدى كان لنشدانها مرصدا، ورفع له ناراً موسويةً، سمع عندها الخطاب، وأنِس الخبر، ووَجَدَ الهدى، وكانت نار الغليل بخلاف نار الخليل، فانها لا تقبل ندى الاجفان بأن يكون برداً وسلاما، ولا يزايدها نداها إلا كانت أضرى ماكان ضراما، وتعود إلى ذكر الكتاب الكريم، وسجد لمحرابه وسلّم، وحسب سطوره

مباسم تبسم، ووقف عليه وقوف المحبّ على الربع يكلمّه ولا يتكلم، ويبطل جفنه وكأن جمادى بدمعه وكأن على خدّه المحرّم، والله المسؤول لها في عاقبة حميدة، وبقية من العمر مديدة، فأنها الآن نوح أهل الأدب، وطوفانها العلم الذي في صدرها، ولا غرو أن يبلغ عمره كعمرها، على أنها طالما أقامت الحدّ الدنيا حتى بلغت في حدّها الثمانين، وأدّبت الأيام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السلم من قلمها تأديب المجانين، وما حَمَلَتْ العصا بعد السيف إلا وقد وضعتْ الحرب أوزارها، ولا استقلت / ١٣٠/ بأنه موسى إلاّ بتفجر الخواطر وتضرب أحجارها، وماهي إلا رمح، وكفى بيدها لها سناناً. وماهي إلاّ جواد يحتث السنين خلفها، فتكون أناملها لها عنانا.

ومنه قوله[١]:

ورد كتاب الحضرة السامية، أحْسَنَ اللهُ لها المعونة، ويسَّرَ لها العواقب المأمونة، وأنجدها على حرب الفئة الكافرة الملعونة، يخبر بخروج الخارج من قلعة كذا، وما صرّح به من الخوف الذي ملأ الصدور، والاستحثاث في مسير العسكر المنصور، وكل قضية وردت على القلوب. فَفَزِعَتْ فيها إلى ربّها، فرَجَتْ فُرجةً، وأذكى لها اليقين سُرُجَة، ولم يُشْرِك معه غيره مُسْتعاناً، ولَم تدع معه من خلقِهِ إنساناً، فما الضّيقة[٢] وإن كانت منذرة إلاّ مبشِّرة، والخطة وإن كانت وَعْرةً إلا ميسَّرة، لا جرم أن هذا الكتاب أعقبه وصول خبر نهضة فلان، نصر الله نهضاته. وأدّى عنه مفترضاته واستنهض العساكر وقوبِل العدو الكافر. فَنَفَّس ذلك الخناق، وتماسكت الآماق. وما أحْسَبُ أنَّ الأمر يتمادى مع القوم، بل أقول: لا كرْبَ على الاسلام بعد اليوم، يتوافىٰ بمشيئة الله ولاةُ الأطراف ويَزُول من نفس العدوّ وسمعه ما استشعره من المسلمين من الخلاف، ويجتمعون إن شاء الله على عدوّهم، ويُذهب الله بأهل دينه ما كان من فساد أعدائِهِ في أرْضِهِ وعلوّهم، وقد شمِمنا رائحة طلب الهدنة[٣] بطلب الرسول، وبخبر هلاك ملك اللمان الذي هو بسيف الله مقتول، والموت سيف الله على الرقاب مسلول.

ومنها[٤]:

فأما ما أشار إليه من القلاع التي شحنها، والحصون التي حَصَّنها، والأسلحة

---

(١) نهاية الأرب ٨/٨.

(٢) في الأصل قضية، والتصويب عن نهاية الادب، والضيقة بكسر الضاد: مثل الضيق.

(٣) في نهاية الأرب: رائحة الهدنة. (٤) نهاية الأرب ٨/٩.

التي نقلها إليها، والأقوات التي ملأ بها عيون مقاتليها ويديها، فإن الله يَمُنّ عليه بأن يسّره لهذه الطاعة، ورَزَقهُ لها الاستطاعة، فكم رَزَق الله عبداً رزقاً حَرَمَهُ منه، وفتح عليه باباً من الخير وصرفه عنه[1]، الآن، والله مُلِّك الملك العادل ماله الذي أنْفَقهُ، وأوْدعَهُ لخير مستودع من الذي رزقه، وشتان / ١٣١/ بين الهمم، همّةُ مِلِكٍ ذخر مالَهُ في رؤوس القلاع لتحصين الأموال، وهمّة ملك أوْدَعَ ماله في أيدي المقاتلة لتحصين القلاع: [من الكامل]

يبني الرجالَ وغيرُه يبني القرى شتّان بين مزارعٍ ورجالِ

والحمد لله الذي جعل ماله[2] مَسرَّة، يوم يَرى الذين يكنزون الذهب والفضة المال عليهم حَسْرة. ماأَحسب أحداً من هذه الأمة إن كان عند الله من أهْلِ الشهادات بين يديه، وإن كان كريم الوفادة لديه، إلاّ تلقّاهُ شاكراً لهذا السلطان شاهداً بما يُولي هذه الأمّةَ من الإحسان، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[3] سيحصد الزارعون مازرعوا، والله يزيده توفيقاً إلى توفيقه، ويُلْهم كلَّ مسلم القيام بمفترض برّهِ، ويُعيذه من محذور عقوقِه، وأنا أعلم أنَّ الحضرة تُفرد لي شطراً من زمانها المهمّ، بكتاب لله تكتبه إليّ[4]، وخبر سارّ توردُهُ عليّ، وأنا أُفرد شطراً من زماني لِشُكرها، وأُسرُّ والله لها بتوفيق الله في جميع أمرها، فإن الذاكر لها بالخير كثير، فزاد الله طيب ذكرها.

ومنه قوله:

والمشكو في هذا الوقت وَجَعُ المفاصل وآلامُها وأوْرامُها، فيدي منها في جامعة ورجلي منها في واقعة، وأعضائي كلّها رابتني بعد صحّة، وصارت لما تمَّ عليها من أيدي الراقين والذاكرين كأنها خرزات مسبحة، ولقد سئمتُ تكاليف الحياة وسهلت عليّ تخاويف الوفاة، وحملتُ الأيام على ظهري حمل الخطب، فما يسوى أن تشتعل فيها نار أجَلٍ تكون من الأنفاس المزعجة ذات لَهَبْ، وما أعزبت عليّ الأيام في تهجّمها، ولا جاءتني آيات الكبر في غير موسمها، ومَنْ استضاء بسراج المشيب، مَسَّتْهُ الليالي في ظُلَمِها، فقد صرعتني الأمراض، وصَدَعت عظمي المنهاض، اللهم لا أشكو إلاّ إليك، ولا أسأل إلا أنت، ولا أبثُّ عبادك مابي مِنْ بلائك إلاّ لاستلزم

(١) بعده في نهاية الأرب: لاجرم أنّه وفّى قوماً أجرهم بغير حساب، ووقف قوماً بموقف مناقشة الحساب، الذي المصرف عنه إلى مابعده من العذاب.

(٢) في الأصل: آماله.

(٣) سورة المطففين: ٢٦.

(٤) في نهاية الارب: لكتاب تلقيه إليّ.

إليك الشفعاء، واستدعي منهم الدعاء، فإن دعوتك من حقّها ان ينظف رافعها لها الوعاء، فأما طاحونة /١٣٢/ مدينة الجسد، وهي الاسنان، فبعض السن ظعن مع السنّ وبعضه بقي منه جَذْمٌ غير مُرْجَحنّ. وماكنت أدري مامعنى قيد الحياة إلى أن قيدتني المفاصل بِوَجَعِها، وعلّة النقرس بتسفّلها وبرفعها، وأنا الآن بالحقيقة في ضدّ الحياة إحساساً، ولابس جسم قد كرهته النفس لباساً.

ومنه قوله[١]:

ورد كتاب المجلس السامي، نصر الله عزائمه، وأمْضى في رؤوس الأعداء صوارمَهُ، وشدّ به بنيانَ الإسلام ودعائمَهُ، وٱستردَّ به حقوق الاسلام من الكفر ومظالمه، وخلّف نفقاته في سبيل الله ومغارِمهُ، وجعلها مغانِمَه، وكان العهد به قد تطاول، والقلب في المطالبة ماتساهل، ولمحتُ اشتغاله بالطاعة التي هو فيها، وما كلّ من تشاغَلَ تَشاغل، فهّناه الله بما رزقَه، وتقبّل في سبيل الله ماأنفَقَه، وعافى الجسم الذي أنضاه في جهاد عدوّه وأَخْلَقَه، وقد وُفّق من أتْعَب نفساً في طاعة من خلَقَها، وجِسْماً في طاعة مَنْ خَلَقَه، فهذه الأوقات التي أنتم فيها أعراس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، قال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[٢] وأما[٣] فلان وما يسّره الله له، وهوّنه عليه، من بذلِ نفسِهِ وماله، وصبرِهِ على المشقّات وٱحتماله، وإقدامِهِ في مواقف الحقائق قبلَ رجالِهِ، فتلك نعم الله وتوفيقه الذي ما كلُّ مَنْ طلبه وَصَلَ إليه، وسواد العجاج في تلك المواقف بياض ماسَوَّدتْهُ الذنوبُ من الصحائف ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٤] فما أسْعد تلك الوقفات، وما أعود بالطمأنينة تلك المرجفات[٥]، وقد علم الله سبحانه منّي ما علم من غيري من المسلمين من الدعاء الصالح في الليل إذا يغشى، /١٣٣/ ومن الذكر الجميل لكم في النهار إذا تجلّى، والله تعالى يؤيد لكم إيمانكم وينصركُم وينصر سلطانكم، ويُصلحكم، ويصلح بكم زمانكم، ويشكر هجرتكم التي لم تُؤثروا عليها أهليكم ولا أموالكم ولا أوطانكم، ويعيدُكم إلينا[٦] سالمين سالبِين، غانمين غالبين، إنه على كل شيء قدير.

---

(١) نهاية الارب ٨/ ١٠.
(٢) سورة سبأ: ٣٩.
(٣) في الأصل: وما.
(٤) سورة النساء: ٧٣.
(٥) المرجفات: من الإرجاف، وهو الزلزال.
(٦) في نهاية الارب: إليها.

ومنه قولهُ:

ولا حول ولا قوّة إلا بالله، قول من قعد وراء الاحباب، يودع كل يوم حبيباً، ويَعيش في الدنيا بعدهم غريباً، كأنه النجم طلع عليه الصباح فغابوا، وبقى منتظراً للمغيب، وصبَّحه ماقد علاه من المشيب.

ومنه قوله:

هذا وما تم بحمد الله متجدد، إلاّما تقدم ذكرى له من أمراض الكبر، وأعراض الغِير، وتداعي هذه البنية لرحيل ساكنها، وانزعاج هذه النفس إلى ما يختاره لطف الله من موطنها، فإن السبعين قد جزت عينها وقطعت عقبها، وأسال الله الخيرة في القدوم عليه، واللطف عند الوقوف بين يديه.

ومنه قولُهُ:

وأشكو بعد قلبي جسمي، فقد ضعفت قوته، وقوي ضعفه، ونسجت عليه همومي ثوباً دون الثياب، وشعاراً دون الشعار، من الحرب الذي عادى بيني وبيني وانتقم ييني من جسمي، واستخدمها بحرث أرضه، فإن لم يكن لأرضه عجاج فلي عجيج، وإن لم يكن فيه بذار فلي من الحبّ ثمار، وإن لم يكن لي سنبلة فلي أنملة، وإن لم يكن في كل سنبلة مائة حبّة آكلها، ففي كل أنملة مائة حبّة تأكلني، وقد كنت مسالماً لأعضائي إلا سنّاً أقرعها، فما يخلو زمنٌ من خدماتي أو أصبعاً أعضّها، فما أكثر ما على الظالم الذي يعضّ يديه، فإنا أفرع أعضائي كلّها ثنيات، واعضّ على جوارحي كلّها أنامل، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[1]، والحرب همٌّ للأجسام والهم حربٌ للقلوب، والفكر للقلب حك، والحك للحلم فكر. وبالله يدفع ما لا نطيق يا واهب العمر خلّصه من الكدر.

ومنه قوله[2]:

وصل كتاب الحضرة[3] مبشراً بالحركة الميمونة السلطانية / ١٣٤/ إلى العدوّ خذله الله، ومسير المسلمين نصرهم الله ـ تحت أعلامه أعلاها الله، ومباشرة العدوّ، واستبشار المسلمين بما أسعدهم الله من الجراءةِ عليه، ومن إضمارِ العود إليه، وهذه مقدمةٌ لها ما بعدها، وهي وإن كانت نُصرةً من الله، فما نقنع بها وحدها، فالهمَّةُ

---

(١) سورة الأنعام: ١٧. (٢) نهاية الأرب ٨/ ١١.

(٣) في نهاية الأرب: الحضرة السامية ـ أيّد الله عزمها، وسدّد سهمها، وجعل في الله همّها، ووفر في الخيرات قسمها ـ.

العالية السلطانية للحرب التي تسلب الاجسام رؤوسها، والسيوف حدَّها. فإنّ الجنة غاليةُ الثمن، والخطابُ بالجهاد متوجِّهٌ إلى الملك العادل دون ملوك الأرض، وإلاّ فمن؟ فهذه تشترى بالمشقَّات، كما أن الأخرى ـ أعاذنا الله منها ـ رخيصة الثمن، وتشترى بالشَّهوات.

ومنه قوله:

وقف الخادم على ما شرف به طبعه، وشنف به سمعه، وضيّق بسعته ذرعَهُ، من الخطاب بالعتاب، الذي خفض له الجناح، واستعذب به الجراح، وأسَرَ قلبه في قيد أسًى مستطار لا يراد منه السراح، وقذف به في لهوات ليلٍ لم يودّ ان يبسم فيه ثغر الصباح، وقد علم الله أنه برىء من كل ما يوحب المذام، ويطلق السنة الذام، وانه لمستيقظ في حقوق الخدمة، إلا أن حظه من أهل الكهف بطول المنام.

ومنه قوله:

وأما البرد وكلبه، والهواء وغلبه، فما كتبتها إلاّ واليد ترتعد، والخواطر لا تتعد، والغلام يذهب شبح الفحم بما يلهب، والشوار يبقى منطفئه في خدود الثياب خيلانا، ويمنعني كما يمنعها أن تطرد في قول القلم من الطريق خيلانا.

ومنه قوله:

وأنا الآن إذا دعوت الله سبحانه، بأن يمتعني بسمعي وبصري عنيته، وإذا قلتُ واجعلهما الوارث مني فهو الذي اخترته لذلك وارتضيته، وبالجملة اني مستحسن قول جميل وأنقله إلى أهل الجميل: [من الطويل]

ومـا أحـدثَ الـرأيُ الـمـفَـرقُ بـيـنـنـا سُـلـوًّا ولا طـولُ اجـتـمـاعٍ لَـقَـالـيـا

كذلك صحبة المجلس قد تطاولت، وكلّما ألحّ عليها الصقال لاح جوهرها، وكلّما تكررت عليه الفصول، فصلت آياتُها، وسيّرت سورها.

ومن كتاب كتب به[١] إلى القاضي محيي الدين بن الزكي[٢]:

/ ١٣٥/ بعد أن أصدرتُ هذه الخدمة إلى المجلس ـ لاعُدمت عواطفه وعوارفه، ولطائفه ومعارفه، وأمْتَع الله الأمة عموماً بفضائلِهِ وفواضلِهِ. نفَعَهم بحاضرِهِ كما نفعهم بسلفِهِ الصالح وأوائلِهِ، وعادى اللهُ عدوَّه، ودَلَّ سهامه على مقاتِلِهِ ـ وَرَدَ كتاب منه وما

(١) نهاية الارب: ٨/ ١٢.

(٢) محيي الدين محمد بن علي بن بخيخ بن يحيى أبو النعالي القرشي شهد فتح بيت المقدس مع صلاح الدين وخطب أول جمعة فيه. توفي سنة ٥٩٨هـ. (وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٩ والوافي ٤/ ١٦٩).

بقيتُ أذكر الإغباب فإن سيّدنا يقابله بمثلِهِ، ولا العتاب فإن سيدنا يُساجلِه بما فيض من سَجْلِهِ، ولا ألقي عليه من قولي قولا ثقيلا، ولا أقابل به من قولِهِ قولاً جلياً جليلاً، فقد شبَّ عمرو عن الطوَّق[1]، وشَرُف البُراقُ عن السَّوق، وذلك لعمري ما برح محتنكاً غير أجنبي، والطوق للصبي، وذلك البُراقُ حمًى لا يقدّم إلا للنبيّ، ومع هذا فلا يُقلّص عنّي هذه الوظيفة، واْعتقدها مِن قُرَب الصحيفة، فإنّك تسكن بها قلباً أنت ساكنه، وتَسرّ بها وجهاً أنت على النوى معاينه.

ومنه قولُهُ:

ياسيدنا العماد، صبحك الله بأيمن من فعلك، ولا أعرف فعلا منه أيْمن واحسن من وجهك، ولا أعرف وجهاً منه أحسن: وأحسن وجهٍ في الورى وجَهُ منعم، كيف أنت في هذه الرحمة التي تركتنا رحمة؟ وكيف الخركاه[2] وكيف الخيمة؟ أما نحن ففي خيمةٍ من عنصرنا وهو الطين، وفي خركاه كانا من ضائقتها في عقد التسعين، قد حاصرتنا الأمطار، وقلّ احتفالها بالخنادق المحتفرة، وفعلت بنا ونحن المسلمون مافعلنا بِمَنْ حاصرناه من الكفرة، فليت لنا ولو كمفحص القطاة في السعة والحفوف، وليت لنا جبلاً يعصمنا من أنواع السيول إذا جاءت مهزوزة السيوف، وقد حال الجريض دون القريض، وشغل توقع اللئيم عن توقيع القلَم.

ومنه قولُهُ:

وقد كانت ليلة الخميس بدمشق ليلة مباركة. ما غسل ظلامها إلا السيول لولا الصباح، ولا ابتسم صباحها إلاّ وقد كادت تبتسم عن نبتها الجبال والبطاح.

ومنه قوله:

وقد جار كرم يدِهِ على أموالها، وعلّم الخلائق الاشتطاط في آمالها، فما يأخذ أحدهم البدرة إلا بكسر الخاتم منها، ولا يقبل الخلعة إلاّ وقد عصبت المنشور بعصبها، ولا تركت / ١٣٦/ الجواد إلاّ وهو بالبّر مثقل، وما بالحليّ في وجهه ورجليه أغرُّ محجّل، ولا يقنع بالاقطاع إلا وباطنه قلعة، وظاهرُهُ رستاق، ولا بالمنشور إلا وحاصلُهُ ثمرات واسمه أوراق. فقد فرّ الناس من الصنائع إلاّ إلى اصطناعِهِ، ومِنَ المعايش إلاّ إلى انتجاعِهِ، وهان عليهم أن يكتبوا في قرطاس ويجاوَبوا بأكياس، ووقفوا على التراب، فلحقوا بالسحاب وَغَمَرَ الجودُ كل دينار،

---

(١) مثل جذيمة بن الأبرش في عمرو بن عدي، (جمهرة الأمثال ١/ ٥٤٧).

(٢) الخركاه: كلمة تركية بمعنى الخيمة.

حتى توارى دينار الشمس بالحجاب.

ومنه قولهُ إلى العماد الاصفهاني[١]:

كانت كتب المجلس ـ لا غير اللهُ ما بهِ من نعمِه، ولا قطع منه موادَّ فضلْهِ وكرمه، ولا عدمت الدنيا خَطَّ قَلَمِهِ وخطوَ قدَمِه، وأعاذنا الله بِنعَمِهِ وجودِهِ من شقوة عدمه ـ تأخرتْ وشقَّ عليَّ تأخرُّها، وتغيَّرتْ عليَّ عوائدها. والله يعيذُها[٢] مما يغيِّرها، ثم جاءت كما جاء بيت ابن حجاج[٣]: [من مجزوء الرمل]

غـــابَ ســـاعـــاتٍ وَوافـــا نـــي عـــلـــى مـــاكـــنـــتُ أَعْـــهَـــدْ[٤]

وأجبته ببيت الرضي[٥]: [من المديد]

ومـــتـــى يـــدنـــو الـــنـــوى بـــهـــمَ يـــجـــدوا قـــلـــبـــي كـــمـــا عـــهـــدوا

كتابةٌ لا ينبغي ملكُها إلاّ لخاطرِهِ السليماني، وفيضاً لا يصدر[٦] إلا عن نوح قلمه الطوفاني، أوْجَبَتْ على كلّ بليغ أن يتلو: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[٧] وبالجملة فالواجب على كلّ عاقل أن لا يتعاطى مالم يُعْطَه، وأن يدخل بابَ مجلس سيّدنا ويقول حِطّة، فأمّا مأفاض فيه من سكون الأحوال بتلك البلاغة، فقد كدتُ أَسكَر بها بما استخرجته من المحاسن، التي لو أنّ الزمان الأصمْ يسمع لأَسْمَعَتْهُ، ولو أن الحظَّ الأشم يخضع لأخضعَتْهُ، وبالجملة فإنه لا يسبّ[٨] زمن أبقى من سيدنا نعمه البَقيّة التي مهما وُجدت، فالخير كلُّه موجود، والمجدُ بحفيظته مشهود، وكما تيَسَّرتْ راحة جِسمه فينبغي أن يقتدي به قلبُه في راحته من همِّه. وأعراضُ الدنيا متاعُ المتاعب، وقد رفع الله قدره، وإلاّ فهذه الدنيا وهدَةٌ إليها مصاب المصائب، والحال التي هو الآن عليها عاكفٌ من علم /١٣٧/ يدْرُسُهُ، وأدب يقبسُه، وحريم عقائل يَذُبُّ عنه ويَحرسُه. هي خير الأحوال، فالواجب الشكر لواهبها، والمسرّةُ بالإفضاءِ إلى عواقبها، ومماينقُص بشيءٍ من المقسوم، وإن زاد عند

(١) نهاية الارب ٨/ ١٣.
(٢) في الأصل: يعيذُ.
(٣) ابن حجاج: هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج، الشاعر العباسي، وأكثر شعره في اللهو والسخف والمجون (انظر: يتيمة الدهر ٣/ ٣٠).
(٤) في نهاية الأرب:
غـــاب مـــا غـــاب ووافـــا نـــي عـــلـــى مـــاكـــنـــتُ أعـــهـــد
(٥) ديوان الشريف الرضي ١/ ٣٨٨.
(٦) في نهاية الارب: لا يسند بدل (يصدر).
(٧) سورة البقرة: ٧٨.
(٨) في نهاية الأرب: يُشنأ.

المجلس فليس من حظّه، ولكن من حظّ السائل والمحروم، ولا يسمح المجلس بكتاب من كتبه على يدٍ من الأيدي التي لا تؤدّي، فلا يؤمَن أن تكون أناملُها حروف التعدّي.

ومنه قوله:

وقَدْ تأمَّلْتُ ما تَفَنَّنْتَ في وصفِهِ حين دُعيتَ إلى قتل الأسير، وان القدرة المحيطة بِعُنُقِهِ، والأسر السادّ لسبل القتل وطرقِهِ، أبىٰ لها أنْ تَشْغَل به بالَها، ونص لها أن لا ينبجِسُ بدمه نصالُها، فإن قَتْل الأسير ويداه مغلولة، وحبال اذرعه محبولة، قدرة ما زالت النفوس على استقباحها مجبولة، وما كان يؤمنها أنْ تشخص الأبصار نحوها، وكما نظر في الطروس كانها ينتظر في الطروس محوها، فيكون غيظ الحسام من قلمها حاملا له على أن لا يحدَّ مضاءً، ولا يمضى حداً، وباعثاً له على أن ينثني عن عنق الكافر مرتدّاً، فيورثنا معشر الكتاب عاراً يعدى عرّه، وينهى العلم ما يسوؤه والسيف مايسره، وينفتح بابُ القيلِ والقال، ويحتاج إلى العذر الصدي في نَبْوَةِ السيف الصقيل.

ومنه قوله:

وكان ينتحي لقافية الثاء المثلثة التي خَضَعَتْ لأمره، وسخّرت لفكرِهِ، وخَفضَتْ جناحها، وتركت جِماحَها، ورقّت رقّة الراء، وأعطته القياد الذي منعت من الكتاب والشعراء، وهذا ملك البلاغة السليماني، وهذا القلم سيّد النصر اليماني، وهذا المعجز، وأنا أوّل المؤمنين، وهو السحر البياني، وإن لم يكن السحر المبين، وما تصوّرت أن الثاء تهون هذا الهوان، ولا ينقاد في الكلم إلا أن يكون قلمه العنان، فقد صارت عروساً ونقطها نقوط العرائس، ووجبت جنوبها، فلا جَرَم انه أمثل قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾[1]، وقد صرنا نبدّل السين بغير لثغة، ونقدر على استعمالها بلاغة، وما كنا نقدر على استعمالها إلا بُلْغَة.

ومنه قوله:

وذكر الله /١٣٨/ ذلك العهد بخير ما ذُكرتْ به العهود، ولَعَنَ الله الفرنج المخندقين، وقَتَلَ أصحاب الأخدود، فقد قطعو طرقات المسار، وأطالوا عمر البيكار[2]. وسبكت نار مقاساتهم الدينار، فعجّل الله اعلام الكافر لمن عقبى الدار.

---

(١) سورة الحج: ٢٨.

(٢) البيكار: الحرب، المعركة، أو الحمله، وهي فارسية، (معجم دوزي ٥٠٦/١).

ومنه قوله[١]، وكتب ابن الزكي:

كان كتابي[٢] تقدم إلى المجلس السامي أدام الله نفاذ أمرِهِ وعلوّ قدرِهِ. وراحة سرِّه، ونعمة يُسرِهِ، وأجراه على أفضل ما عوّده، وأسْعَدَ جَدَّه وأصْعَدَهُ، وأحضره أمثال العام المسقبل، وأَشهده، ولا زال يلبس الأيام ويخلعها، ويستقبل الأهلّة ويودِّعها، وهو محروسٌ في دنياه ودينه، مستلئمٌ من نوب الدهر بدرع يقينه[٣]، وأعمالُهُ مقبولة، ودعواته على ظهر الغمام محمولة، والدنيا ترعاه وهو يأبىٰ رَعْيَها[٤]، والآخرة تُدَّخَرُ له وهو يسعى لها سَعْيَها، من أيدي عدّةٍ من المسافرين، ولثقتي بهم ما قيَّدت أسماءهم، ويضيق صدري بتأخير كتب المجلس ماحفظتُ ماجاء منه[٥]، وماكانا إلا دعونا الله سبحانه دعوة الأوّلين ان يباعد بين أسفارنا، وأردنا أن يقطع بيننا وبين أخبارنا، فأجيبت الدعوة. ولا أقول لسابق الشقوة، ولكن للاحق الحُظوة، فإنّ مكابدة الأشواق إلى الأبرار، تَسُوقُ إلى الجنة ولا تسوق إلى النار، وأقسم أنني بالاجتماع به في تلك الدار، أبْهَجُ منّي بالاجتماع به لو أتيح في هذه الدار، فعليه وعليَّ من العمل ما يجمع هنالك سلك الشّمْل، ويصلُ جديد الحبل، فَثَمَّ لا يُلقى العصا إلا من ألْقى هٰهنا[٦] العصيان، وهنالك لا يقرُّ العين إلاّ لمن سهرتْ منه هٰهنا العينان، ولا وجْه يجمع اسمي مع اسمه في هذه الوصيّة، مع علمي بسوء تقصيري، وخوفي من سوء مصيري، ولكن ليزيد سيّدُنا في وظائفِهِ وعوارفِهِ فكلٌّ فعلِهِ تفضّل، من فَضْلِهِ ما يخلصني بقربِهِ[٧]، فانني استحق شافعته لشُفْعَةِ جوار قلبي لقلبه[٨]، والخواطر في هذا الوقت منقبضة، والشواغل لها معترضة، وأيام العُمر في غير ما يفرض من الدنيا للآخرة منقرضة، ومتجدّد نوبة بيروت قد غَمَّت كل /١٣٩/ قلب، وهاجت للمسلين أشواقاً إلى الملك الناصر، وذكراً إنما ينفعه الله به من كلّ ذاكر، وأخذ الناس في الترحّم على أوَّلِ هذا البيت والدعاء للحاضر والآخر. وليس إن شاء الله بآخر[٩].

---

(١) نهاية الارب ٨/ ١٤.

(٢) كان كتابي: ليس في نهاية الارب.

(٣) بعدها في نهاية الارب: كاشفٌ لليل الخطب بنور جبينه، وليوم الجدب بفيض يمينه.

(٤) في نهاية الارب: وهي تأتي برغمِها.

(٥) في نهاية الارب: ماحفطتها.

(٦) في نهاية الأرب: هنا.

(٧) في نهاية الأرب: اخلاصه.

(٨) بعده في نهاية الارب: وهذا معنى مابعث على شغل الكتاب به مع علمي باستقرار نفسه النفيسة، إلا أنه ـ ابقاه الله ـ قد أبعد عهدي من كتبه بما يقع التفاوضُ فيه، والمراجعة عنه.

(٩) بعده في نهاية الأرب: فما ادخر المولى لهذه الحرب مجهودا، ولا فلّلَت عسكراً مجرورا ولا مالا ممدودا: [من الطويل]

ومنه:

وسيدنا يتوصى بالدار بدمشق، فقد خَلَتْ، وإنما الناسُ نفوسُ الديار[1]، وسيُدُنا يُحسن في كل قضيّة من بَعْد، كما أحسن من قَبْل، فهو الذي جَعَل بيني وبين الشام نَسَباً وانشأني فيه إلى أن اّدّخرت عقاراً ونشباً، فعليه أن يرعى ما أقناه، وينفي الشّوك عن طريق اليد إلى جناه، والجار إلى هذا التاريخ ما اندفع جورُه، ولا أُدْرِكَ غورُهُ، يَعِدُ لسانه ما تُخلف يَدُه، ويدّعي يومه بما يكذبه فيه غدُه، وأنا على انتظار عواقب الجائرين، وقد عرف الغيظُ مني، والفاظاً مجهولةً ماكنت اشتهي بأن أعرفها، وكشف مستور من أسباب الحرج مايسرّني أن اكشفها ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾[2]، وأسوأُ خلقاً من السيء الخلق مَنْ أحْوجَه إلى سوء الخلُق، وماذكرت هذا ليذكر، ولا طويتُ عليه الكتاب لينشر، والسرّ عند سيّدنا ميّت، وهو يقضي حقّه بأن يقبر.

ومنه قوله:

ولما تأمّلْت الكتاب الأزرق، طاعنت به الخواطر التي كنت صريع طعانها، وعقير أقرانها، وممّادَلّني على الصحة نشاط الخاطر العمادي لقافية العين التي اطردت له متونها، وتفتحت لقلمه عيونها، واقتضى الدعاء بأن يقرّ الله العين في يده، كما أجراها على لسانِهِ، فتجتمع له البلاغة والغنى، ويتوفر الاولي عليه، وتكون الثانية قسمة مابيننا.

ومنه قوله:

والكتب من جهتها مرتقبة لِذاتها، لا لما فيها منا طارئات الأحوال ومتجدّداتها، ويكفي خبر صحته من الأخبار، فلينعم الماء بإطفاء النار.

ومنه قوله:

ووافى في الأسطول الميمون في خمسين غراباً[3]، طائراً من القلوع، بأجنحته، كاسراً بمخالب اسلحتِهِ، فما وافى شملاً إلاّ دعاه إلى الحَين، وحقق ما يُعزى إلى الغراب من البين.

فإنْ كان ذنبي أن احسنَ مطلبي اساةً ففي سوءِ القضاءِ لي العذرُ

(١) بعده في نهاية الأرب: وانا أعلم أن سيدنا في هذا الوقت مشدود الخاطر من الوصايا، ومشغول اللسان بتنفيذ ماينفذه مما هو منتصب له من القضايا، فما في وقته فضلةٌ ولكن فضل.

(٢) سورة النساء: ١٤٨. (٣) الغراب: نوع من السفن الحربية.

وقوله:

وكتبت هذه الخدمة ليلاً /١٤٠/ والخاطر كالناظر، كلاهما مشتمل بالظلام شعاراً ودثاراً، والخطرات كالأنجم في ليلة الأسى، إن رامت الطريق فحيارى، أو رامت السير فأسارى.

ومنه قوله:

إلى أنْ طوى الليل ملاءته، ومدّ عليهم الليل كلاءته، فإنه دعيُّ مأمَنه، وبينهم من مناسبة صحائفهم لسواده؛ ولأن الليل يُدعى كافراً فقد خبأهم في فؤاده، وخاف العدوّ تصريف العنان، فكأنما في يدِهِ منه صلّ لادغ، ورأى السيف وماء الموت يترقرق منه، فروى دلاءً من إناءٍ فارغ.

ومنه قوله:

فأما هذه الدنيا، فأنها دار الأكدار، ومثار العثار، لا تسْمَح بمودّة صاحب إلاّ لتعرف قدر فراقه، ولا تفسح في حبل لقاء خليل، إلا لتجعله عدّةً لخناقه.

ومنه قوله:

فَقُلْتُ لصاحِبَي نجواي: خُذا في عرض محاسنِهِ عليّ، لعليّ آخذ منها فقالا: وما الفائدة إذا عجزت في الصلة عن ان تعيد عيلة الفاظه العائدة؟ فقلت: ليعلم أن كل خير عندي مِنْ عِنْدِه، وأسأله الصفح عن تقصير بلاغتي عن بلوغ حَدِّهِ. وأسره بتقصيري عن مداه، وإن كان هذا عهدي بودّهِ، فقالا: أرسل نفسك على سجيتها، وتعرض لنفحات صديقك، فما يبخل عليك بيلنجوجيتها، فقلت: نعم على تفيهقكما في النسبة، إلى اليلنجوج[1] وعلى كون حروف هجاها أطول من عوج[2].

ومنه قولُهُ[3]:

الخادم يخدم وينهي وصول كتاب كريم، تفجَّرت فيه ينابيع البلاغة، وتبرّعت بالحكم أيدي البراعة، وجاد منه بسماء مزينة بزينة الكواكب، وهطل منه لأوليائه كل صوب، ولأعدائه كل شهاب واصِب، وتجلّى فما الغيد الكواكب، وما العقود في الترائب، وتفرق عنه جيش الهمّ، فانظر ماتفعل الكتب في الكتائب، وما وَرَدَ إلا والقلب إلى موردِهِ شديد الظمأ، وما كحّل به إلا ناظره الذي عشى عن الهدى، وقَرُبَ

---

(١) اليلنجوج: عود البخار.

(٢) عوج بن عنق: شخصية أسطورية يضرب بطولها المثل.

(٣) نهاية الأرب ٨/١٧.

من العمى، وما نار إبراهيم بأعظم من نورِهِ، ولا سروره صلى الله عليه حين نجا بأعظم في يوم وصوله من سروره، فحيّا الله هذه اليد الكريمة التي تنهلُّ بالأنواء، وتحرك سوابغ النعماء، وتعطي أفضل /١٤١/ عطاء، يسرّها في القيمة، وتحوز به أفضل أنواع الكرامة، فأما شوقه لعبدِهِ، فالمولى ابقاهُ الله قد أوتى فصاحة لسان، وسَحَبَ ذيل العي على سحبان، ولو أن للخادم لسان مؤات، وقلب[1] يقال له هيهات، لقال ما عنده، وادّكر عهده ودّه، وباحَ بأشواقِهِ، وأذاع الرمز عند اعتناقه. وأما تفضّله بكدا، فالخادم لا يقوم بشكرِهِ، ولا يبطله حقّ قدره، وقد أحال مكافأة المجلس على مليء قادر، ومسرّة خاطره عليه يوم تبلى السرائر، والله تعالى يصله برزق سني يملأ إناه، ويوضّح له هُداه، ولا يُخلي المجلس من جميل عوائدِهِ، ويمنحه أفضل وأجزل فوائده، إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله[2]:

وفي الحال أطافت المقاتلة من جميع أقطاره، ولبوّا تلبية الحجيج، وكلٌّ من جمرةِ سهمه كرامي جِماره، وعبرت الآجال المسماة سهاماً على قناطر القسيّ المحنيّة، وقَدَحَتْ زنودها البيض شرار جَمْر المنيّة، فصارت الأبرجة بسلاحها، أو كأنها بكثرة ريش السهام طائرة بجناحها، أوْ كأنها صدور أظهرت حسك الضغائن، أو كأنها لازدحام السهام بها كنائن، إلى أن سرى داءُ النقوب إلى المقاتل، ودبّ سكرها بين المفاصل ورتب الجدران قائمة، والبلاء سائر في أعقابها، متجلدة والنار تحت بنائها غرارة بألحاظها، والقبح حشو نقابها، فلما كان وقت الظهر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾[3]، ووقعت القلعة ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾[4]، وتحصّنوا من نار القُضب بنيران الحطب، وقطعوا بين المسلمين وبينهم بطوفان نار، كانت القلعة سفينة إلا أنها لا سفينة نجاة، بل سفينة عَطَب، ومن الفرنج الملاعين من وردها عاجلاً، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[5]، وأقحم نفسه فيها، فأحاطت بعنقِهِ مقاودها، وبات الناس مطيفين بالحصن، والنيران به مطيفة وعليه مشتملة وعذبات ألسنها على وجْهِهِ منسدلة، ومن خَلْفِهِ مسبلة، ولفحاتها جهنمية ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[6]، والبلاء ينادي طبرية بلسان مصابها: إيّاكِ /١٤٢/ أعني واسمعي أنت

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: قلباً.

(٢) الروضتين ٣/ ٤٢ وفيه أن القاضي كتبه بعد فتح حصن بيت الاحزان بفلسطين.

(٣) سورة التوبة: ٤٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١١٨.

(٥) سورة مريم: الآية ٧١.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٤.

يا جارة، فَوَلَجَتْ النار موالج تضيق عنها الفكر، وتعجز عنها الأبر، وقال الكفر: إنها لاحدى الكبر، وخولف المثل في أن السعادة لتلحظ الحجر، وأغنى ضوء نهاره أن يسأل معه هذا وذا ما الخبر؟ إلى أن بدا الصباح، وكأنه امتار منها الأنوار، وانشق الشرق، وكأنه من عصفرها صبغ الإزار، فحينئذ تقدم الخادم فأقلع بيده الأحجار من أسّها، ومحا حروف البنيان من طرسها، وأدار فيها كأس المنون دهاقا، وحَلّ الرؤوس ضربا، وشدَّ الأعناق وثاقاً.

ومنه قولُهُ:

هو شيء مجلس سيدنا، ولا زال من كل مكروه محاشى، ودامت الصحة تنشر لَهُ علماً وتطوي فراشاً، وجَعَلَ الله ليل الدنيا بأمنِهِ لباساً، ونهارها معاشاً، مِنْ مَرَضٍ يمسّه، ومن ألَم يحسُّه، ومِنْ أن يتكدّر من العافية أُنْسُهُ، وحرس الله نفسه على الاسلام فإنّه نفسه.

ومنه قولُهُ:

فلو رأيت أطناب الخيم في أعناق الأسارى يساقون بها مقرنين، لحمدت ﴿الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[1] ، ولقد شابت بخضاب العجاج ما أرسلته رايات الأبرجة من ذوائب مفرقها، وأسلمت وجهها لله، وقطعت ذمار خندقها

ومن مكاتباته: يتشوق إلى اخوانه وأودّائه ومحبيه وأوليائه، ومنه قوله:

فانجدوا المسلمين ياحملة سلاح الصلاح، وابعثوا سرايا دعواتكم، فإننا ننتظر غبّ سراها الصباح، فانتم في وكر قبلتنا، فلتهن أدعيتكم خفّة الجناح.

ومنه قوله:

فلولا سدّ سدّته الكريمة لانفتح على الاسلام ماانفتح من سدّ مأرب، ولولا سيفه لما وجد بعد العصا الكليمية سيف مثلها فيه مأرب، وانتهز فرصة انتهزها في بابه، فما ازدادت الأحوال إلاّ ضائقة، ولا الغدر إلا اتساعاً، والله المستعان.

ومنه قولُهُ:

وقد علم الله خدمتي للبيتين الشريفين، بيت الله بما يعود عليه بالعمارة وبيت النبوة صلوات الله على أهله بما يبقي في عقبه كلمة الامارة.

/١٤٣/ يمنى نفسه ما دونه حزّ النواصي، بل حن الغلاصم، يروم أن يرتضع

---

(١) سورة الزخرف: الآية ١٣.

اخلاف الخلاف، والله له عن آل الفواطم فاطم، فنهض لآل رسول الله كل بعيدٍ وقريب، ونصر لواء حمده حتى الصليب، وقوبلَ عدوّه بعدو وحسم داء ومستغيثٍ عجيب، وحينئذ اندفع شيركوه ميمماً صعيداً طيباً، وكيف لا يتيمم من عدم الماء قاصداً للقبلة، ولن يدار إليها إلا من فارق الدماء.

ومنه قوله:

ووقف المملوك على الأبيات النونية التي فتنته فتونا، وزخرت بحراً فصارت منه قافية النون نوناً، وأشرقت عليه أبياتها أقماراً، صار القمر لحسدها عرجونا.

ومنه قوله:

وحين وقف عليها، وَقَفَ لها، وحين فتحها أرتج أبواب الهموم وأقفلها وتأمَّلَها، ونظر من غرائب الحسنات ما تمَّ بها وما تمَّ لها، فإذا فصلٌ كنعيم أهل الجنّة، كلما نفذ جُدّد، وكنفس أهل الحياة تلذ كلما ردّد، وسيدنا كان لسانه يده في جماح السماح، وكان لسانه في إيراد قرائح الاقتراح كلَّ عذبٍ قراح.

كتب إلى بعضهم[١] : [من الطويل]

أأحبابَنا هل تسمعونَ على النوى ... تحيّةَ عانٍ أوْ شكيَّةَ عاتبِ
ولو حَمَلَتْ رِيحُ الشَّمالِ إليكمُ ... كلاما طلبْنا مثله في الجنائبِ

أصدر العبدُ هذِهِ الخدمة، وعنده شوق يغورُ بِهِ ويُنجد [ويستغيث][٢] من ناره بماء الدمع فيُجيب ويُنْجِد، ويتعلّل بالنسيم فيُغرى نارهُ بالإحراق، ويرفع النواظر إلى السُّلوان فيعيدها الوجد في قبضة الإطراق؛ أسفاً على زمنٍ تصرّم، ولم يُبقِ إلاّ وجداً تضرّم وقلباً من يد البين المُشِتّ تظلم: [من الوافر]

ليالِيَ نحنُ في غَفَلات عَيْشٍ ... كأنَّ الدّهرَ عنّا في وَثاقِ

وما[٣] تنفّس خادِمُهُ نَفَساً إلاّ وَصَلَهُ بذكرِهِ، ولا أجرى كلاماً إلاّ قيدهُ بشكرِهِ، ولا سار بقَفْرٍ إلاّ شبَّهَهُ برحيب صدرِهِ، ولا أَطَلَّ على جَبَلٍ إلا احتقره بعليِّ قَدْرِهِ، ولا مَرَّ بروضةٍ إلاّ خالها تفتّحتْ أزهارُها عن كريم خُلقِهِ ونسيم عطرِهِ.

ولا أوقَدَ المصطلون ناراً إلا ظنهّم اقتبسوها من حجرِهِ، ولا نزل على نهرٍ إلا كاثر دمعه ببحرِهِ[٤]: [من الطويل]

---

(١) نهاية الأرب ١٨/٨ وديوان القاضي ٤٨٢.

(٢) (يستغيث) ليست في الأصل، وهي في النهاية.

(٣) في النهاية: فلا.

(٤) الأبيات في ديوان القاضي ٤٨٨.

/ ١٤٤/ سقى الله تلك الدارَ عودةَ أهلِها ... فذلك أجْرى من سحابٍ وقَطْرِهِ
لئن جَمَعَ الدهر المشتِّتُ شمْلَهُ ... فما بعدها ذنْبٌ يُعَدُّ لدهرِهِ
فكيف ترى أشواقَهُ بعد عامِهِ ... إذا كان هذا شوقُهُ بعد شهْرِهِ
بعيدٌ قريبٌ منكُمْ بضميرِهِ ... يراكم إذا ما لم يزرْكم بفكرِهِ
ترحَّلَ عنكم جِسْمُه دون قلْبِهِ ... وفارقكم في جهرِهِ دون سرِّهِ
إذا ماخَلَتْ منكُم مجالس ودِّهِ ... فَقَدْ عَمَرَتْ منكم مجالس شكرِهِ
فياليل لاتجلب عليهم[1] بظلمةٍ ... وطلعةُ بدر الدين طلعةُ بدْرِهِ

ونسأل الله تعالى أن يمنّ بقربهِ ورِحابُ الآمال فسائح، وركابُ الهموم طلائح، والزمن المناظر بالقرب مسامح، هذا لك تُطْلَق أعِنّةُ الآمال الحوابس، ويهتزُّ مُخْضرّاً من السعود عودٌ يابس[2]: [من الطويل]

وما أنا من أن يجمع الله شملنا ... بأحسنَ ما كنّا عليهِ بآيِسِ

وقد كان الواجب تقديم عتبه، على تأخير كتبه ولكنه خاف أن يجني ذنباً عظيماً، ويؤلم قلباً عليه: [من الطويل]

ولست براضٍ من خليلٍ بنائلٍ ... قليلٍ ولا راضٍ له بقليل

وحاشا جَلاَلَهُ من الإخلال بعهود الوفاء، ومن انحلال عقود الصفاء، وما عهدتُ عزمَهُ القوي في حلبة الشوق إلا من الضعفاء، وحاشية خُلُقِه إلاّ أرقّ من مدامع غرماء الجفاء: [من الكامل]

مَنْ لم يَبِتْ والبيْنُ يصدعُ قلبَهُ ... لَمْ يَدْرِ كيفَ تقلقُلُ الأحشاءِ

ومنه قوله[3]: في مثل ذلك:

كتب مملوكُ المولى[4] عن شوق قدَحَ الدمعَ من الجفون شراراً، وأجرى من سيل الماء ناراً، واستطال واستطار فما توارى أُوارا، ووجد على تذكّر الأيام التي[5] عذبت[6] قِصارا، والليالي التي طالَتْ فكأنما خُلقِت[7] اسحارا[8]: [من االطويل]

وبي غمرةٌ للشوقِ مِنْ بَعْدِ غَمْرَةٍ ... أخوضُ بِهَا مَاءَ الجُفُونِ غِمَارَا

---

(١) في الأصل: عليه.
(٢) ديوان القاضي ٤٩٠.
(٣) نهاية الأرب ٨/ ٢٠.
(٤) بعده في نهاية الأرب: الأجلّ.
(٥) في الأصل: الذي.
(٦) في الأصل: ذهبت، والتصويب عن نهاية الأرب.
(٧) في نهاية الأرب: خلقت جميعها.
(٨) الأبيات في ديوان القاضي ص١١٢.

وَمَا هِيَ إلاّ سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ إذَا هِيَ زَالَتْ لاتَزُولُ خُمَارَا
رَحلْتُم وَصَبْرِي والشَّبَابُ ومَوْطِنِي لَقَدْ رحَلَتْ أَحبَابُنَا تَتبَارَى
وَمَنْ لَمْ تُصَافِحْ عَيْنُهُ نُورَ شَمْسِهِ فَلَيْسَ يَرَى حَتَّىٰ يُراهُ نَهَارَا
سَقَى اللهُ أرض الغُوطَتِين مدامعي وَحسبك سُحْباً قَدْ بعثتُ غَزَارَا
وما خَدَعْتني مصرُ عنْ طيبِ دَارِها ولا عوّضتني بعدَ جَاريَ جَارَا
أدَارَ الصِّبا لا مثل ربعِكِ مَرْبَعٌ أرىٰ غيرَكَ الربعَ الأنيسَ قِفَارَا
فَمَا اعتضتُ أهلاً بعدَ أهلِكِ جِيرةً ولا خِلْتُ دارَ المُلكِ بعدَكِ دارا

وما ضَرَّ اليَدَ الكريمة التي أياديها بيضاء في ظلمات الأيّام، وأفعالُها لا تَقومُ بمدحها إلاّ ألسنة الأسنّةِ والأقلام، لو قامت للمودّةِ بشرطها ومحت[1] خط الأسى بخطِّها، وكتبت ولو شطر سطرٍ فَقرَّعَتْ قلباً من الهمّ مشحوناً، وأطلقتْ طرفاً في فضاء الاقتضاء مَسْجوناً[2]، ونزهتْ ناظر المملوك في رياض منثورة الحُلى، وجَلَتْ غُمومَهُ[3] بمكارم مأثورة العُلا: [من الطويل]

وما كنتُ أرْضى مِنْ عُلاكَ بِذَا الجَفَا ولكنَّهُ مَنْ غَابَ غَابَ نَصيبُهُ
ولو غيرُكُمْ يرمي الفؤادَ بِسَهْمِهِ لما كانَ ممن قدْ أصاب يُصيبُهُ[4]

والمملوك مُذْ حطَّتْ بمصر أثقالُهُ، وجهّز الشامُ رحالَه، وألْقَتْ النوى عصاها، وحلَّت الأوبَةُ عراها، يكتب فلا يُجاب، ويستكشف الهمّ بالجواب فلا ينجاب[5].[من الكامل]

ياغائبا بلقائِهِ وكتابِهِ هلْ يُرتجى مِنْ غيبتِكَ إيابُ

وما[6] يصفي الله ورد الحياة من التكدير، ويتحقّق بلقائِهِ أحسَنُ التقدير ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[7]. [من الخفيف]

وزمانٌ مضى فما عُرِفَ الأوْ لُ إلاّ بما جَناهُ الأخيرُ[8].

---

(١) في الأصل: وأمضت، وهو تحريف.
(٢) في نهاية الأرب: صبراً في يد الكمد مسجونا.
(٣) في النهاية: عهوده.
(٤) بعده في نهاية الأرب وهي له في ديوانه ص٤٨٢:
ومالِيَ فيمن فرق الدهر أسوةٌ كأنَّ محبّاً ماناًهُ حبيبُهُ
(٥) ديوان القاضي ص٤٨٢.
(٦) في نهاية الارب: وفتى.
(٧) سورة الشورى: ٢٩.
(٨) ديوان القاضي ٤٨٩.

أيـن أيّـامُـنـا بـظـلّـك والـشَّـمْـ ـلُ جـمـيـعٌ والـعـيـشُ غـضٌّ نَـضـيـرُ

وحوشي المولى أن يكون عونا على قلبه، وأن يرحل إثره الذي مُذْ سارَ سُرَّ بهِ[1] وأن ينسيه بإغباب الكتب ساعات قربهِ، وأن يُحوجه إلى إطلاق لسانه بما يصون السمع الكريم عَنه من عتْبِهِ. الأخ فلان مخصوصٌ بسلام كما تفتَّحتْ عن الورد كمائمهُ، وكما توضّحت عن الفكر غمائمه. [من الطويل]

إذا سـار فـي تُـرْبٍ تـعـرّف تـربُـهـا بـريّـاه والـتـفَّـتْ عـلـيـه لـطـائـمـهُ[2]

وقد تبع الخلُق الكريم في الاغباب والجفوة، وأعدت عزائمه قلباً فاستويا في الغلظةِ والقسوة. [من مجزوء الكامل]

إن كـنـتَ أَنْـتَ مُـفَـارِقِـي مِـنْ أيْـنَ لِـي فِـي الـنَّـاسِ أُسْـوَه

وَهَبْ أن المولى اشتغل - لا زال شغلُه بمساره، وزمنُهُ مقصور على أوْطارِهِ - فما الذي شَغَلَهُ عن خليلهِ، وأغْفَلَهُ عن تدارك غليله؟. هذا وعلائقهُ تقطّعت، وعوائقُهُ قد ارتَفَعَتْ. وروضةُ هواه قد صارت بعد الغضارة هشيما، وعهودُهُ قَدْ عادت بعد الغضاضةِ رميما: [من الخفيف]

إن عـهـداً لـو تـعـلـمـانِ ذمـيـمـا إن تـنـامـا عـن مـقـلـتـي أو تُـنـيـمـا

وما أوْلى المولى أن يواصل بكتِبه عبده، ويجعل ذكره عقده، ولا يقصيه[3] ويألَف بُعْده. ويستبدل غيره بَعْدَه.

ومنه قوله[4] في ذلك أيضاً: [من مجزوء الخفيف]

أكـــذا كـــلُّ غـــائـــبِ غـــابَ عـــمّـــنْ يـــحـــبُّـــهُ
غـــابَ عَـــنْـــهُ بـــشـــخـــصِـــهِ وســـلا عـــنـــهُ قـــلـــبُـــهُ

لو أنَّ لي يداً تكتب، أوْ لِسانا يُسْهِبُ، أوْ خاطراً يستملّ، أو فؤاداً يستدِل لو صفت إليه شوقاً إن استمسك بالجفون نثر عِقدَها، أو نَزَلَ بالجوانح أسْعَرَ وقْدَها، أوْ تنفّس مشتاقٌ أعانَ على نفسهِ، وظنّه استعارةً من قبسِه. أوْذكر (محبّ)[5] حبيباً خَطَرَ في خَلَدِه، وتفادى مِنْ أن يخطر به ذكر جَلَدِه[6]: [من البسيط]

حـتـى كـأن حـبـيـبـاً قـبـل فُـرْقَـتِـهِ لا عـنْ احـبـتِـهِ يـنـأى ولا بـلـدِهْ

---

(١) في نهاية الأرب: وإن يرحل إثره أي على سربهِ.
(٢) اللطائم: جمع لطيمة، وهي المسك.
(٣) في نهاية الأرب: ولا ينساه.
(٤) نهاية الأرب: ٨/ ٢٢، والبيتان في ديوان القاضي ص٤٨٢.
(٥) عن نهاية الأرب. (٦) ديوان القاضي ٤٨٦.

بـاللهِ لا تـرحـمـوا قـلـبـي وإنْ بَـلَـغـتْ بـهِ الـهـمـومُ فـهـذا مـا جـنـى بـيـدِهْ

ولولا جاؤوه أن أوْقات الفراق سحابةُ صيفٍ تقشعها الرياح، وزيادة طيف / ١٤٧/ يخلعها الصباح، لا ستطار فؤادُه كمداً، ولم يجد ليوم موعدِهِ[1] غدا، ولكنه يتعلّل بميعاد لقياه، ويدافع ما أعَلّه بلعلَّهُ وعساه[2]: [من الطويل]

غـنًـى فـي يـدِ الأحـلامِ لا اسـتـفـيـدُهُ ودَيْـنٌ عـلـى الأيّـامِ لا أتـقـاضـاهُ

ومن غرائب هذه الفُرقة، وعوارض هذه الشّقّة أن مولانا[3] قد بَخِل بكتابهِ. وهو الذي يداوي به أخوه غليل اكتئابهِ، ويستعدي به على طارق الهم إذْ لجّ في انتيابه[4]: [من المنسرح]

كـمـثـل يـعـقـوبَ ضَـلّ يـوسـفُـهُ فـاعـتـاضَ عَـنْـهُ بـشـم أثـوابِـهِ

وهب أن فلاناً عاقَهُ عن الكتب عائق، واختدعَ ناظره كمن هو في ناضرِ عيش رائق، فما الذي عرض لمولاي حتى صار جوهر ودّهِ عَرضا، وجعل قلبي لسهام إعراضه غرضاً. [من البسيط]

بيْ مِنْهُ ما لو بدا بالشمس ما طلَعَتْ مـن الـكـآبـة أو بـالـبـرقِ مـا وَمَـضَـا[5]

وما عهدتُه ـ أدام الله سعادته ـ إلاّ وقد استراحت عواذِلُه، وعُرِّيَ به أفراس الصبا ورواحِلُه. إلا أن يكون قد عاد إلى ذلك اللّجج، ومرِض قلبه وما على المريض من حَرَج، وأي[6] ما كان ففي فؤادي إليه سريرة شوق لا أذيعها ولا أضيعها، ونفسي أسيرة غُلَّةٍ لا أطيقها بل أُطيعها: [من الطويل]

وأنـي لـمـشـتـاقٌ إلـيـكَ وعـاتـبٌ عـلـيـكَ ولـكـنْ عـتـبـةٌ لا أُذيـعُـهـا

الأخ النِّظام ـ أدام الله انتظام السعد ببقائه، وأعداني على الوجدِ بلقائه ـ مخصوصٌ بالتحية الأريحيّة[7]، ووالهفاً على تلك السجيّة السخيّة، وردْتُ منها البابليّ مُعَتّقاً[8]: [من الطويل]

خـلائـقُ إمّـا مـاءُ مُـزْنٍ بـشـهـدِهِ أغـادي بـهـا أوْ مـاءُ كـرمٍ مُـصَـفّـقـا

ومنه قوله:

---

(١) في نهاية الأرب (مسرّته أمدا).
(٢) ديوان القاضي ٥١٦.
(٣) في نهاية الارب: مولاي.
(٤) ديوان القاضي ص٤٨٣.
(٥) البيت لابي العلاء المعري: سقط الزند / ٦٥٤.
(٦) في الأصل: والخاء وهو تحريف.
(٧) في نهاية الارب: بالتحية إثر التحية.
(٨) بعدها في نهاية الارب: وظلت من أسر الهموم بلقائها معتقا.

لو كاتبْتُ سيدنا بمقدار شوقي لأضْجَرْتُه، ولو أغْببتُه بمقدار ثقتي به لهجرته.

ومنه قوله:

وَوَصَفَ في كتاب شوقاً أعانه على وصفِهِ منه ما أخذ لي مني، وأخبرني عنه وإنما أخْبَرَني عني.

ومنه قولُهُ:

كتبُ الحضرةِ لو تتابَعَتْ /١٤٨/ وطالت عندي بمنزلة المقتنص البهجة، المبتكر اللذة، فكيف وهي لا تصل إلا وِتْرا، ولا تزور إلاّ غبا، ولا ترخّص للهائم إلا في النهلة، ولا تنفس خناق المشتاق إلاّ بعد المهلة، وهي في أوسع العذر لأشغالها، وفي أضيقه لأشواقي، وقد نالت بأول كتبها كل المودّة، فهي لا تتعب نفسها في طلب الباقي، وأيْنَ ذلك الباقي وما أشبه هذه القصة بقول جميل[1]: [من الطويل]

إذا نظرتْ قالتْ ظَفِرتُ بودّهِ ... وما ضرَّني بُخْلي فكيفَ أجودُ

وما المراد ما يُحمل فيه على الخاطر، فقط عُرفت محاسنه الغُرر، ولا أن يتأنى بقدر الرقي إلى الدراري، والغوص على الدرر، وعلى ذكر جيل، فأحسن قوله[2]: [من الطويل]

وأني لراضٍ منك يابثنُ بالذي ... لو استيقنَ الواشي لقرّتْ بلابِلُه

ومنه قوله في ذلك ايضاً[3]:

إن أخذَ العبدُ ـ أطال الله بقاء المجلس وثبّتَ رفعته[4]ـ في وصف أشواقه إلى الأيام التي كانت قصارا، وأعادت الأيامَ بعدها طوالا، والليالي التي جمعت من أنوار وجهه شموساً، ومِنْ رغد العيش في دارِهِ ظلالاً[5]: [من الطويل]

وَجَدْتُ اصطباري بعدهنَّ سفاهةً ... وأبصرتُ رشدي بعدهنَّ ضلالا[6]

وإن أخذني ذكر ما ينطق به لسانهُ من ولاء صريح، ويعتقل جنانه من ثناءٍ فصيح[7]: [من الطويل]

تعاطى مَنَالاً لا يُنالُ بعزمةٍ ... وكلُّ اعتزامٍ عَنْ مداه طليحُ

ولكنه يعدل عن هذين إلى الدعاء، بأن يبقيه الله للإسلام- صدراً، وفي سماء

(١) ديوان جميل ص٦٣.

(٢) ديوانه ص١٦٩.

(٣) نهاية الارب: ٨/ ٢٤.

(٤) بعده في نهاية الأرب: وبسط بسطته، ومكن قدرته، وكبت حسدته.

(٥) ديوان القاضي ٤٩٦.

(٦) في الأصل: ضلالُ.

(٧) البيت في ديوانه ص٥٠٤.

الملّة بدراً، وفي ظلمات الحوادث فجراً، وأن يجمع الشمل بمجلسه، وعراصُ الآمال مطلولة، وسهام القرب على نحور العبد مدلولة، وعقود النوى بيد اللقاء محلولة، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾[١]. [من الطويل]

فقدْ يجمعُ اللهُ الشتيتينِ بعْدَمَا ... يظنَّانِ كلَّ الظنِّ أنْ لا تلاقيا[٢]

وما رمتْ به النوى مراميها، ولاسلكتْ به الغربةُ مهاويها[٣]، ولا استجدّ شوقه من الجفون مافيها[٤]. [من مجزوء الكامل]

أغْلَتْ[٥] على السَّلوانِ شَوقكُم فما ... باعت كما أمَرَ الغرامُ مَنِ اشترى[٦]

/ ١٤٩/ ومُذْ فارقتُ تلك الغرّة البدرية، والطلعة العزيزة (العِزية)[٧] ما ظفرت شخصه نوما ولا بكتابه يوما: [من الطويل]

فيا عجبا حتى ولا الطيف طارق

[من الطويل]

وأعجبْ لهُ في الحربِ نَثْر كتائبٍ ... بكفّ أبَتْ في السلمِ نظمَ كِتَابِ[٨]

يحاسبني في لفظةٍ بعد لفظةٍ ... ومعروفُهُ يأتي بغير حسابِ

ولو رضيت ـ وكلا ـ بأن أحمل من هذا الجفاء كَلاًّ لما رضيَ به خُلُقُه الرضي، ولأخَذَ بقول الرضي[٩]: [من الطويل]

هبوني ارضاني الاياس بهجركُم ... أيرضى لمنْ ترجوهُ مادونَ وصلِهِ

ومنه قولُهُ يتشوّق[١٠]: [من الطويل]

فيا ربّ إن البين أضْحَتْ[١١] صروفُه ... عليَّ ومالي مِنْ مُعينٍ فكن معي

على قُرْبِ عُذّالي وبُعْدِ أحبّتي ... وأمواهِ أجفاني ونيرانِ أضلعي

هذه تحية القلب المعذّب، وسريرة الصبر المذبذب، وظلامة عزم السكون[١٢]

---

(١) سورة فاطر: ٢٠.
(٢) البيت للمجنون: ديوانه ص٢٩٣.
(٣) في نهاية الأرب: مواميها.
(٤) في نهاية الأرب: هاميا.
(٥) هذا البيت كما في نهاية الأرب من أبيات في رسالة أخرى عن صلاح الدين إلى تقي الدين بن عبد الملك.
(٦) في الأصل: استرى، والتصويب عن نهاية الأرب.
(٧) عن نهاية الأرب.
(٨) ديوانه ٥٠٤.
(٩) الأبيات ليست في ديوان الرضي.
(١٠) نهاية الأرب: ٨/ ٣٠، وصبح الأعشى ١/ ٢٧٤، والبيتان في ديوانه ٤٩١.
(١١) في نهاية الأرب: انحت، وهي أفصح.
(١٢) في مصادر النص: السلوّ.

المكذّب. أصدرتُها إلى المجلس، وقدْ وَقَد في الحشا نارها، والزفير أوراها، والدموع شرارها، والشوق آثارها. [من الكامل]

لو زارني منكمْ خَيالٌ هاجِرٌ لهدَتْهُ في ظُلمائِهِ أنوارها[1]

وإلى الله[2] يرغب أن يجعله بالسلامه مكنونا، وصَرْفُ الحدثان عن ساحتِهِ مكفوفا[3] ووفود الرجاء على أرجائه عُكوفا، وأن يمتع الوجود[4] بوصفِهِ الذي هو أشرف من كل وحيد[5] موصوفا. [من الكامل]

مَنْ كان يُشركُ في عُلاك فإنني وجَّهتُ وجهي نحوهنّ حنيفا[6]

وقد كان ينتظر كتابا يشرّفه ويشنّفه، ويستخدمه على الوامر ويصرفه، ويجتني به ثمر السرور غضّ الكأس ويقتطفه، فتأخر ولم يُحدثْ له التأخير ظناً ولا صَرَفَهُ أن يعتقد أن مولاه لاتحدث له الأيام بخلاً بفضله ولا ظناً [من الطويل]

ولو تُصْرَفُ السُّحبُ الغِزَار عن الثرى لما انصرَفتْ عنْ طَبْعِكَ الشِّيَمُ الحسنى

/ ١٥٠/ وهو ينتظر من الأمر والنهي ما يكون عمله بحسبه، وما يثبت[7] له عهد الخدام بنسبهِ.

ومنه قوله في ذلك[8]: [من الطويل]

ومِنْ عَجَبٍ أني امنّ إليهم وأسألُ عنهمْ مَنْ أرى وهُمُ معي
وتطْلبهم عيني وهمْ في سوادِها ويشتاقهمْ قلبي وهمْ بينَ أضلعي

كتبت والعبرات تمحو السطور، ويُوقِدُ ماؤها نار الصدور، وتهتك وجداً كان تحت الستور، وترسل من بين أضلعي نَفَس الموتور [من الخفيف]

قد ذكرنا عهودَكُم بعدَما طا لتْ ليالٍ منْ بعدِها وشُهورُ
عجباً للقلوبِ كيفَ أطاقَتْ بُعْدَكم ما القلوبُ إلاّ صخورُ

وما وَرَدْتُ الماء إلاّ وَجَدْتُ له على كبدي وقداً لا برْداً، ولا تعرضتُ لنفحات

(١) ما بعده في نهاية الارب ٨/ ٣٥ من رسالة أخرى.
(٢) بعده في نهاية الأرب: سبحانه وتعالى.
(٣) بعده في النهاية: وعنان الصروف عن فنائه مصروفا.
(٤) في نهاية الأرب: الوجه. (٥) في نهاية الأرب: وجهٍ.
(٦) ديوان ٥٠٩.
(٧) في نهاية الأرب: ويثبت.
(٨) نهاية الأرب ٨/ ٣٦، الا انه جعل الأبيات ضمن الرسالة السابقة، وبعدها: وكتب أيضاً، وهو خلط واضح.

النسيم إلاّ أهْدى إليّ جُهْداً، ولا زارني طيفُ الخيالِ إلا وجَدَني قد قطعتُ طريقَهُ سُهْداً، ولا خطف البارق الشاميُّ فأراه قلبي[1] خُفُوقاً وَوَقْداً: [من المتقارب]

وأيْسَـرُ مـانـال مـنـي الـغـلـيـ ـل أن لاأُحـسُّ مـنَ الـمـاءِ بَـرْدَا

فسقى الله داره ماشربت من الغمام، وأيامنا بها، وبدور ليالي تلك الأيام تمام: [من الكامل]

ذُمّ الـمـنـازِلَ بـعـدَ مـنـزلـةِ الـلّـوى والـعـيـشَ بـعـد أولـئـكَ الأقـوام[2]

وكان قد وَصَلَ منه كتاب كالطيف أوْ أقصر زَوْراً، وكالحبِّ أو أظْهر جَوْراً، أو الربيع أو أبْهَرُ نورا، أو النجم أو أعْلى طَوْراً، أو الماء الزلال أو أبْعَدُ غوراً، فنثرت عليه قلبي، وجَعَلْتُ [سطوره قبلي][3]بل قبلي، ووردتُ منه مورداً: [من البسيط]

أهْـلاً بـه وعـلـى الاظـمـاء[4] أنْـشـدُهُ لـوبـلَّ مـن غـلـلَـي أبْـلَـلَـتُ مـن عـلـلـي

إلاّ أنه أبقاه الله ما عزه بثان ولا آنس غربته، واني وإياه غريبان [من الطويل]

وكـم ظـلَّ أوْ كَـمْ بـاتَ عـنـدي كـتـابـه سـمـيـر ضـمـيـري أو جـنـان جـنَـانـي

وأرغب إليه ـ لا زالت الرغباتُ إليه ـ وأسأله لا جَشَم[5] السؤال إلاّ لديه أن يلاطف بكتابه قلبي[6] ويمثل لي بمثاله أيام قربي: [من مجزوء الكامل]

واللهِ لـــولا أنـــنـــي أرجـــو الـــلـــقـــاء لـقـضـيـتُ نـحْـبـي

/١٥١/ هـــذا ومـــافـــارقـــتُـــكُـــم لـــكـــنـــنـــي فـــارقْـــتُ قَـــلْـــبـــي

ومنه قوله جواب كتابٍ ورد عليه[7]: [من الطويل]

شـكـرتُ لـدهـري جـمـعَـهُ الـدار مـرّةً وتـلـك يَـدٌ عـنـدي لـه لا أُضِـيّـعُـهـا[8]

ورد على الخادم كتاب المجلس ـ أعلى الله سلطانه وثَبَّتَهُ وأرغم أنْف عدوّه،

---

(١) في نهاية الأرب: إلا باراه قلبي.

(٢) البيت لجرير بن عطية، ديوانه ٢/ ٩٩٠.

(٣) سطوره قبلي، ساقطة من الأصل، وهي في نهاية الأرب، وقبلي بكسر القاف: تجاهي، والتي بعدها القاف مكسورة أيضاً جمع قُبله بضم القاف.

(٤) رواية البيت في الأصل:

أهــلا بــه وعــنِ الــظــلــمــاءِ أُنــشــدُه لـو بـلَّ مِـنْ عَـلَـلـي او ابـلـلـتْ غِـلـلـي

والتصويب عن الديوان ص٤٩٧ ونهاية الارب ٨/ ٣٧.

(٥) في نهاية الأرب: لاخيم. (٦) في الأصل: قبلي.

(٧) نهاية الأرب: ٨/ ٣٨.

(٨) بعده في نهاية الأرب:

=

وكبته وأصماه بسهام انتقامه وأَصْمَتَهُ، ولا أخلى الدنيا من وجودِهِ، كما لم يُخل أهْلها من جودِهِ، ولا عطَّلَ سماء المجد من صعودِهِ، كما لم يُعطّل أرضَها من سعوده، فقام له قائماً على قَدَمِهِ، وسجد في الطرس مماثلاً[١] سجود قلمِهِ، واسْترعى الله العهد على أنه تعالى قد رعى ما أوْدعَه في ذِمّةِ كرمِهِ، وصارت له نجران علاقة خيرٍ صرف إليه وَجْهَه فكأنها قِبْلَة، ودعا بني الآمال إلى اعتقاد فضل مالكها، فكأنما يدعوهم إلى ملّة، والله يوزعه شكر هذا الافتقاد على البعاد، ولا يُخْليه من هذا الرأي الجميل الذي هو عقد الاعتقاد[٢].

ومنه قوله[٣]:

وَرَدَ كتابٌ، ووقفتُ منه على ما لا يجد الشكرُ عنه محيداً، وأَنَسْتُ به القلب الذي كان وحيداً، وعَدَدْتُ يوم وصولِهِ السعيد عيداً، ووردتُ منه بئراً معطّلة، وعَلَلْتُ قصراً مشيدا، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وتلك الغاية ليست في وسعي. ولا تعلم نفسٌ إلا ما طَرَقَ سَمْعَها، وتلك المحاسن ما طرق مثلُها سمعي، وهذه الأوابد الأباعد ماطالها ذراعي، ولا استقلّ بها ذرعي.

ومنه قولهُ[٤]:

المملوك يقبلُ التراب الذي يوماً يستفزّ بحوافر سَيْلِهِ، ويوماً يستقر بحوافر خيلِهِ، فلا زال في يوم السلم[٥] جوده سحاباً صائبا، وفي يوم الحرب شهاباً ثاقباً، ويُنهي أنه وَرَدَتْ عليه المكاتبة التي استيقظتْ بها آمالُه من وَسَنِها، وأفادته معنى من الجنّة، فإنها[٦] أذْهَبَتْ ما بالنفس من حَزَنِها، وتلَقّى المملوك قُبْلَتها بالسجود والتقبيل، وتحلّى بعقود سطورها، فهيهات بعد هذا شكوى /١٥٢/ التعطيل، واكتحل من داء السّهد بإثمدها، وأدار على الأيّام كأس مرقدها، واسمعته نَغَمَ النِّعم التي هي أعجب إلى النفس من نغمات معبدها[٧]، وأطالت الوقوف عليها بركاب طرفه فما وقوف

=

وطلعة مولانا يطالعُ عبدَهُ	وكلّ ربوع كان فيها ربوعُها
فؤادُ سقاهُ لايعودُ عليلَهُ	وعينٌ رأتْه لا تفيض دموعُها

(١) في نهاية الأرب: ممثلاً.

(٢) في نهاية الأرب: ملجأ الاستناد، وعقد الاعتقاد.

(٣) من جواب في نهاية الأرب: ٨/٣٩. (٤) نهاية الأرب ٨/ ٤٠.

(٥) في الأصل: السيل: والتصويب عن نهاية الأرب.

(٦) في الأصل: أنه.

(٧) يريد به معبد بن وهب إمام أهل المدينة في الغناء. مات بدمشق عند الوليد بن يزيد الأموي (الأغاني ١/ ٣٦).

ركاب طرفة ببرقةِ ثهمدها[١]. وضرع إلى مَنْ يشفع وسائل المتضرعين، ويملأ مواقع آمال المتوقعين، أن يَغُلَّ عنه كلَّ يدٍ للخطوب بسيطة، ويفك به كل رقبةٍ للايام بأعناقٍ منها محيطة[٢].

ومنه قوله:

وصل كتاب الحضرة السامية، لا زالت رياض نباتها متفاوحة، وخطرات الردى دونها متنازحة، والبركات إلى جنابها متوالية، والليالي بإبراز سعادتها متلالية، والأيام الجافية عن بقية الفصل منها متجافية، تنحر إليها المكرمات إذا لم تكن لها فئه فأنشده ضالة هوى كانت سدى، ورفع له ناراً موسوية سمع عندها الخطاب، وأنس الخير، ووجد الهدى، وكانت نار العليل في فؤاده بخلاف نار الخليل، فإنها لا تقبل ندى الاجفان بأن يكون برداً وسلاماً، ولا يُرى إلاّ أضرى ما يكون ضراما، وشهد الله لقد كان العبد حصر القول نشوزا، منذ فارقها على تلك الصفة، فلا هو قضى من حقِّها فرائض لَزِمت والله وتعيَّنتْ، ولا الضرورة في مقامها بحيث تبلغه الشهادة أذِنَتْ، ولا الأيام بالبعد ما أساءت فإنها بالقُربِ ما أحسنت: [من الطويل]

وان امـرأً يـبـقـى عـلـى ذا فـؤادُهُ ويـخـبـر عـنـه إنَّـه لـصـبـورُ

ونعود إلى ذكر الكتاب الكريم، فإنه سجد لمحرابهِ وسلم، وحسنت سطوره فحسبها مباسم تتبسَّم، ووقف عليه وقوف المحب على الطلل، وكلّمه ولا يتكلّم، وهَطَلَ جفنه، وقد كان جمادى، وتصفّحه وقد كان على تصفّحه المحرّم، وجدّدَ له صبابةً لا يَصْحَبُها أمل، وخاف أن لا يدرك الهيجا حَمَل[٣]. وقال الكتاب: [من البسيط]

إنـا مُـحـيـوكَ فـاسـلـمْ أيـهـا الـطَّـلَـلُ[٤]

وأنشد نيابة عنها[٥]: [من الطويل]

---

(١) اشارة إلى قول طرفة بن العبد:
لـخـولـةَ اطـلالٌ بـبُـرقـةِ ثـهـمـدِ تـلـوح كـبـاقـي الـوشـم فـي ظـاهـر الـيـد

(٢) في نهاية الارب: ويفك به كل ربقة للأيام بأعناق بنيها محيطة.

(٣) من قول الراجز:
لبّثْ قـلـيـلا يـلـحقُ الـهـيـجـا حَـمَـلْ مـا أحـسـنَ الـمـوتَ إذا حـانَ الأجـلْ

(٤) شطر بيت للقطامي وعجزه (ديوانه ص٢٣):
وإنْ بـلـيـتَ وإنْ طـالـتْ بـكَ الـطـيـل

(٥) ديوان القاضي: ٥٢٠.

وإن بلاداً ما ٱحتلتْ بي لعاطِلٌ　　وإنّ زماناً ما وَفى لي لخوّان

/ ١٥٣/ والله المسؤول لها في عاقبةٍ حميدة، وبقية من العمر مديدة، فإنها الآن نوح أهل الأدب، وطوفانها العلم الذي في صدرها، ولا غرو أنْ بلغ عمره مدة عمرها، على أنه يتحقّق خلودها في الجنّة بعملها، وفي الدنيا بذكرها، وأن الدارين تتغايران على عقائل فخرها، ولا يتأخران عن اجرائها على عادتها في دفع قدرها، وعلى أنها طالما أقامتْ على الدنيا السكرى، حين أقامت في حدّها من العمر الثمانين، وأدّبت الأيام بسلاح الحرب من سيفها، وسلاح السلم من قلمها تأديب الخائنين وما حملت العصا بعد السيف حتى ألْقَتْ إليها السلم، فوضعت الحربُ أوزارها، وما استقلّت بآية موسى إلاّ لتعجز بها انهار الخواطر، وتضرب بحارها، وما هي إلاّ رمح وكفى بيدها سنانا، وما هي إلا جواد تجنب السنين خلفها فتكون أناملها لها عنانا.

وقوله:

ولعله الآن قد عوفي من الأمرين، وقرّت بوجهه العين، وجدّد عهده بنظره، وقرب عليه لسانه اسناد خبره، وبلّت منه غلّة الحاتم، ورأت منه هلال الصائم، وطالعها وجه الزمان المغضب بصفحةٍ الباسم، ووفى مواعيد الأنس من الضامن الغارم، وهو يسلّم عليه تسليم الندى على ورق الورد، ويستمد الوفاء من غرس ذلك العهد، ولكتاب الحضرة العالية من الخادم، موضع الطوق من الحمام، يتقلّده فلا يخلع ويعجبه فلا يكاد يسجع، ويحكيه طوقاً على الأسى، إلاّ أنه بدر الدمع يرصع وإذا أنعم به فليكن مع ثقة، ويخشى أن يكون هذا الشرط له قاطعا، بل مع من اتفق فإنه كالمسك، لا يدعه العرف الضائع أن يكون ضائعاً[١] [من الكامل]

اكتُبْهُ تكتُبْ لِي أماناً ماضياً　　وابعثْهُ تَبْعَثْ لي زمانا راجعا[٢]

إن اشتريهِ بمُهجتي فقليلةٌ　　فاسمحْ بهِ فمتى عَرَفتُك مانعا

ومنه قوله:

وقف الخادم على ما شَرُفَ به طبعُهُ، وشنف به سمعه، وضيق سعة ذرعه، من العتاب الذي خَفَضَ له الجناح، واستعذب به الجراح، وأسَر منه بقيد أسًى مستطاب، لايراد منه السراح، وقُذَف به / ١٥٤/ في لهوات ليلٍ لم يودّ يبتسم فيه الصباح، وقد

---

(١) البيتان في ديوانه ص٤٩٢.

(٢) ديوان القاضي: ٥٠٠.

علم الله أنه بريء من كل ما يوجب المذام ويطلق ألْسنة الملام، ومليء من الخدمة بما لا يغضى فيه عن حقّ سبقه لأحدٍ من الخدام، وأنه لجواد يبذل جهده، وما عليه أن تجلب الأيام، وأنه لمستيقظ من حقوق الخدمة، إلا أن حظّه من أهل الكهف لطول المنام، وما كان تأخره عن المكاتبات التي يخدم بها مجلسها، ويقتدح بها من الإجابة قبسها، إلا الرغبة أن يكون مقترناً بحصول أمْرٍ، فما اسعفته الأقدار بمرادِهِ، ولا نجح رائد اجتهادِهِ، وكتب هذه الخدمة حين احصر على ما استيسر من الهدي، قد ركب من قديم الاخلال حد النهي، متبرّئاً من التقصير الذي ما هو منه ولا إليه، ومعوّلاً في العذر الذي ما كان مخلوقاً قبل خلق يديه، ووصل الأميران فعظم الأنس بمقدمهما الكريم، وقدما إلى بلاد صارت كظل رامة لايريم، ولا يؤدي يومه الجديد ما كان يؤديه أمسه القديم، وكيفما حلّ أهل هذا البيت، فهم في كلّ بيت صدوره، وفي كلّ مطلع نجومه وبدوره، لا تزال أنوارهم بإشارة الأصابع، ولا تتبدّل أقدارهم في مصونات المجامع: [من البسيط]

يحميه لألاؤهُ ولوذعيته عنْ أن يُذَالَ بمَنْ أو ممّنِ الرَّجلُ

كأن الأرض بهم سماء، فإنهم طوالِعُها، وكأنّ الدنيا بهم رياض، فإن أوْجههم زهرها، وأيديهم مَشَارِعُها، وما يدع العبدُ غايةً من الخدمة لهما إلاّ بَلَغَها، واعتذر، واجتهد، ورأى أنّه قد قَصّر. لا زالت الأيام ناظِمةً لعقد المجد ببقاء الواسطة ولا بَرَحَتْ الجنّة العلياء مُصَرَّفةً بأيديهم الباسطة.

ومنه قوله:

سطَّر هذه الخدمة ثبّت الله قواعد مجدِهِ وأرساها، ولا ابتزّ أفنيته حلاها من السعود وكساها، وقرَن بالسكون والأنوار مصبحها وممساها، في ساعةِ رحيلٍ قد غَرّد حاديهِ، وسال شطّ واديهِ، وكان يؤمل اجتماعاً يغنيه عن تحمل مننِ الأقلام وصنائعها، ويدنيه من مشافهة الأنوار التي إلى اليوم ما تناست العيون فضل ودائعها، فاحصرته الأنوار دون منسكه، /١٥٥/ وعثرته الأيام بذيل العجز في مسلكه، وعزت جناحه بما لم يستقل مجاذبته من شركهِ، فسارت الراية الناصرية نصرها الله: [من الكامل]

واقمت بعدُ وللزمانِ عَجَائبٌ منها ترحّلُ مُهجتي ومقامي

ويعزّ عليه أن لا يتطوف بربعهِ، ولا يرى الديار إلاّ بسمعِهِ، ورضى بما يرضي الرضيّ بساكن سلعه.

ومنه قوله:

وصل إلى خادم المجلس ـ لا زال جفن الدهر عنه كليلا، ولا برح مجدُهُ فوق مفرقة إكليلا، ورأيه في غياهب الأمور فجراً ساطعا، وفي مفاصل الخطوب سيفاً قاطعا، وشعاع صوابه في ظلام المشكلات شائعا ـ، كتابٌ منه فكّ منه قفل النفسِ من أسْرِها، وحاز لها الاماني بأسرها، وتغلغل لطفاً في القلوب إلى حيث مستقر المستودع من سرّها، وحدّد له لهفا لولا التماسك لهفا قلبه بأدنى انفاسه، وتدرع من سهام الدهر به ولا غرو أن يدخر لباسه لبأسه، وأما الكتب المنعم بها على يد فلان، فلم يصل شيءٌ منها، والطرف بها معقود، والقلب إلى حيث ورودها مورود، ولا شبهة في أن الطرق كالخواطر، وما يعني إلا خواطر نفسه مربوطة لا تنفذ مسالكها، وكم طالع فكرة مظلمة لا تنجلي حوالكها، وهو من كتب المجلس ـ أدام الله نعمته ـ بين روضةٍ قد تلاحقت غُرر محاسنها، وتناسَقَتْ دُرر معادنها، فمن نورةٍ في كمام، وزهرةٍ في نظام، وثمرةٍ في تمام، ونضرة في ضحى وعبقة في ظلام، فهو من واصلة ومتواصلة، وواقعةٍ ومتواقعة، وطالعةٍ ومتطلعة ويانعة ومتنوعة، لا خَلَتْ من صوب سحاب خاطره الروي بروضها ويروضها ويرفع مياسم الجدوب ويقضّها ويفوّضها، وما يحسبُ الخادم أن هذا الكتاب إلاّ مساوقاً لوصول الركاب الناصري إلى الشام، فهنيئاً له أن زاره السحاب الطبق، والربيع الطلق، وأن أضاء بمحضره فج، وأظْلَمَتْ بمغيبه فجاج، وأن خمدت للمخافة نار، واتقَدَ /١٥٦/ للأمنة سراج وهّاج، ومصر وإن كانت داراً، ماخرج منها إلى الشام إلاّ دهليزها، فإنه عزيز عليها والله وعلى أهلها فراق عزيزها، وأما حالُ الخادم بعد فرقة الركاب المشكور، فوالله لقد عرد قلبه من أمره، ووعده بما لم يفِ به، إلا من سلوه بل من صبرِهِ، وسار بعد ذلك القلب فما وَجَدَ منه عزيمة فيطالبه بموعد نصرِهِ، وما خالف عادة تسرّعه، وأخلف عدة تبرّعِهِ، إلاّ أنه كان في غير سفرة ما كان نفض غبارها، وفي اعلال فرقةٍ ما كانت كفأت اسارها، ولا سيما بعد أن أطلعته الأربعون شرفها ونصبته الخمسون هدفها، فانكر تلك التي كان عرفها، وفارق عصر شبيبته وما وَجَدَ في المشيب خلفها، ولحق أمله ببدنها وكلاهما قد أنْهَجَ وقرّبته الخمسون مع معترك الستين، وكلاهما قد أزعج، والله المسؤول في يقظة قلبٍ وعين، وصحبة تبيين قبل صيحة بين، والله المشكور إذا أعْشى عن المجلس عيون الأيام ولواحظها، وأفهمه إشارات الدنيا ومواعظها، فقد أبطل بعصاه سحرها، وفَضَح بقلَمِه سِرَّها، وانتضاها فقطع بها ولم تقطعه، ولبسها فَخَلَعَها ولم تخلَعه، وانتظم أيامها في سلك أعوامِهِ، وعصب أهلها حتى أنوارها، والقى الجنى على قوامها لا على قوامِهِ، فلا زالت في عمر وريق الأفنان، وثيق

الأركان تتزوّد كلّ يوم فيما تتزوّد، ويشتدُّ ركنها، ويتأيّد ولا يتأوّد.

ومنه قوله رحمه الله:

أدام الله أيام المَجلس وأيَّدَهُ في كل مقام ومقال، ووسّع له كلّ مجال ومَنال، وأنْفَذَ له كلّ رسم ومثال، وحَرَسَ عهود سعودِهِ من الانتقال والملال، ولا زال مفيد الفوائد، معروف العوارف. منصور الانصار ظليل الظلال، ورفع علمه، وثبت قدمَهُ، ونَصَرَ سيفَهُ وقلمَهُ، وكرم شيمه وهممه، وعزز موارد جودِهِ ودِيَمِهِ، وأعدى بها كلّ وليّ على الدهر إذا ظلمه. وَرَدَ كتاب مولانا الذي هو مولى الكتب وسيّدها وأوْحَدها. ومورده / ١٥٧/ على القلوب منهلها العذب ومورِدها، وفيه من الأنعام ما لا سبيل إلى شكره، بل إلى شكره بلسان ذكره، وما لا يقوم الخادِمُ بواجب حق نَشرهِ إلى يوم نشره، وكان وصول الكتاب الكريم والخادم على قلق لتأخر الكتب وإبطائها، وشذوذ الترسل وتوالي خواطر استدعائها، وقد قابل تأخر الكتب المظفرية تأخر الكتب الناصرية، وتعاونت الشواغل على الخواطر، وتواحى طيف خيال السكون من جانبيهما، لجفوة ناظر المشفق الساهر، ولا جرم أن وصولهما صبحت به بكرة يوم لا يومين، فكأنما كانا على ميعاد، وطرقت الليلة بتوأمين بكتابيهما، فسقياً لليلة هذا الميلاد، ووقف المملوك على مافي الكتاب المظفري، ولائح الأمر أن المولى قد قَلاَ مصر وجفاها وأنه خلّى الديار تستوحِشُ ممن بناها: [من الوافر]

فَإنْ تَركَ العِراقَ وساكِنِيهِ ... فقدْ تُمْنىٰ المليحةُ بالطَّلاقِ

والمولى إذا حلّ في مكان نَهَضَتْ عواثر جدوده، وطلعت طوالع سعوده، وكان بنفسه عسكراً، وبذكرِهِ عديداً مستكثراً، وجدّد من عَزْمِهِ حديثاً مذكراً، ولم يحتج معه إلى جيوش في ديوان، ولا إلى سيوف في أجفان، وقام بنفسه النفيسة مقام الفئة، وأقْلَقَ العدوّ في موطنِهِ، وحرّم عليه موطئه، والخادم خادم أغراض الخلق في هذه الدلالة، ولسانُهُ نائب عن ألْسِنَتِهِم في هذه المقالة: [من الطويل]

ولو سَكَتُوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ[1]

ومنه قولُهُ رحمه الله:

وَرَدَ على المملوك ـ أدام الله ورود السعود على الجناب الملكي المظفري ولا زالت السعود تصحبه، والنوبُ تخدمه، والشفاه تلثم ترابه، والسعادة تستمطر سحابه،

(١) عجز بيت لنصيب بن رباح، وشطره (ديوانه ص٥٩):

فَعَاجُوا فأثنوا بالذي أنتَ أهلُهُ

والوفود تلتزم أبوابه، والأيام تتهيب حجابه، وتيجان الملوك تحف ركابه، والأقدار تُقَرِّب آرابه، والنصر يغلّب أحزابه ـ مواهب مولانا المسماة كتبا، وآثار سحبه التي أنبتت من الأسطر عشباً، ولحظت حظه الحجري /١٥٨/ فأعجب وأعشب، إن السعادة لتلحظ الحجر فيدعى ربّا، ولا برحت نعمة مولانا فوق شكر الشاكرين، وكتبه واحة قلوب المنتظرين، وعقله عيون الناظرين، ووصل ما سيّر من الحمل إلى الخزانة على يد جامع ورفقته، في وقت الحاجة الداعية، والخلة البادية، والضرورة المتمادية، وانفق في الحاشية والتعدية، وفرق في أرباب المطالب، والمطامع القريبة والمتعدية، وتضاعف الشكر لمن جمع هذا المال ووفّره، ويسّره وسيّره، واستخدم فيه ناظره ونظره، ومايَعِدُّ المملوك ما وَصَلَ إلاّ موهبةً صرفها إليه، ونعمةً أسْبغَها عليه، ومنّةً تقلّدها وقلّدَ بها المنن، وصنيعةً استرقته، وإن كان قد سَلَفَ استرقاقه بأوّل ثمن، فإنّه وفّى بذمّة لسانه، وبيّض وجْه ضمانِهِ، وكل مَنْ وَصَلَ إليه شيء من هذا البر شكر المولى فأكثر، وفرح بأن غرْس الرجاء قد أثْمَر، ورأى من وجوه رسلِهِ أهلّةً، وظنَّ الإحسان عيد صيام الانتظار، فقال: الله أكبر، وشيّع سيبهم عند فيض سنيِّ عطائه، فتوالى فَغَفَر، وبالمعروف، فلولاه لكان قد درَسَت أعلامه، بل لولاه [لم] يعرفه ولكان قد سُلِبَتْ ألِفُهُ ولامه، وإن غيثا يصبح من مصر بحمص لقد أبعد مرماهُ، وكرم مُنْتَماهُ، وسما مسمّاه، وسرى طيف الخيال ولكن إلى مَنْ لم يَنم، وجرى مجرى النسيم إلاّ أنه ينفخ الأرواح في النسم، وللمولى سبح طويل في الحمد ولابُدَّ أن يدّخر منه مايستأنِفُهُ عند تكملة الأنعام، على أن يشرع في الشكر عند كل مسألة، ثقةً بما وراءه من الاهتمام، فأما العافية الشاملة لأهل الإقليم، فكيف لا تشملهم، وسيف المولى الطبيب، ومهابته دون محبوب الأعداء منهم والرّقيب، وكيف لا يأمن الغاب وهن مَسْبع؟ وكيف لا يتوقى السيل وهو مشرع؟ لاعُدِموا هذا الظلّ فإنه كثيف، وهذا الطبع فإنه شريف، وتلك الحماية فأنها الأمان، وتلك الولاية فإنها زمان، لا يرجى مثله من الزمان.

ومنه قوله من كتاب إلى الملك المظفر تقي الدين[1]:

/١٥٩/ أصدر المملوك هذه الخدمة من ظاهر حماة، وهو ينظر إليها نظر

---

(١) الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، ابن أخي صلاح الدين، كان شجاعاً مقداماً، جواداً، تملك حماة بإذن عمه صلاح الدين، وتوفي شاباً وهو يحاصر منازكرد سنة ٥٨٧هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٤٥٦ وشفاء القلوب ٢٣٤.

المحبّ إلى الحبيب، ويتذكر منها أيام الخدمة التي هي وطنه ولو نأى عنها وهي في فطنه لكان كالغريب، ولولا حياء المملوك من مصر لكان بشرّها وأهلَها من قربه منهما بفرجهما القريب، ولكن لا بُدَّ من عصبيةٍ لمصر. فلا نفجؤوها بمشيئة الله من ذكر يوم فراقه باليوم العصيب، وآثار المولى على قلعة بلدها بمكان التيجان من الرؤوس، وذكره من أهلها من ناسك وخليع يفتح المصاحف، ويدير الكؤوس، وكان ورد الركاب العالي الناصري نصره الله إليها في يوم كذا أحسن الله تقضّيه، والمرض قد أحسن الله في تقصيه، والشفاء قد أنعم الله به على سلطاننا وعلى مَنْ يليهِ، فيا لها من نعمةٍ لا عذر فيها للشكر إذا اعتذَر، ويا لها موهبةً منّةً من الله بها، آمن الذي آمن بها، وبُهِتَ الذي كَفَر، ويا لَهُ صفوٌ لا كَدَر فيه، وكلٌّ صافية لم تَخْلُ من كَدَر.

ومنهُ قوله:

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[1]، فسبحانه جلّتْ قدرتهُ جلاها، وقدْ بَلغَت القلوب الحناجر، وفرّجَها وقد بَلَغَتْ الدموع المحاجر، ومَنّ بالسلطان على الخلق وأقامه، ليعمَّ به إن شاء الله دينُ الحقّ. فالمملوك يبشّر مولانا أدام الله البشرى بالعافية الناصرية، وقد سار المبشر عنّي بكتبه كما يقول المقلّل والمكثّر، وقد سيّر المملوك كتابه الكريم لما فيه من زيادات، ولما تضمّنَهُ من متجددات، وعند مولانا له كتبٌ كثيرة، قد قضى منها الوطر، وقَدْ نزّه فيها النظر، وقد وَجَبَ أن يُرَدّ طيرها إلى وكُرها، وعرائسها إلى خِدْرها، وأصدر المملوك هذه الخدمة ساعة سير السائر، كما أن المكاتبة بما قبلها مُذْ كانت أم الكبائر. وغير ذلك، فهو ينهي وصول كتاب مولانا، ومطالعة مولانا الناصرية بخطه، التي أنعم بتيسيرها مفتوحة، وأفاد المملوك كل فائدة بالوقوف عليها، وقد سيّرها، فكان وصولُها من حسن الاتفاق، وكتابتها من سعادةِ كاتبها، تأتي عند / ١٦٠/ العشيّ بالاشراق؛ لأنّ مولانا هنأ بها عن العافية الأولى المكتوب بها، لينقطع الإرجاف، فصارت الآن هناءً بعافية لا خلاف في أنها ما فيها خلاف.

ومنه قولُهُ:

أدام الله سلطان الديوان العزيز، ولا زالت كتائب أعلامه تكتب أقلامه مرفهةً، وأحلام وفاقِهِ مرشدة، وأحلام أهْل خلافِهِ مسفَّهةً، وسيوف عزائمِهِ تَسْتَوْعِب كلَّ حديثٍ حسن، فلا تبقى إلا أحاديث عن السيوف مموّهة، والقول بتوحيد فضل خلافته

(١) سورة الأعراف: ١٨٧.

لازما، فلا يقبل شُبَه المعطّلة، ولا تعطيل المشبهة، وأفعالها التي يبتغي بها وجه الله باسمه الشريف في الملكوت الأعلى منوَّهة، ولا زال قوله بلغاً، وأمره بالغاً، وفضله سائغاً، وفضل الله به سابغاً، فالحالي بعده للعاطل فاضحا، والحقُّ للباطل دامغاً، وإخلاص فطرةٍ لا يَدع للكفر شيئاً غابطا، ولا للنفاق شأنا نابغاً، الخادم يذكر أنه ورده بل أوْرَدَهُ من منتدى الديوان، بل من أفق الإحسان، كتاب مرقوم، بل سحابٌ مركوم، أثْبَتَ في الاسماع، بل أنْبَتَ في الطباع، العقد التقي، وأهدى للبصائر الصادقة، بل أبدى للأبصار الرامقة، سابِقَةَ أنسٍ، بل أيَّ شارقة شمسٍ، فأضاء الفضاءُ بنورِهِ، وضَرَب بينه وبين الظلماء بسورِهِ، فاستقلّت ملوك المعاني على سريره، ودخل الفهم حينه، وَرفَلَتْ الليالي في حريره، ونقلته عينه في الحال إلى ضميره، فأنسَتْ معانيه بما هناك من عقائد اختصاص وموارد إخلاص، مستقرةً في حيث لا تجزى كل الاسرار، ولا تسْري كلُّ الأنوار، ولا تُسْتَوْدع إلا عقود التكليف، وخواطر التعريف، فألْقَتْ عصاها، ولَقِيتْ من أطاعها وما عصاها، وحلّتْ حيث حلّتْ، وجُليت حيثُ جلَّت، وانتدبت العزمات لمراجعتها، فهي المرآة إلاّ أن الصدأ مصدود على صفحتها، وهي العينان إلا أن الليل والنهار سواء في وصف صحتها، وهي الفلق إلا أن العيون / ١٦١/ دائمة الاستمتاع بلمحتها، وهي الروض إلا أن أنفاس النسيم منافسة في العبارة عن عبير نفحتها، وهي المذكّرات الأنفس بالله، إلاّ أن أسطرها سلوكها، وحروفها درر سفحتها، ولا زال الخادم إلى مثل هذه الفِقَر فقيراً، وبها على نفسه بصيراً، وإذا النعم بتيسيرها إليه عدّها نعيماً مقيماً، وإذا مَلَكها رآها ملكاً كبيراً، وما تَرِدُ واردة من الدار العزيزة، وذلك أن المواصلة ما فزعوا إلى دار الخلافة إلى أن فزعوا، وإلاّ فطالما طمع أوّلهم كما طمعوا، وقديماً دعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما انتجعوا، ولا يربى الصغير إلا بما ربي عليه الكبير، ولا سبب على جناية الأوّل إلاّ بما جناه الأخير، وقد كانت دولة العجم بالعراق استعلَتْ ثم استَقلَّتْ، وهَبت ثم وهَنَتْ، فتعبت رجال الليالي والأيام، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام بدار الخلافة، إلى أن صرفوا العدا من موردها، وأبعدوا الأذى عن معهدها، واستقلت الخلافة وحدها، ولزمت الأمور حدها، وإذا كانت المواصلة قد تقطّعت بهم الاسباب، وأوْصَلَهُم حساب الحرب إلى العقاب، وتبرّأ الذين أتْبِعوا من الذين أتْبعوا، وتفرّق الذين اجتمعوا بعدما جمعوا، ففريقٌ فرّ نازحا، وفريق قرّ مصالحاً، وفريق على البعد راسل مستصلحاً ومتطارحاً، وفريق فتح بلده الذي كان التقليد له فاتحاً، فلم يبق للمواصلة إلا أن يأووا إلى جَبَلٍ يعصم من الماء، ويتعللوا بسراب

بقيعةٍ لا مُتَعلَّل فيه للضّماء، ومعلوم أنهم إذا احتلبوا تلك الجهة عادوا عود طائر نقاق إلى عشه، واسترجعوا خاتم ملك فربما رجع الأمر جاريا على نفسه، وما أوْلى ولاة المناصب، وكُفاة المراتب، وحَمَلَة الأمانات، وخَدَم سدّة السادات، إلى أن يفيقوا لهذه الغمرة حقّ الإفاقة، ويلحظوا طليعة هذه العواقب، ولا يُهملوها إلى أن تجيء في الساقة، فهذا في مصالح الدولة الجزئية.

/ ١٦٢/ فأما المصالح الكلية، فإن عواقبها منهم عظيمة، وبوائقها بأيديهم وأيدي قديمهم قديمة، فشدَّ ما أخذوه بالأمس برّاً بلئيم، وبُرءاً بسقيم، وهرب من لا حيلة فيه فاستبيحت منه حُرْمة وحريم، فكم عين ازعجوا عنها إنسانها، وكم يدٍ بانوا منها بنانها، ومنهم أولاد ابن زين الدين على كوجك[1]، التابع للخادم الآن، فإنهم كشفوا منهم وجوهاً مصونة، وهتكوا منهم عورات أمينة، وحكموا فيهم نظرات ظنينة، وطافوا بهم البلاد نهاراً، ولم يخافوا لله غضاباً، ولم يرجوا له وقاراً، وكذلك وجدوا آباءهم على أمّة، فاقتدوا بآثارهم، وعلى إيقاد نار حِقْدٍ يستجمعون بهم في نارهم.

فأما الجبايات التي يأخذونها من الرعايا ظُلماً، وتضمين الشريعة لمن لا يُمضي الله له على لسانه ولا يدِهِ حكماً، واستباحة ملك الأوقاف والأيتام، والفرقة في الحكم بين الخاص والعام، فكل ذلك مما لا يسع خليفة الله اقرارهم على حيفهِ، ولا يعذُرُهُ الله سبحانه على ترك مجاهدتهم بكتابه إلى عبده الذي جاهدهم بسيفه، ولا خفاء أنهم غابوا عن الجهاد للكفار، وحالوا بين الفرض وبين أُولي القوة عليه والاقتدار، فلا يقنعون بأنهم لا يجاهدون إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم، وبأنهم لايساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوّهم الكافر، فقد تولّوا الشيطان تليداً وطريفاً، ووطئوا الاسلام وأهله وطئاً عنيفاً، فإذا جاء وَعْدُ الآخرةِ جاء اللهُ بهم في زمرة الشياطين لفيفاً، فإن لم يرجع إلى الخادم فليرجع إلى قول الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[2] والقوم فما أبقوا للصلح موضعاً، ولا تركوا في رجعةِ مطمعاً، ولا تخلفوا عن سوء أبلغوه ناظراً ومسمعاً، فالمسلم القريب استزلّوا يمينه والمسلم البعيد استخفوا سكينه، والكافر استنصروا سيفه، والحشيشي[3]

---

(١) زين الدين علي كوجك، صاحب اربل، وهو تركماني، وكجك فارسية معناها الصغير. ملك اربل وبعض النواحي، توفي سنة ٥٦٣هـ (وفيات الأعيان ٤/ ١١٤).

(٢) سورة النساء: ٧٦.

(٣) الحشيشيون، أو الحشاشون، لقب اطلق على فرقة من الاسماعيلية، عرفوا باغتيال خصومهم بالسكاكين، وأخبارهم كثيرة في كتب التاريخ.

استصرخوا سكينه، والأموال التي في بلاد تقليده أكلوها وأضاعوها، وأمانات الله ابتغوا بها ثمناً قليلاً /١٦٣/ فباعوها، والذخيرة التي كانت بقلعة حلب لو أنّ لها لساناً يتكلّم تظلّم، ولو أن لذهبها الذي تصرّم فؤاد تضرَّم، وحُمِلَتْ إلى الكفار فَضُرِبَتْ بها اسِنَّةٌ تطاعِن بها صدور المسلمين، أُو بقيت في أيديهم فضيعت لتنتهك بما فيها حرمة الدين، ومتى استشفّ النظر العالي حال الخادم معهم لمح أنّه من مبدأ وصولِهِ إلى الشام الذي نوى بِهِ في الكافر إقامة الجهاد، وفي الاسماعيلية إماتة الإلحاد، وفي المسلمين إزالة الفساد، شغلوه ثلاث سنين عن هذه الفرائض، وجاءته قوارِض لا تحتقر وقوارض، وقد استولوا على حلب بلا حجّة، وأخذوا ما فيها من الأموال بلا شبهة، وخرجوا عن اليمين المعقودة بلا معذرة، واستفزّوا مَنْ وافقهم من امراء المسلمين بلا جريمة، والخادم على أن أجاب رسلهم بأني قد رضيت الديوان العزيز حكماً، واخترتُ من اختاره الله للمسلمين قيّماً، فكان هذا الجواب أن يفرّوا إلى الفرنج، فحالفوا كفرتهم عليه، وإلى الاسماعيلية، فأنْهَضوا مجرمهم إليه، ونازلوا طرف بلاده، وهو متوسط بلاد الكفار، فهدموا قلعةً من قلاعها، كانت زينة سلم ومفزع حذار، وراسلهم واستنزلهم، وقال لهم قولاً ليناً، ظنّ أنه يحملهم به عنه، فحملهم، ثم ما برح كلما طوى بلادهم، وجاز مدنهم وسوادهم يمحضُهُمْ المناصحة، ويدعوهم إلى المصالحة، وممن عَرَضها عليهم على يده فامتنعوا، وشافههم على لسانه فما سمعوا، شيخ الشيوخ، وإن سُئل عن الشهادة أدّاها، وإلى مسطورِهِ في الديوان أبْداها، وبعد مصدر فلان عنه حشد عليه ملوك الأقطار، وخرجوا من دمنة القرية المحصَّنة والجدار، وتحرك إليهم فتحرّكوا لكن قدامه لا إليه، وراح إليهم فراحوا عنه، وكان ينتظر رواحهم عليه، وقتلهم السيف وهو في غمدِهِ، وكفى ما كان متوقعاً من قبل جدهم وقبل جدّه، وقد أخرجوه إلى أن أقطع البلاد الحلبية والجزيريّة الموصلية لمن يخدم عليها، وسبقوه بين يديه إليها، والله سبحانه، فقد أخذهم بما علم وعلموا /١٦٤/ وتمكّن منهم بما ظلموا، وماستبقاهم إلا لتكرر عليهم الرقة، فقد رقت لتقتل الشفار ولا لألين القول فقد سمي ليذبح الجزار، فأين كان التعلّق بالدرة العزيزة وهم يحاصرون دار السلام بأحزابهم، ويرامون التاج الشريف بنشّابهم، ويصافوّن الخلفاء مصافّة المواقف، ويكاشفونهم مكاشفة المخالف، ولو تحرّك اليوم متحرك كانوا له كنانة، ولكانت دارهم له خزانة، ويعلم أن الخادم ما ذَهبَتْ عنه، ويرجو الخادم بالموصل أن يكون الموصّل إلى القدس وسواحِلِهِ، ومستقرّ الكفر من القسطنطينية على بعد مراحلِهِ، وبلاد الكرج، فلوا أن لهم من الاسلام جار لاستباح

الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن فلو أن لها ماء سيف لأطفأ ما فيها من النار، إلى أن تعلوا كلمة الله العباسية الدنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المستعبدة معابد، والصليب المرفوع حَطباً طريحاً في المواقد، والناقوس الصَّهِل أخرس اللهجة في المشاهد، هذا كلّه يجري بمشيئة الله في السيرة الناصرية، فتحلى بها السير ويجلّي بها الغير، ولا يكلف الخادم منها مالاً ولا مدداً، ولا يتخلّف عن نصرة وليّ الله، إذْ كاد أعداء الله يكونون عليه لبدا، ولا يقول إنه ينقص ما في الديوان، بل يزيدهُ ولا يستفيدُه بل يُفيده، وإن استعظم هذا المأمول، واستقصر دون هذا المبذول، فالذي وقع أعظم من الذي يتوقع، والذي طلع أكثر من الذي يتطلّع، والذي رأى أمس أكثر من الذي يسمع، وقد علم الله سبحانه أنه لا يريد دنيا، بل يريدها لدنيا يتزيّدها ولكن ليقوى بها على تقوى يتزوّدَها، فإن أُعِين على النيّة، وإلا فقد حصل أجرها، وإن نجح جهد الإرادة في الدنيا، وإلاّ فقد سرَّ في الآخرة سرها.

ومنه قوله:

كلّ ما يرد على عبد المجلس، - لا زالت المسار على جانبهِ واردة، والأيام بامتداد عمرهِ واعدة - من أنفاسِهِ العطرةِ وكتبهِ البهجة النظرةِ، ولآرائِهِ التي تُمْطِرُ من صَدَرتْ إليه صوب الصواب، تحول لمن صدرت عنه ثوب الثواب، وتشهد له بالفضل /١٦٥/ الذي ليس له جاحد، وتذكرت بيت أبي عبادة[1]: [من الطويل]

ولَمْ أرَ أمثالَ الرِّجالِ تَفَاوتُوا ... إلى الفضلِ حتَّى عُدَّ ألْفٌ بواحِدِ

ثم سلك عبده غير هذا الجَدَد، ولا يقفُ عند هذا العدد، وينشد قول الآخر: [من الطويل]

وَمَا النَّاسُ إلا قدحةٌ أنتَ زَنْدُها ... وقطرةُ غَيثٍ أنتَ مُنشي سحابِها

فلا عدمت دول الاسلام، وصدور الايام منه البقية الصالحة، والحسنة الراجحة، والسيف الذي يبلى الأيام فهي غمده، وينظم الساعات محاسن فهى عقده، وإن تأخرت خدم عبدِهِ عن مجلسِهِ، وأمسك عن ان يقابل بِدُجاه نور قبسِهِ، فقد عَلِمَ أدام الله نعمته أن الطريق ليس بقاصد، والعدوّ ليس بواحد، وأن الكتب لها أقوام سوء في الطرقات، يقصدونها ويرصدونها، وأن فلجات الشام قد حال دونها، إلا أن الامور بمشيئة الله، قد سَفَرَ وجْهُ صلاحها، والليلة قد دَنَتْ من صباحها، والله تعالى يتم ما تَعِدُ به المخايل المتوسّمة، ويحرر الاسلام وأهله عواقب هذه المخايل المنجمة.

---

(١) ديوان البحتري ١/ ٦٢٥.

ومنها:

وقضايا كلُّها تُوجب أن ينعكف المجلس على فرضٍ يؤديه، ونُصْحٍ يهديه، ودعاء لمولى النعمة يُحفيه، والله مظهرٌ أثره ومخفيه، مع أنه لايدفع عن منزلته العليا وَدَرجته الكبرى من القلب الأصمع، والروع الأروع، والعزمات التي هي كألطاف الله التي منها الواقع ومنها المتوقع، فما حصر قط في مأزق إلاّ سفر عن نصر تبين فيه الأرواح من ثيابها، أوْ عن سلم يأتي فيها البيوت من أبوابها، وأما القرية المسؤولة له فهي من البغاث الذي لايصيده ذلك الجارح، وإن هذا ميدانٌ يضيق عن شأو ذلك القارح.

ومنه قولُهُ:

وَصَلَ، ـ وَصَلَ اللهُ المجلس السامي بأفضل وصائل نِعَمِهِ، ولا أخلى الدين من الفخر /١٦٦/ بأمس سيفِهِ ويوم قلمِهِ، وحمل مواقف الجهاد بثبوتِ قَدَمِهِ وخفوق عَلَمِهِ، وأدام تذكار خواطر الإسلام لأيام ذي سلمه، وأمتع المجد بأيام حياته التي هي تواريخ فخره وأيام حكمه ـ كتابٌ منه كريم، وكلّ ما يصل منه ما يُعدُّ إلا كريماً، وكلامٌ شريف شفّ يداً كليميّة، وشفى فؤادا كليما، وخطابٌ عذبٌ فاض على الأعين روضاً وجرى على الأكباد نسيما، وأبان منه على الحفاظ المحفوظ في شيمته، ولا نحسبها ينساه يوم لا يسأل حميمٌ حميما، أكرم كتاباً نقع الغلّة فطراً وطرا، وفرّج العلّة، فجرى مخرا، وأوْضَحَ محجّة النور لسالكها، فبدا بدراً، وسقى ماء الفضل فزها زهراً، وسبّح الله قارئه وأجرى أجراً، ومن الناس بسخط يكون للدنيا زيناً وللآخرةِ ذخرا، وقد علم الله أن العبد ليمتاح من بحرها، ويرتاح إلى ذكرها، ويستقصر سعيه، وإن كان يستوعب الأشواط ولا يرى عمله كفء نيّتِهِ في الخدمة، وإن كان مستوفي الأشراط فإنّه حسنة في الدهر، بالإضافة إلى أهل بيته وكلّهم حسنات، وغرسةٌ في الدهر كأنما كان أباؤهم رحمة الله عليهم من جناة الجنات، ولقد أعجبوا وأنجبوا، فهم المعنيون بقوله: الكم البنون ولهم البنات.

ومنه قوله:

وصَلَ ـ أدام الله أيامَ المجلس.،ولا زال سيبُه مسؤولا وسيفُهُ في الحقّ مسلولا، وأمره مقتبلاً، ومقبولا، وعدوّه بالاحسان أو بإساءته إلى نفسه مقتولاً، ووليّه على النجاة في الدارين مدلولاً، وبشْرُ وجهه بجود يدِهِ رسولا، وانعام لا يطمع بان يكون لتلك اليد في مضمار الكرم رسيلا ـ كتابٌ كريم يحمل على يد فلان، وثان[1] على يدِ

(١) في الأصل: ثانيا.

القاضي الواصل إلى مصر، ولم تزل أيادي المجلس تتصل إلى أوْليائه قربوا أو بعدوا، وقصّروا في الخدمة أو اجتهدوا، ووقف على الكتابين الكريمين اللذين قبلهما على أنهما يدان، واهتدى بهما على أنهما فرقدان، وإن لم يكونا يدين يُقبّل ظهرهما /١٦٧/ فإنهما يدا نِعَمٍ يجب شكرها، وإن لم يكونا فرقدا ليلٍ أنارا في سواد، فأنهما فرقدا نهار أنارا في مداد، ومايخرج عن تلك اليد، ولا يصدر عن ذلك الصدر إلاّ كلّ ما تكشف به الأنوار، وتروح به الأسرار، وتُجلب به المسار، وتجدد به المبار، ويبقى به شَرَفٌ لا يخلق جديده جديدُ الليل والنهار[١]، وأوْرَدَ نجم الدين من الأحوال هناك والضرورات إلى الكبير والقليل، وحسن السيرة المشتملة على الجميل، وأنه بمصر أدام الله ظلّه على مشقات العفاف، ويسلك لنفسه القصد، ويعطى منها الاشراف، وأن كرمه لا مادّة له ولا حاصل، ورواتب نفقاته لا أصل لها ولا واصل، وكُلَفُ خرجهِ لا محمول له ولا حامل، وذكر ذلك في كل مشهد حضره، وفي كل موقف وقَفَهُ، وبين يدي كل كبير عرفه، ورقاه إلى العلم الناصري فأثبته فيه ومكّنَهُ وكشَفَهُ، وتبع هذا الفقيه نجم الدين رأي أبيه رحمه الله في خدمة هذا البيت الذي كان يتعبَد به، ولولا الغلو، لقلتُ وكان يعبده، ومضى شهيداً في جنّة رحمته مستشهده، ووجب أن يَلْحَظَهُ المجلس بعين صاحبٍ سابق، ومحبّ صادق، وذي سريرة لا يخجل بها الواثق، وذي كفاية ينفذ في الأمور نفاذ السهم المارق، فما كلّ صاحبٍ له وجاهة في كل مكان، وإن كانَتْ له وجاهةٌ فقد لا يكون له جنان، وإن كان له جنان، فقد لا يكون له لسان، وإن كان له لسان فقد لا يكون له بيانٍ، وهذا يجمع هذه الشرائط، ويحضر في عقود المجالس فيكون فيها مكان الوسائط، ويقي لسانه وقلْبُه بادراك الفوائد واستدراك الفوارط، فهو أحقّ عبدٍ تضم على رقّه، وأولى وليّ يجازى بتصديقِهِ، وسبقه، على أن الآمال العظيمة، والمطالبة الكريمة تبلغ به الهمة الفخرية بأيْسر العزمات، وأدنى الحرمات، ولم يذكر في هذه الاجابة ما ذكر من أمره إلا أن كثيراً من الرسل الواردين والأصحاب /١٦٨/ الوافدين، يسعى في قصد مرسله ومقصدِهِ، وهذا سعى لمرسله بمفرده، وماجَعَلَ حظّ نفسه وغاية قصدِهِ إلاّ الخدمة، وبلوغ غرضها، وشكر النعمة والقيام بمفترضها، وإذا وردت الكتب الفخرية جدّدت نور ودّها فخرا. وفرضت على لساني مع شكرِهِ الذاتي شكرا، وعلى القلب موالاةً إلى موالاةٍ أُخْرى، وَرَدَتْ على المملوك مكاتبةٌ كريمة، رَفَعَها حيث تُرْفع العمائم، ومدَّ

---

(١) بعدها في الأصل: «وانه بمصر أدام الله ظله» وشطب عليها.

إليها كما يُمدُّ إلى الغمائم، وفضّها بعد أن قضى باللثم فَرْضَها، واستمْطرت نفسه سماها، فأرضت أرْضها، وكاد المملوك يَتَأمَّلُها، لولا أن دَمَعَ الناظر إلى العين سبقه على أنّه دمع قد تلوّن الألوان في فراقه، فلو فاض لعصفر الكتاب وخلقه، فلا أعْدَمَهُ الله المولى حاضراً وغائباً، ومشافهاً ومكاتباً، وأحلَّهُ في جانب السعادة، ويعزُّ على المملوك أن يحلّ من مولانا جانباً.

ومنه قولُهُ[١]:

وَرَد كتابه، ووقَفْتُ على ما أوْدعه من فضل خط وفصل خطاب، وعقائل عقول ما كنا لها من الأكفاء، وإن كانت من الخُطّاب، وآثار أقلام تناضل عن الملّة نضال النِّضال، وكأنها فضل سيقٍ لما يحُوزُه من حق السبق، وخَصْل[٢] الخصال فأعيذ الإسلام من عدمه. ولا عدم بسط قلمه وثبوت قَدَمِهِ، فإنه الآن عين الآثار وأثر الأعيان، وخاطر الحفظ، إلاّ أن الخطوب تصحب فيه خواطر النسيان، ولئن انتصر الدهر سطوا[٣] واخْتَصَر خطوا، فإنه سيف يمان، إن قَدُمَ عهداً، فقد حَسُنَ فرنداً[٤]وخَشُن حداً، وأجري نهرا، وأُوري شرراً، وأخضرَّ خميلة وقطع للأيام جميلة، وضارب[٥] ولبسها حتى أنْهَجَتْ بوالي، ثم اختار منها أيّاماً وأبى أن يلبسها ليالي.

ومنه قوله[٦]:

وَصَلَ كتاب الحضرة، فجعل مستقرُّه مستقرَّ النعمة[٧] في الصدور، وأخرجتني ظلمات خطّه إلى نور السرور، ووقفتُ وكأني واقف على طلل من الأحبّة، قد بكى عليه السحاب بِطلِّهِ، وابتسم له /١٦٩/ الروض عن أخبار أهلِهِ[٨]، فلم أزل أرشف مسك سطورِهِ ولُماها، وأنزِّهُ العين والقلب بين جنيها[٩] وجناها، وأطلق عنان شوقٍ

---

(١) نهاية الأرب ٨/ ٤١.

(٢) الخصل: الخطر الذي يتراهن عليه في الرمي، والخصال: مصدر خاصله، إذا راهنه في الرمي.

(٣) في نهاية الارب: ولين اهتصر الدهر سطوا.

(٤) فرند السيف: جوهره.

(٥) بعده في نهاية الارب: وضارب الأيام فأجفلت عن ضرائبه ضرائبها، وشُرِّدَت عن عزمه غرائبها، ولبسها....

(٦) نهاية الارب: ٨/ ٤٣.

(٧) في نهاية الارب: فجعل مستقرّه النعمة في الصدور.

(٨) بعده في نهاية الارب: وآثار منهلِّهِ.

(٩) في نهاية الأرب: حسنِهِ.

جَعَلَتُ الاقلام له أَنْجُما[١]، وحَسَبَتْ النفس ليلا والكتاب طيفاً، والوقوف عليه حلما، إلى أن قضتْ النفوسُ وَطَرا، وحَمَلَتْ الخواطر خَطَرا، وقرنته بما ظنّه سحاباً ما ظَنَّهُ مطرا، هذا على أنّه قريب العهد بيد النعماء، فإن هرَبَ فمن ماء إلى ماء..

ومنه قولُهُ[٢]:

وقف على الكتاب،[و] جدّد العهد بِلَثْمِهِ، لما لم يصل إلى اليد التي بعثتْهُ، وشفى القلب بضمّه عوضاً عن الجوانح التي نَفَثَتْهُ[٣]: [من المتقارب]

وأيــنَ الــمــطــامــعُ مــنْ وَصــلِــهِ ... ولــكــنْ أُعــلّــلُ قــلــبــاً عــلــيــلا

ومنه قوله رحمه الله[٤]:

وصل كتابه فكان من لقائه طيفاً إلا أنه أنِس[٥] بالضحى، وأثار حرب الشوق، وكان قطب الرحى [من الطويل]

تـخـطّـى إلـيَّ الـهـولَ والـقـفـرُ دونَـهُ ... واخـطـاره لا أصـغـر اللهُ مـمـشـاهُ

ومنه قوله يصف بلاغة كتاب[٦]:

كتاب إلى نحري ضممته، وذكرتُ به الزمن الذي ما ذممته، وأكبرت قدره، فحين تسلّمته أستلمته، والتقطت زهره فحين لمحته استملحته، وامتزج بأجزاء نفسي فحين لفظته حفظته، وجمعتُ بينه وبين مستقره من صدري، واستطلت به مع قصره على حادثة دهري، وجعلت سِحَره بين سَحْري ونحري، واستضأت به ورشفتُه، فهو نهاري، وهو نهري، فإن أردتُ العطر بلا أثرٍ أمسكتُ مسكَهُ بيدي، وإن أردتُ السكر بلا إثم[٧] أدرتُ كأسه في خلدي، فللّه أناملٍ رقَمَتْهُ ماأشرف آثارها، وخواطر أمْلَتْهُ ما أشرقَ أنوارها، ولم أزل متنقلا منه بين روضةٍ فيها غدير، وليلة فيها سمير، وإمارةٍ لها سرير، ومسرّةٍ أنا لها طليق أسير، ونعمةٍ أنا لها عبدٌ بل بها أمير، حتى أدْبَرَتْ عني جيوش الأسى مفلولة، وقَصُرَتْ عنّي يَدُ الهمّ مغلولة، ومُلئِت منّي مسامع الكلام حمداً، وخواطر الصنائع وداً، وحط الأمل / ١٧٠/ بربعي رَحْلَه، وأنْبَتَ الربيع بفنائي بَقْلَه، ولبستُ من الإقبال أشرف خلعة، ووردتُ من القبول أغْزَرَ شِرْعه، انتجعتُ مِنْ رياض الرجاء أرجَى نُجعة.

---

(١) في نهاية الأرب: لُجما.
(٢) نهاية الارب: ٨/ ٤٣.
(٣) ديوان القاضي: ٤٩٧.
(٤) نهاية الأرب ٨/ ٤٣.
(٥) في الأصل: إلا أنس.
(٦) نهاية الأرب: ٨/ ٤٤.
(٧) في الأصل: لثم، والتصويب عن نهاية الارب.

ومنه قوله[١]:

هذا مع عفو الخاطر[٢] فكيف إذا استدعى المجلس خطيّة خطّة فجاءت تعسل، وحشد حشود بلاغته، فأتت من كلّ حَدَب تَنْسِل[٣].

ومنه قولُهُ[٤]:

وَرَتَعَ في رياض بلاغته التي لم يقتطفهنّ من قَبْلِه غارس ولا جان. واجتلى الحور المقصورات في الطروس التي لم يطمثهنّ أنسٌ قبله ولا جان، وغني بتلك المحاسن غنًى خيراً من المال، واعتقد فيها كنوزاً[٥] إذا شاء أنفق منها الجمل، وإذا شاء أمسك منها الجمال.

ومنه قولُهُ أيضاً[٦]:

كتابا اشتمل على بديع المعاني وباهرها، وزَخَرَتْ بحارُ الفضل، إلا انني ما تعبتُ في استخراج جواهرها، بل سَبَحَتْ حتى تناولتها، وَجَنَحَتْ إليّ فما حاولْتها، وأقتبستُ من محاسن أوصافِهِ وبدائع أصنافِهِ، نكتاً استقلّت أجسامها[٧] بالأرواح، وَزَهَتْ جيادها بما فيها من الغُرر والأوضاح، فيا لله من بدائع وروائع ولطائف وطرائف، فيها ماتشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، ومايقرّط الأسماع وتَقرظ الألسن، كأنه طرفُ طرف، صوبُهُ مدرار، وعَلَمُ عِلْمٍ منصوب في رأسه نار، صحح السحر وإن كان ظنّاً، وفضح الدرَّ إذْ[٨] كان أبرع معنىً، وأسنى حُسْناً، وأدنى مجنى، وأغنى مغنى، فما ضرّت تأخير زمانِهِ، مع تقديم بيانِهِ، ولا مَنْ سَبَقَهُ في عصره، مع أنه سبق في مصره[٩].

ومنه قوله[١٠]:

ولله هو من كتاب، لمَا وقفَتْ عليه الغُلَّةُ شفاها، وحدثها الودّ شفاها. ورأت وردها كلَّ ماءٍ غيره شِفاها[١١]، ووطّأ مضاجع أُنْسِها بعد أن كان الشوق يقلب الجنوب على سِفاها[١٢]، فلا عُدم ودّها الذي به عن كل مودة سلوة، ولا برحت

(١) نهاية الأرب ٨/ ٤٤.
(٢) في نهاية الأرب: الخواطر.
(٣) تنسل: تسرع.
(٤) نهاية الأرب ٨/ ٤٥.
(٥) في الأصل: كؤوساً وهو تحريف، والتصويب عن نهاية الأرب.
(٦) نهاية الأرب ٨/ ٤٥.
(٧) في نهاية الأرب: أجسادها.
(٨) في الأصل: وإن.
(٩) في نهاية الأرب: شعره.
(١٠) نهاية الأرب ٨/ ٤٦.
(١١) في نهاية الأرب: شفاها، أي جهلاً.
(١٢) في الأصل: شفاها وهو تحريف، والسفاه: الشوك.

كفاية الله تحلّها في الذرى، وتعلي قدرها في الذروة، ولا فقد ممن يُنْعم به أيَّ نعمةٍ وما يُنْشيه أيّ نشوة.

/ ١٧١/ ومنه قولُه[١]:

كتاب كريم تبسَّم إليّ ضاحكاً، وظنَّ مداده أنه قد خط[٢] سطره عليّ حالكاً، فما هو إلاّ سواد الحَدَقَةِ منه انبعثت الأنوار، وماهو إلا سويداء ليلة الوصل اشتملت[٣] على دجّى تحته نهار، فللّه هو من كتابٍ استغفر الدهر ذنب همز المشيب[٤] بسوادِهِ، واستدرك الزمان غلطه بسدادهِ.

ومنه قوله[٥]:

كتاب تقارَعَتْ الجوارح عليه فما كادت[٦] تتساهم، فقالت اليد: أنا أولى به، شددتُ على مولاه ومولاي عَقدَ خِنْصِري، ورفعتُ اسمه فوق منبري، وقبضتُ عليه قبضتي، وبسطتُ في بسط راحته وقت الدعاء راحتي، وقالت العين: أنا أوْلى به، أنا وعاءُ شخصه، وإليَّ يرجع القلبُ في تمثيله ونصّه، وأنا سهرت بعد رحيله، وعندي وحشة[٧] وأنا إذا ذكر[٨] هجير القلب عليه رشَّةً بعد رشَّة، فقال القلبُ: طمعتما في حقّي؛ لأني غائب، وهل أنتِ لي يا يد إلاّ خادم؟، وهل أنتِ لي يا عين إلاّ حاجب؟ أنا مستقرّه ومستودعه، ومرتَعُهُ ومَشْرعُهُ، وأنا أذكرُهُ، وبه أذكُركُما وأُحضِرُهُ، بخدمته أحضركما، فاليد استخدمتها مرةً في الكتاب إليه، ومرةً في شدّ الخنصر عليه. ومرةً في الإشارة إلى فضلِهِ، ومرةً في الدعاء بكلِّ صالح هو من أهلِهِ، والعين استخدمتها في ملاحة وجهه غائباً، وفي توقّع لقائه[٩] آيباً، وفي السهد شوقاً إلى قربهِ المطالعة لما يخرج أمري بكتبه من كتبه، فهناك سلَّمنا واستخرنا واكتفينا[١٠] واستأخرنا، وكدتُ ارشف نِقْسَهُ[١١] إلى أن أنقله إلى سويداه، لولا أن سواد العين قال: أنا أحوج إلى الاستهداء من هداه[١٢].

ومنه قوله:

---

(١) نهاية الأرب ٨/٤٦.
(٢) في نهاية الأرب: جلا.
(٣) في الأصل: اشتمل.
(٤) في نهاية الأرب: ذنب المشيب.
(٥) نهاية الأرب: ٨/٤٦.
(٦) نهاية الارب: عليه كادت.
(٧) في نهاية الأرب: بعد رحيله وحشة.
(٨) في الأصل: وأنا اذكر ذكر.
(٩) في نهاية الأرب: وألقتا.
(١٠) في النهاية: واستجرّنا، وألقتا، واستأخرنا.
(١١) النقس، بالكسر: المداد.
(١٢) في الأصل: بهداه، والتصويب عن نهاية الأرب.

وَرَدَ كتاباه الكريمان فسرّا وبرّا، وتصرفا في القدر فنصبا، وفي الطرف فرفعا، وفي الأنس فجرا، وما وقف على صدر منهما إلاّ شهد القلب بأنه أوْلى الصدور بأن يكون صدرا، ولا أهديا إليه يداً كبرى إلا افضيا به إلى بحرٍ، وما دار في خَلَدِهِ أن البحر يكون كلّه دراً، وتحقق ما له منه من مناب / ١٧٢/ يصرفه كلما ناب، ويؤنسه في كلّ ما راب، ويلبّيه إذا دعا، ويزيده بصيرةً إذا أجاب، ويصله إذا غبّ ويحضره إذا غاب، ويبعثُ عزمه إذا ألَبّ؛ ويورد أَمَلَهُ إذا لاب، فعلى هذا، المقدمات تنتج، ومتى عرضت عوارض من الشك تزدحم، سَنَحَتْ سوانح من الثقة تفرج، وقد علم ما رامت عليه هذه الأحوال التي يظنّ انها في أعقابها وهي في مباديها، وما أسْفَرَتْ عنه هذه الليالي التي يحسبُ انها في بلجة غررها وهي في دهمة دآديها، وليس للمعضل من الداء إلا كية، وليس للغازي إلا الشهاب الذي يدخر به استراقه ويحسم به غيّهُ، وقد طالع الديوان العزيز بما يرغب في الوقوف عليه، والمشورة بما وقعت الإشارة إليه، فلم يكلف المجلس ذلك إلا لأنّ الملتمس من التقليد لصلاح الجملة وصلاح الدولة، باد قبله، ولمحل الخلافة شرفها الله رافع قبل أن يرفع محله، وما شام من ذلك أمْراً يصعب مثله، ولا ذخراً يتعذّر بذله، ولا جيشاً يخلو فناء الخلافة بأن ينقص عنها جعله، ولا عزل والٍ يجلُّ على الإسلام عزلُه. ولا تجريد سيف من يد الخلافة العالية يتوقى أن لا يمضي نصله، ولم يسم إلاّ إلى ما أفاده إليه ولاؤهُ، واعتقاده، ووفقه عبده نظره واعتقاده من أن يكون نظرهُ شرعياً، وتصرفه بعين الخلافة مرعيّاً، وتقلّده سنيّاً، وجمعه اجماعيا، فتكون الأمور أمراً واحداً، والمناهج المختلفة القصد نهجاً قاصداً، والرايات القاعدة عن الكفار رايةً مستقلة، يؤنسها الانفراد، وينهضها الجهاد، ويبيض عواقبها السواد، لا تختلف تحتها الآراء، ولا تتشتت عندها الأهواء، ولا يعوزها النصر في الأرض إلاّ أن ينزل من السماء، ولا يحوجها التأييد، إلاّ أن تصحر إلى الفضاء، هذا إلى ما ينضاف إلى يد الخلافة وكلمتها من بلاد بها تخص ومنابر ومنائر تعلو سماؤها عليها وتنص، فالسعادات سمحة إن تسمحوا، والدنيا مستفتحة إن تستفتحوا، والممتنعات ما دونها حجاب / ١٧٣/ والدين لا يصلب دون فطرته صخر، ولا يبعد دون تناوله سحاب، والمجلس السامي يتأمل المراد بعين الولاء، ولخادمه بعين المحبّة، ويعلم أن مثل الحروف المثبتة في هذا التقليد ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾[1]، وما أحراه في ذلك

(١) سورة البقرة: ٢٦١.

بتحريه، وما أوْلاه في هذا المهمّ بما يوليه، فإنه إذا أنجز ما وعد به حسن الظنّ، وأهدى إليه وإلى الأسلام ما يكسبه القوّة، وإلى آلامه ما يحميها الوهن، فليذهب أدام الله نعمته من ذلك بواحدةٍ ما ذَهَبَ بمثلها من الدنيا واجد، وليقرر المجد بعظمتِهِ ما جَدَّ في مثلها ما جد، وليكن أدام الله دولته مع الحقّ، فإن الذي يُدعى إليه هو الحق، والرجل الذي يُعرف ما بين الرجال من الفرق.

ومنه قولُهُ:

وما بَرِحَ قَلَمُهُ يقوم خطيباً في محافلها، ونائباً عن مناصلها، ومعظماً لشعائرها بشعارها، ومعلنا لمآثرها بآثارها، ومناضلا لأعدائها بكل قطّاعة العرى، طلاّعة الذرى، إلى غير ذلك من توشيحه مدارس التدريس، بالدعاء بخلود أيامها، ونفوذ أحكامها، والرواية عن سَلَف الأئمة الصالح من آباء أمير المؤمنين وأجدادِهِ، والتنبيه على مناقب الدولة التي يجدع بها أُنوف أعدائه وأضْدادِهِ، هذا إلى أنه ربي في ظلال الدولة العزيزة الممدودة، وتصرف في خدمها المحمودة، وأدرك الصدور من خدّامها، وأدّى أمانتيْ اللسان واليد في استخدامها، وهذّبته تلك الآداب إلى أن أمِنَ العثار. واعتدّ الخادم به من إنعام الدولة التي حصلت له قبل الحاجة الاقدار، وقد أضاف إلى تلك الحقوق التالدة حقاً طارِفاً، واستأنف إلى تلك الأسباب القديمة سبباً آنفاً، وهو صحبة الخادم، وكتابه عن يده، وترجمته عن معتقدِهِ، وثقته بمغيبه ومشهدِهِ، ومجادلة أعداء الدولة بلسانِهِ ويراعه، وإبهاته أبصار أوليائها، بالقول المحكوم على كل ذي لبّ باتباعه / ١٧٤/ وله مما أقناهُ الأنعام الشريف، ملك بواسط في شركة أقاربه ما برحت العناية متوفرة بعقودِهِ حاميةً لحقوقه وحدوده مثمرة لمستغلّه، مزجية لدخله، مانعة الأيدي من أن تتطرق إليه أو تتسلّط عليه، وقد تجدّد الآن من مفظعي المجاورين لملكِهِ دخول في الحدود، وخروج عن العهود، ودعوى معوزة البراهين والشهود، والمسؤول فيه خروج الأمر بما يزيل صادق الشكوى، ويبطل كاذب الدعوى، ويردّ الحق ويحمي الحدود، وبيدِهِ توقيعات إماميّة أجرته على ما يلتمس الآن الإجراء عليه، ولو لم يكن هذا الحدّ بيدِهِ لما استكثر الانعام أن يصفح له عنه، ويعاد إليه، فكيف والحجج الشرعية والتواقيع الإمامية مثبتَةٌ لحقِّهِ، شاهدة بقدم ملكه وسَبْقِهِ، والمتوقّع إجابة سؤاله، فقد جرّده، وإن تأخرت الإجابة بالإيجاب جدّده.

ومنه قولُهُ:

أعاذ الله المجلس، ولا برحت الأيام شاكرةً لأيامه والصوارم معدودة من حسّادِ

أقلامه، الهمّة العالية مذحورة عند المهمات، مستضاء بأنوارها في ليالي القصد المدلهمّات، والآراء المجدبة مُسْتَمَدَّة بحمد الله من المكرمات، تسل بها ولا سيما إلى أهلها، ويأتيها على عِلْم إذا أتَى على الناس من جهلها، ويبتكرها بخاطِرٍ خطّار، ويبتدرها بضمير فضل لا يُجارى في مضمار، وإذا عرضت اللبانة أنزلت بكرمه الفسيح اللبان، وحَدَتْ ركابها إلى أفناءٍ إحسانه الذي ينتهي إليه غاية سرى الركبان، وقد قصد هذه الخدمة على حال تفصيل فلان في ملك له بواسط، قد استولى عليه من حادده وجاده من القطعين، وأضرّ به مَنْ حاز عليه من المجاورين، ومعه من التوقيعات الامامية ما يوضّح الإشكال، ويرشد من الضلال، ولو لم يكن الحد له مستحقاً، والملك بيده مسترقاً لوسعه من الانعام ما يسع مَنْ ليس له من الخدمة المرعية، والأذمّة المرئية، كما لهذا المذكور، فله [من] ولاء الدولة الشريفة السبب الوثيق / ١٧٥/ والعِرق العريق، والسابقة التي لاتمارى، واللاحقة التي لاتجارى، والنشأة في ظلال الدار العزيزة، والتربية في اكنافها الحريزة، واستداد العلم من بحرها، واستمطار الأدب مِن قطرها، واستلماح الأنوار من فجرها، والتقلّب في آلائها، والثبوت على ولائها، والمناضلة بلسانه وقلمِهِ الذين يلحدون في أسمائها، إلى غير ذلك من المكاتبات التي يجاهد فيها عن الدولة الناصرية حق الجهاد، ويرهف بها الأولياء ويفلّ الأضداد، ويستعطف بها القلوب النافرة، ويجمع بها الأهواء المتنافرة، ويجادل فيها بالتي هي أحسن، وبالتي هي أخْشَنْ، ويوضح حقها بالتي تثبت من أخْلَصَ، وتستخلص من أدْهَنَ، والمجلس السامي عارف بقديمه وحديثه، ومكتسبه وموروثه، معرفة توجب الذمام، وتنجح المرام، وتدخر الأيام، وتتوقع ظهور ثمرتها في اوقات القدرة. لا عطل المجلس من حُليّها، ولا خَلا من اقتطاف ماحلا مِنْ جَنِيّها، فإنه جانب من الدولة العالية، لا ينفصل عنها ولا يخرج منها ولا يُعَدُّ إلاّ من أقطارها ولا ينتظم القائِم به إلا في أنصارها، وقد شرع في الشكر ثقة بالنجح، وأُلقيت عصا السّرى علماً انها مسبوقة الحمل بطلوع الصبح، وتركت محاربه خواطر الشك علماً أن المطالب به مُذْعِنة إلى الصلح، والمجلس السامي سريعة ورده، وفلك القصد والهمّة المجدية طليقة سعدِة، ومن وَرَدَ عنايته فقد استكره الموارد، ومن جعله قِبْلَة القصد فقد استنجح المقاصد، والمتوقع وصول كتاب أخيه الشاكر لأنعامه، الداعي لأيامه، بأن هذا الحدّ رفعت عنه اليد، ولئن تكاثفت الأشغال عليها، وتَزاحَمَتْ المهمات لديها، فما هي لخواطرها إلا بمثابة الصقال للسيوف المرهفة، ومرور النسيم بالرياض المفوّفَة، فالصقل للأولى يفيدها قطعاً ولمعاً، والنسيم للأخرى

يفيدها نَفْحاً ونَفْعاً، ولا شبهة في أنها مدفوعة إلى بحر أشغال /١٧٦/ متدافع، ومقذوف بها في بحر هولٍ يرجع عنه كلُّ طمعٍ متراجع، وهي بحمد الله سابقة للطبع فائقة، فالعقبة الكؤود لا تؤود، وعزمها فيماً ترقّ له الصخور لا يجور، والله تعالى يحسن إليها كما أحسن بها، ويجعل لها راحة عنده في تعبها، وخواطر المحبين لخواطر الشعراء في كل واد تهيم، وكلما أمل القرب يومَ مسفر قد دفعه الدهر بليلٍ بهيم، وكتابها الكريم، فينعم به مضمناً ما يسنح من خبرها، ويعز من وطرها، والله لا يعدمني خبرها إلاّ بوجهها، وكتابها إلاّ بنظرها.

ومنه قوله:

ما أصدرت هذه الخدمة إلى مجلس الحضرة العالية، لا زالت الأيام خداماً لخواطرها، والأسماع نطاقاً لجواهرها، والطروس ساحلاً لزواجرها، والمسارُّ ساريةً إلى سرائرها، والأيام قاضية بكل قاضية عليهم، بخفضٍ من محلّهم، وترفع من محلّها، ويعقد لها عُقْدة عزّ تعجز أيديهم عن حلّها، من ثغر الاسكندرية حماه الله عند الوصل إليه لخدمة الصريخ المعظمي الذي حلّ فيه ملك الكرماء، ولزيارة القبر الحافظي الذي حلَّ فيه ملك العلماء، والله تعالى، يؤجر الكافة في الفجيعة بالعلم والكرم، على أن الحضرة العمادية أُوْلي الكرم والعلم، فلا تشتكي العدم، ولا بدّ أن أخرج إلى مراد هذه الخدمة وثباً كخروج البحتري إلى مدائحه، وان أهزّ عزمها لامرٍ مهم تثاب في تسبيب مناجحه، ولا أُطيل بذكره، فإنه في الخدمة الناصرية الصادرة عني في معنى الفقيه ابن سلامة[1]، وهي تفعل ما يقوم الله عز وجل بأجره وأقوم أنا بشكره، وما بعده مما يبيض الصحيفة علىٰ انها نظيفة، ومما يتوصل إلى المراد الجليل منه بفكرتها الدقيقة اللطيفة، وقد ضاق وقتي عن مكاتبةٍ أعزِّيه بمقتضاها، فأسألها إن كان الركاب العزّي أدام الله أيامه، ونَصَرَ أعلامه، بالعسكر المنصور فتعرض عليه الفضل من المطالعة، /١٧٧/ ولا أقول: ويهزّ عزمه، فإنه سيف قاطع لذاته، يستحيل أن يرى إلاّ قاطعاً. وموَلّى يرى الثواب من لذاته فلا يمكن أن يرى إلى داعيه إلا مُسارِعاً، ومَنْ عوَّل على خطابه في الأسفار التي تملأ الغرائر، ولا تستقل بها إلاّ الأباعر، فإني أقول في خطابها على اللفظة المعرضة، ومَنْ استدعيت عزائمه

(١) هبة الله سلامة بن المسلم، أبو الفضائل اللخمي المصري الشافعي. ولد ينة ٥٣١هـ تقديراً ووصل إلى العراق وسمع بالشام وبمصر وبالاسكندرية، وروي عنه، مات سنة ٦٠٧هـ.
انظر: التكملة لوفيات النقلة ٢/ ١١٢ والوافي بالوفيات ١٧/ ٢٧٥.

بالمماشاة والمصافحة فإنني استدعي عزمها باللحظة الممرضة. لا زالت مساعيها مقرونة بالمساعد، وهممها موفية لما كلفته عنها الظنون الحسنة المواعد.

ومن شعره قوله[١]: [من الكامل]

أن البنانَ الخمسَ أكفاءٌ معاً ... والحلي دون جميعها للخنْصِرِ
وإذا الفتى فقدَ الشَّبابَ نَشَا له ... حبُّ البنينِ ولا كحبِّ الأصغرِ
واخصصْ بوسم تحيتي مَنْ لَمْ أبُحْ ... لكَ باسمِهِ ولعلّهُ لمْ يُذكرِ
ممّنْ أودُّ لَهُ الردى لا عَنْ قِلًى ... وتودُّ لَوْ أبقَىٰ بقاءَ الأدهُرِ

ومنه قوله[٢]: [من الوافر]

ذكرتُ وجوهكمْ والبدرُ يسري ... كِلا البدرينِ مسكنُهُ السحابُ
سقاني الله قربكَ عنْ قريبٍ ... دعاء كان واختصرَ الخطابُ

ومنه قوله[٣]: [من البسيط]

تفدي الليالي التي بالسعدِ تُسخطُني ... تلكَ اللياليَ التي بالقربِ تُرضيني
كانتْ بِكُمْ فَرَعَاها اللهُ تُضحكني ... فأصبَحَتْ لا رعاها اللهُ تُبكيني
يا بُعْدَهَا غايةً للشَّوقِ غائلةً ... من غَوْرِ مصرَ إلى علياءِ جيرونِ
أودعتمْ مسمعي مكنون درّكُمُ ... فهاكُمُ دُرّ دمعي غيرَ مكنونِ

ومنه قوله[٤]: [من البسيط]

منْ أينَ أنتِ ومنْ ياريحُ أين أنا ... الجدّ خُلُقي ومِنْ أخلاقك العَبَثُ
ما جئتِ مبعوثة بل جئتِ باعثةً ... هَمِّي ولا خاطرٌ في الهمِّ منبعثُ
لبثتُ في الحبِّ عمراً لا أحصلُهُ ... كفتيةِ الكهفِ لا يدرونَ ما لبثُوا
/١٧٨ فكرّوا اللواحظَ بحثاً عنْ محاسنِهِ ... وما دَروا أنّهمْ عنْ حتفهمْ بَحَثُوا

ومنه قولُهُ[٥]: [من الكامل]

زار الصباحُ فكيفَ حظّكَ يا دُجَى ... قمْ فاستَدِمْ بفُروعِهِ أو فالنَّجَا
رأتِ الغصونُ قوامَهُ فتأوّدَتْ ... [و] الروضُ أنشرَ نشرَهُ فتأرّجا
يا زائري مِنْ بعدِ يأسٍ ربّما ... تُمنى المُنى منْ بعدِ إرجاءِ الرَّجا
أتُرى الهلال ركبتَ منهُ زورقاً ... أولاً فكيفَ قطعتَ بحراً منْ دُجَى

---

(١) ديوان القاضي ٤٤٢.
(٢) ديوانه: ١٦٣.
(٣) ديوانه: ١٢٣.
(٤) ديوانه: ٢١.
(٥) ديوانه: ١٣٥.

أم زرتـنـي ومـنَ الـنـجـومِ ركـائـبٌ فـأرىٰ ثـريّـاهَـا تُـريـنـي هَـوْدَجـا
لـعبتْ جُفونُكَ بـالقـلوبِ وحبُّهـا والـخـدّ مـيـدانٌ وصـدغـكَ صـولـجـا

منها:

لا أرتـجـي إلاّ الـكـرامـةَ وَحْـدَهـا فـالـمـالُ قـدْ أعـجـلْـتُـه انْ يُـرتـجـى
تـتـلـو الـلـيـالـي سـورةً مـنْ فَـضْـلِـكُـم فـتُـقـيـمـهـا شـعـراؤُكُـم أنْـمـوذجـا

منها:

نـــارانِ نـــارُ قـــرًى ونـــارُ وقـــائـــعٍ لـــلّـــهِ درّكَ مُـــطْـــفـــيـــاً ومـــؤجّـــجـــا
بـاشـرت بُـشـرَكَ لا بـمـنّـةِ شـافـعٍ فَغَنِيت يا شمس الضُّحى أن أسرجا

ومنه قوله[1]: [من البسيط]

قـاتـل بـغـيـر سـلاحِ الـهـجـرِ إن لـه حَزْماً تـسـيـلُ دموعـي مـنـهُ وهـي دَمُ
كـتـمـتُ مـا بـيَ فـي وجـهـي دلائـلُـهُ والـهـمُّ نـارٌ فـقـل لـي كـيـف يـنـكـتـم

وقوله[2]: [من الوافر]

ومـيـدان خـدّه بـخـيـول لـثـمـي وصـولـجُ صُـدغِـهِ والـخـالُ أُكْـرَهْ
تَـلِـفْـتُ بـشـعـرهِ وسـمـعـتُ غـيـري يـقـول: سـلـمـتُ مـن تـلـفـى بـشـعـرهْ
بـكَـيـتُ عـلـيـكَ مـلءَ الـعـيـنِ حـتّـى بقيتَ بأدمُعي في الشمسِ عُصْرَهْ[3]

وقوله[4]: [من مجزوء الرجز]

مــمــسّــحــة نــهــارُهــا يــجــنُّ لــيــلَ الــظُّــلَــم
كــأنــهــا مُــذْ خُــلِــقــتْ مــنــديــلُ كُــمٍّ الــقَــلَــمِ

ومنه أخذ شافع[5] قولَهُ: [من الوافر]

وَمَـمْـسَـحَـةٍ تـنـاهـى الـحُـسْـنُ فـيـهـا فـأضـحـتْ فـي الـمَـلاحـةِ لا تُـبـارى
ولا تُـنْـكـر عـلـى الـقـلـمِ الـموافـي إذا فـي وصـلِـهَـا خَـلَـعَ الـعـذارا

---

(١) ديوانه: ١٠٧.
(٢) ديوانه: ٢٢٧.
(٣) في الديوان:
ولا اسـتـمـطـرتُ سُـحـبَ الـعـيـنِ إلا بـقـيـتَ يـا دمـعـي فـي الـشـمـسِ عُـصْـره
بـكـيـتُ عـلـيـكَ يـا مـولايَ حـتـى صـرعـتُ، ولـيـسَ فـي عَـيـنـي قَـطْـرَهْ
(٤) ديوانه: ٤٤٤.
(٥) شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني، كان يباشر الانشاء بمصر، توفي سنة ٧٣٠هـ (الوافي ١٦/ ٧٧).

والاصل قول ذي الرئاستين[1]: [من المنسرح]

ممسحة تكتم الظلامَ فما ... تبديهِ إلا سوافِرُ الظُّلَم

تُودع فيها الاقلامُ فَضْلَةَ مَا ... تنفقهُ في مصالحِ الأممِ

عدنا إلى الفاضل، ومنه قوله[2]: [من الكامل]

منعت دموعَ العينِ مِنْ أطلالي ... لأرى صنيعَ الدهرِ بالأطلالِ

ومِنَ المساءةِ ما يكون مسرَّةً ... ما الدمع ان حجب المكارهَ عالي

ومنه قوله[3]: [من الطويل]

أيا بدرُ قد أسهرت عينيَ فارقُدِ ... وشاهدتَ ما جاهدتُ يا نجمُ فاجهدِ

إذا لم تعاينْ في الصباح مسرَّةً ... فلا تحسبنَّ الليلَ ليس بِسَرْمَدِ

ويا عاذلي رفقاً كفاني صَدُودُهُ ... فإنْ شئتَ فانقصْ منْ ملامِكَ أوْ زدِ

تمازج في خدّيهِ ماءٌ وجَمْرةٌ ... تمازجَ دمعي في الهوى وتوقّدي

وقوله: [من الطويل]

وفَوا غيرَ أنَّ السمهري وأنَّهُ ... يَحارُ بأيديهمْ شكا للمهنّدِ

لهمْ في الوَغَىٰ أغصانُ سُمْرٍكأنما ... تحفّ إذا أجْرى الدماءَ بموردِ

وقوله: [من الطويل]

جمعتَ الذي فيهمْ وزدتَ عليهمُ ... فأنتَ كمعنى ناظمٍ متولّدِ

وما فوقَ ما قد نلتَهُ منْ زيادةٍ ... بلِ اللهُ أوْلى بالزيادةِ فازدَدِ

وقولُه[4]: [من السريع]

لاحَ وفي خدّيهِ ديباجةٌ ... طرّزها الشعر بلبلابِ

بابُ سُلُوّي دونَهُ مُغْلَقٌ ... وصُدغُهُ الزرفينُ للبابِ[5]

/١٨٠/ يا مانعي حتى مواعيدَهُ ... مَنْ لي بوعدٍ منكَ كذّابِ

وقوله من مرثية في أخيه[6]: [من الطويل]

خليليّ قد أبصرتُ عيشيَ بعدَهُ ... كأني قدْ أبْصرتُ عيشي من بعدي

---

(١) ذو الرئاستين، الفضل بن سهل، وزير المأمون العباسي، توفي سنة ٢٠٢ (وفيات الأعيان ٤/ ٤١).

(٢) البيتان لم يردا في ديوانه.

(٣) ديوانه: ١٩٤.

(٤) ديوانه: ١٨.

(٥) الزرفين: حلقة الباب.

(٦) ديوانه: ٣٩٢.

وقد كنتُ اشكو البُعْدَ والقُربُ يُرْتجى فكيفَ أكونُ اليومَ في اليأسِ والبعْدِ
وكـانَ أَجَـلَّ الـخـطـبِ عـنـدي صـدُّهُ فمنْ ليْ وطُوبى لو رجعتُ إلى الصَّدّ
إذا مـا فـقـدتَ الأُنـسَ مِـمّـنْ تُـحِـبُّـهُ فنفسُكَ لا المحبوبُ أفجعُ بالفقْدِ

وقوله منها: [من الطويل]

قـتـلـت أسًـى لـمـا بـقـيـت مـكـارمـاً فأصبحتُ في دارٍ وأصبحتَ في لَحْدِ
لـيـهـنـكَ مـنْ بـعـدِ الـرَّدَى بـاقـيَ الـثَّـنـا وإنْ كنتَ مِنْ تحتِ الثرى باليَ البُرْدِ

وقوله(١): [من البسيط]

أشـكـو إلـيـكَ جُـفُـونـاً عـيـنُـهـا أبـداً عـيـنٌ تُـتَـرجـمُ عـنْ نـيـرانِ أحـشـائي
كـأنَّ إنـسـانَـهـا وافَـى بـمُـعـجـزةٍ فكـانَ مِنْ أدمعي يمشي على الماءِ

وقوله من قصيدة(٢): [من الكامل]

إنَّ الـشـجـاعـةَ وهـيَ مِـنْ أوْصـافِـهِ غَـلَـبَـتْ عـلـيـهِ وهـيَ مِـنْ أسـمـائـهِ(٣)
يَـقْـرِي الـطـيـورَ طـعـانُـهُ فـضـيـوفُـهُ تـنـتـابُـهُ مِـنْ أرضِـهِ وسـمـائِـهِ

وقوله من قصيدة(٤): [من الخفيف]

لا تُـحَـدّثْ سـواكَ نـفـسـي بـفـضـلٍ ذاك رَجَـعٌ عـن الأمـانـي بـعـيـدُ

وقوله منها:

وانْـجَـلَـتْ مـصـرُ إذْ تـجَـلَّـى عَـرُوسـاً وكـأنَّ الاهـرامَ فـيـهـا نُـهُـودُ

وقوله: [من الخفيف]

أنـا مِـنْ قَـائـمِ الـحُـسَـامِ نَـذِيـرٌ فَـهْـوَ إنْ قـامَ فـالـرؤوس حَـصِـيـدُ
هـو كـأسٌ وسَـكْـرَةُ الـمـوتِ قـالـتْ ذاكَ مـنِّـي مـا كـنـتَ مـنـه تَـحِـيـدُ
ومـتـى يـلـفـظُ الـعـدوّ بِـقَـولٍ فـعـلـيـهِ مـنـهُ رقـيـبٌ عَـتـيـدُ

/ ١٨١/ وقوله: [من الخفيف]

وإذا رِشْـتَ بـالأيـادي جَـنَـاحـي فـمـعـانـي الـعَـلاءِ مـمـا أَصِـيـدُ

وقوله من أبيات(٥): [من الطويل]

سـأشـكـرُ عـنْ شُـكْـرِي نَـدَاهُ لـعـلّـهُ يـقـومُ لـهـا ذَنْـبِـي بـأحـسـنِ عُـذْرِهِ

---

(١) ديوانه ص٢. (٢) ديوانه ص١٣٤.
(٣) كذا في الأصل والديوان، والعجز مكسور الوزن.
(٤) ديوانه: ١٩٥. (٥) ديوانه ص٢٣٥.

إذا أنا بعدَ الجُهْدِ قصّرتُ شاكراً فقدْ صارَ للتقصيرِ ذنبي كشكرِهِ

وقوله[1]: [من الطويل]

إذا أنْتَ أعطيتَ اللُّهى بذريعةٍ فلا تشكرَن إلا لتلكَ الذرائعِ

وقوله من مرثية في أخيه[2]: [من مجزوء الكامل]

أأُخيَّ هونتَ الحِما مَ فكانَ يضعفُ عنهُ عزمي

لَمْ لا أهوِّنُهُ وقدْ قَدَّمْتُ رُوحِي قَبْلَ جِسْمِي

وقولهُ[3]: [من الكامل]

وإذا اجتليتَ عقودَ أسْطرِهِ ظَفرَ الهَوىٰ بمراشفٍ لُعْسِ

وقوله[4]: [من البسيط]

ما حَلّ هذا الهوى إلاّ لأرتَحِلا ولا سَرَىٰ الدمعُ إلاّ عَنْ هَوًى نَزَلا

ولا بعثتُ خيولَ الدمع خَلفَكُمُ إلا لتلحقَ قَلْبَاً فيكُمُ رَحَلا

يا رَبْعُ مَا أنْتَ إذْ زُمّتْ رحالُهُمُ للبينِ أوّل صبٍّ ألْبَسوه بلىٰ

وقَدْ تَمثَّلْتَ في تركِ الجَوَابِ بهِمْ فما تُجيبُ كَمَا كانوا لِمَن سَألا

وقفتُ فيهِ فقالَ النَّاسُ مِنْ سَقَمي أَمَا ترىٰ طَلَلا يستخبِرُ الطّلَلا

وقوله[5]: [من الكامل]

أسديُّ أفكارٍ إذا ليلُ الأسَىٰ أرْخَىٰ دُجاهُ فرأيُهُ السرحانُ

هذا وكمْ لَكَ في الوغى من عَزْمَةٍ بكَّرنَ من ثِقَةٍ بها العقبانُ

تغدو خِماصاً [مثل][6] ما قد مثلُوا في حربهِ وتروح وهيَ بِطَان

وعلمتُ أنَّ حديثَ كِسْرَىٰ بعدَهُ زورٌ فَلَمْ يتشامخِ الإيوانُ

لو عاشَ شاهنشاهُ أيْقَنَ أنَّهُ ملكُ الدسوت وأنه الفرزانُ

تِلكَ التواقيعُ التي هي جنَّةٌ أقلامُهُ في دَوْحِها اغصانُ

أَمُنصّلَ الرمحِ الطويلِ بكَوْكَبٍ من ذا يُطاعِنُ والسِّماكُ سِنان

وقولُه:

والشمعُ فوق البحرِ تحسبُ أنَّه من لجّهِ قدْ أُطلِعَ المَرجانُ

والماءُ درعٌ والشموعُ أسِنَّةٌ ولها إذا خَفَقَ النسيمُ طعانُ

---

(١) ديوانه: ص٢٥٣.
(٢) ديوانه: ص٤٠٥.
(٣) ديوانه: ص٥٦.
(٤) ديوانه: ص٩٣.
(٥) ديوانه: ص٣١٥.
(٦) الزيادة عن الديوان.

وقوله:

يا مالكي أنْبَتَّ ريشي بالنَّدَى ... لكنني ما قصدي الطيرانُ

وقوله:

ضاقت معاذرهم إلى ضيفانهم ... لكن رَحُبْنَ منازلٌ وجفانُ
يغدون عندهم بأعلى أعينٍ ... ودتْ تكونُ جِفانُها الأجفانُ

وقوله من أبيات[1]: [من الطويل]

ركبنا رياحاً مِنْ كرائم خيلِهِ ... نَؤُم سحَاباً مِنْ سماءِ سَمَاحِهِ
فقلْ لليالي الخطبِ طُولي أو اقصري ... فانا على وعدِ السُّرى مِنْ صَبَاحِهِ
ولما نَضَا الاستارَ عنْ نورِ وجهِهِ ... تغطيتُ منْ دهرِي بظلّ جَناحِهِ

وقوله من قصيدة[2]: [من البسيط]

استودعُ الله في أضعانِهِمْ قَمَراً ... إليهِ لو ضلّتِ الأقمارُ تحتكِمُ
عندي سهادٌ وعندَ الهاجرينَ كرًى ... فالليلُ مشتركٌ بيني وبينَهُمُ

وقوله منها يرثى بني رزيك:

بأيّ وجهٍ يراني الناسُ بعدَهم ... حيّاً ويا أسفاً انْ قلْتُ بعدَهُمُ
أبكي الذي زالَ عندَ التاجِ دولتُهُ ... إذا بكى الناسُ مَنْ زلّتْ بهِ القَدَمُ
أعْزِزْ عليَّ بأنْ ظلَّت ديَارُهُمُ ... تُسدى الهمومُ بها أوْ تندبُ الهمم
وما لبستُ دموعَ العينِ عاطلةً ... إلاّ وفيضُ دمي في رُدنها عَلَمُ
/ ١٨٣/ ان ينهدم بكم للدهر بيتُ علاً ... فإنّ بيتَ رثائي ليسَ ينهدمُ
معنًى من الكرمِ المهجورِ فُزْتُ بهِ ... وفي الرثاءِ لمنْ لا يُرتجى كَرَمُ
وكانَ حقّكُمُ لو كانَ لي قبلٌ ... ان يُنْصرَ السيفُ لا أن يُنْصرَ القَلَمُ

وقوله[3]: [من الطويل]

نفينا سوادَ الليلِ عنْ دولةِ الهُدَى ... فلا رايةٌ سودا ولا أمةٌ سودا
وبينَ مجازاةٍ ضربنا وجزيةٍ ... فَمِنْ طائع أدّى ومن خالِعٍ أوْدى

وقوله من قصيدة[4]: [من الكامل]

تلكَ الرياضُ إذا تهجّرَ حادثٌ ... لمْ تلْقَ إلاّ ظِلَّها وجَناها

---

(١) ديوانه: ص١٨٤. (٢) ديوانه: ص٤٠٥. (٣) ديوانه: ص١٩٦. (٤) ديوانه: ص٣٢٤.

لمعَ النظارُ بها فقلْنا شمْسُها وجرى النسيمُ فخلْتُهُ أمواها

وقوله منها:

نظروا الخيولَ فأثبتَتْ نظراتُهم غُرَراً عليها قدْ وَسَمْنَ جِباها
وَلَرُبَّ هاتفةٍ دعتهمْ للوَغى جَعَلوا صَليلَ المُرهفَاتِ صَدَاها
هيَ كالمَواردِ في العيونِ وطَالَمَا نَقَعُوا بهاماتِ الكُماةِ صَداها
هيَ فِي بحارِ يَدِيهِ أمواجٌ تُرى ونفوسُ مَنْ قتلَتْهُ مِنْ غَرْقاها
لا بَلْ زِنادُ جَهَنم فِي كَفّةٍ منها فكلّ مكذِّبٍ يَصْلاهَا
لَوْ أنَّ أرضاً مَرَةً فَدَتِ السما كانتْ عِداها في الخطوبِ فِداها
وَمَنِ المحدّثُ نفسَهُ بلَحاقِها؟ فدعِ الحديثَ عَنِ الذي ساواها

وقوله من أبيات[1]: [من الطويل]

حمائمُ قدْ حثتْ زجاجاتِ ادمعي فما خلْتُ إلاّ أنَّهنّ حَوَائمُ
وَمَا درجُ الكثبانِ مرّ نسيمُها بلى درجُ الكثبانِ ما أنا لاثمُ
ولما مررنا بالرسوم تنفذتْ بها للهوى في العاشقينَ المواسِمُ
بكَينا فغطّى الدمعُ أنوارَ أعْيُنٍ ومِنْ عَجَبٍ ان الدموعَ كواتِمُ

وقوله من أبيات[2]: [من الكامل]

/ ١٨٤/ يامَنْ إذا ما المال جاز بأرضِهِ يصفرّ جوفُ فراقِهِ ان يُنهبا
يُلقى إليه فلا يليقُ بكفّهِ فكأنما يُلقى عليه ليحسبا

وقوله[3]: [من الطويل]

برأيكمُ أمسى الزمان مدارا وكان مَخُوفاً قبلكم ومدارى
وربّ طليقٍ قدْ أسَرْتُم بكفِّكُمْ كذا طلقاءُ المُكرماتِ أسارى

وقوله منها:

سأنصفُ أصنافَ القوافي بمدحِهِ فإنّ القوافي في عُلاهُ غَيارى
فإنْ أبْصروا في الطِّرْسِ إثْرَ مِدادِهِ فذلكَ سَبْقٌ قدْ أثارَ غُبارَا
يفيضُ لنا كفّاً ولله مُقْلَةٌ فتجتمعُ الأنوارُ منهُ غِزارا
وتقدحُ نارُ الحربِ من أزنُدِ اللظىٰ فتُرسِلُ مِنْ فيضِ الدماءِ شَرارا

---

(١) ديوانه: ص١٠٧. (٢) ديوانه: ص٤١٧. (٣) ديوانه: ص٢٣٥.

وقوله من أبيات[1]: [من البسيط]

ليهنىءِ المُلْكَ ما أظهرتَ مِنْ هِمَمٍ ... للجدِّ والجودِ مِنْ نارٍ وجنّاتِ
تَحمي وتَهمي بعينٍ أو بجودِ يدٍ ... فالناسُ ما بينَ رعيٍ أو مُراعاة
مواصل المجدِ لا تنفكُّ مِنْ شغفٍ ... والوصلُ ينقصُ مِنْ بعضِ الصباباتِ
هذي البدايات قدْ نِلْتَ السماءَ [بها] ... فما يظنّ العدا هذْي النهاياتِ
عطاءُ مَنْ لا يظنّ الجودَ يُفقرُهُ ... وحربُ مَنْ لا يظنُّ الحربَ تاراتِ
اللهُ جارُكَ والآجالُ كاشِرةٌ ... مِنَ القواضبِ في عُصْلِ الثنيَّاتِ
وقدْ تداعتْ بِهَا الأبطالُ واعترفتْ ... والطعنُ بينهمُ مثلُ التَّحيَّاتِ
وقد تهادتْ سيوفُ الهندِ إذْ خُضبَتْ ... كالشَّربِ حين تهادَى بالزجاجاتِ
فكمْ بردتَ بماءِ السيفِ غُلّتَها ... والسيفُ ماءٌ لنيرانِ الحَزازاتِ

وقوله من أبيات[2]: [من الطويل]

أمُسْتصحباً قلبي وكانَ محلّهُ ... وإن كانَ مِنْ جَوْرِ الفِراقِ مَحيلا
إذا ما جرى جَفْنِي دَماً بمدامعي ... علمتُ بأنَّ القلبَ راح قتيلا

/ ١٨٥/ وقوله[3]: [من الطويل]

لئن نالتِ الأملاكُ مُلكاً بحظّها ... فقدْ نِلْتُمُ ما نلتمُ بمساعي
وهذا عِيان المجدِ فيكمْ فما الذي ... يزيدكمُ مُدَّاحُكُمْ بسَمَاعِ
دَفَعْتَ الأذى عنّا ومُتّعْتَ بالمُنَى ... وما كانتِ الدنيا لنا بمتاعِ
ووالله ما كُلفت في المدحِ كلفةً ... وهلْ هوَ إلاّ الصدقُ وهو طباعي

وقوله من أبيات في الشيب[4]: [من الوافر]

أرى شيبي مُعاري فيهِ بعضي ... لبعضٍ انَّ ذاكَ لشرُّ سِرٍّ
فلا تُنْكر له تعبيسَ وجْهي ... فقدْ أعطى تبسّمَهُ لِشَعْري

وقوله من أبيات[5]: [من مجزوء الكامل]

باللهِ يا قمرَ التمامِ ... اما لهجركَ مِنْ مُحاق
أمْسيتَ في نورِ الكما ... لِ وبتُّ في نارِ احتراقي

وقولَهُ من أبيات في ذكر الرماح[6]: [من الكامل]

---

(١) ديوانه: ص١٧٢.
(٢) ديوانه: ص٩٣.
(٣) ديوانه: ص٢٥٣.
(٤) ديوانه: ص٤٤٨.
(٥) ديوانه: ص٧٤.
(٦) ديوانه: ص٢٧٥.

تمشي بها سرُجاً ويومُكَ مُظلمُ ... فترى الذوابلَ نصلتْ بذُبالِ
-مثلَ الصِّلال تحوفُ نفثَ طِعانِها ... يستلئمُ الغازي ثيابَ صِلالِ
ويجرُّها طَوراً ويصلى حَرّها ... فيكونُ مُحتطباً وطوراً صالِي

وقولَهُ من أبيات: [من الطويل]

فإنْ تكتسي يا دارُ ثوباً مِنَ الصِّبا ... فلا تلبسي مِنْ أدمعي غيرَ مُعْلَمِ
متى تكتمُ الأشواقُ ما بينَ نائمٍ ... نَمومٍ ودمعٍ بالدماءِ مُنَمْنَمِ

وقوله من أبيات[1]: [من الكامل]

وإذا أفاضَ الصبُّ صبّ دموعِهِ ... أغنى الديارَ عَنِ الحَيَا المتهلّلِ
ما دام وجْهٌ ينجلي عَنْ روضةٍ ... فعليَّ عينٌ تنجلي [عن] منهلِ

وقوله[2]: [من الكامل]

مِنْ ثغرِهِ وحليِّهِ ونسيمِهِ ... ما لا تقومُ بكتمِهِ الظَّلماءُ
/١٨٦/ ومتى يفوزُ بما تمنّى عاشِقٌ ... وجميعُ ما يهوى لَهُ أعداءُ
لكَ مِنْ نسيبي فيكَ روضٌ يانعٌ ... يجري عليهِ مِنْ دُموعِي الماءُ
رَتَعَتْ جفوني مِنْ سناكَ بجنّةٍ ... وتبوّأت منهُ بحيثُ يَشاءُ

وقوله[3]: [من الطويل]

بروحيَ مَنْ روحيْ إليهِ مَسُوقةٌ ... وقلبيَ مَنْ قلبيْ عليهِ مُقَطَّعُ
وأصْلُ الهوى في القلبِ عيني وعينُهُ ... وكلُّ بلاءٍ عنهما يتفرّعُ

وقوله في عمارة سور عكّا[4]: [من السريع]

ميزانُ أعمالكَ لا شكَّ في ... رجحانِهِ والحقّ لا يَشْتَبِهْ
بالحَجَرِ الأسودِ إذْ صنتَهُ ... والحجرِ الأبيضِ إذْ صُنْتَ بِهْ

وقوله من قصيدة[5]: [من البسيط]

أأنت في الأرض أم فوق السماءِ ففي ... يمينك البحر أم في وجهك القمر
يَقبّل البدرُ تُرْباً أنتَ واطئُهُ ... فللتُّرابِ عليهِ ذلكَ الأثرُ
نأى بهِ الملكُ حتى قيل: ذا مَلَكٌ ... دنا بهِ الجودُ حتى قيلَ ذا بشرُ
في كلّ يومٍ لنا مِنْ مَجْدِهِ عَجَبٌ ... وكلّ ليلِ لنا مِنْ ذِكْرِهِ سَمَرُ

---

(١) ديوانه: ص٩٤.
(٢) ديوانه: ص٣.
(٣) ديوانه: ص٦٣.
(٤) ديوانه: ص٣٢٦.
(٥) ديوانه: ص٢٢٣.

نظرتُ في نجمِهِ فالسعدُ طالِعُهُ ... لا ينقضي وعلى أموالِهِ سَفَرُ
أبا الفوارسِ والآباءُ مشفقةٌ ... وهُمْ بنوكَ وما تبقى وما تَذَرُ
تلقى عروسَ المنايا وهيَ حاسرةٌ ... وخدّها فيهِ منْ فيضِ الدّما خَفَر
والضربُ بالبيضِ منْ آثارِهِ عُكَنٌ ... والطعنُ بالسَّحرِ منْ آثارِهِ سُرَرُ
وربّ ليلةِ خَطْبٍ قد سَرَيْتَ بها ... وما سرى كوكَبٌ فيها ولا قَمَرُ
سُمْتَ العَويصَ بعزمٍ ما لهُ ضَجَرُ ... وبالبعيدِ بباعٍ ما بهِ قِصَرُ
وأنتَ في جيشِ رأيٍ لا غبارَ لَهُ ... ترمي العداةَ بقوسٍ ما لَهَا وَتَرُ
هيَ الحروبُ التي لا السيفُ منثلمٌ ... فيها ولا الذابلُ الخَطّي مُنْأطِرُ
سرنا وسارَ شجاعُ وهو يُقدمُنا ... وعزمُنَا آمِرٌ والدهرُ مؤتَمِرُ
/١٨٧/ وكانَ زجرُ اسمه فيهِ الحياة لنا ... والذكرُ إنَّ الشجاعَ الحيّةُ الذَّكَرُ
كانَ الحسامُ يمانيّ الهَوَى مَعَنا ... فما أضرَّ بنا أنْ أصْفَقَتْ مُضَرُ
وبتّ والموتُ طيفٌ قدْ ألمَّ بنا ... فما ثَنَى الطيفَ إلاّ ذلكَ السَّهَرُ
سَقَى بكَ اللهُ دنيانا فأخْصَبَها ... والعدلُ يفعلُ ما لا يفعلُ المطرُ
لما استقلّتْ سُتُور المُلكِ لاحَ لنا ... مَلْكٌ بهِ الجودُ عَيْنٌ والثنا أثَرُ
في كعبةٍ للنَّدي لو حَلَّها ملكٌ ... تهيّبَ النطقَ حتى قبلَ ذا حَجَرُ
وسائلٍ ليَ ما العَليا؟ فقلتُ له: ... في فِعْلِهِ الخُبْرُ أو في قولِهِ الخَبَرُ
ما أنْصَفَتْ مجدَه نظامُ سيرتِهِ ... إنّ الذي ستروا فوقَ الذي سطروا
نال السماءَ بأطرافِ القنا فَبَدَتْ ... من النصولِ عليها أنجمٌ زُهُرُ
لا يُحدثُ النصرُ في أعطافِهم مَرَحاً ... حتّى كأنهمُ بالنصرِ ما شَعَروا
أجروا دماءَ العدا بينَ الرماحِ فما ... يُقالُ عندهمُ ماءٌ ولا شَجَرُ
ترى غرائبَ منْ أفعالِ مجدهمُ ... يردّها الفكرُ لو لمْ يشهدِ النظرُ
خلائقٌ في سماواتِ العُلا زُهُرٌ ... منها تُنِيرُ وفي روضِ النُّهى زَهَرُ
الناسُ أضيافُكُمْ والأرضُ دارُكُمُ ... فهوَ المقامُ فَلِمْ قالوا هوَ السفرُ؟
ما أنصفَ الشكر لولا أنْ يُسامحَنا ... فأنت تُطْنِبُ جُوداً وهوَ يختصرُ

وقوله من أبيات[1]: [من الكامل]

(١) ديوانه: ٣٧٦.

سالَ اللِّوى وسؤالُهُ تعليلُ ومنَ المُحال بأنْ يُجيبَ محيلُ
يا دارُ جهدُ جفوننا وضلوعِنا لكِ بالبُكاءِ وبالأسى مبذولُ
زرّتْ عليهِ منَ الرياضِ ملابِسٌ خَيْطُ الغَرامِ لوشيِها مَحْلولُ
رقَّ العذولُ لِما رأى مِنْ حالتي فاليومَ عادَ إليهِ وهوَ رسولُ
أوَما تراني حاملاً مِنْ بعدِهِ ثقلَ الأسى فكأنني محمولُ
مَنْ لي بحظّ بالفضائلِ عارفٍ فيحقُّ حينئذٍ ليَ التفضيلُ
اغمدْ لسانَكَ أنْ يقولَ فإنّهُ عَضْبٌ أحاطَ بجانبيهِ فُلولُ
/١٨٨/ وامنعْهُ مِنْ نفثاته وكفى بها فمِنَ الكلامِ أسِنّةٌ ونُصولُ
كفّل زمانَكَ ان يغيّرَ كلّ ما أنكرتَهُ فكفاكَ منهُ كفيلُ

وقوله[1]: [من الطويل]

أَمِنَّا على المُلكِ الليالي بعدما أُمِدَّ بسعي الناصرِ المتناصِرِ
إمامٌ أقرّوا جوهرَ الملك عندَهُ ولا عجبٌ للبحر صَونُ الجَوَاهِرِ
ديارُ العدا مِنْ نَقْعِهِ ودمائهم كربعِ الهوى ما بينَ سافٍ وماطر
يلاقيهم بالسيفِ والطيرِ طاعما فهم منهمابينَ الردى والمقابر
يقولُ لنا دُرّاً وينْدى سماحةً فما البحرُ إلا بينَ كفٍّ وخاطر
ولما انثنتْ منّا عليهِ خناصِرٌ جَعَلْنَا حُلَى تختيمنا للخناصر
لأفْنتْ ظُباكمْ في الوغى وصفاتها دماء الأعادي أو دماء المحابر
فيا عجباً للمُلْكِ قرَّ قرارُهُ بمختلفاتٍ مِنْ قناكَ الشواجر
طواعن أسرارِ القلوبِ نواظر كأنّكَ قدْ نصّلتَها بنواظر
تمدُّ إلى الأعداءِ منها معاصماً فترجعُ من ماءِ الكُلى بأساور

وقوله منها في الخيل:

لها غُررٌ يستضحك النصر وجهها وتفهمُ منها العينُ معنى البشائرِ

وقوله منها في ذكر القصيدة:

إذا ما أتتْ تختالُ بينَ سطورِها فهنئتَها عذراءَ ذاتَ ضفائر
هي السائراتُ الخالداتُ بمجدِهِ وسائرُ ما يؤتى بهِ غيرُ سائر

---

(١) ديوانه: ٢٣٦.

وقوله من قصيدة[١]: [من الطويل]

ورثتَ المعالي عنْ أبيكَ شريعةً ... وقمتَ بها في فترةِ الحلِّ مذهبا
إذا ما كسوتَ الوفدَ للجُود مَلْبَساً ... فقدْ لبسوهُ بالبشاشةِ مُذْهَبا
لو أنَّ زياداً كانَ أدركَ عصرَهُ ... لكان يرى أيّ الرجالِ المُهذّبا[٢]
يقطع عُمْرَ الليل عُمْرُ سُجُودِهِ ... فللهِ محرابٌ حوى منهُ محربا
/١٨٩/ وفي فقر عافيهِ إليهِ وسيلةٌ ... كفى باعثاً للسيلِ أنْ يتصوّبا

وقوله[٣]: [من الطويل]

يقولُ ولو أنَّ الليالي خصومُهُ ... ويمضي ولو أنَّ النجومَ مطالبُهْ
محاربُه تُثني على صلواته ... ولكن على الأعقاب يثني مُحاربُه

ومنها[٤]:

جنائبُ في بحر العجاجِ سفائنٌ ... فإنْ حُركتْ للرَّكض فهيَ جَنائبهُ
وقد خَفَقَتْ راياتُهُ فكأنّها ... أناملُ في عمرِ العَدوّ تُحاسبه

وقولُه: [من الكامل]

لو كنت حاميت الحمائم نائحاً ... قال الوشاةُ: أضاعَ سِرّكَ بائحا
سلْ طائراً صَدَعَ الفؤادَ بِسُحْرة ... أتراهُ غَرَّدَ صادِعاً أم صادِحا
يا ضعفَ مَنْ أمْسى الفريسةَ في الهوى ... وغدا الحَمام لهُ هنالكَ جارحا

وقوله[٥]: [من البسيط]

يا ليلةً باتَ فيها البدرُ معتنقي ... والناسُ بالبدرِ والظلماءِ في شُغُلِ
بتنا نفضّ عقوداً للحبيبِ فإن ... فصّلتها فبتشذيرٍ مِنَ القُبلِ
قُلْ في الزلالِ إذا وافى على عطشٍ ... فقد دللت على التفصيلِ بالجُمَلِ

وقوله من أبيات[٦]: [من الوافر]

وبالأشعارِ نعرفُ قائليها ... كما حدثتَ عنْ بحرٍ بِسَجْلِ

---

(١) ديوانه: ص١٦٣.
(٢) اشارة لقول النابغة الذبياني، واسمه زياد: [من الطويل]
ولستَ بمُستبقٍ أخاً لا تلمّه ... على شعثٍ، ايُّ الرجالِ المهذبُ
(٣) ديوانه: ص١٦٤.
(٤) ديوانه: ص٢٧.
(٥) ديوانه: ص٩٢.
(٦) ديوانه: ص٣٤٢.

سبقتُ بها فقدْ صارتْ لقومٍ ... مَحَارِبَ والذي بعْدي مُصلِّي

وقوله[(١)]: [من مجزوء الرمل]

سقّني يا بدرُ شمساً ... كلّلوها بالثريّا
واجعل الظلماءَ شَمساً ... كلما دراتْ وفيّا
إنّما الكاساتُ تيجا ... نٌ لها العيشُ محيّا
وهي نارٌ جعلوها ... حينَ يَعْيىٰ الهمُّ كَيّا
قدْ طَوَينا إذْ أُديرت ... بُرْدَةُ الظلماءِ طَيا
كانطواءِ الخَوفِ عنّا ... حينَ ولّى اللهُ طيّا

/ ١٩٠/ وقولُهُ من قصيدة[(٢)]: [من الخفيف]

يا غزالاً لهُ السيوفُ حجابٌ ... في فؤادي أضْعافُ تلكَ الحُجُبِ
ما عهدنا والنائباتُ كثيرٌ ... أنَّ ضيفاً يُضام بينَ العَربِ
أغليلاً والماءُ فوقَ الثنايا ... وهَواناً بينَ القَنَا والقُضُبِ
أيْنَ تلكَ الرسومُ أينَ تراها ... تَبِعتْ في الرحيلِ إثْرَ الركبِ
أتُرى يا زمانُ أنتَ مُعنًّى ... بِرُباها كمثلِ قلبِ الصبِّ
زَفَرَتْ بالصَّبا صدورُ الليالي ... وبكتْ بالحَيا جفون الشُهُبِ

وقوله من قصيدة[(٣)]: [من الكامل]

لو لمْ يعطّلْ خاطري مِنْ سَلْوَةٍ ... ما كانَ خدِّي بالمدامع حالي
أوْ دَعْتُه قَلْبي فخانَ وديعَتي ... فسوادُهُ في خدِّه بالخال
فعلَ السقامُ بمهجتي وجَوارحي ... أفعالَ حصنِ الدينِ بالأموال
لَوْ لَمْ يبق في أيامه من فتنة ... للناس إلا فتنةَ بجمال[(٤)]
تُسمى الرماحُ قَناً فأمّا بعدَما ... صارتْ بكفِّكَ فالرماحُ عوالي

وقوله[(٥)]: [من الطويل]

أساكن أكنافَ المُقطّم دَعْوَةً ... تداعتْ بها الألفاظُ وهي دموعُ
تقولونَ درياقُ الهوى الدمعُ إنْ جرى ... فذا الدمعُ يجري واللَّسيعُ لسيعُ
أبى الحزنُ لي مِنْ أنْ أمَاكِس في الهوى ... فحزنُكَ يشري والدموعُ تَبِيع

---

(١) ديوانه: ٣٣٢.
(٢) ديوانه: ص١٩.
(٣) ديوانه: ص٢٧٤.
(٤) في الديوان: لم يبق في أيامه.
(٥) ديوانه: ص٣٩٨.

وقوله[١]: [من مجزوء الكامل]

دعْ عينَهُ لعنائِها ... فشِفاؤُهُ في دائِها
العينُ مِنْ أعدائِهِ ... والقلبُ مِنْ أعدائِها
هذا ونيرانُ الهوى ... مشبوبةٌ مِنْ مائِها
قُمْريةٌ قَمَريةٌ ... في حُسْنِها وغنائِها
القلبُ كارهُ نأيِها ... والسمعُ عاشقُ نايِها
/١٩١/ ولقدْ رضيتُ بقتلتي[٢] ... إنْ كانَ ذاكَ برأيِها

وقوله من قصيدة[٣]: [من مجزوء الكامل]

يا مالكَ الحُسنينِ والـ ... ـحَسَنينِ مِنْ خَلْقٍ وخُلْقِ
لو لمْ يكنْ مِنْ فضلِ مد ... حي فيكَ إلاّ فضلُ صدقي
ما ضرَّ جَهْلَ الجاهليـ ... ـنَ ولاانتفعْتُ أنا بحِذْقي
وزيادتي في الحِذْقِ فهـ ... ـي زيادةٌ في نقصِ رِزْقي

وقوله من مرثية[٤]: [من البسيط]

تبكي عليكَ عيونٌ أنتَ قرّتُها ... وما قضى الحقَّ باكي البحرِ بالخُلُجِ
في كلّ شدّةٍ بحرٍ لم تزلْ فرجاً ... [فـ] عظَّم الله أجرَ الناسِ بالفرجِ

وقوله[٥]: [من البسيط]

قالوا جرى قلمي في مدحِ غيرِكُم ... لا والذي علّم الإنسان بالقَلَمِ
وما خلوتُ بذكراكمْ وكانَ معي ... ثانٍ يُثَلِّثُ ذِكراكُمْ سوى الكَرَمِ

وقوله من أبيات[٦]: [من الطويل]

إذا هزَّ فيها صارمَ البرقِ خِلْتَهُ ... يُروِّعُ مِنْ تلكَ الجداولِ أرقَشا
يمدُّ عليها المدّ سوراً منتضى ... ويُرجِعُهُ طَوراً سِواراً منقَّشا
وترجعُهُ سهماً إلى مقتلِ الثَّرى ... فيسري بأوراقِ الغصونِ مُرَيّشا
هوًى كسَماحِ الصالحِ المَلِكِ الذي ... نُكَتِّمُهُ والشمسُ ليسَ لها غشا

---

(١) ديوانه: ص١٢٧.
(٢) في الأصل: بقتلي، والتصويب عن الديوان.
(٣) ديوانه: ص٢٥٩.
(٤) ديوانه: ص٣٩١.
(٥) ديوانه: ص٣٠٤.
(٦) ديوانه: ص٢٤٤.

يـقـتِّـلُ حيّـاتِ الـحـقـودِ مِـنَ الـعـدا ... بـحـيـاتِ سُـمْـرٍ بـالأسـنّـةِ نُـهَّـشـا
فـأوسطُـهـا أولى مِـنَ العيـنِ بـالـهُـدى ... وأطـرافُـهـا أولـى مِـنَ الـهـمّ بـالـحَـشَـا
غَـنِـيـنـا عَـنِ الـتـشـبـيـبِ قُـدَّامَ مـدحِـهِ ... فأذْهَلَ وصفُ الليثِ مَنْ وَصَفَ الرَّشا

وقوله[1]: [من البسيط]

وكيفَ أحسبُ ما يُعطي العُفاةَ وما ... حسبتُ بعضَ الذي ما زالَ يُعطيني
/ ١٩٢/ الكتبُ تشكرُهُ عنّا ولا عَجَبٌ ... ما يُشكرُ السُّحبُ الا بـالـبـسـاتـيـنِ

وقوله[2]: [من المتقارب]

وأغْـيَـدَ لـمـا دجـا عَـتْـبُـنـا ... تـبـدَّى عـلـى الـخـدِّ مـنـهُ الـشَّـفَـقْ
صـفـا فـوقَ خـديـهِ جـمـرُ الـصِّـبـا ... فـكـانَ الـحَـبـابُ عـلـيـهِ الـعَـرَق

وقوله[3]: [من الكامل]

أمـا الـمـشـيـبُ فـانَّـهُ قـدْ أبـرقـا ... وكـأنـنـي بـسـحـابِـهِ قَـدْ أغْـدَقَـا
فـأبـرزْ إلـيـهِ أبـيـضـاً فـي أبـيـضٍ ... لا يُـدْرِكَـنْ رَمْـي الـنـفـارِ مِـنَ الـنَّـقـا
كـان الـهـوى خِـلَّ الـصِّـبـا وصـديـقَـهُ ... حـتـى تـلا شـيـبـي وأن نـتـفـرقـا

وقوله[4]: [من المديد]

أيّ شـانٍ لا يُـبـاح بِـهِ ... بـعـدَمـا قـدْ بـاحَ لـي شـانُ
وكـلامُ الـصّـبِّ أدمُـعُـهُ ... لـكَ والأفـواهُ أجْـفـان
أدْمُـعـي والـحـبُّ إنْ حَـكَـمُـوا ... فـهـوَ دعـوى وهـيَ بُـرهـان
مـازَهـا مِـنْ قـبـلِ مـعـطـفِـهِ ... فـوقَ غُـصْـنِ الـبـانِ بـسـتـانُ
جـلّـنـارُ الـوجـنـتـيـنِ لَـهُ ... مِـنْ ثـمـارِ الـصـدرِ رُمّـان
كـيـفَ أرجـوهُـمْ وعـنـدَهُـمُ ... حُـرُمـاتُ الـحُـبِّ أضْـغـان

منها:

ولَـهُ سـيـفٌ كـنـاظـرِهِ ... حـارسٌ لـلـخـلـقِ يـقـظـانُ
عـادَ كـفـرُ الـكـافـريـنَ إذا ... مـا رأوه وهـو إيـمـانُ
يـتـداعـى إذْ دعـوت بِـهِ ... [حـيـن][5] يـلـقـى الـشـركَ أوثـانُ
لـلـظُّـبـا الأجـفـانُ نـعـرفُـهـا ... ولـهـذا الـسـيـفِ آذانُ

---
(١) ديوانه: ص٣١٧.
(٢) ديوانه: ٧٥.
(٣) ديوانه: ٤٤٨.
(٤) ديوانه: ص٣١٧.
(٥) الزيادة عن الديوان.

وهـوَ مِـرآةٌ يـبـيـنُ بـهـا   مِـنْ ضـمـيـرِ الـضـدّ اضـغـان

ومنها:

قـم لـتـمـلا مِـنْ نـفـوسِـهِـمُ   ورمـاحُ الـخـط أشـطـانُ

وخُـدودُ الأرضِ مُـشـرقـةٌ   مِـنْ دمٍ والـخَـيـلُ خِـيـلانُ

/ ١٩٣/ ومنهم:

[١٠]

محمد[1] بن محمد، عماد الدين، أبو حامد القرشي، الأصبهاني، الكاتب

ركن الدول، وعمادها، ومزن الممالك وعهادها، عَلَمٌ يهتدي به الساري، وكرم ينتدي بسيبه الجاري، رسا كالطود المرجحنّ، وسرى كالجود فأوى إليه المستكنّ، وتحلّت به ترائب الأيام، وحلت بحجبةِ ربائب الخيام، فعلا مقداراً، وأبى ان يتّخذ دارةَ القمرِ داراً، فقصّت دونه أجْنِحةُ النعامى، وطرقت أفنية المعالي الابكار والأيامى، وعزّ في تلك الدول فغالت في قيمته، وغالبت في نشر لطيمتِهِ، وكان ذا أيْدٍ تنهض بكل عظيمة، وتأبى كل هضيمة، بعزم يزاحم أبان، وتقدم إذا نكل كلُّ جبان، باقتدار لسان، وابتدار بديهة الاحسان، وكانت قصبات السبق لا تحرز إلاّ لأدهمِهِ، ولا تحرز دارات البدور إلاّ لدرهمه. نشأ في حجر عمّه المستوفي[2]، وتأدّب بأدبه، وعرف في ديوان الخلافة باسمه، وخدم بالأبواب الإمامية، فقُدّم على الأولياء، وتمسّك بالأسباب العلمية ومواريث الأنبياء، وكتب للدول النورية، فازدادت به نورا وازدانت منه بفرائد بحور على نحور، واتصل بالمقام الصلاحي فأصلح الفاسد، وأربح الكاسد، وكان بالخدمة الناصرية كاتب الإنشاء بها حقيقة،

---

(١) أبو عبد الله أو أبو حامد محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله، الاصفهاني، الكاتب، ولد في أصفهان سنة ٥١٩هـ، ونشأ في بيت رئاسة وكتابة، وخدم في دواوين السلاجقة، ثم انتقل إلى بغداد ودرس في النظامية، ثم عاد إلى أصفهان وعاد إلى بغداد ومنها إلى دمشق سنة ٥٦٢هـ وخدم الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين زنكي ورافقه إلى حلب ومنها إلى الموصل، واتصل بصلاح الدين الأيوبي بحمص فعينه كاتباً في ديوان الانشاء، توفي بدمشق سنة ٥٩٧هـ، ترك مصنفات مهمة.
ترجمته في: الروضتين ٤/ ٤٨٥ والتكملة للمنذري ١/ ٣٩٢ وتلخيص مجمع الآداب ٤/ ٢/ ٨٤٤ ووفيات الاعيان ٥/ ١٤٧ وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٤٥ والوافي بالوفيات ١/ ١٣٣ وشذرات الذهب ٦/ ٥٤١.

(٢) هو أبو نصر أحمد بن حامد بن محمد الاصفهاني المستوفي المتوفى سنة ٥٢٦هـ (توضيح المشتبه ١/ ٢٦٢).

وساحب ذيل كلّ حديقة، وأما الفاضل فكان قد رفع عنها وكبّرها، ثم كان اكبر منها، وكان العماد بحراً يتلاطَمُ موجا، وأُفقاً يتلألأ أوْجاً، وكان ملازما للسلطان سفراً وحضراً، ووِرداً وصَدَراً، ومحصلا بصحبته الآفاً وبدراً، وكان فقيهاً، جَدَلياً، عالماً، فاضلاً، أديباً، أريباً، كاتباً، شاعراً ، ناظماً، ناثراً، ذا تصرّف في البيان وتفننٍ في الكلام، لو ازدحم عليه ألْفُ بريد لجهّزه أو نظم كل فريد لما أعجزه، وله الجيد النادر، والغضُّ الناظر، والبعيد المرام عمل الوقت الحاضر، وله التأليفات الكثيرة والمصنفات المفيدة، والرسائل البديعة، والقصائد الصنيعة، إلا انه كان متطبعاً، متصنعاً، يظهر عليه أثر الكلفة وثقل التصنّع /١٩٤/ مغرّى بالتجنيس مع مافيه من الكلّ على المسامع، لقرب مخارج الحروف مما تنفر منه الطباع، ويبعد منه الانطباع، وسُئل الفاضل عنه فقال: سيدنا العماد مثل الزناد، ظاهِرُهُ بارد، وباطنه واقِد، وكان محل الثقة من الفاضل، آمناً من توثبه عليه، وتغلبه على ما جعله السلطان إليه، وبهذا كان يطمئن إذا غاب مع ما ينويه من قلب السلطان، وكان العماد شديد الحرص على تحصيل الدنيا، وكان الفاضل يلومه ويعتبه، ويعْذله ويؤنّبهُ، فبعث مرةً يشكو إليه ضرورةً، فكتب إليه الفاضل: يا سيّد أخيه، لا تُسْمِعِ الدهر هذه الشكوى، فيستعذبها فتستمر على العدوى، ولو اشتغلنا بالله لكان يغنيناَ، ولو قعدنا عن الرزق لأتانا لا يعنّينا، وفي الحديث: اتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا ندري كيف يكون المنقلب، فبالله إلا ما سمعت وأخَذْت هذا الأدب.

وله في هذا حكايات منها: أن رجلاً من أهل حمص جاءه بطبق كيزان، وتفصيلة كتان، وقيمة ذلك كلّهُ نحو خمسين درهماً، وسأل حاجةً، فأخذ قصّته وقرأها على السلطان وكان قد بلغه الخبر، فلم يُجبه، فأعاد العماد عرض القصة، وقراءتها مرات في مجالس عِدّة، والسلطان لا يأمر فيها ولا ينهى، ففطن العماد، وعلم أن الخبر قد اتصل بالسلطان، فأعاد عرض القصة، فلما لم يجبه عنها قال: يا مولانا، الطبق الذي أحضره صاحب هذه القصة باقٍ إلى الآن لم أتصرّف فيه، فإن كان ما ينقضي شغله أعدت عليه طبقَهُ، فضحك السلطان، وعجب من دناءةِ نفسه، وأمر بقضاء شغل الرجل.

وحكي أنه كان شديد التهافت على أخذ الختوم الذهب الذي يجيء على كتب الفرنج، فوصل منهم كتاب بغير حضورِهِ، ففتحه السلطان بيدِهِ، وأَخَذَ بعض الحاشية الختم، فلما جاء العماد، قيل له: اكتب جواب هذا الكتاب، فقال: يكتب جوابه من أخذ الختم، فعزّ قولُهُ على السلطان، وقال له: قم أخرج الوقت، ما هو محتاج

إليك، فأتى / ١٩٥/ العمادُ الفاضِلَ، وعرّفه بما كان، فقال له: رُح إلى الخانقاه، واقعد بها مع الفقراء، والبس زيَّهُم، فإذا طلبك السلطان، قل: أنا قد دخَلْتُ في أمر لا أخرج منه، ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مرضياً، ثم لم يلبث الفاضل حتى أتته رُسُل السلطان في طلبه، فلما أتاه شكا إليه العماد، وقال له: اكتب جواب هذا الكتاب، فقال: والله ما أعرف ما أكتب؛ لأن العماد كان يصدر هذه الكتب ولا يعرفه سواه، ولم يزل يلطف الأمر حتى قال: اطلبه، فبعث في طلبه فلم يحضر، واعتذر، فعظّم الفاضل الأمر، وكرّر الرّسل في طلبه، وهو لا يحضر، فقال الفاضل: أنا أروح خَلْفَه، وأتَلَطَّف به، فوالله هذا باب ما يسدّه سواه، ثم ذهب إليه، فأطال المكث، ثم عاد إلى السلطان، وقال: لقد حرصت به فلم يُجِب، ورأيته مقبلاً على ما دخل فيه إقبالاً ما أظنهُ بقي يخرج عنه، وما ضرَّ السلطان لو زار الفقراء وترضّى عبده، ولم يزل به حتى أتاه وترضاه.

ومن نثره:

قوله جواباً عن السلطان في تفضيل دمشق[1]:

عرفنا طيب الديار المصرية ورقّة هوائها، ونحن نسلم إليها المسألة في طيبها وتوفير نصيبها ورقة نسيمها، ورائق نسيبها، لكن، هلاّ رأت ان الشام أفضل، وان أجر ساكنِهِ أجْزَل، وان القلوب الى قبله أمْيَل، وان الزلال البارد أعَلّ وأنْهَل، وان الهواء في صيفه وشتائه أعْدَل، وان الزهر به أشبّ، والنبت به أكهل، وان الجمال فيه أكمل، وان القلب به أروح، والروح به أقبل. ودمشق عقليته الممشوطة وعقلته المنشوطة، وحديقته الناضرة، وحدقته الناظرة، وهي عين انسانِهِ بل إنسان عينه، وصيرفي نقودِهِ، وعين نضاره ولجينِهِ، فمستامها مستهام، وما على محبّها ملام، وما في رويتها ريبة، وفي كل جيرةٍ منها حبيبة، ولكل شائب من نورها شبيبة، ومع كل ورقةٍ ورفاء، وعلى كلّ معانقةٍ من قدود البانات عنقاء، وشادي بانها على الأعواد يطري ويطرب، وساجعاتها بالأوراق تعجم وتعرب، وكم فيها من جوارٍ ساقيات / ١٩٦/ وسواقٍ جاريات، وأثمادٍ بلا أثمان، وروح وريحان، وفاكهة ورمان، وخيرات حِسان، وقد تمسّكنا بالآية والسنّة والاجماع، وغنينا بهذِهِ الأدلّة عن الاختراع والابتداع، أما أقسم الله تعالى بدمشق في قوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝﴾[2] والقسم من الله بها دليل على فضلها المصون، وأما قال رسول الله صلى الله عله وسلّم: الشام خيرة الله من أرضهِ

(١) كتاب الروضتين: ٣/ ٢١٥. (٢) سورة التين: ١.

يسوق إليها خيرة الله من عبادِهِ، وهذا أوضح برهان قاطع على انه خير بلاده. أما الصحابة رضوان الله عليهم [فقد] أجْمَعوا على اختيار السكنى بالشام، أما فتح دمشق بكر الاسلام! وما ينكر ان الله ذكر مصر وسمّاها أرضاً، فما الذكر والتسمية في فضيلة القَسَم[١] من الشام، بنقل يوسف الصدّيق إليها عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم المقام بالشام أقرب على الرباط، وأوْجَب للنشاط، وأجْمع للعساكر السيارة من سائر الجهات، واين قطوب المقطم[٢] من سنى سنير[٣]؟ وأين ذرى منف[٤] من ذروة الشرف المنيف المنير؟ واين الهرَم الهرِم من الحرم المحترم؟ وبينهما الفرق ما بين القدم والفرق، وهل للنيل مع طول نيله وطول ذَيْلِهِ واستطالة سيله برد بردى في نقع الغليل؟ وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وسيل هذا السلسبيل؛ وإذا فاخرنا بالجامع وقبة النسر[٥]، ظهر عند ذلك قصر القصر، على ان باب الفراديس[٦] بالحقيقة باب النصر، وما رأس الطابية كباب الجابية[٧]، ولو كان لناسها بأناس لم يحتاجوا الى قياس المقياس، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه، ولا نأبى فضله كما أباه، وحبّ الوطن من الإيمان، ومع هذه فلا ننكر ان مصر إقليم عظيم الشأن، وأن مغلّها كثير، وماؤها غزير، وأن عدها نمير، وأن ساكنها ملك أو أمير، وأن الذهب فيها لا يوزن بالمثاقيل، ولكن بالقناطير، ولكن نقول كما قال المجلس السامي الفاضلي، أسماه الله، إن دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر ولا شك أن أحْسَن ما في البلاد البستان، وهل دمشق إلاّ مثل الجنان؟ وزين الدين[٨]، وفقه الله، تعرض للشام /١٩٧/ فلم يرض أن تكون المساوي حتى شرع وعدَّ المساوي، ولعلّه يرجع إلى الحق ويُعيد سعد إسعاد وفاقِهِ إلى الأحقّ.

ومنه:

ولو واصل خدمه بمقتضى مخالصته، لما وفى في جميع عمره ببعض ما يجب

(١) بعدها في الروضتين: ولا الأخبار عنها دليلاً على الكرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام.
(٢) المقطم: جبل مشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة (معجم البلدان ـ مقطم).
(٣) سنير: جبل بين حمص وبعلبك (معجم البلدان ـ سنير).
(٤) منف اسم مدينة فرعون بمصر (معجم البلدان ـ منف).
(٥) الجامع هو الجامع الأموي بدمشق، وقبة النسر هي القبة التي تعلو الجامع.
(٦) باب الفراديس: من ابواب دمشق القديمة.
(٧) باب الجابية: من ابواب دمشق القديمة.
(٨) زين الدين الواعظ، علي بن نجار من أهل دمشق وسكن مصر، كتب إلى صلاح الدين يشوقه إلى مصر، فأجابه العماد بهذه الرسالة عن السلطان (الروضتين ٣/ ٢١٤).

عليه من حق المجلس وشكره، ولكنه يهاب الفضل العزيز فيتجنّب، ويستصغر قدرَهُ عند قدره المعظم فيتأدّب، ومَنْ يقدم على مقابلة الشمس بسراجِهِ؟ والعَذْب بأجاجِهِ؟ والدرَّ بزجاجهِ؟ وأيّ قدر للقطرة عند البحر الخضمّ، وأيّ فَخْرٍ للسُّها عند إنارة البدر التمّ؟ وكلّما شرع في خدمةٍ فنصب يَدَه المهابة وبسطتها الصبابة، وجَلاَ لَهُ جلا لَهُ وجه الهيبة، فَرَجَع مما رجاه من سماحة خاطرِهِ بالظنة والخيبة، وقال لقريحتِهِ: دعي الاقتراح ولا تستدعي الافتضاح، وليس إلاّ الاعتراف بالقصور لا الافتراق للمحظور.

ومنه قولُهُ:

على انه لم يبلغ مبلغ استفراغ جهد البلاغة في الدعاء، والثناء أمد المقصرين، وإن بذّ القرين، وزاحم الأسود، وَوَلجَ العرين، فالعجز عن الإدراك إدراك، والعجب في التوحيد بادعاء الحول والقوّة إشراك.

ومما كتبه في فتح القدس[(١)]:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[(٢)]

الحمدُ لله الذي أنْجزَ لعبادِهِ الصالحين وعد الاستخلاف، وقَهَرَ بأهل التوحيدِ أهْلَ الشرك والخِلاف[(٣)]، وله الحمد الذي حقّق بفتحه ما كان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأنس، وجَعَل عزّ يومِهِ ما حياً ذُلَّ أَمْس، وأسكنه العالِم والفقيه بعد بطرك وقسّ، وعبّاد الصليب والشمس[(٤)]، وأخرج أهل الجمعة منه أهل الأحد، وقمع مَنْ كان يقول بالتثليث اهل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[(٥)]، وقد فتح الخادم[(٦)] بحمد الله من الداروم الى طرابلس، وجمع ما حوت مملكة الفرنج إلى

(١) معجم الأدباء ١٩/ ٢٠، وفيه كتبه عن السلطان صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد، مبشّراً بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وفي مرآة الزمان ٨/ ٣٩٨ وشفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ١٧٨.

(٢) سورة النور، الآية ٥٥.

(٣) بعده في المعجم وشفاء القلوب، وخصّ سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ولكنّ دينه المرتضى وبدّل الأمان بالمخافة إلى كلام كثير.

(٤) في المعجم: واسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجال والضُّلال من بطرك وقس، وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس. وبعده: وقد اظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين ... إلى كلام كثير غيره.

(٥) في المعجم: وأخرج من بيته المقدّس يومَ الجمعة أهل يوم الأحد، وقمع من كان يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ بمن يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾. وبعده: وأعان الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النص الممنوح ... الخ.

(٦) في مرآة الزمان وشفاء القلوب: (المملوك بأمر الله).

نابلس، ورجع الاسلام الغريب منه الى داره، وفرّ سيل السير في قراره، وطلع قمر /١٩٨/ الهدى، وملأ بألسنّة عزّها ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[1] قريب المدى، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه، وَرَجَع بنيانه من التقوى إلى تقديسه تأسيسه.

ومنه قوله:

جوده جود، وطوله طود، وكرمه كرم، يعتصر صفو سلافه، ونِعَمُهُ نعم تنحر وتنهر لأضيافه، ولا يحبّ الدينار إلاّ مبذولاً لعافيه، ولا يدّخر كنزاً إلاّ لجنى راجيه.

ومنه قولُهُ:

ما ظفر مدلج الإظلام بالسنى، ومُحْوِج الإعدام بالغنى، كظفر الخادم وفوزه بشرفهِ وعزّه، وسعادة جدّه، وجدّة سعدِه، وحياة روحهِ وروح حياتهِ، وحسنى حالهِ وحليةِ حسناتهِ، وسنى سنائه المشرق عند إسفار اصباح أمله، وسفور وجه جذله، بورود المثال الممتثل المقبل المقبّل المفْضِل المُفضّل، عن المجلس العالي الفاضلي لا فتيء حكم الشرع في شرع حكم فتياه فتيا، وروض الولي بوليّ رضاه وجوده مجوّدا موليّا، ولا بَرِحَ كاشِحُهُ يطوي على الشحّ برح هوى، جوّه بالغيم مغيّم، ومناصحه يحوى المنى صحة عقيدته، وعقد صحته مبرم قويم.

ومنه قولُهُ:

وكتبها المملوك في منزلة عُيُونها سخينة، ونطافها ثخينة، وفوّارها فوّار، وانجادها أغوار، وساكنها غير ساكن، وقاطنها غير آمن، وجدا جداولها علاقم، وجنى جنادلها أراقم، وحياتها موحيات، تسعى مُتَلويات، وتلتوي ساعيات، كأنما صاغت الجن من سنابكها الخلاخل، أو أراغَتْ لنا من لواذعها الغوائل، ثقال الرؤوس كأنها نصب الفؤوس، فهي حطب العطب، وخَشَبُ الأَشَبْ، فمن طوال كحراب الزنج، وقصار كبنادق الشطرنج، وأوساط كأسواط العذاب، سراع كأنامل الحساب، وقصار كبارقات السحاب، ومارقات النشاب، ومنها ما هو كدباسق الأتراك، أو كألوية الأملاك، ومنها بتر كأيدي السارقين، وخفاف كدين المارقين، ومنها ماهو كمزمار الزط، أو كزنار القبط، ومنها ما هو كأنه أصْهَب الفهود /١٩٩/ أو تكك ذوات النهود، أو أنياب النمور، أو كمخالب الصقور، أو أعصاب الخيول،

(١) سورة الصف: الآية ١٣.

أو أنياب الفيول، أو طوامير الكتّاب، أو مسامير الأبواب، ومنها كل برقاء اذا انسلخت من جلدها، ألْقت كم درع، وبقيت حديد ذرع، وسوداء كصحيفة المجرم، وصفراء كصفحة المتألم، قصيرة مقتصرة الاعمار، دقيقة جليلة الأخطار، الحيات أمها، والممات سمّها، عنبرة لا يحملها حامل، ولا يشمّها.

وبهذه الرسالة ذكرت شعراً كنت وصفت فيه منزلةً كثيرة الأفاعي. ومنه: [من الطويل]

وأرضٍ ترى الحيات فيها سوارياً	كأنّ مساريها ضروبٌ من الرقمِ
أساوِدُ رقطٌ كالنمالِ دبيبُها	ولكنْ تراها في القساوةِ كالدهْمِ
وتختلفُ الألوانُ منها كأنها	أزاهيرُ روضٍ وشّعْتها يُد الوَسمي
إذا نُشرتْ كانت حزاماً وإنّها	كعروة إذ تطوي المساحِبَ للضمِّ
ومطرقةٍ فوقَ الكثيب كأنها	ضفائرُ ضمتها مبدّنة الجسم
وآخرَ مِنْ دونِ الطريقِ محملقٍ	شجاعٍ على متنِ الطريقِ لهُ يحمي
ينضنضُ في فيهِ لسانٌ مخصَّرٌ	كأن عليهِ طائرُ القطنِ والشحم
يشمّ دخانَ الموتِ مَنْ ليسَ دانياً	إليهِ ويلقى الموتَ مِنْ عاجلِ السُّمّ
يذوبُ بهِ قلبُ الحديدِ مخافةً	ويفعلُ فعلَ النارِ في موقدِ الفحمِ
تقنّعَ شبهاً بالكَميّ وإنهُ	لأفتكُ منهُ إذ يطاعنُ أو يرمي
بمرهفةٍ ذلقٍ يقصّر دونَها	مدى القاطع الهندي والرمحِ والسّهم
يُساورُ أوْهامَ اللبيبِ ادّكارُهُ	ويقتلُهُ قبل الغوائل بالوهم
إذا ما ترقّى الطودُ خلتَ بأنّهُ	يجاوز كثبانَ السحابِ إلى النجم
وذو حَنَقٍ ما البرقُ إلاّ شرارةٌ	لأنفاسِهِ أو رشقُ ألحاظهِ المُصْمي
ويحدثُ مالا كان في شهبِ الدجى	خسوفا عقيبَ الشمسِ بالقمر التمّ
وأُقسم لو ألقي على الصخر سمَّهُ	لأثرَ ذاكَ السمّ في شاهقِ الصُّمّ

/ ٢٠٠/ ثم نعود إلى تتمة كلام الأصفهاني، فمنه قوله:

صَدرتْ هذه البشرى ودماء الفرنج على الأرض وقيل لها ابْلَعي، وعجاجها في السماء وقيل اقلعي، وفاض ماء النصال، وغاض ماء الضلال، وهي بشارة اشترك فيها أولياء النعمة، ونبئهم ان الماء بينهم قسمة.

ومنه قوله:

ووجدناها قلعة أرضها في السماء، وتلْعَةً في حوزها حواز الجوزاء، وعلى

كلابها عواء العواء، ما تمرّ السحب إلاّ على سفوحها، ولا ترق شياطين الكفر إلاّ من سطوحها، إنا جعلنا نجوم النصال لها رجوما، وأدَمنا لوبل الوبال عليها سجوماً.

ومنه قولُهُ:

وأسلم البلد، وقطع زنار خندقِهِ، وأبيح حمى حماته، واستولى الفرق على فرقه، وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بسَفَهِ أحْجارها المتداركة، وطهرت الصخرة بمياه العيون التي بِبُعْدِها قَذيَتْ، وَصُقِلَتْ بالشفاه، وطالما كانت بأيدي المشركين قد صدئت.

ومن شعره قولُهُ من قصيدة أوّلها[1]: [من الطويل]

وأسألُ عنكم عافِياتٍ دوارساً ... غَدَت بلسان الحالِ ناطِقةً خَرْسا

ومنها:

مضى أمس منّي في انتظارِ غدٍ لكمْ ... وكلُّ غَدٍ لا شكَّ منقلبٌ أمْسا

وقيل لنا في الأرض سبعةُ أبْحُرٍ ... ولسنا نرى إلاّ أنامِلكَ الخَمْسا

ومنه قوله: [من البسيط]

ما طبتُ نفساً ولا استحسنت بعدَكمُ ... شيئاً نفيساً ولا استعذبتُ لي نَفَسا

وكيفَ يُصبحُ أو يُمسي محبّكم ... وشوقكم يَتَوَلاّهُ صباحَ مسا

نادَمْتُهُ وأخوهُ النجمُ يحسدُني ... فإنني كنت أرعاهُ إذاً خنسا[2]

ومنها قوله يصف مقتولاً:

ما زال يعطس مزكوماً بغَدْرتِهِ ... والقتلُ تشميتُ من بالغدر قد عَطَسا

ومنه قوله[3]: [من المديد]

حَيرَتي طالتْ بذي حَوَرٍ ... طالَ في النجوى مجاوِرُهُ

/ ٢٠١/ حَلّ ما شدَّتْ مناطقُهُ ... ثِقْلُ ما شدَّت مآزِرُهُ

ومنه قَولُهُ[4]: [من الطويل]

ثوى همّه لما ثوَى الصبرُ[5] عنده ... مُقيماً وشطَّ الصبرُ في جيرةٍ شطّوا

---

(١) البيت من قصيدة الرضتين ٢/ ١٨ وعنه في الديوان ٢٠٧ واولها:

استوحش القلب مِنْ غبتم فما أنسا ... وأظلمَ اليوم مَنْ بنتمْ فما شما

(٢) لم يرد البيت في الديوان. (٣) البيتان لم يردا في الديوان.

(٤) الابيات من قصيدة طويلة في الديوان صـ٢٧٦، وقد وردت كاملة في الخريدة: قسم مصر ١/ ٥، وبعضها في الروضتين ١/ ٦٣٢ وسنا البرق الشامي ١/ ٨٦.

(٥) في الديوان: الوجد.

وأرّقَهُ طيفُ فرَى[١] نحرةُ الدُّجَى وقد كادَ جيبُ الليلِ بالصبحِ ينعطُّ
تشاغَلْتُم عنه وثوقاً بودِّهِ كأنَّ رضاكمْ عنْ محبّكُمُ سُخْطُ
مَلَكتُم فأنكرتم قديمَ مَوَدَّتي كأنْ لم يكن في الحُبّ[٢] معرفةٌ قَطُّ

ومنه قولُهُ وقد اعتقل ببغداد[٣]: [من الكامل]

قلْ للإمامِ علامَ حبسُ وليِّكُمْ أوْلُوا جميلَكُمُ جميلَ ولائِهِ
أوَليس إذ حبَسَ الغمامُ وليَّهُ[٤] خلّى أبوكَ سبيلَهُ بدعائِهِ

ومنه قولُهُ[٥]: [من الكامل]

في بُرْدِكَ الأسَدُ الهصورُ محرشاً وبجودِ كفّكَ تُسكبُ الامطارُ[٦]
تهبُ الألوفَ ولا تهابُ ألوفَهمْ هانَ العدوّ عليكَ والدينارُ

ومنه قولُهُ، وقد جاء قفل من أصفهان لم يعرفه منهم احد وعرفهم كلّهم بآبائهم[٧]: [من مجزوء الخفيف]

أنا ضيفٌ وإنّما[٨] أينَ أينَ المُضيّفُ؟
أنكرتْني معارفي ماتَ مَنْ كنتُ أعرفُ

ومنه قولُهُ[٩]: [من الطويل]

وما هذه الأيامُ إلاّ صحائفٌ نُسطّر[١٠] فيها ثُمَّ نُمحى ونُمْحَقُ
ولم أرَ في عمري[١١] كدائرةِ المُنى تُوسِّعُها الآمالُ والعمرُ ضيِّقُ

---

(١) في الديوان: طوى.
(٢) في الديوان: البين.
(٣) البيتان في وفيات الاعيان ٥/ ١٥١، وهما من قصيدة طويلة في الديوان صـ ٦٦.
(٤) الوليّ، هو المطر الذي يأتي بعد الوسمي، وفي البيت إشارة الى استسقاء الخليفة عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب.
(٥) من قصيدة في الديوان ص ١٦٣.
(٦) لم يرد هذا البيت في القصيدة المذكورة.
(٧) البيتان في الوفيات ٥/ ١٥٢ والوافي ١/ ١٣٩، وفيهما انه قالها انه مَرَض فكان اذا دخل عليه أحد يعوده انشده البيتين. وانظر الديوان ص ٢٩٨.
(٨) كذا في الاصل ، وفي الديوان: أنا ضيف بربعكم.
(٩) البيتان في معجم الادباء ١٩/ ٢٨، والوافي ١/ ١٣٩، وطبقات السبكي ٦/ ٨٨٣ وانظر الديوان ص٣١٣.
(١٠) في المعجم: يُؤرّخُ، وفي الوافي: نؤرخ.
(١١) في الوافي: دهري.

ومنه قولُه[١]: [من الخفيف]

هي كتبي فليسَ تصلحُ مِنْ بعْـ ـدِي لغيرِ العطّار والإسكافِ
هي إما مزاودٌ للعقاقيـ ـر وإمّا بطائِنٌ للخفافِ

ومنه قولُه[٢]: [من الرمل]

وهضيمِ الكَشْحِ في حُبّي لهُ لم يزْدني كاشحي إلاّ اهتضاما
/ ٢٠٢/ كَرُمَ[٣] العاشقُ فيهِ مثلما لَؤُمَ العاذلُ فيهِ حينَ لاما
بقوامٍ علّم الهزَّ القَنَا ولحاظٍ تُودعُ السكرَ المداما
خدّهُ يجرحهُ لحظُ الوَرَى فلذا عارِضُهُ يَلْبَسُ لاما

ومنه قولُه[٤]: [من الطويل]

هلمّوا إلينا[٥] نحو مشمشٍ جلّقٍ وثَمَّ بمن نهوى على الأكل نلتقي
كأنّ منابَ الشهد فيه مُجَسَّدٌ أَجَدَّلَهُ عهدَ الرحيقِ المعتّقِ
حكى جمراتٍ بالغضا قد تعلّقَتْ فيا عجباً من جمرِهِ المتعلِّقِ
كأنَّ نجومَ الأرضِ فوقَ غُصونِهِ كراتُ نُضارٍ بالزمرّد مُجدِّقٍ[٦]

قلت:

وقد ذكر الفاضل صلاح الدين ابو الصفا خليل الصفدي[٧]: ان العماد كان قالها كرات نضارٍ في اللجين مطرّق، فلما أنشدت السلطان صلاح الدين قال: تشبيه الورق باللّجين غير موافق فغيّرها العماد، كما ذكرنا.

وقولُه[٨]: [من الكامل]

قد كان يسمح بالوصال خيالُها لو لَمْ تضنّ العينُ بالإغفاءِ
وَدَنَتْ تودّع للفراق وإنما اقصاء سهمِ القوسِ في الإدناءِ

---

(١) البيتان في: الوافي ١/ ١٣٦ والغيث المسجم ١/ ١٥ وعنهما في الديوان ٣٠٠.
(٢) الابيات في الوافي ١/ ١٣٥ وهي من قصيدة في الديوان ص٣٧١.
(٣) في الاصل: ما كرم العاشقين.
(٤) الابيات: في الوافي ١/ ١٣٦ والروضتين ٢/ ٢١٠ وعنهما في الديوان ص٣١٦.
(٥) الديوان: تسابق.
(٦) في الوافي: في لجين مطرق. ورواية الديوان: من نجمة المتألق.
(٧) انظر: الوافي بالوفيات ١/ ١٣٧.
(٨) البيتان مما أخلّ به الديوان.

وقولُهُ[1]: [من الكامل]

بـدرٌ فـؤادي فـي مـحـبَّـةِ وجـهِـهِ بـدريُّـهُ الـمـعـدودُ مـن شـهـدائِـهِ
رمـقَ الـمـحـبّ فـلـم يَـدَعْ رمـقـاً لـهُ هـلاّ أخـذتَ ذمـامَـهَ لـدمـائـهِ

وقوله[2]: [من الكامل]

مـاء الـصِّـبـا فـي وجـنـتـيـه ونـارُهُ ضـدّانِ بـيـن تـمـوجٍ وتـلـهّـبِ
وكـأنَّ وجـنـتَـهُ وخـطّ عـذاره فـيـهـا طـرازُ مـفـضّـضٍ فـي مُـذْهَـبِ

وقوله[3]: [من الرمل]

هاتِ يا بدرَ الدجى شمسَ الضحى قـهـوةً تُـهـدي إلـيـنـا الـفَـرَحـا
وامـلأ الـكـأسَ إذا فـرغْـتَـهـا إنَّ روحَ الـراحِ يـبـغـي شَـبَـحَـا
/٢٠٣/ واقـتـدح زَنْـدَ سـروري طـربـاً واسـقـنـيـهـا كـلّ دورٍ قَـدَحـا
لا تَـلُـمْ يـا صـاحِ أفـديـك عـلـى سُـكْـرِ قـلـبٍ فـيـكَ لـو صـحّ صَـحَـا

وقولُهُ[4]: [من الكامل]

وعـلـى الـسـوالـف مـنـه فـود مُـرْسَـلٌ فـيـهِ فـؤادُ الـمُـسـتـهـامِ مـقـيَّـدُ
مـتـقـلّـدٌ بـدمـي وظـنّـي أنّـهُ بـمـدامـعـي أو مـثـلـهـا مـتـقـلّـدُ
ما عـايَـنَـتْ عـيـنـايَ صـدغـاً فـاحـمـاً إلاّ وأسـودُهُ لـقـلـبـي أسـوَدُ
أيـخـاف عـارِضُـه عـقـاربَ صـدغِـهِ وعـلـيـهِ زعـفٌ لـلـعـذار مـزرَّدُ

وقوله[5]: [من الطويل]

مـشـعـشـعـةٌ لاحـت كـأن مـزاجـهـا كَـسَـا كـأسـهـا بـالـورسِ ثـوبـاً مـصـبّـغـا
يطوفُ بـهـا سـاقٍ مـن الـسـكـر خِـلْـتَـه وقـد عـرفـت مـنـه الـفـصـاحـة ألْـثَـغـا
إلـى ريـقـهِ الـمـعـسـولِ يَـظـمـا مـحـبُّـهُ وروّي بـهِ عـود الأراكِ الـمـمـضّـغـا
ومـا فـتَّـرَ الـعـيـنـيـنِ إلاّ لـيـقـتُـلا ومـا عـقـربَ الـصُّـدغـيـنِ إلاّ لـيـلـدغـا

وقوله[6]: [من المنسرح]

يـروقُـنـي فـي الـمـهـا مُـهَـفْـهَـفُـهـا ومِـنْ قـدودِ الـحـسـانِ أهـيـفُـهـا
يـا ضـعـفَ قـلـبـي مـن أعْـيـنٍ نُـجـلٍ أفـتـكُـهـا[7] بـالـقـلـوب أضْـعَـفُـهـا

(١) الديوان: ص٦٧.
(٢) ليسا في ديوان شعره.
(٣) لم ترد في الديوان.
(٤) الابيات مما أخلَّ بها الديوان.
(٥) ليست في الديوان.
(٦) ديوانه: ص٣٠٦.
(٧) في الديوان: أقتلها.

يا منكراً مِنْ هوًى بُليتُ به عـلاقـةً مـا يكـادُ يَعْرِفُها
دَعْ سرَّ وجْدي فما أبوحُ بهِ وخلّ حالي فَلَسْتُ اكْشِفُها

وقوله[1]: [من الطويل]

نهيتُ فؤادي عنْ هواكُمْ فما انتهى ونَهْنَهْتُ دمعي في الغَرام فما رَقَا
ومِنْ فَرْطِ وجدي خلتُمُ بي جِنّةً إذا لم ترقّوا لي فما ينفعُ الرُّقَى

وقوله[2]: [من الكامل]

هَبْ أنَّ قلبي للنصيحة قابلٌ ما نافعي والدمعُ ليسَ بقابِلِ
مالوا إلى وَصْلي فحين وصلتُهمْ ملّوا وليسَ يملّ غيرُ الواصِلِ

/ ٢٠٤/ وقوله[3]: [من الكامل]

سَل سيفَ ناظرِهِ لماذا سلَّهُ وعلى دمي لم دَلَّه قَدٌّ لهُ[4]
واْحذَر سهامَ اللحظ منهُ فإنما عنْ قوسِ حاجِبِهِ يفوّق نبلَهُ[5]
واقبل وإنْ حسدوك عذرَ عِذارِهِ واحسدُ على عسلٍ بفيه تملّه
يا منجداً ناديته مُسْتنجداً في خلّتي والمرء يُنْجِدُ خلَّهُ
سِرْ حاملاً سرّي فأنت لحملِهِ أهْلٌ وخفّف عن فؤادي ثِقْلَهُ
فإذا وصلتَ فغضّ عِنْ وادي الغضا طَرْفَ المُريبِ وحيِّي عنّي أهْلَهُ

وقوله[6]: [من الوافر]

ألا يا عاذلي دعني وشأني وما تُجري المدامعُ من شُؤوني
بكل خدينةٍ للحسنِ ما لي سوى بلوى هَوَاها مِنْ خَدينِ
كريمٍ أو كغصنٍ أو كبدرٍ بِلَحْظٍ، أوْ بقدّ، أو جَبينِ
تبَّسَمَ درُّها عن أُرجوانٍ وأزْهر وَرْدُها عن[7] ياسمينِ

وقوله[8]: [من الطويل]

قفوا وسلوا عن حال قلبي وضعفهِ فقد زاده الشوقُ الأسى فوقَ ضعفِهِ

---

(١) لم يردا في الديوان.
(٢) البيتان من قصيدة في مدح الخليفة المقتفي في الديوان ٣٤٥، والخريدة، قسم العراق ١/ ٤١.
(٣) ديوانه ص٣٦٣.
(٤) في الاصل: قد دله.
(٥) لم يرد هذا البيت في الديوان.
(٦) ديوانه: ص٤٢٢.
(٧) الديوان: في.
(٨) لم يردا في الديوان.

أرِقتُ فجَفْني ما يريق سوى دمي كأنَّ الهوى أوْصَى جفوني بنزفِهِ

ومنهم:

[١١]

نصر الله بن محمد بن محمد، ضياء الدين، ابو الفتح ابن الأثير الجزري(١)، الكاتب

متكبّر نَفَخَ في غير ضَرَم، وبذخ بالسمن وشحمه وَرِم، ولم يلتفت الدهر إليه بعطفهِ، ولا أقبل عليه ببعض عَطفِهِ، حتى شمخَ شمما، ونطق خرساً، وأصْغى صمماً، وكانت له مخيلة ظهرت بارقتها، وبهرت سارِقتُها، شرب بودقها الهيام، وضرب ببرقها الغمام الخيام، وقد كان بالموصل، ونشأ به مسودّ اللمم، محتدّ اللمم، في درسٍ يباكره ويغاديه، ويسقيه ماطره بروائحه وغواديهِ، فملأ الحفظ خاطِرهُ حتى اندفق، وكلأ الحظّ سائره حتى توقّد الشفق، فغالب الاسود، وقاربَ ان يسود، لولا عجب ردّاه، وردّ / ٢٠٥/ وجهَهُ عن الطريق فما أدّاه، فوقع إذ سفّ، وتكدّر إذْ شفّ، وَاتصل بالخدمة الأفضلية فغمط به فَضْلها، وقبض بِسَبِبِه ظلّها فلم يحمد أحدٌ له ولا لسلطانه فعلاً، ولا عدَّ له ولا للأفضل فضلا، وجَلَسَ للناس وقد لبس رداء الكبرياء، وسَلَبَ بحمقِهِ، وقاد الكبراء، فأحرج الصدور عليه وعلى ملكه، وأحوج المقدور بما لديه إلى مهلكه، فَتَميّزت الخواطر عليه غيظاً، وأبرزت الضمائر له برد القلوب قيظاً، فأودع النفوس ودائع الحنق، وأنزع له الدهر العبوس مشارع الرَنَق، وخرج من دمشق في صناديق المطبخ مختبئاً حين أُخرج الأفضل منها، وكان ينتقص الفاضل والعماد وسائر الكتاب، ويحطّ قدر الأفاضل، ويسخر بالناس، ويتوقف في قضاء الحوائج، ويَحمل ملكه على جفاء أهله، وقطع ذرى رحمه، ويبعد بينه وبين أقاربه، فلهذا مُقت، وغضَّ طرفه، وبهت، وفيه يقول الشهاب فتيان(٢): [من مجزوء الرجز]

متى أرى وزيرَكُمْ وما لهُ مِنْ وَزَرِ
يقلَعَهُ اللهُ فذا أوانُ قلعِ الجزري

وفيه يقول ابن عنين: [من الوافر]

---

(١) انظر ترجمته في: التكملة: ٣/ ٥٣٥ وذيل مرآة الزمان ١/ ٦٥ ووفيات الاعيان ٥/ ٣٨٩ وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٧٢ والوافي بالوفيات ٧/ ٣٤ والعبر ٥/ ١٥٦ وشذرات الذهب ٧/ ٣٢٨.

(٢) فتيان الشاغوري والبيتان في ديوانه ص٢٠٣.

كأن قفا الوزير عَروضٌ سوءٍ يقطّعُ بالبسيطِ وبالمديدِ
قذالٌ لا يزالُ النعلُ فيهِ كمنزلِ أحمدَ بنِ أبي الحديدِ

وكان كاتباً مطّلعاً، مترويّاً بالعلوم، مضطلعاً، إلاّ انه كان متكلفاً، متطبعاً، ومتعجرفاً، متصنعاً، وكان يتعاطى اكثر مما يستحق، وله تصانيف منها:

«المثل السائر»، و«الوشي المرقوم»، و«المعاني المبتدعة»، وأمثلها، «المثل السائر». وقد عمل عليه موفق الدين[1] (ابن) ابي الحديد كتاباً سمّاه: الفلك الدائر على المثل السائر، وعمل آخر كتاباً على كتاب (ابن) ابي الحديد سماه: القطع الدابر على الفلك الدائر. وكلام هذا الرجل أعني الضياء، وإن كان محكم الصنعة ناظراً الى دقائق المعاني فإنه في غاية التكلف لاعتمادِهِ على معاني الناس /٢٠٦/ وأكثارِهِ من الحل والاقتباس، وقد بنى كتابه المسمى بالوشي المرقوم على هذا، وعليه كانت طريقته في كلامِهِ ومنحاهُ في قولِهِ، ولا يكاد يسمع له من النظم إلاّ ما قلّ.

مولده يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بالجزيرة.

ومن نثره:

قوله في وصف كريم:

فلان يغار من جود غيره إذا جاد، ويرى الأفضلية في المكارم إلاّ في وحدةِ الانفراد، فصديقك الذي يحبّ محبّة الله في ودِّهِ، ولا يتعدّى الخجل الى الثقة بعهدِهِ، ولو أُعطينا الرشد لما كنّا نأسى على ما يختلف على تغييره المساء والصباح وكان ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[2].

ومنه قوله في وصف البلاغة:

إذا نزل من سماء فكري ماء، سالت أوْدِيَةٌ بقدرها، واهتزّت رياض بزهرها، وليست الأودية إلاّ خواطر الأفهام، ولا الرياض إلاّ وشائع الأقلام.

ومنه قوله:

وفي الآباء عوض عن الأبناء، وفي الأمس خَلَفٌ لما يستهدم من شرفات البناء، وقد قيل إن في سلامة الجلّة هدر للنيب، وإذا سلمت طلعة البدر فأهوِن بالأنجم إذا انكدَرَتْ للمغيب، وما دام ذلك المعدن باق، فالقُضُب كثيرة، وإن أوْدى منها قضيب.

---

(١) كذا في الأصل، وإنما هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله، أما موفق الدين فهو اخوه.

(٢) سورة الكهف: ٤٥.

قلت: لو قال: الدوح، أو الأصل، أو ما شبه ذلك، كان أنْسَب من قولِهِ المعدن، واكثر ملاءمة مع قوله قضيب.

ومنه قوله:

وفلان قد خَبرَ الدهر في حلب أفاويقِهِ، ونقض مواثيقهِ، فهو لا يَرِدُ الماء إلاّ بماء، ولا يهتدي في مسرى أرض إلا بنجوم سماء، ومن شأنه ان يرد الأمور برأيه ولا يبعث فيها رائدا، وإذا قيل ان فلاناً ذو كيد، قال: من الكيد ان لا يدعي كائداً.

ومنه قولُهُ:

لقونا، وقد أشرعوا الأسنّة التي شاركتهم في الأسماء، وإذا أوْرَدَت أرْوَتْهُم من غليل الحقد، كما يتروى من شرب الدماء، لكن ذادها عن الورد /٢٠٧/ ما هو أصلب منها عوداً، في يد مَنْ هو أمضى منهم جدّاً وأسْعَد جدوداً، وإذا لاقت الريح إعصاراً زالت عن طريقه وضاق ذرعها بمضيقهِ.

ومنه قوله:

رأيتُ أَجَمَةً ولا ليث يحمي تلك الأَجَمَة، بل رأيت بيض عقاب تحضنه رخمة، وليس المشار إليه إلاّ نائماً في صورة يقظان، وهو كزيد وعمرو إذْ تجري عليهم الأفعال وهما لا يشعران.

ومنه قوله:

وفلان قد جعل الرأي دبر أذنه، ووضع جفير[1] السيف تلقاء جفنه، ولم يعرّج على لهوٍ فيقول له: اليوم خمر وغداً أمر، ولا يصغى الى مسير فيأخذ بقول زيد ولا عمرو، فهو مطل على مغيبات الأمور، غير غافل تمام الأعقاب إذا تمّت له الصدور

ومنه قوله:

الغنى يخف بكثير من الأوزان، والنظر في هذا إلى الأثر لا إلى العيان، ولا عجب ان يوزن الواحد بجميع الورى، ولهذا قيل: كل الصيد (في) جوف الفرا.

ومنه قوله:

كم في الأرض من شمس تخجل لها شمس السماء، ويتضاءل إليها تضاؤل الاماء، ويعلم ان ليس لها من محاسنها إلا المشاركة في الأسماء، فلربما طلعت في الليل فقال الناس: هل يستوي بياض النهار وسواد الظلماء، ولا عجب للعيون إذا

(١) الجفير: جعبة من جلد.

رأتها أن تظن ذلك في احلام النوم، او يخيل إليها أن يوشع في القوم.

ومنه قوله:

ولقد رأيته فرأيت العالم في واحد، وعلمت أن الدهر للناس ناقد، ما أَقول إلاّ ان الله ردّ به الأفاضل إلى معاد، ثم وضعه موضعه(١)، فذلك من جملة الأعداد في الاعتداد، لكن [ان] كان ذنبي خطأ، فقد جاءت معذرتي عمداً، ولا عقوبة مع الاعتذار، ولو كان الذنب شيئاً إدّا، والمقدرة لا تسيغ لكريم ان يُمْضي غيظاً أو يطيع حقداً.

ومنه قوله:

الأحوال شبيهة بالأبدان في عوارض سقمها، وكل داءٍ من أدوائها له علاج إلاّ ما كان مِنْ سأمها وهرمها /٢٠٨/ وقد قيل ان الطبّ هو معالجة الأضداد بالأضداد، ولهذا لا يطب مرض الآمال، إلاّ بجود الأجواد، وفي شهود الجناية من الأشراف ظلم للسادات لا تعدّه النفوس من ظلمها، ولربما كلم السوار يداً، فذهب فخر زينتها بألم كَلْمِها، ولهذا هانت جناية بني عبد المدان، وضرب بهذا المثل في شرف المكان، والناس في المنازل أطوار، فمنهم أنجاد ومنهم أغوار.

ومنه قوله:

بازيّ أشهب، تفخر السوابق بأنّها له سميّة، وترتمي الطير في جوّ السماء وهي له رميّة، كأنما يجلو القذى عن عقيقتين، ويظلّ من توحّشِهِ وإيناسهِ من خليقتين، ومَنْ أدنى صفاته أن يقال: هذا خلق من الرياح، في صورة ذي مَنْسر وجناح، وقد لقّب بالبازي لكثرة وثوبهِ، وما غدا لمطلب صيد ففاته شيء من مطلوبهِ، ولقد تكاثرت قلوب الطير لديه في كل حال، حتى شبه رطبها ويابسها بالعناب والحشف البالي(٢).

ومنه قوله في المطر:

وانحلّ بها خيط السماء، حتى استوى ريّ بطونها للظماء، ولكنه للريح التي حَبَتْهُ بما حَبا، ولم يكن مسك طله معتصراً إلاّ من كافور الصبا.

ومنه قوله:

ولقد سنّوا دروع الحديد على مثلها، ولولا اتقاء البغي لرأوا حمل العار في حملها، فإذا صافَحَتْها أسنّة الخرصان رأيت أشخاص الكواكب في غدران.

---

(١) في الأصل: موضع.

(٢) إشارة لقول امرىء القيس:

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطبا ويابساً ... لَدَى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

ومنه قوله في لئام:

أصلح الأفساد، ورد البلاد، وقد استذابت نقادها، واستجلبت وهادها، ووردت وعولها بحيث ترد آسادها.

ومنه قوله:

فعلم ذلك جهل لا يرع منه عنف الملامة، وداء لا يكفي في تقليل دمه الفصد للحجامة، بل اليد لمن وضع السيف فيه موضع العصا، ومَنْ عمى الضلالة ما لا يبصر إلاّ بسفك الدم، ومنه ما يبصر بتسبيح الحصى.

ومنه قوله:

وكم لطيف الخيال مِنْ يد يبذلها وصاحبة يمنعها، ولطالما سمح برؤية عين لا يراها، ونجوى حديث لا يسمعها، فيا لَهُ منْ باطل أشبه في مراره حقا /٢٠٩/ وأوهم القلب انه داواه وما داوى، والغليل انه أشفاه ووما أشفى.

ومنه قوله:

قليل الاحتفال بالخطوب المختلفة، وإذا انتقلت أحوال الزمان، وكانت حالة غير منتقلة، فعلمه يطل على أفكاره، ويرى الأمر الخفي من خلف أستارِهِ، ولا تبلغ الانجاد والأغوار مدى انجاده وأغوارِهِ، فهو اليقظ الذي هجع النجم وهو لا يهجع، والماضي الذي يجزع السيف وهو لا يجزع، والمعافى المضروب له المثل بأنه لا يخدع.

ومنه قوله:

ريعان العمر تشترك فيه نهضة الأجسام والهمم، ولهذا كان شباب العلا في الشباب، وهرمها في الهرم، وما تشابها في اللفظ إلاّ لتشابههما في المعنى، وكلاهما ذو رونق في حُسْنِهِ، إذا اجتمعا زادا حسناً، وما أقول إلا أن بين سواد الشعر والسؤدد غراساً، كما ان بينهما في التسمية جناساً.

ومنه قوله:

من كل بطل يزحم غوارب الأهوال بغارِبِهِ، ويلقى وجوهها الكريهة بجانبِهِ، ولطالما كافحها في الحرب حتى تقضّت وقائعها غباراً على ذوائبه، فهو يقدم فيها إقدام مَنْ ليس له أجَل، ولا يَرى للخدّ الأسيل حسنا لا يخدُّ من الأسَل.

ومنه قوله:

تماثلتْ فرائد عقودها وثغرها، فلا يدري أنظمتْ حلية نَحْرها في تبسّمها، أم حلية مَبْسِمِها في نحرها، فلو انتثرتْ تلك الفرائد في الليل البهيم، لالتقطَتْ حبات

العقد النثير في ضوء العقد النظيم.

ومنه قوله:

إذا نظر الخادم الى حسبِهِ المقتنى من خدمة الديوان العزيز لم يحتج الى أوّليّة مجدٍ قديم، ولا الى فضيلة سعيٍ كريم، فالخطوط مقتسمة في تلك الأبواب بلثم التراب، ولو عقلت النجوم كما يزعم قوم لنزلت إليها خاضعة الرقاب، وقالت لها: أنت أولى بمكان السماء الذي منه مطلع الأنوار، ونشوء السحاب.

ومنه قوله في رؤوسٍ علقت على قلعةٍ:

ولم يكن /٢١٠/ بناؤها إلا بعد أن هدمت نفس الأعناق، وكأنَّها أصيبت بجنون فعلقت عليها القتلى مكان التمائم، أو شينت بعطل فعلقت مكان الأطواق.

ومنه قوله:

لم تكسه المعركة نسج غبارها، حتى كسته الجنّة نسج شعارها، فبدل ثوب أَحْمَرِهِ بأخضرِهِ، وكأس حمامه بكأس كوثره.

ومنه قوله في وصف الحياء:

الحياء لباسٌ يُتقى وجْهُ الكرم بوقائه، وهو كاللحاء الذي يبقى العود ببقائه.

ومنه قوله:

لو أردت دوام الدهر على حالٍ واحدة ما دام، والبأساء والضرّاء خيالات أحلام، فما ينبغي لك ان توليه حمداً ولا ذَمّاً، فإنك تتقلد منه يدا ولا يدا، ولا تشكو منه ظلما ولا ظلما.

ومنه قوله:

ولئن صبرت فلأن الجزع لا يفيد ردّ الفائت، ولقد علمت أن للمصائب أجْراً، ولكنّه لا يفي بشماتة الشامت.

ومنه قوله:

مَرَرْنا عليهم مرور الأمحال، وأَمَّناهم وهم رجال بلا أرض، وتركناهم وهُمْ أرضٌ بلا رجال، ولقد مَشَتْ المنايا في دِمائهم حتى ظلّت حسرى، وشبع السيف منهم حتى تفرّز بطنُه، وشرب الرمح حتى تأوَّدَ سكرا، ولم يبق للاسلام في عقده غلّ إلاّ شفاه، ولا عنده دَيْن إلاّ استوفاه.

ومنه قولُهُ:

في الحرب إذا أيتم[1] السيوف من الأغماد، فقد أيتم الاولاد من الآباء، وأثكل

(١) في الأصل: ايتمر.

الآباء بالأولاد، فلا يُرى أدْهَمَ نقْع إلاّ وهو ببياضها أبْلَق، ولا أحمر دم إلاّ بحدِّها مُهْرَق، فهو مصارع النفوس، ومطالع السعود والنحوس، والنار التي عُبِدَت من قبل المجوس.

ومنه قوله:

لا يكون الكريم، كريماً حتى يكون لنفسه غريماً، فإن العطايا حقوق واجبة على أقْوام، وإذا لم يجد الغمام بمائه، فأيّ فائدةٍ في كثرة ماء الغمام؟

ومنه قوله:

توانى عنه رُسلُ النجاح، ووكّلتْ به عزمةٌ أوْقَفَتْهُ على رجل، وأنْهَضَتْهُ على رجل وأنْهَضَتْهُ بجناح، ويمنَعَهُ من الإتْيان على عجل، أن القضاء على مهل.

ومنه قوله:

/ ٢١١/ هونت نفسي حتى صرت أصرّفها كما اشتهي، وأنْهاها وآمرها فتأتمر وتنتهي، ومن صفاتها أنها لا تُمنى من غيرها بزاجر، وقد استوتْ حالتاها في باطِنٍ من الأمر وظاهر.

ومنه قولُهُ:

جمع المال فَقْرٌ لا غنى، وهو كشجرةٍ لا ظلَّ لها ولا جَنى، وصاحِبُهُ لا يستفيد به إلاّ ذما، ولا يستزيد بالسعي له إلاّ همّاً، واليسار على هذه الحال هو عين الاتلاف[1]، والذهب والحجر سواء إذا لم تُصْرَف فيه يد الانفاق، وفضيلة المال داء الأعراض، كما أن فضيلة الزاد داء الأجساد، وعلاجهما شيء واحد في الوقوف على درجة الاقتصاد.

ومنه قولُهُ:

وصنائع المعروف تورث من الثناء خلوداً، وتكون لغير ذوي الجدود جدوداً، تبتني العلياء بما يفنى ولا يبقى، وترقى بصاحبها الى منال النجم وهو لا يرقى، والسعيد مَنْ جَعَلَ مالَهُ نهباً للمعالي لا لليالي، وعُرْضَةً للمآثر لا للذخائر، ومَنْ نال الدنيا فاشترى آخرته ببعضها، وأقرض الله من مواهبِهِ التي دعاه إلى قرضها، فذلك الذي فاز بالدارين، وحظي فيها برفع المنارين.

ومنه قوله:

(١) كذا في الأصل ولعله اراد: الاملاق.

سارية تمشي لثقلها مَشْيَ الرداح، ويكاد يلمسها مَنْ قام بالراح، وما نتجت نتاجاً إلاّ أسرّت في ضمنه حمْل أقاح، ولا اظلمت إلاّ أضاء البرق في جوانبها فتمثَّلَتْ ليلاً في صباح، فهي مسودّةٌ مبيضّة الأياد، مقيمة وهي من الفؤاد، نوامة على طول سهرها بالوهاد، فكم في قطرها من ديباجة لم تصنع أفوافها، ولؤلؤة لم تُشَقّ عنها أصدافها، ومسكة لم تُخالِط سرر الغزلان أعرافها، فما مَرَّتْ بأرض الا أحيتها بعد مماتها، ووسمتها بأحسن سماتها، وغادرت غدرانها فائضة من جهاتها، وَمثَّلُها والنبت مطيفٌ بها بالأقمار المتعلقة بأردية ظلماتها.

ومنه قولُهُ:

فلانَ قد كشف عن مقاتِلِهِ، وعرض بجهةِ الأدلّة على قاتِلِهِ.

ومنه قوله:

وقَلَمُهُ هو يراعُ نفثَ الفصاحة في روحِهِ، وكمَنَتْ الشجاعةُ بين ضلوعِهِ فإذا قال أراك / ٢١٢/ نَسَقَ الفرند في الأجياد، وإذا صال أراك كيف اختلاف الرماح بين الآساد، طوراً ترى نحلةً تجني عسلاً، أوْ شَفَةً تملي قُبَلاً، وطوراً ترى إماماً يلقى دروساً، وآونةً تنقلب ماشطةً تجلو عروساً، ومرةً ترى ورقاء تصدح في الأوراق، وأُخرى ترى جواداً مخلَّقاً بخلوق السباق، وربما تكون أُفعواناً مطرقاً، والعجب أنه لا يزهى إلاّ عند الإطراق، ولطالما نَفَثَ سحراً، أو جَلَبَ عطراً، وأدار في القرطاس خمراً، وتَصَرَّف في وجوه الغناء، فكان في الفتح عمر وفي الهدي عمارا وفي الكيد عمراً[1]، فلا تحظى به دولةٌ إلا بحدث على الدول، وقالت: أعلى الممالك ما يني على الأقلام لا على الأسل، والقلم مزمار المعاني، كما ان أخاه في النسب مزمار الأغاني، وكلاهما شيء واحد في الإطراب، غير ان أحدهما يلعب بالأسماع، والآخر يلعب بالألباب،

ومنه قولُهُ:

وقَلَمُهُ هو الذي إذا قَذَف بشهب بنانِهِ رأيت نجوماً، وإذا ضَرَب شبا حدِّهِ رأيت كلوماً، وإذا صوّر المعاني في ألفاظها رأيت أرواحاً وجسوماً، ولطالما قال فاستخفّ موقراً، وكسا وقارا، وأطال فوجدتَ إطالته بحلاوته إقصاراً، فهو دق المعاني المخترعة، يستخرجها من قليبها، ويبرزها في ثوبها القشيب، وليس خلق الأثواب كقشيبها، يجتني معانيه مِنْ ثمراتٍ مختلفة طعمها، وينسج ألْفاظه من ديابيج مؤتلفة رقمها.

ومنه قوله في ذم كاتب:

لا يمشي قلمه في قرطاس له إلاّ ضل عن النهج، ولا تصوّغ لفظاً إلاّ قيل: ربّ

---

(١) يريد بهم عمرو بن العاص في الكيد وعمر بن الخطاب في الفتح، وعمار بن ياسر في الهدي.

حدثٍ من الفم كحدثٍ من الفرج، ولكن ما كل مَنْ تناوَلَ قلماً كتب، ولا كلّ مَنْ رقىٰ منبراً خطب، الدعاوى في هذا المقام كثيرة، ولكنْ ليس القنا كغيرها من القُصُبْ.

ومنه قوله[١]:

وكان بين يديّ شمعة تعمّ مجلسي بالإيناس، وتغنيني وحدتها عن كثرة الجلاّس، وينطق لسانُ حالها أنها أحْمَدُ عاقبةً من مجالسة الناس، فلا الأسرار عندها بملفوظة، ولا السقطات /٢١٣/ لديها بمحفوظة، وكانت الريح تتلعّب بلهبها، وتختلف على شعبه بشعبها، وطوراً يُقيمه فتصير أنملة، وطوراً تُميله فيصير سلسلة، وتارةً تجوّفه فيصير مدهنة، وتارةً تجعله ذا ورقاتٍ فيتمثل سوسنة، ومرةً تنشره فينبسط منديلا، ومرةً تلفّه على رأسها فيصير إكليلاً، ولقد تأملتها فوجدتُ نسبتها إلى العنصر العسلي، وقدّها قدّ العسّال، وبها يضرب المثل للحليم، غير أن لسانها لسان الجهال، ومذهبها مذهب الهنود في إحراق نفسها بالنار، وهي شبيهةٌ بالعاشق في انهماك الدمع واستمرار السهر، وشدّة الاصفرار.

ومنه قوله:

ولقد عدا السحاب طوره إذا هَطَلَ في بلدةٍ هو بها مُقيم، لكن عذره أنّه أتى متعلّما، وقد جَرَت العادةُ بإفادة التعليم، وما أقول انه يقابل ذاك الوجْه الندي، إلاّ بوجْهٍ قلَّ ماؤهُ، ولو استحيا منه حقَّ الحياء لما هَطَلَتْ سماؤهُ، وأنى يُقاس فيض كرم السحاب بفيض كرمهِ، أو ديمه الدائمة بإقلاع دَيمه.

ومنه قوله:

إذا رفعت الخطوب أعناقها، لقيها من رأيهِ بسعد الذابح، وان بقى ليلها، غشيه من عزمه بالسماك الرامح، فهو يسفك دماءها، ويجلو ظلماءها، ولهذا ترى وقد أجْفلت عن طريقه، فرَجَعَتْ عن حرب عدوّهِ الى سلم صديقه.

ومنه قوله في اليأس والطمع:

ان نظر الى اليأس والطمع وجدا سواء في جدوى الاعطاء، ولا فرق بينهما إلاّ في روح التعجيل وكرب الإبطاء، ومن هٰهنا عجل البأس غنًى والطمع فقرا، وأُوسع صاحب هذا ذماً وصاحب هذا شكرا.

ومنه قوله:

(١) الوافي بالوفيات ٣٨/٢٧ ورسائل الاثير ٩٦.

إذا فاز المرء من اليقين بحظه، ولحظ الدنيا بقلبه لا بِلَحْظِهِ، علم ان عطاياها عارية مردودة، وانها وإن طالت مدّة وجودها فأنها مفقودة، وما ينبغي له حينئذٍ ان يُسَرّ بالشيء المعار، وينقل له من دار المتاع الى / ٢١٤/ دار القرار.

ومنه قولُهُ:

وكانت الدنيا به مسرورة، فطوى عنها لباس السرور، وكانت الزلفى له بحياتِهِ، فانتقلت الزلفى إلى أهْل القبور. وما أقول انه كان للأرض إلاّ بمنزلة الأرواح من الأجساد، ولا شك ان السماء حسدتها على الاختصاص بهِ مما اعتادت من حَسَدِ الحسّاد، بماذا يمدحه المادح وقد أسلمه العيان الى الخبر؟ وان قيل لولا النبي لم تُخلق شمسٌ ولا قمر، قلت: ولولا موته لم تخسف شمس ولا قمر.

ومنه قوله:

وكيف يظلم ذاك اللحد وبه من أعمال ساكنهِ أنوار؟ أم كيف يجدب وبه من كفّ فيضِهِ سحاب مدرار؟ أم كيف يوحش والملائكة داخِلَةٌ عليه ببشرى عاقبة الدار؟ أم كيف يخفيه طول العهد على زوّارِهِ وطيبُ ترابهِ هادٍ للزوّار؟ وا أسفي كيف أطأ على الأرض وهو في بطنها ملحود؟ أم كيف تراعى نجوم السماء وما هو بينها موجود؟ أم كيف أعِدُّ أسماء البحار وليس في جملتها معدود؟ أم كيف أحمد من بعْدِهِ عيشاً ولم يكن العيش إلا به محموداً.

ومنه قوله:

العفوُ عن المذنب عقوبة لعرضِهِ، وإن نجا بسلامة نفْسِهِ، وخيانته هي التي تلبسه من غضاضتها ما لم يبلغه العقاب بِلبْسِهِ، وقد قيل إن الرفق بالجاني عتاب، والإحسان إليه متاب، ولا شك أن بسطة القدرة تذهب بالحفيظة، وتُزيل وَجْد الصدور المغيظة، وشيم الولي تحبّ ان يَكون رضاها شفيعاً الى غضبها، وان نَبَضَتْ منه بادرة سَهْم ردّتها شيمة التغمّد على عقبها، فلا شافع إليها إلاّ وسيلة كرمها، ولا ذمة عندها إلاّ ألاستذمام بحرمها.

ومنه قوله:

إذا ادعت له الأوصاف رتبة فضل، شهد شاهد من أهلها وكَفَتْهُ وراثتها عن آبائِهِ ان يشارك البعداء في فَضْلِها، وأَحقُّ الناس بالمعالي من كان فيها عريقاً، ولا يكون المرء خليقاً بها إلا اذا كان أبوه بها خليقاً، واذا زكَتْ / ٢١٥/ أُصول الشجر زكت فروعُهُ، ولا يعذب مذاق الماء إلاّ إذا طاب ينبوعُه.

ومنه قوله:

وأَكْرِمْ بيديهِ التي تسمح بديّة القتيل، ويرى الكثير من عطائها بعين القليل، وما كلّ مَنْ شاء استمرّت يده بالسماح، وقد تحجم عنه من تقدم على مكروه الصفاح، على أنه قد قيل: إنَّ بين التسميتين إخاء، فالسخاء يكون نجدة، والنجدة تكون سخاء، ومصداق هذه القول اجتماعهما لليد الكريمة، التي أَلِفَتْ إنجاحَ الوعد وإنجاح الوعيد، وضَمِنَتْ ارزاق الناس وارزاق الحديد، وقالت في الندى: هل من صادٍ، وفي الوغى: هل من مزيد؟ فالساري الى أبوابها لا يصل إليه في نهج السرى وهو مهتد منها على قبس القارع، أو قَبَس القرى.

ومنه قولُهُ في وصف هملاج[1] له:

في العربية حسب أصلها، وفي العجمية نسيب جهلها، فهو مِنْ بينهما مستنتج، لا ينسب الى الضبيب[2]، ولا الى أعوج[3] سديد الحملة، شديد الجملة، لا يُشان بالغلو، ولا يُتعب راكبه بفرط العلوّ، أَثْبَتُ من الصافنات صبراً، وأَوْطأُ ظهراً، وأطوع للتصريف، وأسلم في الهيكل والوظيف، رحب اللبان، عريض البطان، سلس العنان، طوع الكرة والصولجان، قد استوت حالتاه بإدناً ومضطمراً، فإذا أقبل خلته مرتفعاً، وإذا أدْبَرَ خِلْتَهُ منحدراً، كأنه دمية محراب، أو درة هضاب، فهو مخلّق بخلوق المضمار، وبدم الشرب والصوار، بناصيةٍ شائلة، وغرة سائلة، كنوّارةٍ في شقيق، ولؤلؤةٍ في عقيق، يثنى عليه بأفعاله، لا بعمّهِ وخالِهِ، وإذا كان الكريم في كل جنس، فهو كريم جنسِهِ، وإذا كانت العِراب بأنسابها أبناء أُمهاتها، فهو ابن يومه لا ابن أمْسِهِ. كأنما أُلقي لجامه على سالفةِ عقاب، أو شدّ حزامه على بارِقَةِ سحاب.

ومنه قوله في الخيل والسير:

ولما دَهَم نزلنا للاستراحة، والهجير في الاستعار، وقذف بالدرك الأسفل من النار، والحرباء قد لجأ الى ظلّ المقيل، وسمح بمفارقة /٢١٦/ عين الشمس، وهو بها عين البخيل، فلم يكن إلاّ مقدار وضع الرِّجل من الركاب، ومصافحة الجنب لصفحة التراب، حتى قيل: قد فجأتكم عصابةٌ من أهل العبث، تشدّ في ضرائها، وتجنب نقعها من ورائها، وقد فَرَطَتْ أجيادها بأعنّتها، وطاوَلَتْ هواديها بأسنّتها،

---

(١) الهملاج: من البراذين، والهملجة: حسن سير الدابة في سرعة(القاموس).

(٢) الضبيب: فرس مشهورة كانت لحسان بن حنظلة الطائي، حمل عليه كسرى ابرويز يوم النهروان فنجا (أنساب الخيل ٩٥).

(٣) اعوج: من الخيل المشهورة كان لاحد ملوك كندة (أنساب الخيل ٢١).

فغدت حينئذٍ نجزةً من الخيل تدرك ما كانت به طالبة، وتفوت ما كانت منه هاربة، لا تَمَلُّ من موالاة الدروب، وهي عند النزول كمثلها عند الركوب. فما استويت على ظهرها، عقدت مع الرحى عقد الرهان، وعَرَضْتُ عليها حكم الشقراء والميدان، ثم قلتُ: ان استشعرت مسابقتي فقد جئت شيئاً فريّا، وتلت قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1] وما كان إلا هنيهة حتى حال الركب للرواح عند الإظهار، واستسلمت المدى بالتقريب قبل الإحضار، وجئت القران فلقيته منها بصدرٍ يطارد الامواج مطاردة الفجاج، وعين لا يروعها هبوات الماء كما لا يروعها هبوات العجاج، فتلك فرسي التي أعدّها لكلّ مخوفةٍ، وهي حوت كلّ مَعْبَرٍ، وظليم في كلّ تنوفة.

ومنه قوله في الناقة والفرس:

سِرْتُ وتحتي بنتُ قفرةٍ، لا يَذهب السوى بجماحِها، ولا تستزيد الحادي من مراحها، فهي طموح بإثناء الزمام، وإذا سارت بين الآكام قيل: أكمة من الآكام، ولم تسمّ جَسْرةً إلا أنها تقطع عرض الفلا كما يقطع الجسر عرض الماء، ولا سميت حرفاً إلاّ أنها جاءت لمعنى في العزائم لا لمعنى في الأفعال والأسماء، وخلفها جنيبٌ من الخيل، يقبل بجذع ويدبر بصخرة، وينظر من عين جحظة، ويسمع بأُذُن جسرة، ويجري مع الريح الزعزع فيذرها وقد ظهر فيها أثر الفترة، وما قيد خلفها إلاّ وهو يهتدي بها في المسالك المضلّة، ويطأ على آثارها فيرقم وجوه البدور بأشكال الأهلّة، هذا والليل قد ألقى جرانه فلم يبرح، والكواكب قد ركَدَتْ فيه فلم تسبح، وإنما أودّ لو زاد طوله، فلم تظهر غرّة أدهمه ولا حجوله، فقد قيل: انه أدنى المبعد، وأكمّ الأنوار /٢١٧/ ودلّ عليه القول النبويّ «بأن الأرض تطوى فيه ما لا تطوى فى النهار»، وما زلتُ أسير مرتدياً بثوبهِ حتى يكاد أن ينضو لون السواد، وظهر ذنب السرحان، فأغار على سرح السماء، كما يغير السرحان على النقاد، فعند ذلك نهلت العينُ من الكرى نَهْلَةَ الطائر، ولم يكن ذلك على ظهر الأرض المطمئنة، وإنما كان على ظهر السائر.

ومنه قوله في الخاطر:

الخاطرُ كالضرع، إن حلبته طفّ، وان تركته جفّ.

ومنه قوله:

لا ريب في أن لحاظ النواظر كمتون البواتر، وإنما اشتركت جفونهما في

---

(١) سورة الزخرف: ٣٢.

الأسماء لاشتراكهما في سفك الدماء.

ومنه قوله في الحكمة:

عقل المؤمن حول مالِهِ، وماله من حول صبره، فإذا افتقرت يدُهُ ذهبت بعقله، وإذا صبرت نفسه ذهبت بفقره.

ومنه قوله:

فرّوا وقد علموا أنّ العارّ مقرون بالفرار، لكنهم رأوا كلمة الأعراض أهون من كلمة الأعمار، وتلك نفس خدعت بالحياة الذليلة التي الموتُ الذّ منها طعماً، وليس الموت إلاّ في ان تلاقي النفس ذلاّ، او تفارق جسما، ولربما يسلا المهزوم ويقول القائل ان الأُسْد يغلبها الأسْوَد. وان الحرب ليست بمضاءِ العزائم، وإنما هي بمضاء الجدود، وهذا القول مسلاةٌ كاذِبةٌ لهم مكذوبة، ولولا العزم لم تُر حصون مفتتحة، ولا جموع محروبة، وبالجد يدرك الجد، ولولا القدْح لم ينفث الزند، ولما جيء بأسرى القوم مَنّنا عليهم بإطلاق السراح، وقاتلتْ عنهم شيمة الصفح إذْ لم تقاتل عنهم شيمة الصفاح، وحمية الآباء لا تقتل من لم يحوِهِ مكرّ الطراد، ولا حمية صهوات الجياد، وأيّ فرق بين الأسير في عدم الدفاع، وبين أشْباهِهِ من ذوات القناع؟

ومنه قوله:

وما زال يزعج ديار الكفر بغزواتِهِ، حتى لم تهن حاملةٌ بإتمامها، ولا مُتّعت عينها بلذّةِ منامها، فاسم القرور من نسائهم منسوخ بغارةِ المقربات الجياد، ولذيذ النوم بأرضهم مسلوب بايقاظ جفون البيض الحداد.

ومنه قوله في بليغ:

إذا ارتجل /٢١٨/ أتته المعاني غير مكرهة ولا محرجة، وأبرزها كوامل الصور غير مخدجة، وإن تروى تهافتت على توقد خاطرِهِ تهافت الفراش، وجاءته سوانح وبوارح حتى تقول: تكاثرت الظباء على خراش[1].

ومنه قولُهُ في تكذيب أهل النجوم:

ولقد أوْهَمَ أهل التنجيم بالتسيير والتقويم، والحكم على أفعال العليم الحكيم، فأخبروا عن النجوم في سعودها ونحوسها، بما لما تخبره من نفوسها، وقضوا في ترتيب أبراجها، واختلاف مزاجها، وحكموا على حوادث العمر من حال وجودِهِ الى

---

(١) صدر بيت وتمامه: فما يدري خراشٌ ما يصيدُ.

عدمِهِ، في سعادتِهِ وشقائِهِ، وصحته وسقمِهِ، وأشباه ذلك من الزخارف التي نصبوها حبائل للاكتساب على غير ذوي الألباب، وكلُّها أضغاثُ أحلام، وأوْضاع لا تخرج عن خطّ الأقلام.

ومنه قوله:

ولم أبكِ إلاّ عصر الشباب الذي هو في الأعمار بمنزلة الربيع من الأعوام، وما كنت أعرف كنه أمرِهِ، حتى مضى فرحلتْ معه الحياة بسلام، فالأيام فيه غوافل، والسنون لقرب عهدها مراحل، ولم أقْضِ وطراً إلاّ خلَّفتُ أندى منه مرتعاً، وأحْسَنَ مَرْءً ومسمعاً، أيام لا أُعاقر خمرةً إلاّ لَمًى، ولا وردةً إلاّ خدّا، ولا نقلا إلاّ فما، ولكأني ما كنت قمرا حلف إلا بالقدود وَهَيَفِها، والجفون ووطفها، وليالي الذوائب وشرفها، ووجوه الأقمار التي لا تُشاب بكلفِها، ولا يرى في غرر الشهور ولا في منتصفها، فأصبحت قَدْ بدّلت غريب الأحوال بأليفِها، وعوّضت من نضرةِ الأوراق بيبس خريفها، فولى الصبا الآن بسلام، ولوعة ينبيء بها الدمع السجام.

ومنه قوله فيمن قصر:

ولتقر تفاح الخدود، فلستُ من تقبيله غِرّا، ولا مِنْ عضّه، اللهم غفرا، وقد ينطق المرء بما يكون فيه لسانه آثماً وفعاله برّا، ولولا حكم الفصاحة لما ذكرت بانةٌ ولا عَلَم، ولا وقَفَ المتغزّل بأقولِهِ موقف التهم.

ومنه قوله:

لما عود الطير من جزر أعدائه تتبعه أسرابا، واستسقى سحابها ما تحته من /٢١٩/ سحاب خيله، فاستسقى سحاب سحاباً، ولقد مرّت عليه الشمس فضعفت ان تحرق جناحا، أو تحمي بحرها سلاحا، فلم يلق بين الريش فرجةً ينثر فيها دراهمها، ولربما خالَسَها النظر إذا هزّت قوادمها.

ومنه قوله في الاستعطاف:

المولى إذا لين له غُلِبَ على أمرِهِ، وأُزيلت مغيظة صدره، وهذه خليقتان من البعيد الذي يمسّه بِلُحْمة، ولا يمتُّ إليه بحرمة، فما للظنّ بالقريب الذي فاز بمزية الشركة في عِرْقِهِ، وفضل الجوار لاحق أوْجَبَ من حقّهِ، فكيف نسي المولى عادة كرمِهِ، ووضع وجوه قومِهِ تحت قدمِهِ، وجعلهم حصائد سيفِهِ وقلمِهِ، وحاشاه أن يقطع رحماً أوصاه الله بوصْلِها، ويعضد[1] شجرة أصله الكريم من أصلها، ويزعم بأنهم أخرجوه من معهود خلائقهِ، وبدّلوا أنواء غيوثِهِ بمخيلة صواعقِهِ، ولكنهم شفعوا

---

(١) كذا في الأصل: ولعلّ الصواب: يخضد.

للذنب بالاعتذار، وعلموا ان خيط أرْشيتهم لا يؤثر في كدر البحار، وقد قَدَر المولىٰ، والمقدرة تصغر الذنوب، وتذهب ترات القلوب، فإن نَقَمَ منهم أنّهم جمعوا قلّة الآداب الى إدلال ذوي الانتساب، فتلك سُنّةٌ سنّها حُكْمُه، وَجَبَلَهُم عليها حلمُهُ، وما يتحدث الناس ان الكريم عاد عن غباوة إغضائِهِ، ورجع في حكم قضائِهِ، وأوّل راضٍ مسيرةً من يسيرها[1]، فَلْيُسْبِلِ المولى عليهم ستر فضلهِ، وينجز إساءة فعلهم بإحسان فعله، وليأخذ بأدب الله وأدب رسُلِهِ في الاعراض عن الجاهل وجهلهِ، ويعلم ان قوم المرء كنانته التي بها يناضل، وذروته التي بها يطاول، وإذا لم يحمل ما يريب من أدانيه رمته أقاصيه، ولا بُدّ للانسان من طاعة ومعصية، ومن أجل طاعته تُغْفَر معاصيه، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2]، وبعد، فإذا أشار المولى ان يقتل حرّا فليعف عن زَلَلِهِ، فإن إصابة عِرْضِهِ أشدّ من إصابة مقتلِهِ.

ومنه قوله:

سليب المدائح أبهج حسناً من الغصون المكسوّة بأوراقها، والحمائم المتحلية بأطوقها، فهو عارٍ من اللباس / ٢٢٠/ مكسوّ من المحامد التي صاحبها هو الكاسي.

ومنه قوله في ذم الودّ المتكلف:

خير الودّ ما عطف عليك اختياراً، إلاّ ما أعدته بالعتاب اقتساراً، فإن شيمة التبرع كحسن التأدب غير مجلوب، والإنجاح في الطلب إتعاب لوجه المطلوب، إلاّ ان خير الودّ ودٌّ تطوّعت به النفس، لا وِدُّ أتى وهو متعب.

ومنه قولُهُ:

والشيب يُعيد جدّة الشباب وهي أخلاق، وهي على كراهة لقائه مكروه الفراق، فواهاً لنزوله، واهاً لرحيله، وسحقاً له بديلا من الشباب، وسحقاً لبديله.

ومنه قوله في الهجو:

لم أرَ له في حظوط المساعي من قسم، كأنه فيها واو عمروٍ أو ألْف بسم، فهو لا يزال منكرا غير معروف، فأما زائد لا حاجة إليه، وأما محذوف.

ومنه قوله:

السرُّ أمانة لا تُباع، ووديعة لا تُضاع، فالعين تُكاتم القلب فيها ما تبصره،

---

(١) من قول خالد بن زهير: [من الطويل]
فلا تجزعنْ من سيرةٍ أنتَ سرتَها فأول راضٍ سيرةً مَنْ يسيرُها

(٢) سورة هود: ١١٤.

والقلب يكاتم اللسان ما يُضْمِرُهُ، وإذا حُوفِظ على السرّ هذِهِ المحافظة، فقد أُلْقي في سهولةٍ لا يُرام اطلاعها، ونيط بصخرةٍ أعْيى الرجال على كثرةِ المحاولة انصداعها.

ومنه قوله في قتال قوم كانوا بجبل ثم نزلوا فهزموا:

وبعد، فإنّ العساكر رَكِبَتْ لارتياد موقف الحرب، واختيار المصعد السهل في الجبل الصعب، لتكون على بصيرةٍ من أُمورها، ولتأتي البيوت من أبوابها لا من ظهورها، فانبسطت كتائبها في كل منخفض ومنحدر، ومزلزلٍ ومستقر، فحينئذٍ نفخ الشيطان في أنفه وساقَهُ الى حتفِهِ، فبرز بمن قبله من الجنود، ونزل عن قلل الأوعال الى مصطخر الأسود، وكان حزن الخطب في أحزانه، وتباعد منالُهُ في تباعد مكانه، فلما أسهل النصر في طلبه، وأمكن يَدَهُ من سلبهِ، لا جرم انهم رُدُّوا على الأعقاب، ونُسِفوا نَسْفَ الريح السحاب، فلم يكن لهم سلاح أَوْقى من الفرار، ولا عاصم إلاّ الجبل الذي عصم من طوفان السيف وما / ٢٢١/ عصم من طوفان العار.

ومنه قوله[١]:

ونار بين أيدينا سرب ظباء مدرّب على القنص ومقانصه، عارف بغوائله ومخالصهِ، وقد طرق مكانه حتى لم يهن بمرتعه ومشرعهِ، ولا أمِنَ مصرعه وكبس منه ما تمتع برؤية أشباههِ من الفرقدين، ولم ينس الفجيعة بإلفه الذي خرّ لفمهِ واليدين، فلما أحسّ بنا طار خيفة حتفهِ، وكاد ان يخلف ظلّه من خلفِهِ، فأرسلنا عليه[٢] سلسل الضريبة، ميمون النقيبة، منتسباً الى نجيب من الفهود ونجيبة، كأنما ينظر من جمرة، ويسمع من صخرة، ويطأ من كل برثنٍ على شفرة، وله إهاب قد حيك من ضدّين بياض وسواد، وصوّر على أشكال العيون، فتطلّعَتْ إلى انتزاع الأرواح من الأجساد، وهو يبلغ المدى الاقصى في أدنى وثباته، ويسبق الفريسة فلا يقْنصها إلاّ عند التفاتِهِ، وقد علمت الظباء ان حبائلها في حبل ذراعِهِ، وان نفوسها مخبوءةٌ بين أضلاعِهِ، فلم يكن إلاّ نبضة عرق أو ومضة برق، حتى أدرك عقيلةً من تلك العقائل، فأناخ عليها بكلكِلِهِ، ووقف بإزائها ينتظر وصول مرسله.

ومنه قولُهُ:

والتاريخ معاد معنوي، يُعيد الأعصار وقد سَلَفَتْ، وينشر أهلها وقد ذهبتْ آثارهم وَعَفَتْ، وبه يستفيد عقول التجارب من كان غِرّاً، ويلقى آدم ومَنْ بعده من الأُمم وهَلُمَّ جرّاً، فهم لديه أحياء وقد تضمّنتهم بطون القبور، وعنه غُيِّب وقد جعلتهم

(١) بعضها في نهاية الارب: ٩/ ٢٤٩. (٢) بعدها في نهاية الارب: فهداً.

الأخبار في عدّة الحضور، ولولا التاريخ لجهلت الأنساب، ولم يعلم الانسان ان أصلَهُ من تراب، وكذلك لولاه لماتَتْ الدول بموت زعمائها، وعمي من الأواخر حال قدمائها، ولم تحط عِلْماً بما تداولَتْهُ في الأرض من حوادث سمائها، ولمكان العناية إليه لم يخل منه كتاب من كتب الله المنزلة، فمنها ما أتى بأخباره المجملة، ومنها ما أتى بأخباره المفصّله، وقد وَرَدَ في التوراة في سفر من أسفارِها، وتضمّن تفصيل أحوال الأمم السالفة ومدد أعمارها / ٢٢٢/ وقد كانت العرب على جهلها بالقلم وخطّه، والكتاب وضبطه، تصرف الى التواريخ جُلَّ دواعيها، وتجعل له أوْفر حظٍّ من مساعيها، فتستغنى بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتعتاض برقم صدورها عن رقم مسطورها، كل ذلك عنايةً منهم بأخبار أوائلها، وإبانة فضائلها، وهل الانسان إلا ما أسسه ذكرهُ وبناه؟ وهل البقاء ألاّ بصورة لحمه ودمِهِ لولا بقاء معناه؟.

ومنه قولُهُ:

الخادم يعود المولى من شكاة جسمه، والناس يعودون الخادم من شكاة همِّهِ، وإذا مرض المولى المنعم سَرى مرضُهُ الى عبيدِهِ وخَدَمِه، فهم مشاركوه في اسم مرضه، وإن خالفوهُ في صورةِ ألمهِ، وقد تمرض أرواح المرض أجساد، ويشتركان في كل شيء حتى في عيادةِ العوّاد.

ومنه قولُهُ في السير:

ولقد سِرتُ سير الأخبار، وأخذتُ بمطالع الليل والنهار، حتى عُدِمتُ رفقةً ورفقا، وصيرتُ للغرب غرباً وللشرق شرقاً.

ومنه قوله:

إذا وقفت بالدار تُسائل أحجارها، وتبكي آثارها، فإنك لا تبكي التراب، بل الأتراب، ولا تندب الآثار الحائلة بل الأحباب الزائلة، ولا فائدة في سلامك على الطلل الذي لا يعي خطاباً ولا يردّ جوابا، فإنا نخاطب أصداءً لا تملك إعادةً ولا إبداء، وإذا شَغَلْتَ نفسك بسؤال التراب والجندل، فلا فرق بي سؤال من لا يجيب، وجواب مَنْ لا يسأل،

ومنه قولُهُ قريب منه:

ولقد قصد منه كريماً لم تزل معاهد أكنافهِ معهودة، ومن شيمة مواهبِهِ ان تكون قاصدة قبل أن تكون مقصودة، من يسأله غير درجات المعالي فقد قَدَحَ في مواهبِهِ، وحطّ من مراتبِهِ، أمْسَك المال وجَعَلَ حادث هلاكِهِ في ضمن إمْساكه، فلو حلف سائله أن يصافح السحاب لبّر في يمينه بمصافحة يمينه، وليس هذا من المجاز الذي

يتوسع في مقالِهِ، بل هو من حقيقة القياس الذي يحمل على اشباهه وامثالِهِ.

/ ٢٢٣/ ومنه قولُهُ:

وبأيديهم كلّ لدنٍ شدّته في لينهِ، ولكن النصر منوط بتمكينه، فما منهم إلاّ من اعتقل ما يماثله قدّاً، أوْ يناسبه جِدّاً، فإذا مثلت شكولها وشكولهم قيل: صعاد، في أيدي صعاد، وإذا مثل غناؤها وغناؤهم قيل: أساود في أيدي آساد، ومن صفاتها انها لا تنشد [إلا] إذا كانت قصائد، ولا تجور إذا كانت قواصد، قد أدَّبها الثقاف من عهد فطامها، وكانت منابت التراب من شرابها، فأصبحت منابت الترائب من طعامها، فهذه هي الرماح التي تعلقها أيدي الأبطال وتأوى منها إلى معاقل بذلك الاعتقال.

ومنه قولُهُ:

مَنَنّا عليهم من الأسلاب بالبيض القواطع، ليجعلوا حِليها أساور في أيْدي البيض، ذوات البراقع وحلية السيف لا تحسن الا بكف يكون به ضارباً لا له حاملاً، وإذا عطل في مواقف الجهاد فالاولى ان تجعل له عاطلاً، فخفنا أن ينشدهم قول أبي العتاهية[1]: [من الهزج]

فصُغْ ما كنتَ حَلّيتَ ... به سيفَكَ خلخالا
ما تصنعُ بالسيفِ ... إذا لم تَكُ قَتّالا

ومنه قولُهُ:

ولقد تعقبت للأيام نقصها بإتمامها، ونقْضها بإبرامها، ونسي نعي ميتها ببشرى حيِّها، ونشرت المكارم التي كانت طويت فوفى أنس نشرها بوحشة طيِّها، وأصبح عزاء الناس مستدركاً بالهناء، وعوّضوا عن كنز الغنى بكنز الغناء، حتى استرجعتْ العبرات ما جادتْ بِهِ من سحاب مزنها، واستبدلت ببرد مسرّتها من حرارة حزنها.

ومنه قوله في الحلم:

إذا حكمت قدرته في الذنوب كان العفو لها عائقاً، واذا أحَبَّ الشفعاء أن يشفعوا إليه كان كرمه لهم سابقاً، فلا بارقة في بوارقِهِ الاّ وهي مغشية بغمامةِ حلمه، ولا بادرة من بوادرِهِ إلا وهي محبوسة في قبضةِ كظمِهِ، وعلى هذا فإن الجاني غير مقتصر لديه الى إقامة الأعذار، ولا إلى التوبة التي تستر عورة الإصرار، فيوشك انه تخلق بخلق / ٢٢٤/ الله سبحانه في عموم المغفرة، ورأى أن لا أثر يبقى في صدر المغيظ إذا تولّت إذهابه يد المقدرة.

---

(١) ديوانه ٦٠٨.

ومنه قوله في الخمر:

سقيت مغارسها بالسرور بدلاً من الماء، وجمع لها بين وصفين من تذكير الافعال وتأنيث الأسماء، وما سجنت في دنّها إلاّ لما عندها من النفار، وكانت حمراء اللون فألبسها طول السجن ثوب الاصفرار، وقد شبهت بالنار الموسوية في تألّق ضرامها، وبالنار الخليلية في بردها وسلامها، وإذا نظر إليها والى زجاجها اشكل الأمر بينها وبين الزجاج، وقيل هذا سراج في كأس أم كأس في سراج؟

ومنه قولُهُ:

النفوس تؤثر الخير تكلفاً والشرَّ طبعاً، وهي مجبولة على حبّ الشهوات قلباً ولساناً وبصراً وسمعاً، ولكن للتدريج أثر في تقويم الاعوجاج واصطناع الياقوت من أحجار الزجاج، ولهذا استخرج من اوراق الشجر وشايع الديباج.

ومنه قوله في المدح:

إذا أَفَضتَ في الثناء عليه تنافَسَ النظم والنثر في الاستقلال بأوصافه، وما منها إلا من فض ختام طيبه ونشر مطاوي أفوافِهِ، فما ترى في مديحي لمولانا من حسن فليس لها مخلوقاً، بل من أوصاف سيدنا مسروقاً. [من البسيط]

إذا القصائدُ كانتْ منْ مدائحِهِمْ يوماً فأنتَ لعمري مِنْ مدائحها

ومنه قوله:

المال يكون في خزائن أربابه صامتاً، وإذا خرج في العطايا صار ناطقاً، فيا قُبْحَهُ في أيديهم حبيساً، ويا حسنه عنهم آبقا، ولم يسمع قبله بآبق أفاد صاحبه حمداً، وبنى له مجداً.

ومنه قوله في قريب منه:

جود مولانا قد هون على الناس مشقّة الاغتراب، وأراهم من نعيم الأنعام ما حبّبَ إليهم فراق الأحباب، فما منهم إلاّ مَنْ يحمد خطوب الأيام التي أخرجته من ديارِهِ، ونقلته عما لم يؤثر الانتقال منه إلى ما لقيه من إيثاره، فمثال بابه الكريم بقتلى الايام، كمثل الجنّة بقتلى الحمام، فلو علم داخل الجنّة انها تكون له مصيراً، لاستعذبَ كأس الحمام وإن كان مريراً، وذلك كما / ٢٢٥/ قال ابن الخياط[1]: [من البسيط]

لأشكرنّ زماناً كانَ حادثُهُ وصرفُهُ بي الى معروفِكُمْ سَبَبا

---

(١) ديوان ابن الخياط: ٧٠.

ومنه قوله:

إذا حكّمت سيوفنا في أموال العدا، حكّمت فيها وسائل الندى، فهي طالبة ومطلوبة، وسالبةٌ ومسلوبةٌ، إلاّ أنها تأخذ ما تأخذه اقتسارا، وتعطي ما تعطيه اختيارا، فلها بسطة الغالب ومنّة الواهب.

ومنه قوله في شكر منعم:

إذا تقابَلَتْ مدائحي وسجاياه، رأيتُ مرآةً صقيلة، تقابل صورةً جميلة، فلولا هذه ورونق صقالها لما تَمثَّلتْ تلك على هيأة جمالها، وأنا أوّل من طبع مرآة من الكلام، وصوّر الأخلاق فيها بصورة الأجسام.

ومنه قوله:

وردتْ إشارة سيدنا أن أَنْظم في فلان قصيداً يكون في نظمه فريداً، وقد علم أن أحرار الكلام وردت ان لها عزة الاحرار، وهي كالنفوس الأبيّة في الاستعلاء والاستكبار، فإذا كلفت مدح لئيم صدّت مجانبةً وذهبت مغاضبةً، ولهذا أبى كلامي وهو الحرّ في نَسَبِهِ، الكريم في حسبِهِ ان يمدح مَنْ عرضه حراق قادح، وفريسةُ جارح، وطعمة هاجٍ لا مادح، ولطيمة الطيب لا تلتئم بالكنيف وصورة الشوهاء لا يزين منها التسوير والتشنيف.

ومنه قوله في قلم:

أَخْرس وهو فصيح الإيراد، وأصم وهو يسمع مناجاة الفؤاد، لا ينطق إلا اذا قطع لسانه، ولا يضحك إلا إذا بكتْ أجْفانه.

ومنه قوله في تفضيل الإحسان على الثناء:

الشكر أخفّ من الإحسان وزناً، وصاحبه يستبدل الذي هو خير بالذي أدنى، ولقد ربحت صفقته إذا باع أقوالاً وحاز أموالاً، وأعطى كلمات خفافاً، وأخذ عروضاً ثقالاً، ومَنْ زعَمَ ان شكر الشاكر أفضل من موهبة الواهب فقد أغلى القول فيما ليس بغال، وأتى ويده السفلى من مكانٍ عال، وأيّ فضلٍ لمن غايته ان يكون مجازيا لا موازياً، ومعاملاً لا معادلاً؟ وإذا أنصف /٢٢٦/ علم أنه جاء أخيراً، ولا فرق بينه وبين من أعطى أجره فصار أجيراً، وما ارى الشكر إلاّ حديثاً يذهب في الرياح لو لم تقيدهُ مكارم السماح، فلا حاجة مع لسانها الى الشاكر، وإذا نطقت الحقائب فقط أَغْنَتْ بنطقها عن مديح الشاعر(١).

---

(١) تضمين لقول نصيب: [من الطويل]

فعاجوا وأثنوا بالذي أنتَ أهلُهُ   ولو سكتوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ

ومنه قوله:

الخادم لا يشكو الأقوام، ولكن يشكو الايام، فان المعدى على قَدَرِ العدوى والمشكوّ إليه على قدر الشكوى، ومما يشكوهُ منها انها تبادهه، ولا تواجهه، وتسارره ولا تجاهِرُهُ، ولو كان لها شخص، للقيه بعزم مولانا فقارعه، أو أرهبه باسمه الكريم فوادعه، وهي عبيدة تجني وهو المطلوب بجناياتها، وإذا رأت بأحَدٍ عنايةً من جاهِهِ قرنتها بعنايتها، والمملوك يطالب مولانا بأرش جراحها ويسأله عناية تكفّ من غربِ جماحها.

ومنه قوله في سرى النياق:

كم للركاب من يدٍ لو علمتها لجعلت تراب اخفافها للعيون إثْمَداً، وخطط منازلها للجباهِ مسجداً، فهي الحاملة أعباء الهمم، والممكنة من نواحي النعم.

ومنه قوله:

جوده بعيد على الأمل، غير مفتقر الى العذل، وإذا احتفل فهو نهر طالوت الذي حلّل للغرفة لا للنهل.

ومنه قوله في كريم:

لا يضربُ بين ماله حجاباً وبين السائلين، وإذا عَدَل على الجود أجاب بقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

ومنه قوله في الاقتصاد في طلب الرزق:

الانسان في كفالة الله يرزقه غير واثق، وهو في كلّ طريق إليه مالك، ولكلّ باب فيه طارق، وكثيرا من يأتيه الرزق وهو عن طلبه نائم، ويقعد عن ابتغائِهِ وهو إليه قائم، ولا يُصرّف الأقدار إلاّ القادر على خلقها، وكم من دابّةٍ مرزوقة وهي ضعيفة عن حمل رزقها.

قلت: ذكرت بهذه الكلمة دعاء كتاب كتبه ابن عبد الظاهر[2] عن الملك الظاهر[3] الى وزيره بأن يربع دواب الحرس، وكان قد أمَرَ باخصائها لإزعاجها له بالنهيق، ثم رآها فرحمها، فأمر بذلك الدعاء: ولا زال يشكره غرب البلاد / ٢٢٧/ وشرقها، وحمامها وورقها، وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله وعلى حسن تدبيره رزقها.

---

(١) سورة الأعراف: ١٩٩.

(٢) محيي الدين أبو الفضل عبد الله عبد الظاهر بن نشوان، المتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٢هـ مضى ذكره.

(٣) الملك الظاهر بيبرس، الذي ملك الشام ومصر، توفي سنة ٦٧٦هـ، وأخباره كثيرة جداً (الوافي بالوفيات ١٠/٣٢٩).

عدنا الى ابن الأثير، ومنه قوله في ذكر الخدمة:

لو ساغ لوليّ من أولياء الديوان العزيز ان يمتَّ بولائهِ، أوْ يُدِلُّ بما أبلاه في الخدمة من حسن بلائه، لكان لسان الخادم في هذا المقام أكرم صدقاً أو مكانه منه أشرف حقاً، لكن ليس لقائم بخدمتها ان يمنّ بقيامِهِ كما ليس لمسلم ان يمنّ بإسلامه، والخادم وإن أمْسَك عن ذكر خدمِهِ، فقد نطقت بها شهرةُ سماتها، وأصبحتْ مواقفها في الموقف أبكارا، ونطق البكر في صماتها، ولم تزل معروضةً بالديوان العزيز، وكل وقت أبان وقتها، وهي كالآيات لا تأتي منها آيةٌ إلاّ كانت أكبر من أُختها.

ومنه قوله:

ولطالما أورى الاغتراب عِزّاً، وأثار من السعادة كنزاً، حتى ان الله جعله سنة في أنبيائه ورسله، ونهج لهم سبيل العزّ بسلوك سبلِهِ، كسنّة الغربة اليثربية في الهجرة النبويّة، وما أوْجَسَهُ من القوّة بعد الفرار، والكثرة بعد ثاني اثنين إذهما في الغار، والتقليل سبب للسكون، والشهادة داعية لهدوء العيون، ولو لزم السيف غِمدَهُ لم يبن أثر مضاربه ولا خدمه لسان في نظم شاعرِهِ ولا نثر خاطبهِ، وبالاغتراب عَذب ماء البحر لما فارق السحاب.

ومنه قوله:

له القلم الذي يصرع الخطب الجليل بضعفهِ، ويسبق الحرف الأمون بحرفهِ، وإذا نكس رأسه رأيت أُبهة الخيلاء في عطفهِ، فهو يجلّ بأساً ويدق جسماً، ويمجُّ من لسانِهِ شهداً وسُماً، فإذا ارتقى أنامله قيل: خطيب رقى منبراً، وإذا اهتزّ في يدِهِ كأنه جان ولى الخطب مدبراً.

ومنه قوله:

لو ذهب الحزن بالدمع وانهمالِهِ، لكان الصبر بصاحبِهِ أحرى، ولو لم يَنَلْ به أجرا، فكيف وصلوات الله ورحمته من ثوابه، وما اعتاض المرء صبراً عن المصاب، إلاّ كان فيه عوض عن مصابهِ.

ومنه /٢٢٨/ قوله:

المكر ضراب من تحت الثياب، وسيفه لا يقطع إلاّ وهو في القراب، وصاحبه يلقى بوجه الأحباب، وهو كالجبل الذي تحسبه جامداً وهو يمرُّ مرّ السحاب، يفرق الجموع وقد كادت تكون عليه لبدا، ويجعل قولها أضعف ناصرا وكثرتها أقَلّ عددا، ويستغني بلين كيدهِ عن شدّةِ أيدِهِ، وكثيراً ما يطعن أقرانه قبل الطعان، ويفاجئهم

بالذعر وهم من الأمن في صوان.

ومنه قولُهُ في التضرّع الى قريب مضايق:

أنا أسأله بالرحم التي أمر الله باتقائه واتقائها، وتكفّل بالإسقاء يوم القيامة لمن تكفّل بإسقائها، واشتقّ لها لكرامتها عليه اسماً من اسمه وقسّم لواصلها ببسط العمر والرزق اللذين هما من أفضل قسمه، فلا تتركني أتأوّه بقلب المتألّم، وأجهر بلسان المتظلّم، وان اصله بسهام الدعاء القاصدة، وأحاكمه الى صراعة البغي التي ليست عن الباغي براقدة، واتمثّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[1] ويعزّ عليّ أن ألْقاه بهذا القول الذي أنا فيه غير مختار، ولئن كان من المحظور النهي عنها فالمحظور يباح لمرتكبه عند الاضطرار.

ومنه قوله في تذكير بعض الطغاة:

تذكير الطاغي من سنة الله التي خَلَتْ في عبادِهِ، وان عسر نقله عما جُبِلت عليه فطرة ميلاده، وقد أُمر موسى بتذكير فرعون مع انه لم يستفد ذكرى، بل زاد الى طغيانه طغياناً والى كفره كفرا.

ومنه قوله:

ونُصبت المجانيق، فألقت عصيّها وحبالها، وصبّ على أقطار البلد نكالها، فَسَجدتْ له الأسوار سجود السَّحَرةِ لفعل العصا، وبادرت للايمان بها مبادرة من أطاع وما عصى، ولم يكن في أيمانها إلاّ بعد اذن الاحجار التي ما أذنت لمشيد إلا أخذ في البوار، وخرّ من الأقطار، وأصبح كشجرة اجتثت فوق الارض مالها من قرار.

ومنه قوله في كتاب:

ورد كتابه، فطلع طلوع الصباح السافر، على المدلج الحائر، لا بل أقْبَلَ / ٢٢٩/ إقبال الحياة على الاجساد، والحيا على ألسنة الجماد، فَعُظم موقعُهُ ان يُذال باليد أو ينال بالنظر، أو يوصف بأنه ثاني المطر، أو ثالث الشمس والقمر.

ومنه قوله ، رسالة في البندق[2]:

من المآرب ما يفعل طالِبُه، ويرتاح ناصبه، ويشترك فيه الناس، وكل منهم صاحبه، كالقنص الذي هو للخاصة نهزة مراح، والعامة صفقة أرباح، وهو جامع برياضة أجسام ومسرّة أرواح، وسأذكر موقفاً وقفته، وموسماً عرفته تخلّسهُ الدهر إذا

---

(١) سورة ص: ٢٣.

(٢) ما جاء فيها في وصف القسي في نهاية الارب ٣٢٧/١٠.

عرفته، وذلك أني في زمن الربيع والأرض ديباجة، والسماء زجاجة، والجوُّ قد أصبح بأنفاس الرياض معطّرا، والشمس قد ضربت في أرجائها عموداً، فأخضرّ اخضراراً مُعَصْفراً، ولقد أصاب من مثل العام شخصاً، وجعل الربيع بمنزلة ثغرِهِ النسيم، أو عمراً وجعله بمنزلة شبابهِ الوسيم، وقد زاد عندي حسناً اني اصبحتُ في هذا اليوم أصحب أخاه الذي شابَهَهُ في اعتدال زمانه، لا في تلوّن ألوانهِ، وناسبه في طيب شيمه، لكنه أسخى منه في فيض كرمهِ، وهو مولانا الملك الذي سعيُهُ مشتق من لقبه، وسبقه الى المعالي كسبق المنتمي إليه من نسبه، والمسمّون بالملك كثير، غير أن هذا الاسم لا يختص إلا به: [من الكامل]

مَـلِـكٌ زهـتْ بـمـكـانِـهِ أيـامُـهُ حـتـى افـتـخـرنَ بـهِ عـلـى الأيـام[1]

وكان المنتظم بخدمته في هذا اليوم غلمان كأنهم لؤلؤ منظوم، وهو أشرف خادم لأشرف مخدوم، ومقامهم في الحسن سواء فلا يقال فيهم: وما منا الاله مقام معلوم، وكلّهم قد تأهّب للطرد تأهبه للطراد، وهم متقلدون قسيّ البندق مكان النجاد، فإذا[2] تناولوها في أيديهم قيل: أهلّة طالعة من اكفّ أقمار، وإذا مُثِّل غناؤُها وغناؤهم قيل: منايا مَسُومَةٌ بأيدي أقْطار، وتلك قسيّ وُضِعَتْ للّعب لا للنضال، ولردى الأطيار لا لردى الرجال، واذا نَعَتَها ناعت قال: انها جمعت بين وصْفَي اللين والصلابة، وصيغت /٢٣٠/ من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة، فهي مركبة من حيوان[3] ونبات، ومؤلفة منهما على بُعْد الشتات، فهذا من سكان البحر وسواحِلهِ، وهذا من سكان البرّ ومجاهِلِهِ، ومن صفاتها انها لا تتمكن من البطش إلا حين تُشَدّ، ولا تنطلق في شأنها إلا حين تعْطَف وتردّ، ولها بناتٌ أُحكم تصويرها، وصُحِّح تدويرُها، فهي في لونها صَنْدَلِيّة الإهاب، وكأنما صُنِعَتْ لقوّتها من حَجَرٍ لا مِنْ تراب، فإذا قذفتها الأطيار[4] قيل: وَيَصْعَدُ من الأرض من جبالٍ فيها ومن بَرَد، ولا ترى حينئذ إلا قتيلا، ولكن بالمثقل الذي لا يجِبُ في مثله قَوَد، فهي كافلةٌ من تلك الأطيار بقبض نفوسها منزلةٌ لها من جوّ السماء على أمّ رؤوسها، فما كان إلا إن ابتدر أولئك الغلمان طلقاً من الرمي يأتي على اختيار المختار المنايا ذات أسماع وأبصار، وإذا عرض له السرب لم يخش فوت خطأ ولا فوت قرار، فمن بين دراجة أُدرجت في

---

(١) ديوانه ص٤٢٦.
(٢) ما يليها في نهاية الارب ١٠/ ٣٢٧.
(٣) في الاصل: حياة.
(٤) كذا في الأصل، وفي نهاية الارب: فاذا قذفها نحو الاطيار.

ثوب دمائها، وحمامةٍ حم عليها نزع ذمائها، ومن كروان فجع بينهم فراخه، وأوزةٍ ودّت لو جاءت الى الصائد ومكيد فخاخه، فلم يضرنا مع ذلك فقد المنتخب من الجوارح، وكان اليوم كيوم المحصّب من كثرة الذبائح، وشهدتُ في خلال هذا المتنزّه من لطائف اللذات ما يغلو على مستامِهِ، ولا يجيله خاطر المنى في أوهامِهِ، وإذا تذكرته النفس اعاد آخر طعمه أوّله، وقالت: نرى الدهر نام عنه أو أغْفَلَه، على أنه لا يستغرب مواتاة مثله لمثل هذا السلطان الذي الأيام له عبيد، ولا تُمضي إلاّ ما يُريد، ومِنْ اكرم نِعم الله عليّ ان أصبحتُ من خدمه معدوداً، وعلى خدمته محسوداً، فلهذه النعمة ان أمسكها إمساك الشكور، ولأصاحبها مصاحبة الغيور، وقد كنت بالأمس أُنذر لها نذوراً، وأنا الآن وافٍ بتلك النذور والسلام

ومنه قوله من كتاب كتبه في معنى كتاب فاضلي كتبه الى الظاهر يعزّيه بوالده، وكان جرى حديث هذا الكتاب / ٢٣١/ في بعض المجالس، فاستحسن، وطلب الجماعة الحاضرون أن يُعارض بمثلِهِ، فأملى هذا الكتاب عليهم، وكان المتوفى قد مات وقت الصباح:

كتب المملوك كتابه هذا في ساعة أفلَت الشمس فيها عند الصباح، وذهبت بروح الدنيا التي ذهبت بذهابها كثير من الأرواح، وتلك ساعة ظلّت بها الألباب حائرة، وتمثلت فيها الأرض مائرة، والجبال سائرة، وأُغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفّت الأرض من جَبَلِها الذي كان يمنعها ان تَميد، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحَدٌ من الناس الا وقد أصَمّ سمعه الخبر وأُصيب في سواد القلب والبصر، وقال وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر، ولما غلبتُ على الدفاع عنه ألْقيتُ بيدي، إلقاء مكسور الجناح، واستنجدْتُ الدموعَ، والدموعُ من شرّ السلاح، ونظرتُ الى العساكر حوله ولا غناء لها عن كثرة السيوف والرماح، وقد ودّعَتْه وداع مَنْ لا مطمع له في أيامه، وحال الترب بيني وبينه، فصار بعيداً منّي على اقترابه، وبرغمي ان يمشي لي قَلَمٌ بعزائِهِ، وأن أكاتب به أعَزّ أعزائِهِ، ليس عندي صبر حتى أحثَّ على مثله، ولو كنت من رجاله لغلبني الأسى بخيله ورجلِهِ، والذي يستنطقه المولى من رأي فإن هذه الرزية أخرسته عن الكلام، وتوفته مع مخدومِهِ الذاهب فاستويا جميعاً في الحمام، ولكن في وصيّة عبد الملك لاولادِهِ ما يغني عن الآراء واستنطاقها، وقد ضرب لهم مثلاً في الاجتماع والافتراق باجتماع القداح وافتراقها، والسلام.

ومنه قوله مما كتبه الى الأفضل عليّ[1] عند عودتِهِ الى الديار المصرية المحروسة:

---

(١) الملك الافضل: علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، استقل بمملكة دمشق بعد وفاة أبيه، ثم =

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[1]، يقبل الأرض بالمقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الافضلي النوري، جعل الله الليالي /٢٣٢/ والأيام من جندِهِ، وأظهر آيته في اعتلاء أمره وتجديد جدّه، ووهبه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وعَقَدَ له لواء نصرٍ لا شركة للناس في عقدِهِ، ويهنيء مولانا بأثر نعم الله المؤذنة باجتبائه، حتى بلغ أشدَّه واستخرج كنز آبائه، ولو انصف لهنّأ الأرض بوابلها، والأمة بكافلها، خصوصاً أرض مصر؛ لأنها قد حظيت بسكناه، وغَدَت في بحرين من فيض البحر وفيض يمناه، فأصبحت تشمخ بأنفها، وتسطو بطرفها، وتُجيرُ من الأيام وصرفها، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها، أو سيقت له الجنة بنضارتها وسرورها: [من الكامل]

مـا زلـتَ تـدنـو وهـيَ تـعـلـو عِـزَّةً حـتـى تـوارى فـي ثَـرَاهـا الـفـرقَـدُ[2]

وقد كان منتهى أمل الأدباء أن تعود الضالة إلى ربها، وتفك الطريدة المغصوبة من يد غاصبها، فأتى فضل الله بما لم يؤمله أمل الآمل، وعوض عن القطرة الواحدة بسحابٍ هاطِلٍ، وهذه نعمة يَضيق عنها مجال القول المعاد، ويسرع بياضها في سواد الحساد، فلو غَدَت الجباهُ ساجِدَة، والقلوب حامدة، والأيدي ترفع الدعاء باديةً وعائدة، لما وفى في ذلك بحقّها، ولا أخرج الأعناق من عهدةِ رقّها، وأحسن ما فيها انها زارت على غير ميعاد، وحثّت ركابها من غير سائق ولا حاد، وتخطّت وقد ضُرِب دونها بسور من صدور الظبى ورؤوس الصعاد، فلم يكن لأحَدٍ فيها منّة سوى الله الذي قرب بعيد اسبابها، وفتح مستغلق أبوابها، وأبرَزها على حين غفلَةٍ مِن حجابها، فيجب على مولانا ان يختزنها بالانفاق، وان يقيدها بالاطلاق، وان يقصّ اجنحتها لتظلِ طائرةً في الآفاق، والمملوك في هذه الوصيّة كصيقل نصل له من جوهره صقال، وعاصر سحابٍ له من نفسه انهمال.

ومنه قوله في المجانيق:

ونصب المجانيق فأنشأت سحابا يخشى محلّها، ولا يرجى وبلها، فما سيقت الى بلدٍ حيٍّ إلا أماتته، ولم تأتِهِ إلا أتاه أمر الله إذا أتته، فلم تزل تقذف السور بصوبها المدرار /٢٣٣/ وتنزل عليه جبالاً من بَرَدٍ غير أنها من أحجار.

= اخذت منه وأعطي صرخد، مات بسمسياط سنة ٦٢٠هـ وكان أديباً عالماً يقول الشعر (وفيات الاعيان ٣/ ٤١٩).

(١) سورة الانبياء: ١٠٥. (٢) البيت للمتنبي (ديوانه ص٤٩).

ومنه قوله في التوكل:

وألطاف الله لا يعرفها إلاّ من عرف الله فوقّاه حقّه، ولم يكن ممن ضرب له مثلاً ونسي خلقه.

ومنه قوله:

وأفتى قوم بوقار المشيب بغير علمٍ وأضلّوا، وما أراه إلا محراثاً للعمر، ولم تدخل آلة الحرث دار قومٍ إلا ذلّوا.

ومنه قوله في الحث على الصدقة:

إنما الصدقة لمن قَمَّصَهُ الفقر لباساً، فستر ذلك اللباس، وكان لا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس، والنار تتقى بشق تمرة، وما سدّ رمقاً لا يطلق عليه اسم قلّة، وإن لم يكن موصوفاً بكثرة.

ومنه قوله في عيادة مريض:

ولما بَلَغَ المملوك خبر شكاته، هيض منه ما ليس بمهيض، وأصبح وهو الصحيح أشدّ شكوى من المولى وهو المريض، وقدْ ودّ لو وقاه، وتلك أقصى درجات الوداد، ولم يقِ إلا نفسه بنفسِهِ، وقد تجتمع النفسان في جسدٍ من الأجساد، ولقد ناجى المملوك نفسه ان هذه الشكاة لا تلبث إلاّ تلبّث الزائر عند المزور، وانها لم تأتِ إلا لتظهر ما عند الناس من مودّات الصدور، فكم مِن أيدٍ بالدعاء ممدودة، ونذور عند الله ليست بمعدودة، ولقد أخذ المملوك بالخبر النبوي فجعل الصدقة طبيباً، وتقالّ بأحاديث منام لم يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً.

ومنه قوله:

وهم سيوف الله التي إذا جردت زالت الهام عن مناكبها، واستوى في القتل نفس مضروبها وضاربها، فما عليها جاهدت صابرةً محتسبة، ما كان من موارد هلكها، ولا ألم عندها للكلوم إذا جلت يوم القيامة، ولونها لون دمها وريحها ريح مسكها.

ومنه قوله في عدم قبول توبة باغ:

التوبة وإن جبّت ما قبلها، فانها معتبرة ممن ندم على ما فات، وأخلص فيما هو آت، وأما مَنْ يظهر أمراً ويبطن خلافهُ فإنه لا يَلِجُ بابها ولا يرجو ثوابها.

/ ٢٣٤/ ومنه قوله:

الفراسة تقرب عيونها، وتصدق ظنونها، والانسان شرّ مكنون، يظهره الاختبار، ويخفيه الاختبار، وقد عَوّلْنا في ولاية فلانة على فلان، وما أهّلْناه لها حتى توسمنا

منه ما يتوسم من الصاحب، وعضدنا رأينا فيه برأيٍ من عندنا من الناصحين.

ومن قوله:

فلان يومُهُ في الصحبة كَغَدِهِ، ولسانه في العفاف كيدِهِ، لا يحفر لأخيه قليباً، ولا يكون على عوارته رقيبا.

ومنه قوله:

مواقيت الحمد مقسومة على مواقيت النعم، ولكل منهما قسمة منه وإن تفاوتت في أقدار القسم، ولا نعمة أعْظم من سعادة المثول بالديوان العزيز الذي يرغب إليه ويرهب، ويقرأ فضله في السماء ويكتب، يحجب لمهابته عن الأبصار، ويداه عنها لا تحجب، والعبد يحمد الله على هذه النعمة حمداً لا يزال جديداً، وليس فوقها غاية في الزيادة، حتى يسأل مزيداً، ولو امن انكار أمير المؤمنين لخرّ بهذا المقام ساجداً، وهو يسجد طائعاً، كما يسجد لله عابداً: [من المتقارب]

طلبنا رضاهُ بتركِ الذي رضينا لهُ فتركْنا السُّجُودا

ولو بصر مخدوم العبد بمكانه لحسده على مواضع رجلهِ، ورأى العلياء وهي شراك نعلهِ، وقال: يا ليتني فزت بمثل هذا الحظ الذي ليس شيٌ كمثله، وكيف لا يحسد وقد وقَفَ بموقف يقرب من الجنّة ويباعد من النار، ويُقمّص الواقف به رداء فخرٍ لا يخلق على تطاول الأعمار، ويعطيه أماناً من زمنِهِ حتى يصبح وله على الزمن الخيار، ولا جناح عليه ان ملكته مخيلة الأعجاب وان رأى السماء فوقه وهي منال يدٍ في الاقتراب، ولولا انه بصدد أداء الرسالة التي تحملها لبسط مِنْ عنانِهِ، وانتهى الى غاية ميدانه، الآن ينهي خدمة مخدومه الذي له في الأولياء نَسَبٌ كريم، وعِرْقٌ قديم، يقول الاستحقاق: وأنا به زعيم، ومن أحسن أوْصافِهِ انه لايمت بما عندَهُ من عقيدة في الطاعة ناصعة من الأكدار، /٢٣٥/ راقية كل يوم الى درجة تحتاج في التي قبلها الى الاستغفار. ولئن حصل بذلك على مراضي أمير المؤمنين، فإنه لايَنِي فتوراً، ولكنّه يأخذ بالقول النبوي فيقول: «الا أكون عبداً شكورا».

وله شعر ذكره ابن العطار[1]، منه قوله: [من الطويل]

رضيتُ بما ترضى بهِ لي محبّةً وقدتُ إليكَ النفسَ قودَ المُسلِّمِ

ومثلُكَ منْ كانَ الفؤادُ شفيعَهُ يكلِّمني عنهُ ولمْ يتكلمِ

(١) ابن العطار: أحمد بن محمود الشيباني. سيترجمه المؤلف فيما بعد.

وقوله: [من المنسرح]

لا طَرَقَ الداءُ مَنْ بصحبتِهِ يصحُ منا الرجاءُ والأملُ
لا عجباً أَنْ نقيكم حذراً نحنُ جفونٌ وأنتم مقلُ

وقولهُ: [من الطويل]

وسائلتموهُ بعدكمْ كيفَ حالُهُ [و] ذلكَ أمْرٌ بيّنٌ ليسَ يُشْكِلُ
فَعَنْ قلبهِ لا تسألوا فَهُوَ عندكُمْ وأمّا عنِ الجسمِ المخلّفِ فاسألوا

وقوله[1]: [من مجزوء الرجز]

ثلاثةٌ تجلُو الفرحْ كأسٌ وكوبٌ وقَدَحْ
ما ذُبِحَ الزقّ بها إلا ولـلهمٌ ذَبَحْ

وقوله: [من الطويل]

وأهيفَ تحكيهِ الغزالةُ مُقْلَةً وجيداً ويحكيها لنا في شِماسِهِ
أعارَ قضيبَ البانِ لينَ انعطافِهِ فأهدى إليهِ حُلَّةً مِنْ لباسِهِ

وقوله: [من البسيط]

لولا الكرامُ وما سنّوُه مِنْ كَرَمٍ لم يدرِ قائلُ شِعْرِ كيف يمتدح

وهذا البيت عكس قول أبي تمام[2]: [من الطويل]

ولولا خِلالٌ سنّها الشعرُ ما دَرَتْ بغاةُ الندى مِنْ اينَ تؤتى المكارمُ

/ ٢٣٦/ ومنهم:

[١٢]

قوام الدين أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن علي بن زبادة الشيباني[3]

باني عُلاً لا تُفْرع ذروتُها، ورامي صفاً لا تُقْرَعُ مروتها، أَظَلَّ على السماء

---

(١) وفيات الأعيان ٥/ ٣٩٦، الوافي بالوفيات ٢٧/ ٣٦.

(٢) ديوان أبي تمام ٣/ ١٨٣.

(٣) قوام الدين يحيى بن سعيد المعروف بابن زبادة، الواسطي ثم البغدادي. أصله من واسط، وولد ببغداد سنة ٥٢٢هـ أخذ عن ابن الجواليقي، وحدث عن علي بن الصباغ والقاضي الارجاني، وهو من الكتاب المترسلين الشعراء له مشاركة في علوم الدين، وغلبت على رسائله العناية بالمعاني، تولى النظر بديوان البصرة وواسط والحلة، ورتب حاجباً بباب النوبي، وتولى ديوان الانشاء، ومات ببغداد سنة ٥٩٤هـ.

والسماك، وأَقَلَّ الانهمال في سحب المسرّةِ والانهماك، وانشأ البدائع، وأنشأ الوشائع، وقُلِّد من صنائع الخلفاء أشرف الصنائع، وولى أَجَلَّ الوظائف بحضرة الخلافة، وكان بالديوان العزيز كاتب الإنشاء واستاذ الدار وحاجب الباب، وبيدِهِ كثير من هذه الأسباب، ثم نقم عليه لأمرٍ ما جناه بيديه، فعُزِل وبقي معزولاً، ثم تولى ومات سميناً وكان مهزولاً.

ومن نثره قوله:

لا تُنال مناقب الفتوح، إلاّ بمقانِب الحتوف، وخليق بالأمير انه ينجد ويُمير، والديوان العزيز منتظر لإنجادِهِ، وتعليق سيف المضاء بنجادِهِ.

ومنه قوله:

وكم لك من تدبير غدت به سماء الخطوب مصحية، وشموسها بيُمن سعيك مضْحِية، يتشعب الخلل إذا تفاقم وطراً، وتقرع أنف الحوادث إذا طمَّ أو طغى، ولا مضيق إلاّ وبك انفراجُهُ، ولا طريق للثناء إلا وعليك انعراجُه، فقد تكلفت بمصالح الدولة حتى صرت لها أباً، وكفيت من المهم ما سلم لك الحاسد الفضيلة فيه شاء أم أبىٰ، فلذلك نادى منك أمير المؤمنين يَقِظاً أجاب، ورفع بينك وبينه الحجاب، فانهض بما ناطه بك نهوض من لا يتعاظمه أمر وان ثقل عِبْؤُهُ ومحملُه، واكْفِهِ المهم فيما تستقبله وتتقبله، وسارع الى كل ما يرسمه لك، وتمثله، واسحب على ثرى التفويض إليك أذيال الحلّ والعقد، وأقدر قدر هذه النعمة التي أحلتك ذرى فلك المجد.

ومن شعره قوله: [من السريع]

[فهو] من البغضاء في طبعه ... لَمْ يكففِ الاحسانُ عدوانَهُ
فالماء يطفي النارَ طبعاً وإنْ ... أطالَ حَرُّ الناسِ اسخانَهُ

ومنه قوله: [من الكامل]

مشمولةً جاءَ النديمُ بها ... كالنارِ يقدحُها مِنَ القَدَحِ
/٢٣٧/ نحيا مِنَ الهمِّ المُميتِ بِها ... فتُميتُنا مِنْ شِدّةِ الفَرَحِ

ومنه قولُهُ[1]: [من الخفيف]

= انظر: وفيات الاعيان ٦/ ٢٤٤، ومعجم الادباء ٢٠/ ١٦، والشذرات ٤/ ٣١٨، ومرآة الجنان ٣/ ٤٧٧، والعبر ٤/ ٢٨٤، والبداية والنهاية ١٣/ ١٧ وهدية العارفين ٢/ ٥٢٢ وذيل الروضتين ١٤، والتكملة للمنذري ١/ ٣١٥ وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٦.

(١) البيتان في: وفيات الاعيان ٦/ ٢٤٥ والشذرات ٤/ ٣١٨ ومعجم الادباء ٢٠/ ١٨.

باضطرابِ الزمانِ ترتفعُ الانـ ـذالُ فيهِ حتى يعمَّ البلاءُ
وكذا الماءُ ساكناً فإذا حُرْ رِك ثارتْ مِنْ قَعْرِهِ الأقذاءُ

ومنه قوله(١): [من البسيط]

إنّي لأعُظمُ ما تلقونني جلداً إذا توسطتُ هَولَ الحادثِ النكدِ
كذلكَ الشمسُ لا تزدادُ قوّتها إلاّ إذا حصلتْ في زبرةِ الأسدِ

ومنه قوله(٢): [من البسيط]

لا تغبطنّ وزيراً للملوكِ وإنْ أنالَهُ الدهرُ منهمْ فوقَ رُتبتهِ
واعلمْ بأنَّ لهُ يوماً تمورُ بهِ الـ أرضُ الوقورُ كما مارَتْ بهيبتِهِ
هارونُ وهوَ أخو موسى الشقيقُ لهُ لولا الوزارةُ لمْ يأخذْ بلحيتِهِ

ومنه قوله مما كتب الى المستنجد(٣): [من البسيط]

يا ماجداً جلَّ قدراً أن نهنيَهُ لنا الهناءُ بظلّ منكَ ممدودِ
الدهرُ أنتَ فيومُ العيدِ منكَ وما في العُرْفِ أنّا نهني العيدَ بالعيدِ

ومنهم:

[١٣]

شهاب الدين النسائي(٤)، أبو المؤيّد محمد بن أحمد بن علي بن عثمان بن المؤيد الخرندزي

كتب الانشاء للدولة الخوارزمية، وكبت الأعداء بالصولة العجمية، وكان ذا فصاحة بلغته شغاف الأرب، وسَوَّغَتْه نطاف الأدب كالضرب، وفرّغته لاقتطاف بدائع العرب، وصنّف سيرةً سنيّة(٥)، تسمع وقائع سيوفها المشرفيّة في الرقاب، وتنصر صنائع معروفها وقد مَضَتْ عليها الأحْقاب، وفاءً بعهده لتلك الدولة التي والاها وَخَدَمها وأوْلاها ما شرف بغرره خدمها، فلم يدع مما يبهج حرفاً، ولا يدع للسان

(١) البيتان في: وفيات الأعيان ٦/ ٢٤٥.
(٢) الأبيات في: الشذرات ٣/٣١٨ والوفيات ٦/ ٢٤٥.
(٣) البيتان في الوفيات ٦/ ٢٣٥.
(٤) شهاب الدين النسائي، كاتب انشاء جلال الدين بن خوارزم شاه ومؤلف سيرته، اتصل بعد قتله بالمظفر غازي صاحب ميافارقين، ثم ببركة خان كبير الخوارزمية، وتوجه رسولاً إلى التتر مرات، توفي بحلب سنة ٦٤٧هـ.
تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٢ وتلخيص مجمع الاداب ٤/ ٢/ ١١٨٥ وصبح الاعشى ٤/ ٣٠٧.
(٥) هي سيرة جلال الدين منكوبرتي طبعت في موسكو ١٩٩٦م بتحقيق د. ضياء الدين موسى بونيادوف.

الطيّب عرفاً، بعبارةٍ صاغها بلطافةٍ أعْجَب من الفريد، وأعجل في القلوب تأثيراً من لواحظ الغيد.

ومن نثره قوله:

/ ٢٣٨/ من كتابٍ كتبه الى الديوان العزيز مع رأس طغرل[١]: وصل بغداد في الرابع والعشرين من ربيع الاول سنة تسعين وخمسمائة، افتتحه بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[٢] قال فيه:

وردت المراسم الشريفة بردع ذلك المارق الخائن، والمنافق الحائن، الذي استمرأ مرعى بغيه، واستعذب آجِنَ غيّه، وأدْلَج في ليل ضلالتِهِ وخبطَ في عشواء جهالتِهِ، شاربا من آسن الطغيان نهلاً وعلاً، غير مراقب لله ذمة ولا إلاّ، مستسهلاً للخطر الحسيم، مغتراً بحلم الحليم، غير مبالٍ بانسلاخهِ من الدين، وخروجهِ عن زمرةِ المسلمين، نَبَذَ أمر الله وراء ظهرِهِ، ولم يخش أليم عذابه، ولا راقب وبيل عقابهِ، فراسلَهُ الخادم داعياً له الى الطريق اللاحب، ومشيراً عليه باعتماد الواجب، مهيباً به الى طاعة الامام وعارضاً عليه تجديد الاسلام، او الاستعداد للمصاف، والرجوع على حكم الأسياف، فخيّره بين هذين الأمرين، وحكمه في أحد القسمين، وكلاهما عنده خِطّة خسف ومورد حتف، فلما أَبَىٰ إلاّ إصراراً على خطيئته وامراراً لحبل منيّته، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٣]، دَلَفَ إليه الخادم في كتيبةٍ شهباء من جنود الامام، مقنّعةً بالزرد المحبوك، محتفّة بالملائكة، محفوفة بالملوك، يتألق حديدها، وتتذامر أُسودُها وتئن كالجبل العظيم، والليل البهيم، ضاربةً رواقات العجاج، ممتدّة الأطناب في الفجاج، وكأن ظللها ليلٌ، ولهاذم الرماح نجوم، ودخان الأسنّة نار، والصوارم جحيم، وكأن رماحها آجال إلاّ أنّ المنايا في أوائلها، وحديدها نار إلاّ ان المنايا تجول في مناصلها، ولم تزل تزحف وفوقها جيش من النسور والعقبان، وتدأب وبين أيديها جيش من السباع والذؤبان، وارثها شخص المنون وهو عريانٌ، إلى ان وافى ذلك المخذول، وقد جمع للقاء، واستعدّ في جيش جمّ تضيق بهم قذف البيداء قد استلأموا للقتال / ٢٣٩/ واستلموا كعبة الضلال، إلاّ ان الله صبَّ عليهم الخذلان لما تراءىٰ الجمعان، وبرز الكفر الى الإيمان، فتلا

---

(١) طغرل شاه بن ارسلان بن طغرل، آخر ملوك السلاجقة في الشرق، خرج على الخليفة الناصر العباسي فقاتله خوارزم شاه في الري وقتله وارسل رأسه إلى الناصر سنة ٥٩٠هـ (الوافي بالوفيات ٤٥٦/١).

(٢) سورة النحل: ٤٠.

(٣) سورة الرعد: ٣٣.

الخادم عليهم: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[1] ولم يكن إلا كنغبةِ خائف أو لمعة خاطف حتى انجلت جند الله عنهم وهم كأعجاز نخلٍ خاوية، وأُصولٍ ذاوية، لا يُعرف لهم قتيل من دبير، ولا يفرق بين مأمور وأمير، وأَنْفَذَ الله حكمه في الطاغية، وعجّل بروحِهِ الى الهاوية، وملك الخادم بلادهم، وحاز طريفهم وتلادهم، ونساءهم وأولادهم، وبادر بانفاد رسول مبشراً، وأَنْفَذَ معه رأسه وطبلهِ وعلمه، ليعلم ان قد كُسر وطُلَّ دَمُهُ، والخادم يُنهي ان وراءه بلاداً شاسعة، ومُدُنا واسعة، وهو بعيد الايام، ولا يمكنه طول المقام.

قلت: وسلك هذا النسائي مع سلطانه مهمهاً يعزف الجنّ في بيدائهِ، وتضيع الريح في أرجائه، في يوم تتململ أفاعيه في رمضائه، ويُسْجنُ وحشُهُ في فضائه، يذوب به حصى الآكام، ويلفح الوجوه اشواظ الضرام، وقد مَرّ الجندب وصكّ وجه الغدير الطَحْلب، وصحّ ان الصدىٰ قد قام يبلغ، والحرباء تخطب، ولا ورد إلاّ راكد الشراب، أو مورد كأنّه حجر الأحباب، كأنما صُبّ على وجههِ الزيت الذائب، أوْ ذرّ الكبريت للشارب، لا يهنا بردُهُ، ولا يسوغ وردُهُ، فقال له سلطانه: صف ما نحن فيه، فقال على البديهة: [من الرجز]

قَذَفتُ بالعيسِ بوجْهِ المهمهِ ... رميتُ منهُ مشبهاً بمشبهِ
والشمس قد أذْكت ضرامَ نارها ... لكنّهُ في موقِدٍ من أوْجهِ
والقفرُ خافٍ لا يبينُ طَرْفُهُ ... واضحُها للعيسِ كالمشتبهِ
وجندبُ الأرضِ بها مبلّغٌ ... وخاطبُ الحرباءِ كالمبتدِهِ
والوِرْدُ لو يشربُ عصفورٌ بهِ ... على فسيح غُدْرِهِ لم يروِهِ
مُقَتّرٌ مقدّرٌ مكدّرٌ ... يقصرُ عنهُ صفةُ المشبّهِ

فاستحسن أبياتَه وأجازه عليها بلداً بعملِهِ، وسايَرَهُ وقد لمع برق فأتلق /٢٤٠/ كأنّه غرّةٌ في أدْهَم أوْ أبلق، أو سلاسل من ذهب وما لها حَلَق، لا يني غمامهُ ينهمرُ انهمارا، يلد اثر القطار قطارا، وهو يجلو الظلماء بضوء جبينه المشرق، ويمتدّ من أرجائه ذهبٌ ثم يتحدر من حافاته ورق، فأمره ان يقول فيه فقال: [من الرجز]

أنعتُ برقاً في الدجى يأْتَلِقُ

---

(١) سورة التوبة: ١٤ـ١٥.

كــأنــهُ فــي جــلــدتــيــهِ بَــلَــقُ
يــجــلــو الــدجــى لــه صــبــاحٌ شَــرِقُ
يــرفَــضُّ مــنــهُ وابــلٌ مُــغْــدَوْدِقُ
كــأنّــهُ جُــودُ الــمَــلــيــكِ الــمُــغْــدَقُ
أو أنّــهُ مِــنْ كــفّــهِ مــنــدفِــقُ
طــوراً بــدا حُــمَّــى وطــوراً عــلــق

ومن شعره قوله: [من المتقارب]

وانــي لــفــي قــيــد [هــذا] الــزمــان لــكــالــدرّ إذْ بــات حــشــوَ الــصَّــدَفْ
وانــي عــلــى الــرغــم مــنْ حُــسَّــدي لأســلافــي الــصيــدِ نِــعْــمَ الــخــلَــفْ
فــإذْ كــانَ انــكــرَ قــدري الــزمــانُ فَــذَا هِــزَّةٌ صــدرتْ عَــنْ خَــرَفْ
فَــعَــنْ أَمَــم تــنــجــلــي غُــمّــتــي كــبــدرِ الــدجــى بــعــدمــا قــد خَــسَــفْ
وتــأتــي الــمــقــاديــرُ مــنــقــادةً تــقــولُ: عــفــا الله عــمــا سَــلَــف

ومنهم:

[١٤]

ابن ابي الحديد، موفق الدين[١]، أبو القاسم[٢] بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني، أبو حامد

كتب في ديوان الخلافة، وكبتَ من برع في المقال خلافه، وكان ذا لَسَنٍ وبراعة، ورسن ممتدّ في البراعة، وكان من غلاة الشيعة[٣]، وولاة مقالات الرفض الشنيعة، رأسٌ في الاعتزال، كيس جَدَل، يتفقا سمنها بالهزال، على انه كان يظهر التمَذهب للشافعي، وكان أُصولياً لا يحبس لسانه بالعي، مع انه كان بالبيان يسحر، وبالجمان يسخر، وهو الذي عاب على ابن الأثير الجزري في المثل السائر، ووضع عليه الفلك الدائر، كما قدّمناه في ترجمة المذكور، وما قصّر في المناقشة، ولا عذر في المعاجلة له والمباطشة.

---

(١) ابن أبي الحديد، عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد المدائني، ابو حامد صاحب شرح نهج البلاغة والمتوفى سنة ٦٥٦هـ.
ترجمته في: وفيات الاعيان ٥/ ٣٩٢ وفوات الوفيات ٢/ ٢٥٩ والوافي بالوفيات ١٨/ ٧٦ وعقد الجمان ١/ ١٦٤ وانظر مقدمة العُذَيق النضيد في مصادر ابن ابي حديد لاحمد الربيعي.

(٢) كذا في الأصل، وإنما هو القاسم اسم موفق الدين أخي المترجم، وستأتي ترجمته.

(٣) لم يكن ابن أبي حديد شيعياً، وإنما كان شافعياً معتزلي التفكير.

ومن نثره قوله:

وبعد، فقد عرض بالديوان العزيز / ٢٤١/ كتابك أيها الزعيم، وخطابك وأمير المؤمنين عليم، وشرحت ولاءك وذلك حبلُكَ الوثيق، وكذلك إخلاصك القديم، وانماؤك الى الباب الأشرف، وهذه عقيدة أخذتها عن سلفك، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1]، نعم ولا يلقنها الا ذو فعل كريم من ذي سلفٍ كريم. وبرز الأمر الأشرف عن الديوان العزيز بتلقي واردك بالكرامةً التي عدّيْت بها رتبة كل نظير، وأصبحت وعلى رأسك شربوش وتاج، وأنت صاحب تخت وسرير، وستجاب من ديوان الوزارة المشرفة مفصلا عن فصول كتابك، وحسبك حسبك شرفاً تتشرف به من الديوان العزيز، إذ كان هذا من خطابك.

ومنه قولُهُ:

وأنهى امر الجزري إلى أنه قُلع قَلْع الجزر، وأغناه ما تكهن أو حزَر، وهذا معجّل كل مائق، وله مؤجل يأتيه يوم تقوم الخلائق.

ومن نثره قوله في تقليد قاض:

وأرفع المناصب وأعلاها، منصب الحكم العزيز، الذي يجتبي الشرع في ندبهِ ويجتني السمعُ ثمرات كل شيء من جنبه، ويعرف بها الحلال والحرام، ويتصرف في أمر ذي الجلال والاكرام، وان أحَقّ من ألقى زمام أحكامه إليه مَنْ تفرّد بما لديه وفاز بسهمِ معلّى من العلوم، وأخَذَ من فنونها بنصيبٍ معلوم، دأب نفسه في تحصيل نفائسَها، واجتلاء غرائسها، فكمًّ من أحاديثٍ نبويّة يعرف السقيم فيها من الصحيح، والعدل من رجالها من الجريح، وعَلِم الرواية على تشعبها والأسانيد وطرقها في حالتي تسهّلها وتصعّبها، وكم تفاسير كشف حقائقها، ومشكلات تأويلٍ أظهر بحسن إيضاحه طرائقها، وكم فروع مسائلٍ أصَّلَها، وأصول فقهٍ حواها وحصَّلها.

وكنت أيها القاضي فلان لك فخر بعلم علمها لا يباهى، وورع لا تُماثل فيه ولا تُضاهىٰ، وافادة ينصب الطلبة لاستفادتها، وتشره الأسماع لحسن إيرادها واستعادتها، فلذلك أعهد عليك في القضاء بمدينة كذا، وألق من علومك ما يلاقى من أجله ذوو الطلبة للاستفادة / ٢٤٢/ واعلم انك حصلت على السعادة الدنيوية، فاعمل على الأخروية، فإنها أعْلى السعادة، وأجرِ على عادتك [في] التحرّز في الأحكام، وأمض على سنتك في الاحتياط في كلّ نقضٍ وإبرام، وارع يراعك كل ما يفتقران يُرعى،

---

(١) سورة فصلت: ٣٥.

وكلما يجب ان يُمْعَن فيه النظر عقلاً وشرعا، ثم والعدول فلتعتبر أحوالهم، والزمهم بكلّ ما هو أجمع وأحرى بهم، فبِهم تؤخذ الحقوق، وتقام الحدود، وهم أمناء الله في أرضِهِ، حيث هم على خلقِهِ شهود، ومن وصايا العلم في تحقيق مسائل الخلاف لك عناية، فهي عادة لا تقطع، وعدة لا تستدفع، وهي للمكمل الادوات، المبرز بجميل الصفات، تذكرةٌ تبدؤك نصائحها، وتتضح لديك مصالحها، فخذها نصب عينيك وتجاه أمرك، وأدِم إحضارها في قضاياك، ومرورها على فكرك.

ومن شعره قوله: [من الكامل]

بـالله ضَـعْ قـدمـيـكَ فـوقَ مـحـاجـري ... فـلـقـد قـنـعـتُ مـن الـوصـالِ بـذاكـا
وأطِـلْ مـعـاتـبـتـي فـإنّ مـسـامـعـي ... تـهـوى حـديـثَـكَ مـثـلَ مـا أهـواكـا
لا عـانـقـتْـكَ مـن الـبـريّـة كـلّـهـا ... إلاّ يـدي الـيـمـنـى ويـنـدُ قَـبـاكـا
كـلا ولا رشَـفَـتْ رُضـابـك بـعـدمـا ... قـدْ ذقـتُـهُ إلاّ الـتـي تـهـواكـا

ومنه في مليح جُعل عارض الجيش وخلع عليه خلعة خضراء[1]: [من مخلع البسيط]

وأهـيـفٍ كـالـقـضـيـبِ قـدّاً ... فـي خُـضْـرِ أثـوابـهِ يـمـيـدُ[2]
قـبّـلـتُـهُ بـاعـتـراض[3] مـعـنًـى ... لأنّـه عـارضٌ جـديـدُ

واتفق له سرى ليلةٍ برقها قد سرى، موهِناً كوجيب الفؤاد، وموهماً بأن طرفه لم يكتحل برقاد، كأنه فرسٌ معار أشقر، أوْ نار شبّ ضَرَمَهُ وما خفي منه أكثر، والرباب دون السحاب، كخليع من الفتيان يَسْحَبُ مئزرا، وأم رؤوم على الأرض تدهن لمم الثرى. فقال: [من الكامل]

أسْري وَوَمْضُ الـبـرق يـخـفـقُ قَـلْـبُـهُ ... يـذكـي لـه فـي الـلـيـلِ قِـدْحُ زِنـادِ
/ ٢٤٣/ وتَوَهُّمي انْ ليسَ يكحل عينَهُ ... رقـادٌ بـلـى قـدْ كُـحِّـلَـتْ بـرُقـادِ
ودونَ الـغـوادي لـلـربـابِ جَـلاجِـلٌ ... تـرودُ وِهـاداً مـن عـلـيِّ نـجـادِ
تـزور بـمـبـتـلِّ الـحـيـا هـامِـدَ الـثـرى ... ويـرشـفُ ثـغـرَ الـنُّـورِ ريـقُ غَـوادِ

ثم لما أبْهَمَ عليه الأمر وأشْكَل، لم يُنخ راحلته ليعقلها ويتوكل، وقد سرى في

---

(١) البيتان في الوافي بالوفيات ٨/ ٢٢٦ برواية مختلفة منسوبان لاخيه موفق الدين.

(٢) في الوافي:
لـمـا بـدا رائـق الـتـثـنـي ... وهـو بـأثـوابـه يـمـيـدُ

(٣) في الوافي: باعتبار.

ليل يخفي ظلامُهُ قَصْدَ السبيل، ويملأُ هولُهُ صدر الذليل، ويفترس غوله خلب الغرير، فكيف الدليل، تململ وتضجّر، وقال ولم يتبصّر: [من السريع]

مـا لـي ولـلـيـلِ وظـلـمـائِـهِ ... ومَـهْـمَـهٍ فـيـهِ يـحـارُ الـدلـيـلْ

كـأنـنـي فـي لـجّـةٍ غـارقٌ ... يـا قـوم قـولـوا لـيَ كـيـفَ الـسـبـيـلْ

ومن شعره أيضاً مما انشدنيه شيخنا ابو الثناء[1] الحلبي قوله: [من البسيط]

أفـدي الـذي زارنـي والـخـوفُ يـقـلـقُـهُ ... يمشي ويكمن في العطفاتِ والطرقِ

قـبّـلـتُ أطـراف كـفّـيـه عـلـى ثِـقَـةٍ ... بـالأمْـنِ مـنـهُ وخـدّيـهِ عـلـى فَـرَقِ

فكـان فـي أُخـرياتِ الـسكرِ مُضْطَرِباً ... إذا أرادَ انـتـظـام الـلـفـظِ لـم يُـطِـقِ

لله مـا أحـسـنَ الـصـهـبـاءَ مـنـعـمـةً ... عـلـيّ إذ عَـلَّـمَـتْـهُ طـيـبـةَ الـخُـلُـقِ

أَهْـدَتْ إلـيـه سـروراً نِـلْـتُ مـعـظـمَـهُ ... كـالفعلِ يَنْصِبُ مفعولين في نَسَقِ

وقوله: [من الكامل]

أعـدى الـبـيـاضُ الـى مـجـاورِهِ ... مـا ذاكَ إلاّ انّـهُ مَـرَضُ

هـلا تـيـسَّـرَ لـلـسـوادِ كـذا ... وكـلاهـمـا فـي حـكـمِـنـا عَـرَضُ

وقوله: [من الكامل]

يـا مَـنْ تـدَلَّـسَ بـالـخـضـاب مـشـيـبُـهُ ... إنّ الـمـدلّـس لا يـزال مـريـبـا

هـب يـاسـمـيـنَ الـشَّـعـرِ عـاد بـنـفـسـجـاً ... أَيَـعـودُ عُـرجـونُ الـقَـوام قـضـيـبـا

وقوله على إلحاده في تفضيل السيف على القلم: [من الطويل]

ومـا تُـدرِكُ الأقـلامُ شـأوَ مـهـنّـدٍ ... يُـضـيءُ إذا مـا قـام بـيـنَ الـكـواكـبِ

وأنّـى لـهـا وهـي الـتـي فـي طُـرُوسِـهـا ... تـخـرُّ عـلـى الأذقـانِ سـودُ الـذوائـبِ

/ ٢٤٤/ وكمْ بينَ مِنْ يبكي اذا ما انتدبْتَه ... لأمـرٍ وبـيـنَ الـضـاحِـكِ الـمـتـلاعِـبِ

وقوله على عكسِهِ على طريقة ابن الرومي في المغايرة: [من الطويل]

ومـا تـطـرقُ الأقـلامَ فـي الـطِّـرسِ ذلّـة ... ولـكـنـهـا حَـيّـاتُ رَمْـلٍ قـواتِـلُ

ومِنْ أيْنَ يلقى السيفُ بعض فعالِها ... وآثـارُهـا مـنْ غـيـرِ جـرحٍ عـوامِـلُ

إذا كـانَ بـيـنَ الـمـرءِ والـسـيـفِ حـائـلٌ ... فـلـيـسَ عـنِ الأقـلامِ والـمـرءِ حـائِـلُ

وقوله مما كتب به إلى بعض أصحابه وقد فُصِد: [من البسيط]

---

(١) هو شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، وستأتي ترجمته.

يَدٌ تسيلُ المعاني بينَ أسطُرِها ... ما عوّدتْ غيرَ مسّ الطِّرسِ والكاسِ
تجري دماءُ الأعادي وهيَ سالمةٌ ... أنّى جرى دَمُها مِنْ مِبضَعِ الآسي
سهلتَ يا وارثَ العليا المقامَ لهُ ... ام كانَ فاصدُها من أشجعِ الناس
كأنما شقَّ منها رأسُ مبضعِهِ ... بحراً مِنَ الجُودِ أوْ طوداً منَ الباسِ

وإذ ذكرناه فكنيته على ذكر اخيه .

ومنهم:

[١٥]

[موفق الدين المدائني]

القاسم (أبو) المعالي عز الدين، ابي حامد، عبد الحميد[١]

وكان نابغةً في الاعتزال، ومعقلاً للاختزال، ذُو بديهة تصفرّ منها الأنامل، وتزور مُقَل السيوف والعوامل، وقَفْتُ من نثره على قوله:

ولي بيانٌ في وصفِ مجدِهِ لا يكل، ولسانٌ في ذكر مناقبِهِ لا يذلّ، وسهمي لا يخطىء غرضه، وفعلى لا يردى إلاّ معترضه، إلاّ انني لو واصلت الامداد، وزاحَمْتُ الأطواد، وأرْسلْتُ السحب، وراسلْتُ الشهب، لما وفيت حقّه المتعين، ولا قلْتُ إلا الحقّ البيّن.

ومن شعره قولُهُ[٢]: [من البسيط]

يُصحّني حبُّهُ [طوراً][٣] وينكسني ... فكمْ أصحّ مِنَ البلوى وانتكِسُ

وقوله[٤]: [من الكامل]

ياهاجري لمّا رأى شَغَفي بهِ ... ما كانَ حَقُّ متيّم ان يُهجرا
انّ الذي خلقَ الغَرامَ هو الذي ... خلقَ السلوَّ فلا يغُرّكَ ما ترى

وقوله[٥]: [من البسيط]

أبْدت[٦] من الشعر في تشبيهِ وجنتِها ... لمّا أحاطَ بها سَطْر من الشّعر

---

(١) كذا في الاصل، وإنما الصواب: موفق الدين، القاسم (في بعض مصادر ترجمته: أحمد) بن هبة الله أبو المعالي المتوفى سنة ٦٥٦هـ.
ترجمته في: عقود الجمان ٥/ ٦٠١، ووفيات الاعيان ٥/ ٣٩٢، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٧٤، وفوات الوفيات ١/ ١٥٤، والوافي بالوفيات ٨/ ٢٢٥، وشذرات الذهب ٧/ ٤٨٥، والحوادث الجامعة (تحقيق مهدي النجم) ص٢٤١.

(٢) عقود الحجان ٥/ ٦٠٥ وذيل مرآة الزمان ١/ ١٠٩.

(٣) الزيادة عن مصدري النص.

(٤) عقود الحجان ٥/ ٦٠٨ وذيل مرآة الزمان ١/ ١١٠.

(٥) الوافي بالوفيات ٨/ ٢٢٦ وذيل مرآة الزمان ١/ ١٠٨ والفوات ١/ ١٥٤.

(٦) في جميع مصادر النص: بيت.

/ ٢٤٥/ كالظلّ في النورِ أو كالشمسِ عارضَها
خطٌّ من الغيمِ أو كالمحوِ في القمرِ

وقوله فيما أنشدنيه شيخنا ابو الحسن الكنديَ[١]: [من الخفيف]

قَدْ بدا ما تسرّ فيما تقولُ إنما أنت عاشقٌ لا عذولُ[٢]
رابني منك في مَلامكَ تكثيـ ـرٌ لصبري ببعضِهِ تقليل
وحديثٌ مُلَجْلَجٌ فيه للقلْـ ـبِ على السرِّ آيةٌ ودليلُ
قُسِّم البدرُ بيننا فَلَهُ النورُ وعندي محاقُهُ والذبولُ
إنما أنتَ مهجتي واتخاذي بدلاً عن حُشاشتي مستحيلُ

ومنها:

ثروتي فوقَ هِمَّتي[٣] ومَرَامي فوقَ طَوقي وساعدي مغلولُ

وقد رواها شيخنا أبو الثناء الحلبي لأخيه الموفق، وكلاهما ثبت، ولعلّ الكندي أذرى بطرق الرواية.

ومنهم:

[١٦]

ابن بصاقة، فخر القضاة، أبو الفتح، نصر الله بن[٤] هبة الله بن عبد الباقي بن الحسين بن يحيى الغفاري، الكناني

كتب للناصر داود[٥] بن عيسى، ووزر، وجلس معه في صدر الإيوان والطرد، ونشأ، وتأدّب بالشام، وأوْمضَتْ له بارقةٌ كانت تُشام، ثم صرَف عن وزارة الناصر عنانه، ونَفَضَ منها بنانَه، لأمور نَقَمها، وشرور خاف نِقمها، وكان يحذر سوء خلائق

---

(١) علاء الدين، أبو الحسن علي بن مظفر بن إبراهيم، الكندي الوداعي، من الأدباء الشعراء، توفي سنة ٧١٠هـ (الدليل الشافي ١/ ٤٨٥).

(٢) الأبيات لأخيه عز الدين في عقود الجمان ٣/ ٢٥٢.

(٣) كذا في الاصل، وفي العقود: ثروتي دون همتي.

(٤) انظر ترجمته في: الشذرات ٧/ ٤٣٥، وعقود الجمان ٩/ ٩٧، والوافي بالوفيات ٢٧/ ٤١، وفوات الوفيات ٤/ ١٨٧، والنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٢٩٩، وعيون التواريخ ٢٠/ ٧٠، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٤. ويسميه ابن صاقعة وهو تحريف.

(٥) الملك الناصر صلاح الدين، داود بن عيسى بن محمد بن أيوب، ولي سلطة دمشق فأخذها منه عمه الكامل، فسار إلى الكرك، وكان عالماً فاضلاً مناظراً توفي سنة ٦٥٦خـ (الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٨٠، وشفاء القلوب ٣٤٦).

مالكِهِ، وتوعّر طرائق مسالكِهِ، فطالما أظْلَمَ جوّهُ واغتم دوّه، فتسلَّلَ منه بمخيلة دبَّت في السرّاء، ودلّت على الضرّاء، فخاف مساورة ذلك الأرقم، وترك مساقاة الشهد به خوفاً من العلقم، وكان طود حِجاً وحِجاج، وطوق جِيدٍ وحجاج زينةً الى فصاحةٍ شَبَّ على إرضاعها، وسماحةٍ تولّى حفظ مضاعها، وبلاغةٍ كانت حليةً لنظامِهِ، وحلة لإحلاله في الصدور وإعظامِهِ، ووزر جّدي رحمه الله بعده، ثم عاف تلك الدولة، ففارقها في ليلة قمراء مسودّة، لأمورٍ ما هذا /٢٤٦/ ميقات شرحها، ولا مرقاة صرحها، فأمّا ما لابن بصاقة، فمن نثره قوله:

وأما الابيات الجيمية الجمة المعاني، المحكمة المباني، المعوذة بالسبع المثاني، فإنها والله حَسَنَةُ النظام، بعيدةُ المرام، مقدمة على شعر من تقدّمها في الجاهلية، وعاصرها في الاسلام، قد أخَذَتْ بمجامع القلوب في الإبداع، واستولت على المحاسن فهي نزهة الابصار والأسماع، ولعبت بالعقول لعبَ الشمول، إلا ان تلك خرقاء وهذه صناع، فإذا اعتبرتَ ألفاظها كانت دراً منظوماً، وإذا اختبرت معانيها كانت رحيقاً مختوماً، جلّت بعلوّها عن المغاني الطروقة، والمعاني المسروقة، ودلّت بعلوّها على أنها من نظم الملوك لا السوقة، فلو وَجَدَها ابن المعتز لا جرى زورقة الفضّة في نهرها، وألْقى حمولته العنبر في بحرها[1]، وألقى تشبيهاته بأسرها، ولو لقيها ابن حمدان لاغتمَّ فرمى قوس الغمام، وانبرى زي السهام، وتغطّى من أذيال الغلائل المصبّغة بذيل الظلام، ولو سمعها امرؤ القيس لعلم أن فكرته ناصرة، وكرّته خاسرة، وأيقن أن وحوشه غير مكسورة، وعقبانه غير كاسرة، فأين الجزع الذي لم يثقب، من الدرّ الذي قد ينظم ويهذّب، وأين ذلك الحشف البالي من هذا الشرف العالي؟ فالله يكفي الخاطر الذي سمح بها عين الكمال الشحيحة، وتشفى القلوب العليلة، بأدوية هذِهِ الانفاس الصحيحة، وأما الابيات فهي هذه[2]: [من الكامل]

يا ليلةً قطَّعتُ عُمْرَ ظلامِها	بمُدامةٍ صفراءَ ذاتِ تأجّجِ
بالساحلِ الباقي روائحُ نشرِهِ	عنْ روضِهِ المتضوّع المتأرجِ
واليمُّ زاهٍ قد هدا تيّارُهُ	منِ بعدِ طُولِ تقلقلٍ وتموّجِ
طوراً يدغدغِهُ الشمال وتارةً	يكرى فتوقظُهُ بناتُ الخزرجِ

(١) اشارة لقول ابن المعتز: [من الطويل]

انظرْ اليهِ كزورقٍ منْ فِضةٍ قدْ اثقلتْهُ حمولةٌ مِنْ عنبرِ

(٢) الابيات في مرآة الزمان ١/ ١٥٩، والوافي بالوفيات ١٣/ ٣٨٨.

والـبـدرُ قـدْ ألْـقـى سـنـى أنْـوارِهِ فـي لـجِّـهِ الـمـتـجـعِّـدِ الـمـتـدبّـجِ
فـكـأنّـهُ إذْ قَـدَّ صـفـحـةَ مَـتْـنِـهِ بـشـعـاعِـهِ الـمـتـوقِّـدِ الـمـتـوهِّـج
/ ٢٤٧/ نهرٌ تكوّنَ مِنْ نُضارٍ مائعٍ[1] يـجـري عـلـى أرض مـن الـفـيـروزج

قالها الملك الناصر داود وبعث بها إليه يعرضها عليه وهي أبيات يحقّ لها أن توصف بجودتها شرف قائلها، وإن لم تحلّ الذروة ولا أوْشَكَتْ.

ثم نعود الى تتمة ما نذكره، فمن قولِهِ:

يقبّل الأرض، وينهى انه فارق مالك رقّه مراراً، وما وَجَدَ لفراقهِ من الألم ما وَجَدَهُ هذه المرّة، وبعد عن جالب رزقه، فانضرّ ولا مثل هذه المضرة حتى توهَّم أنها فرقة الأبد، وداخَلَهُ من الأسف ما لم يبق معه صبر ولا جَلَد، وكلّما شرع في الصبر، أبى الذكر أن يحدث له صبرا، وكلّما سهل عليه الأمر، لم يزده تَسْهيله إلاّ عسرا، والله تعالى يسهل من اللقاء كلَّ صعبٍ عسير، ويجمع شمل المملوك بمالكه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[2].

ومنه قوله:

المملوك يشافه أرض مالكِهِ بقبول خضوعِهِ، ويبلّ ترابها بوابل دموعِهِ، ويستقل فيضها ولو أنه من سيل نجيعه، لما نالَهُ من الحادث المؤلم الملمّ، والخطب المظلم المدلهمّ، بانتقال الولد الملك العزيز، فلقد وَرَدَ المملوك من الكتاب الوارد بنعيهِ مشرعاً كدِر الموارد، عَسِر المصدر[3]، وحضر منه مجمعاً كثير البوادي والحواضر، فيا له ناعياً أصَمَّ الأسماع وأصْماها، وأقذى العيون بل أعماها، وجرح القلوب فأدماها، وما أهمل سحب الجفون لكن أهْمَلَها وأهماها، وتبّاً له من نغيصٍ نغّص الدنيا على أربابها، وإن كانت معشوقةً محبوبة، وكرّهَ الحياة عند أصحابها مع انها شهيّةٌ مطلوبة، وكان الأوْلى بالمملوك أن يصرف عن ذكر هذه الحادثة صفحاً، ولا ينكأ بتجديده بالقرح قرحاً، ولا يقصد لباب الجزع بعد انغلاقِهِ فتحاً، ولا يطلع التعزية ليلاً، وقدْ طلعت التسلية صبحاً.

ومنه قولُهُ:

وينهي ورود المثال الكريم، فوقف منه على اللفظ البليغ، والمعنى البديع، وعلم عند تدبّرِهِ انه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[4]، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ

---

(١) في عيون التواريخ: يانع. (٢) سورة الشورى: الآية ٢٩.
(٣) كذا في الاصل، ولعل الصواب: المصادر.
(٤) سورة يوسف: ٧٦.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١) /٢٤٨/ وتصور أن كاتبه قد جاوز البحر فأتْحَفَهُ بجواهرِهِ، بل جاور الملك فأسْعَفَهُ بعساكرِهِ وصدق تصوره كون ألفاظه جواهر، وكتابه كتائب، وعجبت لخروج الدر من العذب حتى تذكّرت ان عادة البحر العجائب، وأما ما أمر بهِ مِنَ النيابة عنه في خدمة مولانا الوزير، فقد ناب عنها لكن مَنابَ تراب التيمّم عن الماء الطهور، وأنهى مشافهاته وأدّى من جملها في الساعة الواحدة ما لا يفصل في عدّةٍ من الشهور، وأما أحوال المملوك، فإنه من صدقات الديوان ما يعدم سوى النظر الى طلعة مولانا التي هي عديمة النظير، ولا تشتهي غير الفوز بخدمته، وذلك هو الفوز الكبير، وكل هذا برفع محلّ مولانا لمحلّي، ولأجله لا لأجلي: [من الطويل]

أَضمُّ قضيبَ البانِ مِنْ أجلِ قدّها وأَلْثمُ ثغرَ الكأسِ أحسبُهُ فاها

إلا ان المملوك قد أطال الإقامة في دار المقامة، ونال الكرامة حتى يكاد يسأم الكرامة وله أسوة بالقائل وقد طالت حياته: «سئمت تكاليف الحياة»(٢) وإذا أغْرقَتْ المياه وإن كانت عذبة، شكيت المياه.

ومنه قولُهُ:

وينهى ورود المثال الكريم بالنبأ العظيم، الذي أصمى القلوب، وأصمَّ المسامع وأوقف الخواطر، وأجرى المدامع، وضيّق على النفوس مجرى الصبر الواسع، وفزعت الآمال فيه الى الكذب، فما أجدى جزع الجازع من نعي الامام الطاهر، التقيّ العلم الزاهر الزكي، خليفة الله المستنصر بالله بوّأه الله جنان عَدْنِهِ، وأسكنه غرفات أمْنِهِ، وانتقاله عن الغمّة الضيقة الى الرحمة الواسعة، ومصيره من الدار المفرقة الى الدار الجامعة، فأظلم بها الافق لكسوف شمس الضياء، ودَجَى ليل الجو لخسوف قمر العلياء، وضحيت وجوه المكارم لتقلّص تلك الأفياء، وكادت تنفطر لفقدِهِ السماء ذات البروج بقضاء نَحْبِها، وبكته دموع قطرها من جفون سحبها، حتى خدّت خدود المروج، وشقّت الأرض جيوب تربها فألْبَسها حداداً من بياض الثلوج، فيا له خطباً عمّ الوجود بأسرِهِ، /٢٤٩/ وحصّ جناح الإيمان بحصّه بل بكسرِهِ، وعرف كل عارف بفضاعة نكره، وقضى لكلّ قلب تجمَّع همّه وتقسّم فكره، وأعاد الاسلام غريباً كما بدأ أوّل عمره، لكن أقْرِنَ به الخبر الذي سَرَّ السرائر، وجلى

---

(١) سورة الحديد: ٢٩.

(٢) تضمين لقول زهير بن أبي سلمى: [من الطويل]

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يعِشْ ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يسأمِ

الدياجر، وثبّت القلوب بعد ان بَلَغَتْ الحناجر بولاية مولانا الامام المحتوم الطاعة خليفة الله في أرضِهِ، والقائم بسنّة الإيمان وفرضِهِ، أمير المؤمنين المستعصم بالله ابن خليفته ووليّه، وابن عم رسولِهِ ونبيّه، فأجْلَت بوائق الحادث الجلَل، وقَضَتْ بانقباض الوجل وانبساط الأجل، وحصل العطف والتوكيد بهذ النعت وهذا البدل، فالحمد لله الذي تدارك بالجبر كسر الإسلام، وحسم بالبر مواد الآلام، وأزال باليقين عوارض الأوهام، وعاجَلَ بالرتق فتق الأيام، فيالها دعوةً أجاب داعيها كلّ مبصر وسامع، وأمّن عليها كل ساجدٍ وراكع، وتُلِيَتْ آياتُها في كل مصرٍ جامع، وتلقى العبد هذه النعمة بالشكر الذي استغرق غاية جهده ونهاية وُسْعِهِ، وأكْثر الحمد لله على ما أوْلى من جزيل منِّهِ وجميل صنعهِ، وسارع الى تلقّي المثال الكريم باتباعِهِ وامتثالِهِ، وأخَذَ البيعة على نفسهِ وشيعتهِ ورعيتهِ، وأعلن بالدعاء لإمامهِ على منابر بلادِهِ التي هي مِنْ إنعامِهِ، ولولا أنه في مقابلة عدوّ الدين لما قنع في تأدية فرض العين بسنة النيابة، وكان يسعى الى الباب الكريم بعزيمة وارية غير وانيةٍ، ويشفع هجرته الاولى إلى الحرم الشريف بهجرةٍ ثانية.

ومنه قوله في توقيع لقاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى[١] بن الزكي العثماني:

ونحا سيرة أجدادِهِ فما عَدَل عنها ولا حاد، وفُضِل بالفضائل فما عدّ غيره في أنجم الغفير إلاّ كان معدوداً في الأفراد والآحاد، فإذا تولّى أمْراً بلغ فيه أقصى الأمل والإرادة، وإذا باشر مهماً استقصى العرض فلم يبق موضعاً للزيادة، فرأينا أن ننوّله من رتب السعادة ما رأيناه له أهْلاً وأن نؤتيه منا فَضلاً، وان ننصبه بين أهل بَلَدِهِ /٢٥٠/ حاكماً، وننضيه لحسم مواد المخاصمات صارماً، ونُحمّله من أعباء المناصب ما يكون بحقوقه قائماً، ويرتضى منه لتدبير عوالي المراتب طباً خبيراً، وإماما عالماً

ومنه قوله في خطبة صداق المراجعة:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[٢].

الحمد لله جامع الشمل بعد الشتات، وواصل الحبل بعد البتات، ومُحْيِي الارض بعد الممات، ومنزل الماء الثجّاج من المعصرات لإخراج الحبّ والنبات،

---

(١) أبو الفضل محيي الدين بن محمد بن علي بن محمد، يرجع نسبه إلى عثمان بن عفان، ناب في القضاء بدمشق ودرس وحدث بها وبمصر، وتوفي سنة ٦٦٨هـ (البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٧).

(٢) سورة الفرقان: ٧٤.

والعالم بما كان وما يكون، وما مضى وما هو آت، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تضاعف الحسنات، وتمحو السيئات، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوث بالآيات البيّنات، صلى الله عليه وعلى آلِهِ الأبرار وأزواجِهِ الطاهرات صلاةً باقيةً بعد نفاد الأزمنة وفناء الأوقات، وبعد، فالنكاح من السنن التي أمر الله بها ونَدَب إليها ورغّب رسوله صلى الله عليه وسلم فيها، وحَضَّ عليها فقال تعالى في كتابِهِ العزيز المنزل على أفضل أنبيائه ورسله الذي لو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثلِهِ لا يأتون بمثلِهِ: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1] وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وهو المخصوص بالشفاعة والكرامة: تناكحوا، تناسلوا أباهي بكم الأمم يوم القيامة، وقد جعل الله تعالى للزوجين أن يتواصلا وأن يتقاطعا، وأن يتباينا، وأن يتخالعا، ورخّص لهما في المراجعة بقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾[2] وكان من قضاء الله السابق علمه، وقدره المارق سهمه، ما ذكر في الكتاب المقرون بالبركة رقمه، المعجون بالسعادة ختمه كذا وكذا.

ومنه قوله، وهو حلّ بيت المتنبي، وهو: [من الكامل]

ان القتيلَ مضرّجاً بدموعِهِ مِثْلُ القتيلِ مُضرَّجاً بدمائِهِ[3]

/ ٢٥١/ قتيل[4] الجفون في سبيل حبّه، كقتيل السيوف البواتر في سبيل ربّه، إلاّ أن هذا يغسَّل بدموعِهِ، وهذا يزمّل بنجيعه، وهذا في حال حياته ميت يرمق، وهذا في حال مماته حيٌّ يرزق.

ومنه قوله في حلِّ أبيات ابن الرومي: [من الكامل]

وحديثُها السحرُ الحلالُ لو أنهُ لم يَجْنِ قتلَ المسلمِ المتحرّزِ[5]
إنْ طالَ لمْ يمللْ وإنْ هي أوْجزَتْ وَدَّ المحدّث انها لمْ توجزِ
شركُ العقولِ وفتنةٌ ما مثلُها للمطمئنّ وعُقْلَةُ المستوفِزِ

لا جناح على من شغف بفاترةِ الجنون، فاتكة العيون، عليل لحظها صحيح لفظها تعد السقام الشفاء من قربهما، وتوقع الأنام من شرك من هديها، وإن أثْبَتَتْ طعنت من ناضر غصنٍ رطيب بعاملٍ ذابل، وإن رمقت رَشَقَتْ عن قوس حاجب بنبل

(١) سورة النور: ٣٢.
(٢) سورة البقرة: ٢٣.
(٣) ديوان المتنبي: ص٣٥.
(٤) قلائد الجمان: ٩/ ١٠٧.
(٥) ديوان ابن الرومي: ٣/ ١١٦٤.

نابل، وإن نطقت فاستمع لما انزل على الملكين ببابل، فهو السحر الحلال، مع قتلِهِ النفوس عمداً، والعذب الزلال إلا انه يزيد المرتشف له وقْداً، والعاقل للعقول، فلا تجد من وقوعها في عقاله بدّاً، يؤمن على طويلة الملك وكلّ طويلٍ سواه مملوك، ويودّ سامع قليلة لو أنه بالكثرة متصف، وبالزيادة مشمول، يلهى المشتغل عن قضاء أشغاله، ويعوق عن مضي استعجالِهِ، ينزه النواظر في رياض حسنها الناظرة، وتغرق الخواطر في بحار ذهنها الزاخرة، تقيّد الألباب ولو أساءت، وعهدنا الانسان بالاحسان يتقيّد، وتصيد القلوب طوعاً وكرها، فاعجبوا من غزالةٍ تتصيّد.

ومن شعره قوله[1]: [من مخلع البسيط]

يقولُ لي مادحوهُ لما ... فازوا وما فزتُ بالرغائبْ[2]

ما لَكَ فينا بغير عينٍ[3] ... قلتُ لأني بغير حاجب

فانْ تعجبتُم لكوني ... وردتُ بحراً عَذْبَ المشارب

ولم أنَلْ من نداه أربي ... فالبحرُ مِنْ شأنه العجائب

/ ٢٥٢/ ومنه قولُهُ[4]: [من السريع]

غِبْتَ عنْ القدس فأوْحشتَهُ ... لما غدا باسمِكَ مأنوسا

وكيفَ لا تَلْحَقُهُ وحْشَةٌ ... وأنتَ روحُ القُدْسِ يا عيسى

ومنه قوله في الصوم: [من الطويل]

وما خاتمٌ طولَ النهار لباسُهُ ... وعندَ دخولِ الليلِ يُنضى ويُخْلَعُ

وأعجبُ شيء ان يُسمُّوه خاتماً ... وما دَخَلَتْ فيه مدى الدهر إصبَعُ

ومنه قوله في قصب السكّر: [من الوافر]

جُعلتُ فداكَ هلْ لكَ في حبيبٍ ... مجيبٍ في الوصالِ بلا محال

نقيّ الثغرِ معسولِ الثنايا ... لهُ رِيقٌ ألَذُّ مِنَ الزُّلالِ

لهُ قدُّ القضيبِ إذا تثنّى ... وهَزَّتْ عِطْفَهُ رِيحُ الشَّمالِ

يقامُ عليهِ حدُّ القطعِ ظُلماً ... ولمْ يسرقْ ولمْ يُتهمْ بمالِ

---

(١) الابيات في الوافي: ٢٧/٤٦، والطالع السعيد: ٦٨٠، وفيهما انه كتبها للمستنصر.

(٢) في الوافي: والطالع.

فقالَ لي مادحوهُ لما ... فازوا وما فزتُ بالرغائبْ

(٣) الوافي: لم انت فينا. (٤) قلائد الجمان: ١٠٦/٩.

ويُغْضَرُ كعبُهُ مِنْ غير ذنبٍ   فيُبدي الشكرَ مِنْ كَرَمِ الخِلالِ

ومنه قولُهُ في السيف[1]: [من الطويل]

وأبيضَ وضّاحِ الجبين صَحِبْتُهُ   فأحْسَنَ حتّى ما أقومُ بشكرِهِ
شَدَدْتُ يدي منه على قائمٍ بما   أُكلِّفُهُ يلقى الأعادي بصدرِهِ
إذا نابني خطبٌ شديدٌ ندَبْتُهُ   فيهتزّ منه مستقلٌ بأمرِهِ
صبورٌ[2] على الشكوى فلو دُسْتُ خدَّهُ   على حِدَّةٍ[3] فيهِ وَثِقْتَ بصبرِهِ

ومنه قوله في الرمح[4]: [من الطويل]

عصيٌّ ثقيلٌ إنْ أُطيلَ بنانُهُ[5]   مطيعٌ خفيفُ الكَلّ حينَ يُقصَّرُ
ترى منهُ أميّا على الخطِّ ينتمي   ومغرًى بغزوِ الروم وهوَ مُزَنَّر
عجبتُ لهُ مِنْ صامتٍ وهوَ أجوفٌ   ومن مستطيلِ الشكلِ وهوَ مدوَّرُ
ومِنْ طاعنٍ في السّنّ ليسَ بمُنْحنٍ   ومِنْ أرْعَنٍ مذ عاشَ وهوَ موقّر

ومنه قوله في الإبرة: [من الطويل]

/٢٥٣/ ومسمومةٍ بالضدّ من أخواتِها   إذا زالَ عنها سمّها ليسَ تنفعُ
إذا لَدَغت لم يدخلِ القلبَ ابرةٌ   لخوفٍ وإنْ كانتْ تمضُّ وتُوجعُ
ترى خلفَها مهما تمشّتْ ذؤابةً   تجرّ وإنَّ الرأسَ منها لأقرعُ
تحلّتْ بضيقِ العَينِ وهي سخيّةٌ   لها خِلَعٌ بينَ الأنامِ تُوزّعُ
وإنَّ أَجَلَّ الناسِ قدراً وقُدرةً   ليلبس ما تنضوهُ عنها وتَخْلَعُ

ومنه قوله في صاغرة الاراقة: [من المنسرح]

يا سيّداً لم تزلْ أوامِرُهُ   فرضاًعلى العبدِ فهوَ ممتثلُ
هلْ لكَ عندَ المساءِ في أَمَةٍ   بيضاءَ حمراءَ ما بها خَجَلُ
إن تُدْنها تأتِ وهي صاغرةٌ   او تُقْصِها لا يُغيضُها المَلَلُ
تنكحُها كلّما أردت ولا   يُضجرها منكَ ذلكَ العَمَلُ
تَحْبل في ليلِها فإن تُرِكَتْ   إلى غَدٍ زال ذلكَ الحبَلُ
وهيَ إذا فتشتْ فلا دُبُرٌ   يُولَجُ فيهِ لها ولا قُبُلُ

(١) الوافي بالوفيات ٢٧/ ٤٢.
(٢) في الاصل: بصور.
(٣) في الوافي: رِقَّةٍ.
(٤) الوافي ٢٧/ ٤٣، وفوات الوفيات ٤/ ١٨٨.
(٥) الوافي: عِنانه.

ومنه قوله[١]: [من المتقارب]

وعلقٍ تعلّقتُهُ بعدَما غدا وهوَ مِنْ سَقَطاتِ المَتاع[٢]

فغرّقني منهُ نوءُ البُطَين وروّاه منّي نوءُ الذِّراع

ومنه قوله في المحفّة[٣]: [من الطويل]

وحاملةٍ محمولةٍ غيرَ أنها إذا حَمَلَتْ ألقتْ سَريعا جنينَها

منعَّمة لم ترضَ خدمةَ نفسها فغلمانُها مِنْ حولها يخدمُونها

لها جَسَدٌ ما بينَ رُوحين يغتدي ولولاهما كانَ الترهّبُ دينَها

فقد شُبّهتْ بالعرشِ في أن تحتها ثمانيةٌ من فوقِها يحملونَها

ومنه قوله في الإبرة[٤]: [من الطويل]

وعاريةٍ لا تشتكي البردَ في الشتا على أنها منهوكةُ الجسمِ بالبردِ

إذا زالَ عنها سمّها زالَ نَفْعُها وكانَ دواءُ السمّ في ذاكَ بالضِّدّ

/ ٢٥٤/ ومنه قوله في الميل: [من الطويل]

ومعتدلٍ في شكلِهِ وقَوامِهِ وليسَ لهُ مثلٌ وإنْ كانَ كالغُصْنِ

يُسَنُّ وإنْ لمْ يرهفِ السَّنُّ حَدّهُ على أنّهُ كالسيفِ حدّ مِنَ الجفْنِ

ومنه قوله في المشط[٥]: [من الطويل]

يعضّ بأسنانٍ وليسَ لهُ فمُ ويشغرُ أحياناً وليسَ بذي ثغرِ

رأى الزهدَ رأياً فاغتدى متجلّلاً على جِسْمِهِ العاري بمسح من الشعْرِ

ومنهم: ولده[٦]:

---

(١) الوافي ٢٧/ ٤٦، والفوات ٤/ ١٩٠، والطالع السعيد ٦٨٠، والنجوم الزاهرة لابن سعيد ٢٩٩.

(٢) البيت في الوافي:

وعِلْقٍ نفيسٍ تعلّقتُهُ فزارَ على خلوةٍ وارتياع

(٣) الوافي: ٢٧/ ٤٢، والفوات ٤/ ١٨٧. (٤) قلائد الجمان: ٩/ ١٠١.

(٥) قلائد الجمان: ٩/ ١٠٢.

(٦) يريد انه ابن ضياء الدين نصر الله بن الاثير الذي مضت ترجمته.

وهو شرف الدين محمد بن نصر الدين بن محمد، فاضل، صنف كتباً سيذكرها المؤلف، ولد في الموصل سنة ٥٨٥هـ وتوفي سنة ٦٢٢هـ.

ترجمته في: وفيات الاعيان ٥/ ٣٩٧ في نهاية ترجمة ابيه، ومطلع البدور للغزولي ١/ ١٢٧، وقلائد الجمان ٦/ ٥٤١.

[١٧]

محمد بن نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، أبو عبد الله

فطرةُ ذكاءٍ غذي بلبانها، وغدا في ورق الشباب يهتز اهتزاز قضبان بانها، طلب العلياء والشبيبة ممدودة الطراف، والحبيبة غضّة الأطراف، وكان دأبَهُ في أدَبٍ يؤشيه لطرب ينشيه بفكر ينديه، لبكرٍ يهديه، فاهداها خفرات، وأبداها مسفرات، من غرر وِسام، ودُرر لا تُسام، نَثَرها نثر الجمان، ونَظَمها قلائد في جِيد الزمان، فقدحتْ الأنوار، وفتحت بين نرجسِ المجرّة أعيُن النوَّار، فطالت بها الأيام بكر وأصائل، وطالت بسحبها الأيام غدر وخمائل وكإن مخالفاً لمذهب أبيه في التيه الذي مُقِتَ لأجلِهِ، ووقّت ميقات الحب لنجله .ذكره ابو العباس ابن العطار وقال: ولد بالموصل في رمضان سنة خمسٍ وثمانين وخمسمائة، وتوفي يوم الاثنين جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وله كتاب «غرّة الصباح في أوصاف الاصطباح» وكتاب «الانوار في نعت الفواكه والثمار»[١] وله نثر رائق ونظم فائق.

ومن نثره قوله:

بين المشوق وبين الحمام مناسبة في شجو تعبيره لا في شجو ضميرهِ، فهو يعلن نحيبه تألّماً، وهي تعلن بعتابها ترنّما، وفرق بين الأشجان الملهبة الأضالع والألحان المطربة للمسامع. وقد زعم قومْ أنها تذكر عهداً وتجدّد وجْداً، وهذا شأن من كانت عهوده منسيّة الايام، ومن لم يكن له من وجْدِهِ / ٢٥٥/ حمامة لم يهتج لتغريد الحمام، ولست براضٍ أنْ أرعى للاخوان عهداً يفتقر الى تذكار، وأضمن لهم وجداً يحتاج الى تجديد آثار، وأشواقي إليهم على النوى بين الاشواق التي تذهب بِجَلَدِ الجلد، وتوري زناد الصبابة تحت الحشى الصلْد، وإذا صافحت برد الموارد وَجَدَتْ حرّ الغليل في ذلك البرد، وإن زاد غيرها بحديث سعد، وكذلك هي في إرتياحها إليه والتياحها عليه.

ومنه قوله يصف سحابة:

خفقت بها بنود الرعود، واطّردت فيها خيول السيول، فالسحاب بها بين سائر ونازل، وواضعٍ وحامل.

---

(١) ذكره الغزولي باسم «نزهة الابصار في نعت الفواكه والثمار».

ومنه قوله:

ولقد وافيتها في زمن المشمش الذي له المثل السائر والذكر الدائر، فرأيت منظر إبهاءٍ ومخبر اشتهاء ذا لونٍ ذهبي، وشكلٍ كوكبي، وعرف مندلي، وطعم عسلي فهو يتمزّق للطافة جلده، ويزهى بلذة طعمه، وعظم قدّه.

ومنه قولُهُ:

وصل الورد على يد مشبهِهِ عرفاً، ومخجِله وصفاً، وما أقول إلاّ أني جرتُ في التشبيه، فعدت على خاطري بالتنبيه، وقلتُ: اين الورد الذي تناله الأيدي بتناولها، وتبدله بتداولها، من وردٍ لا يجنى إلا بالعيون، ولا يُنال إلاّ بالظنون؟

ومنه قوله:

كأنما خلقت أغصانها منابرَ لخطباءِ الغرام، وصورت أوراقها محاجر لدموع الغمام، وخرطت أزهارها مجامر للمندل الرطب، وقدر أقحوانها فما لمؤشر الثغر العذب، والطير ما بين متطلع من وكنه وقائم على غصْنِهِ، من كلّ مفوّف الطيلسان ذا طوق يزهى به على طوق العقبان، يترنم خلالَ أوراق الغصون، فيلتقي شأن المتيم بين الشؤون: [من الطويل]

يَصِلْنَ بنوحي نوحهنّ وإنما بكيت بشجوي لا بشجو الحمائم

ومنه قوله في البنفسج والورد:

أنا حبيب للنفوس، وتاج للرؤوس، والعطر الموضوع في الجيوب، واللون الذي يشبه عذار المحبوب، ولئن ذممت بأن لباسي لباس السواد، فإن هذا من /٢٥٦/ شيم أهل الوداد، فأقبل الورد في عسكره، وجنوده خافقة السنة عذباته وبنودِهِ، محمرّ الوجنات من الغضب، منكراً على البنفسج ما جناه من سوء الأدب، فجال في ميدان المفاخرة وصال وهتف بالبنفسج وقال: [من الكامل]

أعَلَيَّ يفتخرُ البنفسجُ جاهلاً والـيّ يُعزى كلُّ فضلٍ يبهرُ
وأنا المحبَّبُ في القلوبِ زمانُهُ وبمقدمي أهلُ المسرّة تفخرُ

كيف أطعت هوى نفسك الأمّارة حتى افتخرت بحضرة الإمارة؟ ألست صاحب الاسم المعجم و الرداء الذي ليس يعلم؟ بينا ترى ناضراً وترى الطرف عنك نافراً، هل لك من الفخر إلا ان تشبّه بالعذار إذا بقل والكبريت إذا اشتعل، ولم تحظ من هذين الوصفين إلاّ بالصيت المذموم؛ لأن هذا إحراق النار وهذا تسويد الخدّ الملثوم، على أن بعض البلغاء قد انكر تشبيهَكَ بالعِذار، ونَزَعَ عنك خلعة هذا الثوب

المعار، فقال: [من الكامل]

ومُهفهفٍ لما بدا في خدّهِ شِبْهَ البنفسج وانطفا توريدُهُ
غمَّ البنفسج حينَ شوّه خَلْقهُ وغدا على مُبيَضّهِ تسويدُهُ

لكن أنا مرتقب الأيام، ومنتظر الأعوام، وأيامي أيام الأفراح، ومراوح الأرواح، لا يشرف الربيع إلاّ بورودي، ولا تشبَّهُ خدود الغيد إلاّ بخدودي.

ومنه قولُهُ:

وبينما الغمامة تطلق لسانها، وتذكر إحسانها، إذْ عارضتها الشمس فخرجت من أثوابها، وقالت: هذِهِ منّةٌ على الأرض، أنا أوْلى بها، وانا معجزة الجبار، وعروس الفلك الدوّار، ومربية الأزهار والثمار، ومصلحة ما أفسد تابع الأمطار، على ان للمطر يداً لا تنسى، وطباً بِهِ جراح البرق يوسى، فإنه مخرج الأرض من موتها الى نشورها وموقد فيها مصابيح نورها، يزفّ الى عرائس الرياض وافي مهورها، ويظهر ما في بطون الأرض من الكنوز الى ظهورها، قام بنسج أبْرادها، ورد أرواحها الى أجسادها فهي لمقدمِهِ تهيج، وتهتز وتنبت من كل زوج بهيج.

وأما /٢٥٧/ نظمه، فلم أقف منه على قصيدة مطوّلة، فأذكرها متمّاً ولا مختاراً، إلا بائيةً مختصرةً ستأتي، ومن مقطعاته قوله: [من الرمل]

لَمَعَ البرقُ فهاجَتْ لوعةٌ لفؤادٍ بالتجنّي مُتْعَبِ
فتخالُ الجوّ من لمعتِهِ حبشيّاً في رداء مُذْهَبِ

وهذا معنى مطروق يشبه الليل بالحبشي، ولكن حسّنته هذه السمة التي جاء بها، ولا شيء أحسن من ردائه المذهب هنا، وان نظر الى قول المعري: حسب الليل زنجيا جريحاً.

وله: [من الكامل]

في روضةٍ سَلّتْ بها أنهارُها من كلّ ماضي الشفرتينِ مُهنّدِ
قد صِيغَ فيها فِضَّة بيدِ الضحى وأتى الأصيل فصاغَهُ من عسجدِ

وله: [من الطويل]

[و] لم يطلعِ البدر السماء لأنَّهُ رأى بيننا بدراً لهُ يخجلُ البدرُ
تغنى وأسبابُ السرورِ تمدُّهُ وفي لفظِهِ درٌّ وألحاظه سحرُ

وله: [من مجزوء الرجز]

اما ترى الليمون يبـ ـدو في خلال الورقِ

بظاهرٍ منْ ذَهَبٍ وباطنٍ من ورِق
تحوطُهُ غلائلٌ من اخضرٍ استبرقِ
إذا دنا الليلُ لنا جلا ظَلام الغَسَقِ

وله في المشمش: [من الكامل]

والمشمشُ الغَضّ الجَنِي بدا بينَ الغصونِ كأنجمِ السحرِ
ان رُمْتُ ان أجْنيهِ يشغلُني طيبُ المشمّ ورونقُ النظر
سبحانَ خالقِهِ وجاعلِهِ نُزَهَ العُيونِ وعسجدَ الثّمرِ

وهذه الكلمة حسنة لولا كاف التشبيه في انجم، فإنها قذى في عين هذه العروس ودعامة ملحقة في هذا البيت، وأما قوله وعسجد الثمر، وكذلك /٢٥٨/ كلمة العماد نثراً وهي قوله: كأنما خرط من الصندل، أو خلط بالمندل.

عدنا الى ابن الضياء الجزري، وله: [من الوافر]

وكمثرى حبوتُ بهِ الندامى تُزيلُ تقطُّبَ الوجهِ العبوسِ
كأكوابٍ صغارٍ من زجاجٍ وقد مُلئتْ بصُفرةِ خَنْدريسِ

وله: [من السريع]

قد أسفرَ الصبحُ لنا عنْ نقابْ ورقّتِ الكأسُ وراقَ الشَّرابْ
فقم بنا نشربُ من قهوةٍ يلمعُ للشربِ كلمعِ السَّرابْ[1]
مِنْ قبلِ انْ تلقطَ شمسُ الضُّحى مِنْ أعينِ النرجسِ وردَ السحاب
أما تَرَى الخمرَ وإيماضَها كالسيفِ والكأسُ لها كالقراب
فهزّها في كأسِها هِزّةً تجنِ بها أثمارَ شرخِ الشباب

وله: [من مخلع البسيط]

وروضةٍ طليقةٍ حباء غنّاءَةٍ مخضرَّةٍ جَنابا[2]
ينجابُ عنْ نَورِها كمائم ينحطّ عن وجههِ نقابا
باتَ بها مبسم الأقاحي يرشفُ منْ ظلّها رُضابا

وله: [من السريع]

السحبُ تبكي والثَّرى ضاحكٌ بكاءَ صبٍّ ملّ من جفوتِهْ

---

(١) في الاصل: فقمرينا يشرب.

(٢) في الاصل: وروضة طليقة ...عناء.

والـــزهـــرُ قـــدْ فـــتَّـــحَ أزرارَهُ   كـأنّـهُ اسـتـيـقـظَ مـنْ رقـدتِـهْ

وله: [من الكامل]

هبّ النسيمُ على الغصونِ فخلتُها   مثلَ الأحبّة ساعةَ التوديعِ
وبكيتُ من وَجْدي وفَرْطِ صَبابتي   حتى سقيتُ أُصولها بدموعي

وله: [من مجزوء الرجز]

والشمسُ خَلْفَ الغيم كالـ   ـحسناءِ خلفَ المعجر
تبكي إذا ما احتجبَتْ   مِنْ شدَّةِ التحسّر
/٢٥٩/ لها النعامى نَفَسٌ   والدمعُ ماءُ المَطَر
تُسْفِرُ أحياناً لكي   تحظى ببعض النظر
كأنّما تنثرُ في الـ   ـأرضِ نجوم السحرِ
أو ذَهَبٌ منتثرٌ   على بساطٍ أخضر

وله: [من الكامل]

نثرَ النسيمُ الطَّلَّ من أغصانِهِ   والروضُ بينَ مُذَهَّبٍ ومفضّضِ
فتخالُهُ فوقَ الغديرِ وقدْ طَفَا   حَبَباً يدورُ على شرابٍ أبيضِ

وله: [من الكامل]

والروضُ ساهٍ باسمٌ مستعبرٌ   خَضِلٌ بطَلّ سمائِهِ مطلُولُ
والفصلُ معتدلٌ فيا عجبا لهُ   كيفَ النسيم يمرّ وهوَ عليلُ

وله: [من السريع]

في روضةٍ يُطربُ أغصانَها   سجعُ طيورٍ في ذُراها فِصَاحْ
قد فتحَ النرجسُ أحداقَهُ   [و] قبَلَ الطلّ ثغور الأقاح
وتحسَبُ الأنهارَ في جَرْيها   قَدْ حَمَتِ الزهرَ ببيضِ الصِّفاح
ودغدغَ الغيثُ بطونَ الثرى   فابتسمتْ فيهِ ثغورُ الأقاح
وكلّما غنّتْ هَزاراتها   شقّتْ جيوبَ النَّوْرِ هُوْجُ الرياح

وله: [من الرجز]

إنـي رأيتُ بالأراكِ هُتّفاً   تزعمُ أنَّ عندها ما عندي
تبكي بلا دمعٍ وأبكي بدمٍ   شتانَ بينَ وجدِها ووجدي

وله: [من الوافر]

تـغـنَّـيْ يـا حـمـامـة فـوقَ غُـصْـنٍ ثَـنَـتْ أعْـطـافَـهُ رِيْـحُ الـشَّـمـال
فـإنـكِ كـلـمـا غـرّدتِ صـوتـاً أمِـيـلُ مِـنَ الـيـمـيـنِ الى الـشَّـمـال

وله: [من مجزوء الكامل]

زهـرُ الـبـهـارِ بـلـونِـهِ يـزهـو عـلـى شـمـسِ الـنـهـار
بَـهَـرَ الـعـيـونَ بـحـسـنـهِ فـلـذاكَ سـمّـى بـالـبـهـار

/٢٦٠/ ولـه: [مـن الـسـريـع]

أمـا تـرى نـرجـسَـنـا قـائـمـاً وهـو لـنـا فـي لـيـلِـنـا حـارسـا
قـد فـتـحَ الأحـداقَ مُـسـتـيـقـظـاً فـظـلّ يـخـشـى ان يُـرى نـاعِـسـا
حـتـى إذا قـبّـلْـتُ مـن أشـتـهـي تـراهُ مِـنْ فـطـنـتِـهِ نـاكـسـا

وله: [من المنسرح]

والـمـاء بـيـنَ الـريـاضِ تـحـسـبُـهُ قـدْ جَـرّدَ الـبِـيـضَ وهـوَ يـحـمـيـهـا
وكـلـمـا غـنّـت الـطـيـورُ بـهـا تـراقـصَ الـزهـرُ فـي نـواحـيـهـا

وله[1]: [من مخلع البسيط]

لـلـروض عـنـد الـصـبـاح طـيـبٌ نَـمَّـتْ إلـيـنـا بـهِ الـجَـنُـوبُ
واسـتـمـتـعَ الـطَّـرْفُ مِـنْ كَـرَاه فـمـلَّـتِ الـمـضـجـعَ الـجُـنُـوبُ
والـطـيـرُ فـوقَ الـغـصـونِ يـدعـو طـابَ لـكـمْ وقـتُـكـمْ فـطـيـبـوا
والـكـأسُ فـي كـفّ ذي قَـوامٍ يـخـجـلُ مِـنْ لـيـنِـهِ الـقـضـيـبُ
لـولا لـبـاسٌ يـقـيـهِ طَـرْفـي لـكـادَ مِـنْ لـحـظِـهِ يـذوبُ
مـا سـعـدَ الـوالـدانِ فـيـه ألاّ لـتـشـقَـى بـهِ الـقـلـوبُ
راحٌ اذا الـراحُ ابـرزتْـهـا صَـبَـا الـى شُـربِـهـا الـلَّـبـيـب
لـهـا إذا الـمـاءُ جـالَ فـيـهـا فـي قـعـرِ كـاسـاتِـهـا وُثُـوبُ
إذا سَـرَتْ فـي عـروق شـخـصٍ هـانَـتْ عـلـى قـلـبـهِ الـخـطـوبُ
وقـائـلٍ تُـبْ فـقـلـتُ: كـلاّ هـيـهـات عـن شُـربـهـا أتـوبُ
إذا اسـتـقـامَ الانـامُ طُـرّاً قـل لـي: لـمـنْ تُـغـفـرُ الـذنـوب

وله: [من الخفيف]

---

(١) قلائد الجمان ٦/ ٥٤٥.

فهي شمسٌ لكنْ بغيرِ مغيبٍ ولهيبٌ لكن بغير انطفاء

ومنهم:

[١٨]

ابن قرناص[١]، محيي الدين

وهو من أهل حماة، ووقفت له على بديع رقم بغرائب النواة، بيانا كالجوهر المعدود، وإحساناً كل سمع به / ٢٦١/ معقود، كأنه شخص الحبيب بدا لعين محبّهِ، أو طيف الخيال وأدنى في قربهِ، وسمعت كَلِماً كلّما قرأتها استجدتها، وفِقَراً لِقِرى المسامع مهما قُدّمت لك استزدتها،

فمن نثره قوله:

وسار في فرسان كالأسود، إلا أن براثنها سلاح، وجنود كالطيور إلاّ أنها تسبق الرياح، حتى أتى فلانة، ورتّب عليها نوب اليزك[٢]، للمخايلة لا للمخاتلة، وانتظر ان يخرج إليه صاحبها متضرّعاً، أو يقصد إليه متخضّعاً؛ لأنه إنما قصده غضباً لله، لما انتهكه من محارمِهِ، وأقامه لمّا رأى العدل الذي شرع في هدم معالمه، وشفقةً على خلق الله الذين بسط عليهم منذ وليهم أيدي مظالمه، فلما أبى إلاّ الطغيان والتمادي في مهالك العصيان، واغتر بأصحابه الذين هم معه بأجسامهم وعليه بقلوبهم، ووثق برعاياه الذين كانوا أو وقعوا معه بذنوبهم ، فلصق الجيش المنصور بالسور المقهور، فدنا وتدلّى، ورأى الخصم عين القصم، فعبس وتولّى، فكشفت الستور، وهتكت حجابه، وتبرّج كلّ برج فحسر الزرّاقون لثامه، وأماط النقابون نقابه، وطَلَعَتْ على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة، كل راية صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين، وأيّدَ الله الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين.

ومنه قوله:

فَلَمْ تَرَ إلاّ شجرةً قائمةً على أُصولها، وكروماً خاوية العروش، وسقيط البلح المبثوث، وجبالاً كالعهن المنفوش.

---

(١) ابراهيم بن محمد بن هبة الله بن قُرْناص، الخزاعي، الحموي، محيي الدين، الاديب، الشاعر، المتوفى سنة ٦٧١هـ.
ترجمته في: الوافي بالوفيات ٦/ ١٣٣، المنهل الصافي ٦/ ١٢٢، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٣٨، هدية العارفين ١/ ١٢، الاعلام ١/ ٦٣.

(٢) اليزك: طلائع الجيش.

ومن شعره قوله: [من الرجز]

خُذْهُ إلـيـكَ أدْهـمـاً مُـحـجّـلاً ... مـن يَـعْـلُ يـومـاً مـتْـنَـهُ فـقـدْ نـجـا

يُـريـكَ مِـنْ تـحـجـيـلِـهِ ولـونِـهِ ... (طـرَّةَ صبـحٍ تـحـتَ أذْيـالِ الـدجـى)

ومنه قوله: [من الخفيف]

مَـنْ لـقـلـبـي مِـنْ جـورِ ظـبـيٍ هـواهُ ... لـيْ شـاغـلٌ عـنْ حـاجـرٍ والـعـقـيـقِ

خصـرُهُ تـحـتَ أحـمـرِ الـبـنـد يـحـكي ... خِـنْـصِـراً فـيـهِ خـاتـمٌ مِـنْ عـقـيـقِ

/٢٦٢/ ومنه قوله: [من الكامل]

جَـرَحَ الـفـؤاد غَـداةَ جـاءَ مـجـرّحـا ... ظـبـيٌ مِـنَ الأتـراكِ مـعـسـولُ الـلَّـمَـى

أيُـلامُ عـاشـقِـهِ لـفـرطِ بـكـائِـهِ ... وعـلـيـهِ أعْـيـنُ دمـعـهِ تـبـكـي دَمَـا

ومنه قوله: [من الكامل]

وكـأنَّ مـسـطـولاً عـزيـزاً قـد غـدا ... يـرعـى الـحـشـيـشـةَ مِـنْ جـآذر جـاسـمِ

وسـنـانُ أقْـصَـدَهُ الـنـعـاسُ فـرنّـقَـتْ ... فـي عـيـنِـهِ سِـنَـة ولـيـسَ بـنـائـمِ

ومنه قوله: [من الطويل]

الـى اللهِ أشـكـو داحـسـاً قَـدْ أضـرَّ بـي ... بـوخـزٍ حكـى وخـزَ الـرمـاحِ الـمـداعِـسِ

وإنـي لـفـي حـربٍ اذا بـاتَ ضـاريـا ... عـليَّ ومَـنْ يـقـوى عـلـى حـربِ داحِـسِ

ومنهم:

[١٩]

ابن العجمي، كمال الدين أحمد بن عبد العزيز الحلبي، أبو العباس[(١)]

كتب الدرج في أيام الناصر[(٢)] بن العزيز، فرقم ديباجها بالتطريز، وفَضَل فزادها وأزواجها بالتبريز، وكان صدر رئاسة، وبدر عرفان وسياسة، لاقت العلياء بمعاطفه، وراقت الفضائل في كؤوس معارفِهِ، من قوم وهبتهم الثريا سيادتها، وحَبَتْهم حارةُ الشمس سعادتها، فثنت الجوزاء إليه عنانها، وانقدته النجوم أعيانها، فجعلته الدول حلية للبتها، وشيةً لأيامها، وقد نَفَضَتْ عليها الليالي صبغ لمتها، وقدم دمشق في

(١) المتوفى في صور سنة ٦٦٦هـ.
انظر ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٢/٣٨٨، والوافي بالوفيات ٧/٦٨.

(٢) الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز، ملك بعض بلاد الجزيرة الفراتية، ثم دمشق والشام، ودخل التتار الشام فخرج منها وقتل باذربيجان سنة ٦٥٨هـ. (وفيات الاعيان ٤/ ١٠).

أوائل دولة الظاهر بيبرس، وكتب بها، ثم طلب الى مصر واستكتب، واستعتب لحظّه الناقص، فاعتب، وله الآن يقتني بقية العبق في المشام، والشهب في آخر الظلام.

ومن نثره قوله:

ولم يكن إلا كلمح البارق الخاطف، أو شرب الطائر الخائف، حتى علونا جدارها وتسوّرنا أسوارها، وهذه قيسارية[١] كان ريد إفرنس[٢] قد أحكم عمرانها، فألْحق بالسماء أرضها، وأبرم أسباب تحصينها إبراما منعه نقضها، وجعلناها امام ما نقصده من الثغور الساحلية، لتعلم الفرنج /٢٦٣/ ان قصدنا لحصونهم امام ما نقصده من الثغور الساحلية شامل، وعزمنا إليهم في كل جهةٍ واصل، واننا لابد أن نُغْرِق ببحر عساكرنا ما بأيديهم من الساحل، لتتفرق عزائمهم فلا ينصب الى جملة واحدة، وتذهل خواطرهم، فتتوهم كل فرقة من الجيوش إليها قاصدة.

ومنه قولُهُ:

وكنّا لما شَمَخَتْ بأنفها إباءً، ورفعت رأسها منعةً واستعصاءً، وكّلنا باستلانَة جانبها، ورياضة مصاعبها، كل طويل الباع رحب الذراع، مضطلع بأمر الحصر أيَّ اضطلاع، فقذفها بشهب نجومه، وواصلها بتوالي رجومِهِ، حتى عرف منها موقعه، واستبان من أبراجها موضعَهُ، وألان من شامخها جامِحَهُ وممتنعه، فلم يزل يقبل ثغرها حتى أثْغرَ، ويصادم ركبها حتى خرّ، وجاء ما لاصقه على الأكثر، وفي ضمن محاذاتها بالمجانيق، تخللنا حولها الأرض طرقاً وأسرابا، وصيرناها الى الخنادق أنفاقاً وأبوابا، وصبر جنود الله حتى وصلوا بالحجارة الى جدارها، فجاذبوا أذيال بنائها الشامخ، وحلّوا عقد أساسها الراسخ، فتعلّقوا بأبراجهم تعلق قرار لا لانتصار، ولاذوا بمعاقلهم لِياذ رُعبٍ لا توهّم اقتدار، وأذعنوا بلسان الاستعطاف، فأجبناهم على ان يبقوا تحت أيدينا أُسارى، وأغمدنا عنهم السيوف إلاّ من سبق في قتله السيف العذل، وأتاه الموت قبل تحقيق الأمان على عجل، وقد فتح الله على المسلمين حصناً كان عليهم وبالاً، وحلّ عنهم من معقله عقالاً، وخفّف عن أعناق محاذيهِ من سوء جيرتهِ أعْباءً ثقالاً، ثم أمرنا بهدمِها حتى عاد ما كان يُرى منها شاهقاً للعيان لا يكاد يُدرك باللّمس، وأصبحت خاويةً على عروشها كأن لم تَغْنَ بالأمس.

ومنه قولُهُ:

---

(١) قيسارية: مدينة على ساحل بحر الشام، من اعمال فلسطين (معجم البلدان ـ قيسارية)

(٢) ريدإفرنس، ويسمى: الفرنسيس؛ ملك فرنسة (صبح الاعشى ٥/ ٤١٢).

فنصبنا عليها من المجانيق كل صائب سهمه، ثاقب نجمه، محرق لشياطين الكفر رَجْمُهُ، يهدّ ويهدم، ويردي ويردم، ويوهي ويوهن، ويُسِرّ بارديائه ويعلن / ٢٦٤/ لم تُنْصب عوامله على سور متصل إلاّ هدمته، ولا مُدَّت أسبابُهُ على مبنى رُفع واستغلق بابه إلاّ كَسَرَتْهُ، ولم يزل يرمي غاديتها بالقارعة، ويصمي اسماعها بأحجارِهِ الطائرة الواقعة، وأقبلنا بالمجاهدين إليها، فأحاطوا بها إحاطة الخاتم بخنصرِهِ، والسور بمعصمِهِ، وأمطرنا عليها بسحب القسيّ وبلاً غرقتهم بدافق أسهمه، فتجلّد أعداء الله، وجلدوا، وتعاقدوا على الموت وتعاهدوا، وأرسلوا من جروفهم سهاماً، لا يردّها رادّ عن الأجسام، ولا يكسر عينها ما تصم الأعضاء من تظاهر الآلام، وإذا شوهدت راعت الناظر فلم يدر أعَمَدٌ هي أم سهام، وشفعوها بضمّ أحجار صمت، لها أسماع الدرق، وكسرت بها رؤوس البيض، وفقست أعين الحلق. وصبر أولياء الله، ولم يزالوا حتى ألحقوا النقابين بِجدارها، وبوّأوا المقاعد تحت أسوارها، ولم يكن بأسرع من ان شقت النقابون نقاب اسوارها، وأضرموا ناراً طافَ بأهل السعير سعيرها، ونطقت عمّا أكنّه ضميرها فانحلّ من عقود بنائها ما كان متّسق النظام، ونبذ من شمل بروجها ما كان حسن الألتيام، وكانت لا تلوي جيدها صَعَراً، فألصق خدّها وهي راغمة بالرغام.

ومنهم:

[٢٠]

تاج الدين، أبو جعفر، أحمد بن سعيد[١].

رأس المعالي وتاجها، ولقاح المعاني ونتاجها، كان معدن الجلالة، وموطن الرقّة والجزالة، ولم يَزَلْ بدر الفضائل وكمالها، وصدر المحافل وجمالها، ونفس المآثر وعنصرها، وخاتم المفاخر وخنصرها، صحب الأيام مسالماً، وقاسَمَ الليالي على النجوم الزهر مُساهِماً، واكتنف البلاغة فقلّدته تقليد العموم، وقدّمته تقديم الإمام على المأموم، وخدم الدول فأولته انعاماً، وخولته مواهبَ طالما أخْدَمته الزمان عاما، وكان نداه موارد ملكها، ونُهاهُ عطارد فلكها، فَأَرَتْهُ وجوها وِساماً، وأرضته مِصراً وشاماً، فأهدى من فرائده ما[٢] ابن العزيز فاستخدم في ديوان / ٢٦٥/ الانشاء،

---

(١) انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٦/ ٣٩٢، والنجوم الزاهرة ٨/ ٧٤، والمنهل الصافي ١/ ٣٠٠، وبيت ابن الاثير الحلبيين غير بيت ابن الاثير الموصليين.

(٢) كذا في الاصل، ولعل كلمة سقطت فابهمت المعنى.

واستكتب واستعتب له الحظ لو يعتب، ثم نقل الى الباب الظاهري، فكان هناك أحد المتخذين الأعيان، والمتحدثين بسحر البيان، وولي في الايام الاشرفية كتابة السرّ بالحضرة السلطانية، فلم يتم الشهر حتى مات، ودفن بغزة[١]، فأغمدت منه المنايا غُصْناً، ووهبت منه الى جانب الملح بحراً عَذْباً، وكان هلالاً للشهر، وروضاً يُلْقَطُ من أفْنانِهِ الزهر.

قال شيخنا أبو الثناء: كان يبطىء ولا يخطىء، وقال: كان عنده اعتناؤه بالألفاظ أكبر من المعاني.

قلت: ويدلّ على هذا ما يرى، وقد وقفنا على كثيرٍ منه، واكثرهُ متزن، لو تجسّد لاختزن، كأنّه في تساويه مسجع الحمامة، أو وَقْع الغمامة.

وحكي[٢] انه لما أناخ هولاكو على شاطىء الفرات، وفرش خوفُهُ الخدودَ لمواطىء العبرات، وقطعت من تلك الدولة الأواصر، وأصبحت وما لها قوّة ولا ناصر، وكان الناصر بن العزيز قد جهّز ولَدَهُ الى أرْدو هولاكو بِطُرفٍ بَعَثَها، وكتاب حَلّ في سطوره عقد السحر ونَفَثَها، كتبه له هذا الكاتب المذكور، واستشهد فيه بالبيت المشهور: [من البسيط]

يجودُ بالنفس انْ ظنّ البخيلُ بها والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجُودِ[٣]

فلما عرضه على الملك الناصر، قال له: هذا كتاب لا يلام دونَهُ القاصر، وكان الأنسب في هذا المكان ان لو استشهَدْت فيه بقول ابن حمدان[٤]: [من الطويل]

فدى نفسَه بأبنٍ عليه كنفسِهِ وفي الشدّةِ الصمّاء تُفنى[٥] الذخائر

وقد يُقْطَعُ العضوُ النفيسُ لغيرِهِ وتُدْخَرُ[٦] للأمرِ الكبيرِ الكبائر

فأقرّ له بالصواب، وعلى نفسِهِ بالخطأ، وبدَّل الاستشهاد بما قال، ثم ما أنقذ ذلك الكتاب من عثرةٍ ولا أقال:

ومن نثره قوله:

كتابنا هذا والمرقب[٧] في قبضة ملكنا، وربوعه قد عادت أطلالاً، والأسياف

(١) توفي بغزة سنة ٦٩١هـ. (٢) الخبر في الوافي بالوفيات: ٦/ ٣٩٥.
(٣) البيت لصريع الغواني مسلم بن الوليد، ديوانه ص١٦٤.
(٤) ابو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، والبيتان في ديوانه صـ١١٥.ط دار صادر.
(٥) في الديوان: تُقنى. (٦) في الديوان: وَتُدْفع بالأمر الكبير.
(٧) المرقب: حصن على ساحل بحر الشام مقابل جبلة (معجم البلدان ـ المرقب).

التي كانت في أيدي أهلها قد جَعَلْناها في أعناقهم أغلالاً، وقد علم /٢٦٦/ المجلس ما كانوا يحدثون به نفوسهم، ويشعبون به رؤوسهم، واستفزّهم من يحسنِ لهم في الطمع أُموراً، وَيعدُهم الأباطيل، وما يعدهم الشيطان إلاّ غرورا، وكان المانع أولاً ما كان من اضطراب الأمور، والتقاء الجيوش واختلاف الآراء، وتغيّر النيات، إلى أن أمكن الله عزوجل من كلّ مناوىء منافر، وظفرنا من الأعداء بكل كافر، ولكل مَنْ هو للنعمة كافر، ونحنُ مع ذلك نحيط بما يمكرونه علماً، ونُملي لهم ليزدادوا إثماً، فلما تَلَمّحْنا مخايل النصر، سرنا إليها سرى الخيال الطارق، وأسرَعنا نحوهم كما تسرع لمحةُ البارق، ولم نزل نوقد لهم البواتر، ونُدير عليهم الدوائر، ونشتّتُ لآرائهم شملاً، ونقطع من مكائدهم حبلاً، وننفضّ لعزائمهم جمعاً، وتكون جنودنا واقفةً بإزائهم، فيخيل إليهم من خوفهم أنها تسعى، إلى ان أدركنا فيهم الثأر، وأطفينا بهم النار، وضَرَبنا عليهم الذلّة، وجمعناهم جَمْعَ القلّة، وأصبح ما كان يحميهم يتحاماهم، وقلنا: يا سيوف دونَكِ وإياهم، وكانت هذه القلعة مكانها في جوار النجم، وفناء اليمّ، تقدمها الجبال، ويَعْصِمها البحر، وتحجبها الأودية، ويحضنها الوعر، وتحفّ بها سيوف لا تكلّ، وآمال لا تملّ، وآجال يحفظونهم ولا يضيعونهم، وقوم يعصون الله ويطيعونهم، وسطرناها، وبلادهم مهدومة، وجموعهم مهزومة، ويد الله فوق أيديهم، والخذلان من كل ناحية يناديهم.

ومنه قوله:

وبعد فإن الرتب شرفُها بمتوليها ومتوقّلها يزيد، والعقد ما امتاز على السلوك إلا بواسطة حسبها نظام كلّ فريد، والمملكة جمالها وزيرها، وقوامها مشيرها، وأُمورها تكون ضياعاً، وحزمها يكن مضاعاً، ما لم يُؤازرها ذو أزرٍ شديد، ورأيٍ سعيد، وقلم يقلّم ظفر الملمّ ويقوم بعبء المهم، ويجري بالأرزاق، ويدخرها، ويقتني الأموال العظيمة لمن يستصغرها، ولولاه لما افتخرت الدول، ولكانت مضطربةً لولا ابتناؤها على الأقلام والأسل /٢٦٧/ وكان أولى من عوّل على تدبيره، واهتدى في الأمور بنورِهِ، أهلُ العلم، فإنهم المذكورون لمن مَلَك، والمستفتون في الأرواح والأموال ليحيا من حيّ عن بيّنةٍ ويهلك من هلَكَ، ويسترشد بهم إذا ضلّت الآراء، وأظلّت الأهواء، وطلّت الأنواء، وتحكمت الأدواء، وتقسَّمَت الأضواء، وكان فلان هو المعنى بهذا المدح، والجدير بأن تجلى عليه هذه الملح، وتجمّل بإلقاء دروسه صدر كلّ إيوان، وبتصريفه مكان كلّ ديوان، وتحاسدت الوزارة والأحكام عليه، إلى أن نالت الوزارة منه نحتها، منشدة: [من الطويل]

هو الجِدّ حتى تفضلَ العين اختها

ومنه قوله:

يقبل اليد لا زالت أقلامها محسنة في سفارتها، وكتبها لا تسلك إلاّ بخفارتها، والخدمة إذا لم يكن معها ذِمام لا يؤمن عليها شنّ غارتها، وينهي ورود مشرفته التي أبهجته بما أسمعته، وأدّت الأمانة فيما استودعته، وحملت إليه الرياض زواهر، وأُغْنَتْه بما أهدى إليه البحر من الجواهر، وقبل الرسالة والرسول، وقبّل الحامل والمحمول، وأعاد الجواب وهو من خوف التقييد على وَجَل، وكتبه والقلم من حياء المماثلة، لا يكاد يرفع رأسه من الخَجل، فيعرضه مولانا على فكْرِهِ النقّاد، ويتصفحه بنظره الذي زمام الفضل به منقاد، ويُسْبِلُ عليه سِتْر معروفِهِ الندي[١]، ويعيره نفحة أنفاسه التي يكاد يفوح المسك من عرفها الشذي، والله يشكر له الاحسان الذي لا يبلغ الوصف مداه، ويحرس عليه من الفضل ما ملكت يداه، ويفديه بكل مقصر عن شأوه، فلا أحدٌ إذاً إلاّ فداه.

ومنه قوله[٢]:

يقبل اليد الشريفة المحيوية المجنوبة[٣] الى كل قُبلة، المحتوية على الكرم الذي هو للكرماء قِبلة، لا زالت مخصوصة بفضائل الإعجاز، والبلاغة التي كل حقيقة عندها مجاز، والاحسان[٤] الذي يظنّ الاطناب في وصفه من الايجاز[٥].

وينهي ورود مشرّفته التي أخَذَتْ /٢٦٨/ البلاغة فيها زخرفها، وأشبهت الرياض[٦] منها أحرفها، وأبانت عن معجزات البراعة، ومثلت له السحر كيف ينفث في عقد تلك اليراعة[٧]، وأبانت مجاري فضله على مثل الجمر، وأفردته بالرتبة التي لا يدّعيها[٨] زيد ولا عمرو، وعلّمته كيف يكون الانشاء، وأعلمته ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء[٩]، فوقف المملوك عليها وقوف مَنْ أفحمه الحصر، وتطاول لمباراته

---

(١) في الاصل: الذي.

(٢) الوافي بالوفيات ٦/ ٣٩٢ ، وفيه انه اجابة لكتاب الفاضلي محيي الدين بن عبد الظاهر.

(٣) في الاصل: المحبوبه، والتصويب عن الوافي.

(٤) في الوافي: والاحسان لا احسان الذي يظن.

(٥) في الوافي: الذي يظن الإطناب والإسهاب في شكره وذكرِهِ من الايجاز.

(٦) في الوافي: الروضة الأنف.

(٧) في الوافي: ومثلت كيف ينفث السحر في تلك اليراعة.

(٨) في الوافي: التي لا يصل إليها.

(٩) في الاصل: ما يشاء، والتصويب عن الوافي.

فيها، ولم يطل[١] من في باعِهِ قصر، واستقدم القلم في جوابها فأحْجَم، واستنطق لسانه ليعرب عن وصفها فأعْجَم، وقال لحسنها الذي استرقّ القلوب: قد مَلَكْتَ فاسْجِحْ، وبلغ الغاية في نفسه[٢] التي قصرت عن شأوِها، ومُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَها مثل مَنْجِح، ومن أين لأحدٍ تلك[٣] البديهة المتسرعة والرويّة التي هي عن كل من ينتحى وينتحل[٤] متورّعة، والمعاني التي قطفَ نوارها أبكارا[٥]، والغرائب التي بحرها لا يهدي الدرّ إلا كبارا[٦]، والخاطر الذي تُستجدى الفضلة[٧] من سماحته، واللسان الذي يخرس البلغاء عند فصاحته، والقلم الذي هو مفتاح الأقاليم، والطريق الذي مَنْ دُلّ فيه ضلّ ولو أنّه عبد الحميد أو عبد الرحيم[٨]، والكتابة[٩] التي تشرق بأنوار المعاني، فكأنها الليلة المقمرة، واليد التي إن لم تكن الأقلام فيها مورقة فانها مثمرة، ومولانا[١٠] أوتى ملك البيان، واجتمع له طاعة القلم واللسان، وخطبت الأقلام بحمدِهِ على منابر الانامل[١١]، وأخذت له البيعة بالتقدم على كل فاضل، ولو كان الفاضل، وأصبح محلّه الأسنى، وأسماؤه فيها الحسنى، وجاء من المحاسن بكل ما تُزْهى به الدّول، وأصبحتْ طريقته في هذا الفن كأنها ملّة الاسلام في الملل[١٢]، وعرف الإشارةِ الى حلب وما صنعت بها الأيام[١٣]، وما أشجى من ربعها الذي لم يبق بشاشته تُستام[١٤]، ووقوف مولانا على أطلالها، وملاحظته الآثار التي أعرضت السعادة عنها بعد إقبالها، وتفجّعه في دِمَنِها، وتوجّعه لتلك المحاسن التي أخَذَتْها الأيام من مأمنها[١٥]، وأنه وجدها وقد خَلَتْ / ٢٦٩/ عِراصها، وزمّت للنوى قِلاصها، وغربانها في رسومها ناعبة، وأيدي البلا[١٦] بها لاعبة. [من الطويل]

(١) في الاصل: يطول.
(٢) في الوافي: في عذر نفسه.
(٣) في الوافي: مثل تلك.
(٤) في الوافي: عن كل ما يتجنّب متورّعة.
(٥) في الوافي: والمعاني التي تولد منها أبكار.
(٦) في الوافي: أو الغرائب التي لا يقبل الدر من جرها إلا كبار.
(٧) في الاصل: والخاطر التي يستجدي الفضلاء من سماحته، والتصويب عن الوافي.
(٨) في الوافي: ولو أنّه عبد الحميد او ابن العميد أو عبد الرحيم.
(٩) في الوافي: والألفاظ.
(١٠) بعدها في الوافي: حرس الله مجده.
(١١) في الوافي: فخطب الاقلام، بحمده على منابر الاعلام.
(١٢) في الوافي: وأصبحت طريقته في الفنون كلمة الاسلام في الملل.
(١٣) في الوافي: وعرف بالاشارة في حلب ما صنعت فيه الايام.
(١٤) في الوافي: وما اشجاه من ربعها.
(١٥) في الوافي: وتوجّعه لتلك المحاسن التي اخذت من مأمنها.
(١٦) في الوافي: الرزايا.

فلم يدْرِ رسمُ الدارِ كيفَ يُجيبنا ولا نحنُ مِنْ فرطِ الأسى كيفَ نسأل[(١)]

نشكر الله موقفه[(٢)] في تلك الدمن، ورقته التي قابل بها جفوة الزمن، ورأى هذا العهد الذي تمسكت منه الآن بحسب، ورعى له حق الدمع الذي جرى، فقضى في الربع ما وَجَب، ومن للمملوك بوقفةٍ في رسومها، واستروحاهِ بنسيمها، وسقياها بدمعه، وتجديد العهد بمغناها الذي كان يراه بقلبه، فأصبح وهو يراه بسمعهِ، ولقد علم الله أن الاحلام ما مثلتها لعينه إلا تأرّقت، ولا ذكرتها النفس إلاّ تمزّقت، ولا تخيّلَتْها فكرة فاستقرّت على حال من القلق، ولا جردتها الأماني لخياله إلاّ وراحَتْ مطايا الدمع في السبق: [من الطويل]

ولا قلْتُ إيهٍ بعدَها لمُسامرٍ مِنَ النّاسِ إلا قالَ قلبيَ آها[(٣)]

على انه قد أصبح في ظلّ مولانا في وطن، وأنساهُ أُنْسُه من خفَّ ومن قَطَنْ، وشرف بخدمته التي تعلي لمن خدمها منارا، واستفاد من الايام التي أَخَذَتْ منه درهماً، فأخذ عوضه دينارا[(٤)]، وأصبح لي عن كل شغل بها شغل[(٥)] [من المجتث]

فَسَلْ فؤادَكَ عنِّي يخبركَ ما كانَ منّي[(٦)]
وما ذكرتُ حبيباً إلاّ كنتُ الذي أعني

[من الطويل]

وان نظرتْ عيني سواكَ تلثّمت حياءً بأردانِ الدماءِ معَ الدمعِ

ولو أني استطعت، حفظتُ طرفي، ولو وصفت ما عسى ان أصفه من الشوق لكان الأمر فوق وصفي. [من الطويل]

وأني في داري وأهلي كأنني لبُعْدِكَ لا دارٌ لديَّ ولا أهْلُ

وعرف المملوك الاشارة الى هذه السفرة ومتاعبها، والطرق ومصاعبها، والثلوج التي[(٧)] شابت منها مفارق الجبال، والمفاوز التي يتهيّب السرى فيها طيف الخيال،

---

(١) البيت للبحتري ديوانه ٣/١٧٨٨. (٢) في الوافي: فنشكر الله بوقفة.

(٣) رواية البيت في الوافي:

ما قلتُ إيهٍ بعدهُ لمسامر من الناس إلا قالَ دمعيَ آها

ونسبه في شذرات الذهب ٧/٧٧٣ لياقوت المستعصمي.

(٤) في الوافي: اخذت منه درهماً، وأعاضته دينارا.

(٥) في الوافي: عن كل شُغْل، به شغل، وبعدها: واما الأشواق.

(٦) سقط عجز البيت من الاصل، وورد الشطر فيه: فاسأل فؤادي عني، والتصويب عن الوافي.

(٧) في الاصل: الذي.

والمرجو من الله تعالى ان تكون العقبى مأمونة، والسلامة فيها مضمونة، وكأنّ مولانا بالديار وقد دَنَتْ، والراحة وقدْ أذنت[١] / ٢٧٠/ والتهاني وقد أشرقت[٢] بوفودها تلك الرحاب، والرياض وَقَدْ أبْدت من ملحها[٣] ما يكفر به ذنب السحاب، والأنس وقد أمسى وهو مجتمع القوى، والرحلة وقد ألْقت عصاها واستقرت بها النوى.

ومنه قوله في كتاب كتبه عن الملك المنصور[٤] الى ابنه الملك الأشرف[٥] بفتح المرقب:

أعزّ الله نصرة الجناب العالي الولدي الملكي الأشرفي الصلاحي، عضد أمير المؤمنين، ولا زالت جيوشه تفتح من الممالك حصونها، وتبتذل مصونها، وتستنشد من السعادة غصونها، وتطوى لهم الأرض، ولا يبعد عليهم مرمى يعملون إليه العزائم وينصّونها، ويقصُّون أجنحتها بالشكر ويُقْصُونها، تهدي إليه كل ساعة خبر جنودِهِ وما مَلَكَتْ، وخيوله وما سلكتْ، وسيوفه وما فتكت، ومهابته وما أخَذَتْ، ومواهبه وما تركت، وتبدي لعلمه الكريم ان الهمم بها تنال الممالك، وترتقي المسالك، وقلّما ظفر بالمراد وادع، وكلّ أنفٍ لا يأنف المسادة فهو أحق الأعضاء بالمجادع، ولم نزل نمثل في افكارنا الصورة التي أقْدم عليها أهل حصن المرقب في مبدأ الأمر، عند اضطراب النيات، وضعف البينات، وغرور الأيمان الكاذبة، واستمالات الخيالات الجاذبة، ويأخذ في أمرهم الظاهر بالرخصة دون العزيمة، ويعمل على ما لو تمثل لهم صورةً لجرّوا منه ذيل الهزيمة، ونستر ما تسدّده الى نحورهم من سهم، ونريهم أنا ندفع في صدور الحقيقة بالوهم، ونعرض عن مناقشتهم في الحساب، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[٦]، ومتى لم يُؤاخَذْ المسيءُ بفعلِهِ، ويوف مقدار جهله، استدام طمعُهُ، واستقام طلعه، وحركته دواعي الشَرَه والشِّرَة، وتخيّل السلامة في كلّ مرة، فلم نزل نتربّص بهم ريب المنون، ونترك منهم ما كان في جنب ما يكون، إلى أن آن إمكان الفرصة، وجمعنا لهم بين الشرقةِ والغصّة، فانفذنا إليهم المرمىٰ، وأغْددنا مسعانا في طاعة الله غُنما، إذ كانت مساعي الملوك غُرما، ووصلنا / ٢٧١/ السير بالسرى، وطرقناهم كما يطرق الكرى، وأوطأناهم حوافر الخيل،

---

(١) في الوافي: أَنَتْ. (٢) الوافي: شرفت.

(٣) الوافي: من سنة حسناتها.

(٤) الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه، ملك حمص بعد ابيه، وتوفي سنة ٦٤٤هـ (وفيات الاعيان ٢/ ٤٨١).

(٥) الملك الاشرف موسى بن ابراهيم، ملك بعد ابيه، ومات سنة ٦٦٢هـ (وفيات الاعيان ٦/ ٤٨١).

(٦) سورة النمل: ٨٨.

وجئناهم مجيء السيل، وظللنا عليهم ظلل الغم، وغشيهم منا ما غشى فرعون وجنوده من اليمّ، مع كون مكانهم قد جمع لهم منعة البر والبحر، وحلّ منهم بين السَّحْر والنحر، تصدّ الرياح الهوج عنه مخافةً، ويرجع عنه الطرف حسيراً لبعد المسافة، فلم يكن بأسرع من أن فاجأناه، وحللنا بعرصتِهِ، وهاجمناه، وأحاطت به رجال الحرب، وشافهته بخطاب الخطب، وعسكرنا بحمد الله قد ملأ الفجاج، واستعذب الأجاج، وقاسمهم الرماح، فأعطاهم الأسنّة وأبقى الزجاج، يتعرض أبطاله المنايا وإن كانت عرضاً، ويقول كلٌ منهم ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[1]، فلم يزل القتال ينوبهم، وسهام المنون تصيبهم، وسحابها يصوبهم، والمجانيق تذلل سورتهم، وتسكّن فورتهم، وترميهم بنجومها، وتَصْمِهم برجومها، وتقذفهم من كل جانب دحورا، وتعيد كلاً منهم مذموماً مدحورا، وتشير إليهم أصابعها بالتسليم لا بالسلم، وفتنتنا بهم فـ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢﴾[2] الى أن فتحناها ولله الحمد عنوةً، وحللنا مكائدهم فيها عقدةً عقدةً، ونقضناها عروةً عروةً، وسطرنا هذه البشرى، وأعلام النصر قد خَفَقَتْ عليها بنودها، ودلّت لها علوج الكفرة وكنودها، والسيف من دمائهم يقطر، والصليب خزيان ينظر، والأذان مكان الناقوس، والقرّاء موضع القسوس، والكنيسة قد عادت محرابا، والجنّة قد فتحت للمجاهدين فكانت أبوابا، وكنا نودّ ان يكون الولد معنا في هذه المشاهد، وان ينظرها بعين المشاهد، وانا نرجو ان لا يكون ممن يستلين المرقد، وإن لم تحضره هذه الغزوة فيتأهب للأخرى، فكأن قد.

ومنه قوله من كتاب كتبه الى صاحب اليمن بفتح طرابلس:

هذه الخدمة بما تسنى من فتوح طرابلس الشام، وانتقالها بعد الكفر الى الإسلام، هو فتح طال عهد الإسلام /٢٧٢/ بمثله، وقدحٌ فَتّ في عضد الشرك وأهله، لم يجل أمره في خَلَدٍ ولا فكر، ولا رَقَتْ إليه همةٌ عوان من النوائب ولا بِكْر، مرت عليها الأيام والليالي، وعجز عنها من كان في العُصُر الخوالي، ولم تزل الملوك تتحاماها، وإذا خطرتها الظنون في بالٍ تخشى ان تحلّ حماها، ولما أفضى الله إلينا أمر الملك، وأنجى بنا من الهلك، عاهدنا على ان نغزو أعداءه برّاً وبَحْراً، ونوسع من كفر به قتلاً وأسراً، ونورد المشركين موارد الحرب المفضية بهم الى الهرب، ونجليهم عن البلاد جلاء طوائف المشركين عن جزيرة العرب، فجئناهم

---

(١) سورة طه: ٨٤.   (٢) سورة الذاريات: ٤٢.

وزلزلنا أقدامهم، وأزلنا إقدامهم وبرزنا لشقائهم بشقاقهم، وسددنا عليهم أنفاق نفاقهم، وقصدناهم في وقتٍ تجمعت فيه أشتات الشتاء، وطرق خفية المدارج أبيّة المعارج، صيفها شتاء، وصباحها مساء، شائبة المفارق بالثلوج، منهلّة المدامع من عيون الجبال على خدود المروج، مزرّرة الجيوب على أكمام الغيوم التي ما للابسها من فروج، ولم تزل أقران الزحف في غدران الزعف ترميهم بالقوارص، وتأتيهم من البأس بما ترعد منه الفرائص، وتقلب لهم ظهر المجنّ، وتطرق أفئدتهم من الحرب بكل فنّ، وتقرب الأسواء من الأسوار، وتمزج لهم الأدواء في الأدوار، إلى ان وَهَى سلكُها، ودنا هلكها، وسفك منها ما علا ورَخُص ما غلا، وفتحناها وأبحناها، وخلّيناها وقد أخليناها، فأمست كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ، وأصبحت حصيداً كأنْ لم تغن بالأمس، وهذه المدينة لها سمعة في البلاد ومنعة ضربت دون العزم بالاسداد، فتحت في صدر الاسلام في ولاية معاوية بن ابي سفيان، وتنقّلت في أيدي الملوك، وعَظُمَتْ في زمن بني عمار وبنوا بها دار العلم المشهورة في التواريخ، فلما كان في آخر المائة الخامسة، وقدر ما قدّر من ظهور طوائف الفرنج بالشام إذْ استولوا على البلاد، امتنعت هذه المدينة عليهم مدّةً، ثم ملكوها في سنة ثلاث وخمسمائة واستمرت /٢٧٣/ الى الآن، وكان الملوك في ذلك الوقت، ما منهم إلاّ من هو مشغول بنفسه، مكبّ على مجالسِ أنْسِهِ، يصطبح في لهوه ويغتبق، ويجري في مضمار لعبه ويستبق، يرى السلامة غنيمة، وإذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل إلا عن طريق الهزيمة، أموال تُنْهب، وممالك تذهب، ونفوسٌ قد تجاوزت حدّ إسرافها، وبلاد تأتيها الأعداء فتنقصها من أطرافها، إلى أنْ أوْجَدَ الله من أوْجَدَهُ لنصرة دينه، وإذلال الشرك وشياطينه، فأحيا فريضة الجهاد بعد موتها، وردّ ضالّة الملك بعد فَوْتِها، ونرجو بقدرةِ الله أن نُجْلي ديارهم من ناسهم، ونطهّر الأرض من أدْناسهم، ونجدّد للأمّة قوّة سلطانها، ونُعيد كلمة الإيمان إلى أوطانها، والله تعالى يثبت في صحائفهِ أجر السرور بهذه المتجددات، التي يَعْظم بها أجر الحامد الشاكر، ويجعل له أوفى نصيب مَنْ يومن الغزوات التي أنجْدَ فيها بهممه، والإنجاد بالهمم مثل الإنجاد بالعساكر.

ومن شعرِهِ يداعب ابن البصري الكاتب، وكان رديء الخط: [من البسيط]

للمجد خطٌّ حكى في القبحِ صورتَهُ ... ناهيكَ مِنْ خطأٍ بادٍ ومِنْ خَطَلِ
لم يَلْقَهُ أحَدٌ إلا ويـنـشـدُهُ ... «رميتَ يا دهرَ كفَّ المجدِ بالشللِ»

وقوله: [من المجتث]

أُنْبِئْتُ أنَّ كتابا ... بعثْتُهُ مَعْ رسولي

مــلأتَــهُ مــنــكَ طــيــبــا فــضــاعَ قــبــلَ الــوصــولِ

ومنهم:

[٢١]

شهاب الدين، أبو محمد[١] بن كمال الدين أبي العباس، أحمد بن عبد العزيز بن العجمي

المتقدم ذكر أبيه.

قائل كلم حسان، وقائد كرم وإحسان، سليل صدور كرام، ورسيل سحب مغدقة، وبدور تمام، من بيتٍ في حلب الشهباء، رُفع على صهواتها، ولزّت به الخضراء وسائر أخواتها، أعاد الصبح العشاء، وكتب الانشاء، وصرف أوامر الوزارة، وقاسَمَ الوزير حسناته لا أوزاره، وكلامه عذب المساغ، للقلوب به شغل وفراغ، كأنما نُشِر بهِ / ٢٧٤/ جلا أو صاغ، وكان بريئاً من ظلمة التعقيد، كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد.

ومن نثره قوله في توقيع كتبه لقاضٍ اسمه يوسف[٢]:

لأنه المستوجب بهجرته إلينا تحقيق ما نواه، وأنه يوسف الفضل الذي لما قدم لمصر قيل لشيمنا الشريفة أكرمي مثواه، وأَرَتْهُ أحلامه من الأماني ما جعلناه[٣] صدقا، وأنجز الله تعالى لَهُ منها ما قال معه ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[٤] فليعتصم من طاعة الله بأقوى حبل، ويقف عند مراضيه ليجتبيه ويتم نعمته عليه، كما أتمّها على أبويه من قبل، وليتمسك من أسباب التقوى بما يكون له جُنّة، ويحرص على أن يكون الرجل الذي عرف الحقّ فقضى بهِ، وكان المخصوص من القضاة الثلاثة بالجنّة، ويجعل داء الهوى عنه محسوماً، ولحظهُ ولفظهُ بين الخصوم مقسوما، ولا يأل فيما يجب من الاجتهاد إذا اشتبه عليه الأمر، أن يعلم انه إن اجتهد

---

(١) وفي مصادر ترجمته: محمد بن أحمد(كمال الدين) بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحيم، عز الدين (وليس شهاب الدين) ابن العجمي، كاتب خرسل، من اهل حلب، ولي كتابة الانشاء بعد وفاة أبيه، وكان عالماً بالفقه الشافعي، مشاركاً في بعض العلوم ودرّس بعدّة مدارس بالقاهرة، وصنّف ونظم شعراً كثيراً، قال الصفدي انه منحط. توفي سنة ٦٧٣ هـ.

انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢/ ١٠٣، وابن الفرات ٧/ ٣٨، الاعلام ٥/ ٣٢٢.

(٢) التوقيع في فوات الوفيات ٧/ ٦٩ منسوبا لابيه كمال الدين ابن العجمي.

(٣) في الوافي: ما حولناه. (٤) سورة يوسف، ١٠٠.

وأخطا فَلَهُ أجْر، وان أصابَ فله أجران، وصوب الصواب واضح لمن استشفّ بنور الله برهانه، وليتوكل على الله في قصده ويثق، فإن الله سيهدي قلبه ويثبت لسانه، وليجعل الاعتصام بحبل الله تعالى في كل ما تراوِد عليه النفوس من دواعي الهوى معاذا، ويتبصّر من برهان ربه ما يتلو عليه عند كل داعية ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾[١].

ومنه قوله[٢]:

وينهى أنه وردت عليه مشرِّفةٌ شريفة، وتحفة بمنّتها على الأعناق ثقيلة، وبمواقعها من القلوب خفيفة، فقبّلها المملوك ولَثَمها، ونثر عليها قُبَلَهُ ونظمها، نقل معناها إلى قلبه فشفّ، ونَقَدَ ذهبها الخالص وأعاذَهُ من الصرف، وانتهى الى ما تضمّنه من صدقات مولى ملك رقّه، وآتاه من الفضل فوق ما استحقه، وأنزل له الكواكب فتناولها بلا مشقّة، وأوى الى حِمى حرمه، وتغطّى عن عين الخطب[٣] / ٢٧٥/ بستور نعمه، ورأى فيه الأزاهر وشمَّ شذاها، والجواهر وضمَّ الى العقود حلاها، وشكر هذه المنن ومَن والاها، وسبح لما وهب من يحبّه[٤] هذه البدائع وآتاها، وعمل بما أمره به مولاه في أمر تلك الورقة، وسدّد سهمها الى الفرض وفوّقه، وتحجّب لها فأخلى الطريق وطرّقه، وعرضها في مجلس الوزارة الشريفة ونشر إستبرقه، وبرز المرسوم[٥] بالكشف، ويرجو أن يتكمّل بالتوقيع، ويكمل[٦] بالتأصيل والتفريع، ثم يجهزه المملوك الى خدمتِهِ[٧] الكريمة كما أمر، وما أخر الجواب هذه المدّة، إلاّ ليجهّزه معه فتعذّر وما قدر[٨].

ومنه قولُهُ:

أولى مَنْ عاودته عوائد فضلنا بمحابها، وتلقته صدور عوارفنا برحابها، ونقلت مكارمنا أطماعه من لامِع سرابها الى نافع بشرابها، من هاجر ولاءه الى حرم دولتنا القاهرة، وكان من أنصارها، وبادر في هيجاء اعدائها فأغرقهم وأحْرقهم بتيارها وبنارها، وتشوقت المسامع الى ما تشتهيه فكان ذكره الجميل من أعظم اسباب مسارها، والفارع ذروة هذه القارع مروةُ هذهِ الصَّفاة، المجلس الفلاني؛ لأنه جامع

---

(١) سورة يوسف: ٢٩.

(٢) في الوافي بالوفيات ٧/ ٦٩ انها لأبيه كمال الدين، احمد بن عبد العزيز بن العجمي.

(٣) في الوافي: وتغطى عن الخطب.

(٤) في الوافي: قريحته.

(٥) بعده في الوافي: الشريف.

(٦) في الوافي: يتوصل.

(٧) في الوافي: الخدمة.

(٨) في الوافي: الا يجهزه معه فيعذر «وما أراد الله ذلك وما قدر» وما بعده لم يرد في الوافي.

محاسنها بمفردِهِ، والحامي لسرحها ببطش يدِهِ، ورامي غرضها بصفاة مقصدِهِ، حمىٰ الأطراف وحاطها، ورفع بهمةٍ فعلّق بالثريا مناطها، وكان واحد أولياء الدولة بأساً لا يكلّ شباه، وعزما لا يوقّر كاهل الريح يقتاد جنائبه، ويركب صباه، وفضلاً جاملا جامعاً فاق فيه كلّ شبيه إلا أباه.

ومنه قوله:

ولا زال بابه الكريم للأمال ملاذا، وجنابُهُ المحروس من حوادث الايام معاذا، وثوابه وعقابه لوليه وعدوّه. هذا لهذا وهذا لهذا، وينهي أن مولانا ولله الحمد قد جَبَلَهُ الله على فعل الخير، وجعله من أهْلِهِ، وحبَّب إليه الإحسان ومكنه من فعله، خصوصاً من ينتمي الى خدمته الشريفة، ويلجأ الى ظلّه، ومملوكه فلان /٢٧٦/ ممن يعدّ نفسه من الأرقاء، ويرتمي الى موالاته التي هي درجات السعادة والارتقاء، وما تهجم المملوك بهذ الخدمة إلا لما كان عند نفسه المثابة، ولا ثقل على خاطره الشريف إلا لوقوع ذلك من مكارم مولانا بموقع الاصابة، وقد جعل المملوك السؤال مفتتح عبوديته لمولانا ومولاته، بحسنةٍ قد أهداها الى صحائف حسناته.

ومنهم:

[٢٢]

أحمد بن أبي الفتح بن محمود الشيباني[١]، كمال الدين، ابو العباس

بحرٌ يقذف الدر، وأفق يطلع النجوم الغر، وكان للدنيا جمالاً، وللدين كمالاً، جعل للبيان سحراً، وللطيب شحراً، وقدّمته الدولة على الرؤساء، وعظّمته على الخلطاء والجلساء، فكانت الملوك تنزله منزلة لسانها ويمينها، وتُحِلُّه محلّةَ ترجمانها وأمينها، وظلّت تصرّف به البأس والندى، وتتصرّف في الأولياء والعدا، وآونة تُحزُّ بِقُضُبِهِ الغلاصم، وتُجَزُّ بكتبِهِ الأيدي والمعاصم، وطالما فتحت به المعاقل الأشِبة، وساقَتْ سرجها السوام في رياض النجوم المعشبة، ثم قُفلت الممالك بأقاليدِهِ،

---

(١) كذا في الاصل، وهو احمد بن أبي الفتح محمود، كمال الدين، أبو العباس الشيباني، الدمشقي، المعروف بابن العطار، من الشعراء الكتاب المترسلين العلماء، حدث بصحيح البخاري بالكرك، ولد سنة ٦٢٦هـ، ومات سنة ٧٠٢هـ.

انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٨/ ١٦٧، وأعيان العصر ١/ ٣٨٥، والنجوم الزاهرة ٨/ ٢٠٣، وعقد الحجان ٤/ ٢٩٠.

وقفلَتْ المسالك بتقاليدِهِ، واصطفتْهُ الرئاسة لقربها، واصطفت له السياسةُ موارد شربها، وكتب كتب السير أكثر عمره، وصرف ديوان الإنشاء مدةً بأمرِهِ، وكان بدمشق عيناً لأعيانها، وزيناً وحِليةً لبيانها، راقياً للإيوان، ورائساً للديوان، وكان عمّي ثم أبي لا يعتمد كل منهما إلاّ على أمانتِهِ، ولا يرنح فكره إلاّ بإيضاحِهِ وإبانته، وخطُّهُ أبهج من الروض الأريض، وأزين من النقش المخضرّ على معاصم الغواني البيض، وله من كثرة الاطلاع ما حقّق به المآرب، وصدق انه الشمس ضوؤها يغشى المشارق والمغارب، ولم يكن اكثر منه اتضاعاً في ارتفاع، وتنازلاً وهو في اليفاع، لا يَجدُ في نفسِهِ حرجاً لأحَد، ولا مضضاً مِمّن انكر حقّه وجَحَد، لا يضرّه أي مكان حلّه، ولا يضرّه لبس عباءةٍ ام حُلّه، وكان يتعرف الى الله عساه ولعلّه، ويتعرّض / ٢٧٧/ لقضاء حوائج الناس لله لا لِعلّة، هذا بلا تلكف يشق عليه في عرضه مطلوب، أو يشق به لعرضه أرديةٌ أو جيوب، مع ملازمته تلاوة يؤنس بها جانب الجامع المعمور، ومرآة يشرق بها وجْه النهار ويغمر قلب الديجور، وعملٍ زاكٍ صَحِبَ به الأحياء، وجاوَرَ سكان القبور.

ومن نثره قوله:

طالما حَلَّ الرتب العالية بجليل مقدارِهِ، وحلّى المناصب العالية بِحُلى أنواره، وما شبَّ على معاطف مناقبه ذوائب فخاره، وهامَتْ الأفكار في أودية محامده وما بَلَغَتْ وصف محلّهِ ومقدارِهِ، وافتخر قلم الفتيا براحتِهِ، فتباعد السيف عن قربهِ خوفاً من مهابتهِ، وسدّد الى الحق سهام أحكامه، فأصابت الأغراض، وعالج الأفهام بأفهام كلامه، فشفى صحيحُهُ الأمراض، وكان فلان ثمرة هذه الدوحة النضرة، ونشر الروضة الخضرة، فرسم بالأمر العالي ان يفوض إليه تدريس المدرسة الأمينية[1] بدمشق، فليكتب بها دروس فضله التي لا تُدرس الأيام آثارها، ويغرس في قلوب طلبتها حبّ فوائدِهِ، ليجتني ساعة غرسها ثمارها، لتصبح هذه المدرسة كنيفاً ملىء علماً، وقليباً حُشيَ فهماً، وفلكاً تبدي شمساً وتخفي نجماً، وكنانةً يخرج من طلبتها في كل حين سهماً.

قلت: هذا من توقيع كتبه في الأيام الكاملية حين خرج سنقر الأشقر على الملك المنصور لقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان، وقد أخذت الأمينية له من نجم الدين بن سني الدولة[2].

---

(١) المدرسة الأمينية: أول مدرسة بنيت للشافعية بدمشق (الدارس ١/ ١٧٧).

(٢) نجم الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن يحيى، قاضي القضاة، الملقب بسني الدولة، ولي قضاء القضاة بعد هزيمة التتار في عين جالوت، ثم عزل وولي قضاء دمشق، وتدريس الامينية، توفي سنة ٦٨٠هـ (الدارس ١/ ١٩٠).

عدنا إلى ابن العطار.

ومن إنشائه رسالته التي سمّاها «رصف الفريد في وصف البريد»:

أما بعد حمد الله البرّ، المسيّر في البحر والبرّ، والصلاة على من علا البّراق، واخترق السبع الطباق، وعلى آله وصحبه الذين سبقونا بالايمان وعلى التابعين لهم بإحسان، فإنه لما كانت النفوس مولعةً /٢٧٨/ بحبّ العاجل متطلعةً الى الاطلاع على المستقبل من الأمور والآجل، لم تزل أنفس الخلفاء والملوك، وأنفس الأكابر من الأمراء والعظماء به كَلِفَةً صبّة، والى استعلام أحوال ممالكها وعساكرها ورعاياها مُنْصَبّة، وعلم مثل ذلك من خلق الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، فبردهم في الآفاق ضاربة، وطلائعهم تارةً بالمشارق طالعة، وآونة في المغارب غاربة، كرّة في بحار السراب تعوم، وأخرى بالآفاق كأنها نجوم: [من الطويل]

تروحُ فتغدو في الصباحِ طريدةً ... وتغدو فتبدو في الظلامِ خيالا

تستطلع لهم خبراً، وتطوي وتنشر بساط الأرض وِرداً وصَدَراً، وتعوض أسماعهم بما تنقله إليهم أثراً، عما فات أعينهم مشاهدةً ونظراً: [من الكامل]

فلهمْ وإنْ غَدَتِ البلادُ بعيدة ... طَرْفٌ بأطرافِ البلادِ مُوَكَّلُ[1]

من كل فتًى قد هجر الكرى، وأشْبَه البدر فلا يملُّ من طول السرى: [من البسيط]

وخلّفَ الريحَ حسرَى وهيَ جاهدةٌ ... ومرّ يختطفُ الأبصارَ والنظرا

قد أعدّ للسفر في ليلِهِ ونهارِهِ من الخيل كلّ أشقر صباح، وأشهب مساء، وأصفر أصيل، وادهم ليل: [من مخلع البسيط]

وألجِمَ الصبحَ بالثُّريا ... واسرجَ البرقَ بالهلال

وسابق الظلال فهي تَزْوَرُّ عنه ذات اليمين وذات الشمال، فلا تزال من ورائه مشرقاً قبل الزوال، ومغرباً بعد الزوال، موكل بفضاء الأرض يذرعه متوقع ان كل بلد يقطعه: [من الكامل]

وكأنما اتخذَ البروقَ أعِنّةً ... وكأنما اتخذَ الرياحَ جناحا

فمما أنبأ الكتاب العزيز من تطلّع المرسلين والأنبياء الى سرعة الاطلاع من الأمور والانباء ما ورد في قصة سليمان عليه السلام من طلبه سرعة إتيان عرش بلقيس

---

(١) البيت للبحتري (ديوانه ٣/ ١٧٥٢).

ووصوله قبل ارتداد طرفه إليه، وقد نُقل عن نوح عليه السلام استبطاؤه الغراب وإردافه /٢٧٩/ له بالحمام، وهذا وقد ضرب المثل ببكور الغراب وخروجه في الظلام، ولولا اعتقاد موسى الكليم عليه السلام انه للباري جل جلاله أرضى لما قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾[1] وفي سيره بأهله ومسراه، ناداه ربّه بالوادي المقدس: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾[2] وما انعقد على رهن السباق، الاجماع إلاّ لما فيه من فضيلة الإسراع، ولم يكن الشيطان الرجيم بمطرود لو جرى على سجيّته في العجلة، وبادر في السجود، لا سيما وقد خلق الإنسان من عجل، وما يعلو المدرك المسرع من أنوار الجذل، وما يغشى المبطىء من فتور الخجل، ومن كمال فضيلتي الحج والعمرة ما هو واجب أو مُسْتحبّ من الرمل، وشتان ما بين المبطئة والسريعة، ويا بُعْد ما بين الساقة والطليعة: [من البسيط]

وربـمـا فـاتَ قـومٌ جُـلَّ أمـرِهـمُ   مِنَ التأني وكانَ الحزمُ لو عَجِلوا

وكثيرا ما قيل في القوم وعداك ذم وتخطّاك لَوْمُ وتحرّك تَعِش، وسِرْ في البلاد تنتعش. وقال الله سبحانه وتعالى لخلقه: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[3] هذا وأشرف الدراري الكواكب السواري، وما الجواري في البحر كالسواري، وهل أجِنَ إلا الماء الواقف؟ وهل طاب إلاّ الماء الجاري؟: [من الوافر]

وإنَّ لـزومَ عـقـدِ الـبـيـتِ مـوتٌ   وان الـسـيـرَ فـي الأرضِ الـنـشـورُ

والقعود مع العيال قبيح، ومِن يُمْن النجاح سرعة التسريح: [من مجزوء الكامل]

والـمـهـد اسكـن لـلـصـبيّ بـحـيـث جـاء بـه ومـرّا

وبفضيلة السير في البلاد والانتقال بلغ البدر درجة الكمال، وأمنت الشمس المنيرة من الملال: [من الكامل]

والـصـقـر لـيـس بـصـائـد فـي وكـنـه   والـسـيـف لـيـس بـضـاربٍ فـي جـفـنِـهِ

ولولا ضرب إخوة يوسف في الأرض، لما نجا أبوهم من حزنِهِ، وقد جَعَل الله رحِلتي الشتاء والصيف للإيلاف، وركني الحج والعمرة للسعْي والطواف، وفي استخلاف من لا يستطيع /٢٨٠/ التحيز للضرورة خلاف. [من البسيط]

والـمـرءُ مـا لـمْ يُـفِـدْ نـفـعـاً إقـامـتُـهُ   غيمٌ حمى الشمس لم يمطر ولم يسرِ

وسعة الخطوة دليل الإقبال، وسبيل الى بلوغ الآمال، ولا ريب ان العز في النُّقل

---

(١) سورة طه: ٨٤.
(٢) سورة القصص: ٣٠.
(٣) سورة الملك: ١٥.

وفي بلادٍ من اختها بدل. [من البسيط]

لو كانَ في شرفِ المثوى بلوغُ منًى ... لم تبرحِ الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ

والحركة ولُود، والسكون عاقر، وقد ورد أن الله رحيم بالمسافر، وأنه للخضر عليه السلام خليفة، وناهيك شرفاً بهذه الرتبة المنيفة، ولا إنافة على رتبة الخلافة، والسيف إن قرَّ في الغمد صدي، والليث لولا الوثوب ردي، ولو يستوي بالقيام القعود لما ذكر الله فضل الجهاد، ولولا انتقال الدرر عن البحور لما عوضت من الحور بالنحور، وكثيراً ما ورد في الكتاب العزيز النهي عن التباطؤ والحث على الإسراع: [من الوافر]

وليستْ فرحةُ الإيابِ إلا ... لموقوفٍ على ترحِ الوداع

[من الخفيف]

إنَّ فيهِ اعتناقةً لوداعٍ ... وانتظارُ اعتناقةٍ لقدوم

وهذا وكم بين رتبة الاتباع ورتبة الاختراع والابتداع وبين جود الرويّة وتوقّد الابتداء، وكلالة الرقاد وحِدّة الانتباه، وشتان ما بين عقلة المشيب ونشطة الشباب، وحسبك بأنك ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[1]، وقد علمت فائدة الإسراع بمن لا علم عنده ومن عنده علم من الكتاب، وبحركة النبض يستدلّ على حال القلب، ولولا إدامة الترويح عليه لغمّ من الكرب، ولا يقاس موقف المأموم بمقام الإمام، وإذا كانت الشجاعةُ في الإقدام كذلك السلامة في الإنهزام، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الملائكة دائمة الحركات، وأرسل الرياح منشِرات وللسحاب مسيرات، وبأرزاق العباد جاريات، وأقسم سبحانه وتعالى بالعاديات المرسلات، وللإسراع سخّر لمحب الخير /٢٨١/ عليه السلام الريح والطير، هذه غدوّها شهر ورواحها شهر، وهذه تستطلع له انباء الملوك فتستنزلهم على حلك الذلّ والقهر، ولذلك درجت الملوك الحمام ورتبت البريد فبلغَتْ بهما في الوقت القريب ما زيد من غاية المرام البعيد، وقرّبت لهم مستبعدات المطالب وأطلعتهم بسرعة الاعلام على نهايات العواقب، فبلغت هذه بسرعة إيصال البطائِق ما لم يكن أحدٌ من البشر بطائق، وارتفعت محلّقةً في الهواء، وحَلّقتْ مسخّرةً في جوّ السماء، وما خَفَقَتْ بأجنحتها إلا وَقَدْ وافت بالبشرى مخلقةً، وما اخفقت وما خضّبت كفّها وتطوّقت إلاّ للسرور وصفقت، وما حفظت العهود من الأسرار وما ردّها الحنين الى الادكار، مَا قطعت

(١) سورة النمل: ٨٨.

مسافة ايام في ساعةٍ من نهار، وما وما وما، ولا عرجت طائرة نحو السماء إلا وقد ذكرت عهوداً بالحمى، إلا ان بطائقها ربما نقلت من جناح الى جناح، وحصل بنقلها أعظم خطر وأوفر جناح، وكشف خدرها، وأذيع سرّها، فغدت مذاعة السرائر وكانت محجوبة عن مقلة كلّ ناظر، وذاك حافظ لما استودع من الأمانة المؤداة، أمينٌ على ما حَمَلَ من النفقات والمشافهات، الى الأجانب وأهل المودات، حريصٌ على إيصال كتبها، صائن لها في حربها صيانة الصوارم في قُربها، والعيون بهدبها، يوصلها بطيها مختومة بخاتم ربّها، فهو السهم الخارج عن كبد القوس، لا يزيغ عن الغرض، وتلك ربما جرحها الجوارح، وعرض لها بالبنادق من اعترض، وصدّها عن بلوغ المرام غموم الغمام، وعمومُ الظلام وقطع طريقها، وحتم تعويقها، وقضى وحكم عليها بالتأخير؛ لأنها فيها لا تطير، وذلك في الليل والنهار، والصحو والغيم يسري ويسير، ولذلك لا تسرح الحمام في المهامّ إلا ويرسل تحتها البريد مورخ بتاريخها، فهو لها وعليها سائق وشهيد / ٢٨٢/ وهي وإن شهد لها المترنّم المنتدم بالفضل والتقدم والفضل للمتقدم، فربما تقدّمها البريد وسبق، وكثيراً ما توافيا فكأنما كانا على ميعاد، فجاءا معاً في طلق، كفرسي رهان، وشريكي عنان، وافتن فيه الناظرون، وهو يحضر، فاصبع يومىء اليه بها وعين تنظر، هذا وكم شابت لقعقعة لجامِهِ النواصي، وزينت لمقدمِهِ البلاد والصياصي، وسرى وجفن البرق خوفاً وطمعاً يغامِزُ ويختلج، فذلك تارةً ربما ترد بما النفوس به تبتهج، وتارةً بما الصدور به تنحرج، وتشاهد بما ينزل من السماء وما في الأرض يَلِجْ، وسرى وعيون القطر دامعة، وسيوف البرق لامعة، وسيول العيون للطرف قاطعة، ونبالُ الوبْلِ في أكباد الأرض صادِعة، ووافى المنازل والخيول بها طالعة، وبعد أن أصبحت طائرة أمست تحته واقعة، وكم حال دون مرامِهِ من أوْجال أوحَال، وعلق لثق، ووهق زلق، يمنعه في سوقه من استرسال، بأوثق شبحةٍ وشكال، وعام في أملاق الى الذقن لا إلى الوسط، وتقطّر فوافى ويده مغلولة الى عنقه، وكانت مبسوطة كل البسط، أو بات بعد أن كان راكباً نازلا، وبعد أن كان محمولا لسرجه وجرابه على كتفه حاملا، وسرى وطرفه بالسماء موكّل، ونزل بمنزل ليس له بمنزل، وليس به ما يُشرب وليس به ما يؤكل: [من الرجز]

بمهمهٍ فيهِ السرابُ يُلْمحُ
ولـيـلـهُ بـجـوّه مُـطَّـرَحُ
يدأبُ فيهِ القومُ حتى يَظْلَحوا
ثمَّ يظلون كما لمْ يبرحوا

كـأنـمـا أمـسـوا بـحـيـث أصـبـحـوا

[من الكامل]

يـمـشـي ذَمِـيـلاً لـلـظـلام وتـارةً رِدْفاً عـلـى كَفَلِ الـصـباحِ الأشـهـبِ

ويعدو كالجبال تمشي إلى ورا، يغدو فلا يسأل عن السليك ولا عن الشنفرى، أو جاءت به عنس من الشام تلقه، بعد ان كان يطوي الأرض بسوقه، ويخترق، وقد فلا الفلا وقيل له: هكذا هكذا وإلا فلا. [من البسيط]

/٢٨٣/ يوماً بحزوى ويوما بالعقيق ويو ماً بـالـعـذيـبِ ويـومـاً قـصـر تـيـمـاءِ

وتـارةً يـنـتـحـي نـجـداً وآونـةً شِعْبَ الغُوير وأخرى بـالـخـلـيـصـاءِ

فكم قطع أرضاً وركب ظهراً، ووجد رفقاً لم يكن كالمنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وقلّما جهز إلاّ في مصلحة من مصالح المسلمين العامة الشاملة للأمة المحمدية من الخاصة والعامة، ما آب من سَفَرٍ إلاّ الى سفر، وما سفر في مهم الى بلدٍ فقيل انه سفر ولكنه ظفر: [الكامل]

كـأنَّ بـهِ ضـعـفـاً عـلـى كـلّ جـانـبٍ من الأرض أو شـوقـاً الـى كـلّ جـانـبِ

وَرَدَ مبشّراً، وللمسار في الوجود مسيراً، فأزال العنا، وأنالَ المنى، وأفاد الغنى، وانثالت عليه الجوائز والتشاريف من ههنا وههنا: [من البسيط]

مـا ذرّتِ الـشـمـسُ إلا جـاء يـقـدمُـهـا وفـي الـمـغـاربِ مـنـهُ قـبـلَـهـا أَثَـرُ

وكاد لشدّة إحضارِهِ يسبق أدنى جوادِهِ في مضمارِهِ، فتراه لسرعة سيرِهِ لا يرتدُّ طرفُهُ عن أَمَدٍ حتى يتعدّاه الى غيرِهِ، فهو أبداً يسبق طرفه الى مايرمق، وما يستوي طرفه على أمدٍ إلاّ يتجاوزه ويسبق، فيكاد يأخذ مغرباً من مشرق، فيبلغ غاية الأقطار، ويخترق من الآفاق حجب الأستار، حتى يقال: انه ما سار ولكنه طار، وفي الأرض طار: [من السريع]

قـالَ لـهُ الـبـرقُ وقـالـت لـهُ الـر يـحُ جـمـيـعـاً وهُـمـا مـا هُـمـا

أأنـتَ تـجـري مـعـنـا قـال: إن نـشـطـتُ أضـحـكـتُـكُـمـا مـنـكُـمـا

انـا ارتـدادُ الـطـرفِ قـدفـتُّـهُ الـى الـمَـدى سَـبْـقـاً فـمـنْ أنـتـمـا

ولم يزل البريد مرتبا فيما تقدّم وسلف من الأيام، ومعاوية أوّل من أحدثه في الاسلام وأحكم أمره الذي ملك البلاد شرقاً وغرباً، ونظر الى السحابة فقال: امطري أنّى شئتِ فخراجك إليّ يجبى، وعلم انه من اعظم مهمات (الملوك) العظام، فقال:

ربما فسد بحبسه ساعة تدبير عام [من الطويل]

فدانتْ لهُ الدنيا فاصبحَ جالساً وأيّامُهُ فيما يريدُ قيامُ

/ ٢٨٤/ ولاسيما في هذا العصر، وعدوّ الدين قد أمِر أمره، واستشرى شرّه، وامتدّت أطماعه في البلاد، وسرى فيها منه الفساد، مسرى السمّ في الأجساد وهو أولى الامور التي لا يستأذن عليه، وقد وافى مسرعاً، والذي يقال له: لعا إذا قيل لسواه لا لعا. [من البسيط]

وجاءَ منهُ بقرطاسٍ يخبُّ بهِ فأوحشَ القلبُ من قرطاسِهِ فَزَعا

محمود الطرائق، مقبول الخلائق عند الخلائق، خفيف الحركات، مسارع الى الحركات، قصيف يَرْجَح به طلّه، خفيف على ظهر المطيّة حمله، وإذا كان الناس أرواحاً وأجساماً، فهو روح كلّه، عارف بالآداب والسلوك للمثول بين يدي الأمراء والسلاطين والملوك، عذب العبارة، خفيّ الاشارة، منجح السفارة، كتوم الأسرار موفق الايراد والاصدار، صادق اللهجة، ثابت العدالة، مليٌّ باداء السلام وإبلاغ الرسالة، ليست معرفته على آداب السفر مقصورة، جامع بين ادب النفس وأدب الدرس، حسن الاسم، وضيء الرسم، سوي الوسم، سريع الى الداعي، مبادر الى امتثال الأوامر والدواعي، ما يفوه بالجواب إلاّ ورجلُهُ في الركاب، فهم، متى رسم لهم بالسفر يسارعون، وإلى الاجابة يهرعون، وعلى الخدمة أنفسهم يعرضون، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[1]، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾[2] [من البسيط]

لا يستقرّ بهم ربْعٌ ولا سكنٌ كأنهم فوق متن الريح نزّال

ما ندب منهم ندب لهم إلا وبادر مطيعاً، ما غاب إلاّ ثاب سريعاً، فما ماثَلَهُ في السير ذكوان، ولا ضاهاه حذيفة بن بدر وقد ساق هجان النعمان: [من الكامل]

ألفَ النوى حتى كأن رحيله للبينِ رحلتُهُ الى الأوطانِ

/ ٢٨٥/ والله سبحانه وتعالى يطوي البعيد لمن يشاء من خلقه، ويسهل العسير وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، إلاّ ان حضور النيات التي بها انعقاد الامور الدينيات لا يحصل الا بالثبات والأناة، والطمأنينةُ في الركوع والسجود كمال الفرض، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[3] وكما ورد في التنزيل النهي عن التباطؤ ورد النهي عن التسرّع وسببه، فقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿لَا

---

(١) سورة المعارج: ٤٣.

(٢) سورة الواقعة: ١٠ ـ ١١.

(٣) سورة الرعد: ١٧.

تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾[١]، ونهى عن العجلة تارةً في الخير، وتارةً في الشر قولاً جزماً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾[٢] ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٣] ولا ريـــــب ان الثبات من الله تعالى والعجلة من الشيطان الرجيم، وان الله عزوجل امتنّ بالتثبيت على النبي الكريم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[٤] ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾[٥] ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[٦] وإن ورد عن سليمان عليه السلام طلب الاسراع في الكتاب المبين فكذلك ورد عنه التثبيت في قوله تعالى: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٧] وبماذا يصف الواصف أو ينعت الناعت فرق ما بين العجلة والتأنّي، ويكون المرء من أمره على بصيرة ويشاهد في مرآة فكره صورة الخيرة، ويأمَنْ من تردّد الحيرة، وقد قيل: أصاب متأنّ أو كاد، وأخطأ مستعجل أو كاد، وحصل على أنكاد وأيّ أنكاد، ولولا التأنّي قبل ارسال السهم لم تحصل به النكاية، ولولا التثبّت في إطلاقه ما وصل إلى الغَرَض ولا بلغ الغاية، فالعجلة والندامة فَرَسا رِهان وشريكا عنان، وإن حمد المجلي يوم الرهان، وما زالت ثمرة العجلة الندامة، وربما كانت الهلكة في العجلة وفي التؤدةِ /٢٨٦/ السلامة، وفي الثبات والاناة ما لايحصر من أمر العواقب في سائر الحالات، وأسرع السحب في الجهام، وما الاقدام في كلّ أمرٍ من الشجاعة، ولا الثبات من الإحجام: [من البسيط]

والحربُ تُرهبُ لكن الأناةَ لها عندَ التأيدِ اضعافٌ مِنَ الرَّهَبِ
لا يأمن الدهرَ بأسَ الجمرِ لامِسُهُ وقد يروحُ سليماً لامِسُ الذَهَبِ

والتسرّع خرق، والأناة حلم ووقار، والتثبت دليل القدرة من الله عز وجل مثبت القلوب والأبصار، وفرق سبحانه وتعالى بين الشجرة الثابتة والشجرة التي ما لها من قرار، وما كان الثبات في شيء إلاّ زانه، ولا التسرع في أمرٍ إلا شانه، ومع العجل الزلل، ومع الزلل الخجل ومع الخجل الوجل، ومع الوجل الخَلَلُ الجلَل، وللثبات وثَبات وأيّ وثبات، وقليلاً ما حصل النصر والظفر إلا بالكمين والبيات، وقد حكم الصادر والوارد والمداني والشارد، وأقرّ المعترف والجاحد، واعترف الصديق والعدو

---

(١) سورة القيامة: ١٦.
(٢) سورة مريم: ٨٤.
(٣) سورة طه: ١١٤.
(٤) سورة النساء: ١٢٢.
(٥) سورة الاسراء: ٧٤.
(٦) سورة الفرقان: ٣٢.
(٧) سورة النمل: ٢٧.

والحاسد، وسار في الأقطار والآفاق، وبلغ مصر والشام والروم والعراق. [من الطويل]

وسار به من لا يسير مُشَمِّراً وغنّى به من لا يُغنّي مُغَرِّدا[١]

ما حصل للإسلام والمسلمين من الانتفاع، ولعدو الدنيا والدين من الوهن والضعف والاندفاع، بثبات المقر العالي الجمالي، كافل الممالك الشريفة الشامية أعز الله انصاره ومقامه على المرج مع قوّة الهرج وكثرة المرج، وانه قام بذلك للدين نصيراً وللملك ظهيرا، وأخذ هو ومن أقام بخدمته من العساكر الشامية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢] [من الوافر]

سديدُ الرأي لا فوتُ التأنّي يُلِمُّ بهِ ولا زللُ العَجُولِ

يُعيبُ مضاءَهُ وقفاتُ حِلْمٍ كعيْبِ المشرفيّةِ بالفُلُولِ

وقد كان العدوّ المخذول يظن انه يركن الى الإحجام، ويتربص الدوائر والعرصات من سهام الأيام، فاخلف الله ظنّه، وعجّل هلاكه وضعفه ووهنه، وتحقّق أنّه / ٢٨٧/ الطود الذي لا يلتقى، والسور الذي أحاط بالشام فما ان يُتَسوّر ولا يرتقى، فأجفل إجفال الظليم، وطلب النجاة لنفسه ولم يلْوِ على مالٍ ولا حريم، وحفظ الله تعالى بثباتِهِ الاسلام، ورفّه خواطر أهل الديار المصرية، وصان أهل الشام، وعادت العساكر المصرية الى بلادها، عود الصوارم الى أغمادها، والأجفان الى رقادها، والجنوب الى مهادها، وافتدى بالسلطان الشهيد قدس الله روحه كما مضى وسبق، وجاءت النصرة بحمد الله تعالى كما أراد لا كما اتفق، وأصبح وأمسى يثني عليه عدوّه فيقول حاسده صدق، وبدّل الله المسلمين بالأمن بعد الأوجال، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[٣]، وكان من خبر كذا وكذا.

قلْتُ: ولشهاب الدين محمود[٤] في معنى ذلك:

أما بعد حمد الله ميسّر أسباب النجاح، وجاعل قوائم العاديات في مصالح الإسلام كقوادم ذات الجناح، فهذه تطوى لها الأرض كما تطوى لذي الصلاح،

---

(١) البيت للمتنبي من قصيدته المشهورة:

لكل امرىء من دهرِهِ ما تعوّدا وعادةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العدا

(ديوانه صـ ٣٧٠).

(٢) سورة الانفال: ٤٥. (٣) سورة الاحزاب: ٢٥.

(٤) ابو الثناء شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد، مضى ذكره وستأتي ترجمته.

وتلك يتسع لها مجال الفضاء كما يتسع لمرسلات الرياح، وربما تساويا في سرعة القدوم، وامتازت الخيل في سرى الليل بمشابهة الفلك ومشاركة النجوم، إلاّ ان الخيل يعينها قوّة راكبها وثباته، ويغريها بالسبق حدّة عزم راكضها وثباته، ويطوى لها شقة الأرض حُسن صبرهِ على مواصلة السرى، ويقرب لها النازح طول هجره لطيف الكرى، حتى ان بعض راكبي بريدها يكاد يعثر طوق ليله بذيل صاحبه، ويلتبس على ناظره ومنتظره، غدّوه في المهمات برواحه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي كان الرعب يتقدمه مسيرة شهر الى العدا، والوحي يأتيه بخبر من راح لحربه أو اغتدى، فإنه البريد جناح الممالك وراية المهمات الاسلامية فيما قرب أو نأى من المسالك، وبه تنفذ المهمات في أوقاتها، وتتوافق الحركات /٢٨٨/ فيما يتعين من ميقاتها، وتعرف أحوال الثغور على اتساع أطرافها واختلاف جهاتها؛ كان المبرز في ذلك من عرف منه السبق والف، وسلم له التقدّم في السرعة من نظرائه فما ارتيبَ في ترجيحه ولا اختلف، فكأنّه شهاب يتوقد في سمائه أو برق تألّق في أذيال الغمام لسرعة وميضه وانطوائه، ولما كان فلان ممن جلّى في هذه الحلبة، وبرزَ في ارتقاء هذه الرتبة، فبلغ إليها غايةً لا يشقّ غبارها المثار، ونشر منها راية لا يتعلق منها الرياح الخوافق بسوى مشاهدة الآثار، فسار على البريد في قوة الهواجر المثبطة وشدّتها، وقصر الليالي المعينة على السوق وتقارب مدتها، من دمشق المحروسة الى الديار المصرية في يومين ونصف، فكان له بذلك مزيّة على أقرانه، ودرجة لا يرتقي إليها إلاّ من جاراه الى مثلها في ميدانه، وسأل من علم ذلك ان يكتب له خطّه بما علمه وان يشهد له بما تحقَّقَه من هذه الحركة التي رفعت بين الأكفاء علمه.

عدنا الى ابن العطار، ومنه رسالته في البندق أوّلها:

أما بعد حمد الله على ما أسبغ من نعمائه، ووالى من آلائه، وأباح الإنسان من شرائه، وفسح له فيما يتدرب به يوم هيجائه، ويعده من قوّةٍ لدفع الصائل عليه من أعدائه، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه وخلفائه وحلفائه، ما مدّ الكف الخصيب وتر البرق لقوس الغمام، وحلّق طائر الفجر نحو الغرب من وكر الظلام، فإن الصيد مما اتفقت الشرائع المختلفة على تحليله، ولهجت النفوس الأبية بتقديمه على سائر الملاذ الرياضية وتفضيله، مع انه الراحة التي لا تنال الا بتجشم التعب، والمسرّة التي لا تدرك الا بعد النّصَب واللغب، وألذّه من القلوب موقعاً، وأمكنه من النفوس موضعاً، ما أدركه المرء بنفسه واكتسابه، لا بمشاركة بزاته وفهوده وكلابه، ولذلك أجهد نفوسهم فيه كثير من الملوك والخلفاء، ولم يرضوا

بالصيد، / ٢٨٩/ من وجه الأرض فعمدوا الى الصيد من كبد السماء، ولم يجدوا ذلك إلا في صرع الطائر الجليل، الذي لا يشترك فيه صغير مع كبير، ولا حقير مع جليل، ولو لم يكن فيه مع حصول المراد، إلا السلامة من التقطر عن الجياد، الكارّة أولاها بالاختيار، وأحقّها عند الاختبار، وانفوا من كسائر كأشلاء الذئاب، وفضلات ما أكلته الفهود وَوَلِعَتْ به الصقور وَوَلَغَتْ فيه الكلاب، فعمد كلٌّ منهم الى الانفراد في رمائه، وصرع كل طائر يتخبط في ذمائه، مخلّق بدمائه، مراصد بارتقائه لعيون الأوتار مع التفافه وتحليقه، جذر في حالتي اجتماعِهِ وتفريقِهِ، وتغريبه وتشريقِهِ، وإذا فكّر اللبيب فيما أوْدَعه الباري جَلّ جلالُه من القوى فيها، ظهر له أسرار ما أخْفاه من بدائع صنعهِ بين قوادمها وخوافيها، فمنها التمّ[1] الذي هو اتمّها صورة وأعظمها سورة، قد علا على الغيوم لرمي بنادق النجوم، وخاص بحر الظلام وعبّ فيه وأخذ منه قطعةً بساقيه، وقطعةً بفيهِ، حتى وَرَدَ على جبال من برد، فاكتسب منها رياشه، واكتسب من بياضها أرياشه.

ثم الكيّ الذي هو في طيرانه واعتناقه في مضماره واستنانه كالفراس في ميدانه، كأنه النجم في حالة الرجم، لو عارضه السماك لاقتلعه، أو الحوت لابتلَعَهُ.

ثم الأوز الذي يمشي متبختراً، وينقر متحذِّراً، كأنّما يدوس على مثل حدّ السيف، ويمتاز على أبناء جنسه برحلتي الشتاء والصيف، يبيتُ على فرد رجْلٍ واحدة، ويرمق موهماً ان عينه راقدة، وليست براقدة.

ثم اللغلغ[2] الذي من بلاد الخزر، ولا يتقي من البندق سهام القدر، ولا يخشى ان يصيبه عينٌ من الوتر، لا يحارب إلا بسحر الجفون من خزر العيون، ولا يستجنّ الا من تدبيج الصدر بزرد موضون.

ثم الأنيسة تهادىٰ تهادي الطاووس، وتختال اختيال العروس، حتى تلتقط حبات القلوب، وتصيد سوافر النفوس، كم قطعوا / ٢٩٠/ في طلبها من أنهار نهار، وسمحوا باتفاق اكياس النجوم خزائن الليل وما فيها من درهم ودينار، فما فازوا بوصالها، ولا ظفروا إلا من على وجه الماء بطيف خيالها.

ثم الحبرج[3]، الذي تهادى في مشيته غير مروع، وكأنما على كتفيه بقايا من صدأ الدروع، لم يتدرع بمقاصة الأنهار، ولا أوى إلى ظلّ الاشجار، بل بَرَزَ كأنه

---

(١) التم: طائر يكبرالاوز، في منقاره طول، وعنقه اطول من عنق الاوز (حياة الحيوان ١/ ٢٣١).

(٢) هو اللقلق كما في حياة الحيوان ٢/ ٣٠٨. (٣) هو ذكر الحبارى (حياة الحيوان ١/ ٣٢٢).

مُناجِز يشير ألا هل مِنْ مبارز؟

ثم النسر الذي علا عليها شأناً، وغدا لها سلطاناً، وسار فيها بالعفاف عن دمائها أجمل السير، وتحصّن في قنّة الجبل بقبّة السماء فأصبح صاحب القبّة والطير، حتى لقد ضجّ الأبد من عمر لبد، لما طالت صحبته له على رغمه، واستعان به النمرود في الصعود الى السماء على زعمه، فما ظنّك بفتية تقصد صرع من هذهِ قواه، ومن جملة أنجم السماء أخواه، لو صارعه عقاب الجوّ لصرعه، أو عارضه أحد النسرين لما قدر ان يطير معه.

ثم العقاب التي اشتهر منها الشهامة والضراوة، حتى اشتهر ما بينها وبين الحية من العداوة، فإنها توسّد فرخها لحوم الأرانب، وما عنقاء مغرب عندها إلا كبعض الجنادب، وطالما حلّق وراء كل جنس عصائب منها تهتدي بعصائب[1]، من كل لقوة ذي دكنة وقوّة، تخال الغواني ضمّختها بالغوالي، أو درعتها الغوادي مدرعة الليالي. [من الطويل]

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً لدى وَكرها العنابُ والحشفُ البالي[2]

وأما التي تحمل بأسباقها، ولا تجهل بأعناقها فنقول:

ثم الكركي الذي فاق العقاب في قوّة طيرانه، والنسر وأمّ مصر من الدربندات، ولم يبعد على عاشق مصر، نجعةٌ من أقصى البلاد وآفاقها خوارج في طلب أقواتها وأرزاقها.

ثم الغَرانيق، التي لا تبرز إلا محمرّة الحَدَق لقوّة الغيظ وشدّة الحنق، حذرةً من قوس الرامي وبندقه، مدرع كل طائر منها محبوك الزرد من مفرزه الى مفرقه.

ثم الضوع[3] الذي / ٢٩١/ زاد على الطيور طولاً وعرضاً، وأعدّ للدفاع من مغرزه ما هو انكى من السيف والسنان وامضى، وطالما رام الرامي إلحاقه بإرسال البنادق وراءه فأتعب جياد القسيّ وانضى، كأنه قطعة من الغيم تصرفها الرياح، او بقيّة الغلس من الليل على وجه الصباح، وكأنما وَرَدَ مرةً نهر المجرّة، ورعى نرجس نجومه كرّة، وخاف ان يكون لها كرة.

ثم المرزم[4] الذي يبارز بجوشن مورّد، وجؤجؤ مزرّد، كأنه صرح ممرّد، كأنما خرج من الهيجاء في طلب النجاء، وبه رشاشٌ من الدماء، فتبصّر فإذا الطير مسخّرات في جو السماء.

---

(١) اشارة إلى قول النابغة:

إذا ما غزا بالجيشِ حلَّقَ فوقَهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

(٢) البيت لامرىء القيس، ديوانه ٣٨. (٣) قيل هو ذكر البوم (حياة الحيوان ٢/ ٣١٤).

(٤) المرزم: من طيور الماء (حياة الحيوان ٢/ ٢١٤).

ثم السبيطر: الذي يبارز مبارزة الشجاع، ويلتقم الأفعى والشجاع، قد تبدأ الرماة بصدرِهِ وبنحرِهِ، وليس جوشنه من جناحيه إلا قدّامه ووراء ظهرِهِ.

ثم العناد: الذي اشتد بأسا، واختار شعار الخلفاء لباسا، وما سمح باظهار ذوائبه واشرافها إلا ليعلم أنها من عظماء الطير وأشرفها، قد تحلّى من الحَدَق المِراض، بالضدّين من السواد والبياض، وما منها إلاّ ما يزاحم النجوم بالمناكب، كأنه يحاوِلُ ثأراً عند الكواكب، لا يبرز إليها رام إلاّ راجلاً، وهو مشمّر للذيل، غارقٌ الى وسطه في وحلٍ وسيل، يصرع فارساً من السماء على أشهب الصبح وأشقر البرق وأدْهم الليل.

ومنه قوله:

واعلى في الخافقين خوافق أعلامه، وبسط على البسيطة قوادم عدله وخوافي إنعامه، حتى لا تشرق شمسٌ إلاّ على ما ملكت يمينه، ولا تلقّاه ملك إلاّ خضع له بالسجود جبينُه، المملوك يقبل الأرض، ويجمع بين الطهورين، صعيدها الطيب وسحابها الصيّب، وينهي ورود المثال الشريف، فتناول منه كتاب أمانه باليمين، وأعطى بمبايعته اليمين، ولثمه وهو موضع رغبات اللاثمين، وورده فرأى العجب أنه البحر العذب ولا يقذف الاّ الدر الثمين.

ومنه قولُهُ:

/ ٢٩٢/ وكانت المملكة الحلبيّة من ممالكنا بمنزلة السور على البلد، والروح من الجسد، وقد علم تعلّق الروح بالجسد، واتفق لها الانتقال إلينا، ولنا بها الى ربه الانتقال، وأصبحت من يميننا في اليمين، وكانت وهي في الشمال من الشمال، ولم نَرَ لها الاّ من غذي بلبانها، وعنى بشانها، عدّ فارس حلبتها يوم رهانها، فطالما طمحت إليه بنظرها، واحتمت به مِن غِيَر الايام وغررها، فكفاها الأمور الجسام، وحمى حماها، وكيف لا تحمى وهي ذات جوشن بالحسام، ولم يزل طامح نظرِهِ حولها يدندن، ووليجة أمله بها تلجلج، وعنها لا لاترن[1]رأينا إنالته هذا المطلوب، وقضينا له منها حاجةً كانت في نفس يعقوب، وحكمناه في ذلك فيما طلب، ومثله من حَلَبَ الدهر أشطره، ونال الزبدة من حلب، وكان الجناب الحسامي هو الجناب المخصب لرائده، العالي عن مسامته مستاميه ويده، فخرج أمرنا العالي ان يفوض اليه نيابة السلطنة المعظمة بالمملكة الحلبية، وقلدناه أمورها، ومَنْ أحقّ من الحسام

---

(١) كذا في الاصل، ولم أجد لها وجهاً.

بالتقليد، وجردناه للانتصار به، ويظهر أثر الحسام عند التجريد، وليتفقّد الجيوش ولا يفسح لهم في الركون الى الاعذار والميل، وليتلُ عليهم ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1] ولا يستخدم إلاّ كل شهم شهد الوقيعة، وإذا قفل الجيش كان ساقة، وإذا توجّه كان طليعة، والبريد والحمام هما رسل المهام، وأعلام الإعلام، وأرسلهما في كل مهم معا، وليجمع بين تجهزهما وإن لم يجتمعا، وليرتّب أمورهما على أجمل الأوضاع، ليتوافيا على انفراد واجتماع، فكثيرا ما سبق البريد السائر، وجاء قبل الطير الطائر، فبلغ المرام وعاق الحمام الحمام.

ومنه قوله:

أعزّ الله أنصار المقام، ولا زالت مكارمه كالبحر تقذف لمن جاز به بدُرِّه، والروض يسابِقُ مَنْ مرَّ بِهِ بنشْرِه، والمسك يبادر من دَنَا بعطرِهِ والغيثُ / ٢٩٣/ الذي لا يقتصر على سائله بفيض قطره، يقبل الأرض التي مَنْ حلّ بها نال الغنى، ومَنْ خيّم بدارها نال المنى، وما اجتاز بها إلا مَنْ وافاه إسعافه وإسعاده، وما سار أحَدٌ في الآفاق إلاّ ومِنْ أنعامها راحلته وزاده، وينهي ورود كتاب فلان، يصف احسان مولانا إليه وإنعامه، وما تعجّل في مقامه الأمين من دار الكرامة، واقامته به وبعسكره في حالتي توجهه وعوده، وشكر سحابه العميم وجود جوده، وشكر المملوك عند صدقات ملل لا يخلو لنازلٍ من اكرامه، ولا راحلٍ من انعامه ولا يزال في الاقامة والظعن، أما يؤويهم الى كنفه أو يرسل عليهم ظلّةً غمامِهِ، وتلك سجيّةُ مولانا التي جُبلت على الإحسان الى كل إنسان، واصطناع المعروف الى المعروف وغير المعروف، والله تعالى يُوزع الدهر شكر مولانا الذي شمل بِرّه الانام، وسطّرته أنامل الحمد في صحائف الايام.

ومنه قوله:

ووصلنا معه طرابلس فنزل بساحتها، وجعلها للعساكر المنصورة موطن راحتها، وموطن إباحتها، وقد تكفل البحر لها بالامتناع، وضمن لها ما يزيد على حصانةِ القلاع، وأمدّها من بلاد الفرنج كل يوم بمدد، وواصلها بالمراكب الكثيرة العُدد، بما يزيدُ على أمواجِهِ في العَدد، فوصل رسل أهلها وتوسلوا بالذرائع، وبذل الأموال والقطائع، وعمارة المأذنة والجمع، فلم يقنع منهم بغير الاسلام او تسليم البلد بجملته، وإعادة القبلة من شرق بيعته الى قبلته، فاعتصموا بالأسوار، وركنوا للقتال

(١) سورة الانفال: ٦٠.

من وراء الجدار، وأطلقوا نحو كلّ سهم من المنجنيق يشير عليهم بنانه بالإيمان، ويميل تارة إليهم وتارةً إلينا ويميدُ كالنشوان، فنصبنا مجانيقنا قبالة مجانيقهم التي نصبوها من وراء أسوارها، ولم تزل ترميهم حتى عاد السور رميماً والحجر الذي كان بأعلى البرج في اسفل الخندق هشيماً، وكثيراً ما كانت / ٢٩٤/ تتبر مجانيقهم، فتقضي عليهم ببوارهم، وتبشرهم من أوّل أمرهم بإدبارهم، وتصيبهم قارعة بما صنعوا، أو تحلّ قريباً من دارهم، فرجعت عليها العساكر المنصورة، وفي عاجل الوقت ملكوا الباشورة، فعلموا انه لم يبق سوى الاسار أو القتل أو الفرار، فالتبست على كل منهم مذاهبُهُ: [من الطويل]

فراحوا فريقاً في الإسارِ وبعضُهُم قتيلٌ، وبعضٌ لاذَ بالبحر هاربُه

فهجمت العساكر المنصورة عليهم هجوم الليوث الضواري، وعاجلت اكثرهم عن الالتجاء الى المركب والاعتصام بالصواري، وتصرفت فيمن بقى منهم يَدُ القهر، وتنوعت فيهم من القتل والنهب والسبي والأسر.

ومنه قوله[١] مما كتبه إلى أبي الفضل عبد الظاهر[٢]: [من السريع]

سقى وحيّا اللهُ طَيفاً أتى فقمتُ إجلالا وقبّلتُهُ
لشدّةِ الشوق الذي بينَنا قد زارني حقاً وقدْ زرتُهُ

وافى من الجناب العالي المحيوي، آنس الله المملوك بقربه، وحفظ عليه منزلته من قلبه وهداهُ الى الطريق الذي[٣] كان قد ظفر فيها بمطلب البلاغة من كتبه، ولا شَغَلَهُ بسواه، حتى لا يسمع غير كلامه، ولا يرى غير شخصه، ولا ينطق إلاّ بذكره لغلبة حبّه، ولا رآه في المنام، ولا زاره[٤] في خفية واكتتام، ولا شاهده بدعوى الأحلام، بلى[٥] فإن المنى أحلام المستيقظ، وهو بهِ طولَ المدى حالم والناس نيام، ولا يُنكر الاخلال بالمكاتبة على نائم، والقلم مرفوع عن النائم، غير ان المملوك الظاهري[٦] أماته الشوق فانتبه، بعدما رآه[٧] بعينه، وهو لا يتأوّل ولا سيما في أمر ما اشتبه، وما كانت زيارته له إلا منافسة له بظنّه ان المملوك علقت به سنةُ الكرى، ومناقشة لطلبه زوّر الخيال حقيقة لما سرى، لينفي الوسن عن نظره، ثم ينصرف على

(١) الوافي بالوفيات ٨/ ١٦٧.
(٢) في الوافي: محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، سبق ذكره وسيذكره المؤلف فيما بعد باسم ابن عبد الظاهر.
(٣) في الوافي: التي.
(٤) في الأصل: «رآه» وفي الوافي: أتاهُ.
(٥) في الوافي: بل.
(٦) الظاهري: لم ترد في الوافي.
(٧) في الاصل: زاره.

أثره، ولما سجدت له الاجفان ظنّ بها سِنةً فزارها منبهاً، وما كان إلا ساهياً بمزارِهِ عن خدمته فلا ينكر على جفنهِ السجود لمّا سها، ولكم غلّة[١] للشوق[٢] أطفأ / ٢٩٥/ حرّها بمزاره، وأعلق به أشراك الأجفان، خيفةً من نفاره، وعَقَلَهُ بحبائل جفنيه خشية إن تنزع يد اليقظة حنينه[٣] من بين جنبيه، وضمَّها على خياله، ضمَّ المحب للعناق يمينه على شماله، ولكن ما فاز بالعناق إلاّ يدٌ أوْ يدان، وعناق المملوك للطيف من فرط الوجد بأربعة أيْدٍ من الاجفان، وإن لم تؤخذ هذه الدعوى منه بالتسليم، وقيل: ما زاره بل استزاره فكرٌ له في كل وادٍ يهيم، فبلى وحقِّهِ، لقد قَصَدَ[٤] مزاراً: [من البسيط]

إن الـكـريـم إذا لـم يُـسـتـزر زارا

وتالله لقد وافاه ويسراه[٥] على حشاه، ويمناه متشبّثةً بأذيال دجاه، وفجأهُ فوجده على أبرح [ما يكون][٦] من الوجد الذي عهده، إلا ضيف الطيف ما اهتدى إلاّ بنار أشواقِهِ، وما سرى بل سار في ضياءٍ من بارِق دمعهِ، وما يوري قدْحاً من سنابك بُراقِهِ، وتسوّر أسوار الجفون، وخاض السيول من العيون[٧]، كيف لا وهو يتحقق ان لقاءه المراد، وإذا هو نام زاره طيف كرى في الرقاد. فأجابه[٨] ابن عبد الظاهر: [من السريع]

فـي الـنـوم والـيـقـظـةِ لـي راتـبٌ عـلـيـكَ فـي الـحـالـيـنِ قـرّرتـهُ
تـفـضّـلُ الـمـمـولـى إذا زارَهُ طـيـفُ[٩] خـيـالـي مـنـه إن زرتـهُ

ورد على المملوك ـ ادام الله نعمة الجناب العالي الكمالي ولا أسهر جفنه إلاّ في سبيل المكارم، ولا سهّدها إلا في تأويل رؤيا مغارم الفضل التي يراها من جملة المغانم، وجعله يتغمر بحلمه هفوة الطيف، وكيف لا يحلم الحالم ـ كتاب شريف حبَّبَ إليه التشبيه بنصب حبائل الهُدْبِ الجفون، والاستغشاء بالنعاس، لعلّ خيالاً في المنام يكون، وليغنم اجتماعه ولو في الكرى، وتصبح عينُه مدينة وإن مضى عليها زمنٌ وهي من القُرى، وينعم طرفه من التلاقي بأحسن الطُّرَف، ويقول: هذا من تلك السجايا أظرف الهدايا، ومن تلك المزايا ألْطف التحف / ٢٩٦/ ويرفع محل الطيف

(١) في الوافي: علّة.
(٢) في الاصل: الشوق.
(٣) في الوافي: حبيبه.
(٤) في الاصل: صدق مراراً، والتصويب عن الوافي.
(٥) في الاصل: ووسده.
(٦) ليست في الاصل، والتصويب عن الوافي.
(٧) الى هنا ينتهى نقل الوافي.
(٨) الوافي بالوفيات: ٨/ ١٦٩.
(٩) في الاصل: طيفي.

فيرقّيه من الهدب في سلالم، بل[١] يمطيه طرف طرفه ويجعلها له شكائم، لا بل يرخيها لِصونِهِ أستارا، ولا يصفها بأنها دخان إذْ كان يجلّ موطن الطيف الكريم أن يؤجج نارا، ويعظمه عن انه إذا أرسل خياله رائداً، أن تتبعه المناظر[٢] وأن يكلفه مشقَّةً بسلوك مدارج الدموع، إذ هي محاجر، ثم يخشى أنه يحصل نفور من التغالي في وصف الدموع بأنها سيول، فيهول من أمرها ما يهول، ويقول: هل الدمع إلا ماء يرش به بين يدي الطيف، وهل الهدب على تقدير انها دخان إلاّ ما لعلّه يرتفع لما يقري به الضيف؟ وعن إبراد الأجفان[٣] بهذا وإسخان العيون بهذه هل هما لايلاف الخيال إلا ما يقصده من رحلة الشتاء ورحلة الصيف؟ ثم يحتقر المملوك إنسان عينه عن انه يلزمه هذا الأمر تكليفا، ويتدبر قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٤] ويقول له لا تطيق القيام بما لهذه الزورة للزوم من الوظيفة[٥]، لأن النوم سلطان وخليفة، وأني بذلك مع خليفة الحبيب ويدُ الخلافة لا تطاولها يد، والعيون في الصبا زورتها حقيقة، ويمكن أن لا توصف إلاّ بأنها ضعيفة، فيقول: كم مثلي انسان تطاول لاستنزارة الطيف حتى طرق؟ وكم خيالٍ أتى على أعين الناس فجاء محمولاً على الحدق؟ وكم محبّ درأ عن النوم بشبهة تغميض الأجفان عن غير غمض[٦] حدّ القطع على السرق، ثم يأخذ في طريقةٍ غير هذه الطريقة، ويرى الاكتفاء بالمجاز عن الحقيقة، وإذا أقامت[٧] العين الحجة في تصويب استزارة الخيال يقول: ما هذه من الحجج التي تسمّى وثيقة، ويرى ان تمثّل الشخص الشريف في الخاطر قد أغناه عن ان يتقلّد منه الكرى وكفاه انه ينشد: [من الكامل]

سُـرَّ الـخـيـالُ بـطـيـفـهِ لـمّـا سـرى

ولم يحوجه حاشاه إلى انه يزوّر له محضراً ولا انه ينشد: [من الكامل]

/ ٢٩٧/ أتُـرَى دَرَى ذاكَ الـرقـيـبُ بـمـا جَـرَى

اللهم إلا ان يورد مورد العين أنفع ما يُدَّخر، والعين الصافية ما برح عندها من الخيال الخبر، وإذا كان القلب متولي الحرب مع الأشواق فكيف يشامح الخيال على انه متولي النظر؟ فحينئذٍ يشتاق الى الوسن، ويمدّ له من الهدب الرسن، ويزوره ويستزير، ويقصد ويتلو (ويعفو عن كثير)[٨] ويذهب لأجل ذلك مذهب من يرى أنه

---

(١) في الوافي: لا بل.
(٢) في الوافي: ان يتبعه الناظر.
(٣) في الوافي: وعن إيراد الجفون.
(٤) سورة النساء: ٢٨ .
(٥) في الوافي: لهذه الزورة الشريفة من الوظيفة.
(٦) في الوافي: عمد.
(٧) في الوافي: أومأت العين للحجة.
(٨) سورة المائدة: ١٥.

يقدم الايام على الليالي، ويعظمها لأنه مظنّة هجمة الخيال، ويجعل جفونه أرض تلك النجمة التي يُغلب عليها، وما برحت تغلب لها أرض الجبال، وأما النيل فكم احتقره المملوك بالنسبة الى كرم مولانا ونواله، وتكره مذاقهُ بالاضافة الى زلاله، ويحقق ان مقياس راحته هو الذي يَسْتَسْعِد به الأمم، وان الأصابع من الاصابع الكريمة، والعمود القلم، وان طالب ورد ذاك تعب، وطالِبُ جود سيدنا مستريح، ويكفي واصف نواله له وهو غاية المديح.

واما ما لابن العطار من شعر فكتب أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر إليه[١]: [من البسيط]

لا تُنكرنَّ على الأقلام إن قَصُرتْ ... لها مَساعٍ إذا أبصرتَها وخُطَى

فعارضُ الطرسِ في حدّ الطروسِ بدا ... من أبيضِ الرسلِ شيبٌ فيهِ قد وَخَطا

فقال ابن العطار يجيبه[٢]: [من البسيط]

أقلامُ فضلكَ ما شابتْ ولا قَصُرَت ... لها[٣] مساعٍ إذا انصفتَها وخُطى

بلْ عارضُ الطرسِ لما شابَ غيّرَهُ ... بِعُشْبِةٍ قبلَ شيب فيه قد وَخَطا

ومنه قوله[٤] في رثاء الظاهر بيبرس[٥] البندقداري: [من الكامل]

بكت القِسيُّ لفقدِهِ حتى انثَنَتْ ... ولها عليهِ مِنَ الرنينِ تحسّرُ

ولحزنها بيضُ الصفاحِ قدِ انحنتْ ... وتَبِيت في أغمادِها تتستَّرُ

أَرْخَتْ ذوابِلُهُ ذوائبها أسًى ... وَلِرَنْكِهِ وجْهٌ عليها أصْفَرُ

/٢٩٨/ ولواؤه لبِسَ الحِدادَ فهلْ تَرَى ... كانَ الشعارُ لفقدِهِ يستشعِرُ

ملكٌ بكتْهُ أرائكٌ وترائبٌ ... وملائكٌ وممالكٌ لا تُحْصَرُ

ولكمْ بكتْهُ حُصْنُهُ وحصُونُهُ ... ونزيلُهُ ونزالُهُ والعسكرُ

مَنْ للممالكِ بَعْدَهُ مِنْ كافلٍ ... كمْ حاطَها بالرأيِ منهُ مسوّر

---

(١) البيتان في الوافي: ٨/ ١٧١. (٢) البيتان في الوافي: ٨/ ١٧١.

(٣) في الاصل: له. (٤) الوافي: ٨/ ١٧١.

(٥) بيبرس، الملك ظاهر، ولد في القبجاق، وأسر في سيواس ونقل الى حلب ثم القاهرة، فاشتراه علاء الدين أيدكن، ثم اخذه نجم الدين أيوب، فأعتقه وتقدم عنده حتى صار أتابك العساكر المصرية، ايام قطز وشارك في معركة عين جالوت ضد التتار، ثم اغتال قطز وتولى سلطنة مصر، وكان شجاعا جباراً. أخباره كثيرة. مات بدمشق سنة ٦٧٦ هـ واقيمت حول مرقده المكتبة الظاهرية.

ترجمته في: فوات الوفيات: ١/ ٨٥، والنجوم الزاهرة: ٧/ ٩٤.

قدْ حرّكَ الثقليـنِ هـولُ مُصَابـِهِ   فالظاهـرُ المـودي أو الاسكنـدرُ

ومنهم:

[٢٣]

محمد بن عبد الله، شرف الدين، أبو محمد، بن فتح الدين أبي الفضل بن القيسراني القرشي المخزومي(١)

صدر إيمانٍ وعلا، وبدر زمانٍ أضاء الظُلم وجلا، مجيل قِداحٍ من الأقلام، ومجيد اقتداحٍ يشقق عن البرق جيوب الظلام، حلف زهدٍ وورع، وجدٌّ طال به الأنام وفَرَع، وكان قريع علم لم يدعه إذْ رأس، وفقهٍ طالما ارتبط عليه ودَرّس، من بيت يتمسح بأركانه، ويُتَسمَّح من امكانه، ولم يزل أهلُه أهِلّة كتاب واهل سنّةٍ وكتاب، وخدموا الدول وختموا بالأمانة الأيام الأوَل، وكانوا كتاب إنشاء وحساب، وأصحاب إرثٍ واكتساب، وأرباب فخار بنفوس وانتساب، ومنهم جماعة حلّوا الممالك فوشّوا حَبَراتِها، ووشّعوا بذائب النضار أصلها وبكراتها، وكانوا أهل مدائح عَلقت كالسحاب، وعقّت البحر، وتعلّقت بالسحاب، مع نسبٍ في آل المغيرة(٢) لا تطمع في مسرح كواكبه مواكب الصباح المغيرة، وكان يتروى ويأتي بنثر يفوق كثيرا، ويضحى على ورقه سقيط الطلّ منثورا، مع قضاءٍ باء بيمن نقيبتها، ويجيء بدارين في حقيقتها، مع مرؤةٍ ما غَبَنَهُ فيها شريك، ولا فَتَنَهُ عنها سطا سلطانٍ ولا مليك، وكان يجلس بين يدي كافل الممالك لقراءة قصص المظالم، وهو يقرأ القرآن الكريم، فإذا مرّ بآية سجدةٍ استقبل القبلة وسجد، وربّما استدبر كافل الممالك لاجل اتباع القبلة فَوَجَدَ عليه لهذا، وقال لعمّي في الاستفال به، فكان يَدْرَأ عنه حدّه، ويوصيه فلا تُفيد الوصايا عنده /٢٩٩/ بل يقرأ، فإذا مَرَّت به آية سجود سَجَدَ، وما عليه ان لا يَجِدُ في نفسه عليه أوْ وَجَد، مع ما كان هذا الرجل في إنابة الأدنين من كبراء شَمَخَتْ بهم المناصب، وشَدَخَتْ هامَة المناصب.

ومن نثرِهِ قوله:

---

(١) ابن القيسراني، ولد بحلب سنة ٦٤٨هـ، وتوفي سنة ٧٠٧هـ.
انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٣/ ٣٧٠، الدرر الكامنة ٣/ ٣٨١، وأعيان العصر: ٤/ ٥٢٩، وعقد الجمان: ٤/ ٤٧٤.

(٢) هو المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، والعَدَدُ والشرف والبيتُ في ولده، انظر نسب قريش صـ ٢٩٩ وما بعدها والاشتقاق ٢٨٢.

وبعد فإنّ أولى ما عَظُم في النفوس، وازدانَتْ به المحافل والطروس، الشرع الشريف، وبه زَجْر أهل الاجتراء والاجتراح، وتحقن الدماء وتُسْتَباح، ولهذا تعيّن ان لا يحل ذروته السنيّة ورتبته العليّة إلاّ مَنْ انعقد الاجماع على انه للولاية متعيّن، وان موجب استخلاصه واختصاصه للمباشرة بيّن، ولما كان فلان هو العلم الذي ليس لفضله جاحِد والفقيه الواحد، الذي هو أشدّ على الشيطان من الف عابد، والذي عادل دم الشهداء مدادُهُ، وماثل البحر الزاخر مدده في الفضائل واستمداده، وباشر قضاء القضاة، وقضاء العساكر المنصورة بالشام المحروس مدّة متطاولة، وشكرت مباشرته المنصبين، وحكم بأهليته لما قامَتْ البيّنة من خبره وخُبْرِهِ بشاهدين، وبرأت من عيون الأعيان أحكام الاحكام، ولا أثرة بعد عين، وأبدع في تقريبه المسائل وتقريره وتحويره، وتحيّل حتى قيل هو في العلوّ والعلوم شريك القاضي شريك[1]، وبأنباء الشريعة المطهرة هو الخبير الذي ينبيك، وبلغنا انه في هذه المدّة حصل له في اثناء البحث ما أزْعَجهُ وأحْرَجَهُ، وعن خُلُقِهِ الرضيّ أخْرَجَهُ، وامتنع من الحكم أياماً، ولم يجر له في الأُمور الشرعية لسانا ولا أقلاماً، فاقتضى اعتناؤنا بالشريعة المطهرة اشخاصه إلى بين يدينا واستعلام سبب ذلك يقيناً، وان نصرّح له بتجديد تولّيه تولّية مناصِبَه وتأكيد رفعة يكفّ بها مُنَاصِبَهُ.

ومنه قوله:

وينهي ان المشرف العالي ورد إليه فتنسَّم أرواح قربهِ، وأوْجَدَ مسرّات قلبهِ، واعدم مضرات كربهِ، وأبَهَجَهُ الكتاب بعبير ريّاه، وألْهَجَهُ الخطاب بتعبير رقياه، فرأى /٣٠٠/ خطّه وشياً مرقوما، ولفظه رحيقاً مختوما، ووجَدَهُ مختوماً على دُرَرِ كلامية، وبشر مناميّة، وحديث نفسٍ عصامية، نرجو من الله ان نشاهد ذلك ايقاظاً ويكون لأنبائه حفاظاً.

ومنه قوله يصف زيادة النيل:

وأقبل يعبّ عبابه، ويكاثر البحر المحيط انْسِكابهُ، ويطاوِلُهُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾[2]، وأمر زيادته يعظم عن الشرح ويكبر، ومشاهده لقدرة الله فيه يتلو: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[3] وقد تَلَقّتْهُ البلاد تلقّي المحبّ

(١) شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي، الكوفي، ابو عبد الله، من الفقهاء المحدثين الاذكياء استقضاه المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣ هـ ثم عزله فأعاده المهدي وعزله الهادي، ولد في بخارى سنة ٩٥ هـ ومات بالكوفة سنة ١٧٧ هـ.
انظر: وفيات الاعيان ٢/ ٤٦٤ وتاريخ بغداد ٩/ ٢٧٩ والمعارف: ٥٠٨ .

(٢) سورة فاطر: ١٢. (٣) سورة لقمان: ٢٧.

لحبيبهِ، والعليل المرتقب لطبيبه، وهو كلما حَلَّ بُقْعَةً صد صدا، وأجدى جدا، وكلّما حباها بأصبع شكرت له يداً، وكان قد وصل في اثناء ذلك المفرد من الاعمال القوصيّة مخبراً بوفائه، واقتضى مذهبنا الشريف الحكم بخبر المفرد، والعمل ما عنه يروى وإليه يُسنَد، ومع ذلك وصل التثبُّت الى أن نقل هذا الأمر من الخبر الى العيان، واستحق خليج مصر ان يُفَكّ عنه الحجْر، ويجري مطلق العنان، ومن غرائب هذا البحر وإن كثرت فيه الغرائب، ومن الغرائب انه كلّما تتكدّر تتبسَّم له الثغور وتفتر، وانه نيل أزرق وبصبغة تروق البلاد وتَخْضَر، وسطرناها والخواطر الشريفة واثقة بسقيا امنت من فوتها، والعيون ناظرة الىٰ أثر رحمة الله كيف تحيى الأرض بعد موتها، والديار المصرية قد غَدَتْ للريّ في أكمل زيّ، وأبدت تموّج الحلل وتبرج الحِلي، وزهَتْ حُسْناً بالزيادة في الحُسنى وتلا على ساكنها لسانُ الرحمة. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[١] فالمجلس بحمد الله لما أعاده على الوجود من إشراقهِ وأنسهِ، ويستديم النعمة بالشكر: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾[٢]، والله تعالى يجعل هذه الرحمة الى جهاته حسنة التفريج، مناظره بها ناظِرة الرياض في التدبيج، مُظْهرة فيها معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[٣] ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[٤].

/ ٣٠١/ ومنه قوله:

وينهي ورود المشرف العالي، فاطلع من جواهر الالفاظ ما لو شاهده البدر لما أسْفَر أو سمع به عبد الحميد لأحَبَّ ان لا يُذْكر، فتنزه في رياض كتابته التي اينعت أغصانها، وأبهجت بفنونها أفنانها، فلولا حلّها وحرمة السحر لقلنا سحرا، ولولا انه شغل الأعناق بمنّنِهِ لقلدناها إذْ هي الدرّ نحرا.

ومنه قوله يذكر النيل:

وأمست التراع منه تراع، وأصبح الجدبُ مع ما كان فيه من القوّة وقد أخَذَ في النزاع، وحققت به عروس مصر أن يزيد كقطرةٍ في بحرها إذ يزيد[٥]، وأن باناس لا ترفع به خلجانها من راس، وان ثورا لو حفّ به شرب لما كمل دورا، وان كل رابية منها تربى على الربوة والنيرب[٦]، وكلّ برق ما عدا سحبها الهامِلة خُلّب، وانها

---

(١) سورة النور: ٥٥.
(٢) سورة لقمان: ١٢.
(٣) سورة فصلت: ٣٩.
(٤) سورة الحج: ٥.
(٥) يزيد وباناس وثورا: من فروع بردى.
(٦) الربوة والنيرب: مناطق نزهة غربي دمشق.

تخلب القلوب بالملق، وتسلب الألباب بالحدائق لا الحدق، وان البسطة في البسطة[١]، والنزهة في ربيعها إذا نسج بسطة، وأنها عمّا قليل تتجلّى في حللها النضرة، وتتبين انها لا عداها الدنيا، إذْ هي الخضرة.

ومنهم:

[٢٤]

محمود[٢] بن سليمان بن فهد الحلبي، الكاتب

شيخنا العلامة، حجة الكتاب، فرد الزمان، شهاب الدين، أبو الثناء، جبل أدب لا مطمع في ارتقائه، وبحر عِلْم لا مطمح إلاّ إلى ما يؤخذ من تلقائِهِ، رقىٰ السماء، وتلقى من ربّه كلمات، علم بها الكتاب الاسماء، ناضَلَتْ الدول بأقلامه، وكلّمت ملوك العِدا بكلامه، فحظي ببرّها وخطب لحفظ سرّها، وتقدم باستحقاقه، واستعبد الكلام الحرّ باسترقاقه، وأقام بالشام ثم بمصر، فطاب به الواديان كلاهما، وأغدق نوؤهما وكلأهما، وكان كاتباً لا يعرف له نظير، ولا يعرف مثله في الزمن الأخير، تعين بدمشق فكان للكتاب والداً، وتفرّد بمصر فبقى سهما في الكتابة واحداً، وكان بابل سحر وعنبر شحر، وعانة مدام، وغاية اقدام، وغاية أسدٍ ذي ظفرٍ دام، لم يزل / ٣٠٢/ نجيّ ملك همام، ورسيل بحرٍ وغمام، يكتب طالما أينعت روضة زهر، وافق سماء نرجسه الثريا مجرّته النهر، وكان لا يرضى بدارات الأقمار لزهرِهِ كمامة، ولا بالهلال لظهر قلمه قُلامة، بأدبٍ دقّ على الأدباء، ورق فنسب الجفاء الى الصهباء، فأشفق الشفق أن يكون لكؤوس كلمِهِ مُدامة، ودخان الندّ ان يكون على عنبر سطورِهِ غمامة، وكان في الديوانين يتصدى لمهمات الانشاء، فكم أطال لوجوه الأيام غُرراً، وقلّد أعناق الممالك دررا، من مقاليد لو شيدت العماد لما ماد، أوحبا بفضلها

---

(١) البسطة: كورة بمصر (معجم البلدان ١/ ٤٢٢).

(٢) شهاب الدين، محمود، من أكابر الكتاب، أديب، شاعر، ولد بحلب سنة ٦٤٤ هـ وولى الانشاء في دمشق ومصر نحو خمسين سنة، توفى بدمشق سنة ٧٢٥ هـ، له مصنفات كثيرة:
طبع منها: «اهنى المنائح في اسنى المدائح» و«حسن التوسل الى صناعة الترسل» ومما لم يزل مخطوطاً «ذيل على الكامل لابن الاثير» و«منازل الاحباب ومنازه الالباب» وشعرهُ كثير جداً وكذلك نثره.
انظر: الدور الكامنة: ٥/ ٩٢، وفوات الوفيات: ٢/ ٢٨٦، والبداية والنهاية: ١٤/ ٢٢٠، وشذرات الذهب ٦/ ٦٩، والوافي بالوفيات: ٢٥/ ٣٠١، وأعيان العصر: ٥/ ٣٧٢، والاعلام ٦/ ١٧٢. ورسائله متفرقة في نهاية الارب، وصبح الاعشىٰ وانوار الربيع.

الفاضل لانطق الجماد، أو أثرت ابن الأثير لاستغنى مما يثير، او بنىٰ على أبكارها ابن بنان لما ضُمَّ له على قَلَم بنان، أو خلتَ شيئا لابن الخلال، لتاه بكرم الخلال أو خصّت ابن ابي الخصال بخَصلةٍ لطال بها وصال، وكسر على النصال النصال، الى نظم وطيء بأخمصه الطائيين، وأفنى بخلود الدهر مدة الخالديين، بما أهدى إليه وترك الكندي مضلّلاً، وخلّى العزيز في قومه ابن ابي سلمى مذلّلاً، حتى لو وسم عبيد بولائه في القريض لما قال: حال الجريض[1]، فأما في توليد المعاني ففات ابني هاني[2]، ونهض جدّه وسقط صريع الغواني، فمن نسيب نسي به القديم، وغزل ذكر به كل غزالٍ ورئم كل ريم، ورثاء أسكت النائحتين الديلمي وذا النسب الصميم[3]، وتشبيه ثلّث الملكين ابن المعتز وتميم[4]، الى بيان[5] أذهب العسكري في الصناعتين، وفلك جرض الراغب والجاحظ في البراعتين، وكان في كل منهما إماماً، وسحَّ في كل منهما غماماً، بسجع كم غازل على أيكهِ حماماً، وأعطى الغواني على حلي ذماما، وشقّ على لبّةِ النهر أطواقا، وأرخى على أنامل الغصون أكماما، ثم ولي بدمشق صحابة ديوان الإنشاء، وأطلع في الصباح نجوم العشاء. وهو شيخي في الادب، وإن لم يكن لي أبا مثل أبٍ، لزمته مذ قدم دمشق حتى مات، أقرأ عليه، وأقرىء مما لديه / ٣٠٣/ ومن حواصلِه أنفقت وجمعت، وفرقت وسدّدت الى الغرض، وفوّقت، وأقول ولا أخشىٰ، فمهما وصفته به من المحاسن صدقت؛ لأنّ الرجل أشهر من الشمس، وذكره أسْيَر من قفا نبكِ، قد أنْجَدَ ذكره وأتهم، وأعرق وأشأم، وغنّى به الملاح والحادي، وغني به سكان الجبل والوادي، هذا الى ما له من المشاركة في علم الحديث، وحفظ المتون والرجال، والاطلاع على آراء الناس ومذاهب الأمم في الملل والنحل، وفرق الخلاف ومواضع الاختلاف، وضبط التاريخ واستحضار الوقائع، وذكر نوب الدهر، وتصاريف الزمان، وأيام العرب والعجم، ومعرفة النسب ودول الخلفاء والملوك، وأحوال الوزراء والكتاب والشعراء ومشاهير الأمة والأعيان من أهل كل علم، والمقدّمين في كل فن، والمبرزين في كل صنعة، واسماء الكتب المصنّفة والمجاميع المؤلّفة، وإجادة النظر في معرفة الخطوط، والإلمام بكتابة المكاتيب الحكمية والشروط، الى معرفة الامثال الجاهلي منها

---

(١) حال الجريض دون القريض، مثل قاله عبيد بن الابرص يوم مقتله.
(٢) هما أبو نواس، وابن هانىء الاندلسي. (٣) هما مهيار الديلمي والشريف الرضي.
(٤) تميم بن المعز الفاطمي. (٥) في الاصل: تباس.

والمولّد، والملوكي والسوقي، وأمثال الخواص والعوام، والعربي منها والعجمي، والأصل في ضرب كل مثل، مع اتقان قوانين الديوان مما لم يجمعه سواه، ولو تفرّد بواجد منه لكفاه، وبه انتفع كتاب زمانه، وتخرجوا عليه، وتدرّبوا بين يديه، أخذ الفقه عن ابن المنجا، والنحو عن ابن مالك، والأدب عن ابن الظهير، وتنقل في الوظائف وطلبه عمّى الى الديار المصرية بعد محيي الدين بن عبد الظاهر على معلومهِ، وكتب بين يدي الوزير ابن السعلوس، وقلّ ان كُتب مدّة مقامه بالحضرة مهم جليل إلاّ من إنشائه، وعُيّن لقضاء الحنابلة بمصر، فامتنع حتى بعث الى دمشق صاحباً لدِيوان الانشاء، وأقام بها حتى مات، ومن تصنيفه كتاب «حسن التوسل الى صناعة الترسل»[1] و«منازل الاحباب»[2] و«أهْنى المنائح في أسنى الممادح»[3]، من نظمه في المديح الشريف النبوي زاده الله شرفاً، ولم يكن مثله في إعطاء كل مقام حقه موفّى من غير زيادة ولا نقص، / ٣٠٤/ وذكر ملاحم الحروب على افراط التهويل في دقة الغزل للطف تخيّله ورقة تخيله واستعاراته وغرائب تشبيهاته.

ومن نثره قوله في توقيع لابن جماعة بتدريس المدرسة المجاورة للشافعي:

وهو يعلم أن ذكر هذه البقعة سار في الآفاق، جارٍ على ألسنة الرفاق، عال على قدر شامية الشام ونظامية العراق، وانها جمعت من العلماء أعلاماً، ومن الامة أئمة لولا شرف البقعة لتفرقوا في الأرض هداة وحكاماً، فلا يقف في العلم عند غاية، ويجد في طلب النهاية، وإن لم يكن للعلم نهاية، وليمثل نفسه ماثلاً بين يدي من نُسبت إليه، ويقيم روحه مقام من جَلَس للقراءة عليه، وليبث ما استودعه من اسرار مذهبه ليسبر عنه من معدنه، وينقل الفضل الى الأوطان من مظنتِهِ وموطنهِ، وليلق بها عصا السرى، فانها منزلة لا ينوي مَنْ بَلَغَها سيراً، وليحمد الله على ما وهبه من بضاعته، فإنه من يرد الله يرد به خيراً.

ومنه قوله في تقليد وزير:

وليبدأ بالعدل، فإن الله قدمه على الإحسان، وحلّى به أيامنا، ويجانب الظلم وأهله، فإن الله أرهف بمحوهِ من الوجود سيوفنا وأقلامنا، ويقرنه بالاحسان فإن الله رفع بهذا منار ملكنا، وأعلى بذا أعلامنا، ويمدّ خزائن الاموال بكنون تدبيره، ويعد

(١) نشر ببغداد بتحقيق اكرم عمان يوسف، ١٩٨٠.
(٢) مخطوط في ليدن وبرلين والمتحف البريطاني، ومختصر في غوطا.
(٣) نشر في جريدة الشورى.

لمهمات الدولة القاهرة ذخائر تصرفه الجميل، وحسن تأثيره، وليزن ذلك بالرفق المثبت فإنه مع الخبرة أجْدى من العنف وأجْدر، وإذا رام المنبتّ بلوغ الغاية، فإن المتثبت أقوى منه على ذلك وأقدر، فإن النماء مع العدل كفرسي رهان، وليس الخبير من حصّل الأموال بالظلم، بل من حصلها والحقّ عزيز والباطل مهان، وليتحرّ الحق المحض فيما أَمَرَ بأخذِهِ رفقاً، ويناقش على حقوق بيت المال فإنّهما سواء من أخذ لغيره باطلاً أو ترك له حقاً، وليجتهد في عمارة البلاد، فانها على الحقيقة معادن الأرزاق وكنوز الأموال التي لا ينفدها الانفاق.

ومنه قوله:

وقلّدته مهابتنا سيفاً يلمع مخايل /٣٠٥/ النصر من غمده، وتشرق جواهر الفتح في فرندِهِ، وإذا سابق الأجل الى قبض النفوس، عرف الاجل قدره فوقف عند حده، ومتى جرّده على ملك من ملوك العِدا وهنَتْ عزائمه، وعجز جناح جيشه ان تنهض به قوادِمُهُ، وعلم ان سيفنا على عاتق الملك الأغر نجاده، وفي يد جبار السماوات قائِمُهُ.

ومن قوله:

وسرنا بالجيش الذي لا يدرك الطرف حدّه ولا الوهم عدّه، وكأن ذوائب السحاب عذب بنودِهِ، وكأن شوامخ الآكام مناكب أبطاله مواكب جنودِهِ، وما قصد عدوا إلاّ ونازلهم قبل خيلهم خياله، وقضى عليهم وعدُهُ ووعيدُهُ، قبل ان ترهف اسنّته أو ترْعف نصالُهُ، وإذا لمع حديدُهُ وخفقت عذبهُ وبنودُهُ، قيل هذا غمامٌ تَلَهَّبَتْ بوارِقُهُ، ودمدمَتْ صواعِقُهُ، أو بَحْرٌ تلاطمت أمواجُهُ، أو سيل غصّت به فجاجُهُ، وعكس اشعة الشمس اضطرابُهُ وارتجاجُه، وما علا جبلا إلا وألحق صعوده إليه جَرْيَهُ بالصعيد، وما منع الريح مواجهته إلا لتسمع صهيل خيله بأقصى الروم من أقصى الصعيد.

ومنه قوله:

وما رهَجَ العدو المخذول بالحركة، ورمى الصيت، فإنّ عدّة العاجز الصياح، وقوّة الجبان في القول، والقولُ يذهب في الرياح، وقد علموا أنهم ما قدموا إلينا إلا وكان أحَدّ سلاحهم الهرب، ولا طمعوا في النجاح وكان لهم في غير الحياة أرب، يبالغون في الاحتشاد، والجازر لا يهولُهُ كثرةُ الغنم، ويستكثرون من السواد ووجود مَنْ لا ينفع أشبه شيء بالعدم، فقوّتهم ضعيفة، ووطأتهم خفيفة، وثباتهم أقصر من حل العقال، وصبرهم أسرَع من الظل في الانتقال، وخيولهم لا تطيع أمر أعنتها إلا في الفرار، ورماحهم لا تحمل كلّ أسنتها إلاّ للخوَر والانكسار، وسهامهم لا عهد لها بالمقاتل، وصفاحهم كلّ شيء من القصب غيرها يمكن وصفه بأنّه قاتل، فإن

دلاّهم الشيطان بغروره فسيبرأ منهم سريعاً، وان اطمعهم في اللقاء /٣٠٦/ فستردهم كلام سيوفنا كأقسام الكلام الثلاثة هزيماً أو أسيراً أو صريعا.

ومنه قوله برسالة طردية[١]:

لا زال يُمْنُهُ يستنزل العصم من معاقِلها، ويُسْمع السهام الصُّمَّ ما تُحَدِّثُ به حركات الطير عن مقاتِلِها، ويُلْجىءُ صَوادي[٢] الوحش الى سُيوف أوليائه لترقرقِ[٣] ماء الفِرِنْدِ فيها بمناهِلِها، وينهي[٤] انه سار الى ما واجه وجه إقبالِهِ[٥] متيمّنا بسعْدِهِ الذي ما بَرِحَ يعتلِقُ بِحباله ومعهُ من الجوارح كلُّ بازي شديد الأسر، صحيحٍ على ما اتصَفَ به من الكَسْرِ، ينظر من بهار، ويخطر في ليلٍ رقم به أديم نهار، ذي رأس مُدَبّج ورأس مُتَوَّج، ومِخْلَبٍ خطوف ومِنْسَرٍ كصدغ[٦] معطوف، أسرعُ من هوج الرياح، وأقتل[٧] من عوج الصفاح، ينحطّ على الطير من عل، ويسبق الى مقاتل الوحش كل رام من بني ثعُل، ومن الضواري كلُّ حامٍ أَسْبَق من السَّهْم وأخفى في[٨] الوثبة من الوهم، ذي صدرٍ[٩] مجدول وساعِدٍ مفتول، وأنياب عصل[١٠]، وظفر أقطع من النصل، ومن الفهود كلّ أهرتِ الشدق، ظاهر الحدق[١١]، بادي العبوس، مدير الملبوس، شثن البرائن، بأنياب[١٢] كالمدى، ومخالب كالمحاجن، قد أخَذَ من الفلق والغسق[١٣] إهابا وتقمّص من السماح والبخل[١٤] جلبابا، يُضْرب المثل في سرعة وثوب الأجل به ويُشْبِهُهُ، وتكاد الشمس مذ لقبوها بالغزالة، لا تطلع على وجهه، يسبق الى الصيد مرامي طرفه، ويفوت لحظ مرسله إليه، فلا يستعمل[١٥] النظر إلا وهو في كفه، وتَتَقدَّمه الضواري الى الوحش، فإذا وَثَبَ له تعثرت من خلفه، ومعنا غِلْمَةٌ نَحْنُ بسهامهم منها أوثق، وهم بإصابةِ شواكل المُراد من كلِّ ما ذُكِر أحذق[١٦]، إذا أخذ كل منهم حِنْيَتَهُ أرانا القمر في القوس، وإن نظم رميته قيل: هذا حبيب وإن لم يكُنْ ابن أوسْ، فما لاح طائر إلا ولَهُ من السهام أجَل، ووراءه من

(١) حسن التوسل: ص٣٤٧.
(٢) في حسن التوسل: هوادي.
(٣) في حسن التوسل: تشبيهاً لترقرق.
(٤) في حسن التوسل، ونهيُ.
(٥) في حسن التوسل: انه سار الى الصيد ميمّما وجْه إقباله.
(٦) في حسن التوسل: لصدغ.
(٧) في حسن التوسل: وأقلّ.
(٨) في حسن التوسل: عند.
(٩) في حسن التوسل: خصر.
(١٠) في حسن التوسل: قتل، وهو تحريف.
(١١) في حسن التوسل: الحذق.
(١٢) في حسن التوسل: ذي أنياب.
(١٣) في حسن التوسل: القلق والضييق.
(١٤) في حسن التوسل: وتقمص من نُجل الحدق.
(١٥) في حسن التوسل: يستكمل.
(١٦) في حسن التوسل: يحذق.

رجل الجوارح زجل، إن اخطأ هذا اصاب هذاك، وربما كان لهما استهام في تحصيله واشتراك، وإن سنح وحشٌ، /٣٠٧/ فالسهام أدنى الى وريدِهِ من قِلادة جيدِهِ، فإنْ فات فالكلب أَعْرَفُ باختلاسه منه بكناسه، وأَسْرعُ الى احتباسه من رجْعِ أنفاسِهِ، وإلا فالفهد أسرع الى لحاقهِ من أجَلِهِ، وألْزَمُ لعنقه لو كان يَعْقِل من عمله، وظللْنا بين قدير مُعَجَّل وقديدٍ مؤجّل [من الطويل]

نَمُشُّ بأعرافِ الجيادِ كفوفَنا[1]

ونقْري من صواف الطير وأصناف الوحش ضيوفنا، وكنّا بين صيدٍ تَحَصَّلَ وآخر يترقّب، وغدوْنا [من الطويل]

كأنَّ عيونَ الوحشِ حولَ خبائِنا وأرْحلِنا الجزْعُ الذي لم يثقّبِ

وقد أرسلنا إليه من ذلك ما يتحقّق به ان يمْنَهُ أمَارَنا وأوْرى نارَنا، ويستدلّ به على حسن ظفرنا في سفرنا وأنارَةِ توفيقنا في طريقنا، والله تعالى لا يخلي منه مكان تأييد، ويبلّغه من السَّعادَةِ فوق ما يريد.

ومنه قوله:

وإن المخذولين أقبلوا كالرمال واصطفوا كالجبال، وتدفقوا كالبحار الزواخر، وتولوا كالأمواج التي لا تعرف لها الأول من الآخر، فصدّتهم جيوشنا المنصورة صدمةً بددت شملهم، وعلمت الطير أكلهمْ، وحصرتهم في الفضاء، وطالبت أرواحهم الكافرة بدين دينها، فأسرفت في القضاء، وحصدت سيوفنا المنصورة ما يخرج عن وصف الواصف وكانوا: ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[2]، وأحاطت بهم كتائبنا المنصورة فلم ينج منهم إلا من لا يُؤبَهُ لهم من فريقهم، وقسمتهم جيوشنا المؤيدة من الفلوات الى الفرات بين القتل والاسر، فلم يخرج عن تلك القسمة غير غريقهم، واعقبتهم تلك الكسرة ان هلك طاغيتهم أسفاً وحسرة، وحزنا على من قتل من تلك المقاتلة وأُسر من تلك الآسرة، وأماته الرعب من جيوشنا المنصورة فجأة، واستولى عليه الوَجَل، فجاءه من أمر الله ما جاءه.

ومنه قوله مما كتب بمآل مهلك سيس:

وتبادر إلى الطاعة قبل أن نبذلها فلا تقبل، ويتمسك بأذيال العفو قبل ان يرتفع

---

(١) من قول امرىء القيس:
نَمُشُّ بأعرافِ الجيادِ اكفَّنا إذا نحنُ قُمنا عن شواءٍ مضهَّبِ

(٢) سورة إبراهيم: ١٨.

دونه فلا تُسْبَل /٣٠٨/ وتعجّل بحمل أموال القطيعة، وإلاّ كان أهله وأولاده في جملة مَنْ يحمل الينا، ويسلم ما عدا عليه من فتوحنا، وإلاّ فهو يعلم انها وجميع ما تأخر من بلادِهِ بين أيدينا.

ومنه قوله: [١]

هذه المكاتبة الى فلانٍ لا زال مأمونَ الغرّة، مأمول الكَرَّة، مجتنياً حُلْوَ الظَّفَر من كِمام تلك المَرَّة المُرَّة، راجياً من عواقب الصبر ما يسفر له مساءَ تلك المساءة عن صبح المسرّة[٢]، واثقاً من عوائِدِ نصر الله بإعادته ومَنْ معه في القوّة والاستظهار كما بَدَأهم أوّل مَرَّة، أصدرها وقد اتّصل به نَبَأُ ذلك المقام، الذي أوْضَحَتْ فيه السيوف عُذْرَها، وأبْدَتْ به الكماةُ صبرها، وأظهرتْ فيه الحُماة من الوثباتِ والثّباب ما يَجِبُ عليها، وَبَذَلَتْ فيه الأبطالُ من الجِلاد جُهْدَها ولكن لم يكن الظَّفَرُ إليها، وكان عليهم الأقدام على غمرات الحرب الزبون والاصطلاء بجمرات المنون، ولم يكُنْ عليهم إتمامُ ما قُدِّر أنّه لا يكون، فكابرتْ رقابُ الأعداء في ذلك الموقف السيوف وكاثرت أعدادهم الحتوف، وتدفَّقَتْ بحارهم على جداول مَنْ معَهُ، ولولا حكم القَدر لانتَصَفَتْ تلك الآحادُ من تلك الالوف، فضاق بازدحام الصفوف على رحاله[٣] المجال، وزاد العدد على الجلد فلم يُفد الاقدام على الأوجال مع قدوم الآجال، وأُمْلي للكافرين بما قدر لهم من الإنظار، وحصل لهم من الاستظهار، وعُوِّضوا بما لم يعرفوه من الإقدام على[٤] [ما] ألفوه من الفرار ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[٥] وقد وَرَدَ أنّهم ينصرون كما نُنْصر، وإذا كانت الحُروبُ سِجالاً، فلا يُنْسَب إلى مَنْ كانت عليه إذا اجتَهَدَ ولم يُساعِدْه القدر، انه قصر، مع انه قد أشْهَرَ ما فعله في مجالِهِ من الذب عن رجاله، وما أبداه في قتالِهِ من الضَّربِ الذي ما تروّى فيه خصْمُهُ إلا بَدره بارتِحالِهِ، وأنَّ الرماح التي امتدّت إليه أخْرَسَ سيفُهُ ألْسِنَة أسنّتها، والجياد التي أقدمت عليه جعل طعنه أكفالها مكان أعِنّتها. [من الطويل]

فـأثـبـت فـي مـسـتـنـقـع الـمـوت رجـلـه[٦]

---

(١) حسن التوسل ص ٣٨٥.

(٢) في حسن التوسل: أن يسفر له تلك المساءة عن صبح المسرّة.

(٣) كذلك في حسن التوسل: ولعلّها رحابه. (٤) في حسن التوسل: عمّا.

(٥) سورة البقرة: ٢٥١.

(٦) تضمين لقول أبي تمام: [من الطويل]

فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رجلَهُ وقال لها: من تحتِ اخمصِكِ الحشرُ

ووقف وما في الموت شك لواقف[١] / ٣٠٩/ ليحمي خيله ورجْلَه حتّى تَحيَّز أصحابه الى فِئة مأمِنِهم، وأَقامَ نفسه دونَهُم دريئةً لمن بَدَرَ من سَرَعان القوم، أو ظهر من مكمنهم، وهذا هو الموقف الذي قام له مقام النصر إذ فاتَهُ النصرُ[٢] والمقام الذي أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أدنى العدد، فقد فيه من أعدائه مع ظهورهم الوف لا يدركهم الحصر، وكذا فليكُنْ قلبُ الجيش، كالقلب يقوى بقوته الجسد، واذا حقق[٣] اللقاء فلا يفرّ عن كناسه إلا الظبي ولا يحمي عرينَهُ إلاّ الأسد، وما بقي إلاّ ان تعفو الكلوم وتثوب الحلوم، وتندمل الجراح وتبرأ من فلولِ[٤] المضارب صدور الصفاح، وتنهض لاقتضاء دَيْن الدِّين من غُرمائهِ المعتدين، وتبادِرَ الى استنجاز وعد الله، فإن الله يمحص المؤمنين ويمحق الكافرين، والليث إذا جُرح كان أشدَّ لثباتِهِ وأمدَّ لوثباتِهِ، والموتور لا يُصْطلى بناره، والثائر لا يرهب الاقدام على المنون في طلب ثاره، والدهر ذو دُوَل، والزمان مُتَلوِّن، إن دَجَتْ عليكم منه بالقهر ليلة واحدة، فقد أَشْرَقَتْ لكم فيه بالنصر ليال أُوَل، فالمولى لا يلتفتُ الى ما فات، ويقبل[٥] بفكره على تدبير ما هو آت، ويُعدُّ للحرب عدّته، ويُعجّل أَمَدَ الاستظهار وَمُدَّتَه، ولا يؤخر فُرصَةَ الإمكان، ولا يَعد ذكر ما مضى فإنه دَخَل في خبر كانْ، ولا يُظْهِر بما جرى عجزاً، فإن العاجز من ظن انه يصيب ولا يُصاب، ولا يتخذ غير ظهر[٦] حصانه حصناً فلا حرز أمنع من صهوة الجواد، ولا سلم أسْلَم من الرِّكاب، وليعلم ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٧]، ويدّرع جنّة الصبر ليكونَ من النصر على ثقة ومن الظفر على يقين فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٨]، ومن كان الله معه كانت يده الطُّولى، وإذا لاقى عدوّ الله وعدوّه فليصْبر بحملته فإن الصبر عند الصدمة الأولى، والله تعالى يكلؤهُ بعينه ويمدّه بعونِهِ، ويجعل الظَّفَر على عدُوّه موقوفاً على مُطالبته له بدينه.

ومنه قوله في مثله على الطريق المعتاد في ذم المهزوم:[٩]

---

(١) حل لبيت المتنبي (ديوانه: ص ٣٨٧): [من الطويل]
وقفتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ ... كـأنـكَ فـي جَـفْـنِ الـردَى وهـوَ نـائـمُ

(٢) إشارة لقول أبي تمام: [من الطويل]
فتًى ماتَ بينَ الضربِ والطعنِ موتةً ... تـقـومُ مـقـام الـنـصـرِ إذ فـاتـهُ الـنـصـرُ

(٣) كذا في الاصل، ولعلها حقّ كما في حسن المحاضرة، وهي أفصح.

(٤) في الاصل: قلوب، وهو تصحيف، واثبتُّ في ما في حسن التوسل.

(٥) في حسن التوسل: ويقل.

(٦) في حسن التوسل: ولا تتخذ ظهر حصانه.

(٧) هود: ٤٩.

(٨) البقرة: ١١٥.

(٩) حسن التوسل: ص ٣٨٧.

/ ٣١٠/ هذه المكاتبة الى فلانٍ أقالَهُ الله عثرة زَلّته، وأَقامَهُ من حفرة ذِلّتِهِ، وتجاوَزَ لَهُ عن كبيرة[١] فرارِهِ من جمع عدوّه على قِلَّتِهِ. بَلَغَنا أمْر الواقعة التي لقي فيها العدوّ بجمع قليلٍ غِناؤُهُ، ضعيفٍ بناؤُهُ، كثيفٍ في رأي العين جَمْعُهُ، خفيف في المعنى وقْعُهُ ونَفْعُهُ، أسرعَ في مفارقة المجال من الظِّلْ في الانتقال، وأشْبه في مُماثَلَةِ الوجود بالعدم من طَيْفِ الخيال، يحقّون منه بقلب واجِب، ويهتدون من تجريبه وتهذيبه برأي بينه وبين الصواب حاجب[٢]، ويأتّمونَ منه بمقدم يرى الواحد من عدوِّهِ كألف، ويتسرَّعُونَ منه وراء مقدّم[٣] يمشي الى الزحف ولكن إلى خلف، جناح جيشه مَهيضٌ، وطرف سنانِهِ غضيضٌ، وساقَة عسكره ضالعة[٤]، وطلائعه كالنجوم ولكن في حال كونها راجعة، تأسف السيوف بيمينهِ على ضاربٍ، وتأسى الجنائب حوله إذْ تُعَدّ لمحارب فتغدو لهارب، وانّه حين وقَعَتْ العين على العين، وأيْقَنَ عدوّه لما رآه من عَدَدِهِ وعُدَدِه بمعاجلة الحَين، أَعْجَلَ نُصُولَ العِدا عن وُصولِها، وترك غنيمة الظَّفَرِ لِعِداهُ بعد أن أشرف على حُصولها، تُناديه أَلْسِنةُ الأسنّة: الكرَّة الكرّة، ولا يلتفت الى نِدائِها، وتَشْكُو له سيوفه الظَّمأ وقد رأتْ موارد الوريد فيعيدها الى الغمود بدائها، فَمَنَح عدوَّه مقاتِلَ رجالِهِ، وأباحهم كرائِم مال جنده ومالِهِ، وخلاً لهم خزائن سلاحه التي أعَدَّها لقتالهم، فأَصْبَحَتْ معدّة لقتالِهِ، فنجا منجى الحارث بن هشام[٥]، وآب بسلامةٍ أعذبَ منها لو عَقِلَ شُرب كأس الحِمام، واتَّسَم بين أوْليائِهِ وأعدائِهِ بسمةِ الفِرار، وكان يقال: النار ولا العار، فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار وعادَ بجمعٍ موفورٍ من الجراح، موفّر[٦] من الاثم والاجتراح[٧]، لا عِلْم بما جرى عند أسيافِهم، ولا شاهد بمُشاهدتِهم الوغى غير مواقِع الظبى في أكتافِهِم، فبأيّ جنانٍ يَطْمَعُ في مُعاوَدِةِ عدوِّه، وهذا قلبه، وهؤلاء حِزبُهُ؟ وذلك القتال قتاله[٨]، / ٣١١/ وتلك[٩] الحرب حربه، وبعد، فإنْ كانت[١٠] له حميّة تظهر[١١] آثارها، أو أريحيّة

---

(١) في الاصل: كبير، واثبتُّ ما في حسن التوسل.

(٢) في حسن التوسل: ألف حاجب.

(٣) في حسن التوسل: مقدام.

(٤) في حسن التوسل: ظالتّهُ.

(٥) الحارث بن هشام المخزومي، كان شريفاً مذكوراً، شهد بداراً مع المشركين، فكان فيمن انهزم مغيره حسان بن ثابت فقال: [من الكامل]

إن كـنـتِ كـاذِبـةَ الـذي حـدَّثـتـنِـي ... فـنـجـوتِ مـنـجـى الـحـارثِ بـنِ هـشـامِ

انظر: نسب قريش ص٣٠١ .

(٦) في حسن المحاضرة: موقور.

(٧) في الاصل الاحتراع، ولم ترد في حسن التوسل.

(٨) في حسن التوسل: قِباله.

(٩) في الاصل: وذلك، وأثبتُّ ما في حسن التوسل.

(١٠) في الاصل: كان.

(١١) في حسن التوسل: فستظهر.

فتشبّ[١] نارها، أو أَنَفَةٌ فستحمله على غسل هذه الدنيَّة وتبعَتُه على طلب غايتين، إما شهادةٌ مريحة أو هنيّة[٢] والله تعالى يوقظ عزمه من سِنَتِهِ، ويعجّل له الانتصاف من عدوّه قبل إكمال سَنَتِهِ.

ومنه قوله:

فكم ملّ ضوء الصبح مما يغيره، وظلام النقع مما يثيره، وحديد الهند مما يلاطمه، والأجل مما يسابقه الى قبض الأرواح ويُزَاحِمُه.

ومنه قوله:

وكفى السيوف فخراً أنها للجنة ظلال، وإلى النصر مآل، وإذا كان من بيان الحديث سحر، فإن بيان حديثها عمّن كلمته هو السحر الحلال.

ومنه قوله في قريبٍ من معناه:

حَسْبُ أَلْسِنةِ الأسنّةِ شرفاً، أنّ كشف خبايا القلوب يُذمُّ إلاّ منها، وأن بثَّ أسرار الضمائر تكره روايته إلاّ عنها، فمكرر حديثها في ذلك لا يفضي الى الحلال، وإن لم يكن حسن حديثها الذي يسحر الألباب مما يحلّ فليس في الحديث سحرٌ حلال.

ومنه قوله في قريب من معناه إلاّ انه جعله في البلاغة:

البلاغة تُسْحِرُ الألباب، حتى تحيل العرض جوهرا، أو تحيل الهواء المدرك بالسمع لانسجامه وعذوبته في الذوق نهرا، لكنه سحر لم يجن قَتْلَ المسلم المتحرّز[٣] فتأوّل في حلّه، وإذا كان من الحديث ما هو عقلة المستوفز، فهذا أُنشوطة نشاطه البليغ، وحل عقال عقله.

ومنه قوله:

خطُّهُ شَرَك للعقول، وفتنة تُشْغِل المطمئن بملاحة المرأى المكتوب عن فصاحة المسموع المقول، ولو لم يكن البيان سحراً، لما تجسّدَت منه في طرسها هذه الدرر، ولو لم يكن بعض السحر حَلالاً، لما انجلى ظلام النفس عما يهدي به من هذه الآوْضاح والغُرر.

---

(١) في حسن التوسل: فستشبُّ.

(٢) في حسن التوسل: أو حياةٌ هنيّة.

(٣) تضمين لقول ابن الرومي: [من الكامل]

وحديثها السحرُ الحلالُ لو أنّهُ ... لم يجنِ قتلَ المسلم المتحرّزِ
شركُ العقولِ ونزهةٌ ما مثلُها ... للمطمئنِ وعقلةُ المستوفزِ

ومنه قوله مما كتبَ به الى أمير سريّة[١]:

ولا زال أخف في مقاصدِهِ من وطأة ضيف، وأخفى في مطالبهِ من زورةِ طيف / ٣١٢/ وأسرع في تنقُّلِهِ من سحابة صيف، وأروعَ للعدا في تطلّعِهِ من سَلَّةِ سيف، حتى تعجّبَ عدوّ الدين في الاطلاع على عوراته، من اين دُهي وكيف؟ ويعلم ان أول قسمة[٢] اللقاء حصل عليه في مقاصده الحين، أصدرناها إليه تحثُّه على الركوب بطائفةٍ أعجل من السيل، وأهْوَل من الليل، وأيمن من نواصي الخيل[٣]، وأقْدَمَ من النمر، وأوْقَع على المقاصد من الغيث المنهمر، وأرْوَغَ في مُخاتلة العدا من الذئب الحذر، على خيلٍ تجري ما وَجَدَت فلاة، وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعة أوْ أناة، تتسنّم الجبالَ الصمّ كالوعل، وإذا جارتها البروق غَدَتْ وراءها تمشي الهوينى كما يمشي الوجى الوحل[٤]، وليكن كالنجم في سراهُ وبعْدِ ذُراه، إن جرىٰ فكَالهَمّ، وإن خَطَرَ فكالوهْم، وإن طلب فكالليل الذي هو مُدركٌ[٥]، وإن طُلِبَ فكالجنّة التي لا يَجِد ريحها مُشرك، حتى يأتي على عدوّ الدين من كلّ شَرَف، ويرى جمعه من كل طَرَف، ولا يسرف في الإقامة عليه، إلاّ إذا علم ان الخير في السَّرَف، وليحرز جمعهم، ويسبق الى التحرّز منهم بصرهم وسَمعهم، ويَنْظُرهم بعين مَنَعَها الحزمُ ان ترى العدد[٦] الكثير قليلاً، وصدّها العزم ان ترى العدد الحقير جليلاً. بل ترى الأمر على قصّه، وتروي الخبر على نَصِّهِ، وإن وجدَ مغروراً[٧] فليأخذ خبره، وإن على قدر الإتيان بعينه، وإلا فليذهب أثره، ولا يهج فيما لديه نارَ حربٍ إلا بعد الثقة بأطفائها، ولا يوقظْ عليه عين عدوٍّ، مهما ظهر له ان المصلحة في إغفائها، وليكشف عن أمورهم ما يُبْدي عند الملتقى عورتَهم، ويُخْمدْ في حالة الزحف فورتَهم، وليجعلْ قلبه في ذلك رَبيئة طَرفِه، وطليعة طِرفِهِ وسريَّة كشفه، والله تعالى يمدّه بلطفه، ويحفظه بمُعقباتٍ من بين يديه ومن خَلْفِهِ.

---

(١) حسن التوسل ص٣٣١ ونهاية الارب ٧/ ١٩٠ .

(٢) في حسن التوسل: ويعلم أنَّ مَنْ أوَّل قِسْمته.

(٣) اشارة للحديث النبوي الشريف: الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة.

(٤) من قول الاعشى: [من البسيط]

غـراءُ فـرعاءُ مـصـقـولُ عـوارضُـهـا ... تمشي الهُوَينا كما يمشي الوَجِي الوَجلُ

(٥) حل لبيت النابغة (ديوانه ٧١): [من الطويل]

فـإنـكَ كـالـلـيـلِ الـذي هـوَ مُـدركي ... وانْ خِـلْـتُ انَّ الـمـنـتـأَى عـنـكَ واسـعُ

(٦) في حسن التوسل: العدوّ. (٧) في حسن التوسل: مغرراً.

ومما كتب الى نواب بعض الثغور[١]:

أصدرناها ومنادي النفير[٢] قد أعلن بيا خيل الله اركبي[٣]، ويا ملائكة الرحمن /٣١٣/ اصحبي، ويا وفود الظَّفَر والتأييد اقربي، والعزائم قد ركضتْ على سوابق الرّعبِ[٤] الى العدا، والهِمَمُ قد نَهَضَتْ إلى عدوّ الاسلام، فلو كان في مطلع الشمس لاستقربَتْ ما بينها وبينه من المدى، والسيوف قد أنِفَتْ من الغُمود فكادت تَنْفرُ من قُربها، والأسنّة قد ظمئَت إلى موارد القلوبِ فتشوَّقَتْ إلى الارتواء من قُلُبِها، والكماة قد زَأَرَتْ كالليوث إذا دنَتْ فرائِسُها، والجيادُ وقد مرِحَت لِما عوَّدَتْها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسُها، والجيوش، وقد كاثَرَتِ[٥] النجوم أَعْدادُها، وسايرتها للهجوم على أعداء الله من ملائكتِهِ الكرام أمدادُها، والنفوس قد أضْرَمَتِ الحميّةُ للدين نار غَضَبِها، وعداها حرُّ الاشفاق على ثُغورِ المسلمين عن بَردِ الثغورِ وطيب شَنَبِها، والنصرُ قد أَشْرَقَتْ في الوجود دلائلُهُ، والتأييد قد ظهرت على الوجوهِ مخايلُهُ، وحُسنُ اليقين بالله في إعزازِ دينِهِ قد أنبأَتْ بحسن المآل أوائِلُهُ، والألسن باستنزال نصر الله لَهِجَة، والارجاء بأرواح القبول أَرَجَة، والقلوب بعوائد لطف الله بهذه الأمة مبتِهجة، والحُماةُ وما منهم إلاّ مَنْ استظهر بامكان قوّته وقوة امكانه، والأبطالُ وليس فيهم من يسألُ عن عدد عدوّه، بلْ عن مكانه، والنيّات على طلب عدوٍّ الله حيث كان مُجتمعه، والخوطر مُطْمئنّة بكونها مع الله بصدقِها، ومَنْ كان مع الله كان الله مَعَه، وما بقي إلاّ طيُّ المراحِلِ، والنزولُ على أطراف الثغورِ نزولَ[٦] الغيث على البَلَدِ الماحلِ، والإحاطة بعدوّ الله من كل جانب، وإنزال نفوسهم على حكم الأمْرّين الأمرّين من عذاب واصب[٧] وهمٍّ ناصب، وإحالة وجودهم الى العدم، وإحَالة السيوف التي ان أنكرتها أعناقهم، فما[٨] بالعهدمن قدم، واصطِلامُهم على أيدي العصابة المؤيَّدة بنصر الله في حربها، وابتلاؤهم من حملاتها بريح عادٍ[٩] التي

(١) حسن التوسل: ٣٣٣، ونهاية الارب ٧/ ١٩١، وصبح الاعشى ٨/ ٢٤٨.
(٢) صبح الاعشى: النصر.
(٣) «يا خيل الله أركبي» حديث نبوي شريف سنن ابي داوود ٣/ ٣٩.
(٤) صبح الاعشى: الركض.
(٥) في حسن التوسل: والجيوش كاثرت.
(٦) في حسن التوسل: ونزولُ.
(٧) في الأصل: واصل، ولعلّها تحريف، وفي حسن التوسل: واجِبْ، والصحيح ما أثبتناه.
(٨) فما: ليست في حسن التوسل.
(٩) اشارة لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة/ ٦].

تدمّر كلَّ شيء بأمْرِ ربّها، فليكن مترقباً[١] لطلوع طلائعها عليه، متيقناً من كرم الله تعالى / ٣١٤/ استئصال عدوّه الذي إن فرّ أدرْكته من ورائه، وإن ثبتَ أَخَذَتْهُ من بين يديه، وليجتهد في حفظ ما قِبَلَهُ من الأطراف وضمِّها، وجمع سوام الرعايا من الأماكن المخوفة ولمّها، وإصلاح ما يحتاج الى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة وَرَمِّها، فإن الاحتياط على كل حال من آكد المصالح الاسلامية وأهمِّها، فكأنّه بالعدو، وقد زالَ طمعُهُ وزاد ظَلَعُهُ، وذمَّ[٢] عقبىٰ مسيره، وتحقق سوء منقلبِهِ وضميرِهِ[٣]، وتبرَّأ منه الشيطان الذي دلاّه بغُروره، وأصبح لَحْمُهُ موزَّعاً بين ذئاب الفلاة وضباعها، وبين عقبان الجوّ ونسورِهِ، ثقةً من وعْدِ الله الذي تمسَّكنا منه باليقين، وتحققنا[٤] أن الله ينصر من نصره، وأن العاقبة للمتقين.

ومنه قولُهُ:

هذه المكاتبة إلى فلان أَتْبعَ الله ما ساءه من أمرنا مع العدوّ بما يسرّه، وبلغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدق الصفاح وألسنة الرماح سرّه، وأراه من عواقب صنعه الجميل ما يتحقق به ان كسوف الشمس لا تنال طلعتها، وأن سرار القمر لا يضرّه، توضّح لعلمه انه ربما اتصل به خبر تلك الوقعة التي صَدَقْنا فيها اللقاء، وصدمنا العدو صدمةَ من لا يحبّ البقاء، وأريناه حرباً لو أعانها التأييد فلّت جموعه، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصل أوجده مصارعه وأعدمه رجوعه، وحين شرعت رياح النصر تهبّ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوّب وتصبّ، وكرعت الصفاح في موارد نحورهم، وكشفت الرماح خبايا صدورهم، ولم يبق إلا ان تستكمل سيوفنا الريّ مِنْ دمائهم، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم، وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمِهِ. وتكف بالقبض يد من البسته الجراح حلّة عَنْدَمِهِ، أظهروا الجزع في عزائمهم، وحكّموا الطمع في غنائمهم، فحصل لجندنا إعجاب أَعْجَلَ سيوفنا ان تتم هدم بنائهم، وطمعٌ مَنَعَ فوارسَنا ان تكفّ عن النهب الى أن / ٣١٥/ تصير من ورائهم، فاغتنم العدوّ تلك الغفلة التي ساقها المهلكان: العجب والطمع، وانتهز فرصة الكّرة التي أعانه عليها المطمعان: إبداء الهلع وتخلية ما جمع، فانتشر من جمعنا بعض ذلك العقد المنتظم، وانتقض من حزبنا ركن ذلك

---

(١) في حسن التوسل: مرتقباً. (٢) في حسن التوسل: ذمَّمَ.

(٣) كذا ولعلها تحريف. وفي حسن التوسل: مصيرِهِ وهي أفصح.

(٤) في حسن التوسل: تمكنّا.

الصف الذي أخَذَ فيه الزحام بالكظم، وثبت الخادم في طائفة من ذوي القوّة في يقينهم، وأرباب البصائر في دينهم، فكسرنا جفون السيوف، وحطمنا صدور الرماح في صدور الصفوف، وأرينا تلك الألوف كيف تعدُّ الآحاد بالألوف، وحُلْنا بين العدوّ وبين أصحابنا بضرب يكف أطماعهم، ويردّ سراعهم، ويعمي ويصمّ عن الآثار والأخبار أبصارهم وأسماعهم، إلى ان نفّسنا للمنهزم عن خناقِهِ، وأيأسنا طالبه من لحاقِهِ، ورددناه عنه خائباً، بعد ان كانت يده متعلقة بأطواقِهِ، وأحجم العدوّ مع ما يرى من قلّتنا عن الإقدام علينا، ورأى مِنّا جدّاً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا، وعادوا وكنا في قلوبهم رعباً يبيتهم وهم الغالبون، ويدركهم وهم الطالبون، ويسلبهم رداء الأمن وهم السالبون، وقد لمّ الخادم شعث رجاله، وضمّ فرقهم بذخائر مالِهِ، وأمدّهم بنفقات جلت أحْوالهم، وأَطْلَقَتْ في طلب عدوّهم أقوالهم، وسلاح جدّد استطاعتهم، وأعان شجاعتهم، وخيول تكاد تسابقهم الى طلب عدوّهم، وتحضّهم على أخذ حظهم من اللقاء كأنها تساهم في أجر رواحهم وغدوّهم، وقد نضوا رداء الاعجاب عن اكتافهم، واعتصموا بعون الله وتأييده لا بقوة جلدهم ولا بحدّة أسيافهم، وسيعجلون العدو إن شاء الله عن إندمال جراحه ، ويتعجلون إليه بجيوش تسوؤهُ طلائعها في مسائه، وتصبّحه كتائبها في صباحِهِ، والله تعالىٰ لا يكلنا الى جلدنا، ولا ينزع أعِنَّة نصره من يدنا.

ومنه قوله[١] مما كتبه[٢] على لسان مولود الى أبيه، ولم يكتب به:

يقبّل الأرض ابتداءً بالخدمة من حين ظهر الى الوجود، وتشُّوقاً / ٣١٦/ الى امتِطاءِ صهواتِ الجياد بين يدي سيده قبل المُهُود، وتمنياً[٣] أن يكون أول شيء يقع عليه نظره من الدنيا وجه مولانا الذي تعلو بنظرهِ الجدود، وتَتَيمّن برؤيتِهِ كواكبُ السُّعود، ويُنهى أنَّه يعجِّل الشوق على صِغَرِهِ، وكأن كمالَ المسرّة بهِ أن يَقَعَ نظرُ مولانا الشريفُ عليه قبل البُشرى بِخَبَرِهِ، لتلقى عليه أشعّةُ سعادة مولانا في ساعة ظُهورِهِ، ويكْسَى قبل أن تُلقى عليه الملابس من إشراق مُحيّاهُ حُلَلَ نورِهِ، ويكون أوّل ما يَلِجُ مَسامِعَهُ صَوتُ مولانا يحمد ربِّهِ، على الزيادة في خَدمِهِ، وتكثير من يضرب بين يديه في الحرب بسيفه، ويقف في السِّلم أمامَهُ على قدمِهِ، فأنَّ مَنْ يكون نَجل مولانا تَنْطقُ بالنّجابة مخايِلُهُ، وتَدلُّ على الشجاعة سِماتهُ، قبل أنْ تدلَّ عليها شمائِلُهُ، والهلالُ سيصير في أُفُقِهِ بدراً منيراً، والشبل

(١) حسن التوسل: ص ٣٩١.
(٢) لعلّه اراد: مما قالَهُ.
(٣) في حسن التوسل: وتيمناً.

سيعود كأبيه أسداً هَصُوراً، والله تعالى يَهَبُ العبْدَ عمراً يبلُغُ به من طاعةِ مولانا ما يَجِبُ عليه، ويرزقه عملاً صالحاً يتقرب به الى ربه وإليه.

ومنه قولُهُ(١): رسالة كتبها في البندق:

الرياضةُ ـ أطال الله بقاء الجناب الفلانيّ، وجعل حُبَّه كقلب عدوّه واجبا، وسَعْدَهُ كوصفِ عَبْدِهِ للمسارِ جالباً، وللمضارِ حاجِباً ـ تَبعثُ النفس على مجانبة الدَّعَةِ والسُّكونِ، وتصونُها عن مشابهة الحمائِم في الركون الى الوكون، وتحُضُّها على أخذِ حَظِّها من كُلِّ فَنٍّ حَسَنٍ، وتحُثُّها على إضَافَةِ الأدواتِ الكامِلَةِ، الى فصاحَةِ اللسِنِ، وتأخُذُ بها طوراً في الجِدِّ وطوراً في اللَّعِبَ. وتُصرِّفُها في مَلاذِّ السُّمُوِّ في المشاقِّ التي يَستَروحُ اليها التَّعبِ، فتارةً تَحمِلِ الأكابر والعظماء(٢) في طلب الصيد على مواصلة السرى، ومقاطعة الكرى، ومُهاجرة الأوطار، ومُهاجمةِ الأخطار، ومكابدة الهواجر، ومبادرة الأوابد التي لا تدرك حتى تبلغ القلوب الحناجر، وذلك من محاسن أوصافهم التي يُذَمُّ المعرض عنها، وإذا كان المقصودُ من مِثْلِهم جدُّ الحربِ، /٣١٧/ فهذه صورة لَعِبٍ يُخرَجُ اليهِ منْها، وتارةً تدْعوهم الى البرُوزِ الى المَلَق، وتحدوهُم في سلوك طريقهم(٣) مع من هو دونهم على مُلازمةِ الصِّدق، ومُجانبة الملق، فيعتسفون اليها الدجى إذا سَجَا، ويقتحمون(٤) جرف النهار إذا انهار، ويَتَنَعَّمون بوعثاءِ السَّفَر في بلُوغ الظَّفر، ويستصغرون رُكوب الخطر في إدراكِ الوطر، ويُؤثرون السَّهَرَ على النوم، والليلةَ على اليوم، والبُنْدُق على السهام، والوحدةَ على الالتئام، ولمّا عُدْنا من الصَّيد الذي اتصل بعلْمِهِ حديثُهُ، وشرحَ له قديم أمْرِهِ وحديثَهِ، تُقْنا إلى ان نَشْفَع صيد السوانح برمي الصَّوادح، وأن تفْعل في الطير الجوانح بإهِلَّةِ القسيِّ ما تفْعل الجوارح، تفضيلا لملازمة الإرتحال على الإقامة في الرحال، وأخذاً بقولهم: [من البسيط]

لا يُصلحُ النفسَ إذْ كانتْ مُدَبرةً إلا التنقّلَ مِنْ حالٍ الى حالِ

فبرزنا وشمس الأصيل تجودُ بنفسها، وتُشيرُ من الأُفُق الغربيّ الى جانب رمْسِها، وتُغازل عُيونَ النُّور بمُقلَةَ أرمد، وتنظُر الى صفحات الوردِ نظَرَ المريضِ الى وجوه العوّد(٥)، فكأنها كئيبٌ أضحى من الفراق على فَرَقٍ، أو عليل يقضي بين

(١) حسن التوسل: ص ٣٥٣، وصبح الاعشى ١٤/٢٨٨.
(٢) في حسن التوسل: العظمة.
(٣) في حسن التوسل: طريقهم.
(٤) بعدها في حسن التوسل: في بلوغها.
(٥) تضمين لقول النابغة الذبياني: [من الكامل]

نظرتْ إليكَ بحاجةٍ لمْ تقضِها نظرَ المريضِ إلى وُجوهِ العُوّدِ

أصحابه[١] بقايا مدّة الرقِ، وقد اخضَلَّتْ عيونُ النور لوداعها، وَهَمَّ الروضُ بخلع حلّته المموهَةِ بذهب شعاعها: [من البسيط]

والطلُّ في أعيُنِ النّوار تَحسَبُهُ دمعاً تَحيَّرَ لمْ يرقأُ ولمْ يكِفِ
كلؤلؤٍ ظلّ عِطْفُ الغُصْن مُتَّشِحاً بعِقدِهِ وتبدّى منه في شَنَفِ
يَضُمّ من سُنْدس الأوراق في صُرَرٍ خُضْرٍ ويُجني من الأزهارِ في صَدَفِ
والشمس في طَفَل الإمساء [تنظر مِنْ][٢] طرفٍ غدا وهوَ من خوفِ الفراقِ خَفِي
كعاشقٍ سارَ عن أحبابهِ وهَفَا بهِ الهوى فتراءاهم على شَرَفِ

إلى أنْ نضا المغربُ عن الأفقِ ذَهَبَ قلائدها، وعوّضَهُ عنها من النجوم بِخَدمِها وولائِدِها، فلبثنا بعد أداءِ الفَرْض لبثَ الأهِلَّة، ومَنَعَنا جفوننا أنْ ترِد النومَ /٣١٨/ إلاّ تَحِلَّة، ونَهَضْنا وبردُ الليل مُوشَّعٌ، وعِقدُهُ مرصَّعٌ، وأكليلُهُ مجوهَرٌ، وأديمُهُ مُعَنْبَر، وبدرُهُ في خَدَرِ سرارِهِ مُسْتَكِنّ، وفجرهُ في حشا مطالِعِهِ مُسْتَجِنّ، كان امتزاج لونِهِ بشَفَق الكواكب خليطا مِسْكٍ وصندل فكأنَّ ثرياه لامتدادِهِ معلَّقة بأمراس كتانٍ على صُمّ جندل[٣]: [من الطويل]

ولاحت نجومُ الليلِ زُهراً كأنّها عُقُودٌ على خُودٍ من الزنج تُنْظَمُ
محلّقةً في الجوِّ تَحْسَبُ أنّها طيورٌ على نهر المَجَرّةِ حُوَّمُ
إذا لاحَ بازي الصُّبح ولَّتْ يؤمُّها الى الغَرْب خَوفا[٤] منه نَسْرٌ ومرزمُ

الى حدائق مُلْتَفّةٍ، وجداول مُحتفّة، إذا جَمَشَ النسيم غصونها اعتنقت عناق الأحباب، وإذا فزك من المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحُباب، وَرَقَصَتْ في المناهل رقص الحَباب، وإن لثم ثُغوَر نورها حيّته بأنفاس المعشوق، وإن أيقظ نواعس وَرَقِها غنَّتْهُ بألحانِ المشوق، فنسيمها وان، وشميمها لعرف الجنان عُنوان، ووردها من سهر نرجسها غَيْران، وطلُّها في خُدود الورد مُنْبَعِثٌ وفي طرر الريحان حيران وطائرها غَرِدٌ، وماؤها مُطَّرِدٌ، وغصنُها تارةً يعطفه النسيم إليه فينعطفُ، وتارةً يعتدل تحت ورقائِهِ فتحسبُ انها هَمزةٌ على ألف، مع ما في تلك الرياض من توافق

(١) في حسن التوسل وصبح الأعشى: صحبَهُ.
(٢) ما بين معكوفين ليس بالأصل: وهي من حسن التوسل.
(٣) تضمين لبيت امرىء القيس: [من الطويل]
كأن الثريا علّقتْ في مصامها بأمراس كتانٍ الى صمّ جندل
(ديوانه ١٥٢).
(٤) في حسن التوسل: خزْفاً.

المحاسن، وتباين التّرتيب، إذ كُلّما اعتلّ النسيم صَحَّ نشر الروض[١] وكلمّا خرّ الماء شمخ القضيب: [من الكامل]

وكأنما تلكَ الغصونُ اذا انثنتْ ... أعطافُها رُسُلُ الصَّبا أحبابُ

فلها إذا افترقتْ منِ ٱستعطافِها ... صُلْحٌ ومِنْ سَجْعِ الحمامِ عِتابُ

وكأنَّها حولَ العيُونِ مَوائِساً ... شَرْبٌ وهاتِيكَ المياهُ شَرابُ

فَغَديرُها كاسٌ وعذبُ نطافِها ... راحٌ وأضواء النجومِ حَبابُ

تحيط بمَلَقٍ[٢] نِطافُها صافٍ، وظلال دُوحها ضافٍ، وحصاها لصفاء مائها في نفس الأمر راكدة وفي رأي العين طافٍ، إذا دغْدغها النسيم حَسِبتَ ماءها بتمايل / ٣١٩/ الظلال فيه يتبرَّجُ ويميلُ، وإذا اطردتْ عليه أنفاسُ الصّبا ظننت أفياء تلك الغُصون فيه تارةً تتموج، وتارةً تسيلُ، فكأنَّه مُحِبٌّ هامَ بالغصون هوًى، فمثلها في قلبه، وكأن النسيم كَلِفٌ[٣] غار من دنّوها إليه فمثلها عن قربه: [من مجزوء الكامل]

والسرو مثل عرائس ... لُفَّت عليهنّ المُلاءُ

شَمَّرنَ فضلَ الأزرِ عن ... سُوقِ خَلاخِلُهُنّ ماءُ

والنهرُ كالمرآةِ تبـ ... ـصر وجهها فيه السماءُ

وكأن صوافَّ الطير المبيضة بتلك الملق خيام أو ظباءٌ بأعلى الرقمتين قيام، أو أباريق فضةٍ[٤] رؤوسها لهافِدام، ومناقيرها المحمرّة أوائل ما انسكب من المُدام، وكأن رقابها رماحٌ اسنتها من ذهب، أو شموع، اسْوَدُ رؤوسها ماانطفأ وأحْمرهُ ما ألتهَبْ، وكنُا كالطير الجليل عَدّه، وكطراز العمر الأول جَدُّه: [من الكامل]

منْ كلّ أبلجَ كالنسيم لطافةً ... عفِّ الضميرِ مُهذّبِ الأخلاقِ

مثل البدورِ مَلاحةً وكعُمرِها ... عدداً ومثلِ الشمسِ في الإشراقِ

ومعهم قسيّ كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلّة في نحافتها وتكوينها، والأزاهِرِ في ترافتِها وتلوينها، وبُطونها مدبجه[٥]، ومتونها مدرجة، كأنّها الشَّولةُ في انعاطفِها، أو أرواق الظِّباء في التفافِها، لأوتارها عند القوادم أوتار، ولبنادقها في الحواصل أوكارٌ، إذا انتصبتْ لطير ذَهَبَ من الحياة نصيبُهُ، وإن ينصب[٦] لرمي بدت لها أنه أحَقّ بها من نصيبه، ولعلَّ ذاك الصوت زجر لبندقها، وإن يبطيء في سيره، أو

---

(١) في حسن التوسل: صح الأرج.
(٢) الملق: ما استوى من الارض (القاموس).
(٣) في حسن التوسل: كلف بها.
(٤) في حسن التوسل: أباريق من فضة.
(٥) في حسن التوسل: مدلجة.
(٦) في حسن التوسل: أنْبَضتْ.

يتخطى الغرض إلى غيره أو وَحْشَةٌ لمفارقةِ أفلاذ كَبِدها، أو أسفٌ[١] لخروج بنيها عن يدها على أنها طالما نبذت بنيها بالعراء، وشَفَعَتْ لِخَصْمِها التحذير بالاغراء: [من البسيط]

مـثـل الـعـقـاربِ أذنـابـاً مـعـقَّـدَةً ... لـمَـنْ تـأمَّـلَـهـا أوْ حـقّـقَ الـنـظـرا

إنْ مـدَّهـا قَـمَـرٌ مـنـهـمْ وعـايَـفَـهُ ... مُـسافِرُ الـطـيـرِ فيها وانبرى سفرا

/ ٣٢٠/ فهو المسيءُ اختيارا إذْ نوى سفراً ... وقد رأى طالعاً في العَقْرب القَمَرا

ومن البنادق كُراتٌ متفقة السَّرد، متَّحِدة العكسِ والطَّرْدِ، كأنّها خلطت[٢] من المندل الرطب أو عُجِنَتْ من العَنْبَرِ الوردِ، تسري[٣] كالشهب في الظلام، وتسبق إلى مقاتل الطير مُسدّدات السّهام: [من البسيط]

مـثـل الـنـجـوم إذا مـا سِرْنَ في أُفُقٍ ... عـن الأهـلّـة لـكـن نُـونـهـا راءُ[٤]

ما فاتها من نجومِ الليلِ إذْ[٥] رَمَقَتْ ... إلاّ ثـبـاتٌ يُـرَى فـيـهـا وأضـواءُ

تسري فلا يشعرُ الليلُ البهيمُ بها ... كـأنـهـا فـي جـفـونِ الـلـيـلِ إغـفـاء[٦]

وتَـسْـمَـعُ الـطـيـر إذْ تـهـفـوا قـوادِمُهُ ... خَـوافِـقـاً في الـدياجي وهيَ صَمَّاء

تصونها جراوةٌ كأنها درج دُرَر أو درج غرر، أو كمامة ثمر، أو كنانة نبلٍ، أو غمامة وبْل، حالكةُ الأديم، كأنّما رُقِمت بالشَّفَق حَلَة ليلها البهيم. [من السريع]

كـأنـهـا فـي وصـفـهـا مـشـرقٌ ... تَـنْـبَـتُ مـنـهُ فـي الـدُّجـى الأنـجـمُ

أو دِيـمـةٌ قـد أطـلـعَـتْ قَـوسَـهـا ... مُـلَـوَّنـاً وانـبـعـثـتْ تَـسْـجِـم

فاتَّخَذَ كلٌّ لها مركزا، وتقاضى من الإصابةِ وَعْداً مُنْجزاً، وضَمِنَ له السَّعْدُ أن يُصبح لمراده مُحْرِزاً: [من السريع]

كـأنَّـهـمْ فـي يُـمْـنِ أفـعـالِـهـم ... فـي نَـظَـرِ الـمـنـصـف والـجـاحـدِ

قَـدْ وُلِـدوا فـي طـالـعٍ واحـدٍ ... وأشـرقـوا مـن مَـطْـلَـعٍ واحـدِ

فسَرَتْ لها من الليل علينا من الطير عصابة، أظلَّتنا من اجنحتها سحابةٌ، من كل طائر أقلع يرتادُ مَرتَعاً، فوجد ولكنْ مَصرعاً، وأسفَ يبغي ماء جماماً، فورد ولكن

---

(١) في الأصل: اسفاً.
(٢) في حسن التوسل: طُرِطتْ.
(٣) في حسن التوسل: ترى.
(٤) في الأصل: نورها.
(٥) في حسن التوسل: إن.
(٦) في حسن التوسل: إقفاءُ.

سمّا[١] منقعا، وحلّق في السماء يبغي مَلْعَباً، فبات هو واشياعُهُ سُجَّداً للقسيّ وركعّاً، فتباركْنا بذلك الوَجهِ الجميل، وتداركْنا أوائل ذلك القبيل، فاستقبل أولُنا تمّا[٢] تمَّ بدرُهُ، وعَظُم في نوعه وقدرُهُ[٣]، كأنّه برقٌ كرَعَ في غَسَقْ، أو صبح عُطِفَ على بقية الدجى عطف النَّسَق، تحسبُهُ في ائتلاف[٤] المنى غرّة نجح، وتخاله تحت أذيال الدجى طرّة الصبح، عليه من البياض حُلّة / ٣٢١/ وَقارٍ، ولَهُ كُرَة من عنبر فوق مِنقارٍ من قار، له عُنُق ظليمٍ والتفاتة ريم، وسُرَى غَيْم يَصْرِفُهُ نسيم: [من المتقارب]

كلونِ المَشيبِ وعصْر الشبابِ ووقتِ الوصالِ ويمِّ الظَّفَر
كأنَّ الدُّجى غارَ مِنْ لونِهِ فأمْسَكَ منقارَهُ ثمَّ فرّ

فأرسل[٥] عن الهلال نجماً، فسقط منه ما كَبُر بما صَغُرَ حجماً، فاستبشر بنجاحِهِ، وكبّر[٦] عند صياحه وحصله[٧] من وسط الماء بجناحه، وتلاه كي نقيُّ اللباس، مُشْتَعلُ شيب الرأس، كأنّه في عرانين شيبه لا وبلِهِ كبيرُ أناس، إذا أسفّ في طيرانِهِ فغمام، وإن خَفَق بجناحِهِ فَقُلِعَ له بيدِ النسيم زمامٌ، ذو غببَةٍ كالجراب، ومناقيرٍ كالحراب، ولون يغرُّ في الدجى كالنجم، ويَخْدَعُ في الضحى كالسراب، ظاهِرُ الهرم، كأنّما يخبر عن عادٍ أو يحدث عن إرَم. [من الكامل]

إنْ عام في زرقِ الغدير حَسِبْتَه مبْيضَّ غيمٍ في أديمِ سماءِ
أو طارَ في أُفُقِ السماء ظننْتَهُ في الجوّ شيخاً عائماً في ماءِ
متناقض الأوصافِ فيهِ خفّة الـ جُهّالِ تحتَ رزانَةِ العُلماء

فثنى إليه الثاني عنان بندقه، وتوخّاه فيما بين أصل رأسه وعنقه، فخرّ كمارِدٍ انقضّ عليه نجم من أُفُقِه، فتلقّاه الكبير بالتكبير، واختطفه قبل مصافحة الماء من وجه الغدير، وقارنته أوزةٌ حُلَّتُها دكناء، وحلْيتها حَسْناء، لها في الفضاء مَجَالٌ، وعلى طيرانها خِفَّةُ ذوات التبرّج، وخَفرُ ربّات الحجالِ، كأنّما غبت في ذهَبٍ، أو خاضَتْ في لَهَبٍ، تختال في مشيتها كالكاعب، وتنأى في خطوها كاللاعب، وتَعْطو بجيدها كالظبي الغرير، وتتدافع في سَيْرها مشي القطاةِ إلى الغدير: [من الطويل]

إذا أقبلَتْ تمشي كخطرةِ كاعِبٍ رَداحٍ وإنْ صاحَت فصولَةُ خادِمِ

---

(١) في حسن التوسل: السمَّ.
(٢) التم: طائر نحو الاوز (حياة الحيوان ١/ ٢٣١).
(٣) في الأصل: قدره.
(٤) في حسن التوسل: أسداف.
(٥) في حسن التوسل: فارسل إليه.
(٦) في حسن التوسل: وكمد.
(٧) في حسن التوسل: وحمله.

وإن أقلعَتْ قالتْ لها الريحُ ليْتَ لي خفا ذي الخوافي أو قوى ذي القوادِمِ
فانعمْ بما في البُعْد زادَ مُسافرٍ وأحْسِنْ بها في القُرْبِ تُحفةَ قادمِ

/ ٣٢٢/ فلوى الثالث جيده إليها، وعَطَفَ بوجْهِ قوسِهِ عليها، فَلَجّت في ترفُّعها ممعنةً، ثم نزلت على حكمه مذعنة، فأعْجلها عن استكمال الهُبُوط، واستولى عليها بعد استمرار القُنُوط، وحاذتها لغلغة[1] تحكي لون وشيها، وتصف حُسْن مَشْيها، وتُربي عليها بغُرَّتها، وتُنافِسُها في المحاسن كضرّتها، كأنّها مدامةٌ قُطبَتْ بمائها، أو غَمامةٌ شَقَّتْ عن بَعْضِ نجوم سمائها: [من السريع]

بغرَّةٍ بيضاءَ ميمونةٍ تُشْرِقُ في الليل كبدر التَّمامْ
وإن تَبَدَّتْ في الضُّحى خِلْتَها في الحُلَّةِ الدكناء بَرْقَ الغمام

فنهض الرابعُ لاستقبالها، ورماها عن فَلَك سعْدِهِ بنجم وبالِها، فجدَّتْ في العلوّ مُغذَّةً، وتطاردت أمام بُنْدُقِهِ، ولولا اطرّاد الصيد لم تكن لذّة، وانقضّ عليها من يدِهِ شهاب حَتْفِها، وأدركها الأجَلُ بخفّة طيرانها من خَلْفِها، فوقَعَتْ من الافق في كفّه، ونفر من في بقايا صفِّها عن صفِّهِ، وأتت في إثرها أنِيسَة[2]، كأنها الغذراء العانِسَة، أو الأدماء[3] الكانِسَة، عليها خفَرُ الأبكار، وخفّة ذوات الأوكار، وحلاوة المعاني، التي تجلي على الافكار، ولها أنس الربيب، وإذلال الحبيب وتلفُّتُ الزائر المريب من خوف الرقيب، ذات عُنقٍ كالإبريق أو الغُصْن الوريق، قد جَمَع صُفرة البَهار إلى حُمْرةِ الشقيق، وصَدرٍ بهيّ الملبوس، شهيّ إلى النفوس. كأنّما رُقِمَ فيه النهارُ بالليل، أو نُقِشَ فيه العاج بالأبنوس، وجناح يُنْجِيها من العطب، يحكى لونهُ المنْدل الرَّطْبَ، لولا أنّه حَطَب: [من المتقارب]

مُدَبَّجةُ الصدر تَفْويفُهُ أضافَ إلى اللّيلِ ضَوءَ النهارِ
لها عُنُقٌ خالَهُ مَن رآهُ شقائقَ قدْ سيِّجَت بالبهار

فوثبَ الخامسُ منها إلى الغنيمة، ونظم في سلْك رَمْيه تلك الدرَّة اليتيمة، وحصل بتحصيلها بين الرماة على الرتبة الجسيمة، وأتى على صوتها، حُبْرَجٌ[4]، يسبق همته جناحه، ويغلبُ خَفْق قوادمه صياحه، مدّبج المطا، كأنّما / ٣٢٣/ خَلَعَ حُلّة منكبيه على القطا، ينظر من لَهَبٍ، ويخطو على رجلين من ذهَب: [من المتقارب]

---

(١) اللغلغ: طائر معروف «قال ابن دريد: لا أحسبه عربيا» (لسان العرب: مادة الغلغ).
(٢) الأنيس أو الأنيسة: طائر حاد البصر صوته صوت الجمل، ومأواه قرب الانهار (حياة الحيوان ١/ ٦٤).
(٣) في حسن التوسل: الاماء.
(٤) الحبرج: ذكر الحباري، لسان العرب مادة (حبرج).

يزورُ الرياضَ ويجفو الحياضَ ويُشبهُ في اللونِ كُدْرَ القطا
ويهوى الزُروع ويلهُو بها ولا يَرِدُ الماء إلاّ خطى

فَبَدَره السادس قبل ارتفاعه، وأعان[١] قوسه بامتداد باعِهِ، فخرّ على الالاءة[٢] كبسطام بن قيس[٣] وانقضّ عليه راميه فحصله بحذق وحمله بكَيْس، وتعذّر على السابع مرامُهُ، وَنَبابه عن بلوغ الأرب مقامُهُ، فصَعِدَ هُوَ وتربٌ له إلى جبل، وثبت في موقِفِهِ مَنْ لم يكن له في مرافقتهما قِبَلْ، فعنَّ له نِسرٌ ذو قوائم[٤] شِداد، ومناقير حِداد، كأنّه من نسور لقمان بن عاد، تحسبهُ في السماء ثالث أخويهِ، وتظنّه[٥] في الفضاء قبته المنسوبة إليه، قد حَلَق كالفقراء رأسه، وجعل ممّا قَصُر من الدلوق الدكْنِ[٦] لباسه، واشتمل[٧] من الرياش العسليّ إزارا، واختار العُزلة فلا تَجِدُ له إلا في فَنَنِ الجبال الشواهق مزارا، قد شابت نواصي الليالي، وهو لم يَشِب، ومضت الدهور وهو من الحوادث في معقل أشبِ[٨]. [من الطويل]

مليكُ[٩] طيورِ الأرضِ شرقاً ومغربا وفي الأفقِ الأعلى لهُ أخوانِ
لهُ حالَ فتاكٍ وحلْيَةُ ناسِكٍ وإسراعُ مِقدامٍ وفَتْرةُ واني

فدنا من مطارِهِ، وتوخّى ببندُقةٍ عنقه، فوقع في منقاره، فكأنّما هَدَّ منه صخرا، أو هدم به بناءٌ مشمخرّا، ونظر إلى رفيقه مبشراً له بما امتاز به عن فريقه، وإذا به قدْ أظلَّتْهُ عُقابٌ كاسر، فكأنما أَظَلّت صيداً أُفلِتَ من المناسر، إنْ حطَّت فسحاب انكشف، وإن أقامت فكأنَّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف[١٠] بعيدةُ مابين المناكب، إذا أقْلَعَتْ لجَّت في علقٍ كأنما يحاولُ ثأراً عند بعض الكواكب[١١]: [من المتقارب]

---

(١) في حسن التوسل: وأعار.
(٢) الألاءة: شجرة.
(٣) بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، قتله بنو ضبة، قال شاعرهم: [من الوافر]
فخرَّ على الألاءةِ لم يُوسَّدْ وقد كانَ الدماء فيه خمارا
انظر: المؤتلف والمختلف للآمدي ٧٣ و٢٠٨.
(٤) في حسن التوسل: قوادم.
(٥) في حسن التوسل: وتخاله.
(٦) في الاصل: الركن.
(٧) في حسن التوسل: اشتمل.
(٨) في حسن التوسل: أشد.
(٩) في حسن التوسل: عليك.
(١٠) تضمين لبيت امرىء القيس: [من الطويل]
كأنَ قلوبَ الطيرِ رَطْبا ويابساً لدى وَكرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي
(١١) تضمين لبيت ابي تمام: (ديوانه: ١/ ٢٨٣): [من الطويل]
مكارمُ لجّتْ في علوّ كأنما تحاولُ ثأراً عندَ بعضِ الكواكبِ

ترى الطيرَ والوحشَ في كفّها ومنقارها ذا عظامٍ مُذَالهْ
فلو أمكنَ الشَّمسَ مِن خوفِها إذا طَلَعَتْ ماتسمَّت غَزالَهْ

/ ٣٢٤/ فوثب إليها[١] وثْبَةَ ليثٍ قد وثِقَ من حركاتِهِ بنجاحِها، ورماها بأوَّلِ بُنْدقةٍ فما اخطأ قادمة جناحها، فأهْوَت كعودٍ صرع، أو طودٍ صُدع، قد ذهب بأسها وتَذَهَّبَ بدمِها لباسُها، وكذلك القدر يخادع الجوَّ عن عُقابهِ، ويستنزلُ الأعصم من عقابه، فحملها بجناحها المهيضِ، ورَفَعَها عن الترفُّع في أوْجِ جوّها من الحضيض، نزلا إلى الرُّفْقَةِ جَذِلين بربح الصَّفْقَةِ، فوجد التاسع قد مَرَّ بهِ كركي[٢] طويل السِّفار، سريعُ النِّفار شهيُّ العُراق، كثير الاغتراب، يشتو بمصر ويصيف بالعراق، لقوادِمِهِ في الجو هفيفٌ، وأديمُهُ[٣] لون السماء طرأ عليه غيم خفيف، تحنُّ إلى صوته الجوارح، وتُعْجَبُ من قُوَّته الرياح والبوارحُ، له أثرُ حُمْرةٍ في رأسه كوميض جَمْرٍ تحت رماد، أو بقية جرحٍ تحت ضماد، أو فصّ عقيق شقتْ عنه بقايا ثمادٍ، ذو منقارٍ كسنان، وعنق كعنانٍ، كأنما ينوس على عمودين[٤] من آبنوس [من السريع]

إذا بدا في أفقٍ مُقْلِعاً والجوُّ كالماءِ تفاويفُهُ
حَسِبْتُه في لُجَّةٍ مَرْكَباً رِجلاهُ في الأفقِ مجاذيفُهُ

فصبر له حتى جازه مُجَلِّياً، وعَطَفَ عليه مصلّياً، فخرَّ مضرّجاً بدمِه، وسقط مشرفاً على عدمِهِ، وطالما أفْلَتَ لدى الكواسر من أظفار المنون، وأصابه القدر بحبَّةٍ من حَمإٍ مسنون، فكثُرَ التكبير من أجله، وَحَمَلَهُ راميْهِ على وجه الأرض برجْلِهِ، وحاذاهُ غُرنوق[٥] حكاه في زيّه وقدْرِهِ، وامتاز عَنْهُ بسواد صَدْرِهِ، له ريشتانِ ممدودتان من رأسِهِ إلى خلفِهِ، معقودتان من أذنه مكان شنفهِ[٦]: [من السريع]

لهُ مِنَ الكركيِّ أوصافُهُ سوى سوادِ الصدرِ والراسِ
إن شالَ رجلاً وأنْبرى قائماً الفيْتَهُ هيأةَ برجاسِ

فاصغى العاشر له منصتاً، ورماه مُلْتَفِتاً، فخرّ كأنّه صريع الألحان، أو نزيف بنت الحان، فأهْوى إلى رجلهِ بيدِهِ وأيْدِهِ، وانقضّ عليه انقضاض / ٣٢٥/ الكاسر على

---

(١) بعدها في حسن التوسل: الثامن.
(٢) الكركي: طائر، جمعُهُ، كراكي (لسان العرب مادة: كرك).
(٣) في حسن التوسل: الأديمِ. (٤) في حسن التوسل: عُود.
(٥) الغرنوق: طائر أبيض، وقيل اسود، من طير الماء، طويل العنق (لسان العرب مادة غرنق).
(٦) في حسن التوسل: شنعِهِ، والشنف: القرط.

صيدهِ، وتبعَهُ في المطار صوغ[١] كأنه من النضار مصوغ، تحسبه عاشقاً قد مدّ صفحته، أو بارقاً قد بثّ لفحته. [من السريع]

طـويـلـةٌ رجـلاه مُـسْـودَّةٌ كـأنـمـا مـنـقـارُهُ خـنـجـرُ
مـثـل عـجـوزٍ رأسُـهـا أشـمَـطٌ جـاءتْ وفـي رقْـبـتـهـا مِـعْـجَـرُ

فاستقبله الحادي عشر، ووثبْ، ورماهُ حين حاذاه من كثبْ، فسقط كفارس تقطّر عن جوادِهِ، أو وامقٍ أُصيبت حَبَّةُ فؤادِهِ، فحمله بساقِهِ، وعدل به إلى رفاقِهِ، واقرن به مَرْزَم[٢] له في السماء، سمى معروف، ذو منقار كصدغٍ معطوف، كأن رياشَهُ فلق اتصل به شَفَق، او ماء صافٍ عَلِق باطرافه عَلَقٌ: [من الهزج]

لـهُ جـسـمٌ مِـنَ الـثـلـجِ عـلـى رجـلـيـنِ مـنْ نـارِ
إذا أقـلـعَ لـيـلا قـلـتُ بـرقٌ فـي الـدجـى سـارِي

فانتحاهُ الثاني عشر مُتمماً، ورماه مصمّماً، فأصابَهُ في زورِهِ، وحصّلَهُ[٣] من فورِهِ وحصل له من السرور ما خرج به عن طورهِ، والتحق به شبيطر[٤] كأنه مدية مُبَيْطر، ينحطُّ كالسيل، ويكرّ على الكواسر كالخيل، ويجمع من لونه بين ضدين يُقْبِل منهما بالنهار ويدبر بالليلْ، يتلوّى في منقاره الأيْمُ تلوّيَ التنِّين في الغيم[٥] [من البسيط]

تـراهُ فـي الـجـوّ مـمـتـداً وفـي فـمِـهِ مـن الأفـاعـي شُـجـاعٌ أرْقَـمٌ ذَكَـرُ
كـأنَّـه قـوسُ رامٍ عُـنْـقُـهُ يـدُهـا ورأسُـهُ رأسُـهـا والـحـيّـةُ الـوتَـرُ

فصوَّب الثالث عشر إليه بُنْدقةً فقطع لحيه وعُنُقه، وفقع كالصرح الممرَّد، أو الطراف الممدّد واتبعه عنّاز[٦]، أصبح في اللون ضده وفي الشكل نِدَّه، كأنه ليل ضمّ الصبح إلى صدره، أو انطوى على هالة بدرهِ: [من البسيط]

تـراهُ فـي الـجـوّ عـنـدَ الـصـبحِ حـينَ بـدا مُـسْـودَّ أَجْـنـحـةٍ مُـبْـيـضّ حَـيْـزوم
كـأسـودٍ حـبـشـيٍّ عـامَ فـي نـهَـرٍ قـد ضـمَّ فـي صـدرِهِ طـفـلاً مـن الـرُوم

---

(١) في المستطرف ١/ ١١٥: هو طير من صغار العصافير، أحمر الرأس.
(٢) المرزم: من طير الماء، طويل الرجلين والعنق، اعوج المنقار، في اطراف جناحيه سواد، اكثر اكله السحك. (حيان الحيوان ٢/ ٣١٤).
(٣) في حسن التوسل: حمله.
(٤) الشبيطر، أو السميطر: طائر طويل العنق جداً، يرى أبداً في الماء الضَّحضاح. (حياة الحيوان ١/ ٥٧٤).
(٥) في حسن التوسل: الغنم.
(٦) العناز: طائر من طير الماء (لسان العرب: مادة (عنز)، وفي القاموس: العقاب الانثى.

فنهض تمام القوم إلى التتمة، وأسفرت عن نجاح الجماعة تلك الليلة /٣٢٦/ المدلهمة، وغدا ذلك الطير الواجب واجباً، وكمل به العدد قبل أن تطلع الشمس عيناً او تبرز حاجباً، فيالها ليلة حصرنا بها الصوادح في الفضاء المتَّسِع، ولقيتْ فيها الطير ما طارتْ به من قبْلُ على كلّ شملٍ مجتمع، وأصبحتْ أشلاؤُها على وجه الأرض كفرائد خانها النظامْ، أو شرْب كأنَّ رقابهم من اللين لم يُخْلَق لهُنَّ عظام، وأصبحنا مثنين على مقامنا، منثنين بالظفر إلى مُسْتقرنا ومقامِنا، وأعين المولى جهدناومدَّعين لَهُ قَبِلَنا أوردَّنا، حاملين ماصرعنا إلى بين يديه، عاملين على التشرف بخدمته والانتماء إليه. [من الطويل]

فأنتَ الذي لم يُلفَ مَنْ لا يَوَدُّه ويدعو له في السرّ أو ندعي لهُ
فإنْ كانَ رميٌ أنتَ تُوضِح طُرقَهُ وإنْ كانَ جيشٌ أنتَ تحمي رعيلَهُ

والله تعالى يجعل الآمال منوطةً به وقد فَعَل، ويجعله كهفاً للأولياء وقد جَعَل،

ومنه قوله، مما كتبه جوابا عمن قيل من ادعى إليه في البندق:

ولا زالت قدمةُ فضلِهِ مذهبة الفواتح بالفتوح، منبضة بالنجوم عن قوس عزم، مذ تشبه به هلال الأفق لم يجسر نسر السماء الطائر أن يلوح، منبئة عن فتكات اهتّمام، لاذو الجناح أمامه بناج، ولا يسلم منه مثار الوحش الجموح، مطرزة حلّل الظلام برداء شفق، نشره في الأفق من صوب صابية دم الطير المسفوح، صدرت هذه المكاتبة، تتلقى بالقبول وجه قصدِهِ الجميل، وتقابل سعد طائره الميمون بواجب الودّ الجليل، ويثني على عزمِهِ الذي ما برح يسري في بردة اليمْن إلى رواتبه كل فخار، وتثنى أعنّة الثناء إلى هممه التي استخارت التوفيق في الأدعاء إلى قديم مجدنا الذي تتشرف به الأقدار، فجاد وشكر سداد مقصده الذي لايخفى مواقع اصابته الليل، واشتداد ساعده الذي أسْبل الجناح على رجل حامله في الأُفق إسبال الذيل، معلمة إن مكاتبته الكريمه وردت منبئةً عن طروقه مظان الاسترواح، وسراه إلى مواطن النجح التي تحمد /٣٢٧/ فيها عند الصباح، في رفقةٍ من أولياء دولتنا، مافيهم إلاّ مَنْ حَسَبُهُ في الولاء صميم وحديث مجدِهِ في إصابة مواقع الصواب في الخدمة قديم، مرهفاً عزمةً ما رأى نجوم أهِلّتها النسر الطائر إلاّ أصبح كأخيه واقعا، ولا نَهَضَتْ إلى باسط جناح تهنيه في أفق السماء إلاّ خرّ بين يديه متواضِعا، وإن السعد هيأ له مقاماً يستنزل فيه عظيم الطير من عواصم الأُفق، وتسلك فيه رسل قوسه إلى أرواح ذوات الجناح المحلّقة في الفضاء أقرب الطرق، وأنه حين مرّ به من اللغالغ صفّ قد أوثق بعضه القدر، وأوثق أوله بدرة عزمه، والبدر لمن بَدَر، أرسل أعزّه الله عن كبد القوس ابنها

فأنّتْ، وخطب إلى نفس تلك العصبة من الطير نفسها فما ضنّت، وصرع لغلغةً مَلِيحةً مُلِيحة، فأصابها في أقوى قوادِمها إصابةً صحيحة صريحة، فأهوت الى بين يديه من مكامِن مكانها، وحملها القديم الذي أشار إليه رافعا بالقسم بعلي لشانها، فتمنى كلّ تم لو حَصَلَ كما حَصَلَتْ ، [و]ودّ كل صوغ لو صيغت عيونه في جملة حليّها التي فصّلت، وانه ادعى لنا بهذه النسبة التي تَثنت بالقبول أحكامها، وتقضي بانتساج الأواصر حكامها، وقد علم بذلك جميعه، وأفضنا في شكره، وأفضينا إلى غاية الثناء الجميل عند ذِكره، وسررنا ببلوغ الوطر، وحصول الظفر، وتفاءلنا أنه كذلك ينزل على حكم سيوفنا كلّ مَنْ كَفَر، وقابلنا ذلك بوجه القبول المبتهج، وأمضينا حكم هذا الانتماء الملتحم والأنتساب الممتزج، ومن أولى منه بهذا الفخر الذي انتظمت عقوده، وتقابلت في أفق مجدِهِ سعودُهُ، فليأخذ حظّه من بشرى هذا القبول وبشره، حِبرُةُ خبرهُ الذي يتضوع الوجود بنشرِهِ، والله تعالى يجعل مطالِبَهُ مقرونة بالنجاح، قادمةً إليه بأنباء السعود على أوْثق قوادم واثبت جناح.

ومنه قوله في النيل:

وأجرى الخلق على عوائد كرمه /٣٢٨/ وأجرى لهم قدرته من حجب الغيب موادّ نِعَمِه، وأعلا لديهم موارد نيلهم، حتى ماكان يشرب بعروق ساقه من نيلهم بتناول الماء بفمِهِ، وأمر البحر فأقبل بالفرج القريب من الأمد البعيد، وأذن له في الرفع عن محلّه، فسجد على الترب شكراً وتيمم الصعيد، وإن لم يبق به الآن على وجْهِ الأرض صعيد، وأقبل بعد تقصير عامه الماضي بوجهٍ عليه حمرة الخجل، وعزم سبق سيفه إلى المحل العذَل بالأجل، وحزم أدرك الجدبَ موجُهُ قبل أن يقول سآوي إلى جبل، واستظهاراً على كلّ ما علا من الأرضَ حتى أن الهرمين باتا منه على وَجَل، ومهّد الأرض التي كانت ترقبه فهوّلها المنظر على الحقيقة، ووطيء بطن الثرى فنتج الخصبُ بينهما، وذبح المحل في العقيقة، وتجعد على الآكام فخيّل للعيون أنها تسيل، وشبّت مفارق الثرى بياض زبدِهِ وعادة بياض الشيب أن يخضب بورق النيل، يستقبل نعم الله التي سيسم الأرض وسمها، ويولى النعم وليّها، ويأتي بالركاب أتبُّها، حتى تغصّ بالنعم تلك الرحاب، ويظن لعموم ذي البلاد الشامية أن نيل مصر رَكِبَ إليها على السحاب.

ومنه قوله في مثله:

صدرت، ونعم الله قد عَمَّت، وآلاؤه مع تحقق المزيد قد تمت، والسيل قد بلغ في تتبع بقايا القحط الزُبىٰ، والنيل قد عمَّ بنيله حتى كلل مفارق الآكام وعمّم رؤوس الربىٰ، وحمى الأرض من تطرق المحول إليها فاصبحت منه في حرم، وظهرت به

عجائب القدرة، ومنها ابن ست عشرة بلغ إلى الهرم، وبثَّ وجوده في الوجود، فلو صور نفسه لم يزدها على ما فيه من كرم، وتَلَقّتْ منه النفوس أبهج محبوب طرد ممقوتاً، ووثقت من حمرته بالغنى والمنى إد لم يَدْرِ أياقوتاً تشاهد أم قوتاً، وجرى في الوفاء على أكمل ما ألف من عادتِهِ، وظهر بإشراقه وعموم نفعِهِ ظهور الشمس، فألقى على الأرض اشعّة سعادتِهِ، وبلغ الله به المنافع، فزعزع الجبال الشمّ ولم /٣٢٩/ يتجاسر على الجسور، واقطع الأرض الخصب الأرض كلّها فله في كلّ بقعةٍ مثال مرئيٌّ ومنشور منسور، وبعث إلى كل عمل من سرايا جنودِهِ عارضاً مغضباً على المحْلِ، مايخطُرُ إلاّ وسيفهُ مشهور، وجرى الأمر في التحليق على عوائد السرور، وعلّقت ستارة المقياس لا للإخفاء على عادة الاستار، بل للإشاعةِ والظهور، واستقر حلم المسرّةِ على السنن المعهود، وعاذ الناس به عند مرورهم إذ ذلك برحمة الله ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1]، وهاهو الآن يرفع إلى كلّ تلعةٍ على جناح النجاح، ويخيف السبل وماعليه حرج، ويقطع الطرق وليس عليه جناح.

ومنه قوله: يبشر بركوب السلطان بعد تقطّر كان حصل له عن جواده:

ولا زال مبشرا من النصر بما يقرّ به عين الهدى، ويكمد قلوب العدا، وينذر أهل الكفر من ركوبنا اليوم بطلائع ركابنا عليهم غدا، ويسرّ حزب الإيمان من أخبار موكبنا الشريف بيوم كفَّر الدهر ذنب إساءته بالأمس وافتدى، صَدَرتْ تخصّه ببشرى عمّت بشائرها، وسرّت بالمسرّات الكاملة بوادرها، وتأرّجَتْ الأرجاء، فلولا امانة الكتب لقيل: تمت بأسرار السرور ضمائرها، وطارت بها مخلقات التهاني في الوجود، ووجب بسببها وجوب سجود الشكر على كل مؤمن يتعبّد عن تجدّد النعمة بفرض السجود، وذلك أنه قد علم ماكان حصل من تأخر ركوبنا هذه الأيام، بسبب ما كان حصل من التقطر الذي كانت عاقبته بحمد الله مأمونة، وكبوة الجواد بحسن المآل ميمونة، بما أَلِفنا من عوائد تأييد الله وعنه مضمونة، وكان تأخر الركوب في تلك المدة اللطيفة لموافقة آراء الحكماء في خدمة المزاج، وملاطفة العلاج، وقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى في كمال الصحة، وشمول العافية، وزوال البأس، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2] ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، وسطرناها مبشرةً /٣٣٠/ بركوبنا الذي خَضَعَتْ له أعناق الكفر والشقاق، وسارت به ركائب البشائر ونجائب التهاني في الآفاق، وضاقت به فجاج الأرض بأولياء الطاعة، فلولا سلوكهم آداب

---

(١) سورة هود: ١٠٣. (٢) سورة ابراهيم: ٣٤.

الخدمة في الترجل بين أيدينا لزلزل ركض خيلهم بمصر أطراف العراق، فكان ركوبنا في موكبنا المنصور يوم كذا، وكان يوماً مشهوداً، ووقتاً من مواسم الزمن معدوداً، أربت فيه النعم على الحصر، ورفل به الدين في حلل التأييد والنصر، وسرى إلى أرواح العدا رعبُهُ، وعزّ به في كل افق دين الاسلام حزبُهُ، وتحقق به العدوّ الذي أملى له أن حركته حركة الذبيح، وجمعه الذي أَلَّفَهُ الشيطان بغرورِهِ للتكسير لا للتصحيح، وتضاعف شوقه إلى الجناب العالي في ذلك الموكب الذي أخذ الأولياء فيه من المسرّة بأوفى القسم وأوفر النعم، ورفلوا فيه في مطارف الحبور، واتخذوه بينهم عيدا سمّوه عيد السرور، وقد عجلنا بأعلامه بذلك، لعلمنا بمحبته الصادقة وموالاته التي هي بمحض الصفا ناطقة، ولأنا نعلم بمضاعفة سروره بها، وأدائِهِ نذور الشكر بِسَبَبِها، فليسرّ الأولياء بإشاعتها، وتتقدم بضرب البشائر في وقتها وساعتها، والله تعالى يضاعف إقباله، ويبلغه من النعم منيته وآماله.

ومنه قوله في تقليد لنائِب البيرة[١] بالاستمرار:

وعلم العدوّ أنه الندب الذي كثرت في سبيل الله أيّامه، وما قَصَدَهُ العدوّ إلاّ وتمنّى الذهاب وحث للهرب الركاب، وقنع من الغنيمة بالإياب، وولى جمعهم الأدبار، ولم يعد إلى أهلهم سوى الأخبار، وما أقدموا عليه إلاّ وقد علموا القوة من بأسه أنهم لا ينصرون، وما نظروا إليه إلاّ وقد جعل الرعب من بين أيديهم سدّاً ومِنْ خلفهم سدّاً فهم لايبصرون، وما قاتلوه بعدما قابلوه إلاّ أن الله طمس على قلوبهم، واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون. وكم أرسلوا في أيامِهِ إلى الثغر السوابق، فضرب بينهم بسور، وطارت إليهم من كنانة بأسه / ٣٣١/ حَمام الحِمام بأجنحة النسور، وسرت سراياه في بلاد العدوّ فسبقها الرعب إليهم وأحاط النهب بما لديهم، واستولى عليهم الذعرُ حتى صاروا يحسبون كلّ صيحةٍ عليهم، وأطلع على خفايا أحوالهم، فما أجمعوا أمراً إلا وعلموا به إذ يأتمرون، ولا مكروا مكراً إلاّ أظهره الله عليهم، والله أعلم بما يمكرون، وكان فلان هو الذي ماشام معه العدوّ بارقة ثغر إلا وأمطر[٢] من الوبال بوابل، وأوقعهم من النكال في كفّة حابل، فاقتضت الآراء الشريفة أن يزداد أمره تمكّناً وقدره تحلياً بالنعمة وتزينا، وسره استقراراً بعلو رتبته وتوطناً، وثغره تحسبا بما افترّ من النعمة وتحصّنا، ولذلك رسم بالأمر الشريف لا

---

(١) البيرة: بلد قرب سمسياط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصنية. (معجم البلدان ـ البيرة).

(٢) في الاصل: امطرتهم.

زالت الثغور بمهابته تبتسم، والجنود تتحكم بسطواته في ذخائر العدا وتقتسم، ان نجدد له هذا التقليد الشريف باستمراره في النيابة بالبيرة على أجمل عوائده، وأكمل قواعدِهِ، لنهوضه في مصالح الاسلام والمسلمين بما أحصى الله ونسوه، وإجراه عليه بما ألّفه سلفنا الطاهر من رشد كفايته وأُنسوه؛ ولأنهم غرسوه في هذا الثغر لتنمى به المصالح ويتعين أن يتعاهد بالإحسان سقيا ماغرسوه، فليتلق هذه النعمة بباع الشكر المديد، ويبرق بعلو الهمة إلى المزيد، من فضل الله عليه، فإن لديه المزيد، ويجرّد على من جاوره من العدا سيف عزمه، فإن نصر الله باسيافنا أقرب إليه من حبل الوريد، ويجعل سراياه طلائع جيوشنا المنصورة، فإنها قد تكون بأقصى الممالك وماهي من الظالمين ببعيد، ويكون متيقظاً للعدو في حال سكونه، فإنه قد يتحامل الجريح، ويتحرك الذبيح، والحازم من تراه في الأمن في درعه، فلا يبدو ليله إلاّ وهو لها متيقظ في العدو وإن غَفَلَ، مشمراً له عن ساق العزم وإن أسبل ملابس غُرورِهِ ورفل، فإنه إذا فعل ذلك لم يلحقه نَدَمٌ ولا لوم، والخاسر من جلبت عليه تعبَ سَنَةٍ راحةُ يوم، وليكن وله من الكشافة في كل فريق فرقة ناجية، ومن / ٣٣٢/ القصاد بكل طريق عصبة بأسرار القلوب مناجية، ليعلم مايأتي ومايذر وإذا لم يأت بعدوه حراك، فما يضرّ مع الأمين مبيته على حَذَر، وليضمّ الأطراف التي يطمع العدو بها في فرصة يختلسها أو دنيةٍ يفترسها، ليتعاهد منه رجال الثغر بالاحسان الذي يؤكد طاعتهم، ويجرّد قوتهم في الجهاد، واستطاعتهم فانهم رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه، وتقربوا بالجهاد في سبيله إليه، ولا يَدَع بالثغر مملوكاً نصرانيا، فإنه يطلع على الأسرار، ويتطلّع إلى الكفار، ولعَبْدٌ مؤمن خيرٌ من مشرك أولئك يدعون إلى النار.

ومنه قوله:

وينهي أنه أرسل طَيَّها قصيدة تنوب إلى حضورِهِ، وتعتذر لقصورِهِ، وتنبىء عن مساهمة خاطره لخاطرِهِ الكريم في مساءته وسروره: [من الطويل]

ومَنْ سرَّ أهلَ الأرضِ ثمَّ بكى أسًى ... بكى بعيونٍ سرّها وقلوبِ

ولما سام المملوك قلمه السعي في ذلك، مال إلى النفور، وجنح، وقال ما عادتي أن اسعى إلى هذا الجناب الشريف إلاّ في التهاني والمدح، فقال له المملوك إن مساء تلك المساءة أوْجَبُ أجراً، واستقبل من المساء فجراً، فكتب ما يقف الخاطر الشريف على مضمونه، ويتحقق به أن لمضمارِ حقِّه مدى نفق جياد القرائح من دونه.

ومن قوله:

يقبل الأرض رافعاً مجاب الدعاء، فاسحاً مجال الولاء، ناشراً على أعطاف

الطروس حلل الثناء، مبشراً نفسه والمسلمين بما منّ الله به من قدوم مولانا تحت أَلْوِية الظفر والنصر، محبوّاً بيمن العزمات التي قسمت أعداء الله وبلادهم بين الحصد والحصر، متوسلاً إلى الله تعالى أن يجعل عزماته المرهفة في سبيل الله، حيث سلكت ملكت، وسيوفه المحرّدة على أعداء الله أين سفرت من الغمود سفكت.

ومنه قوله من توقيع حسبة:

وبعد فإن أولى ما أنعم فيه / ٣٣٣/ نظر الاختيار، وأمعن فيه تدبّر الارتياد والاعتبار، أمر تعمّ الأمة منافعه، وتتم به بركات الرزق الذي تدّر بالتقوى منابعه. ويزال به الغش عن الأمه في الملابس والمطاعم. ويذاد به البَخْسُ في المكيال والميزان اللذين هما من أظهر المضار، وأخفى المظالم، وتراعى به الهيئات الدالة على إتمام المرؤة وإكمالها، وتدحض به النقائص التي تنتقد على أرباب المكانات في أقوالها وأعمالها، ولما كانت الحسبة هي الأمر الذي اشترك عموم نفعه، والمعنى الذي نبه على حصول الاضطرار إليه في إباحةِ الشيء ومنعه، والسبب الذي يحسم به مواد الأذى في التعرض إلى البيوع الفاسدة، والأقدام على مزج الأقوات النافقة بالكاسدة، والتحرّز من الغش في الأشياء التي لا يترك صانعها هو وأمانته، ولا يقنع منها بسوى اليقين، وإن غلبت على واضعها عفته وصيانته، فإن البلوى بها قد تعم، والحزم بها في ترك التقليد، وإذا كانت الأفراد لا تظهر مع الهيأة الاجتماعية فبين من يتحرّاها بالمباشرة، وبين من يتلقاها بالقبول بونٌ بعيد، فلذلك يتعين أن يكون مباشرها ممن هدتْهُ العلوم الدينية إلى مايعتمد من مصالح لا يخرج فيها عن حكمها، وحدته القواعد الشرعية إلى مايستند إليه فيها من عوائد لايعدل بها عن وسمها الشريف ورسمها.

وكان فلان هو معنى هذه الألفاظ المجملة، وسرّ هذه المقاصد التي كان يحتاج إيضاحها من ذكره إلى التكملة، وبتجاربه للفضائل قوة في الحق لايستفزها الرقى، واستقامة في الانصاف لا تميلها الأهواء عن سنن التقى، ورسمٌ بالأمر الشريف أن يفوّض إليه نظر الحسبة الشريفة، تفويضاً يمضى حكمه في مصالحها، ويجمل نظرهُ في داني الأمور ونازِحها، فليفعل في ذلك ماتقتضيه هذه الرتبة من منع احتكار وقطع أسعار، وتفقد مايصنع من منسوج ومرقوم، ومشروب ومطعوم ومجلوب ومخزون، / ٣٣٤/ ومكيل وموزون، ومعدود ومذروع، وباق على هيأة ومصنوع، ويجعل لذلك حدّاً في الجودة معلوماً، وقدراً في القيمة مفهوماً، ووصفاً في العلو والدنو والتوسط بينهما موسوماً.

ومنه قولُهُ، توقيع خطابة:

وبعد: فإن صهوات المنابر لا تستقل بكلّ راكب، ولا تستقرّ إلا تحت كل فارس

يزاحم شرف عمله الكواكب بالمناكب، ولا تذعن إلاّ لمن امتطى أعوادها أطال في المعنى وأطاب، وإذا قال أمّا بعد لم تختلف الآراء في أنّه دلّ على الحكمة بفصل الخطاب، وإذا ذَكّر بأمر الله أَصْحَبَ كلَّ قلْبٍ جامحٍ، وغضّ كلّ طرف طامح، وردّ كلّ عبدٍ عن طاعة ربّه نازح، وأصغى من صغى منه إلى قول مشفق في الله صالح، وخرجت الموعظةُ منه على لسانٍ صادق، فلم تعدّ حبات القلوب، وتتبع كلامه أدواء الضمائر فشفاها، ولا داء أوْجع من الذنوب، ووثقت النفوس في أنّه قول إمام عصره فتلقته بالتسليم، وجلست العلماء تحته للاقتداء بفوائده، فكان على الحقيقة فوق كلّ ذي علمٍ عليم، وأحق المنابر بارتياد مَنْ يصلح لاقتعاد غارِبها، وأولاها بالصدود عمن برز في صورة خاطبها، ما كان من أعْظَمِها رفعة، وأكرمها بقعةً، وأفخمها جماعة وجمعة، وأقدمها شهوةً في الآفاق وسمعه، وأعجبها بناءً وأبناءً، وأحملها عن أئمةِ الأمة أثقالاً وأعباءً، وأكثرها زَجَلاً بالتلاوةِ والأذكار، وأعمها بالقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار، ولما كان المسجد الجامع بدمشق المحروسة، هو الذي زاحم الأرض المقدسة بمنكبيه، فلو كان للمساجد الثلاثة رابع لشدّت إليه الرحال، وتحقّق بالرفعة التي تُسامى أن نور المشكاة تشرق من أرجائه ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾[1] تعين أن يُختار لها من رجل المنابر، وبطل المحابر، وهو فلان الذي شفت مواعظه القلوب وأثمَرَتْ بالتقى، واستلّت سخائم الصدور، واستقرت من المصلّى على النقا / ٣٣٥/ ورسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه الإمامة بالمسجد الجامع بدمشق المحروسة، والخطابة بمنبرِهِ الكريم، عملاً بالأولى في التقديم، واحتياطاً للإمامة التي هي أثبت دعائم الدين القويم، فَلْيَحِلّ هذه الرتبة التي لم تقرّب لغيره جيادُها، ولتُحَل هذه العقيلة التي لا تُزان بسوى العلم والعمل أجيادها، ويَرْق هذه الهضبة التي يطول إلاّ على مثله صعودُها، ويلق تلك العصبة التي تجتمع للاقتداء به حشودها، ويعلم أنه في موقف الابلاغ عن الله تعالى لعبادِهِ، والإنذار بما وَرَدَ عن الله ورسوله على مراد الله ورسوله لامرادِهِ، وتحت منبرِهِ من الأعيان من أن تلق غيره القول بتقليدِهِ، تلقاه بانتقائِه وانتقادِهِ، فيعتصم بالله في قوله وفعله، ويتيقن أن الكلمة إذا خرجت من القلب لا تقع إلاّ في مثلِهِ، وليجعل خطبة كل وقت مناسبة لأحوال مستمعيها، متناسبة في وضوح المقاصد بين إدارك من يعي غوامض الكلام ومَنْ لايعيها، وليوشّح خطبته

---

(١) سورة النور: ٣٦ـ٣٧.

بالدعاء لإمام عصره، ومالك أمصار الإسلام مع مصره، وللأمّة بعموم تخصيصه وحصره، وهو يعلم أنه يكون في المحراب مناجياً لربه، واقفاً بين يدي من يحولُ بين المرء وقلْبِهِ، فليلجأ إلى الله تعالى في الإعانة بالإخلاص على هول مقامه، ويسأله التثبيت بالعصمة في مستقره ومقامه، وليراع من وراءه من أهل التكليف، وتكثر جماعتهم بتجنب مانهى النبي ﷺ معاذاً من ترك التخفيف، ولينظر في عموم استطاعتهم دون خصوصها، فإن فيهم العاجز وذا الحاجة والضعيف، وليحافظ على فروض الكفايات الوازعة، والسنن التي ينادي لها: الصلاة جامعة، وليغرس في كل قلب حُبه، ليقوموا إلى الإئتمام به وهم فارهون، وليعمل في البدأة في ذلك بصلاح نفسه، فقد جعل ﷺ ممن لاتُجاوز صلاتُهم آذانهم من أمّ قوماً وهم له كارهون.

وله: مما كتبه على قصيده:

فليس فيها بيت /٣٣٦/ دخل في شفاعة أخيه، ولا معنى يثبت على غير قواعد الصحّة أو أخيه، ولا كلمة يصلح في مكانها سواها، ولا قافية أوْهى السّناد ركنها أو أضْعفَ الإقواء قِواها، وكل بيت منها بيت قصيدٍ يُعْقد بالخناصر عليه، أو سلك فريد يُشار ببنان البيان إليه، أو مقرّ معنًى رئيس تجلس نفائس المعاني بين يديه.

وأما نظمه فمنه قوله: [من البسيط]

هــذا ولـم يـبـقَ لـي فـي لـذّةٍ أربٌ ... إلا اجتماعي بأصحابي والزامي
وأينَ هم؟ خلّفوني مفرداً ونأوا ... فبتّ أُسْهِرُ أجفاني لنوّام
وأينَ نيلُ مرامي مِنْ لقائِهِمُ ... ضاقَ الزمانُ وهيَّا سهمَهُ الرامي

ومنه قوله: [من الكامل]

مَلِكٌ يوطّدُ ركنَهُ مِنْ مُلْحِدٍ ... أو مُعْتَدٍ بجدالِهِ وجلادِهِ
ألفَ الوقائع والسُّرى دونَ الكَرَى ... فقصورُ لَذتهِ ظهور جيادِهِ
يروي لسان سنانِهِ في حربِهِ ... خبر المُدرّع عنْ صميمِ فُؤادِهِ
مُتَّيقّظُ العزماتِ يعجلُ بأسُهُ ... جيشَ العدوّ بها عنِ استعدادِهِ

ومنه قوله: [من البسيط]

بانوا بقلبي وقلبي سارَ يتبعُهُ ... فلستُ أطمعُ منهمْ في خيالِ كَرى
ويحَ المُحبّ الذي سارت أَحِبَّتُهُ ... عنهُ ولم يقضِ منْ توديعِهِمْ وَطَرَا
وخلّفوه يناجي الركبَ بعدَهُمُ ... فلا يُبلِّغهُ عنْ ركبِهِمْ خَبَرَا
بَانوا فَصَوَّح نبتُ الروضِ بعدَهُمُ ... هذا وقد غادروا دمعي به غُدُرا

ومنه قوله يعزّي ببنت: [من الطويل]

وكم أوْجُهٍ قَدْ غِبْنَ في ظُلمةِ الثَّرى فلم يَرَها في ظلمةِ الليل كوكَبُ
ولا كالتي في المجدِ خالاتُ أمّها رقيَّةُ بنتُ الهاشمي وزينبُ

ومنه قوله[1]: [من المتقارب]

رأتني وقدْ نالَ منِّي النحول وفاضتْ دموعي على الخدّ فيضا
/٣٣٧/ وقالتْ: بعيني هذا السقامُ فقلتُ صدقتِ وبالخَصْرِ أيضا

ومنه قوله: [من الكامل]

ورأيتُهُ في الماءِ يسبحُ مرّةً والشَّعْرُ قدْ رفَّتْ عليهِ ظِلالُهُ
فظننتُ أن البدرَ قابلَ وَجْهُهُ وجْهَ الغديرِ فلاحَ فيهِ خيالُهُ

ومنه قوله[2]: [من الكامل]

وسَرَت بهِ في البحرِ جاريةً سوداءُ يسبقُ سيرُها الشُّهبا
فلو أنَّ حُكْمَ البحرِ طوعَ يدي لأخذْتُ كلّ سفينةٍ غَصْبا

ومنه قوله: [من الطويل]

أقولُ لهُ والغصنُ يُشبهُ قدّهُ أُداعِبُهُ والظَّبيُ يحسبُ إياهُ
أفيكَ سوى ذا الوجهِ يُسبى بهِ الورى فقالَ: وهلْ في البدرِ إلاّ مُحيّاهُ

ومنه قوله[3]: [من الطويل]

مضوا فاستردَّ الدهرُ أنسي الذي مضى كأنَّ لهُ عندي بقربِهِمُ قَرْضا
وبانوا فآلى البانُ لا مالَ بعدَهُمْ ولا عانَقَتْ أغْصانُهُ بعضُهُ بَعْضا

ومنه قوله: [من السريع]

هنّئتَ بالطفلِ الذي استرجعتْ بهِ العُلا ماضاعَ مِنْ دَيْنها
تكادُ تُخفي الشمسُ إنْ قابلَتْ طلعتَهُ خَوْفاً على عَيْنِها

ومنه قوله: [من الرمل]

دعْ فؤادي والصَّبا إنَّ الصَّبا عالجتْ سُكْرَ فؤادي فصحا
وأَعِدْ لي ذكرَ مَنْ حَلَّ الحمى فعسى يرجعُ قلبٌ تَرَحا

---

(١) الوافي بالوفيات: ٢٥/ ٣٣٠، والنجوم الزاهرة: ٩/ ٢٦.
(٢) الوافي بالوفيات: ٢٥/ ٣٣٤، وفوات الوفيات: ٤/ ٨٥.
(٣) فوات الوفيات: ٤/ ٩٢.

يـاأخـلاّئـي ومَـنْ حـسَّـنَ لـي ... كَـلَـفـي فـهـوَ الـذي قـدْ نَـصَـحَـا
أرْشـدونـي هـلْ قـضـى حـقَّ الـهـوى ... مـن بـبـذْلِ الـروحِ فـيـهِ سـمَـحـا

ومنه قوله يرثي شيخه مجد الدين ابن الظهير: [من الطويل]

بـكـتْـهُ الـمـعـالـي ولـمْ يُـرَ قَـبْـلَـهُ ... كـريـمٌ مـضـى والـمـهـلـكـاتُ نـوادِبُـهْ
/٣٣٨/ ولا غروَ أن تبكي المعالي بشجوها ... على المجد إذْ أوْدىٰ وهنّ صواحِبُهْ
أمـا والـذي أرسـى ثَـبـيـراً وحـلـمَـهُ ... لقد طاشَ حِلْمي يومَ زُمّتْ ركائبُهْ
وقـفـنـا وقَـدْ جَـدَّ الـوداعُ عـشـيَّـةً ... فَـمُـمْـسِـكُ دمعٍ يـومَ ذاكَ وسـاكـبُـهْ
أنـودع نـفـس الـمـجـد بيتـاً مـصـرّعـاً ... طـويـلا عـلـى زوّاره مـتـقـارِبُـهْ
ظـنـنـتُ بـأنـي مـخـلـصٌ فـي ودادِهِ ... وأخـطـأ وهـمـي، أسـوأُ الـظـنّ كـاذِبُـهِ
رجعتُ وأمسىٰ الجودُ يصحبُ نفسَهُ ... إلى رمسِهِ فـالـجـودُ لا أنـا صاحـبُـهْ

ومنه قوله: [من الكامل]

قُلْ لي عنِ الحَمّام كيفَ دَخَلْتَها ... يـاصـاحـبـي لِـتُـسِـرَّ خِـلاًّ مُـشـفِـقـا
أدَخَـلْـتـهـا وأولـئـكَ الأقـوامُ قـدْ ... شـدّوا الـمـآزر فوق كُـثـبـان الـنـقـا؟

ومنه قوله يصف قناةً احتفرت وأُنبط ماؤها لقرية المعيصرة: [من البسيط]

أعَـرْتـهـا نـظـرةً غَـرّا ولـو لَـمَـحَـتْ ... سحائبَ الصيفِ لانهلّتْ غَـوَاديهـا
فأصبحتْ مثلَ ظهرِ الأرضِ باطنُها ... نـوراً كـأنَّ الـثُّـريـا ركّـبـتْ فـيـهـا
يـكـادُ يـقـطـعُـهـا الـسـاري عـلـى فـرسٍ ... رَكـضـاً ولـيـسَ تـدانـيـهِ أعـالـيـهـا
تبدو على التُّربِ من بطنِ الثرى فتُرى ... تـقـبِّـلُ الأرضَ إجـلالاً لـمُـنـشـيـهـا

ومنه قوله: [من المتقارب]

إذا دغـدغـتـنـيْ أيـادي الـنـسـيـم ... فـمِـلْـتُ وعـنـدي بـعـضُ الـكـسـلْ
فَـسَـلْ كـيـفَ حـالُ قـدودِ الـمـلاحِ ... وعـنْ حـالِ سُـمْـرِ الـقَـنَـا لاتَـسَـلْ

ومنه قوله يمدح المنصور لاجين أيام نيابته بالشام ويذكر إحراقه نصرانياً تعرض إلى مسلمة في رمضان: [من الكامل]

يـامَـنْ بـهِ وبـرأيـهِ وروائِـهِ ... بَـلَـغَ الـمـرادَ الـديـنُ مـن أعـدائِـهِ
يـاكـافـلَ الإسـلامِ قـبـلـكَ لـم يـقـمْ ... هـذا الـمـقـامَ سـواكَ مِـنْ كُـفَـلائِـهِ
أرسـلْـتـهـا بـالـعـدلِ أحـسـنَ سـيـرة ... بـكَ يَـقـتـدي مَـنْ كـانَ مِـنْ أكـفـائِـهِ
وغَـضَـبْـتَ لـلإسـلامِ غـضـبـةَ ثـائـرٍ ... للهِ غـيـرِ مـشـارِكٍ فـي رائِـهِ

/ ٣٣٩/ وحميتَ سَرْحَ الدينِ مِنْ متخلّسٍ رجسٍ يسنّ الغدرَ في استخفائِهِ
أخفى سُراهُ إلى الحَريمِ وما دَرَى أنَّ الإلهَ وأنتَ مِنْ رُقبائِهِ
جمعَ الخِيانة والخَنَا في الأرض والـ إشراكَ بالرحمانِ فوقَ سَمائهِ
فأمرتَ أمراً حازماً بحريقهِ ورأيتَ أن القتلَ دونَ جزائهِ
طهّرت مِنْ دمِهِ الثرى فقذفتَهُ في النارِ إذْ هيَ مُنتهى نظرائهِ
وَرَفَعْتَ قدرَ السيفِ عنهُ وإنّهُ ليُجلُّ عنْ تنجيسه بدمائِهِ
أرعَبْتَ أهلَ الشركِ منهُ فكلّهم يلقى خيالَكَ واقفاً بإزائهِ
وسلبتَهم طلبَ الحياةِ فَمَنْ غَفَا ألْفى دبيبَ النارِ في إعضائِهِ
أو لو تخيّل في المقامِ بحرمةٍ خشيَ الحريقَ وماتَ في إغفائِهِ
ياداعي الإسلامِ صنتَ السربَ أن تدنو كلابُ الشركِ منْ ضُعفائِهِ
ماغِرتَ إلا للإله وخلقِهِ مِنْ فَتْكِ شرٍّ عبيدِهِ بإمائِهِ
واستشهدِ الشهرَ الشريفَ فإنهُ يُثنى بما أبديتَ في أثنائِهِ
عَظّمْتَ حرمتَهُ وأهلكتَ الذي لم يَرْعَ حقَّ اللهِ في آنائِهِ
فاسلمْ لهذا الدينِ تحرسُ سِربَهُ وتُغص جَفْنَ الشركِ منكَ بمائِهِ
واشكر الهكَ بالذي أُلهِمْتَهُ فيما فَعَلْتَ يُزِدْك مِنْ نعمائِهِ

ومنه قوله يهنىء بإبلالٍ من مرض: [من مجزوء الكامل]

صَحَّتْ بصحتك الأماني وصَفَتْ بها حِلَلُ التهاني
وجرى شفاؤك والسرورُ كما جَرَى فَرَسا رهانِ
برؤٌ أتى وضَنًى مضى فهما علينا نِعمتانِ
ولكلٍّ يوم سجدةٌ للشكرِ لابلْ سجدتانِ

ومنه قوله في وداع الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام: [من الكامل]

ياسيّدَ الثقلينِ دعوةَ مَنْ أتى يسعى إليكَ ولو على الأجفانِ
/ ٣٤٠/ فارقتُ رَبْعَكَ أولا لأداء ما كتبَ الالهُ عليَّ في القرآنِ
وَرَجَعْتُ أضحكُ للتواصلِ مرةً أخرى وأبكي للفراق الثاني

ومنه قولُهُ وقد أشرف على مكّة المعظمة: [من الطويل]

أقولُ لصحبي والفيافي كأنها صحائفُ خُطّتْ بالمَطِيِّ سطورُها

دعوا طيّ عَرْضِ البيدِ بالسيرِ والسُّرى فهذا حِمى ليلى وهاتيك دُورها

ومنه قوله: [من الرمل]

قاتلَ اللهُ رفيقاً بالحِمَى أنْفَدَ الأدمعَ واستبقى الغراما
عادَ مِنْ بَرْقِ الثنايا فسقى وجنةَ الصبِّ ولم يسقِ البشاما
وكثيبٍ في الحِمَى تحسبه ظلّهُ الناحلَ وجداً وسقاما
يرقبُ الأرواحَ إنْ هبّتْ صباً علّها أنْ تُبْلِغَ الحيَّ السلاما

ومنه قوله: [من الطويل]

كأني بكمْ والبيدُ تُطوى لديكُمْ وقدْ فُزْتُمُ دونَ المتيمِ باللِّقا
وقد عبَّرتْ عنْ وجدِكُمْ عبراتُكُمْ إذا الدمعُ منكم ثَمَّ أفصحَ منطقا

ومنه قولُهُ: [من الطويل]

سلوا الركبَ هلْ مرّوا بجرعاءِ مالكٍ وهلْ عاينوا قلباً تركتُ هنالك؟
وأحْسَبُهُ ما بينَ سَلْعٍ إلى قُبا أقامَ وإلاّ فهو مابينَ ذلك

ومنه قوله: [من الطويل]

إذا البرقُ مِنْ تلقاءِ كاظمةٍ عَنَّا أذابَ الحَشَا مِنَّا وزادَ الكرَى عَنَّا
حسبناهُ إيماضَ الثغورِ على النَّقَا وليسَ بهِ لكنّهُ قارَبَ المَعنى
متى قالَ حادينا رويداً فبينكمْ وبينَ الحِمى مقدارُ يومينِ أو أدنى
وَهَبْنا لهُ شطرَ الحياةِ فإنْ أبى ولمْ يُرْضِهِ ماقدْ وهبنا لَهُ زِدْنا

ومنه قوله: [من الخفيف]

هل لحيّ إلى اللقاءِ سبيلُ وجيوشُ الفناءِ فينا تجولُ
/ ٣٤١/ أو يَلَذُّ المقامَ ثاوٍ بدارٍ ليسَ يدري متى يكونُ الرَّحيلُ
مزمعٌ للمسير عنها ولا زا دُ وإن كانَ فهوَ نزرٌ قليلُ
شغلتْهُ وفُرّغَتْ مِنْ لُهاها يدُهُ فهوَ فارغٌ مشغولُ

ومنه قوله: [من مجزوء الكامل]

ولّى الدُّجى وكأنكمْ بسنَى الصباحِ وقدْ تنفَّسْ
وغدا رداءَ دجًى تدثَّرَ بـ ـالكواكبِ وهوَ أطلسْ
عَلِقَ الظلامُ بذيلِهِ فكأنهُ ثوبٌ مُقَنْدَسْ
والشمسُ تبدو في المورّدِ أولاً ثمَّ المُوَرّسْ

كـالـخَـود تُـجـلـى بـالـثـيـا ... بِ تـظـلُّ تـخـلـعُـهـا وتـلـبـسْ

ومنه قولُهُ: [من البسيط]

تُبدي السماءُ لنا معنى الحِمَى بسنًى ... ناءٍ قريبِ سُفورِ الوجهِ مُحتجبِ
إذا ظـمِـئـنـا تـوهّـمـنـا مـجـرّتَـهـا ... نهراً طفَتْ فيهِ أكوابٌ مِنَ الشّهُبِ
كـأنـهـا روضـةٌ حَـفَّـتْ أزاهـرُهـا ... بجدولٍ مِنْ نميرِ الماءِ ذي شُعَبِ
أو حلَّةٌ من بديعِ الوَشْيِ مُعْلَمَةٌ ... بالنَّوْرِ معقودة الأزرارِ مِنْ ذَهَبِ

ومنه قوله: [من الطويل]

عسى وقفةٌ بالركبِ ياحاديَ الركبِ ... لأسألَ مابينَ المحامِلِ عنْ قلبي
فعهدي بهِ لما استقلّتْ ركابُكمْ ... وقد قالَ للساري إلى طيبةٍ سِرْبي
وقدْ تُقعِدُ الأقدارُ مَنْ قلَّ حظُّهُ ... على أنهُ وافى الهوى وافرَ الحُبّ
ولـكـنـني لم أتَّهمْ في تأخرّي ... على كثرةِ الأسبابِ شيئاً سوى ذنبي

ومنه قوله[1]: [من الطويل]

أسرّوا إلى ليلى سراهم فما انجلى ... وباتَ كطرفي نجمُهُ وهوَ حيرانُ
كلانا غريقٌ في الدموع وفي الدجى ... كأن دموعَ[2] العينِ والليلَ طوفانُ

ومنه قوله[3]: [من الطويل]

كـأنَّ الـدراري والـنـجـومَ ودارةً ... حوتْهُ وقد زانَ الثُّريا التئامُها
/ ٣٤٢/ حَبَابٌ طفا مِنْ حولِ زورقِ فضّةٍ ... بكفّ فتاةٍ طافَ بالراحِ جامُها
كـأنّ سـهـيـلاً والـنـجـومَ وراءَهُ ... صفوفُ صلاةٍ قام فيها إمامُها

ومنه قوله في الرثاء: [من الطويل]

أبحرَ الندى طودَ المَعَالي وإنّهُ ... ليُغنى عن التصريحِ باسمكَ مَنْ يُكني
حَلَلْتَ برغمي في الرُّغامِ وإنَّهُ ... لِمَنْ تحتَهُ يُبلي ومَنْ فوقَهُ يضني
أمرٌ على مغناهُ كي يذهبَ الأسى ... كعادتِهِ الأولى فيُغري ولا يُغني
وأقسمُ أن الفضلَ ماتَ لموتِهِ ... ويخطرُ في ذهني أخوهُ فاستثني

ومنه قوله: [من الطويل]

(١) الوافي بالوفيات: ٢٥/ ٣٢٩، وفوات الوفيات: ٤/ ٨٣.
(٢) في الأصل: الدموع.
(٣) الوافي: ٢٥/ ٣٣٧، وأعيان العصر: ٥/ ٣٨٩، وفوات الوفيات: ٤/ ٨٦.

شربتُ بكأسٍ ما رآها أخو أسًى ... ولا ذاقَها قبلي مُحبٌّ ولا بعدي
فكررْ بسمعي ذكرَ سَفْحِ طويلعٍ ... وبان المصلى منعماً واحدُ لي وحْدي

ومنه قولُهُ: [من الكامل]

بانُوا وخلّفني الأسَى في رَبْعِهم ... أبكي الطلولَ مُصرّحاً ومعرّضا
ولو استطعتُ فراقَها لتبعتُهمْ ... فزمامها بيدي وماضاقَ الفضا

ومنه قوله وهو من باب المغايرة: [من الكامل]

ولقد ذكرتُكِ والفوارسُ نحونا ... تترى فمدّرعٌ وآخرُ حاسِرُ
فنسيت حُبَّكِ عنه ذاكَ فخامةً ... ووددْتُ أني في الهزيمةِ طائر

ومنه قولُهُ: [من البسيط]

مَنْ حاتمٌ عنه واطّرِحْ فبهِ(١) ... في الجُودِ لا بِسواهُ يضْرب المثلُ
أينَ الذي برّه الآلافُ يتبعُها ... كرائمَ الخيلِ مِمَّنْ برّهُ الإبلُ
لو مُثّلَ الجودُ سرحاً قالَ حاتِمُهُ: ... لا ناقةٌ ليَ في هذا ولا جَمَلُ

ومنه قوله: [من البسيط]

ياراكبَ الناقةِ الوجناءِ مُشتملاً ... ثوبَ الظلامِ كنجمٍ لاحَ في أُفقِ
يَؤُمّ قبلَ ازدحامِ الركبِ طيّبه كي ... يطفي الجوى أو يروّي غلّة الحُرقِ
كنْ لي رفيقاً لاسعى نحوها عَجِلاً ... إمّا على صَحْنِ خدّي أو على حَدَقي
عساك تحيي بما توليه مِنْ كَرَمٍ ... روحي وتُدركُ ماتلقاهُ مِنْ رَمَقي
وإن أتيتَ فقلْ خلّفتُ مرتهناً ... بالسوقِ يأتيكَ إن طالَ المَدى وبَقِي

ومنه قوله: [من المتقارب]

بلغتُ مرادي ونلتُ المُنى ... وزادَ سُروري وزالَ العَنَا
فماذا ارتجي بعد ذا ... وهذا الرسولُ وهذا أنا
فبُشراكَ بُشراكَ يا ناظري ... تمَلّى وإياك أنْ تغبنا
فحيثُ التفتَّ رأيتَ الرسولَ ... وآثارَهُ مِنْ هُنا أو هُنا
تملّى فهذا مكانُ الحبيبِ ... وهذا التواصلُ قد أمكنا
وخلّ الدموعَ إلى وقتِها ... وإن حَسُنَ الدمعُ عندَ الهَنَا

---

(١) كذا ورد صدر البيت في الاصل.

وختمت ذكر شيخي رحمه الله بهذه الأبيات المتضمنة للمديح الشريف ليختم بالصالحات عمله وإني لاؤمل أن يحسن في دار الكرامة نُزُله، وأنْ لا يخيب في الله وفي رسوله ﷺ أمَلَهُ، ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾[1].

ومنهم:

[٢٥]

ابن حمائل

علي[2] بن محمد بن سليمان بن حمائل، الشيخ الإمام، جمال الدول، علاء الدين أبو الحسن

أهل هذا البيت تخدمهم الامم، من بيت صلاح ما فيه شبهةٌ لمن يذم، وكتب الإنشاء منهم جماعة، وتلقّوا بالفطرة سرّ هذه الصناعة، فنفذوا لسلطان البراعة، ونفثوا سحر البيان في عقد اليراعة، وكان هذا الرجل نسيج وحده، في العوارف الحسان، ونسيب جدّه أعنى غانماً[3] غانماً للإحسان، مع ملابسته للدول في أمورها، وممارسته لها في أحوال حزنها وسرورها، إلا أنه كان يحجزه دينه، ويحجبُهُ يقينه، وكان أقوم أهل بيته برئاسة لاكبر فيها، ورياضة لا كدر لصافيها. ومرؤءةٍ كانت تلذ له ولو أدّت إلى الخطر، وأبدت / ٣٤٤/ الأهوال دون الوطر، ووقع على القصص، فأولى مِنناً، وأجرى الله به الخيرات زمناً، ولم يقصد إلاّ وجه الله بفعله، ولا أسدى المعروف إلا لأهله، ثم مات غالِبُ من جرى لهم به ذلك المعروف، وبقي في بقاياهم، وحصل به الملوك الذين كتب منهم الآخرة ببعض دنياهم، ولم يكن أسرع منه إلى أداء حق واجب، ولا أدعى لصحبة صاحب، ولا أسبق إلى عيادة مريض وتشييع جنازة، وتنويع كرامة وغزارة، مع ملازمة الصلاة مع الجماعة، وتعهد للمسجد، ولو قدر لما غاب عنه ساعة، ومداومة تلاوة لا تفتر من تردادها، وصلوات لا يخلّ بأورادها، هذا وبابه مفتوح، وسحابُهُ ممنوح، وتجشمه مع جلسائه مطروح، وتجهمه بالنسبة إلى غيرِهِ خفّة روح، لبشاشة وجهٍ تروي غلّة الصادي، وسعة صدرٍ

---

(١) سورة المطففين: ٢٦.

(٢) وقيل في اسمه، علي بن محمد بن سليمان، ولد سنة ٦٥٢هـ ومات بتبوك سنة ٧٣٧هـ.
انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات: ٢٢/ ٣٣، وفوات الوفيات: ٣/ ٧٨، والدرر الكامنة: ٣/ ١٠٣، وشذرات الذهب: ٨/ ٢٠٠، وتلخيص مجمع الآداب: ٤/ ٢/ ٥٨.

(٣) غانم جده لأمه، وقد شهر المترجم بنسبته إليه، فكان يقال: علاء الدين ابن غانم (الوافي: ٨/ ١٩).

تفيض على رحاب النادي، وسرعة إجابة تعاجل صوت المنادي، مع يدٍ في هذا الشأن لا يخونها بنانها، بل يزينها بنيانها.

ومن نثره ما اتعب القرائح في أثره قوله يصف قلعة[1]:

ذات أودية ومحاجر، لا تراها العيون لبعد مرماها إلا شزراً، ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلا نزراً، ولا يظنّ ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفرات خندق يحفّها كالبحر المحيط، إلاّ أن هذا عذب فرات، وهذا ملحٌ أجاج، ولها واد لا يقي لفحة الرمضاء ولا حرّ الهواجر، وقد توعرّت مسالكه. ولا يداس فيه إلاّ على المحاجر، يتفاوت مابين مرآه العليّ وقراره العميق، ويقتحم راكبه الهول في هبوطه، وكأنما ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[2].

ومنه قوله ولقد أحسن في وصف القلم فقال:

القلم الذي كم أعان من هو قارىء للحروف، ومن هو لصنوف الضيوف قاري. وهو الراكع الساجد في ملازمة الخمس طاعة للباري، شُقّ لسانه فنطق، وأنار صباحه وهو على جلابيب /٣٤٥/ غسق، ثم خضع له السيف، وزاره معنى تخيله لمامد، وهكذا في الظلام زور الطيف، ولم يزل يعظم ويتسوّد، ويحكى الرمح فيتخطر، والغصن فيتأوّد، ويقيم فلا يقتات، ويسافر فيتزوّد.

ومنه قوله:

فسارعوا إلى انجاد من نازَلَهُ العدوّ من إخوانكم المسلمين، ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[3]، وامضوا عليهم بقدمكم واقدامكم، وانصروا الله بجهادكم واجتهادكم، فانكم ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[4]، وكتاب الله أولى ماعمل به العاملون، قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾[5].

ومنه قوله:

وقد تجرّدوا عن العلائق، واشتغلوا بخدمة المخلوق[6] عن الخلائق، وبرئوا من التكلف، وزهدوا في عرض الدنيا فهم من الذين تعرفهم بسيماهم و﴿يَحۡسَبُهُمُ

---

(١) الوافي بالوفيات: ٢٢/ ٣٤.
(٢) سورة الحج: ٣١.
(٣) سورة التوبة: ٣٦.
(٤) سورة محمد: ٧.
(٥) سورة التوبة: ٤١.
(٦) كذا في الاصل، ولعله أراد: بخدمة الخالق.

ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[(١)].

ومنه قوله يصف الكرة.

وانتهى إلى حديث الرغبة في تلك اللعبة، وهي الجارية التي لم تزل بالضرب دانية شاسعة، متبدلة من الطراد والإبعاد، دائرة في أرض الله الواسعة، فلم تزل أيدي الأيدين، وحملات المؤيدين خافضةً لها رافعة، تالية في مجال القتال إلى النجم، فإذا وقعت الأرض تلالها ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝﴾[(٢)] من الشجر الأخضر كونها، وإذا سأل عنها سائل قيل: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾[(٣)]، لاتزال الفوارس إليها كالجهاد بالجياد تتعادى، وعليها مع المرافقة والمصادقة بالتنافس تتعادى، تشبه الهامة الملقاة بين أرجل الجياد في الحرب، ولا تزال هاربة من طالبيها لكثرة مايقع فيها من الضرب، تنفر من الأبطال نفور حمر مستنفرة فرّت من قسورة، وتتواثب عليها الرجال تواثب الليوث الضارية، فكم لهم من الكرّة على تلك الكرة.

ومنه قوله في توقيع رجل يعرف /٣٤٦/ بالجمال إبراهيم:

فليعمل بتقوى الله في هذه الأعمال آتياً فيها من حسن التأني كل ما يليق أن تشاهده العيون من الجمال، وهو أدرى بما يعتمده، إذ هو الصدر الذي كل أحمد بعلمه عليم، والرئيس الذي لا يخفى بين الرؤساء، وهلا يخفى مقام ابراهيم؟.

ومنه قوله من كتاب كتبه:

يقبل اليد لا زالت بمننها مواسية، ولكلوم القلوب بطب كلامها آسية، ولعهود محبيها على ممر الأيام، وإن نسيها من نَسِيها غير ناسية، وينهي ورود الكتاب الكريم، فتسلّى كل مَنْ حَجَبَه النوى، وتملّى بنضارته ومحاسنه عن وجهٍ بالجفاء قد جفّ، وعصر بالذم قد ذوى، وعلم الإشارة العالية إلى أمر الحبيب النازح، والذي [إذا] جدّ في الصد كان غير مازح، وإنّه استدلّ من كلام المملوك على شدّة موجدته لبعده، وعدم صبرهِ عن استجلاء وجهه واعتناق قدّه، ودعا بعودة ذلك الغائب قبل أن يذوى عوده، ورجوعه قبل أن تنطفىء بطلوع الذقن سعوده، وقد تحقق تفضله وهو نعم مَنْ أَمَّهُ الشاكي وأَمَّلَهُ:

[من الطويل]

ولا بُدَّ من شكوى إلى ذي مروءةٍ يواسيكَ أو يسليكَ أو يتوجَّعُ

ومنه قوله في كتاب إلى قاضي القضاة إمام الدين القزويني[(٤)]:

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٣. (٢) سورة الواقعة: ١.

(٣) سورة البقرة: ٦٩.

(٤) القاضي امام الدين، ابو المعالي، عمر بن عبد الرحمن بن عمر، القزويني، الشافعي، المتوفي بالقاهرة سنة ٦٩٩هـ (البداية والنهاية ١٤).

أدام الله الأنس بقرب الجناب العالي القضائي الامامي، وجعله للمتقين إماماً، ورأيه للصواب زماماً، ولقّاه بمنّه حيث يحلّ تحيّة وسلاما، ورد المشرّف الكريم الذي تلقّاه بقلبه قبل يده، وحلّ منه بمحل روحه من جسدهِ، وناظره من أسودِه وسرّ بما تضمنه من أخبار قربه، وبما دَلَّ عليه من فنون فضلِهِ الذي المملوك منه على بيّنةٍ من ربّه، ويحقق الإشارة الكريمة في تفويض قضاء القضاة إلى نظره الكريم، وحصول التعويل في ذلك على مقامه الذي يتشرّف به كلّ عظيم، ولقد حال هذا المنصب من جلالة قدره ما سر بِهِ واغتبط، وتحقق بمصيره إليه أنه على الخبير /٣٤٧/ به سقط، ووصل التقليد الشريف، وقَبل وقُوبل بالامتثال، وحصل السرور به وعم، وكمل به هناء القلوب وتم، وعرض له من الارتياح إلى لقائه ماسلبه القرار، وعظم به الشوق عنده، وأعظم مايكون، إذا دَنَتْ الديار من الديار، ولولا مايعلمه المولى من التصدّي لمهمات الاسلام، لمانابت من قصد لقائه الاقلام عن الاقدام، والله تعالى يقدمه قدوم البدر بروج سعوده، ويديم في المعالي سموّه إلى الغاية التي لا مزيد على غايتها في صعوده.

ومن شعره قوله: [من الطويل]

بكيتُ بدمعٍ فاقَ دمعَ الغمائمِ ... وناحتْ لنوحي ساجعاتُ الحمائمِ
على جيرةٍ جارَ الزمانُ لفقدِهِمْ ... ومِنْ بعدِهِمْ جاورت غيرَ مُلائم
مضتْ لي بهمْ أيامُ أنسٍ حميدةٌ ... نَعمْتُ بها دهراً كأحلامِ نائم
وإني بأرضِ الشامِ اشتقاقُ ارْضَهم ... إذا لَمْعُ برقٍ لاحَ منها لشائِمِ
فللهِ أيامُ الصِّبا حيث لا نرى ... وقاراً لنا إلا بخلعِ العمائم

ومنه قوله[1]: [من الطويل]

وكم سرحةٍ لي في الرُّبى زمنَ الصِّبا ... أشاهدُ مرأى حسنِها متملّيا
ويسكرُني عَرْفُ الشذا مِنْ نسيمِها ... فأقضِي هوًى مِنْ طيبِه حتفٍ انفيا
وأسألُ فيها مَبْسِمَ الروضِ قُبلَةً ... فيبرزُ مِنْ أكمامِهِ لي أيديا
فللهِ روضٌ زرتُهُ متنزهاً ... فأبدى لعيني حسنَ مَرأى بلا رِيا
غدا الغصنُ فيهِ راقصاً ونسيمُهُ ... يكرُّ على مَنْ زارَهُ متعدِّيا
ترجلتِ الأشجارُ والماءُ خرَّ إذ ... نسبم الصبا أضحى [به] متمشّيا
تغنتْ لديه الوُرْقُ والغصنُ راقصٌ ... فيغرقُ وجهُ الأرضِ مِنْ كثرةِ الحيا

(١) الوافي بالوفيات: ٢٢/٣٧، وفوات الوفيات: ٣/ ٨٣.

وهذه أبيات لله من سمع مثلها، لو حصلت لابن خاقان لجعلها واسطة قلائده، أو ابن بسّام لاتخذها من أفضل ذخيرته[١].

ومنه قوله: [من البسيط]

فَعَدّ نفسَكَ مِنْ أهلِ القبورِ بها
فعنْ قليلِ إليها سوفَ تنتقلُ

/٣٤٨/ واذكرْ مصارعَ قومٍ قد قضوا ومضوا
كأنهُمْ لم يكونوا بعدَما رَحَلُوا

يا ليتَ شِعْرِيَ ما قالوا وقيلَ لهم
وما الذي قد أجابوا عندما سُئلوا

ومنه قوله[٢]: [من مجزوء الرمل]

سَلَبَ المهجةَ مني بالجفونِ الفاتراتِ
لو يزورُ البيتَ لمْ يَرْ م الحَشَا بالجَمَراتِ

وكنت قد بعثت له درجين أحمرين من الورق، ثم لم أعد أجهز له بعدهما شيئاً فكتب إلي: [من البسيط]

يا مَنْ مكارمُهُ عمّتْ فكمْ شملتْ ذا فاقةٍ مابقى منهُ سوى الرَّمَقِ
قد كنتَ أرسلتَ لي درجتينِ لونُهما مِنْ حُمرةٍ مثلُ لونِ الشمسِ في الأُفقِ
وبعدَ ذلكَ لم أفرحْ بمثلِهما مِنْ سيدي لا ولا شيءٍ مِنَ الورقِ

فبعثتُ إليه درجين أحمر وأبيض وكتبت إليه معهما: [من البسيط]

امسكْ سحابَكَ لا يُفضي إلى الغَرَقِ فقدْ كفى منهُ صوبُ الوابلِ الغَدَقِ
بدائعٌ مِنْ علاءِ الدين بثُّ بها ألذّ في طيبِ تقبيلٍ ومعتنقِ
مطلوبُهُ ورقٌ مني ويا عجباً مِنَ الغصونِ إذا احتاجت إلى الوَرَقِ
وقد بعثتُ به تجلى الخدود له في أحمرٍ شَرِق أو أبيضٍ يَقَقِ
وماعليّ إذا أرسلتُ رائدَهُ وعاد بالشهبِ مخبوءاً مِنَ الأفقِ
هذا عليٌّ وهذا جودُ راحتِهِ يامَنْ رأى البحرَ والأنواءَ في نَسَقِ

ومنهم:

---

(١) الاشارة إلى كتاب (قلائد العقيان) للابن خاقان، و(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام الشنتريني.

(٢) البيتان في الوافي: ٢٢/ ٣٧، والفوات: ٣/ ٨٣.

[٢٦]

عبد الباقي[١] بن عبد المجيد بن أبي المعالي متى[٢] بن أحمد بن محمد بن عيسى بن يوسف القرشي، المخزومي، أبو المحاسن، تاج الدين، المعروف باليماني، المكي مولداً

أحد مشاهير الأدباء، وأحد جماهير الأولياء. سرحة فضائل، ودوحة علم يتفيّأ ظلالها عن الأيْمانِ وعن الشمائل، بحر يؤخذ منه درّ[٣] بلا ثمن، وروضٌ[٤] تجد منه روح الرحمان من قبل اليمن. قدم مصر قديماً ثم الشام، وأقام بدمشق مدّةً، ثم هفت به ريحٌ يمانية، وذهب بلبّه برق علانية، /٣٤٩/ فَسُلِبَ قراراً، وغَلَبَ استقراراً، وعاد إلى وطنه آيباً، وعاود وسكنه لاذاماً ولا عائباً، واتصل بالملك المؤيد داود، ووصل منه بثقة ودود، فعوّل عليه وقلّده كتابة السرّ لديه، وبقي حتى انمحى من اديم السماء هلاله، وأضحت في تلك الأفياء ظلاله، فقرّبه قريبه الملك الظاهر قرباً حقده الملك المجاهد بن الملك المؤيد، فأخذ أمواله واجتاحها، ونزف أمواهه وامتاحها، وتطلبه ليردي به ففرّ وسكن مصر، ثم ما استقرّ فقصد دمشق، ثم أتى القدس الشريف واستوطنه، واتخذ المسجد الأقصى موطنه، ورأيته به بين علوم ينشر جناحها، وتعبدات يضيء في حندس الليل صباحها.

ومن نثره قوله من رقعةٍ كتبها إليّ قال فيها:

وكتبها المملوك في يوم توقّدت جمرتُهُ، وطالت في نهار القيظ حجولُهُ وغرّته. ونارُهُ على الأكباد موقدة، لوّ لم يكن إلاّ لأن المملوك فارق سيده، ونسيم المملوك

---

(١) عبد الباقي بن عبد المجيد، المخزومي، أصله من اليمن، وبها ولد سنة ٦٨٠هـ، وقدم دمشق ومصر وحلب، ودرس بالمشهد النفيسي، ودخل اليمن فأقام بها مدة وولي الوزارة، ثم عزل وصودر، واستقر بالقدس، درس به واشتغل، وتردد بين دمشق وحلب وطرابلس، ورحل إلى الشام، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٣هـ. أو ٧٤٤هـ.

وكان أديباً، مؤرخاً صنف كتباً، منها «اشارة التعيين إلى تراجم اللغاة والنحويين» في دار الكتب. و«القطة العجلان في مختصر وفيات الأعيان» في جامعه اكسفورد. و«الاكتفا في شرح الفاظ الشفا» في دار الكتب، و«بهجة الزمن في تاريخ اليمن» وفي نهايته ترجمة كتبها مصطفى حجازي.

وانظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٤٢٣، وشذرات الذهب ٦/ ١٣٨، وفوات الوفيات ١/ ٢٤٥، والبدر الطالع ١/ ٣١٧، والوافي بالوفيات ١٨/ ٢٣، والنجوم الزاهرية ١٠/ ١٠٤، والأعلام ٣/ ٢٧٢.

(٢) في الشذرات: ابن عبد المجيد بن عبد الله، وفي الدرر: ابن عبد المجيد بن عبد الله بن متى بن أحمد.

(٣) في الاصل: دراً. (٤) في الأصل: روضاً.

سموم، وشربه يحموم وحشاه تكاد تذوب، وجفنه كراه في نهاره وليله مسلوب، وهيهات ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[1].

فكتبت عنها إليه جواباً منه:

وكتبتها واليوم قد طال في أفقه جناح الشعاع، وأدهم الصبا وغرَّ برقه اللماع، وصَرَّ الجندب في نواحيه، وسكت الطير بعد تلاحيه، وغرق في آلة الليل وعرف بسوادِهِ في كفّ ماحيه، والشمس في كبد السماء ترمي بشرر كالقصر، والأصيل قد آلى أن لايميد ولا يجنح للعصر.

ومن نثرِهِ أعني اليماني قوله:

وينهي أنه بلغه وفاة الولد، وأن الله نقله إليه ولم يعلق بشيء من الذنوب، وجعله ذخيرة وفرطا لمولانا يوم يجازى كلّ امرىء بما قدّم من سالف العمل المحسوب، فلقد جرّع الاحشاء صابهُ، وجرح القلب لساعة التفريق مصابُه، وقطع الاكباد فقده، وأورث الأحزان بُعده، فياله من قرة عين أورثها القدر قذى الأجفان، وغصن سؤدد اقتطعته قبل الازهار يد الاحزان، وهلالُ حُسْنٍ / ٣٥٠/ اعْتَوَرَ نوره الحدثان، وثمرة جودٍ أُوْدِعَت مدارج الأكفان، ورَبْعُ أُنسٍ أَمسى صاحبه بالخطوب خللاً، وفادح أمرٍ أضحى بيان أمره جللاً، على أن الخطوب لا تزاحم إلا ثبيراً، ولا تعاند بورودها إلا كبيراً، وفي سجاياه الكريمة خلالٌ قل أن تكون لغيره من الناس، وصفاتٌ تفرّد بها وهي الثبوت عند هجوم البأس، ولئن غاب من سماء علائه هذا النجم الزاهر، وذهب أثره المنير الباهر، فكم في فلك محامِدِهِ من نجم سيادةٍ بأنوار الرئاسة ساطع، وكوكبِ فضلٍ مايقال له: هذا غارب حتى يقال لأخيه: هذا طالع.

ومنه قوله من كتاب كتبه إليّ:

وينهي أنه لما كان من خدم هذا البيت الشريف، والغني بسمة ولائه بين أوليائه عن التعريف، وقد سارت مدائحه في هذه البقية العمرية مغربة ومشرّقة، ومنجدة ومعرقة، يهجم بها وجفنه لبعده عن باب سيده لا يذوق غمضا، ولا يعرف ليلاً أقبل أو يقضى، وقصارى مناه أن لايقبل فيه قول حاسد، أو جاهل، حاشا المجلس الشريف، أو عالم معاند، ومولانا يعذر المملوك، فإنه كتب هذه الضراعة والليل أسفر دجنه، والسهر قد توسّم المملوك حتى تغيرّ ذهنه، والمملوك مايتغيرّ في هذا البيت المعمور العمري ظنّه.

---

(١) سورة الحج: ٧٣.

فكتبت له جوابا منه:

وانتهى إلى هنا، والنسيم في السحر قد هلهل ثوب الظلام، وسحب رداءه على أعقاب ذيول الغمام، والجوزاء قد انتشرت تحت مسبح السرطان، وشعاع الشمس المحمر قد غرق في مقلة الأسد الغضبان، والديك قد طلع على شرف الجدار، وصاح في الليل منه جاويش النهار، والمصابيح قد فرغ سليطها، وكثر في ضوء الصباح تخليطها، فوقف المملوك وقفة الحيران، وتململ تململ الغيران، وأراد أن يطيل القول بقدر مايدعوه إليه رائد الشوق، ويحمله على أن يحمل السمع الكريم فوق الطوق، ثم رجع فعاتبه الطليح، وجاذبه قلمه الطريح، وانبه أدبه /٣٥١/ وقال له: قد آن لك أن تريح الرجل من تطويلك وتستريح.

ومنه قوله: أعني اليماني في كتاب يزعمه في معنى الكتاب الفاضلي بفتوح القدس:

هذا وعلوم الديوان العزيزة محيطة باستيلاء أهل التثليث على البيت المقدس. والمسجد الذي هو على التقوى مؤسس، وأنهم جعلوه مفزع طريدهم، ومقرّ شريدهم، ومعقل رهبانهم، ومعلم أديانهم، ومقر طالبهم، ومنتجع هاربهم، ومنهج شرعتهم، وعمود بيعتهم، وعكاظ نفاقهم، وموسم شقاقهم، وبادي سمّارهم، ومظهر شعارهم، ومنار منارهم، وملتقط أخبارهم، ومنزل أحبارهم، مع أن طوائف الفرنج ببيعته طائفة، وأمم النصارى على دين الصليب به عاكفة، لايعرفون عن الانجيل غير ما بدّلوه، ومن القرب غير ما مثلوه، فنهض إليه الخادم في جحفل من أولياء الدولة القاهرة، يرون الموت مغنماً، والسلامة مغرماً، والهزيمة عاراً، والادبار ناراً، ما حلّوا بأرض إلا وأنبتت من ساعتها قناً، ولا نازلوا حصناً إلا بلغوا من شامخه المنى، وبايعوا الله على أخماده جهارا، وعاهدوه على أن لايذر ماضي سيوفهم على وجه الأرض من الكافرين دياراً، فلما شاهدنا رفعتها، وميّزنا علوّها ومَنَعَتها، رأينا معهداً أخذ الشيطان على أهله أن لايخفر لهم عهدا، وعلما أمسى لدين النصرانية على ما أدعوه فردا، قد كملوا عدتها وعديدها، واستخدموا للمحاربة شقيّها وسعيدها، وإذا رأوا على أرجائها حفيراً لجمالها سواراً، ولحمايتها من التطرق إلى منازعة نزعها إسواراً، بناء ولكن تقصر عن مماثلتِهِ يدان، وإتقان هو بلا شك من صنعة الجان، وعمارة ولكن من ساحرٍ عتيد، وتدبير ولكن عن رأي شيطان مريد، وتماثيل يخيل إلينا من سحرهم أنها تسعى، وصحراء أرضٍ ليس لمن أقام بها ظلّ هناك ولا مرعى، فاسترقينا مكانا دلّنا عليه حسن الايمان، نصبنا على ارجائه منجنيقاً هدر بازله، وهَتَمَ ثغر تلك الأبنية نازله، وتجسَّدت عصيّه حياتٍ تلقف ما

صنعوا، وفرقت ماجمعوا، وظل لنا / ٣٥٢/ ولهم يوم ولا كيوم ذي قار، وحرب ولكن أين حزب أهل الجنّة من حزب أهل النار، سيوف مخروطة، وأيدٍ منا ومنهم بالدعاء مبسوطة، وعجاج انعقد مثاره، وقسطل ولكن استعر بحوافر الصوافن إوارُه، قد بذلوا أنفسهم دونها، وراموا ولو بهلاكهم صونها، وعلا شرفاتها منهم أمم لاتُحصى، وجمع آلت يدُ المنية لعددهم لا بُدّ تستقصى، ولم تزل المنايا تشحن بقوة الله ذلك الحفير، وتورد سكان تلك البقاع بعون الله سوء المصير، ثم سارت رجافتنا، وحال النقب في أرجائها، وبلغت الأماني من النصر غاية رجائها، وصيرّناها بالحديد والطلل الدارس بعد المشيد، وحملنا عليهم بقلب رجلٍ واحد، فانطمس محكم التثليث، واستبان طريق الواحد، وتفرق من بها بين أسير اثقّلته أغلاله، وقتيلٍ غرته بالاقدام آمالُهُ، وطريد لا يعرف له مكاناً، وخائف كلّما تبدّى له مرأى ظنّه إنساناً، وفتحناها بكرة الجمعة، وَعَلَتْ أعلام الخلافة المعظمة على بقايا شرفاتها خافقة، وأطلاب الاسلام لاستئصال شأفتهم متلاحِقة، وقام خطيبنا على صهوة المنبر الأقصى مرتجلاً، وصاغ أوصاف المواقف المعظمة والمواطن المكرمة لجيده حلى، وذكره الحرب وكان ناسيا، وألان له بالمواعظ قلبا وكان لعدم الادّكار قاسيا، وأعدنا إليه ماكان يعهده من الجمع، وتقدمنا بهدم مااستحدث من البيع، وشيدنا مادثر من كل مشهد، اعتمدوا تخريبه ومعبد، واستنقذنا معالم الصخرة الشريفة من الإشراك، فعادت إلى إخوّة الحجر الأسود، وهذا الفتح، وإن كان المقصود منه مكاناً مخصوصاً، فهو فتح يشتمل على مدنٍ عامرةٍ، ورباع غير غامرة، وقلاع مرفوعة، وفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وقرًى ظاهرة، وركبان واردة وصادرة، وهذا المسجد شقيق الحرمين، وثالث الرحلتين، ومعبد الأنبياء وموطن بركة الأولياء، فللهِ درّه فتحاً أقرّ نور الدين في ناظِرِهِ، وشعار الإسلام في مشاعره.

قلت: ووقفت على رقعةٍ ذكر فيها يوماً، أصبح والثريا فيه كأنها / ٣٥٣/ في بروج المطالع، كف جود تختمت في رؤوس الأصابع، والصباح جام لجين ملأته أشعة الشمس خمرا، والمجرّة بحر مزبدٌ يقذف الفواقع درّاً، والنسر قد حَنجَر مما حام، وسهيل قد تقدم خوفاً من الزحام، وقد عارضت وسط السماء الشعرى، كأنها ياقوتة في مذرى، والجوزاء قد مالت كشارب قهوةٍ لم تمزج، أو حسناء تنفّست في المرآة ونظرت محاسنها ولم تتزوج[1].

---

(١) تضمين لقول ابي بكر الخالدي: (ديوان الخالديين ٣٤)

وتمايلُ الجوزاءِ يحكي في الدجى ... ميلانَ شاربِ قهوةٍ لم تمزجِ
وتنقبت بخفيف غيم ابيضٍ ... هي فيه بين تخفُّرٍ وتبرجِ
كتنفسِ الحسناءِ في المرآة إذ ... كملتْ محاسنُهاولم تتزوجِ

والرقعة هذا مضمونها وهو:

أسعد الله مولانا بهذا اليوم الذي تمثّلَت ثريّاه صورة كأس يطاف به على الجلاس، وأتى نسره إلى المجرّة حائماً على الورود، زاريا كأنه مجهود والجوزاء مسبلة الذوائب، وسهيل لها خاطب، والشعرى شعرها وغدائرها الغياهب، ومدّ الله عمر مولانا، ومتَّعَهُ بشرف المناقب.

وبهذا ذكرت قولي من قصيدة وهو: [من الكامل]

شقَّ الصباحُ غلالةَ الظلماءِ وجلا النهارُ غديرَ كلِّ سماءِ
لولا كواكبُ في الصباحِ تأخّرتْ كحمائمٍ مبثوثة في ماءِ
بصبيحةٍ رقّتْ حواشي هُدْبِها ووَشَى النسيمُ بها إلى الأنواء
حتى تَجَلَّتْ مثلَ خَودٍ ختمتْ بالنجمِ تحتَ مظلّة الجَوزاء
وبدا سهيلٌ ثمَّ والشِّعْرَى يلي الـ ياقوتةَ الصفراءَ بالحمراء
وكأنما زهرُ المجرّةِ روضةٌ قدْ كُلِّلَتْ بجواهرِ الأنداء
والنسرُ في شَفَقِ الصباحِ مشمّرٌ كي لا يُبَلَّ لباسُهُ بدماء

عدنا إلى اليمني. ومن شعره قوله: يذم عدن[1]: [من الكامل]

عدنٌ إذا رُمتَ المقامَ بِرَبْعِهَا فلقدْ تُقيمُ[2] على لهيبِ الهاديهْ
بلدٌ[3] خلا مِنْ فاضلٍ وصُدورُهُ أعجازُ نخلٍ إذ تراها خاويهْ[4]

وقوله: [من الوافر]

إذا حَلَّتْ أيادي البرقِ رَمْزا على كنزِ الغمامِ سقينَ حرزا
وأمطرتِ الغيومُ خيولَ سيلٍ على وجهِ الثرى يجمزن جمزا
أَثَرْنَ بياته فكسا رُبُوعاً تعرَّت عنْ ملابسِهنَّ خزّا
وباعَ المشتري لما توالى محبَّتَهُ لكفِّ الأرضِ بزا
واطلعتِ الرياض نجومَ نورْ فتُغريها أيادي الشَّرْبِ حزّا
/٣٥٤/ وولى عسكرُ الظلماءِ هزماً أخافتْ مِنْ سنانِ البرقِ وخزا
فحينئذٍ تَرَى عُقَدَ الثُّريا على جيدِ الحمائلِ قدْ تجزّى

---

(١) البيتان في الدرر الكامنة: ٢/ ٤٢٤، والوافي: ١٨/ ٢٦، والفوات: ٢/ ٢٤٧.
(٢) في الدرر والوافي: أقمت.
(٣) في الأصل: بدر، والتصويب عن الدرر والوافي.
(٤) في الاصل: هاوية، والتصويب عن الدرر.

فـمـا هـذا الـتـأنّـي يـا نـديـمـي لـقـدْ خـالـفـتَ إذْ حـالـفـت عـجـزا
وجـامُ الـشّـربِ يُـنْـسَـبُ لـلـثُّـريـا وشـمـسُ الـراحِ نـحـوَ الـكَـرْمِ تُـعـزى
فـواصـلـنـي بـهـا فـلـعـلّ دائـي يـزولُ إذا شـربـتُ الـخـمـرَ مُـزّا
عـلـى نـهـرِ الـمـجـرّةِ والـدراري عـيـونٌ حـولَـهَـا يُـبـديـن غَـمْـزا
فـجـرّدْ جـيـشَ لـهـوكَ يـاخـلـيـلـي لـغـزوِ غـنـيـمـةٍ مِـنْ قـبـلِ تُـغـزَى

ومنهم:

[٢٧]

ابن غانم عبد الله(١) بن علي بن محمد بن سلمان(٢)، عرف بابن جمال الدين، أبو الفضل، غانم المقدسي

شاب برع وبَهَرَ، وطلع مثل الكواكب وظَهَر، وما أعرف في أيّ وقت اشتغل، ولا متى ألهب سَعْفَهُ واشتعل، كأنما لقن سحر البيان من حين ولدته أمّه، وبزغ في الأفق نجمه، وأتى بلطائف الشباب، وتلاءم في الكؤوس جائل الحباب. هذا إلى حسن خط كأنما نمنمه عذاره، وقيام حسنه عن المحبين باعذاره، وهذا كلّه في مدّة أقصر من رجع النفس، واسرع من قدح الزناد للقبس، في زمان أعْجل من إيماء المليح، وأقلّ من مقام الضيف عند الشحيح، لكنّه لما جاء بالألفاظ يبهر حسنها، ويرجح وزنها، ظنّ أنه قد انتهى، وتناول بإحدى يديه القمر وبالأخرى السها، فترك الطلب، وقد كان له انتصب، واستنزف ثمده البلى حتى نضبْ، وكان يشغله مايشغل الشباب، ويصرفه عن الثبات على حال مايصرف النسيم الهاب، فكان لايرى مستقرّاً قدر دقيقة، ولا رجع طرف حقيقة، فكان يعيبُه التهوّر(٣)، ويزينه كثرة التصور، وما

---

(١) عبد الله بن علي بن محمد بن سلمان بن حمائل، جمال الدين ابن غانم، وقد تقدمت ترجمة عمه شهاب الدين أحمد.
وكان أديباً شاعراً مترسلاً، ولد سنة ٧١١هـ بدمشق، واشتغل بالحديث، وولي إنشاء الديوان بالشام، وله مع الصفدي مراسلات ورد بعضها في الوافي.
وتوفي شاباً بدمشق سنة ٧٤٤هـ.
انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ١/ ٢٢٧، والدرر الكامنة: ٢/ ٢٨٢، والوافي بالوفيات: ١٧/ ٣٥٠، وأعيان العصر: ٢/ ٦٩٦، والأعلام: ٤/ ١٠٦.

(٢) في الفوات: سليمان. قال الزركلي: وهو مضبوط في مخطوطتي من «الحان السواجع» بضمة على السين ـ سليمان وفيه مراسلاته مع الصفدي في نحو ١٢ صفحة.

(٣) في الأصل: الهور.

سلم حتى ودّع، ولا تلقته القوابل حتى شيعه من شيّع.

ومن نثره قوله في جواب كتبه عن نائب الشام تنكز[١] إلى نائب طريق في معنى الحريق[٢] الذي حصل بدمشق سنة اربعين وسبعمائة:

أعزّ الله أنصار المقر الشريف، وحرس برّه الذي يتحرى، وحبوه الذي يتسرّع إلى القلوب ويتسرّى، وأمره الذي / ٣٥٥/ يبرد بنداه كلّ كبدٍ حرّى، وسرّه الذي إذا ناجته خواطر الإشفاق والإرفاق انشدهما: (قفانبك من ذكرى) المملوك يقبل الباسطة الشريفة، تقبيلا يبرد به الغليل. ويداوى بطبه الفكر العليل، وينهي ورود مشرفة تتضمّن أمر الحريق الذي حصل بدمشق في هذه المدة، حتى أحرقها بنارِهِ، وحفّ جنتها بالمكاره، وسلّ عليها سيف الضرام، وحكم عليها حكم الدهر على الكرام، وأطلع في وجه شامها لغير الحسن شاما، وكاد يأتي عليها لولا تدارك لطف الله بـ ﴿يَنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾[٣] وهجم على جيرون[٤] فغير وهشتها، وعلى الخضراء[٥] فرمى فرشتها، وعلى اللبادين فكسر قلبها؛ لأنه كان زجاجاً، وعلى الوراقين فما شعرت حتى صارت باللهب كل ورّاق سراجاً، وكل طلحيةٍ وقد تفرّق طلحها المنضود، وكل كراسة وقد رد وجوهها البيض وهي سود، واضحى فم الفوّارة يصّاعد حجرات انفاس، وسوق النحاسين يرسل منه إلى سور الجامع شواظ من نار ونحاس، وكل محبوبة بالطرائفيين وقد رأت مكروهها، وكلّ براعةٍ دهماء وقد ابيض بالنار فودها، فلذلك سودت الدوي وجوهها، وغادر كل دكان دكا، فأوسع قوائم العمد وأظلاع السقوف كسراً وفكّا، واقعد بيت الساعات إلى قيام الساعة، ودخل إلى باب الجامع لكن لغير طاعة، وكان يصلي به من يُصلّي، ويقبل على صف العابدين فيولّي، واهتزت المأذنة بحمى نافض، وتشعَّثَ وجه المشهد ألأبي بكرى فكأنما أصابته عين الروافض، وترقرقت عيون العابدين من الألم، ورقّ صحن الجامع لمأتم هداة الساجدين من المأذنه بنار على علم، ومازالت مراءاة اللهب حتى خربت المنار، وصف بعد ذلك في صحن الجامع ما فضل عن أكل النار، فيا لها داهية عمت

---

(١) تنكز، ابو سعيد، سيف الدين، وكان نائب السلطان بالشام، وكان محمود السيرة، حازماً مهيباً، قبض عليه السلطان الناصر وقتله سنة ٧٤٤هـ، ودفن بدمشق. (الوافي: ١/ ٤٢٠، والبداية والنهاية: ١٤/ ١٨٧).

(٢) انظر خبر الحريق في البداية والنهاية: ١٤/ ١٨٦.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٩.

(٤) جيرون، اسم قصر مقابل الباب الشرقي للجامع الاموي، لاتزال اطلاله باقية.

(٥) الخضراء: اسم قصر بناه معاوية بن أبي سفيان، جنوبي الجامع الاموي.

المسلمين ومصيبة سودت وجه الدنيا، فبيض الله وجه الدين، وواقعة لها اقتربت الساعة، وقارعة لولا المعوذات لما قُبلت فيها شفاعة، ويالها عيناً دخلتْ على هذه الأسواق فَخَلَتْ، ويداً استجدت منها محاسنها فأعطتها وما بَخِلَتْ. /٣٥٦/ كانت لعمارتها رمانة. فأمْسَت جلّنار، وكانت محاسنها ليس عليها غبار، فأصبحت لاتعرف من الغبار، وماسكت لهذهِ النار لسان. ولا خفى لها شخص ولا عيان، ولا نشفت الدموع التي أطفأتها، ولا بردت ضلوع القياسير التي دفأتها، حتى طلعت شمس الفتنة من غربها، وتعالت أصوات النائبة عن قربها، وأتى النقص من جهة الزيادة، وسعى الداء بما وسع العيادة، فصار سوق الكفت كفاتاً، وسوق الخام رفاتاً، وخرجت قيسارية القاس عن القياس، وتوارد الاياس والرجاء في أمر البلد بمجموعة ولكن غلب الاياس، فركب المملوك بنفسه ومن عنده من الأُمراء، وبأيديهم أسلحة المعاول، وعلى عواتقهم لقطع عنق النار سيوف الجداول، فكم من أرسٍ قد داسته النار دوساً، وكم من قدّ وقوسٍ تصرّفت فيهما، فصار القوس قدّا، والقدُّ قوسا، وكم من أوتارٍ أخذت منها الأوتار، وكم من سهام نفذت لها في قلب الاسلام كما شاء الكفار، وكم من حلقةٍ انقضت، وكم من عين بيضاء اسودّت، وعين سوداء ابيضّت، وكم من لجام دخل فيه لسان النار فلاكه، وكم من بحر سرج رمى عليه اللهب شبكةً فأكل أسماكه، وبقي المملوك كلّما دار إلى دار سبقه إليها المقدار، أو أشار إلى دكان تداعَتْ منها الأركان، هذا والصاغة تعوّذ عين ذهبها من عين لهبها، والمأذنة ترجف فرائص تختها من مصرعِ أُختها، وتدارك الله الحال بلطفهِ، ومنّ بإطفاء ذلك الحريق، ولولا منّه لم نطقه ولم نُطْفِهِ، ولم تقتصر الحال عن هذين الحريقين، بل تتابع بعدهما لهما أمثال، ومايشك المملوك في صدق ماأشار إليه مولانا من تلك الحكايات، وضربه من الأمثال، فإنه مايسعّر هذه النار إلا عدوّ أزرق، ومَنْ أُحرق قلبه بحريق جانب من معبدِهِ، فلا غرو إذا أحرق.

ومنه قوله: [من الكامل]

يا سادةً نزحوا دموعيَ عندَما	نَزَحُوا وعهندي منذَ ذلكَ عامُ
أوَما وجدتم رِيّ دمعي عندما	وافاكُم مِنْ ناظرَيَّ غمامُ
كيفَ اعتقدتمْ سلوتي عن ذكركُمْ	ايطيبُ إلاّ بالكمالِ كلام
/٣٥٧/ ها أنتمُ في ناظري مادمتُ يقـ	ـظاناً وتجلوكمْ ليَ الأحلام
أشجى فراقُكُمُ دمشقَ فغصنُها	قلِقٌ إذا ناحتْ عليهِ حَمامُ
ونزلتمُ الشهباء فاجتالت لأن	علمتْ بأن النازلينَ كِرَام
طابتْ بكم ويطيبُ كلُّ حمًى غدا	يُعزى لابراهيمَ فيهِ مقام

وينهي ورود مثاله الكريم، بعد أن وجَدَ عن بعدٍ ريحه، وشام برقه العالي، قبل أن يأتي قميصه بالبشرى الصريحة، وأحسن الخاطر بسروره الزائر، وإن كان ماكل روايات الخواطر صحيحة، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾[(1)]، وصدقت ظنون حبي، ويا أيتها الأيام التي قد طال بيني وبينها عَتْبُ النوى حَسْبي، ثم عطف على الكتاب الكريم يغازله، ويصاعد فيه نظر اللوم وينازله، ويقول له: أين لطف الترسل إذْ عدمنا لطف الكلام؟ قد احترقنا بنار إبراهيم ولا برد ولا سلام، قَدْ أَخَذَ بفراقِهِ لذّة أيامنا نهبا، وقد كنا ونحن بالشعراء لا نطيق جفاءه، فكيف وقد ركب علينا الشهباء، وشرع في فنون العتب ينسقها، وفي حمول الشكوى يوسقها، إلى أن فضّ لطيمة الطرس ففاح عبيرُهُ، ولاح حبيره، وباح بالبيان صغير لفظه وكبيرهُ، فكل زهرة حرف عليها للحسن ندى، وكل غصن سطر طفا حبّ القلوب عليه نقطا، وبدا يودّ ابن هلال[(2)] لو استعار منه معنى الكمال، ويتطلع ياقوت[(3)] إلى أن يكون فصاً لخاتمه الذي ختم به على هذا السحر الحلال، ويتهافت المسك على أن يكون به تحرير ذلك الحرير، ويخلع صوف ذلك الغزال، فلما رأى المملوك نسمات تلك المحاسن قد ناوحت الهبوب، وتروّاحت بالشمال والجنوب، وأنشد لسان حالها: ومن أين للوجه الجميل ذنوب، قبل بشفاعة حسنِهِ الأعذارَ، ونادى حرب العتب: ضعي الأوزار، وعاود وصف الشوق فيقول: مالربيع على أنس البلاد بهِ، وتحلّى عاطل الروض بذهبهِ، واستطال صاحي الطير بخيامه المضروبة، حيث حبال الشمس من طنبهِ /٣٥٨/ باشدّ من شوق المملوك إلى تلك المحاسن التي من رأى خط شبابها تحقق ان مامحاه آسن، وقد آن للمملوك أن يهرب من الاستهداف لهذه الأوصاف، وألا ينسبه إلى انحراف كل قليل الانصاف، وما أكثر القليل ذكر مولانا المقام، ومقامه فشوق وما ذوّق، وعرض بيتين انشرا من لسان المملوك وقلمه ميتين، فحذا حذوهما في اللفظ، وتصرف في المعنى، وقال في معنى ما مولانا بصَدَدِهِ من ملازمة الاشتغال:

---

(١) سورة النمل: ٤٠.

(٢) يريد أبا الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب. الخطاط المشهور المتوفي ببغداد سنة ٤٢٣هـ. **انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣/ ٣٤٢، ومعجم الأدباء: ١٥/ ١٨ وعبر الذهبي: ٣/ ١٣ والشذرات: ٣/ ١٩٩، وسير أعلام النبلاء: ١٧/ ٣١٥.**

(٣) يريد به: ياقوت بن عبد الله المستعصمي الرومي، جمال الدين المتوفي سنة ٦٨٩هـ، وكان اديبا كاتبا شاعراً مصنفاً من موالي الخليفة المستعصم بالله العباسي، اشتهر بحسن الخط وأخذ عنه كثيرون، انظر ترجمة في: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٨٣ و٨/ ١٨٧، والحوات الجامعة لابن الفوطي ص ٥٠٠، البداية والنهاية ١٤/ ٦.

[من الوافر]

أقمتُ مجاوراً في عُقْرِ بيتي ... لأنَّ تنقلي داءٌ عقامُ

إذا رُزِقَ الفتى عقلاً وديناً ... ودنيا برّةً طاب المقام

آخره تتمة:

مَلَلْتُ من المقام على خمولٍ ... وحلَّ من الهموم بي انتقام

ولو أني سعيتُ لكسب مالٍ ... حلالٍ طال لي فيه المقام

وإذا وَصَلَتْ المقامة تمت المقامة، وإلاّ فكلام المملوك خبط عشواء في هذه الحالة، نسق المملوك من كتابه (عرف الادب الوردي) فتنهدّ وارتاح إلى ذلك الدين الذي عرّى المملوك من فضله، مع أنه ما برح حتى للرياض بالكسوة يتعهد، فيا شوقي إلى دنانيره وقد ألْقاها الشوق في بناني، وإلى وجناتِهِ الوردية وقد وقَفَتْ نصب عياني، ولكن ما أفعل في سوء الحظّ، غايتي أن ألومه، ومولانا يعرض عليه لهفاتي وما يخفى عنه طريق اكرومة.

ومنه قوله:

وينهي ورود البشرى التي ملأت الوجوه بِشْرا، والوجود نَشْرا، وأقامت بالسرائر سوقاً أضحت تباع به البشائر وتشرى، بما حَصَلَ لمولانا من الإقبال الشريف الذي تَعدَّدَتْ تشاريفهُ وتحدّدت تكاليفهُ، وتزيدت على وسع الآمال مصاريفُه، من تيجان غمام اعتدلت فوق مفرقِهِ، وألوان فراج أحرق في سمور سجفها زركش النجوم، فلاحت تلك اللمع من محرقِهِ، ومن هالات طرحات كأنما كن لشهابه المشرق فلك /٣٥٩/ تدوير، ومن أبدان سنجاب حكت بياض البطون وزرقة الظهور طلوع الشمس في يوم مطير، فقابل المملوك وسائر المماليك المحبّين هذه النعمة بحقّها من الشكر، وأفاق بهبوب نسيمها، وإن كان غرامه في هذه المدة بمطالعة مسالك الأبصار لايدعه يفيق من السكر، فلله هذا الحبيب المشنف والغريب المصنّف والمنوّع المنوّر، والدهر الذي هو بأهلِهِ من لدن آدم مصور، حرس الله هذا الجمع الصحيح وهذا الفصل الذي نثر من الدر في حجور التراجم كل مليح، وهذا السياق الذي سير الشموس من الطروس على نجائب، وهذا الوفاق الذي حصله بين البر والبحر، وحدّث عن العجائب بعجائب، فما كان للمملوك دأب في هذه المدّة إلا التقاط درره من أصداف الأوراق، واجتناء ثمرِهِ من غصون تلك السطور، وكلُّهُ قد راق، فإن اعترضته عنبرة ثناء فَتَّها على جمر الشوق فتّا، أو عارضتْهُ عرائش تصانيف الأوّلين أقام تلك المجلّدات فتصير ستا، والمرجوّ من الله تعالى رؤية ذلك الوجه

الكريم على ما يسر الأولياء، ويسوء الأعداء، وحاشاه أن يكون له أعداء.

ومن شعره قوله[١] في مليح نظر إلى الشمس عند غروبها مضمناً: [من الرمل]

وغـزالٍ غـازلَ الـشـمـسَ وقـدْ ... وقَـفَـتْ فـوقَ ثـنـيـاتِ الأصيـلِ
فـتـعـوّضـنـاهُ مـنـهـا بَـدَلاً ... (وتـفـارقـنـا عـلـى وجْـهٍ جـمـيـلِ)

ومنه قوله غير مضمّن: [من السريع]

وذي دلالٍ حـسـنُـهُ وافـرٌ ... تُـقَـصِّـرُ الأوصـافُ عَـن كُـنْـهِـهِ
رنـا مـنَ الـشـمـسِ وقـدْ غَـرَّبَـتْ ... بـفـاتـرِ الـلـحـظِ إلـى شـبـهِـهِ
فـفـوّضَـتْ فـي الـحـسـنِ من بـعْـدِها ... ولايـةَ الـعـهـدِ إلـى وجـهِـهِ

ومنه قوله مضمناً: [من المنسرح]

وربَّ ظـبـيٍ مـخـضـرٌ شـاربِـهِ ... رطـبُ حـواشـي الـلَّـمَـى مـورّدُهـا
قـالَ وشـمـسُ الأصـيـلِ قـدْ وقَـفَـتْ ... عـلـى ثـنـايـا الأصـيـلِ تُـنـشـدُهـا
/ ٣٦٠/ كـعـاشـقٍ سارَ عَـنْ هـواهُ ففي ... مـقـلـتِـهِ دمـعـةٌ يـردّدهـا
(قِـفـا قـلـيـلاً بـهـا عـلـيَّ فـلا ... أقـلّ مـن نـظـرةٍ أزودهـا)[٢]

ومنه قوله: [من الكامل]

نَـعَـسَ الـحـبـيـبُ فـقـيـلَ مـاذا شـأنُـهُ ... فـاجـابـهـمْ بـالـحـاجـبِ الـمـقـرونِ
وبـنـظـرةٍ أشـرت وطـرفٍ أدْعـجٍ ... كـالـنـونِ فـوقَ الـعـيـنِ تـحـتَ الـسِّـيـنِ

* * *

فهؤلاء أعيان كتاب المشارقة ممّن مات وفات، وبقي منه ماينشر العظام الرفات، وأكثرهم قد جُهل قبره وفني، وما فنى ذكرهُ ولا بِرّهُ. خلا عمِّي الصاحب شرف الدين أبي محمد عبد الوهاب[٣] رحمه الله، فإنني ذكرته في كتاب «فواضل السمر في فضائل آل عمر» إذا لم يكن بدّ من ذكره هناك مع أقربائه، وسلف أهل بيته وآبائه، وكذلك

---

(١) البيتان في الدرر الكامنة ٢/ ٣٨٣.

(٢) البيت للمتنبي.

(٣) عبد الوهاب بن فضل الله العمري، القرشي، سبق وأن أشار إليه المؤلف دون أن يذكر اسمه وهو كاتب مترسل، من أهل مصر، خدم الملك الأشرف. والملك الناصر، وسيف الدين تنكز، وعمل كاتبا للسر للملك الناصر في دمشق فتوفى بها سنة ٧١٧هـ.
انظر: فوات الوفيات: ٢/ ٢٢، والدرر الكامنة: ٣/ ٤٢، وشذرات الذهب: ٦/ ٤٦، والنجوم الزاهرة: ٩/ ٢٤٠.

والدي تغمده الله برحمته وإن كان دون أخيه قدر مقال لا مقام، ودرّ نظام لا انتظام، وسيأتي ذكر جماعة من أهل هذا البيت في الكتاب المذكور ومنه يعرف خبر كل معروف غير منكور على أنني بشهادة الله لآنف لي ولسلفي أن ننحاز إلى هذه الفئة أو نلم كرّى بعيونها المغفية، ولله [در] المعري حيث يقول[1]: [من البسيط]

دعِ اليراعَ لقومٍ يفخرونَ بِهِ ... وبالطوالِ الرُّدينياتِ فافتخرِ

فهنّ أقلامُكَ اللاتي إذا كَتَبَتْ ... يوماً أتتْ بمدادٍ مِنْ دَمٍ هَدَرِ

فأما الأحياء بالجانب الشرقي ممن يطلق عليه هذا الاسم بالاستحقاق، فبقية. ومنهم:

[٢٨]

زين الدين[2] الصفدي، أبو الحفص عمر بن داود بن هارون بن يوسف الحارثي

من بيت قضاء وخطابة ببلاد صفد والساحل من زمان الفتوح، وهم أهل قرى لا يغلق بابهم المفتوح، وفيهم بِنين[3] من يضيف الوارد والصادر، ويطيف كرمه بالعاجز والقادر، على قلّة يسار وخلّة إعسار، وبرع هذا الرجل فيهم، وتأدّب، وتذهّب أدَبه وتهذّب، وأتقن علم العربية، وتم له تمام الفضائل الأدبية، إلى فقهٍ درسه، وفضلٍ نوّعه وجنَّسَهُ، وعلم معقول / ٣٦١/ أدركه بمجرد التصور، ووازع إيمان منعه فيه من التهور، واطلاع اشرف من يفاعِهِ، وأطلّ عليه من شرف ارتفاعِهِ، كل هذا إلى ذكاء يتدفّق سيلُه، ويعرف من بين النجوم سهيلُه، وتفرد بمعرفة التنفيذ للمهمات قل من يحسنها، أو يحير جواباً حيث ينطق ألسنها. هذ مع خطّ كأنما الحف جناح الطاووس، أو تلألأت تحت جنحه أشعة الشموس، وحسن مصاحبة تطمئن بها النفوس. ومواظبة على علاً يسود بها ويسوس، صَحِبْته من قديم، وعرفه أولياء الأمر،

---

(١) ديوان شروح سقط الزند ١/ ١٥٦.

(٢) ولد بصفد سنة ٦٩٣هـ، ولازم نجم الدين الصفدي فدّربه واستكتبه عنده، وكتب لسنجر، ودخل معه دمشق حين انفصل بها، وكتب بغزة وعاد إلى دمشق، وعمل لتنكز بالرحبة، وكتب له في ديوان الانشاء، وطلبه شهاب الدين بن فضل العمري إلى القاهرة فكتب عنده في الانشاء. توفي بالقاهرة سنة ٧٤٩هـ.

ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٤١، والوافي بالوفيات: ٢٢/ ٤٦٥، وأعيان العصر: ٣/ ٦١٠.

(٣) نِين: قرية بمرج بني عامر من اعمال صفد (الوافي بالوفيات: ٢٢/ ٤٦٥).

وتنبّه ذكره، ثم رقد، وهبّ لهب صيته ثم خَمَد، وجرى ماء حظّه يتدفّق ثم جَمَد، ورتب في كتابة الدرج في عدّة مواضع من الممالك في أقرب مدة من الزمان، واشتهر برجاجة العقل والكتمان، ووفور الفضل والأدب، ثم كتب الإنشاء بدمشق ثم بمصر، فأنشأ غرّ التقاليلد. ورقم برودها، ونظم ما استجدت منه أجياد الحسان عقودها، وحضر بين يدي المقام الشريف، وكان عندي موضع الثقة، وقدمته لأهليته، ثم بعد أن رفعت ذلك الشعار، وخلعت ذاك الرداء المعار، قلتُ الموت ولا العار، لبث قليلا ثم تَبِعَتْهُ عوادي الضرّاء وروعته في وسط السرّاء، ثم كان في صفد بين قومه، إلاّ أنه لا يجد قوت يومه، وبقي حيّاً ميتاً، لا يملك بيتاً، ثم انفرجت حلقة ضائقته، وعادت لوامع شارقته، وفسح له في سكنى دمشق، فعاد إلى صدور مجالسها، ثم كتب في ديوان الإنشاء بها، وحلّ مفاخر رتبها، فتبلل عودها بأندائه، وأشرقت سعودها باستظهاره على أعدائه، ثم طُلب إلى مصر، ووقع بالدست، وهو الآن جمال الأوان، وكمال الديوان، وبيده الأزمَّة، وإليه الأمور المهمة، وفضله يستحق التتمة.

ومن نثره قوله في ورقة كتبها إلى والدي:

وينهى أن إحسان مولانا وصل إلى ذلك الفقير الصالح، الذي من قرية نين، وهي قرية المملوك التي أخرجته، وإنما خدمته للبيت العمري هي التي خرّجته، وإلى طبقات الناس درجته، وقد بقي يعوزه كتاب كريم إلى مشدّ صفد، نظراً لكتاب الكريم الذي /٣٦٢/ صار في يدهِ إلى نائبها، والمملوك يسأل الصدقة عليه بالمطلوب، وأن يكون كتاباً حسناً يعيره مولانا سماحة كرمه وقلمه، ويُلحفه جناح جاهِهِ وكلمِهِ، صدقةً على المملوك دونه، ويداً يقبلها ويقبلها ممتنة غير ممنونة، والوحا الوحا، وقد ضجر المملوك وهو استحى، والله يرفع درجة مولانا حتى يكون على الكواكب مستفتحا، ولنظره في حديقة المجرّة مَنْزَهاً، وبعرف نرجسها مترنحا.

ومنه قوله في تهنئةٍ بعود الركاب السلطاني من الحج:

وجمع الحجيج في سنتهم الواحدة بين حجتين، وكتب لمناسكهم بيمنه أجْرَ مصلّي القبلتين، وتم لتوجههم بأنوارِهِ، الهدى والنور، وحصلوا من صفقته الرابحة على تجارةٍ لن تبور، ووقاهم لفح الهجير تطوفهم بالكعبتين، ذات المقام وظلّه، وامنهم العقبى تمسّكهم بالعروتين، من البيت العتيق وفضله، وعشوا إلى ضوئين من ناره التي هي أم القِرى، ومكة المسماة في الذكر القديم أم القُرى، فهذِهِ المهاجرة التي جدّدت السنة بمحمّدها، والمثابرة التي أعلنت الالسنة بمدح سؤددها، وهو الجدير بأن يوفيها من استبشارِهِ وشكرِهِ أكمل وظيفة، وان يقدر موقعها حق قدره،

وإن كان مما لايطيق الامة تكليف.

ومنه قوله وقد أهدى إليه صاحب له طبق مشمش مع غلام مليح:

وصل البرّ الذي زاد على منتهى الطلب، وأشهد النواظرَ بين يدي قضيب البان كرات الذهب، وجاء بالبدر وقد اتسق، والنجوم وقد ركبَت في دائرة الطبق، فبهت لدنوّ صور الكواكب من اللمس، وتسيير القمر في منازل الأرض، وهو الذي لا ينبغي أن تدركه الشمس، ثم تأمل وتملّى، واستجلى واستحلى، وقال شكراً للمرسل والرسول وياحسن الحامل، ويالذّة المحمول أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه، ومرحباً بكرم جمع بين تنوّعه وتسرّعه، أين الأمل من هذه الغاية؟ وكيف غفل الدهر حتى تناهى في الإحسان إلى هذه النهاية؟ مولى يسعى إلى عبدِهِ، وغصن تجيء ثمرةٍ تميس في أوراقه من برده.

/ ٣٦٣/ ومنه قوله في ذكر الدواة:

وقد أرسلها مشتعلة بالسرِّ مفارق راسها، مستعدية على وضعها الذي انتزع روحها باستمداد أنفاسها، واستحال عليها مع الدهر حتى عكس النقب في روعها من قرطاسها، فهي بيضاء إلا أن السواد كان أنقى لسمائها، وناجية عندها أن الغرق أسكن لروعتها من نجاتها، وأملها أن تسودها يد لك لا تسودّ إلاّ من النفس، وأن تديل لها من سالب صبغتها وهو الطرس، فيطيل لسان فمها، وهو القلم يمجّ على حواشيه لعاب الظلماء في لهوات الشمس.

ومنه قوله في أمر وفاء النيل:

وذلك أنه عند تسطيرها، وردها المثال الشريف يتضمن نَبَأَهُ بسطوره التي كأنها جداوله، وأنه جاء لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها، فكأن المسؤول لا شك سائله، وماأظنّه إلاّ حياً نزل دون تلك الديار مهابةً لمن حلّها من مطايا الغمام، واحلّها من أحلّه أن يلم بها ركباً، فمشى على وجهه إليها تناهياً في الإكرام، ولم يزل يجري لمستقر له، ويضمّه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوّلَهُ. ووارده في كل ساعة يشهد بنجاح رأى الرائد على التحقيق، ومخلّقه المتواري بحجاب الماء يوميء بأصبعه إلى حسن العاقبة على أنه في حالة الغريق، ولو قدر على المقال لظهر خافيه ونطق بتوفية عوائده، وأنَّى ينطق والماء ملء فيه، حتى إذا تكمل سموّ أمواجِهِ حالاً على حال، وتنور أقاصي الأرض من ثنية المقياس، فأدناها النظر العال، لم يملك طبعه السيّال أن غطى مساوئها البادية، ورأى ظمأها إليه مع القصور عنه، فنقع بانتقاله إليها غلّة كبدها الصادية، وكان له الفضل على الثرى والورى في ذلك المسعى، وقالت

ألطاف الله المتتابعة: هذا الماء وسيتلوه المرعى، وكأن هواءه المعتدل على اعتلالِهِ عدلاً، فحمل قلب كل غدير ما أطاق، ولم تبق عين بقعةٍ كانت فارغة إلا وكلها عند نظرة الدمع مأْق.

ومنه قوله:

وينهى أنه لو أمْكن دفاع القضاء، أو قبل غريم الموت المتقاضي أخذ الفداء، لحمى هذا المحترم بأنصار الرجال، لا بجواري العيون المحزونة، /٣٦٤/ ولصرفت عنه المهج يد المنون يبذل نفوسها المصونة، فقد كان والله شقيق الشمس رفعة وهدى، ومباري غرّة البدر في الندي، ورسيل الغيث في الندى، وإن أمسى الزمان لتواري شخصه آية ليلٍ مُجيَثْ، وظلّة غيم رأيت عليها لمحة بارقٍ لمَعتْ ثم زويت، فلعهدي وهو بآية نهار حياته المبصرة أحسن[1] اجتلاء، وأبهى وأبهر بين المشاهد في المعنى والصورة روية ورواء. طوبى له، حلّ في أمنع جوار، وحصل على سعادةٍ في دار القرار، يفرح بها من ارث شقوة الحزن في هذه الدار، والمملوك مذ سمع نعْيهُ يحسد صمّ الرماح، ويتزوّد من سواد مقلته ودمعها، في ظلمة باك من فقد نورها على الصباح، وما أدعو لمولانا وحده إلى سنّة العزاء المشروط، ولا أقول له: مهلاً ليذهب بك فرط الجَزَع على أخيك مذهب القنوط، وإنما أشرك نفسي معه في التعزية والتسلية، وأتجلّد وإن كان لا جَلَدَ على نفوذه هذه الرميّة المصْمِية، فاتعلل وأتَمَثّل بقول الأوّل: [من الطويل]

ولوْ لَمْ أكنْ منكمْ يعذّبكمُ بكُمْ   ولكنَّ حظِّيْ في المُصابِ جليلُ

إلا أن أخصّه لاختصاص نسبهِ، وافرده بجامع ادبه، فلا أجمعَ لأقسام الكمال من أدبهِ، وأستشهد بأن أنشد: [من الطويل]

ومَنْ يَكُ ذَا نفسٍ كنفسِكَ حرَّةٍ   ففيهِ لها مُغْنٍ وفيها لَهُ مُسلِي

ومنه قوله[2]:

وينهى ورود المشرّف الكريم، ووقت الصوم قد حان، وهلاله في عنان السماء مُرخى العِنان، يُشار إليه بالبنان، كأنه الطليعة، وهي الراء من أول رمضان، أو الساقة وهي النون من آخر شعبان، أو الخائف اختفى عن العيان، وتَرامته الأبصار فاستعان، أو طالبُ حاجةٍ مع الشمس أدركه الليل فوقف وقفة الحيران، أو كوّة في غار فغار، أو رقيب وقد اختبا[3] ليطلع على مغيبات الأسرار، أو الحاجب لا جرم أنه حجب عن

(١) كلمة (احسن) مكررة في الاصل.
(٢) الوافي بالوفيات: ٢٢/ ٤٧٥.
(٣) في الوافي: ولذا اختبى.

الإفطار[١]، أو كأنه ما انهار من جرف النهار، أو المجلب الصائل على النظار، الصائد ما / ٣٦٥/ جاوره من النجوم، لتتكمل فيه الأنوار، وتتم باجتماعها إليه في صورة الأقمار، أو المنجل الحاصد للأعمار، القاصد جنى ما علا نهر المجرّة من الأنهار، أو طوق لم ينظَّم أو مبدأ عمامة لمعمم[٢]، أو قرط خانته العلاقة فانقطع، أو ما انخرم معه في شحمة الأذن لما وَقَعْ، أو علامةُ عضّة، أو قلامةُ مبيضّة، أو قطعة من سوار فضّة، أو تشريف نوارةٍ غضّة، أو شَفَةُ فتاةٍ بضّة، أو حافر جواد حلّى أرضه، أو وطأة حافٍ خلّى من أثر كعبه بعضه، أو درهم فيه ثلمةٌ، أو دينارٌ مخسوف الجانب لحكمه، أو تمثال عشر في ختمة، أو نصف دائرةٍ من خط بيكار ما أتمّه، أو عرجون قديم، أو ماما من كأس نديم، أو شطرٌ من كرةٍ مقسومة، أو ضاحك أسنانه مهتومة. أو هالة والت قطراً منها غير مركومة، أو لثام على حنك، أو زورق من ورق حمولته من عنبر الحلك، أو حجل نزع من ساق، أو ورق راجع من الأوراق، أو ما انحلّ من الخصر من النطاق، أو وقف من عاج، أو صدعٌ في زجاج، أو جدولٌ منعطفٌ، أو قفل في فلاة قد حذف، أو لبة فؤاد، أو غصن أثْقَلَهُ الثمر فانآد، وعقد سماءه بأرضه أو كاد، أو ثغرة في سور، أو فم قدحٍ مكسور، أو نؤي محفور، أو فخ منصوب على طول الدهور، أو عرق مغروس[٣]، أو بعض ما في ريش الطاووس من المنقوس[٤]، أو حلقة منقوصة، أو أذن ريم مقصوصة أو ضفيرة معقوصة، أو خاتم زال فصّه ففغر، أو ما انداح من رميةٍ في صفحةِ الماء بحجر، أو طيّة من المكان، أو سرة محققة في كشح ريان، أو ذؤابة مردودة. أو حزّة من بطيخة مقدودة، أو خيزرانة ملتقية غير معقودة، أو قوس محنيّ القرى، أو عروة مفكوكة من العرى، أو فتر مرفوع، أو طيلسان مقوّر مقطوع، أو قبضة إبريق مخلوعة، أو آلة للطيب مصنوعة، أو يد التفت على عناق حبيب، أو شعرة مشيب نَصَلَت من خضيب، أو ماأحاط من الاكليل بالجبين، أو محراب لبعض المصلين، أو سالف تحسين، أو مشقة قاف أو سين، أو ما اندفع في جؤجؤة السفين، أو أحد / ٣٦٦/ الجفنين، أو عذار حول الخدّين، أو رأس من كتابة صاد لم يلتحم أو عين، أو دال منقلب، أو طاء منفصل الطرفين سقط ألفه المنتصب، أو مبسم مثقوب، أو تعريفة جيم مكتوب، أو عقرب شائلة، أو شعلة نارٍ لعبت بها الريح الجائلة، فهي مائلة، أو حيّة ملتوية، أو صولجان مقصوف لم يبق

---

(١) في الوافي: الانظار، وبعده: أو الوافي مما تمادت به الاسفار في الاقطار.
(٢) في الوافي: لمعتم.
(٣) في الوافي: او عرف ديك مفروش.
(٤) في الوافي: من تخليق النقوش.

منه سوى الحِنية، أو ترقوة بدا عظمها، أو طارة غرض خرق هيئآتها سهمها، أو فلكة مغزل مشتظاة، أو دفت أمسكت به كفٌ سوداء على أعلاه، أو ما تحت تنفس المرأة [في المرآة][1]، أو قنطرة منكوسة الوضع في البنيان، أو طبق قائم أخذ من حافته شيء فبان، أو غرّة في أدهم من الخيل، صانعت بها الشمس عن نفسها لخاطف الليل، أو رداء أسبله الشرف فكفّ الغربُ منه الذيل، أو صعدة أو مكان ورقة من وردة، أو قفل على تجليد، أو احدى المطيفين بالوريد، أو لبَبٌ مركب، أو كوز مرتب، أو قتب مجرّد، أو سرجٌ مؤكّد، أو قربوسٌ منه مفرد، أو واحدة من خشكنان، أو حدقة نجلاء من إنسان، أو طعنة ميلها بسنان، أو سيف لان في يمين ضارب، أو مطرح القلادة من ترائب الكاعب، أو المملوك مما شفته الاشواق، وصنعتهُ به عوادي الفراق، أو ماخدَّه في خدِّهِ الدمع المهراق، وكان للناس اشتغال باستقبال الهلال، وقلب المملوك في اشتغال، مما عنده مِنَ البلبال، ومن ضنى جسده البال، وحالت الأحوال، وما استحال، وبات طرفه يتملّى من المشرِّف الكريم حظاً ماله مثال. وتأمل منه لفظاً بمعانيه تضرب الامثال، وتقلب وجهه في افقه الدال على ودّ صحّ فليس به اعتلال.

ومنه قوله:

وعلمنا ما ذكره من أمر الصقر الذي وقع له، وما لحظه فيه من القبول، فأرسله وحمله إلى حيث حَمَلَهُ ووصل، وقد طرّز رقوم المحاسن حلله، وزانته بديباجة مكملة، وحلية مكلَّلَة، خالصاً كالذهب، متوقداً كشرارة لهب، وموشّى الصدر كما طَفَتْ على الكأس فواقع الحبَبْ، أو كروضة منها ما لم يخرج من الأكمام، ومنها ما هبّ مع النسيم حين هبّ، حسن الاستعداد /٣٦٧/ للتدريب، مدركاً فإذا دعي يجيب، مظفراً كجدّ مهديه فلا يجيب، وقد قبلناه تبركاً بما يُهديه، واشتغلنا به اشتغالاً حقق ما لحظه من القبول فيه، ورفعناه مِنْ يدنا الشريفة إلى رتبة لا يصل معها، وإن كان بعدها يتيه، وقدّمناهُ على ماعندنا من الجوارح على كثرة عددها، وغزارة مددها، كتقدم المقام على الملوك الصائلة في عديدها وعددها، فلو رآه وله في حلاوة الالتفات تشوّف الريم، وفي طلاوة الانصات دلّ الأغيد الرخيم، وإلى أغراض مرسله تشوّف الواله إذا ظلّ يهيم، واصابة الباع المستفيد بالسهم المستقيم، وعلى الصيد حرص الغريم على الغريم، وفي طلبه سورة الظالم وثورة الظليم، إن اعطى الكلمة فحليم، وإن كشف عنه غطاؤه فبصره حديد، ورأيُهُ حكيم، فاقترب، فيد تطلقه وأخرى تحتطب، وسابق يحصل مايجتذب ويجتلب، وسائق[2] يقد ثقة بعوائِدِهِ ولا

(١) الزيادة عن الوافي.
(٢) في الاصل: سائقاً.

يرتقب، يهفو بقوادم أقوى من قوائم، وعزائم على النجح علائم، كأنه كبير قوم، أو ممسك لصوم، يعفو عما كسره، ويعفّ عن شره، إذا افترس حرس، وإذا احرز حرز، وإذا أدْركَ ترك، ولكن من مخالبه في شَرَك، كأنه يعرف التحليل فيبقي للتذكية، أو يحبّ الثناء فيعمل على التزكية. حتى إذا أدّى الأمانة، وقضى إدمانه، وسطا في صيانة، تنحّى جانبا، وانتحى مجانبا، واحتشم هائبا، انطوى على الطوى وأعرض مع الخوى على ما حوى، فإذا أباحه محصّله مما يأكله، وأطلقه عما أوثقه، وخلّى مابينه وبين ما صاد، بايته باقتصاد كأن عليه رقيباً بمرصاد، وتناول قدر الحاجة بشهوةٍ مهاجة، ورجع إلى الكلمة بطرف غضيض وبطش غير مهيض، وثباتٍ بعد وَثَبات كطرفي نقيض، بصره ثم تصرفه بين أيدينا في صيده، وحسن تلقفه، لما يعنُّ له بلباقة كيدِهِ، ورشاقة أيدِهِ، ولا يثني عليه ثناء مَنْ أنهب سعيد، ورام ورمى فتمّ مرامه وصحّ رميُه، ونحن نشكر مكارمه التي ملأت الحقائق والحقائب، ومدّت عصائب جنودٍ وجود يتبعها من الطير والعُفاة عصائب.

/ ٣٦٨/ ومن نظمه قوله: [من الوافر]

أقولُ وقد سألتُ قِصاصَ قتلي فقامَ لها الكرَى بالاعتذارِ
كفاني مَنْ توفاكمْ بليلٍ ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[1]

ومنه قوله: [من الطويل]

وماقيلَ: هذا اليومُ يُخلِفُ درَّهُ فيخلفَهُ بالدرّ بيضُ الغَمَائِمِ
وقدْ عُكسَ التشبيهُ فيهِ فعِهْنُهُ جبالٌ لصُلعِ الأرضِ مِثْل العَمَائِمِ

ومنه قوله وقد أُهدي إليه حلواء: [من الوافر]

ولما جاءني منكَ افتقاد حلا فحكى ثناءَكَ حينَ يجري
حصلتُ بما أتى وَحَصَلْتَ منّي على الحلوينِ مِنْ برّ وشُكرِ

ومنه قوله: [من الوافر]

أتى زيدٌ إلى الحمَّامِ يثنى معاطفَهُ كما مالَ الرُّدَيني
فكانَ الماءُ وهوَ عليهِ جارٍ يُرينا لؤلؤاً فوقَ اللّجينِ

ومنه قوله: [من الطويل]

ولما أرادَ الصَّبّ خطّاً تسابقتْ مدامعُ عينيهِ تحاولُ محوَهُ

---

(١) سورة الانعام: ٦٠.

كأنَّ بعينيهِ مِنَ الخَطِّ غيرةٌ ... على وجهِ محبوبي إذا سارَ نحوَهُ

ومنه قوله مما يكتب على عصابة ذهب لامرأةٍ حسناء: [من الوافر]

تأملْ هذهِ الوجناتِ تُزهَى ... وقدْ حَلَّى تجلِّيها الدَّلالُ
تَرَى شمسَ الضُّحَى منها ومني ... يتوِّجُها على الرأسِ الهلالُ

ومنه قوله: [من السريع]

أنزلْتُ مَنْ أهواهُ في مُقْلَتي ... صوناً لَهُ مِنْ أعينِ الحُسَّدِ
فجاءَ قلبي مِنْ طريقِ الكَرَى ... يسرقُها منها فلَمْ يرقُدِ

ومنه قوله: [من الوافر]

تبسَّمَ ثغرُها والخالُ يبدو ... عليهِ كقلبِ ظمآنٍ إليهِ
فقلتُ: الصبحُ؟ قالتْ: كيف يأتي ... وليلُ الخالِ بوابٌ عليهِ

/ ٣٦٩/ وكتب إليّ: [من البسيط]

إنا ليملكُنا مِنْ هيبةٍ خَرَسُ ... في حيّكمْ وعلينا منكمُ حَرَسُ
وإنْ خَلَوْنا وخلنا وحشةً عَرَضتْ ... عُذْنا بأسمائِكِمْ فاعتادنا الأنَسُ
فنحنُ منكمْ وفيكمْ لا يزالُ لنا ... مِنْ غَيْرَةٍ حَرَسُ مِنْ هيبةٍ خَرَسُ
حالانِ في حبكمْ ما حالَ بينَهما ... عهدُ الهوى وعليكمْ ليسَ تَلتبسُ
وهلْ علمتمْ وحكمُ الحالِ واحدةٌ ... أنا على النأيِ للاذكار نَختلِسُ
إذا مرضنا تداوينا بذكرِكمُ ... ونتركُ الذكرَ إجْلالاً فَنَنْتكِسُ
ومَنْ لنا لو لثمنا تربَكمْ فبها ... شفاءُ أكبادِنا والبُرْءُ يُلْتَمَسُ
أرضُ لها قَبَسٌ منْ نورِكُمْ وكذا ... مِنْ وطءِ أقدامِكُمْ يندى بها اليَبَسُ
تفديكمُ أنْفُسٌ منا تحبّكُمُ ... حياتُها منكمُ في موتِها نَفَسُ

فكتبت إليه: [من البسيط]

مَرَّتْ على عَجَلٍ والركبُ مُحْتَبَسُ ... فما شككتُ بها والأمرُ مُلْتَبسُ
وبانَ بانُ الحِمَى واهتزّ إذْ خَطَرتْ ... ولاحَ ضوءُ هلالٍ أو بدا قَبسُ
وفاحَ مِنْ مسكِ دارينَ لنا سَحَراً ... نَشْرُ الخمائلِ إلاّ انّه نَفَسُ
وبتُّ والليلُ يرميني بأنجمِهِ ... مثلَ العيونِ ومنها أعينٌ نُعُسُ
فَقمْتُ في غفلَةِ النُّوّام أشربُها ... صِرْفاً مِنَ الراحِ إلا أنها لَعَسُ
وما توهّمتُ أنَّ الليلَ منصرمٌ ... حتى تجرّدَ من جلبابِهِ الغَلَسُ

وافت تذكرُ بالعهد القديم وما نسيتُه وهيَ لي في وَحْشَتي أَنَسُ
ثِقي سليمى بِودٍّ لا يغيّرُهُ نأْيُ الديار ولا يذكى له الحرسُ
بل ماتجنُّ جوًى منهُ القلوبُ ولا يُبدي هواهُ ومنهُ الجَمْرُ يقتبِسُ
ياجيرةَ القدسِ ماقلبي كصخرتِهِ وليسَ لي عينُ سلوانٍ فَتُلْتَمَسُ
لمْ نعتقدْ بعدكُمْ واللهُ يعلمُ ذا إلاّ الوفاءَ لكمْ والحُرُّ يحترسُ
قولُ ابنِ زيدونَ في حَرّ الصَّبابةِ في بِنْتُمْ وبنّا وسوفَ البينُ ينعكسُ
/ ٣٧٠/ عَتْباً وصُلْحاً ولا يدري بنا أحَدٌ والودّ يبرأ أحياناً وينتكسُ
فَسُرَّ عاذِلُنا لا كانَ عاذلُنا وكانَ أفصحَ نُطْقِ العاذلِ الخَرَسُ

ومنهم:

[٢٩]

خليل[١] بن إيبك الصفدي، أبو الصفا، صلاح الدين

هو خليلي الذي أنادي، وصاحبي إذا شكرت الأيادي، والذي أنادي منه خليل الصفاء، وصديق الوفاء، والذي أرضاني عن صنيع الليالي لما أتاني بنجومها قليلاً، والذي لم أخالل سواه إلا قلتُ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾[٢]، والذي صحبت أبا الصفاء من ودّه الذي لم تشبهُ الشوائب، والخليل إلا أنّه كان لأحمد أكثر مما كان عنده ابنه في النوائب، والذي عاقدني منه خليل صدق فما ذمَمْتُ له ذِماماً، وأوقد لي من حميته ناراً خليلية كانت برداً وسلاما، موسوية، فلهذا ما تركت ظلاما، والذي لم يزل يرشد من خاطري مضللاً، ويريني في صفائه ما أردْت ممثلاً، ويغنيني أن أقف عند سوى تصانيفه وأقول: [من الطويل]

خليليَّ هذا ربْع عَزّةَ فاعقلا[٣]

وملأ سمعي بأدبهِ حتى قلتُ يكفيكما، وأغنى ناظريّ بكتبه فقلت: [من الطويل]

خليلي هبّا باركَ اللهُ فيكما

---

(١) الكاتب المترسل، الاديب، الشاعر، صاحب المصنفات الكثيرة، المولود سنة ٦٩٦هـ، والمتوفي سنة ٧٦٤هـ.
انظر ترجمته في: المنهل الصافي: ٥/ ٢١١، والنجوم الزاهرة: ١١/ ١٩، والدرر الكامنة: ٢/ ٨٧، والبداية والنهاية: ١٤/ ٣٠٣.
(٢) سورة الفرقان: ٢٨.
(٣) صدر بيت لكثير عزة، تمامه: قَلُوصَيكما ثم ابكيا حيثُ حَلّتِ.

وقررت له وأقررت، أنه إمام المحسنين، وبايعته واتبعته وأنا من الموقنين، وبسطتُ يدي فبايعت ملك البلغاء خليل أمير المؤمنين، وربحت في مزاد تصانيفه استزيرها، وقنعتُ بمذاكرته ولم أقل: [من الطويل]

خـليـلـيَّ هـلْ مـن رقـدةٍ اسـتـعـيـرهـا

أقسم بالله وهو أوكد الأيمان، وأوثق ما يقف معه أهل الإيمان، ما إن رأيت منه آدب، ولا مع غناه عن التحصيل أدأب، ولا أظنّ منه أجمع لمدحةٍ وآبدة، وأخبار أمم باقية وبائدة، لديها وأقدة، ولا مُقَل الفراقد عن التطلعّ إلى هذا، وما كسا،الزمان مثله ثوبيه ولا حمل الوجود حفيا شبهه بين جنبيه، فهو محدث يحدث بالصحيح، وتروى عنه العجائب، والمعروف وكله غرائب، كم قال وكم ألْجم بالحصر كل لَسن، وقام بالسنّة وكل سنده عليّ، وحديث حسن. هذا على أنه حامل فقه لا ينقل إلى أوْعى منه، ومتقن علمٍ لا يؤخذ القديم والحديث إلاّ عنه، نعم، وأنعم به من مؤرخ ينشيء الامم وينشر الرِمم، وينشد ضوال الأنباء، وقد / ٣٧١/ أماتها البكم، وأقبرها الصمم، فشقَّ أصداف اللحود عن دُرَرِهِم، وكشط جلد الدهماء عن غررهم، وأوْجدهم فما كتب من التاريخ وجوداً ثانياً، فأقاموا به أرواحاً، وسُئلوا فقالوا فِصاحاً، ساقهم في تاريخه فكأنما قاموا في صعيد واحدٍ لديه، وأتى بهم من عهد آدم وهلمّ جرّا إليه، أجَلْ، وهو أجَلُّ كاتب تخضع لطرسه مهارق السحائب، ويخشع لقلمه سيف البرق المسنون، ويسقط قلبه الواجِب، وأضاء أيضاً له نور حكمةٍ يغلبُ فجرهُا الطالع مشارق الأنوار، ويغلُّ فكرها السابق يد القيرواني[1] إن نظمت أبكار الأفكار، ويذهب التحصيل، وليس من بدره المنير درهم ولا من شمسِهِ المشرقة دينار، وينبو دونه مضرب السيف، ولو أن الآمدي ذا الفقر ذو الفقار فأما ابن سناء فتخفى في طيّ البروق إشاراته، والرازي يرزأ كتبه وتجف في لسان القلم عباراته، وقل أن وجد في علم اقليدس مثله من يحل إشكاله وبجل أشكاله، ويغدو من قلّ علمه الاقلودي للأرض مقسماً، ولمقادير الكواكب متوسماً بل لو وصل إلى ابن واصل علمه لقنع بما فضل أو ابن العديم جمال الدين ما عدم ماتعنى إليه وماوصل، وكل هذا عولُهُ على أدَبِهِ الذي هو أغضّ من ورق النبات، وأحسن من تذهيب الحياء فضة خدود البنات، بقريحة أصفى من الماء، واوْرى من النجوم في الظلماء، وأغرب من عنقاء، وأطرب من ورقاء، وكتب الإنشاء مصراً وشاماً، فَكَبَت، وجَرَتْ معه

(١) يريد به ابن رشيق القيرواني صاحب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده).

القرائح إلا أنها السوابق فكبتْ، وطاب به الواديان، وطال الناديان، وقلّد الممالك ما هو أعلق بها من أطواق الحمائم، وأعبق فيها من جنوب الغمائم، وله التصانيف الكثيرة الكبيرة بنفسها، الأبكار التي ماأوت إلاّ سرادق نَفَسها.

ومما كتب لي من نثره وأتبعه من شعرهِ قوله: من ذلك كتاب كتبه بشارةً بوفاء النيل، وهو:

ضاعف الله نعمة الجناب العالي، وسرَّ نفسه بأنفس بشرى، وأسمعه من أنباء الهناء كل آية أكبر من الأخرى، وأقدم عليه من المسار ما يتحرز ناقله ويتحرى، وساق إليه كلَّ طليعةٍ إذا تنفّس صبيحها تفرّق الليل وتفرّى / ٣٧٢/ وأورد له من أخبار الخصب ما يتبرّم به محلُّ المحْل ويتبرّا، هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تخصُّه بسلام يرقُّ كالماء انسجاما، ويروق كالزهر ابتساما، وتتحفه بثناء يجعل المسك له ختاما، ويضرب له على الأرض النافحة خياما، وتقصُّ عليه من نبأ النيل الذي خصّ البلاد المصرية بوفادة وفائه، وأغنى به قُطرها عن القطر فلم تحتج إلى مدّ كافة وفائه، ونزّهَّهُ عن منّة الغمام الذي إن جاد فلا بُدَّ من شهقة رعدِهِ ودمعة بكائه، فهي الأرض التي لا يذمّ للأمطار في جوّها مطار، ولا يزم للقطار في بقعتها قطار، ولا تُرمد الأنواء فيها عيون النوار، ولا تشيب بالثلوج مفارق الطرق ورؤوس الجبال، ولا تبيت البروقُ ساهرةً لمنع العيون من تعهدّ الخيال، ولا تفقد فيها حُلى النجوم لاندراج الليلة تحت السحب بين اليوم وأمس، ولا يتمسك المساكين في شتائها كما قيل بحبال الشمس، وأين أرض يخمد عجاجها بالبحر العجاج، وتزدحم في ساحتها أفواج الأمواج، من أرضٍ لا تنال السقيا إلا بحرب؛ لأن القطر سهام، والضباب عجاج، قد انعقد ولا يعمّ الغيث بقاعها؛ لأن السحب لا تراها إلاّ بسراج البرق إذا اتقد، فلو خاصم النيل مياه الأرض لقال عندي قبالة كل عين إصبع، ولو فاخرها لقال: أنت بالجبال أثقل، وأنا بالملق أطبع، والنيل له الآيات الكُبَر، وفيه العجائب والعبر، منها وجود الوفاء عند عدم الصفاء، وبلوغ الهرم إذا احتدَّ واضطرم، وأمن كل فريق إذا قطع الطريق، وفرح قطان الأوطان إذا كُسِر، وهو كما يقال سلطان، وهو أكرم منتمى واشرف منتدى، وأعذب مجتنى، وأعظم مجتدى، إلى غير ذلك من خصائصه، وبراءته مع الزيادة من نقائصهِ، وهو أنه في هذا العام المبارك، جَذَب البلاد من الجذْب، وخلّصها بذراعِهِ، وعَصَمَها بخنادقِهِ التي لا تراع من يراعه، وحصّنها بسواري الصواري، وماهي إلا عهد قلاعه، وراعى الادب بين أيدينا الشريفة بمطالعتنا كل يوم بخبر قاعه في رقاعِهِ، حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعاً، وأقبلت

سوابق الخير سراعاً /٣٧٣/ وفتح أبواب الرحمة بتغليقه، وجَدَّ في طلب تخليقه، تضرّع بمد ذراعه الينا، وسلّم عند الوفاء بأصابعِهِ علينا، ونشر علم ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره، فرسمنا بأن يخلق، ويعلم تاريخ هنائه ويُغلق، فكسر الخليج وقد كاد يعلوه فوج موجهِ، ويهيل كثيب سدّه هول هيجه، ودخل يدوس زرابي الدور المبثوثة، ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قسيّ قناطرِهِ المنكوسة، وعلا زَبَدَ حركته، ولولا ظَهَرَتْ في باطنه من بدور أناسه، اشعتها المعكوسة، وبشر بركة الفيل ببركة الفال، وجعل المجنونة من تياره المتحدّر في السلاسل والأغلال، وملأ أكف الرجاء بأموال الأمواه، وازدحمت في عبارة شكره أفواج الأفواه، وأعلم الأقلام بعجزها عما يدخل من خراج البلاد، وهنأت طلائعه بالطوالع التي نَزَلَتْ بركاتها من الله تعالى على العباد، وهذه عوائد الألطاف الألهية بنا، التي لم نزل نجلس على موائدها، ونأخذ منها مانهبه لرعايانا من فوائدها، ونخص بالشكر قوادمها، فهي تدبّ حولنا وتدرج. ونخص قوادمها بالثناء والمدح، فهي تدخل إليناوتخرج، فليأخذ الجناب العالي حظَّهُ من هذه البشرى، التي جاءت بالمن والمنح، وانهلّت أياديها بالغدقة بالسحّ والسفح، وليتلقاها بشكر يضيء به في الدجى أديم الأفق، ويتخذها عقداً تحيط منه بالعنق إلى النطق، وليتقدم الجناب العالي بأن لايحرك الميزان في هذه البشرى بالجباية لسانه، وليعط كلّ عاملٍ في بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضىٰ هذا المرسوم حتى لايرى في اسقاط الجباية خيانة، والله تعالى يديم الجناب العالي لقص الانباء الحسنة عليه، ويمتعه بجلاء عرائس التهاني والأفراح لديه، بمنّه وكرمِهِ.

ومن ذلك جواب كتبه عن النائب بالشام إلى الملك الأفضل صاحب حماة، وقد أرسل مشمشاً كافوريا:

لا زال إحسانه كالعلم المشهور، وجودُهُ المنظوم يهدي من الثمرات ما هو كاللؤلؤ المنثور، وبرّه يتحف بما هو كالشهد في الطعم واللون، وكالنجم في الشكل والنور، وكرمه يتضوّع نَشْراً، /٣٧٤/ وكيف لا وقد جاء بما ينسب إليه الكافور، وينهي ورود المشرفة العالية قرين ما أنعم به مولانا من المشمش الكافوري فوقف عليها، وقابل إحسانه بشكر يشرق نورا، وثناء يدير على الأسماع كأساً كان مزاجها كافورا، وواجه جوده بحمد يتلوه منه وجه الروض بمنثوره، وتجد الألسنة لمنظومِهِ لذةً تنسي الأسماع ماقاله أبو الطيب في كافوره، ومتع ناظره بتلك الكواكب التي اتسقت من العلب في أفلاك، وتنسَّقت كالدرر ومالها غير حسن الرصف أسلاك، وتأمّلها وهي كرات بلّور،

اكتنفها الأصيل والشفق، وركبت حين ملأت الصدور طبقاً عن طبق، فأكرم بها هديّةً كانت بحلل الأشجار أزرارا، ولجنات الأوراق نارا، كيف مكنت فروعها يد قاطِفِها من السلب؟ وكيف أقبلت في حلة الروع والوجل، وهي طيبة القلب؟ كأنها لم تكن لقسي الغصون بنادق، ولا في رقع الأوراق بيادق، فالله يشكر لمولانا هذا الإحسان العلويّ الذي جاد بالنجم زهرا، والجود الروضي الذي ملأ العيون حسنا، وملأ الصدور درّاً، وأدام الله أيامه التي تسبق فيها الغرائب، وتستبق إلى مكارمها الرغائب، بمنّه وكرمِهِ.

ومن ذلك جواب كتبه إليه أيضاً، وقد أهدى إليه رخاماً ملوناً:

وينهى وصول الرخام الملون الذي فتح به عين هذه الدار المكوّنة، وأهدى إلى روضها الذاوي أزهاره الملوّنة، ولا غرو فإن العيون توقظها الشموس بالأشعة من المنام، والأزهار توجد بالرياض من جود الغمام، ولو لم يكن كرم مولانا سحابا، لما جاد بألوان قوس قزح، ولو لم يكن علوّه كالشمس لما انبعثت عنه أنوار تلهب شعاعها في هذه الدار وقدح، وتحاشى المملوك تشبيه ذلك بالزهر فإن هذا أبداً يانع، وذلك يؤول إلى الذبول، أو التمثيل بالأشعّة، فإن هذا أبداً مشرق. وذاك بذهاب سره يحول ويزول، وهذه معجزة كرم لمولانا، فإن ريش الطاووس صار له جلمدا، وقوس السحاب تجسَّد له على طول المدى، فلو ناظره مباه بمحاسنِهِ لكان له الفخر، ولو حاولت المياه أن تبليه لما بالى بأنها عليه من الزخر، ولو أجرت / ٣٧٥/ دموعها عليه بماء لابتلّ، فما كل باك خنساء، ولا كلّ جماد صخر، ولو رأته العيون لسبحت الألسن من راح له صانعاً، ولو أراد بليغ أن يقوم بحقّه وصفاً لوجده مانعاً، والله يشكر لمولانا هذا الإحسان المديد الوافر، والفضل الأفضلي الذي أنبت في الروض أزاهر.

ومن ذلك مقامة انشأها في الحريق الذي اتفق بدمشق سنة أربعين وسبعمائة[1] وسماها (رشف الرحيق في وصف الحريق) وهي:

حكى شعلة بن أبي لهب عن أبي الزناد شهاب أنه قال:

لم تزل أذني متشنِّفة بأوصاف دمشق، مُتَلذِّذَةً بماء الأقلام في ذكر محاسنها من التعليق والمشق، حتى رأيت الحزم شدّ الكور إليها والحرم، فأزْمَعْتُ السير، ولم أزجر الطير، وقطعت أديم الأرض بالسير، وركبت إليها مطايا الشوق قبل مطايا السوق، ولم يتلفَّت القلب إلى الوطن، ولا منّ النجيب إلى العطن، حتى بلغتها بعد مكابدة السرى، وإثارة العجاج من الثرى، فلما حلَلْتُ مغناها وجَدْتها: [من الكامل]

(١) انظر خبر الحريق في العبر وشذارت الذهب ٦/١٢٦.

بلداً أعارتْهُ الحمامةُ طَوْقَها ... وكساهُ حُلّةَ ريشِهِ الطاووسُ
وكأنما الأنهارُ فيهِ سُلافةٌ ... وكأن ساحاتِ الديارِ كؤوس

فألقيت العصا في ساحاتها، وألفيت زوال التعب في مصافحة راحتها، فما سرتُ فيها إلى روض إلاّ وأجلسني من النرجس على أحداقه، وقام السرو من السرور بين يدي على ساقه، وجرى الماء في خدمتي لكرم أخلاقه، وظلّلني الدوح لطيب أعْراقِهِ، ومدّ الغصن لي ستور أوْراقِهِ، وغنّى لي الحمام على عودِهِ، ولو تأنّى أو تأبّى جرّه بأطواقِهِ، قال: فشفيت سقمي بنسيمها العليل، واستروحت إلى ما نقله عن بانه وبنفسجه لا إلى ما يتحمله من الإذخر والجليل، وخلْتُ إنه بلطف مسِّه يلين له الجندل، وجننت بعرفهِ المندليّ، وما رأى الناس من جنّ بالمندل، وبردت بأنفاسه حرّ الصبابة والجوى.

وقلت: [من الكامل]

أضحى نسيمُ دمشقَ حيّاها الحَيَا ... يمشي الهُوَينا في ظِلال حِماها
فكأنهُ مِنْ مائِها وهضابِها ... ماداسَ إلاّ أعينا وجباها

/٣٧٦/ وقطعتُ بها زمناً ألَذّ من وصال الحبيب، وأشهى إلى النفس من التشفي بأذى الرقيب، فلا أبعد الله ما في بساتينها من شجرات، ولا قدر الكسوف على ما فيها من كواكب الثمرات، ولا دك هضبات أزهارها التي تضوع بطن نعمان بريّاها، ولا بمن مشى به من الخفرات فأنها: [من الخفيف]

شوّقتنا إلى الجنان فزِدْنا ... في اجتنابِ الذنوبِ والآثامِ

قال: ولازمت جامعها الذي تحيّرت العقول في تكوينه وكنهِهِ، وحسنه الذي لم يكن فيه عيب سوى انه لم تقع العين على شبهِهِ، ولله من نظم دراً فيه، حين قال فيه: [من المتقارب]

دمشقُ لها منظرٌ رائقٌ ... وكلٌّ إلى وصلِها تائِقُ
وكيف تقاس بها بلدةٌ ... أبى اللهُ والجامعُ الفارق

فإنه يوقظ النائم بحسن رخامه القائم، ويجلو بهيم الدجى حصّة الفجر من حصّهِ، وتروي لك زخرفته حديث الحسن بفصّه، كم زَهَرَت فيه ليلة النصف من ذبالةٍ هي نجمٌ توقّد، وكم دار به دولاب كانت قناديلُهُ تدور مثل الفرقد، وكم طلع في سماء صحنهِ من ثريا، وكم تمنى القمر لو كان بين نجومه، فما اتفق له ذلك ولا تهيّأ.

وكم جَلَبَتْ عروسُهُ في عقود وقود، وكم تمتعت الأبصار فيه بوجوه تُخْجِل البدرَ في ليالي السعود، وكم فيه من عمود قام على قاعدة، وكم به من منجور كغضون

أوجه العجائز وأزراره ناهدة، وكم من أعطاف رؤيت في صحنه مائدة، وكم من طائر لرفع نسرِهِ مخفوض، وكم حسن بناءٍ عند بنائه يعرب أنه مرفوض، كم أظهرت الصناع فيه بدائع لا يدعيها غيرهم، ولا يتعاطى؟ وكم أبرزوا فيه من معجزٍ؛ لأنهم جعلوا الحجارة أوراقاً والرخام أخياطا؟ قد عمر الله تعالى أوْقاته بالذكر، وأراح قلب مَنْ يراه من الهمّ، وأراح عنه الفكر، قال: فلما رأيت مجموعه المختار، وأن العيون تَوَدُّ لو نُسِج له من شعر جفونها استار، قلت: [من الطويل]

تـقـولُ دمـشـقٌ إذْ تُـفـاخـرُ غـيـرَهـا بـجـامِـعِـهـا الـزاهـي الـبـديـعِ الـمُـشَـيَّـدِ

/٣٧٧/ جَرَى لتناهي حسنِهِ كلُّ جامعٍ وماقـصـبـاتُ الـسَّـبْـقِ إلا لـمـعـبـدِ

قال: فبينا نحن ذات ليلة وقد وردنا حمى المضاجع، ودخل ضيف الطيف على مقلة الهاجع، وإذا بالأصوات تعجّ، والدعوات تَلِجُ أبواب السماء وتلجّ: [من الطويل]

فـلـو نـشـدتْ نـعـشـاً هـنـاكَ بـنـاتُـهُ لـماتَ ولـم يـسـمعْ لـهـا صـوتَ مـنـشِـدِ

فسألت عن الخبر ممن عبر، فقال: إن الحريق وقع قريباً من الجامع، وانظر إلى نسج الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع، فبادرتُ إلى صحنِهِ والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، ورأيتُ النار وقد نشرت في حداد الظلماء معصفرات عصائبها، وصعّدت إلى عنان السماء عذبات ذوائبها: [من الطويل]

ذوائـبُ لـجّـتْ فـي عُـلُـوّ كـأنـمـا تـحـاولُ ثـأراً عـنـدَ بـعـضِ الـكـواكـبِ

وعَلَتْ في الجوّ كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي ترمي بشرَرٍ كالقصر، فكم زمرٍ أضْحتْ لذلك الدخان جاثية؟ وكم نفسٍ كانت في النازعات وهي تتلو ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾[1]؟ ولم تزل النار تأكل مايليها، وتفني ما يستقلّها ويعتليها، إلى أن ارتقت إلى المأذنة الشرقية، ولَعِبَتْ ألسنتها المسودّة في أعْراضِ أخشابها النقيّة، وثارت اليها من الأرض لأخذ الثار، وأصبح صخرها كما قالت الخنساء: [من البسيط]

كـأنـه عَـلَـمٌ فـي رأسِـهِ نـار

فنكست وكانت للتوحيد سبابة ولمعبدها المطرب شبابة، وابتلى رأسها من الهدم والنار بشقيقة، وادار الحريق على دائرها رحيقه: [من المتقارب]

(١) سورة الغاشية: ١.

وبالأرضِ مِنْ حُبّها صُفْرَةٌ فما ينبتُ الروضُ إلاّ بَهارا

وترقى إليها أولو العزم من النظارة، وصبروا على النار، والشعث بعد النعيم والنضارة، وكانت نارها تكون كنار القيامة، وقودها النار[١] والحجارة، هذا وبنفسج الظلام يذوى، ولينوفر النار يشبّ على الماء ويقوى، حتى نثرت غصون ذوائب النار شررها في النواحي، وظننا الدخان روضة /٣٧٨/ سوسن تخللها نرجس وأقاحي، وعقد الدخان سماءً أخرى، واطلع الشرار فيها كواكب زهرا، وكأن أهل دمشق دعوا طارق النيل والفرات ليُقرى، وخافوا ضلالَهُ فرفعوا له من النار في الظلماء ألويةً حمرا، إلى أن أتاها البحر لا زال نصره عجاجاً، ولا زالت سيوفه تكاثر البحار أمواجاً، فانكشفت لما أن رأت من وجههِ سراجاً وهّاجا، وطفئت لما أن رأت جوده عذباً فُراتا، وبأسه ملحاً أجاجا، وكاثرها بهمم أُمرائه، فأحكم إخمادها، وتلّقى بصدرِهِ من خطب الزمان ما دهي، ولما طلع في روض السماء ياسمين النهار، وعاد اهليلجاً ما رؤي بالليل من الجلّنار، وقف النادبون على الرسوم، ورأوا صنع النار التي عكست نار الآخرة، فكان لكلّ مكان منها جزء مقسوم: [من الطويل]

فلم يدْرِ رسمُ الدارِ كيفَ يُجيبنا ولا نحنُ من فرطِ الجَوَى كيفَ نسألُ[٢]

وأصبح باب الساعات[٣]، وهو من آيات الساعة، وخَلَتْ مصاطب الشهود من السنة والجماعة، وعادت الدهشة وقد آل أمرها إلى الوحشة، وحسنها البديع وقد ثلَّت النار عرشه، كأن لم أر بها سميراً، ولا شاهدت من بنائها وقماشها جنّةً وحريرا، قد سلّط الله عليها النار التي ما لها ردة، وأحرق أزهار ثيابها الملونة بوردة، ونظرت إلى الوراقين وقد زال ما بها من الطرائف، وطاف عليها من الدثور والخراب طائف، فيا ضياع أوضاعها المكوّنة، ويا سواد وجوه أوراقها الملوّنة، ولمحتُ اللبادين[٤]، وقد صارت كالعهن المنفوش، ومُحيت بأيدي النار سطور كل خاتم منقوش، وأصبح أهلها كالحمائم تنوح على أقفاصها، وتودّ اللآلي أنها لم تخرج إليهم من مغاصِها، فما منهم إلاّ رب نعمةٍ سُلِبَتْ أصبح بعد الجديد في خلق، أو غنيّ أمسى بعد ما ضم قفصه يكدي في الحلق، وكادت الخضراء تذهب بالنار الحمراء. قال: فلما رأيت تلك الأطلال الداثرة، ونسخ هاتيك الظلال المتصلة بالهاجرة،

(١) كذا في الأصل، ولعلّها: الناس. (٢) البيت للبحتري (ديوانه: ٣/ ١٧٨٨).

(٣) باب الساعات: الباب الجنوبي للجامع الاموي، سمي فيما بعد باب الزيادة.

(٤) اللّبادين: نسبة إلى عمل اللبود موضع بدمشق، مشرف على جيرون (معجم البلدان ٥/ ١٠).

وخطوطها وزواياها كيف أحاط بها سوء الدائرة، قلت عند مشاهدة / ٣٧٩/ تلك الحال في الحال: [من الطويل]

حريقُ دمشقٍ قدْ بدا لعياني ... ليُظهرَ لي عندَ البيانِ معاني

غَدَتْ نارُهُ في الجوّ تعلُو وترتقي ... كأنّ لها عندَ النجوم أماني

لقدِ ضوأ الآفاق لامِعُ برقِها ... وما كلُّ برقٍ شِمْتَهُ بيماني

وقد كادَ يمحو آيةَ الليلِ ضوؤها ... ويُبدي نهاراً بعدَ ذلكَ ثاني

ونالتْ عنانَ الجوّ حتى رأيتها ... يصرّفُهُ مِنْ تحتِها بِعنانِ

وطالتْ إلى نهرِ المجرّةِ في السما ... لتقصدَ شيءَ الحوتِ والسَّرطانِ

فأبصرَ أهلُ النيلِ لما ترفّعتْ ... نجومَ شرارٍ في سماءِ دُخان

كأن دخانَ النارِ غبراءُ مُغْزِلٌ ... وكلُّ شرارٍ فيهِ مثلُ سِنان

ولو لم تكنْ نار الأعادي لما غَدَتْ ... وحِنّاؤها بادٍ بكلّ بَنانِ

ولا صَبَغَتْ بالزعفرانِ قميصَها ... سروراً ولا طالتْ بكلّ لسانِ

قال: وما نفض الناس غبار ذلك الهدم، ولا رماد ذلك الصدع الشديد الصدْم، حتى وقع بالمدرسة الأمينية حريق ثان، وَدَهَمَتْ شقراء النار دهماء الظلام، ولم يوجد لعنانها ثان، فجمعت بين عين الوداع وسين السلام، وكانت كحمَّى أبي الطيب، فليس تزور الا في الظلام[1]، فيا لسوق الكفت كيف باد، وفتّتَ الأكباد، علكت النار لجمه، وكسفت نجمه، أين بأسه الشديد، ومنافعه التي لا تبيد؟ سكن زبره، ورفع خبره، ويالسوق الخيم كيف ذهب، وعُدم النصر على الكافرين، فتبت يدا أبي لهب، لقد تمسّكت النار بأطنابه، وتجلّد لها والنار تحت ثيابه، وأمسى وكلّ عمود غصنه مهصور، وكل خام وهو على البلى مقصور، كأن الشاعر قديماً تخيّل ما يحصل لها من الأوام، فقال: [من الوافر]

سُقيتِ الغيثَ ايتها الخيامُ

ويالسوق القسيّ كيف محي من الوجود، ونسي، ولم يبق لقوس قلبها، ولم يعطها لباريها ربّها، كأنما كان للنار عند القسيّ أوتار، أو كأن نسخها كان محققاً فجاءهم بقلم الطومار، أو كأن امتهانها كان معلقاً بثلث الليل / ٣٨٠/ بعدما رقّت

---

(١) اشارة لقول ابي الطيب المتنبي: [من الوافر]

وزائرتي كأنّ بها حياءً ... فليسَ تزورُ إلا في الظلامِ

حواشيها، ولم يقع علّيها غبار، فكم قسيّ توفر من النار سهمها، وعظم بوهنها وهمها، واقامتها النار بعد ما كانت حنايا، وأفنت قرنها وما اختلط بعظم أو الحوايا، لم تبطش ولها أيدٍ، ولم تهرب ولها أرجل، ولم تأنّ وهي مرنان، ولم تدفع الأذى عن نفسها، ونفثها يقتل، ولم ينبسط لها إلى الدفع قبضة، ولم تصل إلى غرض ولم ينبض لعرق وترها نبضة، وقد قال لها لسان النار: هل سمعت بهذه الحادثة في ملحمة ابن عقب؟ أو اتصل بناؤها بقوس السحاب فانتظره وارتقب، كيف غفلت عن هذه النازلة، وأنت عدّة قوم قليلاً من الليل مايهجعون؟ وكيف نمت ولا عجب لمن نعس وهو ذو قرون؟ قال: فبينما هما في المناجاة وتكرار المحاجاة إذ جاء النار خبر مالك، واشرف زهيت به الدول والممالك، فجاس خلال ضرامها، ودخل لظاها، فتلقته ببردها وسلامها، وتتبع أثرها الذي آثر اقتلاعه وافتحمها، فتعلّقت إذ تألّقتْ في الجو، والفرار قدام الملوك طاعة، ولم ير تلك الساعة أحد أقرب منه إليها، ولا أسلط سطا منه عليها، وثب في جهاتها مماليكه وأمراؤه، وصغار بنيه وكبراؤه، فهم قوم: [من الطويل]

إذا ركبوا زادوا المواكب بهجةً ... وإن جلسوا كانوا صدور المجالسِ

فلم يرَ أسهل من خمودها، ولا أسرع من إبطال حركتها وجمودها، ونصرٌ أعزّ الله انصار هذه الملّة المحمدية، وحاز بهذه النقبة الكرامة الأحمدية، ولما رأيت مسك هذا الختام وأنّ الجيش تعالى وانحطّ القتام قلت: [من السريع]

جاء ليطفي النارَ مَنْ اسمُهُ ... بحرٌ فأخفى زندَها الواري

ومَنْ يكنْ بحراً فلا غَروَ أنْ ... تطغَى لظًى منهُ بتيّارِ

وقامَ في اللهِ لدفعِ الأذى ... مؤيداً بالقدرِ الجاري

وغيرُ بدعٍ أنْ يردَّ الردّى ... بمُرهَفِ الحدّين بتّار

لأنهُ سيفٌ ولمْ يُدّخرْ ... إلاّ لخطبٍ طارقٍ طاري

واقتحمَ النارَ بوجهٍ حكى ... بدرَ الدُّجى إذْ لاحَ للساري

/ ٣٨١/ فانظرْ إليهِ وهوَ في وسْطِها ... تشاهدِ الجنةَ في النارِ

قال: ولم يزل الناس من أمر هذه النار في قلق، وحدس نفى عن عيونهم القرار، ورمى جفونهم بالأرق، وحنق يودّ الصبح لو تنفّس والفجر معه لو انفلق، حتى أظهر الله تعالى أن النصارى قصدوا الجامع بذلك، وتخيّلوا أن النار تلعب في جوانب دمشق:[من الطويل]

وما الناس إلاّ هالك وابن هالك[١]

وتوهموا أن فعلاتهم المذمومة تغطي مساويها الليالي الحوالك، فعل مَنْ صوّر الصور بيده وعبدها، وكفر بالوحدانية وجحدها، وعكف على الخيانة والخباثة، واعتمد على عقلٍ أدّاه إلى أن الواحد تعالى ثلاثة، فتهيب بعض الناس رميهم بهذا الحجر، وأعظم نسبة هذا الفعل إليهم، وفجر وخوف بانتصار الفرنج لأهل ملّتهم، وإزاحة علتهم، وكشف غمتهم، والأخذ بثار رمّتهم، فقال مَنْ صَدق في إيمانه وكان من انصار الأسلام وأعوانه: [من الوافر]

أعبّادَ المسيحِ يخافُ صحْبي ونحنُ عبيدُ مَنْ خلَقَ المسيحا[٢]

فما كان إلا أن صَمّمت العزمات السيفية، وعمّت بإحسانها الشامل، حتى خلصت النفوس البريئة من هذه (البرية) وايقظت عين حزمها الراقدة: [من الرمل]

واستبدّت مرةً واحدةً[٣]

ورسم بإمساك مَنْ أبرم هذا الأمر وحرّره، وبيت على فعله وقرره، فأقروا بما فعلوا ووجدوا ما عملوا، فَضُربوا بسياطٍ كشطت غلظ الغلظ، من جلدتهم، وأوهنت قوى شجاعتهم وَجَلدِهم، كم فيهم من أسْوَدِ اللمّة فَتَقَ جَلْدَهُ الشيب، وخطّ وخطه على جنبه ما كان مخبوءاً له في الغيب، وأقبل بعضهم يوبخ بعضاً فيما أشار، ويتبرم هذا إذْ يتبرأ ذاك من هذه الآثار، ويتسابوّن فيما بينهم: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾[٤]، ولقد قلت فيهم عند التشفيّ والانكفاء عن عقابهم بما يكفّ الحنق ويكفي: [من الكامل]

حرثتْ جنوبهم وشقّت أرضَها ليلاً فجادَ نباتُها بشقيقِ
وأريد تاريخُ الحريقِ فخطّه الوالي على أضلاعِهم بعقيقِ

ولما أخذ سُحْتَ أموالهم في إيجاد ماأعدموه بفعالهم، نظر في سوء منقلبهم /٣٨٢/ ومآلهم، وتمام المقابلة على تجنيس أعمالهم، وورد المرسوم الشريف بتسميرهم على الجمال وإظهار ما لهذه الملّة القاهرة من هذا العز والجمال، فقضى الله تعالى فيهم أمره، وجعلهم آية لأهل الصليب وعِبْرة، وأخرجوا وطباع

---

(١) من بيت لأبي نوّاس وتمامه:
وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكينَ عريقِ
(٢) البيت لابي العلاء المعري (سقط الزند: ١/ ٢٤٦).
(٣) من قول عمر بن أبي ربيعة لمسلم بن الوليد:
واستبدّت مرةً واحدةً أنما العاجزُ مَنْ لا يستبدْ
(٤) سورة: ص : ٦٤.

الورى على عدم رحمتهم مجبولة، وقدّموا في حلقة الناس فخرج كل واحد منهم بجملٍ وست فحولة، وأقيموا رقباء للشمس كالحرباء فليس لهم من دونها ستر منسبل، وتنوعَ الناس في شتمهم فقال اشبعتمونا شتما ورحنا بالإبل: [من الكامل]

انـظـرْ إليـهـمْ فـي الـجـذوعِ كـأنـهـمْ قـدْ فَـوّقـوا يـرمـونَ بـالـنُّـشَّـابِ
أو عـصـبـةٌ عزمـوا الـرحيـلَ فنكَّـسوا أعـنـاقَـهـمْ أسـفـاً عـلـى الأحـبـابِ

وطيف بهم بياض يومين، ثم أُنْزلوا ليجعل كل سطل منهم دَلوين، فجرّدوا من ثيابهم، وجمل شمل السرور بتمزيق إهابهم: [من السريع]

سـاقَـهـمُ الـبَـغْـيُ إلـى صَـرْعَـةٍ لـلـحَـيْـنِ لـمْ تـخـطـرْ عـلـى بـالـهـمْ
كـمْ أمّـلـوا الـمـكـروهَ فـي غـيـرِهـمْ فـنـالـهـمْ مـكـروهُ آمـالـهـم

وسبق السيف فيهم العذل، وقال كلّ مسلم لمصرعهم:

تـركَـتـنـي أصـحـبُ الـدنـيـا بـلا أمـلِ

وبقيت اشلاؤهم طريحة الحفير، وأُلقوا في جهنّم وبئس المصير.

ومن شعره قوله: [من البسيط]

أدعـوكَ يـامـوجِـدَ الأشـيـاءِ مِـنْ عَـدَمِ وصـانـعَ الـعـالـمِ الـعـلـويّ والارضـي
إنْ كنتَ تعرضُ يومَ الحشرِ لي عملاً فـلا تـقـدّرْ لـهُ طـولا عـلـى عـرضـي

وقوله: [من السريع]

يـاربّ إنْ لـم ألْـقَ مـنـكَ الـرضـا عـمـري وحـاشـا فـضـلـكَ الـغـامـرِ
فـعـنـدَ حـفـرِ الـقـبـر لاتـنـسـنـي يـاحُـسْـنَـهُ نـقـداً مـعَ الـحـافـرِ

وقوله: [من الوافر]

يقولُ الفكرُ لي دنَّستَ ثوبَ الشبا بِ فـي غـداةِ الـشـيـبِ تـتـعـبْ
وتَـغْـسِـلُـهُ بـدمـعـكَ كـلّ وقـتٍ ومـايـنـقـى لأنَّ الـطـبـعَ أغـلـبْ

/ ٣٨٣/ وقـولُـهُ: [مـن الـسـريـع]

لا تـسـألِ الـنـاسَ فـإنـي امـرؤٌ مـاطـابَ لـي عَـرْفٌ مِـنَ الـعَـرْفِ
واقـنـعْ ولا تـجـمـعْ حُـطـامـاً فـكـمْ فـي الـدهـرِ لـلـديـنـار مـن صَـرْفِ

وقوله: [من السريع]

لا تـجـمـع الـديـنـارَ واسـمـحْ بِـهِ ولا تَـقُـلْ كُـنْ فـي حِـمَـى كـنـفـي
مـاالـدهـرُ نَـحْـوِيٌّ فـيـنـجـو الـهُـدى ويـمـنـعُ الـجـمـعَ مِـنَ الـصَّـرْفِ

وقوله: [من السريع]

يا زمناً أوْقعَنا شُؤمُهُ في محنةٍ ليسَ لها كاشفهْ
الفضلُ يحتاجُ إلى عارِفٍ والحالُ تحتاجُ إلى عارِفهْ

وقوله: [من السريع]

لا ترْعَ للملاّق عهداً ولا تُصْغِ لما نمّقَهُ واختلقْ
أنتَ تري ما[قد] جنته يد الرامي على الطيرِ برعيِ المَلَق

وقولهُ مضمّنا: [من الطويل]

يقولُ لنا المقياسُ والنيلُ هابطٌ لنقطعَ آمالَ المُنى والمطالعِ
ومَنْ يأمنِ الدنيا يكن مثلَ قابضٍ على الماءِ خانَتْهُ فُرُوجُ الأصابع

وقوله: [من السريع]

لا تَطْغَ تلقَ الشرّ كالنيلِ إذْ طغى وزادَ الأمرُ في هيجِهِ
كمْ جاءَهُ بالشرِّ شرٌّ إلى أن كسّرَ الاضلاعَ مِنْ مَوْجِهِ

وقوله: [من مجزوء الخفيف]

لِمْ لا أهيمُ بمصر وارتضيها وأعشَقْ
وما ترى العينُ أحلى من مائِها إن تملّق

وقوله: [من البسيط]

لقدْ رأيتُ بمصرٍ مذ حَلَلْتُ بها عجائبا ما رآها الناسُ في جيلِ
تسودّ في عينيَ الدنيا فلمْ أرها تبيضّ إلا إذا ماكنتُ في النيلِ

/ ٣٨٤/ وقوله: [من البسيط]

قالوا: علا نيلُ مصرٍ في زيادتِهِ حتى لقدْ بلغَ الأهرامَ حينَ طَمَى
فقلتُ: هذا عجيبٌ في بلادِكُمْ أن ابنَ ستةَ عشرٍ يبلغُ الهَرَما

وقوله: [من السريع]

قد زادَ هذا النيلُ في عامِنا فأغرقَ الأرضَ بإنعامِهِ
وكادَ أنْ يعطفَ مِنْ مائِهِ عُرًى على أزرارِ أهرامِهِ

وقوله: [من مخلع البسيط]

قدْ حاربَ الريحَ نيلُ مصرِ وعَضَّ مِنْ غيظِهِ الأصابعْ
فجاءت الريحُ بانزعاجٍ كسَّرَ مِنْ موجِهِ الأضالعْ

وقوله: [من الهزج]

وعـيـنٍ مـاؤهـا صـافٍ كـمـثـلِ الـشـمـسِ فـي الأوجِ
ولـم أر قـبـلـهـا عـيـنـاً حـواجِـبُـهـا مِـنَ الـمـسـوجِ

وقوله: [من البسيط]

ركـبـتُ فـي الـبـحـرِ مَـعْ أخـي أدبٍ فـقـالَ: دعـنـيَ مِـنْ قـالٍ ومِـنْ قِـيْـلِ
شَرَحْتَ يابحرُ صدري اليوم قلتُ [له] لا تُـنـكـرِ الـشـرحَ يـانـحـويّ لـلـنـيل

وقوله: [من الكامل]

لـكَ أن تَـغـب شـخـص وذكـر أصـبـحـا مـلـكـيـنِ فـي ذاتـي وذلـكَ لائـقُ
فـخـيـامُ جَـفْـنِـي فـوقَ ذا مـضـروبـةٌ ولـواءُ قـلـبـي فـوقَ هـذا خـافِـقُ

وقوله: [من السريع]

كـأنـمـا الـلـيـلُ إذا مـا دجـا وصـدّ مَـنْ قـلـبـي بِـهِ مُـغْـرى
صـحـيـفـةٌ سَـوْدَا وشـخـصـي بـهِ مِـنَ انـتـحـالـي الـفٌ صَـفْـرا

وقوله: [من الطويل]

أتـانـي وقـد أوْدى الـسُّـهـادُ بـنـاظـري يـمـزّقُ جُـنْـحَ الـلـيـلِ بـارقُ فـيـهِ
فـقـلـتُ لـه: يـاطـيّـبَ الأصـلِ هـكـذا أخـذتَ الـكـرى مـنّـي وعـيـنـيَ فـيـهِ

وقولهُ: [من الكامل]

/ ٣٨٥/ لما رقدتُ أتى خيالُكَ بغتةً فـغَـدَا فـؤادي خـافـقـاً يَـتَـمَـوّجُ
لو أنَّ صحبيْ شاهدوني في الكَرَى والقلبُ يرقصُ في الخيالِ تفرّجوا

وقوله: [من المتقارب]

ضـمَـمْـتُ خـيـالَـكَ لـمـا أتـى وقـبّـلْـتُـهُ قـبـلـةَ الـمُـغْـرَمِ
وقـمـتُ ومِـنْ فـرحـتـي بـالـلـقـا حـلاوةُ ذاكَ الـلّـمَـى فـي فـمـي

وقوله: [من السريع]

عـجـبـتُ إذْ زارتْ عـلـى خُـفـيـةٍ مَـنْ أعـلـمَ الـواشـي بـمـسـراهـا
هـذا فـضـولٌ مِـنْ نـسـيـمِ الـصَّـبـا فـهـوَ الـذي يـنـقـلُ ريّـاهـا

وقوله: [من السريع]

قـلـتُ لـهُ: زُرنـي فـلا بُـدَّ أن يـدري بـنـا الـواشـي ويُـغـرى الـعَـذُول
فـالـريـحُ مـا تـكـتـمُ نَـشْـراً ومـا يَـبْـرَحُ ريّـاك يُـعـانـي الـفُـضُـول

وقوله: [من السريع]

قالوا: وشىٰ الحَليُ بها إذْ مشتْ إليكَ مِنْ قبلِ ابتسامِ الصباحْ
فقلتُ لا خلخالُها صامِتٌ ثُمَّ تذكرتُ فُضولَ الوشاحْ

وقوله: [من الكامل]

علمَ الوشاةُ بأنَّ ريقَ مُعَذِّبي راحٌ يُعيدُ الصَّبَّ بعدَ هلاكِهِ
أمَّا أنا لمْ يبدُ هذا مِنْ فَمِي لكنَّ هذا مِنْ فُضُولِ سواكِهِ

وقوله: [من السريع]

يقولُ لمَّا قُلْتُ: هذا اللَّمَى أسكَرَني لما ترشَّفْتُ فاكْ
سواكَ ماذاقَ لَمَى مبسِمي استغفرُ اللهَ ذكرتُ السواكْ

وقوله: [من المتقارب]

إذا شئْتِ حَليَكِ أنْ لايَشي وقدْ زُرْتِ في الحِندسِ المُظلمِ
فردِّي السوارَ مكانَ الوشاحِ وخلِّي سوارَكِ في المِعْصَمِ

قوله: [من الخفيف]

قالَ لي: لا تفهْ بميلِ قَوَامي إنْ تثنى واسترْهُ خوف العُيونِ
قلتُ: إنَّ الصَّبا التي قدْ أشاعتْ عنكَ هذا الحديثَ بينَ الغُصُونِ

/ ٣٨٦/ وقوله: [من البسيط]

أقولُ ياغصنُ هلاّ مِلْتَ نحوَ فتًى فؤادُهُ طارَ حتى ليسَ يألفُهُ
فقال: مَنْ قالَ: قدّي مثلُ غصنِ نقاً قلتُ: النسيم الذي ما زالَ يعطفُهُ

وقوله مضمناً: [من الطويل]

أقولُ لغصنِ البانِ: إنْ كانَ لم يَمسْ قَوامُك إلاّ بالصَّبا في التنسّمِ
فعارضْ حبيبي حينَ يثنى قَوَامَهُ وقِفْ وِقْفَةً قُدّامَهُ تتعلمِ

وقوله: [من السريع]

يوهمُني مِنْ لينِ أعطافِهِ بأنهُ لمْ يقسُ يوماً علي
ويخدعُ البندَ إلى أنْ غدا يربطُهُ الغصنُ على غيرِ شَي

وقوله: [من مجزوء الكامل]

لمْ أنْسَهُ في روضةٍ والطيرُ يصدحُ فوقَ غُصْنِ
فأُعلّمَ الوُرْقَ البُكا ويعلمَ الغصنَ التثنّي

وقوله: [من المجتث]

يهتزُّ قدُّكَ لِيْناً وفي الحَشَا مِنْهُ غُصَّهْ
يغيبُ عنّيَ حِيناً وإنْ أتى جا برقصهْ

وقوله: [من الخفيف]

أيها الأهيفُ الذي قد تثنَّى عِطْفُهُ والتوى مِنَ اللينِ غُصْنُهْ
لكَ ردفٌ مِنْ وافرٍ وبسيطٍ لا يُرَى في الربى وفي الكُثْبِ وزنُهْ

وقوله: [من المجتث]

يقولُ رِدْفُ حبيبي وعطفُهُ المتثنّي:
ما أنتَ يا غصنُ قَدّي ولا كثيبكُ وَزْني

وقوله: [من الهزج]

لقدْ أضعفني حُزْني وَضَاعَفَ خالقي حُسْنَكْ
فها أنا لمْ أَزِنْ وجْدِي لأني لمْ أجِدْ وزنَكْ

وقوله: [من البسيط]

ألبستُهَا مِنْ عناقي وهيَ نائمةٌ ثوباً يُزَرُّ بلثمٍ غيرِ منفصلِ
ياخجلتا في غدٍ منها إذا أَخَذَتْ مرآتَها ورأت ما أثَّرَتْ قُبَلي

/٣٨٧/ وقوله: [من المنسرح]

يا برقُ بلّغْ رسالتي فَمَهَا إنْ انكرتني فَصِفْ لها عِلَلي
لأنَّ بيني وبينَ مبسِمِها ليلةَ زارتْ علامةُ القُبَلِ

وقوله: [من مخلع البسيط]

قلتُ لهُ: إن بعدتَ عنّي تَفَضْوَلَتْ بيننا العَواذِلْ
أما ترانا لما اعتنقنا مادَخَلَتْ بيننا الغلائلْ

وقوله: [من الوافر]

نظرتُ إلى الرياضِ ولي مجازٌ يُؤديني إلى المعنى الحقيقي
فكمْ أبصرتُ مِنْ آسٍ تبدّى وما اندمَلَتْ جراحاتُ الشقيقِ

وقوله: [من المتقارب]

عذاركَ والطَّرْفُ ياقاتلي يحاكيهما الآسُ والنرجسُ
وقد صارَ بينهما نِسْبَةٌ [فـ] هذا يدبُّ وذا ينْعَسُ

وقوله: [من الخفيف]

إن عيني مُذْ غابَ شخصُكَ عنها يأمرُ السُّهْدُ في كَرَاها ويَنْهىٰ
بدموعٍ كأنهنَّ الغوادي لا تسلْ ماجرى على الخدّ منها

وقوله: [من الكامل]

أمّلْتُ أنْ تتعطّفوا بوصالِكُمْ فرأيتُ مِنْ هجرانِكُمْ مالا يُرَى
وعلمتُ أن بعادَكُمْ لا بُدَّ أنْ يجري له دمعي دَماً وكذا جَرَى

وجاءت شتوة، وشَّحَت بروقها حاشية السحاب، ووشت لمم الجبال الشائبة توشية الخضاب، وهَدَرَتْ رعودها الصائلة، ووفت عهودها السائلة، وتوالت مدّة لا يكشط فيها سماء، ولا يكشف بأيام الثلوج المصبحة ظلماء.

ودامت أياماً لا تفصل فصالها عن سحائب، ولا تولد بكرة يوم إلا وهي في طفولتها شائبة النواصي والذوائب، هذا ولا تصبح صبيحة ضاحك إلاّ ووجْه الأرض عبوس، ومعطف السماء في بوس، وقوس السحاب ترمي بِقسيٍّ ما لها /٣٨٨/ وتر، وغُدر الثلج الصافية كالبلّور وكلّها كدر، والسقوف قد أرّقها المطر فأنهرها، والطرق قد عرفها اللثق ونكّرها، والبرد قد اشتدّ كَلَبُه، ولهذا غطى جمده الماء ولم يشتف حتى شرب العذب البارد ممزوجاً بمثل الدماء.

فكتبتُ إليه:

كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذي أقبل، يرعب مقدمه، ويرهب تقدّمه، ويريب اللبيب من برقه المومض تبسُّمُهُ، وكيف حالُهُ مع رعودِهِ الصارخة وريحِهِ النافخَة، ووجوه أيامِهِ الكالحة، وسرر لياليه التي لا تبيت منها بليلة صالحة، وسحابِهِ وأمواجه وجليده والمشي فوق زُجاجِهِ، وتراكم مطرِهِ الحثيث، وتطاول فرع ليلِهِ الأثيث، ومواقِده السود الممقوتة، وذائب جمرِهِ المحمرّ، وأهون بها ولو أن كل حمراء ياقوتة، وتحدَّر نؤيه المتصبّب، وتحيّر نجمه المتصوب، وكيف هو مع جيشه الذي ماطلّ حتى نصب مضارب غمامِهِ، وظلّل الجو بمثل أجنحةِ الفواخت من أعلامِهِ، هذا على أنّه عرى الأبنية، وحلل مما تلف ذَمُّه سالف الاشتية، فلقد جاء من البرد بما رضّ العظام وأنْخَرَها، ودقّ فخارات الأجسام وفخرها، وجَمَّدَ في الفم الريق، وعَقَدَ اللسان، إلا أنّه لسان المنطيق، ويبس الأصابع حتى كادت أغصانها توقد حَطَبا، وقيّد الأرجل فكانت لا تمشي إلا تتوقع عطبا، وأتى الزمهرير بجنود ما للقوي بها قبل، وحمّل الأجسام من ثقل الثياب ما لا يعصم منه من قال سآوي إلى

جَبَلٍ، ومدّ من السيل ما استبكى العيون إذا جرى، واحتجف ما أتى عليه، وأول ما بدا الدمع بالكرى، فكيف أنت ياسيدي في هذه الأحوال، وكيف أنت في مقاساة هذه الأهوال، وكيف رأيت منها ما شيَّبَ بثلجهِ نواصي الجبال، أو جاء من البحر فتلقف ثعبانه ما ألقته هراوات البروق من عصي وخيوط السحاب من جبال، أما نحن فبين أفواج السحب تزدحم وفي رأس جبل لا يعصم فيه من الماء إلا مَنْ رحم، وكيف سيدنا مع مجامر كانون وشرار برقها القادح، وهمّ ودقها الفادح، وقوس قزحها / ٣٨٩/ المتلوّن، ردّ الله عليه صوائب سهامِهِ، وبدّلنا منه بوشائع حلل الربيع ونضارةِ أيامه، وجعل حظّ مولانا من لوافحِهِ، وما يذكيه ذهنه من ضرامِهِ ومن سوافحِهِ، ما يولّده فكرَهُ من تؤامه، وعَوّضَنا وإياه منه بالصيف إذا أقبل، وأراحنا من هذا الشتاء ومشى غمامه المتبختر بكمه المسبل.

فكتب إليَّ جواباً:

وينهي ورود هذه الرقعة التي هي طراز في حلّة الدهر، والحديقة التي تذكر بزمن الربيع وما تهديه أيامه من أنواع الزهر، فوقف منها على الروض الذي تهدّلَتْ فروع غصونِهِ بالأثمار، ونظر منها إلى الأفق الذي كل كواكبه شموس وأقمار، فأنشأت له أطرابه، وأعلمته أن قلم مولانا يفعل بالألباب ما لا تفعله نظرات الشباب، وأرْشفته سلافاً كورسها الحروف، وكل نقطة حبابة، وشاهد أوصاف هذه الأيام المباركة القدوم، المتصلة الظلام، فلا أوْحَشَ الله من طلعة الشمس وحواجب الأهلّة، وعيون النجوم، فما لنا ولهذه السحائب السحابة، والرعود الصخابة، والبروق اللّهابة، والغمائم السكّابة، والثلوج التي أصبحت بحصبائها حصابة، والبرد الذي أمْسَت ابره لغصون الجلود قطابه، والزميتا التي لا تروي عن أبي ذر، إلا ويروي الغيث عن أبي قلابة، كلّما أقبلت فحمة ظلام قَدَحَتْ فيها البوارق جمرتها، وكلّما جاءت سحابة كحلاء الجفون رجعت وهي مرهاء لما أسْبَلَتْ من عبرتها، فما هذا طوبة[1] إن هذا إلا جبل ثهلان وما هذا كانون، إن هو كنور الطوفان، التي متى قطن هذه الثلوج يطرح على حباب الجبال، وإلى متى تفاض دلاص الأنهار، وترشقها قوس قزح بالنبال؟ وإلى متى تشقق السحاب ما لها من الحلل والحبر؟ وإلى متى ترسل خيوط المزن من الجوّ، وفي أطرافها على الغدران إبر؟ وإلى متى تجمد عيون الغمام وتلحها البروق بالنار؟ وإلى متى نثار هذه الفضّة وما يرى للنجم دينار؟ وإلى متى / ٣٩٠/

(١) طوبة: من شهور القبط.

نحنُ نحنو على النار حنو المرضعات على الفطيم؟ وإلى متى تبكي هذه الميازيب. بكاء الأولياء بغير حزن، إذا استولوا على مال اليتيم؟ وإلى متى هذا البرق تتلوى بطون حياته، وتتقلب حماليق العيون المحمرّة من اسود غاباته؟ وإلى متى يزمجر عتب هذه الرياح العاصفة؟ وإلى متى يرسل هذا الزمهرير أعواناً تصبح بها حلاوة الوجوه تالفه؟ أترى هذه الأمطار تقلب من أزيار؟ ام ترى هذه المواليد تنتهي فيها الأعمار؟ كم من جليد يذوب له قلب الجليد، ويرى زجاجَةُ الشفاف أصْلَب من الحديد، وكم من وحل لا تمشي هريرة فيه الوحى، وكم من بردٍ لا ينتطق فيه نوم الضحى، اللهم حوالينا ولا علينا، لقد أضجرنا تراكم الثياب، ومقاساة ما لهذِهِ الرحمة من العذاب، وانجماع كل عن إلفِهِ، وإغلاق باب القباب، وتخلل الضباب زوايا البيوت والأطفال ضباب الضباب، وكل ضب منهم قد لزم باطن نافقائِهِ، وقدم بين يديه الموت بدايةً بدائِهِ، قد حَسَدَ على النار من كان مذنبا وأصبح عاصيا، وتمنّى أن يرى من فواكه الجمرات عنابا أو قراصيا، فإن كانت هذه الأمطار تُكاثر فضائل مولانا، فيا طول ما تسفح، وإن كانت العواصف تتشبّه ببأسه فيا طول ماتلفح، وإن كانت البروق تحاكي ذِهْنَه المتسرّع، فيا طول ماتتألّق، وإن كانت قوس قزح تتلوّن خجلاً من طروسِهِ فيا طول ماتتأنق، وإن كانت الرعود تحكى جوانح أعاديه فيا طول ماتفهق وتشهق، وإن كانت السيول تجري وراء جودِهِ، فيا طول ماتجري على طول المدى، وما تلحق، والأولى بهذا النوء الباكي أن لا يحاكي، والألْيق بهذا الفصل المبغّض ألاّ يتعرّض، ورحم الله من عرف قدره، وكفى الناس شرّه، وتحقّق أن مولانا في هذا الوجود ندرة.

فأجبته:

وقف لمواقع القلم الشريف، ووقف عليه، وتيمن لمجرّد إقباله إليه، وقبّله لقرب عهده بيديه وعدّه، لجلاء المرّة لما أمرّه على عينيه، لا برح الشهد من جنى ريقه المعلل، والطرب بكأس رحيقه المحلل، والتيه / ٣٩١/ وحاشاه منه في سلوك طريقه المذلّل، والجهد ولو كلّف لا يجيء بمثل سيره المذلل، والسحاب لا يطير إلا بجناح كرمه المبلّل، والروض لا يبرز إلاّ في ثوب زخرفه المجلّل، والبرق لا يهتز إلاّ في مثل ردائه المشلّل، والنصر يفضي لمواضيه على حدّ حسامِهِ المفلّل، والفجر لولا بيانه الوضّاح لما أرشَدَ دليلَهُ المضلل، والبحر لولا ما عرف من عُبابِهِ الزاخر لما ذمّ على غزر المادة نواله المقلّل، والفخر لو شمخ بأنفهِ لا ينافس عقده الموشّح، ولا يتطاول إلى تاجِهِ المكلّل، وفهمه فهام، وعلمه فزاد صقال الافهام، وقصّر عن معرفته فما شك أنّه الهام، وانتهى في الجواب إلى وصف أنواء تلك الليلة الماطرة، وما

موّهَتْ به السحبَ من ذهب برقها، وقتلته الأنواء من خيوط ودقها، ونفخت فيه الرياح من حجر كانونها، وأظهرت حقيقته الرعود من سرّ مكنونها، وما تبثه عارضة ذلك العارض الممطر الذي هو أقوى من شآبيبها، وأوقى مما أرقته[١] السماء من جلابيبها، وأسرى من برقها المومض في غرابيبها، وأسرع من سرى رياحها، وقد جمعت أطواق السحب وأخذت بتلابيبها، وسبح المملوك من عجب لهذه البلاغة التي كملت الفضائل، وفَضَلَتْ عن العلم، وفي الرعيل الأوّل علم الأوائل، وفَضَّلَتْ مبدعها، وحق له التفضيل، وآيته جملة الفضل وفي ضمنها التفضيل، وأنطقت لسان بيانه، واخْرَسَتْ كل لسان، وأَجْرَتْ قلم كرمِهِ، وأحرزت كل إحسان، ونشرت علم علمه، وأدْخَلَتْ تحته كل فاضل، وارهفت شباحَدِّهِ، وقطعت به كل مُناظر وكل مناضل، وقالت للسحاب، إليك وقد طبق إليك، فإن البحر ود جاءك، وللنوء وقد اغدق، تنحَّ فإن الطوفان قد ضيّق أرجاءك، وللرعد وقد صرخ أُسكت، فقد آن لهذه الشقائق أن تسكت وللبرق وقد نسخ آية الليل استدرك غَلَطَكَ لئلا تبكت، أما ترى هذه العلوم الجمّة وقد زخرفها وأثرّ في الألباب سحرها، وهذه الفضائل كيف /٣٩٢/ تَفَنَّنَتْ فنونها، وفَتَنَتْ عيونُها، وتَهدّلَتْ بالثمرات أفنانها، وتزخرفت بالمحاسن جنانها، وهذه الألمعية، وكيف ذهبت الأصائل، وهذه اللوذعية ومأبْقَتْ مقالاً لقائل، وهذه البراعة التي فاضت، وكل منها سكران طافح، وهذه الفصاحة، وماغادرت بين الجوانح، وهذه البلاغة التي سالت بأعناق المطي بها الأباطح[٢]، وهذه الحِكَم البوالِغ، وهذهِ النعم السوابغ، وهذه الهمم التي ترقّت بتوجهها إلى السماء، فكشفت غيابة عارضها، وكفت غواية البرقِ وقَدْ وَلَع خط مشيبه بخط عارضها حتى جلاها وأضحاها، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾[٣]، وجلا صدأ تلك الليلة عن صفحة ذلك اليوم المشمس، وبدّل بذلك الصحو المطبع من ذلك الغيم المؤنس، وأترع غدير ذلك النهار خالصاً من الرنق، وضوّع غير ذلك الثرى خالياً من اللثق، وأطلع شمس ذلك اليوم يوشع جانب مشرقها، ويوشّي بذائب الذهب وراء أفقها، كما قلت: [من السريع]

---

(١) كذا في الاصل، ولعله اراد: أَرَقَّتْهُ.

(٢) من قول الشاعر:

ولما قضينا من منىً كلَّ حاجةٍ ومسّح بالاركانِ مَنْ هوَ ماسحُ
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالتْ بأعناقِ المطيِّ الاباطحُ

(٣) سورة النازعات: ٢٩.

كـأنـمـا الـيـومُ وقـدْ مَـوّهـتْ مـشـرقَـةُ الـشـمـسِ ولا جـاحـدُ
ثـوبٌ مِـنَ الـشـربِ ولـكـنّـه طـرّز مـنـهُ كُـمُّـه الـواحـدُ

استغفر الله بل ذلك بِشْرُ ذلك البشر، بل الملك الكريم وصفيحة وجهه المتهلّل الوسيم، لا بل صفيحة[1] عمله، وصفيحة أمله، وأنموذج راية الثناء عليه، وصنو يده البيضاء، وصنع يديه فلله تلك اليد المقبّلَة، ولله تلك اليد المؤمّلَة، ولله تلك المواهب المجزلة، ولله تلك الراحة التي لاتقاس بأنْملة، ولله ذلك البنان الساحر، ولله ذلك البيان الساخر، ولله ذلك اللسان المذرب، وذلك البحر الزاخر، ولله ذلك الأنسان الذي طال باع عمله، وطار فأوقد ضرام ذلك الصحو شعاع فهمه، وطاب حتى ثَمَره، وجناب حلمه، وطاف الأرض صيتُهُ، ونفق كاسد الفضائل باسمه، لقد ألبس المملوك رداء الفخار، وعرّفَهُ العوم، وكان لا يطمع أن / ٣٩٣/ يشق بحره الزّخّار، ومحا عنه صبغ دجنّة تلك الليلة، وفرج عنه لباس تلك السحب، وقد ضمَّ عليه ذيله، وفرق ذلك النور المعتلج وقد جاراه جفنه، وأجرى مثله سَبله، وأطْلق لسانه من الاعتقال، وانطق بيانه فقال، وحمى له هجير الذكاء فقال، ووقفه ولولا إيقافه له لغيّر على آثاره وجْهَ من سَبَق.

فكتب هو الجواب: [من الكامل]

جـاء الـجـوابُ يـزفّ مـنـهُ فـواضـلا ويـرفّ فـي روضِ الـبـيـانِ خـمـائـلا
أغرقْتَ غُرَّ السحبِ حينَ وصفتَها يـا مَـنْ غـدا بـحـراً يـمـوج فـضـائـلا
لـو لـم تـكـنْ يُـمـنـاكَ بـحـراً زاخـراً مـا أرسَـلَـتْ تـلـكَ الـسـطـورَ جداولا
ضربٌ من السحرِ الحلالِ متى تَشَا أخْـرَجْـتَـهُ فـيـعـودُ ضـربـا داخـلا
مـاإن جـلا راويـهِ بـحـرَ بـيـانِـهِ إلاّ وزانَ مـشـاهِـداً ومـحـافِـلا
فـمـتـى يـرومُ بـهِ الـلـحـاقَ مـقـصّـرٌ والـنـجـمُ أقـربُ مِـنْ مـداهُ تـنـاولا
أبْـرَزْتَـه أفـقـاً فـكـلّ قـريـنـةٍ بـرجٌ حـوى مـعـنـاه افـقـاً كـامـلا
فـكـأنـمـا تـلـكَ الـحـروفُ حـدائـقٌ امـسـتْ مـعـانِـيـهـا تـصـيـحُ بـلابـلا
وكـأنَّ ذاكَ الـطِّـرْسِ خَـدٌّ رائـقٌ والـسـطـرَ فـيـهِ غـدا عِـذاراً سـائـلا
مـهـلاً أبـا الـعـبـاسِ قـدْ أفـحـمـتَـنـي وتـركـتَـنـي بـعـدَ الـتـحـلّـي عـاطـلا
بـاللهِ قـلْ لـي عـنـدمـا سَـطَّـرْتَـهُ هلْ كنتَ تحسبُ أن تجيبَ الفاضلا
أقـسـمـتُ لـو جـاراكَ فـي إنـشـائـهِ مـاكـان ضـمَّ عـلـى الـيـراعِ انـامـلا

(١) كذا في الاصل، ولعله اراد: صحيفة.

حرّكتُ منك حميّة عَدَويَّةً مَلأَتْ فضاءَ الطّرسِ منكَ جحافلا
كمْ فيهِ مِنْ لامٍ كلأمةِ فارسٍ قدْ هزَّ من الفاتِ خطِّكَ ذابلا
هل شئتْ أنْ تُنشي الجوابَ سحابةً تندى فجاءتْ منكَ سيلاً سائلا
يا فارسَ الإنشاءِ رفقاً بالذي نازلتَهُ يومَ الترسّلِ راجلا
لو رامَ أنْ يجري وراءَكَ خطوةً نصبتْ له تلكَ الحروفُ حبائلا
فاحبسْ عنانَكَ قدْ تجاوزتَ المَدَى وتركتَ سحبانَ الفصاحةِ باقِلا
/٣٩٤/ والفاضلُ المسكينُ أصبحَ فنّهُ من بعدِ ماقدْ راحَ فينا خاملا
فاسلمْ لتبليغِ النفوسِ مرامَها فالدهرُ في أبوابِ فضلِكَ ماثلا
كم فيكَ لي أَمَلٌ يروقُ لأنّني أدري بأنك لا تخيّبُ آملا

وكتبت أنا الجواب إليه: [من الكامل]

وافَى الكميُّ بها يهزّ مناصلا ويرومُ صبغاً للشبيبةِ ناصِلا
سبقَ الظلام بها ونبَّهَ ليلَهُ ولو أنّهُ في الفجرِ حلّى العاطِلا
حمراءُ قانيةٌ يذوبُ شعاعُها وترى حصى الياقوتِ فيها سائلا
حمراءُ قانيةٌ تحثُّ كؤوسَها وقع الصوارمِ والويشجِ الذابلا
ذهبيّةٌ ماعرق عانة كرمها لكنّها كفّ الكريمِ شمائلا
كفٌّ لمنبجسِ النوالِ كأنما دُفَعُ السيولِ تمدّ منهُ نائلا
كرمٌ خليليٌّ يمدُّ سماطَهُ ويُشِبُّ ناراً للقِرى وفواصِلا
ولهيبُ فكرٍ لو تطير شرارةٌ مِنْهُ لما بلَّ السحابَ الوابلا
يُذكي بهِ في كلِّ صُبْحٍ قرةً فهما لنيرانِ القرائحِ آكلا
عَجَباً له مِنْ سابقٍ متأخّرٍ فاتَ الأواخرَ ثمَّ فاتَ أوائلا
دانوهُ في شبَهٍ وما قيسوا بهِ من ذا تراهُ للغمامِ مُساجِلا
ماثلْ بِهِ البحرَ الخضمَّ فإنه لا يرتضي خلقاً سواه مماثلا
وافتْ عقيلتُهُ ولو بدأ امرؤٌ فيها استقلَّ مِنَ البروجِ معاقلا
جاءت شبيهَ الخود في حُلَلٍ لها حمرٍ بتذهيبِ الخدودِ لها حُلى
قد خُضّبتْ بدمِ الحسودِ أما تَرَى اثرَ السوادِ بها عليهِ دلائلا
حِلَلٌ على سحبانَ تَسْحَبُ ذَيْلَها وتجرُّ مِنْ طَرَفِ الذيولِ الفاضلا
خلتُ الهلالَ يلوحُ طلع نقابها حتى نَضَتْ فرأيتُ بدراً كاملا

بنت القريحة ماوَنَتْ في خِدْرها ... حُسنُ المليحة أن تواصل عاجلا
جاءتْ تصوغُ مِنَ العِناقِ أساوراً ... لا بلْ تخوضُ مِنَ السيولِ خلاخلا
/٣٩٥/ قبلتُها وأعَدتُ تقبيلي لها ... إنَّ المتيَّمَ لا يخافُ العاذلا
وأتَتْ وجيشُ النَّوْءِ مرهوبُ السطا ... ملأ الوجودَ له قناً وقنابلا
والبرقُ مشبوبُ الضرام لأنّه ... صاد الغزالة حيثُ مَدَّ حبائلا
وأتتْ ورأسُ الطودِ يشكو لِمّةً ... قد عَمَّمَتْ بالثلج شيباً شاملا
وكأنما نثرتْ قراضةَ فضّةٍ ... أيدي البروقِ وقد خرقن أناملا
ملأتْ به كلَّ الفضاءِ فلا تَرَى ... إلاّ لُجَيناً جامداً أو سائلا
والأفقُ كالكأسِ المفضّضِ ملؤهُ ... صهباءُ قدْ عقدتْ حَبَاباً حائلا
أبناءُ يوم قدْ تقهقرَ ضوؤهُ ... وبدا ذُبالاً في الأصائل ناحِلا
والجوُّ منخَرقُ القميصِ كأنّهُ ... حَنِقٌ يقدُّ مِنَ السحابِ غلائلا
والسيلُ منحدرٌ يسيلِ مهندا ... إفْرندهُ ذهبٌ يمدّ سلاسلا
للهِ أنتَ أبا الصفاءِ فإنني ... ألقى خليلا منكَ لي ومخالِلا
أنت الذي حلَّقت صقراً أجدلاً ... وضَمَمْتَ في برديك ليثاً باسلا
يا منْ ينفّقُ سوقَ كلِّ فضيلةٍ ... إسأرْ فما أبقيتَ بعدكَ فاضلا

فكتب هو الجواب: [من الخفيف]

يا فريداً ألفاظُهُ كالفريدِ ... ومجيداً قد فاقَ عبد المجيد
وإمامَ الأنامِ في كلّ علمٍ ... وشريكا في الفِضلِ للتوحيدي
عرفَ العالمونَ فضلكَ بالعلـ ... ـم وقالَ الجهّال بالتقليدِ
مَنْ تمنَّى بأنْ يَرَى لك شِبْهاً ... رامَ نقضاً بالجهلِ حكمَ الوجودِ
طالَ قدري على السِّماكينِ لما ... جاءني منكَ [عِقدُ] دُرٌّ نضيدِ
شابَهَ الدرَّ في النظامِ ولما ... شابَهُ السحرَ شابَ رأسُ الوليدِ
هي امُّ الأمينِ ذاتِ المعالي ... من بني هاشمٍ ذوي التأييدِ
أنتَ كنتَ البادي لمعناهُ حقّاً ... حينَ لوّحتَ ليَ بذكرِ الرشيدِ

* * *

/٣٩٦/ وهذا آخر من ختمنا به أهل قطرنا أحياءً وأمواتاً، ولا حِفلة بمن تخطيناه فواتاً، وإذْ كان هؤلاء أعيان القوم من أول هذه الملّة وإلى اليوم ممن اشتهر

لعلو قدره، أو لغلوّ درّه، وثم بقايا ما حلوا مع أحد هذين، ولا كانوا في قسميها اللذين.

وهذه جملة كافية في الكتاب المشارقة، وإنما أطْلَعْنا من شموسهم شارقة وهي دالّة على ما بعدها من نهار يطنب في الخافقين، ويطيب ملأى النيرين الشارقين.

* * *

آخر السفر الثاني عشر من

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

ويتلوه إن شاء الله تعالى

في السفر الثالث عشر: فأما الكتاب المغاربة، وما لهم من نجوم غير غاربة

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين

وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين

حسبنا الله ونعم الوكيل

* * *

مصادر ومراجع التحقيق

• اتعاظ الحنفا: للمقريزي، ط.د. جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، ١٩١٧م.

• أساس البلاغة: للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، ط. مطبعة اولاد ارفاند، القاهرة ١٩٥٣م.

• أشعار اللصوص: جمع وتحقيق: عبد المعين الملوحي، ط. دار الحضارة الجديدة، بيروت ١٩٩٣م.

• الأعلام: خير الدين الزركلي، ط. بيروت ١٩٧٩م.

• أعيان العصر: للصفدي، تحقيق: د. علي أبو زيد وجماعته، ط. دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م.

• الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، مصورة دار الكتب المصرية والهيأة العامة للكتاب، القاهرة.

•الأمالي: لأبي علي القالي، تحقيق عبد المجيد الاصمعي، مصورة دار الكتب المصرية، ط. المكتب التجاري، بيروت.

• أنساب الخيل: لابن الكلبي، تحقيق أحمد زكي، ط. القاهرة ١٩٦٥م.

• الببغاء: حياته، ديوانه، رسائله، قصصه جمع وتحقيق هلال ناجي، ط. عالم الكتب، بيروت ١٩٩٨م.

• بدائع البدائه: لابن ظافر، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط. المكتبة العصرية، صيدا ١٩٩٢م.

• البداية والنهاية: لابن كثير، ط٣، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٠م.

• بغية الوعاة: للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط. الحلبي القاهرة ١٩٦٤م.

• البلغة في تاريخ أئمة اللغة: للفيروزآبادي، تحقيق محمد المصري، ط. القاهرة ١٩٦٢م.

• البيان والتبيين للجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون، ط. القاهرة ١٩٤٨م.

• تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي، ط. بيروت.

• تاريخ الخلفاء: للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة

المتنبي، بغداد.

• تاريخ الطبري: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧م.

• التطفيل: للخطيب البغدادي، تحقيق د. عبد الله عسيلان، ط. دار المدني، جدة ١٩٨٦م.

• التكملة لوفيات النقلة: للمنذري، تحقيق د. بشار عواد معروف، ط. الرسالة، بيروت ١٩٨١م.

• تكملة المعاجم العربية: لدوزي، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، ط. وزارة الثقافة بغداد ١٩٧٨م.

• تلخيص مجمع الآداب: لابن الفوطي، تحقيق د. مصطفى جواد، ط. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٣م.

• ثمرات الأوراق للحموي: تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧١م.

• الحوادث الجامعة والتجارب النافعة: لابن الفوطي، تحقيق مهدي عبد الحسين النجم، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٣م.

• حياة الحيوان الكبرى: للدميري، ط. انتشارات ناصر خسرو، طهران.

•خريدة القصر: للعماد الأصفهاني (قسم مصر) تحقيق: أحمد أمين وجماعته، ط . لجنة التأليف ـ القاهرة.

• خريدة القصر: للعماد الاصفهاني (قسم العراق) تحقيق: محمد بهجة الأثري، بغداد.

• الدارس في تاريخ المدارس: للنعيمي، تحقيق جعفر الحسيني، ط. المجمع العلمي العربي، دمشق.

• الدرر الكامنة: لابن حجر، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

• ديوان امرىء القيس: تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.

• ديوان البحتري: تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م.

• ديوان بديع الزمان الهمذاني: تحقيق يسري عبد الله، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.
• ديوان أبي تمام: شرح الصولي، تحقيق: خلف رشيد نعمان، بغداد ١٩٧٧م.
• ديوان جرير: بشرح ابن السكيت، تحقيق محمد نعمان أمين طه، ط. الحلبي، القاهرة.
• ديوان جميل بثينة: تحقيق عبد الستار فراج، ط. نهضة مصر ١٩٦٧م.
• ديوان الخالديين: تحقيق د. سامي الدهان، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٩م.
• ديوان ابن الرومي: تحقيق د. حسين نصار، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٧م.
• ديوان الشريف الرضي: ط. مكتبة البيان ببغداد.
• ديوان أبي الشيص الخزاعي: صنعة عبد الله الجبوري، ط. المكتب الاسلامي، دمشق ١٩٨٤م.
• ديوان الطغرائي: تحقيق د. علي جواد الطاهر و د. يحيى الجبوري، بغداد ١٩٧٦م.
• ديوان العماد الاصفهاني: حمع وتحقيق د. ناظم رشيد، ط. جامعة الموصل ١٩٨٣م.
• ديوان القاضي الفاضل: تحقيق د. أحمد أحمد بدوي، القاهرة ١٩٦١م.
• ديوان كثير عزة: تحقيق د. احسان عباس، ط. دار الثقافة، بيروت ١٩٧١م.
• ديوان المتنبي: ط دار صادر بيروت.
• ديوان نصيب بن رياح: جمع وتحقيق د. داود سلوم، ط. مكتبة الاندلس، بغداد ١٩٦٨م.
• ديوان أبي نواس: بشرح حمزة الاصبهاني، تحقيق ايفالد فاغنر، ط. فيسبادن.
• الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن بسام الشنتريني، تحقيق د. احسان عباس، بيروت ١٩٧٩م.
• الذيل على الروضتين لأبي شامة: ط. دار الجيل بيروت ١٩٧٤م.
• ذيل مرآة الزمان: لليونيني، ط. دار الكتاب الاسلامي، القاهرة ١٩٩٢م.
• رسائل بديع الزمان الهمذاني: بشرح الاحدب، دار التراث، بيروت.
• رسائل الصابي والشريف الرضي: تحقيق د. محمد يوسف نجم، ط. مطبعة

حكومة الكويت ١٩٦١م.

• الروضتين في أخبار الدولتين: لابي شامة، تحقيق ابراهيم الزيبق، بيروت ١٩٩٧م.

• سنى البرق الشامي: للبنداري، تحقيق د. رمضان ششن، ط. دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧١م.

• سير أعلام النبلاء: للذهبي، ط. الرسالة، بيروت ١٩٨١م.

• سيرة السلطان جلال الدين منكوبرتي: للنسائي، تحقيق ضياء الدين موسى تونيادوف، ط. موسكو ١٩٩٦م.

• شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي، بيروت.

• شروح سقط الزند: للتبريزي وغيره، لجنة إحياء تراث أبي العلاء، ط. القاهرة.

• شعر الخوارج: جمع وتحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٢م.

• شفاء القلوب: للحنبلي، تحقيق د. ناظم رشيد، بغداد ١٩٧٨م.

• صبح الأعشى: للقلقشندي، ط. المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٣م.

• الطالع السعيد: للأدفوي، تحقيق سعد محمد حسن، ط. الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٦م.

• العبر في خبر من غبر: للذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٨٤م.

• العقد الفريد: لابن عبد ربه الاندلسي، تحقيق أحمد أمين وجماعته، ط. لجنة التأليف، القاهرة.

• عيون التواريخ: لابن شاكر الكتبي، تحقيق د. نبيلة عبد المنعم داود، بغداد.

• الغيث المسجم: للصفدي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥م.

• الفهرست: لابن النديم، طبعة الاستقامة، القاهرة.

• فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي، تحقيق د. احسان عباس، ط. دار صادر.

• القاموس المحيط: للفيروزآبادي، تحقيق نصر الهوريني، ط. الحلبي ١٩٥٥م.

• قلائد الجمان: لابن الشعّار (نسخة السليمانية ـ استانبول) نشرة فؤاد سزكين، ألمانيا ١٩٩٠م.

• مجمع الامثال: للميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. السنة

المحمدية، القاهرة ١٩٥٥م.

• المختار من رسائل الصابي: تحقيق شكيب ارسلان، ط. دار النهضة الحديثة، بيروت.

• المختار من شعر بشار: للتجيبي، تحقيق محمد بدر الدين العلوي، ط. لجنة التأليف، القاهرة ١٩٣٤م.

• المختصر المحتاج إليه: للدبيشي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.

• معاهد التنصيص: للعباسي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط. عالم الكتب بيروت ١٩٧٠م.

• معجم الأدباء: لياقوت الحموي، بيروت.

• معجم البلدان: لياقوت الحموي، ط. دار صادر بيروت ١٩٧٠م.

• منتهى الطلب من أشعار العرب: لابن ميمون، تحقيق د. محمد نبيل طريفي، ط. دار صادر بيروت ١٩٩٩م.

• المنهل الصافي: لابن تغري بردي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيأة المصرية العامة ١٩٨٥م.

• المؤتلف والمختلف للآمدي: تحقيق عبد الستار فراج، ط. الحلبي، القاهرة ١٩٦١م.

• النجوم الزاهرة: لابن تغري بردي، مصورة دار الكتب المصرية.

• النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة: لابن سعيد، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة ١٩٧١م.

• نكت الهميان: للصفدي، تحقيق أحمد زكي، ط. الجمالية، القاهرة ١٩١١م.

• نهاية الارب: للنويري، مصورة دار الكتب المصرية والهيأة المصرية العامة.

• الوافي بالوفيات: للصفدي، بإشراف جمعية المستشرقين الالمانية، بيروت.

• وفيات الاعيان: لابن خلكان، تحقيق د. احسان عباس، ط. دار صادر بيروت ١٩٦٩م.

• يتيمة الدهر: للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. دار الفكر بيروت ١٩٧٣م.

* * *

فهرس المحتويات